طبعة جديدة

الصافي سعيد

جيوبوليتيك الدّم

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة



منشورات سوتيميديا

الصافي سعيد

«إما أن ينفجر الماء أو
يتفجر الدم.. هذا في السرد
الإبراهيمي الأول.

في السرد الإبراهيمي
الثاني: فإما أن ينفجر النفط
أو يتفجر الدم».

الآن، لقد انفجر النفط
وتفجر معه الدم.

المؤلف

جيوبوليتيك الدّم

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

جيوبوليتيك الدّم

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

الطبعة الثانية: تونس - جانفي 2016

الطبعة الأولى: تونس - بداية أكتوبر 2015

الناشر:

شركة سوتيميديا SOTUMEDIAS

SOTUMEDIAS

المقر الرئيسي:

85 شارع بالفي– تونس

صندوق بريد: 570 تونس حشاد

تونس 1049

الهاتف: 31400756 (00216) الجوال: 97126757 (00216)

الفاكس: 32400756 (00216)

البريد الإلكتروني:

contact@sotumedias.tn

ر.د.م.ك:

978-9938-918-00-7

منشورات سوتيميديا

الطباعة:

المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب - تونس

لحساب شركة سوتيميديا

الصافي سعيد

جيوبوليتيك الدّم

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

منشورات
سوتيميديا

المقدمة

حفل شواء بشري
في الصحراء العربية

«الأرض صحن من اللحم موضوع على المائدة، يقطع منه الإنسان ما يشتهي. وما إن يضع القطعة في صحنه حتى تصبح له. كذلك إذا اقتطعنا بلدا ما من الأرض، فإنه يصبح لنا».

- أنسيلوت اندراوس
Laucelot ANDREWES
سياسي وأسقف بريطاني (1626-1555)

هيّا، تفضلوا.. لا تتأخروا. هذه هي مائدة العرب الدوارة.. مليئة بكل الأطايب والبهارات والأفاويه.. إنها وليمة القرن الواحد والعشرين.. لقد مضى قرن بكامله ونحن نعد لهذه الوليمة.. آخر وليمة كانت في مفتتح القرن العشرين.. ولا شك أنها كانت أيضا عظيمة، بإمكان أبائكم أو أجدادكم أن يخبروكم عنها.. لا أرحم ولا أكرم من العرب في هذا العالم. إنهم يقطعون رؤوس مواشيهم وأبقارهم وجمالهم في لمح البصر حين يداهم ليلهم ضيف أو عابر سبيل. إنهم يبيتون هم وأطفالهم على الحصى ولا يبخلون بكل ما ملكت أيمانهم على الضيف. فنحن أمة تحضن الغرباء حتى ولو كانوا بخلاء أو غير شرفاء أو غير كرماء..

هيا.. تقدموا.. لقد حضر الآن الطباخون والغلمان والفراشون وجميع طواقم الذبح والسلخ.. تقدموا هناك خيمة للحاخامات وأخرى لأصحاب الياقات وثالثة للأغوات والباشاوات وأصحاب العمائم والطرابيش.. وهذه هي قائمة الطعام..

هذا حساء عراقي برائحة النفط وقد قدّ بلحم الفراخ المذبوح بسكاكين أمريكية على الشريعة الإسلامية.. ومن يريد مرق القريدس المملح والمطمور في خوابي بيروت يمكنه أن ينال ذلك في الحين.. ولقد أخرجنا لكم من خوابي دمشق والأندلس السمك المملح وأفخاذ الجديان القبرصية التي كانت جزءا من مؤونة الفينيقيين.. أوصيكم ألاّ تكثروا

من الحساء أو السلطات البحرية، فهناك وراءكم طباخون يعدون رؤوسا بشرية تتدلى فوق النار على الطريقة العثمانية.. هناك في ذلك الربع من صحراء الأنبار العربية، ثمة لحم بشري محمّر ومرشوش بزعفران إيران وسمك نهري محشو ببهارات أفغانستان.. تقدموا.. أنتم أيها الأوروبيين.. مرحبا بكم في بلاد الله والنفط والشواء.. لكم أن تجربوا هذا المنسف الحجازي المسقي بكاري حضرموت والمسقف بلحم أطفال عدن.. لا شك أنكم تذكرون روائح اللحم البشري حين تاهت سفنكم في البحر وهي تتاجر بالعبيد أو حين تهتم في غابات الأمازون البعيدة.. أجدادكم اكتشفوا البطاطا لدى الهنود. وحين جاءوا أكلوا كل البطاطا لوحدهم، وقد تم قليها بشحم الهنود. لا أحد من مؤرخيكم قد تحدث عن كوابيس أو عن عسر هضم، بل كل المؤرخين تحدثوا عن الإلهامات النبيلة وعن روح التضامن والقداسة.. ومن يملك معدة صلبة.. ننصحه بهذا الهامبورغر الأمريكي من لحم الإبل الليبي أو بقصعة البزين الأمازيغي المعجون من طحين الشعير والمخلوط بحلمات النساء، أو بالفول المدمس السوداني. أو بذلك البرياني المزعفر والمعدّ بلحم الصبايا الكاشار والمقدد. لا تنسوا طواجين البرقوق والدجاج الفاسية والمراكشية وكذلك طواجين الهامور الخليجية.. لا تذهبوا بعيدا حين تنتهون من المشاوي.. ثمة شراب ومثلجات وشاي ومكعبات تحلية في انتظاركم تحت تلك الخيام المكية.. هذا شراب لم يكن يشربه إلا سادة الفراعنة من أجل الخلود، إنه أكسير الحياة المصنوع من طحين الأجنة.. وهذا شراب آخر كان لا يغيب عن طاولات سلاطين بني عثمان مصنوع من حليب الغزلان النجدية ومخلوط بعسل صنعاء.. أما هذا فهو عصيد الفستق الحلبي بالباذنجان السوداني.. هذه أيضا الكنافة النابلسية المشحرة بعسل نهر الأردن وهذه الزلابية الحلبية المشبكة بعناية البُحتري.. ولا تنسوا أن تتذوقوا التمور التونسية والجزائرية المحشوة باللوز القيرواني.. لا تنسوا أيضا أيها السادة، لدينا أيضا لمن يريد القهوة الأرابيكا والقاط اليمني والقنب المغربي والبعلبكي.. وكذلك رقصات الخيول العربية مع ماجدات النجوع العربية.. وكذلك بعض المعلّقات لمن أصبح يتقن لغتنا.. لغتنا المبهمة والمعقدة، لغتنا المقموعة والتي لم تعد تصلح لغير البكاء والرثاء.. في هذه الأرض التي باتت أرض شواء وهباء ودماء!..

*** *** ***

لاتزال المأساة العربية تمشي على قدميها وإن كانت تتكئ على عصا كما هي حالة الشيخ مصطفى.. قبل عامين كنت قد التقيت بالشيخ مصطفى الذي تجاوز المئة عام بعام في الأردن.. كان قد جاء لاجئا من سوريا ليسكن عند أحد أحفاده. كان لايزال يتمتع بجميع حواسه. أردت أن أخفف عليه تعب الزمان فقلت له: «يا شيخ مصطفى إنك تبدو أكثر شبابا من حفيدك». فردّ علي مازحا: «لا تسأل عن عمر الذين أكلوا لحم الإبل ولحم الإوز». وسألته: «ما الذي تغير في حياة العرب اليوم بالمقارنة مع القرن الذي مضى».

فقال: «لم يتغير شيئا.. أنا فقط كبرت.. ولكن كل ما يحدث اليوم قد وقع البارحة».. ثم أضاف: «حين كنت شابا أخذوني الأتراك في عهد جمال باشا لأقاتل ضد الأنكليز والفرنسيين. بعد نحو عام هربت من الجبهة التركية بعد ما راح جمال السفاح ينصب المشانق في بلاد الشام، وانضممت إلى الثورة العربية الكبرى للقتال ضد الأتراك. بعدما انتهت الحرب لم نجد لا الدولة العثمانية ولا الدولة العربية.. كان الأمر سرابا. تزوجت كما يفعل العائدون من الحرب ثم أنجبت نصف دزينة من الأبناء. وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية أصبح أكبر أبنائي «هشام» من جنود فرنسا لمقاتلة ألمانيا.. (لاحظ الأب قاتل مع ألمانيا والابن ضد ألمانيا). في حرب أكتوبر 73 قاتل حفيدي ابن هشام ضد إسرائيل ثم أصبح ضابطا في قوة الردع بلبنان.. (إنه لأمر مذهل أن يحارب الشخص نفسه على جبهتين متعارضتين ضد إسرائيل ثم ضد الفلسطينيين أو اللبنانيين).. والآن لو سألتني عن حفيد ابني، فإني سأقول إنه يقاتل مع الجيش السوري بينما ابن عمه (أي حفيدي الآخر) يقاتل مع جبهة النصرة.. هل رأيت كيف يمكن أن تختصر عائلة واحدة مأساة العرب في قرن!».

لايزال ذلك القرن اللعين يمتد ويتمدد في القرن الذي تلاه. ولازال العرب ينتقلون من مذبحة إلى مذبحة يبحثون عن نقطة العبور إلى النظام المتمايز، النظام الذي يخرجهم من السرد الإبراهيمي المتكرر. لقد كانت الذبائح أداة عظيمة للحفاظ على نظام الدين ولاتزال إلى الآن هي الأداة المتميزة لصناعة هذا النظام المتمايز!.. على رأي رينيه جيرار.

لقد حارب العرب (مشرقا ومغربا) مع الأتراك وضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى.. كان عدد الجنود الذين قاتلوا مع العثمانيين نحو 300 ألف وبلغ عدد الذين قاتلوا ضدها نحو 200 ألف.. وفي النهاية استيقظ هؤلاء وأولئك على خوازيق أوروبية (سايكس /بيكو ووعد بلفور). كانت تلك جائزة المنهزمين، ولكن جائزة المنتصرين لم تكن أقل فضاعة.. ثم حارب العرب ضد أوروبا ومع أوروبا (عرب مع دول المحور وعرب مع الحلفاء) في الحرب العالمية الثانية. بلغ عدد ضحايا العرب من الجانبين أكثر من مليون ولكن في نهاية الحرب لم ينل (المنتصرون والمنهزمون معا) شيئا مقابل تضحياتهم، بل كان عليهم أن يقدموا جزءا من أرضهم لحل» معضلة» أوروبية تسمّى اليهود. لم تفصل إسرائيل بين مشرقهم ومغربهم فقط بل عمقت الجروح إلى ما تحت اللحم وأصابت روحهم بالذبول ثم ساقتهم إلى جبهات الحرب الباردة، فأصبح العرب (أنظمة ومعارضة) يحاربون مع الشرق والغرب. انقسموا إلى معسكرين متضادين وفضائين متعارضين وباتوا كما لو أنهم مخلوقات آدمية أدمنت على شرب الدم والسير في الطرقات المظلمة.. انتهت الحرب الباردة في جميع أصقاع العالم، لكنها استمرت تتناسل في بلاد العرب حتى أصبحت أهلية. والآن ها هم العرب الذين قاتلوا مع هؤلاء وأولئك، قد نقلوا الحرب

إلى ديارهم. إنهم يحاربون أنفسهم بأنفسهم بدمائهم وثرواتهم وعلى أرضهم وبسلاحهم وإسلامهم من أجل أهداف أخرى لدول أخرى.

*** *** ***

لم يتخلص تاريخ البشرية بعد من ثقل الدين.. ليس ثمة من عودة للدين، بل الدين لايزال يوجه الشعوب والسياسات والأساطيل. تبدو أوروبا وكأنها تجاوزت المسيحية، ولكن، ها نحن نراها متورطة في معركة الإسلام واليهودية ومعها بقية العالم. إن كلمة الشرق الأوسط في أوروبا تحيل الأوروبيين مباشرة إلى حرب الأديان وأرض الأديان. وليست أمريكا التي تأسست على يدي «طهوريين» أوروبيين، ببعيدة عن «لغة الله» منذ ابراهام لنكولن إلى حسين أوباما. فلطالما استعانت بالله من أجل التغلب على الأشرار ولم تكن النازية أو الشيوعية إلا أنظمة شريرة يلزمها الكثير من الإيمان للتغلب عليها.. الفيلسوف الألماني ليو ستروس تساءل في السبعينات «ما إذا كان أفضل للبشرية لو عادت إلى التشريعات الدينية؟. نطق ليو ستروس بذلك السؤال من فرط الهول الذي أحدثته الثورة الفرنسية والعلمانية!. فقد ظل يعتقد أن الحربين العالميتين الأولى والثانية وما سبقهما وما لحق بهما، كان من إنتاج هذه الثورة التي هي أصل المشكلة.. قد يكون ذلك من باب المبالغة كما يردّ عليه جورج قرم (في كتابه الأخير «من أجل قراءة مدنسة للصراعات») بقوله: «أن أصل حرب الإبادة كالكولاغ أو النازية قد توجد في حروب الأديان. ولكن حروب الأديان في واقع الحال ليست إلا حروب جيوبولتيكية يخوضها العلمانيون - بإسم الدين».

لنقل أن السياسات الخالية من الأخلاق والمبادئ تستعين بكل الشياطين وتجد مبررات كبيرة لإقحام الله في السياسة وتتبنى أطروحات رجال الدين إذا كانت قادرة على تغطية أهدافهم ومصالحهم.. وسواء كانت أمريكا تؤمن بإله واحد أو بأكثر من إله، فإنها لم تتأخر أبدا في استخدام الدين وهي تصنع ملحمتها التاريخية.. ففي الشرق الأوسط الكبير غالبا ما تحالفت مع الأنظمة ذات التوجه التيوقراطي (إسرائيل والسعودية والباكستان) ثم حاربت جنبا غلى جنب مع أحفاد ابن تيمية في أفغانستان وتعاونت مع أبناء حسن البنا في مصر والعالم العربي وأبناء المودودي في الباكستان.. واستمرت تلك التحالفات المشبوهة المراوغة لأكثر من قرن وهي تدخل اليوم مرحلة أخرى أكثر ضراوة وسوادية فيما يشبه السرد الإبراهيمي الأول أو في ما يشبه «كنعنة جديدة» لبلاد الشرق الأوسط. ففي كتابه: «أمريكا والإبادة الثقافية» يشير الكاتب منير العكش، «أن الإمبراطورية الأمريكية المؤمنة بعقيدة الاختيار الإلهي لا تعيش بدون صورة من صور الكنعنة. وهي لا ينتابها الشك في أخلاقية الحق في القتل والإغتصاب والإستعباد، لأن اعتقادها راسخ في أن الآخر من الشعوب أو الأعراق الأضعف هو تجسيد للكنعاني الملعون والمستباح».

هذا الكنعاني الملعون والمستباح لايزال موجودا في أرض العرب. إنه يقاوم ضد الإبادة ولكن بأسلحة قديمة ولغة قديمة، وهذا ما يجعل منه عدوا مخيفا ومفترسا. فقد تم شحنه بكل ما هو مناهض للحداثة والتقدم ثم وقفوا إلى جانبه ولازالوا من أجل أن تصبح أرضه هدفا للغزو والتقسيم والإستباحة. لم يعد الباحثون في الغرب وكذلك وسائل إعلامهم، مهتمون بسوسيولوجيا مجتمعات الشرق من عرب وفرس وأتراك، ولكنهم أصبحوا بحاثة يتسابقون في تفسير الأديان وتوضيح اللاهوت ورسم الخرائط الدينية والجينية وتبيان الفوارق بين المذاهب والأقليات والتشيّعات!.. لقد باتوا اختصاصيين في الفقه الإسلامي وفي السلفيات وتاريخ المذاهب وحروب الاجتهادات والفتاوي، كما لو أنهم عادوا إلى هرطقات القرون الوسطى تحت ضغط أو إغراء «الصدام الحضاري». أما السياسيون والجنرالات فهم لا شك أنهم يجدون متعة كبيرة في السيطرة على الأرض والثروات لإعادة توزيعها بما يحفظ لهم القوة تحت غطاء الهرطقات الدينية!.. إن الغرب ما انفك يتهود ويتمسحن منذ أن تصالحت المسيحية مع اليهودية.. فالعقل الإغريقي/الروماني قد وقع تحطيمه على مذبح الهيكل اليهو-المسيحي. وفيما كانت المسيحية هي عدو اليهودية (العهد القديم)، حلّ الإسلام مكانها وأصبح هو العدو الكبير للعالم اليهو-المسيحي..

لم يكن ذلك التحول من اختيار المسلمين، بل كان من اختيار الزواج المسيحي/اليهودي الذي تدرجت قصته منذ عصر الحداثة. ولقد كان -الهولوكست - هو حفل الشواء الكبير الذي أقامه هؤلاء المسيحيون الغربيون لليهود من اجل تعميدهم وتطهيرهم من الدنس الرباني بقتلهم للمسيح. لذلك فإن حفل الشواء الكبير الذي تعيشه الصحراء العربية الآن قد يكون بمثابة الإعلان غير المعلن عن زواج أرض العرب والإسلام مع الجنرالات الكهنة والجنرالات الحاخامات. (ألا نرى بأم أعيننا كيف أن إسرائيل وأمريكا تدعمان التيارات الإسلامية والدول ذات التوجهات الإسلامية؟).. وإلا كيف نفسر لأنفسنا ولغيرنا دعم أمريكا والغرب لجبهات مثل «النصرة» و«جند الله» وداعش وهي مصنفة إرهابية، ضد النظام في دمشق؟ وكيف يمكن لها أن تدمر بلدا بكامله مثل ليبيا أو اليمن أو العراق، لتمنحه في النهاية لداعش أو القاعدة؟. إن المأساة لا توجد في تلك السياسات الغربية اللاأخلاقية، وإنما توجد في الغرب ذاته الذي يسير نحو الانحطاط دون أن يجد من يرده إلى رشده (أزوالد شبنغلر).. فهو يكاد يكون خاليا من الديمقراطيين الحقيقيين، فيما هو يعج بالديمقراطيين المزيفين، ماسحي الأحذية والدموع والذنوب، والأعداء الحميميين للديمقداطية على رأي «تودوروف»!!..

*** *** ***

لقد كنت حريصا في الفصل الأخير من هذا الكتاب (صراع الجيوبولتيك: المجالات، الإيقاعات والاتجاهات) على عدم إهمال الفجوة الرقمية والهوة المناخية والهجرة السرية،

كمهددات وفي نفس الوقت كأدوات حاسمة في الصراع الدولي، وفجأة تهاطلت صور اللاجئين الغرقى والناجين من عذابات البر والبحر.. أصبحت صورة الطفل الكردي - ايلان - وصمة عار على جبين كل من تسبب في تلك الدياسبورا الجديدة. وقد اتخذها سياسيون منافقون مبررا لفتح حدودهم أمام المبعدين والمهمشين والمعذبين من بلاد الشام. ثم تطايرت شظاياها في نقاشات طويلة تتسم بالجبن والنذالة لدى بعض المثقفين الغربيين. وتلقفها السفاح برنار هنري ليفي ليجعل منها «أيقونة» للتمدن الغربي والغفران المسيحي، فتصدى له فيلسوف شاب من أنصار نزع الحجاب عن أكاذيب الغرب، هو: «ميشال أونفري» طالبا منه: «الصمت.. والإختفاء عن الأنظار. فبرنار ليفي هو آخر من يحق له الكلام في هذا الموضوع».. إن هنري كسينجر البالغ من العمر أكثر من 90 عاما هو أيضا يتوجع من أجل الطفل ايلان، ولكنه لايزال يعتقد بأن تكسير عظام سوريا لا يتم إلا بسحب شبابها ومهاراتها!..

وما قاله السياسي البريطاني «توماس مكولاي» منذ القرن الـ19 «لا أظن أبدا أننا سنقهر هذا البلد (الهند) ما لم نكسر عظام عموده الفقري التي هي اللغة وتراثه الروحي».. لازال يؤمن به جنرالات أمريكا وسياسيوها القدماء والجدد.. فالأبله هو وحده الذي يصدق دموع التماسيح، والأحمق هو وحده الذي يعتقد بأن أولئك المهاجرين والباحثين عن الحياة في أوروبا قد قرروا الهجرة بأنفسهم ونظموا عملياتها بأنفسهم! فالأجدى أن يقال: أن الغرب الذي كان يسلح ويرسل بمقاتليه وجنوده إلى سوريا طيلة السنوات الماضية هو نفسه الذي يقف وراء هذه الهجرة السرية والمنظمة جدا.. فإذا لم يقدر أولئك «المجاهدون المهاجرون» على تكسير عظام سوريا، فلعل إفراغها من مهاراتها وشبابها وتدمير تراثها الروحي، يكون أكثر جدوى. فحين فشلت معادلة «الوطن مقابل الديمقراطية» ها هم يعودون إلى المعادلة القديمة: «الأرض مقابل الحضارة أو التمدين».. «فلنضع في أيدي أطفالهم الكتاب المدرسي والمجرفة.. وعندما تتنور عقولهم وتتسع آفاقهم سيصبح الكتاب المقدس كتابهم واللغة الأنكليزية لغتهم ويصبحون عناصر مفيدة في المجتمع الذي سيقبلهم».. إن انجيلا ماركيل لا تخفي ذلك أبدا. فهي لم تفعل ذلك إلا لأنها لاتزال متحالفة مع أوردغان باشا.. أو لم يفعل ذلك الألمان في الحرب العالمية الأولى بالتحالف مع جمال باشا السفاح؟.. إن انجيلا ماركيل لتستحق فعلا لقب «الحاجة نجلاء خير الله» تماما مثلما أطلق على القيصر الألماني فيلهايم الثاني خلال الحرب العالمية الأولى لقب «الحاج فيلهايم الولي الصالح» أو مثلما أطلق على هتلر قاهر الفرنسيين والأنكليز، لقب «الحاج العادل هتلر»!.

*** *** ***

لا نعرف الآن ما الذي سيقوله التاريخ البعيد عما نعيشه اليوم بإرهاق شديد. إن تاريخنا الآني وإن كان ساخنا ومتدفقا، فهو لا يكشف كل الحقائق ولا يفتح على الاتجاه

الذي سيكون قد شقه إلى الأمام. ليس بإمكاننا أن نتوقع أو نرصد كل الاتجاهات ونحن لا نهيمن لا على الإيقاعات ولا على الإرادات، ولكن بإمكاننا أن نخبر مؤرخينا القادمين أن معاناة جمع الحقائق صعبة وأن التفاصيل كثيرة ومهولة وأن التجاذبات عنيدة وأن درجة التزوير عالية وأن المعلومات متدفقة وغير دقيقة وأن المراوحات والمراوغات مشبوهة وأن الشهادات مشبعة بالشعبوية حينا وبالانتقائية أحيانا.. وهذا كله يقودنا إلى القول أن نهايات أي حدث لا تصبح تاريخا إلا حين يصبح «كتلة باردة» بين أيدي المؤرخين..

بإمكاننا أيضا أن نخبر مؤرخينا القادمين، أنه بعد «الربيع العربي» الذي أصبح بسرعة حفلا لشواء اللحم العربي على نار الدين والديناميت والبترول، صار كل شيء مستهجنا وغير بريء وغير نظيف: العمل، الإيمان، الأخلاق، الأوطان، الإنتماء للثورة، العنفوان، الشغف بالتغيير، الحديث عن الهوية أو الديمقراطية. لقد تمت شيطنة كل شيء. الكل يهاجم الكل، والكل يتهم الكل: الثوريون يهاجمون الثوريين والرجعيين. والرجعيون يهاجمون الثوريين والعلمانيين والإسلاميون يهاجمون الإسلاميين.. ومن بلد عربي إلى بلد عربي آخر غرقنا في الدم وفي السخرية من أنفسنا وفي النفايات وعدنا إلى الماضي البعيد والغريب نستنطقه ونحرضه على مستقبلنا وسط الشماتة والشوفينية وادعاء الإستثناء!.. باختصار، لقد كان العقل خداعا. أما الغريزة فهي مبهمة!..

في هذا الكتاب الذي بين أيديكم «جيوبولتيك الدم: التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة» تابعت رحلة ما يسمى بالتاريخ العربي الحديث. لقد رأيت أن تاريخ العرب ما بعد كولومبوس ظل أسيرا وتائها ولم يعرف كيف يتحرر من الأسر إلا بالإرتهان إلى أسر آخر. وإن هذا التاريخ الذي يفتقد إلى الروح والعقل والإرادة والقوة لن يتحول إلى قاعدة بناء ما لم يهيمن على مجاله الحيوي ويحصن جغرافيته المتصدعة ويقيم نظامه الإقليمي والجيوبولتيكي. فالإقليم العربي الآن ليس مسرحا للاعبين الكبار فقط (دول)، بل هو بداخله مسرح آخر للاعبين ما تحت الدولة مثل داعش ودامس والقاعدة والبشمركة وأنصار الشريعة والسلفيين وجماعات الإرهاب والعشائر والطوائف والهويات المتقاتلة. إن العالم العربي الذي قد يكون عرف السلطة في جميع تجلياتها العنيفة، لايزال لم يعرف معنى الدولة. فلازالت الدولة العربية عبارة عن أجهزة أمنية أو عسكرية متضامنة وقت السلم، أما إذا فقد التضامن، يسقط النظام ثم تسقط الدولة.. اكتشفنا ذلك مع العراق ثم مع ليبيا ثم في سوريا ثم مع اليمن، وكدنا أن نرى ذلك في مصر وتونس، حتى أن نظرية الأمن الإسرائيلي الجديدة لم تعد تعني بتفوق الأسلحة من أجل إحراز النصر وإنما في إحراز النصر بلا حرب، بتفتيت الجيوش العربية ومن ثم تفتيت المجتمعات العربية من الداخل..

لقد أصبح العالم العربي عالما من الفوضى: جغرافيات متصدعة، قتال أهلي، دول فاشلة، ميليشيات إرهابية، كيانات دينية ما فوق الوطنية، جيوش عالمية، فراغات

سياسية وأنابيب حمراء عابرة للحدود ومذاهب فقهية وطائفية تعمل بالتنسيق مع جمعيات ومراكز غير حكومية.. وبهذا كله فهو أرض هباء وشواء في زمن العولمة المفتوح على كل الأزمنة!..

هل علينا أن نستعد لحرب عالمية ثالثة تنطلق من أرض العرب على أرض العرب؟ هل علينا أن نفتح نوافذنا وأبوابنا لاستقبال قرن شرق أوسطي جديد يفرض استحقاقات دراماتيكية عميقة على كل مكوناته السياسية محليا وإقليميا ودوليا؟.. هل حان الوقت لرسم خارطة شرق أوسطية جديدة تتناسب مع حصاد القرن الماضي في لعبة القوى الإقليمية والدولية؟

إن قوى الشرق الأوسط الكبير: إيران وتركيا والعرب وإسرائيل التي خرجت للنور في عشرينات القرن الماضي، من رحم التسويات والتصدعات الدولية، ككيانات جيوبولتيكية متفاوتة الحجم والقوة، كثيرا ما تصادمت وتبادلت لعبة المحاور، وتقاتلت، حتى بات عليها الآن وهي تشرف على عشرينات القرن الحادي والعشرين، أن تجد مجالا للتعايش والوفاق لصناعة قرن جديد من السلام الأهلي والدولي!..

والآن بإمكاننا أن نحدس أن العرب قد أضعفوا أنفسهم وفقدوا السيطرة على صراعاتهم الداخلية وأنهم يسيرون نحو الخسارة بعناد وغباء.. وهم يكررون صناعة مأساتهم بلا أسف ولا ندم، وقد سلموا قيادتهم لدولة تتدثر بالدين وتتحصن بالنفط وهي تسير نحو التفكك والضمور وسط الضجيج والتشويش والغرائز الدينية!.. بإمكاننا أيضا أن نحدس أن كل من الأتراك والإيرانيين والإسرائيليين قد تعالت أبراجهم ومنصاتهم فوق جثث العرب وبفضل ثروات العرب، وهو ما سوف يستمر لسنوات أخرى طويلة، ولكن من الصعب أن نحدس متى يكف العرب عن تحطيم بعضهم بعضا ومتى يتوقف العنف ويتوقف كل طرف عند حدّه وتتم السيطرة على النوازع التوسعية والاستبدادية والغرائزية!؟..

سوف تستمر لعبة التحالفات والتحالفات المضادة في المنطقة لسنوات أخرى.. ومن الممكن أن تزداد نزعة السيطرة شراسة لتفرض إجباراتها وإكراهاتها على اللاعبين الإقليميين والمحليين حتى لا تتمدد الحرب وتصبح حربا عالمية ثالثة. وهنا من المؤكد أن نحدس أيضا أن «أوهام الانتصار الكلي» قد بدأت تتبخر لدى الكل مع تبخر دخان قذائف الحرب وأسعار الوقود.

تونس في 10 سبتمبر/أيلول 2015

الفصل الأول

العربي المريض

الوهم والتاريخ والوعد..

العربي المريض

الوهم والتاريخ.. والوعد..

«إن العالم القديم يموت ولكن العالم الجديد يتباطأ في الظهور.. وفي الفسحة الملبدة بالقلق تولد الشياطين».

المفكر الإيطالي - **أنطونيو غرامشي**

«لن أوفر من الآن فصاعدا هرطقيا واحدا. أما ذاك الذي لن يعترف بسيدنا نبيّ كبير، فسوف أشطره إلى نصفين. نعم سيكون لنا ابتهاج كبير وحقيقي في مواجهة هؤلاء الكفرة الفجرة».

من رواية -الموت- Almut

فلاديمير بارتول

ما هي «عرابيا» (بلاد العرب) اليوم؟ إنها فوضى حدود عارمة. ذهاب إلى التاريخ بالقهقرى.. متاهات من الحروب التقليدية والبديلة. جيوش من كل مكان، استباحة كاملة للأرض والفضاء والثروات. استدعاء للماضي والأجنبي والمبتذل..

ومن هم العرب اليوم؟ دول مستباحة، متنافسة ومتحاربة، وشعوب بلا بوصلة أو مستقبل. إن المستقبل الذي تحلم به هذه الشعوب لا يزال مصادرا في الخرائط الجديدة التي يقع استخراجها الآن من خلال هذه الفوضى. كانوا قبل حين يملكون أوطانا بلا ديمقراطية.. و ها هم الآن يقبلون بديمقراطية بلا أوطان. لقد بلغ الاستعمار أشده وتحالفت السذاجة مع الفساد لإشاعة هذه الأكاذيب. يقولون لنا: لا مؤامرة على العرب.. ولكن الحقيقة توجد في أن المؤامرة لا تكتمل، بل لا تصبح مؤامرة إلا بالتحالف مع السذاجة أو الخيانة. (أليست المؤامرة هي عنف الغاصب وخيانة أو صمت المغتصب؟).

يصعب الآن على كل عربي متابعة تفاصيل هذه التلاحمات العتيقة، مسارات هذه الفوضى الممتدة، حدود هذه الإشتباكات المتناقضة.. ما قد أسمّيه بجيوبولتيك الدم، ولكن بعد فترة ستفرش أمامه خرائط الأمر الواقع ليتعايش معها بحسرة وحنين إلى الماضي.. إن المهادنات المؤقتة وكذلك التسويات والمؤامرات التي نراها بأعيننا هي كلها خطوات صغيرة نحو تركيب واقع جديد لا يلبي حاجيات التاريخ الأهلي الصغير فقط، بل حاجيات التاريخ العالمي الكبير. ويعرف الرحالة والجغرافيون وكذلك المستشرقون والدبلوماسيون، أن الحرب ستتواصل، لأن ما وقع تخطيطه وتحديده في الماضي قد وقع تجاوزه.. إن خرائط سايكس/بيكو لم تعد صالحة اليوم للتكيف مع كل هذه الاحتدامات. لقد انتهى سايكس/بيكو الأوروبي بعد قرن. وبات لا يعبر عن فحوى أو معنى صراعات اليوم التي تحمل هويات متعددة في عالم بقدر ما يتعولم، يتدرج نحو التعدد والتفتت.

ثمة لاعبون قدماء وآخرون جدد في طريقهم إلى الولادة. لا تهتموا بتسميات مثل «داعش» أو «الدولة الإسلامية» أو «القاعدة» أو «جيش الفتح» أو «تنظيم خاراسان»[1*] أو ما شابه. كل هذه التسميات ستختفي لتخرج فيما بعد في شكل دويلات جديدة محصنة بالشوفينية والدين والاجتهادات ومدججة بالسلاح والاعتراف الدولي.. هؤلاء جزء من القادمين الجدد وإلى جانبهم أوروبا وأمريكا وروسيا والصين وإيران وتركيا وإسرائيل وما سوف يتبقى من دول العرب.. لن يكون السلام بالنسبة للعرب خلال القرن الواحد والعشرين إلا حنينا. الشعوب مرهقة وفاقدة للثقة وسوف تقبل بأسوأ الخيارات. ومع ذلك فالحرب ستتواصل في أوطانهم وعلى عتبات بيوتهم، وستدخل أجيال جديدة لهذه الحرب المتواصلة ولن تكون أية هدنة سوى فرصة للتأهب والاستعداد لحرب جديدة.. ثمة الآن مجاهدون أمضوا عشرات السنين من عمرهم وهم في الجبال من حماة إلى أفغانستان إلى الجزائر فعودة إلى بلاد الرافدين وسيناء والشام.. والحجاز واليمن.. وثمة دول كبيرة متصدعة وتحتاج إلى الترتيب وإعادة التنظيم والتقسيم.. كما ثمة عطش داخلي للحريات والحقوق والعدالة يغذيه عطش آخر كبير للطاقة والهيمنة..

*** *** ***

في الضفة الشمالية العليا للمتوسط هناك أوروبا المقسمة جيدا والمتحدة ضرورة وهي تمتد من أعمدة هرقل إلى الأورال. إنها إعادة جديدة لخريطة الإمبراطورية الرومانية.. مفتوحة من الجهتين نحو الشرق الأقصى (الفرس والصين والهند) ونحو الغرب الأقصى (أمريكا). لم تكن هذه الأوروبا إلا ولادة عسيرة لعشرات الحروب ولقرون طويلة من الدم. كان يصعب تعريفها أو التعرف عليها.. فهي في كتب الرحالة

حنين وثقافات. وهي في كتب الإستراتيجيا جيوش ومعسكرات. وخلال القرن العشرين تعرضت لتقسيم خرائطي بالدم أكثر من مرة.. إنهارت إمبراطوريات عريقة خلال الحرب الكونية الأولى، ثم كشفت عن خرائط جديدة خلال الحرب الكونية الثانية.. وبعد جدار برلين (1990) خرجت أوروبا بخرائط جديدة[*2].. تم ذلك بالعنف وكذلك بالمساومة والتسوية.. ولكن ذلك كله من أجل أن تصبح أوروبا معرفة تاريخيا وجغرافيا.. موجودة في الأسواق ونمط الحياة..مدافعة شرسة عن حقوق الأوروبيين في الداخل والخارج. أصبحت كل أراضي المعمورة سوقا وملاذا لها.. إنها تتكلم بصوت واحد.. تتعامل بعملة واحدة وتحارب متحدة كل الآخرين.. كانت تتقاتل بشراسة ضد نفسها وداخل أراضيها، ثم نقلت ترسانة العنف لإخضاع الخارج وإفراغ الداخل من العنف. وهاهي الآن تحارب مع بعضها بعضا (في صف متحد).. لتصبح كل النزاعات الداخلية مجرد ذكرى أو مجرد حوادث يقوم الاتحاد الأوروبي بفضّها.

ها هو الأوكراني الذي زج به في ملعب أوروبا لا يزال ينتشي حين يسمع بكلمة أوروبا. فهي تبدو ذات ثمن باهض، لكنها تحتوي على كل الآمال. أوروبا هي محكمة أوروبية. سوق أوروبية، قوة أوروبية، اتحاد سياسي أوروبي، مجتمع أوروبي، مستقبل أوروبي. إنها المشروع الكبير الذي إستبدل به مشروع الاتحاد السوفياتي المنهار. إنها الاستعادة التي تطل مع انغلاق كل مرحلة تاريخية. وبذلك فهي بالنسبة للأوكراني وكذلك للإسباني ليست إلا نقطة لقاء الدائرة..

يعتقد عبد الله العروي[*3] أن أوروبا قطع متناثرة جمعت بعناية من وسط الرعب والحروب. وبذلك فهو يصفها كنهاية مرحلة طويلة من المعاناة والحروب والنضال من أجل الحريات وكذلك انعدام الوزن! فالامتياز الأوروبي الذي يظهر حاليا يتمثل في أن البلدان الأوروبية حافظت على نفسها في الداخل بعد أن فشلت في الحفاظ على نفسها في مكان آخر!.. كان المفكر الألماني لابينتز[*4] قد دعا في أواخر القرن السابع عشر دول أوروبا المتحاربة إلى الخروج إلى الخارج معتقدا أن صغر المساحة وقلة الموارد وكثرة الأقوام وصراع الديانات لن تساعد أوروبا على السلام الداخلي.. «وهكذا كما لو أن الملوك والأباطرة كانوا ينتظرون ما سيقوله لابينتز، ذهبت كل دولة أوروبية إلى مكانها.. ذهب الإنكليز والفرنسيون إلى إفريقيا وأمريكا وشرق آسيا. وذهبت إسبانيا إلى أمريكا اللاتينية وذهبت هولندا إلى بلاد الهند الشرقية، وذهبت السويد إلى سيبيريا.. ثم ذهبت روسيا إلى كازكستان وآسيا الصغرى».. وحين اكتملت الرحلة/المغامرة الكونية في نسختها الأولى، عادت كل دول أوروبا إلى حدودها بدروس فذة وعزيمة قوية على المعيش المشترك. كانت التجارة هي البداية والنهاية. فالأوروبيون لن ينتقلوا إلى السلام الكبير ويودعوا الحروب نهائيا إلا إذا

فتحوا الأسواق لبعضهم بعضا والخزائن والحدود والبنوك!..

وما هو الهرم الأوروبي اليوم؟ للإجابة عن سؤال «بول هازار»*[5] نقول: لم يعد شكلا متناقضا وغامضا ويبحث عن الدقة كما كان في الستينات. لقد بات مكتملا أو شبه مكتمل، محصنا ضد الآخرين والغرباء. قسمت الدول بشكل دقيق للمرة الأخيرة بعد سقوط جدار برلين وأسقطت كثير من الحواجز وباتت اللغات المتحاربة بالأمس مترادفات لشعوبها، ولا يوجد أي فدان لم يقع التثبت منه من البلطيق إلى المتوسط ومن شبه جزيرة ايبيريا إلى شبه جزيرة القرم.. أما زعماؤها، أبناء وورثة الملوك المتحاربين، فهم يشربون الجعة من مدريد إلى أوسلو ومن بلجيكا إلى ليتوانيا، يمكن كذلك أن نهنئ المغني والشاعر الفلامندي «جاك بريل» أن بلاد الجعة تشرب الجعة بارتياح كبير مع رؤسائها وملوكها.. باختصار لقد دخلت أوروبا التاريخ الشامل والكبير مرة أخرى حين دخلت إلى حدودها بعدما دخلته مع دخولها في حدود الآخرين.. إن الحدود كانت دائما ترسم بلا وضوح حتى تبقى ورقة للتفاوض في زمن الاعتداءات أو الفتوحات أو المعاهدات الجديدة أو الممتلكات.. هذا ما فعله الأوروبيون في أمريكا (حتى استطاعت الثورة ثم الحرب الأهلية أن تقضي على ذلك الغموض). وفعلت ذلك أيضا في إفريقيا وبلاد العرب والهند الصينية والهند الشرقية.. وها هي هذه البلدان جميعها رهينة لأي حراك جغرافي أو تغير حدودي أو صدام بين الأهالي والجغرافيا أو تعارض بين القوة والمعنى.. إن العالم يبدو كما لو أنه مؤلفا من أشكال تعلن أنها لا تمس لكنها لا تتوقف عن المساس والتماس إلى حدّ التعارض والحرب!..

وكما يصف «بول هازار» في «أزمة الوعي الأوروبي»، «أوروبا بأنها كانت أرض النزاعات والغيرة والحسد والمرارة والخشونة. فقد كان اللاتينيون يزدرون الألمان، تلك الأجسام الغليظة والسمات الفضة والألمان يزدرون اللاتينيين الفاسدين والشعبيين والمتخاصمين. والسيدات الإسبانيات يحتقرن الفرنسيات وهن يدخلن إلى غرفهن شباب بأحمر الشفاه.. والإيطاليون يغمرون الجميع بفجورهم وفحولتهم الكاذبة والانكليز يقدمون الغلايين والجعة للسيدات. أما زهور كل بلد من هذه البلدان فهي نتنة بالنسبة للبلد الآخر. فما أن تصبح رمزا للأوطان حتى تفقد الزهور جمالها وعطرها وتفقد الأوطان قوتها ومناعتها*[6]».. هكذا كانت أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولكنها ها هي اليوم تتفاخر بقوتها وحكمتها وروعتها وذكائها وجاذبيتها.. (فهناك دائما عبقرية ما لم تسافر أبدا من أوروبا أو على الأقل لم تبتعد كثيرا أو هي عادت لتستقر داخل مجالها). هذه العبقرية القادمة من أثينا القديمة أو روما القديمة، لا تزال تحيا في أوروبا.. إنه زواج بين الفلسفة والزراعة، بين الفن والميكانيك، بين الروح والمادة وبين القوة والمعنى.

بتلك القوة الروحية والمادية اجتاحت أوروبا العالم كله. تفتحت شعوبها على ذكريات إمبراطوريتين غزتا الشرق والغرب ثم عادتا إلى حدودهما. وها هي أثينا التي زرعت السفن والتجارة والفلسفة لا تزال لغتها مغلقة على الآخرين.. بلاد صغيرة تقع بين البلقان والشرق الأوسط. أما روما فهي كذلك دخلت إلى الانكفاء إلى حدّ الخراب ثم عادت لتستيقظ باكرا في زمن الاستكشافات والاكتشافات الكبرى.. إن ذاكرة أوروبا هي مزيج ذاكرتين إمبراطوريتين قامت على الإسفار والبحار وزراعة الغرور والقوة وتكديس الذهب وتطويع العقل البشري والرغبة في اكتساب المجد الذي لا تستطيع شعوب أخرى جمعه بالمال أو بالذهب أو بالنفط.. إن الوعي المتقد لأوروبي القرن السادس عشر والسابع عشر هو الذي صنع أوروبا المتوثبة والقوية والجبارة في القرن 18 و19 حتى وصلت إلى القرن العشرين لتغرق في قرن آخر من الحروب الداخلية كان بمثابة، المطهرة الأخيرة للانتقال إلى البناء الداخلي..

إن أوروبا التي صنعت نفسها بلا شفقة وبلا رحمة وبكل قسوة كانت تسعى منذ البداية إلى السعادة وكذلك إلى الحقيقة (حسب بول هازار). أي إلى الحرية وكذلك إلى العقل. وهذا ما يجب أن يصبح الهدف الكبير لشعوب أخرى تعيش إلى جانبها.. هذه الشعوب هي بلاد عرابيا. أو بلاد العرب..

إن أوروبا التي لم تعد أرضا للأبطال منذ المنتصف الثاني للقرن العشرين بعد ما تقاتل على أرضها الصغيرة عشرات من الملوك والزعماء طيلة قرون طويلة تجاورها بلاد كبيرة تتكلم لغة واحدة ومتلاحمة جغرافيا أشد التحام، يستطيع فيها أي «شخص» أن يكون بطلا. انتهى الأبطال القوميون في أوروبا مع أدنياور وديغول وتشرشل وكذلك فرانكو وسلازار، ودع هؤلاء شعوبهم بوضعهم صوب الاتحاد، ولكن في الضفة الجنوبية للمتوسط هجم أبطال وطنيون وقوميون آخرون ليثيروا الحماس والأوهام، وهم على قدر كبير من الصدق وكذلك من الهشاشة. ففي مجتمعات تتحول بسرعة وتتعرض للغزو الطوعي والإجباري يوميا، سرعان ما تآكلت سلطة أو كاريزما أولئك الأبطال. كانوا مدفوعين بالأمل ومستعدين للتضحية والتحدي، ولكنهم كانوا مكبلين وفي أحيان كثيرة مقعدين أو منساقين نحو الاستبداد طلبا للنظام واستبعادا للفوضى. ففيما كانت الشركات العالمية والكارتلات والدول القوية والاتحادات تفرض قوانين اللعبة بكاملها (تجارة، وتكنولوجيا وقوانين دولية) على هؤلاء الأبطال الجدد وهذه الدول الناشئة، كانت كذلك المجتمعات الأهلية تنمو على نحو يتخطى مفاهيم المجتمع التقليدي. فالمجتمع بات معقدا ومركبا ولم يعد عائلة أو عشيرة أو حتى إمارة.. ومن ثم راحت صورة هؤلاء الأبطال تتشظى إلى درجة لم تعد لديهم من سلطة أدبية أو أخلاقية أو حتى شرعية سياسية. وهكذا تآكل الأب والزعيم والبطل

إلى درجة لم يعد يملك أي رصيد للبقاء أو للمقاومة بداية من العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. ترافق ذلك مع انتشار الانترنت والمواقع الاجتماعية وتعميم العولمة وصعود التيارات الجهادية وتفريخ الزعمات الإفتراضية وتوسع المجتمعات المدنية وحركات حقوق الإنسان وسيطرة المحكمة الجنائية الدولية. وهو ما دفع لاحقا وبسرعة إلى ما سمّي «بالربيع العربي»!..

لم يكن هذا الربيع تعبيرا خالصا عن غضب جماهيري عربي. وإنما كان خليطا متفجرا بين «الغضب الداخلي» و«الطلب الخارجي». ولو بحثنا عن عبارة لوصف هذا الربيع لقلنا أنه «ربيع هجين»، أو «كائن مخنث».. فثورة في عالم بلا روح لا يمكن أن تنتج إلا الفوضى. وتحت وصاية سياسات دولية بلا أخلاق، كثيرا ما تتساق معارك المعنى الكبير إلى مطاحن العداء المبتذل والمطلق.. لقد كانت «بلاد العرب» تنهار شيئا فشيئا وهي تسكن في منطقة «عدم التوازن» لأكثر من عقدين دون أن يفعل لا أبطالها ولا نخبها الجديدة أي شيء لإعادة البناء، حتى جاءت اللحظة العالمية لتحمل كل هذه البلاد بنظامها الإقليمي كاملا إلى مثواه الأخير. وحتى لو كان هناك من يعتقد أنه من الرابحين أو البعيدين عن عدم التوازن، فإن ذلك لا يعني أكثر من النوم في خدر الأوهام.. فحينما ينهار نظام سياسي، قد يأخذ ذلك بضعة أسابيع، ولكن حين يبدأ نظام إقليمي في الانهيار، فإنه قد يستغرق عقدا من الزمن. وبالتوازي مع ذلك تبدأ مرحلة الفوضى في الانتشار إلى أن تسيطر على الفضاء العام لمدة قد تطول وقد تقصر، قبل أن تدور عجلة إعادة البناء من جديد وضمن نظام جديد!..

ها هنا يمكننا القول أن: «السرد الثوري» قد انتهى وانتهى معه قصص كثير مثل القصص الإبراهيمي والقصص الإسلامي الحديث والقصص الوطني القديم!.. ليبدأ قصص جيوبولتيكي جديد..

*** *** ***

لنتسلح بالأمل والنظرة البعيدة المدى ولنعلن أنها نهاية مطاف لدورة كاملة بدأت مع فجر القرن العشرين.. وإعلان صريح لاكتمال الدائرة أو ما يسميه فلاسفة أوروبا بـ«العود على بدء». فـ«ماجلان» الذي انطلق لاكتشاف الكرة الأرضية عاد من رحلته منتصرا حين بلغ شواطئ نقطة الانطلاق (عبد الله العروي). ففي بداية القرن العشرين ولد العرب من رحم الإمبراطورية العثمانية البائسة. وفي نهاية القرن ذاته دفن العرب كل آمالهم وطموحاتهم ثم استكانوا إلى الحروب الصغيرة (حروب الأمراء والزعماء). وها هم في بداية القرن الواحد والعشرين يحاولون الولادة من جديد..

سيكون هناك سايكس/بيكو جديد. نعم. سايكس/بيكو آخر يستجيب للسوق العالمية، للثروات، للأديان، لحقوق الإنسان، لفضاءات الدولة ما بعد الوطنية. إن هذا التحول لا يجب أن يجعلنا خائفين مكبلين بالحنين إلى الماضي.. فذاك الماضي لم يكن كله خيرا أو سعادة، ولا شك **بأن ما سوف يبقى من ذلك الماضي هو الذي سيختاره المستقبل بعناية ودقة..**

ظهرت الدفعة الأولى من دول العرب مع نهاية الحرب العالمية الأولى ثم تشكلت الدفعة الثانية عقب نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي الستينيات حتى السبعينات ظهرت الدفعة الأخيرة.. توالدت هذه التشكيلات من بعضها بعضا. منها من انشق عن الوطن الأم مثل لبنان، موريتانيا، اليمن الجنوبي، ومنها من انفصل عن اتحاد سياسي قديم مثل الأردن والسودان والكويت، ومنها من قام على رابطة اتحادية أخرى مثل الإمارات والسعودية. وفي نهاية القرن العشرين أصبح عدد تلك الدول حسب الجامعة العربية.. 21 دولة بدون فلسطين التي أمحت ككيان مستقل في الموجة الثانية من هذا التشكيل الجيوسياسي. والآن إذا كانت هناك كيانات أخرى مرشحة للولادة أو الزيادة، فإن الأمر لا يستدعي البكاء على الأطلال.. فـ21 أو 30 دولة، سيظل مجرد رقم، لأن لا شيء سيختلف من حيث المعنى. فالمقسم والمجزأ هو موضوع تقسيم وتجزئة باستمرار. وثمة فرصة أخرى تلوح من بعيد للذين يريدون الخروج من هذا التقسيم اللامتناهي هو أن يجعلوا من هذه الحرب العربية الأهلية بين الدول وداخل الدولة نفسها فرصة لبناء فضائهم المتحد. إن هدف الذين أشعلوا الحرب الأهلية الأمريكية ربما كان التمسك بالتقسيم من أجل المزيد من التقسيم، ولكن بفضل الحنكة والإرادة تحولت حرب التقسيم إلى معركة توحيد. إنها الحرب التي أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية.. إن الإنهيار المتسارع لا يوقفه إلا اتحاد جديد. كما أن هذه الفوضى العارمة التي تشق أرض العرب، بإمكانها أن توحد أرض العرب. وهذا ما قد يفاجئ النخب العربية التي تنام داخل الأنساق المغلقة والأفكار البسيطة والجامدة!..

منذ نحو 150 عاما انتهت الحرب الأهلية الأمريكية إلى الاتحاد. كان عدد السكان آنذاك حوالي مئة مليون. وهو عدد سكان ثلاثة دول أوروبية كبرى آنذاك (فرنسا وألمانيا وبريطانيا). خرجت أمريكا مدماة ومنهكة ولكنها كانت تعرف طريقها جيدا.. ولم تبلغ عتبة القرن العشرين حتى أصبحت بمثابة الإمبراطورية الجديدة التي سترث تراث عدة إمبراطوريات دفعة واحدة. شاركت بجدارة في تهديم ذلك العالم القديم كما شاركت بجدارة في صنع نظام عالمي جديد تدرج نحو ثلاثة نسخ عبر خرائط جديدة حتى بلغ نسخة ما بعد جدار برلين.. وفي تلك الرحلة نحو المجد والعظمة كثيرا ما

استعانت أمريكا ببناء التحالفات الدولية والمعاهدات وكذلك بالأمم المتحدة ومنظماتها ثم بترسانة القوانين الجديدة ثم بالتعاون مع المنظمات السرية والكارتلات التجارية وعصابات المافيا والانقلابات والاغتيالات والمنظمات غير الحكومية والمجتمع المدني وأخيرا هاهي تستعين بمنظمات «المجاهدين الدينيين» وكذلك بالعشائر والقبائل.. لاشيء ممنوع من الصرف أو الاستخدام. فمادمت تملك القوة، فأنت قادر على التكيف والاستيعاب واللحاق والاحتواء.. وقد صبغ كل ذلك في أفكار جذابة عبر سيناريوهات أكثر جاذبية..

لقد شكل الشرق الأوسط (حسب الخارطة الأمريكية أو زاوية الرؤية الأمريكية) «المادة القابلة للاشتعال في حلبة السياسة العالمية». بدا ذلك منذ المعاهدة السعودية - الأمريكية (روزفلت - الملك عبد العزيز في البحيرات المرة على باخرة كوينسي)*[7] ثم تطور الصراع وتطورت أدوات الصراع مع الحرب الباردة. لم تكن المنطقة ستواصل مسيرتها بدون تلك الحرب الباردة بل جعلتها منخرطة كليا في ذلك الصراع ثم انساقت إلى معمعة الثورات والانتفاضات التي كانت تقع في قلب تلك المنطقة وعلى تخومها.

ترافق وصول إيران وتركيا إلى الدولة الحديثة القومية*[8].. وقد عرف كل منهما ثورة داخلية أدت إلى تغيير الحدود والدستور والمسار. كان ذلك يحدث أيضا بالقرب من الاتحاد السوفياتي. وفي الوقت الذي أصبح فيه آل سعود سادة نجد والحجاز، كانت مصر تتصاعد من جديد في محاولة لوراثة التاج العثماني، لكن زراعة المشروع الصهيوني قد حطّم أحلامها وأدخلها في السرد الثوري الذي ترافق مع تحولات جديدة في إيران وتفجر آبار النفط في المنطقة وتصاعد الخلاف بين القاهرة والرياض.

في الحقيقة كانت كل البنى المتداعية تتداعى، لأنها كانت عتيقة ولا تستجيب للحياة الجديدة. ومثلما كانت الحرب العالمية الأولى دليلا على حل مشاكل الجغرافيا السياسية على نحو جديد، فقد كانت معاهدة سايكس/بيكو إيذانا نحو بدء مرحلة جديدة لبلاد العرب.. مؤرخون كثيرون يلعنون تلك الاتفاقية الدولية السرية والتي كشف عنها لينين بعد الثورة*[9]، ولكن تلك الاتفاقيات هي التي أوجدت الكيانات التي تتقاتل اليوم. إن شرعيتها توجد في تلك الاتفاقية وسوف تنتهي شرعيتها التاريخية والجيوسياسية حالما تنتهي شرعية سايكس/بيكو. نتساءل لماذا نلعن سايكس/بيكو، وحين نراه يوشك على الرحيل نتباكى عليه؟ هل لأن الشعوب أحيانا تعيد إنتاج تاريخها بطريقة مضادة؟ أم لأننا لا نعرف ما مدى مكر التاريخ الذي يهزأ في كثير من الأحيان من الذين يدعون صناعته؟

هل يمكن للتاريخ أن يتقدم أفضل أو أسوأ إذا ما اعترضته ثورة؟.. ثمة من المؤرخين من يعتقد أن القيصرية الروسية التي كانت ذات نمو متسارع في أواخر القرن 19،

كانت ستتقدم أفضل لو أنها لم تعترض تاريخها ثورة. فتلك الثورة التي جعلت منها قوة عظمى، ربما لم تكن ضرورية جدا لتتبوأ روسيا نفس المكانة. وفيما عدا المنهج الإيديولوجي الذي أشعل فتيل الصراع الدولي بين نمطين من الحياة، فإن روسيا التي خرجت أخيرا من هذيان الإيديولوجيا هي اليوم لا تزال قوية ما يجعلها ندا للقوى العظمى.. ثمة مثال آخر يمكن أن نجده في إيران التي حزمت نفسها على الثورة في بداية القرن العشرين لكن النظام الجديد استطاع أن يتجاوزها، قد عادت إلى الثورة في الثلث الأخير من القرن العشرين.. تزامنت الثورة في إيران وروسيا. لكنها نجحت في روسيا وهزمت في إيران. وفي العام 1979، اشتعلت الثورة في إيران وبدأت روسيا تعود إلى ما قبل الثورة.. كل رموز الثورة الإيرانية الأولى 1908-1907 قد عادت في ثورة 1979: المثقفون الذين تعلموا في الغرب، رجال الدين المتنورين، رجال البازار، الطبقة الوسطى ذات الأغلبية الشيعية وذات مفهوم الدين الوطني الفارسي. هذا التحالف كان له قدرة على الحشد في الثورتين. وإذ فشل على شق الطريق في الأولى، فقد نجح في الثانية.. جاءت الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا وروسيا لاقتسام إيران. وقد سدت مؤقتا آفاق النشاط السياسي لبلورة مفهوم الأمة الجديد، فانتهت المرحلة الثورية بانتكاسة في العام 1911، رغم ذلك فإن بلاد فارس ظلت تتمتع بدستور 1906، وهي ترنو إلى تغييره وتغيير النظام برمته. فالثورة الإيرانية لعام 1979 هي استعادة لثورة 1906. وهنا التقت روسيا وإيران مرة أخرى. فكل منهما عاد لاستعادة لحظة القوة في بناء الأمة. ومن لا يستطيع أن يلتقط مثل تلك اللحظات سيظل عاجزا عن إدراك ما يحصل اليوم في بلاد العرب. فالهيمنة القيصرية ثم السوفياتية في منطقة آسيا الوسطى قد حدت من العبث بجغرافيا إيران.. وقد لعبت روسيا الجديدة هذا الدور بحذق، ففي صراعها مع الغرب أدركت روسيا الجديدة أن إيران يجب أن لا تستباح، بل يجب احتضانها كحليف استراتيجي حتى لا يتم استخدامها كمتراس لقوى أخرى.

إن هذه اللقاءات التاريخية بين روسيا وإيران كثيرا ما حدثت على نحو آخر حتى وإن كان متعارضا مع تركيا الجارة الغربية الكبرى.. كان الصراع القومي بين الصفويين والعثمانيين قد جعل كل دولة متيقظة ومتوثبة تجاه الأخرى.. حتى أن ما كان يحصل هنا يعاد أو يسمع صداه هناك. فالثورة الإيرانية الأولى حرضت الأتراك على بناء وطن قومي وكتابة دستور جديد ورسم حدود جديدة والانهماك في لعبة الأمم.. وقد استقبل الإيرانيون سقوط الخلافة العثمانية في العشرينات بكثير من الحبور والترقب والترصد. وبدا واضحا للدولتين أن القرن العشرين لم يتشكل مداه الأبعد لذلك ابتعدت كل دولة على طريقتها الخاصة عن الحرب العالمية الثانية. كانت النخب هنا وهناك العلمانية والدينية معجبة بالرايخ الألماني وفلسفة القوة عند الألمان (هايدغر كان موضوع جدل

دائم لدى النخب الإيرانية والتركية)، لكن السياسيين وخاصة خليفة أتاتورك (عصمت اينونو) ومؤسس دولة إيران الجديدة (الشاه رضا بهلوي) ابتعدا عن التحالف الواضح مع المحور أو حتى مع التحالف.. وحين انتهت الحرب التحقت كل من أنقرة وطهران بقوة التحالف المنتصرة.. وتلك هي لحظة اللقاء الثاني بين الدولتين.. فالنزعة القومية لكل منهما والمتعارضة باستمرار مصلحيا، لم تمنعهما من أن يصبحا حليفين كبيرين لأمريكا.. وحين نزعت الثورة الإيرانية الاصطفاف مع أمريكا، أصبحت تركيا أكثر حظوة واستعدادا لتعويض النقص الإيراني.. ولكن تأثير الثورة الإسلامية في إيران دفع بالنخب التركية إلى الاتجاه نحو الإسلام لاستعادة وبناء الروح القومية للأتراك..

كانت الثورة الإيرانية بالنسبة للأتراك في المرة الثانية أكثر إثارة لأنها كانت أكثر جذرية.. وآنذاك نهض الأتراك لاستعادة اللحظة الأولى لانهيار الإمبراطورية فتساءلوا كما تساءل الإيرانيون: من نحن؟ وما هي اللحظة؟ وكيف علينا أن ننطلق حتى لا تتجاوزنا إيران؟ وحتى لا يتنكر لنا التاريخ؟

أجاب بعض من الأتراك: «نحن جزء من الغرب وعلينا أن نتجه غربا.. ورد آخرون، ولكننا نحن شرق وبإمكاننا أن نكون أفضل». والتقط الأكثر حضورا وجاذبية الخيط لتحريك الجماهير الخيط فقال: «نحن العقدة الكبرى. نحن ملتقى الشرق والغرب، تأسيسا وتاريخا وجغرافيا. نحن بيزنطة ونحن آخر الخلافات الإسلامية».. وهكذا إذا كان الإسلام بالنسبة لإيران وعدا وسلاحا لاجتراح المعجزة، فقد كان لتركيا كذلك استعادة ووعدا بالمجد والقوة.. وهذا كله سيتوزع عبر حدود ووعود وتخوم الأمتين الإيرانية والتركية..

تساءل مرة مونتسكيو: «كيف يمكن للمرء أن يكون فارسيا» ؟*[10] فجاءت الإجابة بعد نحو قرنين ونصف عبر الثورة التي قادها رجل قرأ جيدا أصول القرآن والفلسفات الشرقية هو أية الله الخميني.. وقد بحث «ميشال فوكو» عن العلامة المميزة للثورة الإيرانية فعثر عليها في «شموليتها» وكذلك في «اختلافها»*[11].. كانت ثورة شاملة ضد كل من يضطهد الأمة. فهي ليست ثورة ملة أو طبقة أو حتى شعب وإنما هي ثورة أمة بكاملها.. أما اختلافها، فقد عثر عليه في إصرارها على بناء مجتمع ما بعد الثورة وتموقعها في مركز التاريخ وليس على تخومه. فقد أثارت الأسئلة النائمة في السنوات الأكثر إحراجا بالنسبة لكثير من الشعوب وفي وقت كانت فيه أنظمة الإيديولوجيا تذبل وتتهاوى. كان السؤال الكبير يتمحور حول الوجود (هايدغر) ثم جاءت أسئلة أخرى حول تعريف النحن والآخر ثم المركز والتخوم.. وكذلك حول معنى الداخل والخارج.. وصولا إلى سؤال الأخلاق والدين. لقد طردت الثورة الإيرانية «المخنث

الديني» أو «الحياد الديني» من السياسة. وكما كان ملاذا ضد الطغيان في الداخل، فها هو يصبح سلاحا ضد الهيمنة في الخارج.. إن التواضع هو ما يؤدي إلى الاعتراف وبالتالي إلى التموقع.. وهذا لن يتم بدون فضائل وأخلاق الدين.. فإذا كان التدين بلا أخلاق، يصنع كوارث في عالم السياسة، فإن سياسة بلا أخلاق تدمر روح البشرية جمعاء، وتجعل منها كائنات مفترسة!..

طردت الثورة الإيرانية «المخنث الديني» ولكنها في الحين أحضرت «البطل الديني»، أي الدين كأداة سياسية ثورية. وهذا ما أحرج فوكو. فقد أحرجته فكرة الدولة الإسلامية، لكنها أغوته وجذبته الإرادة السياسية واللحظة البطولية. فهو يعتقد مثل بودلير أن البحث عن البطولة أو لعب دور البطولة هو لحظة حداثوية بامتياز*[12]. فالحداثة في كل تفاصيلها ومعانيها هي البحث عن المغامرة. وكل ثورة لا تنتمي إلى الحداثة إلا إذا كانت صانعة لمغامرة أو باحثة عن مغامرة كونية.. وما يجعلها عاجزة أو متخلفة أو خارج سياق الحداثة حين تكتفي بالشخصنة والمطالب العشوائية والتمترس وراء اليومي البسيط والمستباح..

إن الثورة هي الوعد، هي القدرة على الإدهاش. هي الإرباك وخلخلة المؤسس وعدم يقينية التجديد.. وهي إن شئنا «اليوتوبيا»، لأنها يمكن أن تأخذ الناس إلى صناعة التاريخ. إن الخطية التطورية للتاريخ لا تفصح لنا عن شيء مدهش لأن التاريخ قد يقفز من خلفها ويتجاوزها ويلتف عليها بمكر ثم يطل برأسه هازئا من الذين ينتظرونه عند آخر الخط أو الطريق. «إن الناس يثورون لأن النحن تعانق اللحظة وتتخلل التاريخ وتهبه روحها»..*[13]

فهل استوعب العرب الدرس الإيراني أو الدرس التركي؟ وكيف سار العرب من الثورة العربية الكبرى إلى الربيع العربي؟ وهل تساءلوا بجدية عن «لحظاتهم التاريخية» وعن معنى «النحن» الوجودية؟ ولماذا هم ينزلقون من متاهة إلى أخرى بلا بوصلة ولا تركيز ولا هدف؟ وكيف بإمكانهم أن يردموا الفجوات التي ما انفكت تتفاقم وتتوسع على أرضهم؟ أو كيف يمكن أن يجتازوا خطوط حروب الصدع التي انشقت على أرضهم؟

*** *** ***

كثيرا ما تنتهي الحروب الكلاسيكية بين دولة وأخرى إلى نتائج وخرائط جديدة. وفي غالب الأحيان يتم تجاوزها إلى «سلام دائم أو طويل المدى» ولكن من النادر أن تنتهي ما يسميه «هنتنغتون»*[14] حروب خط الصدع إلى الأبد، لأن دواعيها وأسبابها عميقة وتستجيب لها الثقافة والجغرافيا والمجتمعات.. وتلك هي طبيعة الصراعات الوجودية والحضارية.

منذ حوالي قرن ونحن نسمع ونقرأ أن حرب العرب وإسرائيل هي حرب حضارية. ويقصد حتى عامة الناس من هذا المصطلح ما يقصده هنتنغتون بالضبط. فهو يعتقد أن - نهاية أبدية - لمثل هذه الحرب هي تشبه المعجزة الإنسانية. إن زراعة إسرائيل في قلب الخارطة العربية هي زراعة خط صدع كبير وعميق في الأمة العربية. إنها كيان غريب وشاذ، ولو لم يكن كذلك لتم استيعابه طوال هذه العقود. وبسببه ستتلاحق الحروب إلى يومنا هذا، وستكشف صدوعات أخرى عن نفسها وسنفهم بطريقة أو بأخرى أن هذا الكيان هو سبب كل هذا الصداع وهذه الصدوع. فقد أحيا الصدع الديني وهيّج الصدع الامبريالي وعمق الصدع الجغراسياسي. إن تحصين شرعنة إسرائيل على أنها دولة يهودية هو ما يفيد بأنها تمثل خط الصدع الديني الأول بين اليهودية والإسلام. وتحصين إسرائيل نفسها ببناء جدار العزل هو رسم خط الصدع العرقي/الاجتماعي بين سكان هذا الكيان من عرب ويهود. وقد صادف أن يكون هذا الكيان في شكل سكين، فإننا نرى جيدا كيف أصبحت إسرائيل خط الصدع الكبير بين العرب والعرب الذي ينغرس شمالا في جبل الشيخ بأرض الشام ويمتد جنوبا نحو باب المندب قرب اليمن ثم يتوسع شرقا نحو الأردن فالسعودية وغربا نحو مصر، ليفصل بين عرب آسيا وعرب شمال إفريقيا. هكذا لم يعد بمقدور مصر مثلا أن تذهب إلى نجدة الشام أو بلاد الحجاز.. وبالمقابل لم يعودوا عرب آسيا بإمكانهم أن ينجدوا إخوتهم في شمال إفريقيا.

لقد تأسست إسرائيل كوطن قومي لليهود على دفعات. ولكن المغزى كان واضحا منذ البداية، هو منع هؤلاء العرب من التلاحم والتوحيد. فالمشروع القومي اليهودي هو النقيض الواضح لمشروع العرب القومي. عرف العرب بوعد بلفور السري حين كشفت لهم السوفيات على خيانة حلفائهم الأنكليز والفرنسيين وهم يدفعونهم إلى الانفصال عن التاج العثماني.. ونتيجة لذلك كانت إسرائيل من مواليد سايكس/بيكو الذي هو أساس التشكيلة الجغراسياسية للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى.

كان مشروع الولايات العربية المتحدة الذي تبلور في الثورة العربية الكبرى مطلبا قوميا واستجابة تاريخية لشعب منهك ومحتل وتتقاسمه الإمبراطوريات. وقد بلغ مرحلته الأولى حين استطاع أن يجعل من العرب «أمة» خارج السلطنة العثمانية. وفي المقابل راح المشروع الصهيوني يتضاخم ويكسب التأييد الدولي حالما وضعت السلطنة العثمانية أمام نهايتها. فالشعب المطرود والمنبوذ يقوم بطرد شعب آخر ليأخذ مكانه (نفي السكان الأصليين) ثم يتطور هذا المشروع ليقيم الصدع الأول والأساسي بين

جناحي أرض العرب. وهو ما يعني أن نفي الآخر قد أصبح نفيا كاملا ومكتملا لأي مشروع قومي آخر. فالآخر قد أصبح لا وجود له لأن الآخر هو نحن فقط!..

توقع سياسيون عرب وأجانب الانسجام بين المشروعين. واعتمد آخرون على عامل الزمن، ولكن تطور الصراع كان دائما يفاجأ الجميع. بعد الحرب العالمية الثانية بدأت نسخة جديدة للخارطة تبرز للوجود. وقد ترافق ذلك مع طرد جماعي لليهود من أوروبا المتحاربة والجريحة. وقد كان تأسيس لبنان بعد إنسلاخه من سوريا تأشيرة دخول لإسرائيل كي تلتحق بـ«نادي الدول المصطنعة». وفي العام 48 وضع العرب أمام الأمر الواقع. لقد أصبحت فلسطين (أرضا) لشعبين متحاربين. ولم يستطع المجتمع الدولي أن يفرض ذلك على أرض الواقع، فجاءت الحرب التي فرضت قوانينها ونتائجها بالقوة..

دعا بعض العرب إلى المصالحة والقبول بالتقسيم. ورأى آخرون أن ذلك تفريط في الوجود العربي.. وحين أصبح المشكل عنوان كل نشرة أخبار، بات العالم كله يقوم ويستيقظ على الشرق الأوسط.. وفيما كان النفط يتدفق من آبار هذا الشرق إلى مصانع ومدن الغرب، باتت كل القوى العظمى منشغلة بمشكلة الشرق الأوسط وعنوانها الكبير الصراع العربي-الإسرائيلي. تشكلت محاور وأحلاف وأحلاف مضادة. وحدثت انقلابات كثيرة وامتلأت شوارع العرب بكل أنواع الاحتجاجات. ولكن الحرب كانت تسير بخطى حثيثة دون أن يمنعها أحد من الحدوث.. توالت الحروب ثم أنتجت سلاما مغشوشا في «كامب ديفيد» في العام 1979 *15 انشق بسببه العرب إلى عربين. «عرب السلام» و«عرب الصمود». ابتعدت إسرائيل قليلا عن التهديد بسبب انشغال العرب ببعضهم بعضا ومن حين إلى آخر كانت تقوم بعمليات انتقائية لقتل أية روح للمقاومة. وحين تعاظم دور المقاومة وراحت تقترب منها انطلاقا من لبنان، ذهبت إسرائيل إلى السيناريو الذي لم يتوقعه أحد. احتلت أول عاصمة عربية وأهم عاصمة عربية في صيف 82 (بيروت) ثم أطردت الفلسطينيين بقياداتهم إلى بلدان عديدة.. وفي ظل الشتات الفلسطيني والتباعد العربي بدأت رحلة مفاوضات عرجاء سرية وصفت مرارا عديدة بـ«النذلة» أنتجت سلاما لقيطا ونذلا لم يتمكن من إعادة الحق إلى أصحابه ولا كذلك من ردم ذلك الصدع الكبير في الشرق الأوسط.. في قلب العالم العربي.

من رحـم الصـدع الأول -الصدع الأم- الصدع اليهودي/الإسلامي، ولدت كل الصدوعات الأخرى. فالحرب العراقية الإيرانية التي دامت 8 سنوات هي الأخرى لازالت تتوالد. والحرب بين عالم الشيعة وعالم السنة هي الصدع الكبير الثاني في

العالم العربي. واحتلال الكويت في العام 91 من قبل العراق هي الصدع الثالث والكبير في النسيج العربي. ولن تكون حرب السعودية ضد اليمن هي الصدع الأخير في العالم العربي. إننا إذ نفترض إننا نتحرك في شكل حقائق موضوعية محددة، فإننا سنظل نضلل أنفسنا إلى ما لا نهاية. فالذي يحدث اليوم ما كان ليحدث على هذا النحو لو لم نكن نختبئ وراء حقائق شكلية وافتراضات وهوس وتحيزات وفوبيات، الأمر الذي يدفعنا في كل مرة إلى معالجة كل صدع على حده بينما هي خارطة متشابكة ومتداخلة من الصدوع لا يمكن معالجتها إلا بمشروع كبير!..

عند سقوط جدار برلين، شعر العالم بقدر من الانسجام، سرعان ما بدا أنه «وهم»، لأن الانزلاقات إلى العنف قد تسارعت في كل بقاع الدنيا*[16]. أصبح العالم مختلفا ولكنه ليس آمنا. ثم أصبح شبه متحد لكنه في العمق ظل منقسما. وقد كان واضحا ذلك في ما يسمى بالعالم العربي. فالاتحاد العربي الذي تأسس في بغداد قد انهار حين تم غزو الكويت. والجامعة العربية التي بدأت تقلب أوراقها من أجل إصلاح هيكلي قد ظهرت منحازة إلى القوة الخارجية. والاتحاد المغاربي الذي نفخ في روحه في مراكش عام 89 ظل معطلا عند كثبان الصحراء والهوس الديني الذي اجتاح الجزائر. أما توحيد اليمن فقد كان بالنسبة لمجلس التعاون الخليجي تهديدا مستمرا. وفي الأخير أنتجت لنا نهاية الحرب الباردة حروبا أخرى صغيرة في الداخل والخارج.. انتشرت النزعة الأصولية وأصبحت مسلحة وذات شرعية للعمل على الأرض ضد من أهانوا الأمة! ولم تكن أفغانستان إلا مرحلة لهؤلاء المجاهدين العرب ليعودوا إلى بلدانهم للعمل ضد من يحتل بلادهم. وكما أنتجت نهاية الحرب العالمية الأولى: الشيوعية والفاشية في أوروبا، فقد أنتجت نهاية الحرب الباردة في العالم العربي: الأصولية والجهادية الإسلامية. انتشرت هذه التنظيمات الإسلامية مستفيدة من تراث التجربة الأفغانية، فأعادت تشكيل نفسها عبر منظمات عابرة للحدود وأخرى موجودة داخل الحدود.. وجاءت ضربة نيويورك في سبتمبر 2001 لتحدث الصدمة في المركز والأطرف. تسارعت التحالفات وبات الجميع منهمكا في محاربة الإرهاب دون أن يتأكد أحد من ماهية ذلك الإرهاب أو من حقيقة وجوده أو آليات عمله. كانت الدولة العربية سباقة لتبني أكثر القوانين الإرهابية لمحاربة هذا الإرهاب. ومع أن بعضها كان يشك أصلا في تعاظم غول الإرهاب بهذه الكيفية السينمائية إلا أنه كان مضطرا للتعاون والتنسيق متغافلا عن الحقائق مستخدما كغيره عنوان الإرهاب للاستحواذ على السلطة أو للمساهمة من أجل البقاء في السلطة!..

وإذ كانت الباكستان منهمكة في اللعبة وهي تظهر كأخطر بلد في العالم حيث يتواجد الإرهاب المعولم والنائم قرب السلاح النووي وحيث تتوسط أكبر حوض بشري

في العالم الإسلامي، فقد لعبت كل من إيران وتركيا دورا آخر هو دور «المتحكم» في إدارة هذا الإرهاب.. كان مستوى التعاون بين هذه الدول الثلاث وبين إسرائيل وكل من السعودية ومصر يميل إلى السلبية. فكل طرف كانت له حساباته وهو يتوجس بل لا يثق في الطرف الآخر.. ثمة من كان «ممولا» للإرهاب. وثمة من كان مصدرا للإرهابيين. وثمة من كان راعيا للإرهاب. وكذلك ثمة من كان مستخدما للإرهاب كسلاح فتاك لإخضاع الخصوم كآلية من آليات التغيير.. إن الرغبة المعلنة من قبل هؤلاء والتي تتبنى نظرية «شرق أوسط جديد ونظيف» من الإرهاب، كانت كاذبة منذ البداية.. فقد تعاون الجميع بقناعة وبغير قناعة، سرا وعلنا على قتل حقيقة الإرهاب من أجل أن يتحول سلاحا ضد الحقيقة التي هي: أننا عالمان/ نحن وهم. عالمان متحاربان إلى (الأبد). عالمان، كل عالم يريد أن يخضع الآخر لإرادته. عالم يصف نفسه بأنه عالم الحضارة في مواجهة عالم لا يزال يوصف بالبربرية.. فتقسيم شمال/جنوب الذي ساد في أوج الحقبة الشيوعية (النسخة الصينية) والذي حل محل تقسيم غرب/شرق الذي ساد منذ القرن الثامن عشر، قد عاد مجددا، ومنذ سنة 2001 ليسود عبر قراءة «مناطق النظام» و«مناطق الفوضى» تماما مثلما كان المسلمون يقسمون العالم فيما مضى إلى دار سلام ودار حرب*17.

إن مناطق النظام لا تعني في القاموس الأمريكي غير دول الغرب (أمريكا وأوروبا زائد اليابان) وهي الدول التي بلغت مرحلة متقدمة من النضج والعلمانية والديمقراطية ووفرة الإنتاج. أما مناطق الفوضى فهي الدول التي تقع في جنوب الكرة الأرضية والتي لا تزال عرضة للمخاطر وقليلة المناعة وتتسم بالهشاشة وعدم الهيكلة وقلة الإنتاجية.

ولا شك أن ثمة منطقة أخرى وسطى تقع بين دول النظام ودول الفوضى، هي منطقة الدول التي بلغت مستوى متوسط من التنظيم والترسيم والقوة، ولكنها لا تزال تبحث عن هويتها الجيوسياسية إلى حد أنها ستبقى معرضة للانحدار إلى مناطق الفوضى..

إن مناطق الفوضى هي المجالات الخارجة عن التحكم والعاجزة عن التقدم والانتماء إلى الحضارة. وهي تمتد من الدول المنقرضة إلى الدول المندحرة إلى الدول العليلة والفاشلة إلى الدول ذات النسب العالية من الفقر والبطالة وعدم الإنتاج. وعموما فإن مناطق الفوضى هي مناطق المخاطر والتحديات والتعفنات والعنف وضعف السلطة المركزية وتفاقم النزاعات العرقية والدينية والقبلية واللاجئين والمهجرين.. ولكن مثلما تظهر الفوضى كحقيقة في كثير من الدول، فإن دول النظام تعمل جاهدة للدفع بتلك

الفوضى إلى مداها الأقصى في محاولة لإعادة التنظيم عبر توليد نظام جديد قادر على التحكم في تلك الفوضى..

ليس الهدف دائما هو تنظيم تلك الفوضى أو السيطرة عليها، ولكن في أحيان كثيرة الهدف يكون هو إدارتها (إدارة الفوضى) للوصول إلى أهداف أخرى إستراتيجية وجيوسياسية. فالعالم سواء كان 184 دولة قبل الحرب الباردة أو 192 دولة في مطلع الألفية الثانية أو كان عددا لا متناهيا من الدول القومية والقبلية والدينية، هو في النهاية سيظل عالما متصدعا ومنقسما بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب وبين الأغنياء والفقراء..

إن العالم كما نراه هو بالفعل فوضوي. فهو واقعيا منقسم ومتصارع وحافل بالأخطار والعنف والمخاطر كتلك التي تحدث بين عرقيات مختلفة أو ديانات مختلفة أو مستويات مختلفة أو حتى ثقافات مختلفة. ولو نظرنا إلى إفريقيا أو الشرق الأوسط أو آسيا الغربية أو آسيا الشرقية أو آسيا الوسطى، فإننا لن ننتهي من إحصاء المشاكل والنزاعات المستيقظة والنائمة. وهي نزاعات تتغذى من صراعات القوى الدولية والإقليمية كما تتغذى من الفقر والتهميش والتحقير لثقافتها ونهب ثرواتها.. ومع التأكيد بأن نهاية الحرب الباردة قد كشفت عن مخزون من النزاعات النائمة، فإن الغرب الذي يريد أن ينعم بالسلام لا يريد أيضا أن يشاركه الآخرون لا السلام ولا النعيم ولا الاستقرار ولا النظام. فلازال هناك من يعتقد أن البرابرة يجب أن يحاصروا لجعلهم يدمرون أنفسهم بأنفسهم حتى إفراغ آخر طاقة عنف لديهم، وآنذاك يمكن تدجينهم واستيعابهم في نادي المدنية! (ما الذي تفعله أوروبا الآن وهي تستقبل لاجئي سوريا).. إن رسم العالم المدني والمتحضر يجب أن يكون مقتصرا على المدنيين فقط. أما البرابرة وهم الشعوب المناهضة والمعادية لهيمنة الغرب وثقافته ونمط معيشته وبراديغم تطوره، فهم لازالوا منبوذين وكارهين للحضارة والتقدم.. هذه تيمة كثيرا ما تتكرر لدى مؤلفي النظريات العنصرية وصانعي الخرائط الجديدة ونهابي العالم. وهي علامة من علامات روما القديمة ظلت تتكرر من روما الأولى إلى روما الجديدة (واشنطن). ولكن من بإمكانه أن يعتقد اليوم أنه سيظل بعيدا عن الفوضى؟ ومن يعتقد اليوم أن بإمكانه لوحده أن يرسم خرائط العالم ويحدّد مراكزها وهوامشها وأقاليمها وفضاءاتها؟

قال نابليون ذات مرة وهو يتأهب لحملته على مصر: «إننا ذاهبون للشرق من أجل تنويره وتحريره لحماية الغرب»[*18]. تلك العبارة مهدت لحقبة جديدة من الاستعمار جاءت بعد حقبة الاستعمار الإسباني/البرتغالي. وكان نابليون يعتقد أن الغرب سيظل متخلفا إذا لم يتقدم الشرق، لأن كل تقدم مشروط بالانخراط الجماعي. واليوم إذ

ينقص ص33-64 خطا او سهو من الناشر اللذي اعاد ص289-320 في مكانها

على البال. وحتى تكون فاعلة عليها أن تكون حاسمة ومجردة من العواطف وتحاكي الآليات القديمة كطقوس وتخطيط وتصميم. «إنه العنف التأسيسي الذي يظل يتناسل من حضارات بعيدة لبناء حضارات جديدة». إن تقطيع الأوصال أو الذبائح بمدية حادة أو تمزيق الجثة أو اقتلاع قلب صاحبها أو فصل الرأس ووضعه جانبا يشبه كثيرا الطقوس الديونيسية للضحية بينما تلك الضحية ليست اختيارا عشوائيا، وإنما هي اختيار سبقه تفكير وتصميم حافظ على استبدال الروح الطيبة بالروح الشريرة أو فرد الجماعة بالفرد الغريب (نفكر في ذبح الأقباط أو ذبح اليزيديين أو الأحباش الأقليات الأخرى). وهذه الأقليات ليست في فكر صاحب الطقس، إلا ذبائح من الحيوانات لتطهير مسيرة العبور!..

تشبه الممارسات التي نشاهدها في فضاءات «داعش» تحت حراسة الأمريكان، ممارسات الإغريق القدماء تحت حراسة الكهنة. إنه عرض مسرحي مدهش وفظيع ومستمر حتى الآن.. يقوم هؤلاء المدربين جيدا على القتل والدماء الباردة بدورهم وهم يرتدون زيا موحدا لافتا بقفزة واحدة ليضربوا ضربة واحدة كل رؤوس ضحاياهم لدحر القوى الشريرة وهم فخورون بعملهم ومصحوبون بالتهنئة والتهاليل ورافعون أيديهم إلى السماء.. لقد انتصروا على الفساد والأغراب وأتوا بالمنفعة للجميع. فالتطهير الديني لا بدّ أن يجري وسط احتفالات. كما لا بد من أن يراه العالم كله تماما كما كان يجري الطواف الاحتفالي في شوارع المدينة في العصور السحيقة!..

«إن كلمات «قطع، جزّ، بتر، قضم، نحر»، هي من الكلمات المتواترة والمألوفة في قاموس العنف التأسيسي. وقد عرفتها حضارات الطقوس القديمة. وتحمل دلالة الألم الحاد، لكنه الألم الخلافي الذي يضمن الشفاء». وها هو يمارس مرة أخرى في القرن الـ21 في بلد كان دائما منتجا للطقوس والأديان والميتولوجيا حتى لا نكاد نقول أن السرد الإبراهيمي لا يزال متواترا في بلد النبي إبراهيم نفسه.. حتى لكأننا نشاهد بداية العالم في نهايته.. حتى لكأننا نقول أن الأمريكان يعيدون تركيب مسيرة إبراهيم بالألوان. «وهكذا مرة أخرى نكتشف أن الفكر العلمي هو وليد الفكر الخرافي القديم الذي يتولى إعداد الأساطير والطقوس» كما يؤكد (رينيه جيرار)[55*].

«ويكاد العداء أن يكون سمة ملازمة لكل أخوين في العهد القديم والأساطير الإغريقية على حدّ سواء»[56*].. ويبدو في كل مرة كلّ أخ وكأنه مدفوع بما يشبه الحتمية القاهرة إلى ممارسة العنف ضد أخاه الآخر. وإذا استحال على أحد الأخوين تبديد ذلك العنف القاهر بضحية ثالثة، فإن الأخ يقتل أخاه. فقد قتل قابيل أخاه هابيل. إن الحمل الذي كان على قابيل أن يقتله بدلا من أخيه، هو الحمل الذي سيرسله الرب إلى إبراهيم

لكي يذبحه بدلا من ابنه إسماعيل (لدى اليهود هو إسحاق). فتلك الذبيحة هي التي أنقذت أبناء إبراهيم من الهلاك. وما لم يخترع العرب ذبائحهم أو ظلوا يفتقرون إلى مخارج ذبائحية! فإنهم سيستمرون في المذابح ضد بعضهم بعضا!..

ثمة فوائد كثيرة للذبيحة.. فهي تهدئ من روع العنف وتجعل الله راضيا وتبطل الفتن والحسد والمنافسات والأحقاد بين ذوي القربى. إلى ذلك فهي تحقق الانسجام وتشد الأواصر بين أفراد الجماعة.. ومثل تلك الوظائف نجدها في النصوص الصينية القديمة وكذلك في الكتب السماوية. فالذبائح تقوي وحدة الأمة وبفضلها تبقى الشعوب في مأمن من كل اضطراب. وفي النهاية فإن الغاية من الذبائح والموسيقى والشعائر والشرائع والعقوبات واحدة هي، توحيد القلوب وإحلال النظام.. فما هي الذبائح التي على العرب أن يقدموها لكي يبتعدوا عن المذابح فيما بينهم؟

*** *** ***

كلما تقهقر العرب على الأرض واحتلت أراضيهم ووقعوا تحت الإذلال وباتوا بلا قوة أو جاه، وتساءلوا عما أصابهم؟ أجاب الإسلاميون أو المسلمون الجيدون منهم: «لأننا تخلينا عن الله فتخلى الله عنّا».. ثم أضافوا وكل واحد على طريقته «إذا عدنا إلى الله، فإن الله سيعيد كل شيء إلينا» أو «الإسلام هو الحلّ». وهنا تصبح المسألة متمحورة في العلاقة بين العرب المسلمين وبين الله وليس بينهم كعرب كأمة وبين التاريخ. إن ذلك ما يعكس المأزق التاريخي الذي يوجد فيه العرب. لم يعرف العرب حتى الآن بما يجب أن يحتفظوا من ماضيهم وبما يجب أن يرمى منه إلى النسيان كي يتمكنوا من الاندماج في العالم الحديث دون أن يفقدوا كرامتهم. إن اقتلاع جزء من الوجدان العام هو بمثابة تقدمة ذبائح للتاريخ الجبار. فحين تنجح أمة ما في اجتياز ذلك الامتحان تشعر بالخفة والانشراح وتصبح قادرة على رؤية المستقبل.. تنسى الأحقاد، تتجمع حول هدف نبيل، تتخلص من الأدران، تصبح قادرة على التحليق ولا تخشى من السقوط وتزداد تعلقا بثقافتها.

إن العرب الذين يشعرون أنهم منفيون في هذا العالم هم منفيون أولا في تراثهم وثقافتهم.. بل هم غرباء وشتات في كل مكان ولا مكان، مقهورون، مهانون وهم يقولون هذا. ويصيحون به وينوحون عليه ويتساءلون على الدوام: «كيف يمكن لهم أن يعكسوا حركة التاريخ»، بيد أن التاريخ لا يهتم بهم ولا بمناجاتهم![*57]..

تشعر كل الشعوب أنها بحاجة إلى تصفح ماضيها. وإذ تفعل ذلك فلأنها تريد أن تستنطق المستقبل من خلال الماضي لا لتفتح بيوتا قديمة لتسكن في الماضي. كما أن كل الشعوب (الصينيون والهنود واليابانيون) قد قاتلوا الغرب وهم يملكون ماضيا

مجيدا .. وها هم يحرزون على مقادير من النجاح دون الشعور بالمذلة والمهانة أو عقاب الذات. ثم ها أن الإيرانيين والأتراك ومعهم الاندونيسيون يأخذون نفس الطريق بدون تردد أو خوف أو جلد للذات. وهنا يجب ألا نقلل من معاناة تلك الشعوب من الغرب الذي جرب معهم كل شيء بما في ذلك الإبادة والمخدرات والقنابل النووية. أما الفرق بين العرب وهذه الشعوب هو أن العرب لم يعرفوا لا كيف ينظفوا ماضيهم ولا كيف ينظفوا أنفسهم من ماضيهم ولا كيف يعرفوا بأنفسهم ولا حتى كيف يعرفوا أنفسهم بالآخر. وإذا لم يفهموا العرب أنهم هم الآخر، فإنهم لن يعرفوا ما معنى النحن. فنحن هم «آخرون» بالنسبة للآخرين. والآخرون هم نحن بالنسبة للآخرين.. إنهم ليسوا غرباء أو حقراء أو مهانون أو مجهولون. إنهم وإننا المرآة العاكسة لنا ولهم على نحو متقابل ومتداخل.

إن ما يجري في البلاد العربية اليوم ليس مجرد اضطراب ولا هو عدم توازن أو عدم استقرار. إنه فوضى من المذابح لم يعرفها تاريخ العرب. ففي كل بلد ثمة قابيل وهابيل يتقاتلان.. وكل دولة أصبحت بها حكومتان ودولتان وأكثر من جيش. انشقت الأرض وكشفت عن مخزونات رهيبة من الحقد والحسد وأصبح من العسير على العربي أن يتساءل عن دينه أو عن هويته أو حتى عن أقاربه. فالارتياب بلغ أشده، وراحت القبائل تتعاون مع الإمبراطوريات والامبرياليات لقتال العصابات بينما هذه العصابات تتمدد وتلقي بشباكها مع القبائل والأحزاب وكذلك الإمبراطوريات. ليس هذا «سيرك» وإنما هو لعبة حاسوب كبرى تحولت إلى متاهة في المدى والزمن.. وتحت تلك الأرض، أرض الفوضى يتفتت كل شيء ويختل توازن كل كائن بما في ذلك المناخ. تتفتت الكرامة والديمقراطية والإيمان بالأمة والله وتتفتت قواعد المجتمع وثقافته ويفسد المكان والمناخ..

ها «إن العراق الذي كان يفتخر به العرب قبل أهله، العراق الذي يضرب به المثل في التعليم والثقافة والتاريخ العريق وكذلك الرخاء والتعايش والتحرر الوطني»[*58] قد أصبح غابة صيد كبرى ضد أي تعايش. ففي بغداد توجد حكومة تسكن مذعورة في المربع الأخضر غير قادرة على الحكم تتوسل الغرب أن يأتي لمساعدتها على قتل أبنائها الضالين. وهم ليسوا إلا جزءا مهمشا من شعبها. أما في الموصل فتوجد إمارة تسمى نفسها بالدولة الإسلامية مدعومة من الغرب وبعض العرب والجيران، وهي تحظى ببعض الاحترام والمهابة لدى ذلك الجزء المهمش من شعب العراق.. دولتان في بلد واحد. الأولى يقال شيعية والثانية تقول أنها سنية وكل دولة تهدد الأخرى بالاجتياح دون أن تعلن أية واحدة منهما الانفصال أو الطلاق. فدرجة العداء عالية جدا وليس ثمة من مخرج عند كل طرف: فإما نحن وإما هم!..

وكما في العراق، تنام وتنهض كل من بلاد الشام وليبيا واليمن على المتفجرات والأحزمة الناسفة ومعارك كسر العظم والمذابح والطيران والبراميل المتفجرة في مشهد مسترسل بلا انقطاع وبلا أدنى أسف. لقد عاشت شعوب كثيرة انحرافات كثيرة خلال القرن العشرين، ولكن انحرافات العرب الكثيرة يصعب إحصاءها. فهي من كل نوع وعلى كل جبهة.. وما يجعل المرء حزين أنها لم تكن أبدا حتمية ولا هي كلها من صنع أعدائهم.. كما على الأرجح لم تكن أبدا لاستخلاص العبرة أو لاستخراج الاتجاه الصحيح.. كانت فظيعة حتى في مجانيتها...

كان من الممكن أن تكون أسطورة «داحس والغبراء»[59*] عبرة لأهلها كما كان «حصان طروادة»، ولكن لفرط ما نظرنا للغير نسينا أنفسنا.. وليست المسألة لدى العرب في معرفة ما إذا كانوا سيوقفون البكاء عن الأرض في يوم من الأيام بل في مدى استعدادهم للدفاع عن هذه الأرض بعد أن يكفوا عن البكاء والمناحة والتجريح لبعضهم بعضا.. إن مجتمعاتهم تفسد كل يوم وقد غرقت في عدوى الترف الزائف. وهذا الترف يستلزم المال المكتسب بسرعة وبكل طريقة، في المضاربة، في التهريب، عبر الاحتيال، في اليانصيب وفي الكازينو. وبالمال أصبح يشترى ويباع كل شيء إلا الفضيلة التي لا تباع ولا تشترى. وبما أن المال يقوى على كل شيء فهو يفسد كل شيء.. وها هو يفسد عقل العرب وقلبهم، ثم يصبح قائدا لهم نحو الإغواءات المرضية والتدمير الذاتي والمتبادل حتى بدوا كما لو أنهم على مسرح إغريقي قديم يعيدون تمثيل ماساتهم منذ عدة آلاف من السنين!..

منذ سبعة عقود وأكثر لم يحاول أي بلد عربي بذل جهد مقدام لإنقاذ بلد عربي آخر.. كانت فلسطين تمثل أيقونة بالنسبة لهم جميعا ثم أضحت جزءا من الغبار. لقد استخدموها في محافل كثيرة وحروب مشهدية ثم تناسوها جميعا وأغلقوا الملف وقالوا: «أهل مكة أدرى بشعابها». ومن بلد إلى بلد تستمر الألسن وتطغى المماحكات حول الأسبقية في الزمن والعراقة والأقدمية كما لو أن الدول الحديثة تقاس بالزمن. ولو أدرك العرب الذين يتكلم بعضهم عن ثلاثة آلاف عام وبعضهم يذهب نحو السبعة آلاف عام، أن الأسبقية أو الأقدمية تعني التقدم لوصلوا إلى القمر قبل أمريكا التي لا يزيد عمر دولتها عن الـ300 عام. هكذا حين تعجز النخب عن بناء حاضرها تتجه إلى الثرثرة حول ماضيها لكي تجلب منه الفخامة المفقودة والكرامة المهانة والنبالة المسحوقة والحكمة التي باتت خرقاء. وها هم العرب لا زالوا يعتقدون بأنهم أصحاب اللغة المقدسة، لغة الله، وأصحاب الشعر الأعمق والنثر الأقدم، وهم لا يترددون بالتلميح والتصريح بأن الأمم المجاورة لهم إما حديثة النعمة وإما سارقة للنعمة. هذا المرض أصاب نخب أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر بيد انه كان استنهاضا لوعي

متقد وبحثا عن حيوية وطاقة لتأكيد وجودها..

كانت أوروبا تقاتل على كل الجبهات، ضد الوعي الزائف، ضد النذالة، ضد انحطاط الأخلاق ومن اجل الإصلاح والنهوض والقانون وربما الوحدة (التي كانت هاجسا عميقا لدى فلاسفتها منذ لابينتز*60)

كان الألمان يعودون إلى تاريخهم السابق للرومان وكانوا يبحثون عن «لغة جديدة تملك استدارة اللغة اليونانية وجلالة اللغة الرومانية وأناقة الفرنسية ورقة الإيطالية وغنى الانجليزية ووقار الفلمندية*61.. وكانوا يريدون إرغام بقية الأوروبيين على الاعتراف بهم وبإنتاجهم الثقافي. وكان الفرنسيون أو الإيطاليون أو الانجليز يفعلون نفس الشيء ولا يريدون أن يتفوق أحد عليهم».. وكانت إيطاليا تشكو من كونها عبدة لفرنسا التي أفسدت كلاسيكيات الرومان العظيمة، وهي تعد نفسها بزمن استعادة حقوق السيدة الحقيقية.. وكان كذلك الإنكليز يشكون من عجرفة الفرنسيين والأسبان يشكون من منهجية الإنكليز الصارمة.. وكان يصعب على الأوروبي أن يجد من يحبه في أوروبا. ومع ذلك فقد كان كل أوروبي أوروبا يعملون من أجل أوروبا..

ثمة فرق جوهري بين أوروبي الأمس المتكارهين والمتنافسين والمتحمسين للحرب ضد بعضهم بعضا وبين العرب اليوم. ويكمن ذلك الفرق في الروح. فبينما كانت روح أوروبا حية وتريد التحليق وتسعى إلى الوثبة الكبرى، يعيش العرب اليوم بروح فقيرة إلى ربها، مسكينة ومهانة وتفتقر إلى الكبرياء. وإذا ما فقدت الروح كبريائها (بوشكين والروح الروسية)*62 تبقى خجولة ومتواضعة ولا تبحث عن الامتياز. وهذا كان نتيجة تاريخ طويل من الدجل والهزائم والخضوع للأجنبي. وحتى عندما جاء من سينهض بشعلة تلك الروح، قابله عرب آخرون برياح عاتية أطفأت كل شعلة في الداخل والخارج.

«ارفع رأسك يا أخي.. فقد انتهى عهد الاستعباد». كان أهم شعار رفع في العالم الثالث في سنوات التحرر الوطني. ولم يكن هذا الشعار الذي رفعه ابن العرب وابن مصر عبد الناصر، مجرد هراء كما سيقول عنه خصومه الصغار، وإنما كان فعلا إيذانا ببدء مرحلة ونهاية مرحلة. في العالم كله من آسيا إلى إفريقيا، وهو إيذان بفجر جديد للعرب استعدادا لبناء أمتهم!

آنذاك لم تكن بعد قد استنبطت كلمات كثيرة وعصبيات كثيرة. كان العرب لازالوا يسمون بلادهم ببلاد الشام وبلاد النيل وبلاد الرافدين وبلاد نجد والحجاز وبلاد المغرب. كانت كلمة –وطن– لا تزال حديثة وحتى مستهجنة عند أغلب النخب القومية والإسلامية وحتى الماركسية.. أما كلمة حقوق الإنسان فقد طغت عليها كلمة حقوق تقرير المصير. وكذلك كانت كلمة «حرية» قد تداخلت مع كلمة ديمقراطية ومساواة.

وهذا كله يمكن أن يفهم في سياق مرحلة التحرر الوطني واستكمال أسس الاستقلال والأمن القومي.. التي أشاعت تلك الروح الكبيرة والوثابة لعدة سنوات.

بعد سنوات قليلة من التمتع بمزايا الاستقلال، داهم العرب هم كبير صنعوه بأنفسهم. سرعان ما رأوا في حرب 67 هزيمة لهم. لقد قبلوا بالهزيمة كلهم ورأوا أنفسهم محقورين ومحقرين ذاتيا. وعملت الدعاية الغربية على أن تسكن تلك الهزيمة في سويداء الروح العربية. ولم يعد هناك من يجرأ على رفض تلك الهزيمة. وبدا التقهقر والتذمر والتحقير لكل ما هو عربي أو من يتكلم أو يدافع عن العرب. ورغم أن أيقونة فلسطين ظلت مرتفعة ولماعة، إلا أن الروح حين تنهزم يصبح كل شيء محقرا ذاتيا. ثم بدأت العادات المستهجنة في مهاجمة كل شيء وتبخيس كل شيء والتذمر من كل شيء والتحاسد على كل شيء. ها هم المصريون (السادات) يهاجمون كل العرب ويسخرون من أصحاب العقالات والبراميل، وها هم الفلسطينيون يضربون في كل مكان ويحاولون الانتقام من الذين لم يدافعوا عنهم.. وفيما بات العراقي يتفاخر أمام السوري والجزائري يسخر من المغربي والليبي يتطاول على التونسي، ولدت منظمات يسارية ويمينية متطرفة لمهاجمة كل من يختلف عنهم.. وبعد فصل طويل من البذاءة والتطاول والتكبر، بدأ الاستعداد للقتال الأهلي فكشف عن مكانه الأكثر حرية وإشباعا بتلك الثقافة: لبنان.. وفي مدة قصيرة شاع القتل عن الهوية ثم القتل عن القضية ثم القتل المجاني والمأجور معا.. تحولت الأزمة اللبنانية التي هي أساسها أزمة ثقافة عربية.. إلى أزمة إقليمية فدولية، فانتهى ما كان يسمى إيجابيا بالاستثناء اللبناني إلى أسوأ استثناء..

إن الشعور بالهزيمة قد هزم العقل والروح معا. وحتى الذي لم يقبل بهذه الهزيمة، أصبح محتالا عن الروح باختراعه لأفكار جديدة وبراقة سرعان ما تختفي حين يتصاعد دخان الهزيمة.. إلى جانب أولئك الذين كانوا يتلهون بتصورات العقل الفكرية (والتي أغلبها زائفة)، كان هناك من يسكن تحت سقف التخيلات السماوية والانخطفات والرؤى الصوفية.. كانوا يستعدون للخروج لينتصروا في معارك انهزم فيها آباؤهم وأجدادهم وكذلك العقل!.. وكانوا يعدون أنفسهم وجمهورهم بصناعة المعجزات، وهم لا يكلون لا من الدعوة ولا من السجون ولا من المنافي.. ومن بلد إلى بلد كانت تلاحقهم عيون السلطة والمخابرات الخارجية. ومن حين إلى آخر كانوا يتبادلون بعض الأسرار وبعض الإغواءات. كانوا يريدون أن يموتوا عظماء لا بؤساء لذلك كانوا على استعداد كامل لاستخدام كل شيء من اجل الوصول إلى أهدافهم بل كانوا مستعدين أيضا أن يصبحوا مستخدمين لدى أعدائهم الكبار لكي يتغلبوا على أعدائهم الصغار. وهكذا سيحمل جميع هؤلاء الجنود الجدد جميع أنواع البنادق. وسيستعملون كل هذه

الأسلحة ضد غير المؤمنين في البداية ثم يوجهون طلقاتهم إلى عدد كبير من المؤمنين الفاسدين ثم إلى المؤمنين المختلفين ثم إلى جميع من لا يؤمن بهم.. وتتوسع الدائرة فتتباعد وتتقارب الطموحات والمصالح ثم تتقاطع ثم تتفارق إلى حدّ القطيعة. ولو كان المرء ينتمي إلى هؤلاء لقال ما قاله فيلسوف ألماني: «غالبا ما تكون هناك أقدار تمنع البشر من أن يكونوا سعداء»*63 . أما الأكثر لعنة من جميع هذه الهرطقات، فأن يعد هؤلاء البؤساء البشر بالسعادة!..

*** *** ***

نعود الآن إلى سؤال البداية الاستهلالي: ما هي بلاد العرب اليوم؟

إنها بلاد شاسعة جدا وضيقة جدا. ارض ممتدة بين الصحراء والبحار. جغرافيا مفتوحة على العالم وغامضة ومسكونة ببشر لا يحلون خصوماتهم إلا بالغضب والعنف، حيث الأقوى يتغلب على الأضعف والأغنى يحتقر الأفقر. أقاليم وممالك وشبه جمهوريات وشعوب وحروب وثروات غير محصنة.. كذلك هي تشابك كبير من العراقيل والحواجز والعصبيات وحقول الغام وعقبات أمام الإخوة وخصومات بلا نهاية وروائح كريهة من النفايات وحتى من المقابر الجماعية وشواء الديمقراطية وجلد حقوق الإنسان ومذابح الحرية.. كل منهمك في تسييج بيته خوفا من جاره. وكل جار يحسد جاره أن يشبع ويشتمه إن جاع. بالإضافة إلى ذلك بناءون كسالى ومهندسون فاسدون وجغرافيون وراسمو خرائط فاشلون امضوا أكثر من قرن وهم لم ينتهوا من رسم خرائطهم وحدودهم حتى لم يعد لهذه الخرائط من قيمة.. حتى أن رسامي الخرائط الجدد قد وصلوا ليعيدوا رسم كل شيء من جديد..

لكن حذاري، فوراء ذلك الحشد من الآلام والفضائع لا بد أن توجد بلاد رائعة وبشر رائعون.. بلاد تحتوي على كل الخيارات والثروات والمناخات، بلاد يزرع فيها الزيتون والرمان والنخيل والفستق والزعفران وتتوسط العالم ببحاره وصحاريه وتملك مفاتيح التجارة الدولية ونصف طاقة العالم وكذلك نصف شمسه، بلاد يستمد العالم كله حيويته ونشاطه وطاقته منها.. بلاد ترتفع فيها الصوامع إلى جانب الكنائس وتفتخر بأنها أرض عيسى وموسى ومحمد وارض اللغات القديمة والحضارات الأولى. وفي هذه البلاد بشر آخرون طيبون يحلمون بجنتين واحدة على الأرض وأخرى في السماء. بشر يحضنون أديانهم وتاريخهم بلا تعب ولا ملل. باهرون، رائعون وواعدون بالحرية والكرامة.. ففي هذه البلاد ولدى هؤلاء البشر لا بد أن توجد عبقرية ما حتى يجتمع كل هذا البهاء والسخاء.. وكل هذا البكاء لديهم.. مازلوا يشعرون بالبهجة حين يطل البدر ولازالوا يضربون الدفوف حين يعود المسافر من سفره، ولازالت تذبح الأكباش حين

يختتون الصبيان، ولازالوا يرفعون المهور حين يزوجون بناتهم.. لازالوا كذلك محملين بمهمات تاريخية وإنقاذية، موهوبون ومحبو حروب وكذلك طيبون وحتى ساذجون من أجل المجد. وذلك هو وعدهم لأنفسهم ولذويهم ولعائلاتهم.. وكذلك للسماء..

ما هي بلاد العرب؟ إنها بلاد تعمل من أجل بلوغ السماء وكذالك من أجل إسعاد الأرض.. وتلك مهمتها المزدوجة والصعبة في عالم بات بلا روح، وفي عالم أضاع فيه الإنسان عمله وكرامته ومعرفته بما ينفعه وما يفيده حتى دخل إلى الفوضى ولم يعد يعرف طريق العودة إلى النظام. ولا طريق الصعود إلى السماء. فالإرهاب المعولم الذي جعل من الطيبين السعداء، متوحشين سعداء بوحشيتهم لا بد انه غريب إلى حدّ ما عن هذه البلاد، حتى لو أصبح ساكنا أليفا من سكانها..

مصادر و هوامش

الفصل الأول

1 - أنظر ما كتبه فاضل الربيعي. عن تنظيم خراسان الذي قد يخلف داعش ويصبح أكثر توسعا وتطرفا منه. والتنظيم الذي قد يبدأ ببناء الخلافة بين المشرق بداية من عرابستان ونهاية بتمبكتو في مالي.

كتب فاضل الربيعي، «قريبًا سيظهر تنظيم إرهابي جديد متوحّش باسم «خراسان»»، وسيكون أسوأ من تنظيم «داعش»»، وربما نترحّم على «طيبة» تنظيم «داعش»»، بحسب تعبيره. وكتب الربيعي عبر صفحته الرسمية على «فيسبوك»»، تدوينة تحت عنوان «حفلة جنون في الشرق الأوسط، ولادة الوحش القوقازي»». وأوضح أنه بدأت ملامح ولادة «خراسان»»، كتنظيم متوّحش تتشكل داخل الحوض القوقازي، ثم امتداداً حتى الحدود الأفغانية- الباكستانية، مع تدفق الإرهابيين القوقاز والشيشان والأفغان والباكستانيين نحو سوريا والعراق، وأضاف: «تواترت الأنباء عن صراعات حقيقية تخوضها جماعات متوّحشة هناك، حول الموقف من (دولة الخلافة) في الشام والعراق»». ويبدو أن الأمراء القوقاز باتوا يلعبون دوراً مركزياً في هذه الصراعات، وذلك بعد مبايعات علنية لـ»الخليفة البغدادي»». وشرح قائلاً «إن الوقائع الراهنة تؤكد انتقال هذه الصراعات إلى أرياف حلب وإدلب والرقة ودير الزور والموصل، وذلك مع تفجرّ التناقضات الداخلية بين المجموعات الشيشانية- الأفغانية- الطاجيكية»». وواصل الربيعي «لعل إعلان (دولة الخلافة) مؤخراً عن إعدام مجموعة من (المجاهدين القوقاز) بحجة ارتباطهم بجهاز المخابرات الروسي KGB، والحديث عن اختراق أمني، يؤكد بشكل قاطع أن الصراعات على الحدود الأفغانية-الباكستانية انتقلت إلى بلاد الشام والعراق، وأصبحت صراعات محلية»». وتابع المفكر العربي قائلاً: «ثمّة مغزى عميق في فكرة إطلاق اسم خراسان على هذا الإقليم، فقد أطلق المجاهدون الأفغان والباكستانيون والطاجيك والشيشان اسم ولاية خراسان، على المنطقة الفاصلة بين الحدود الأفغانية- الباكستانية بعد مبايعة أبوبكر البغدادي خليفة للمسلمين»». وفي أبريل

2013 انتقلت مبايعة البغدادي من الحدود الأفغانية- الباكستانية إلى أرياف سوريا، حين أعلن أحد قادة طالبان ويدعى أبو عمر الخراساني مع خمسة من الزعماء مبايعة البغدادي، وهو ما أثار حفيظة الجماعة القوقازية التي استنفرت صفوفها وأعلنت باسم زعيمها أمير القوقاز أبومحمد الداغستاني عن رفض البيعة. كل هذه المؤشرات، تؤكد أن ولادة تنظيم خراسان، باتت وشيكة، بحسب قول الربيعي. (موقع: وكالة وطن للأنباء - 15/07/2015)

2 - شهدت أوروبا خرائط كثيرة خلال القرن الـ20. بعد جدار برلين أصبحت تشيكسلوفاكيا دولتين: تشكيا وسلوفاكيا. ويوغسلافيا سبعة دول: صربيا، كرواتيا، سلوفينيا، مونتونيغري، البوسنة، مقدونيا، كوسوفو. وتم تقسيم رومانيا ثم وأخيرا تقسيم أوكرانيا فيما اتحدت ألمانيا واستقلت دول البلطيق. ولاتزال قبرص مقسمة وقد تنقسم إسبانيا وبلجيكيا.. وتبدو الخرائط في كل مكان متحركة وهي تخضع لموازين القوى الداخلية والخارجية. وهكذا لا يمكن استبعاد تركيا في المستقبل أو حتى إيران وما يحدث في بلاد العرب حدث في الماضي وقد يحدث في المستقبل.

- أنظر مقال الدكتور كمال سعيد حبيب: الجغرافيا السياسية الجديدة والعنف في العالم العربي: عالم قيد التشكيل. (موقع: مجلة السياسة الدولية)

- أنظر كذلك ما كتبه الكاتب الفرنسي تيري مايسون - تركيا في خطر -
La Turquie en danger - Thierry Mayson. Réseau voltaire

3 - أنظر ما كتبه المفكر «عبد الله العروي» حول أوروبا: الفكرة والأسطورة والوهم. بتاريخ 2014-06-28. فهو يرى أن أوروبا بالنسبة لطه حسين أو لدستوفسكي أو بالنسبة لتوماس مان هي سراب. كلما حللناها ذابت في مفهوم التاريخ. رحلة أوروبا حول الكرة الأرضية هي في آخر المطاف مغامرة التاريخ البشري. إنها عبارة ذات التباس قاس جدا. إنها تجعل محاولات الآخرين تافهة.. وفي نفس الوقت تفرغ عبارة أوروبا من محتواها المحدد. وفي الواقع فإنه مهما كان البعد الشيطاني للوعي الأوروبي، فإن غير الأوروبيين لم يتمكنوا أبدا من محاربته علانية ذلك أنه لم يقع تحمله بشكل واضح..

4 - **غوتفريد لابينتز:** (Gottfried Leibniz) 1646 - 1716). فيلسوف وعالم طبيعة (فيلسوف عصر العقلانية وعصر التنوير) وعالم رياضيات مستقل عن نيوتن. كتب في الأخلاق والمعرفة والسياسة واللغويات. (الكون أكمل خلق الله ولا يمكن أن يوجد أكمل منه) عمله الفلسفي مهد للمنطق والفلسفة العقلانية التحليلية. دعا هذا المفكر في أواخر القرن 17 الأوروبيين إلى الخروج إلى الخارج. كان أول داعية **للتوسع وبناء الإمبراطوريات الواسعة..**

5 - **بول هازار:** (Paul Hazard) 1878 - 1944). كاتب ومؤرخ وأكاديمي فرنسي. أهم كتبه «أزمة الوعي الأوروبي في القرن السابع عشر». وقد نشر عام 1935 إبان صعود الفاشية في أوروبا. انتخب كعضو في الأكاديمية الفرنسية في العام 1940 لكنه لم يدخلها بعدما احتل الألمان باريس. كتب كثيرا عن أوروبا وشارك في نقاشات قد تكون فتحت طريق الاتحاد. من كتبه: «إيطاليا الحية». و«مع فيكتور هيغو في المنفى». كتاباته تتميز بالشاعرية والصرامة الأكاديمية. آخر كتبه: (الكتب - الأطفال والرجال). كتاب أزمة الوعي الأوروبي - صدر عن المنظمة العربية للترجمة - بيروت - ترجمة د. يوسف عاصي حزيران 2009.

6 - نفس المصدر . بول هازار.

أزمة الوعي الأوروبي في القرن السادس والسابع عشر.

صدر عن المنظمة العربية للترجمة - بيروت - ترجمة د. يوسف عاصي حزيران 2009.

7 - أنظر نص المعاهدة السعودية – الأمريكية (معاهدة كوينسي) بين الملك المؤسس ابن سعود والرئيس روزفلت في العام 1945. كما أشارت إليها مراجع كثيرة منها كتاب: العلاقات السعودية/الأمريكية في البدء كان النفط – تأليف بنسون لي جريسون – ترجمة سعد هجرس – دار الجيل – بيروت.

- أنظر كتاب: الملك سعود – الشرق في زمن التحولات–

جاك بونوا ميشان – ترجمة نهلة بيضون. دار الساقي – لندن

- أنظر كذلك كتاب: خريف العرب – الصافي سعيد – دار عرابيا – تونس – عام 2011 أو طبعة بيروت – دار بيسان 2005.

9 - سايكس /بيكو: كشف الزعيم السوفياتي لينين بعد انتصار ثورة أكتوبر 1917 عن فحوى ذلك الاتفاق. وقد ندد به باعتباره استبعد وجود روسيا في المنطقة العربية. وقال «إن مؤامرات الإمبرياليين لا تنتهي». الاتفاق كان نتيجة مساومات بين الفرنسيين والأنكليز وبعض الكيانات الجديدة. وقد تم في العام 1916 حتى قبل أن تنتهي الثورة العربية الكبرى. وهو ما مهّد لوعد بلفور الذي صدر في العام 1917.
سايكس هو وزير خارجية بريطانيا وبيكو هو وزير خارجية فرنسا آنذاك.

10 - شارل مونتسكيو Charles de Secondat, Baron de Montesquieu:
ولد في غرب فرنسا عام 1689. وتوفي في العام 1755 (66 عاما). من كتبه: الرسائل الفارسية، روح القوانين. مفكر سياسي وعالم اجتماع من عصر الأنوار. صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة الديمقراطية حاليا. في العام 1734 نشر كتابا تحت عنوان: «الملكية العالمية». قام فيه بتقسيم الشعوب إلى شمالية وجنوبية. وادعى أن الفرق في الإختلاف هو المناخ.

11 - ميشال فوكو(Michel Faucault (1926-1984. من كتبه: المراقبة والعقاب، تاريخ الجنس، تاريخ الجنون، الكلمات والأشياء، أركيولوجيا المعرفة.

يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن الـ20. تأثر بالبنيوية وحلل تاريخ الجنون وعالج مواضيع مثل العقاب والإجرام. ربط بين المعرفة والسلطة والخطاب الغربي. ورأى أن الغرب سجين أفكاره، لذلك أبدى إعجابه بالثورة الإيرانية ورأى فيها مساحة جديدة للانعتاق والمعرفة. درّس في جامعات كثيرة منها تونس وأوبسالا ووارسو وهامبورغ والكوليدج دو فرانس. كان ينتمي إلى أوساط اليساريين. ولكن بعد خيبة اليسار، اهتم بالكتابة.

12 - ميشال فوكو – كشوفات الثورة في إيران.

أنظر مجلة – ديبا: Debats– مناظرات – باريس عام 1981.

13 - نفس المصدر.

14 - **صامويل هنتنغتون** - كتاب صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الجديد - الدار الجماهيرية للنشر - طرابلس 1999.

ترجمة: د. مالك أبو شهيوة - د. محمود محمد خلف.

15 - أنظر كتاب - المعادلة التونسية: كيف نصنع المستقبل؟ - الصافي سعيد - دار عرابيا - تونس 2014.

16 - صامويل هنتنغتون - في مقال حديث نشر العام 2014 في مجلة «فورين أفيرز» الأمريكية ومجلة «العلاقات الدولية» الفرنسية Relations internationales.

17 - أنظر حوار مع Michel Rimbaud بتاريخ 2015-03-9. وهو كاتب ودبلوماسي فرنسي. نشر تحت عنوان: الولايات المتحدة ليس لديها إلا منطق الفوضى - في مجلة «أفريكا أزي» - أجراه: ماجد نعمة وحسن زناتي.

مؤلف كتاب: عاصفة على الشرق الأوسط

Tempête sur le moyen-orient
Ed : Elipses - Paris 2015

18 - **كوندورسيه**: ظهر الماركيز دي كوندورسيه في العصر الذي أنجب فولتير وتوماس مان وديدرو وروسو. كان يمثل بصدق حملة التنوير الأوروبي. كتابه: «جدول تاريخي بمراحل تقدم العقل البشري» يعتبر بمثابة «الماجناكارتا» للديمقراطية الحديثة. عاش مدافعا عن تقدم الشرق وعن الحكومات الدستورية وحرية التجارة واقترح إقامة محكمة دولية لفض النزاعات وإلغاء حكم الإعدام. ولد جان انطوان دي كوندورسيه في شمال فرنسا عام 1743. وفي عام 1784 قدم دراسة في نظرية الاحتمالات. وقد سبق بها مالتوس في المطالبة بتنظيم النسل. أيد الثورة الفرنسية وكان من لجنة صياغة الدستور. ثم اتهم بالخيانة حين عارض إرهاب الثورة. اختبأ لدى سيدة أرستقراطية ثم أكمل مشاريع كتبه. بعد ذلك خرج من مخبأه فألقي عليه القبض ومات في مزرعة. وفي العام 1989 نقل جثمانه بعد قرنين من الثورة إلى الباتينون - مقبرة العظماء. والمفارقة أن تابوت هذا الرجل الفيلسوف العظيم وجد خاويا. فلربما جثمانه قد تحلل في المزرعة التي مات فيها أو أكلته الكلاب!..

انظر كتاب: نابليون: أسطورة المنقذ. جان تولارد

Napoleon : Mythe d'un sauveur - Jean Tulard
Ed fayard - 1987

19 - **ميشال سير Michel Serres** - من مواليد 1930. يعتبر أحد أبرز فلاسفة العلم في العصر الحاضر. بل من أكثرهم شهرة في العالم الأنجلوساكسوني. «مجتمعاتنا عاشت ثورتين. ثورة الانتقال من الشفاهي إلى المكتوب ثم من المكتوب إلى المطبوع» هذا ما ورد كملخص لكتابه - عقلة الإصبع الصغير».

من كتبه الأخرى «الحواس الخمس». منشغل بالتواصل منذ بداية مشروعه الفلسفي بحثا عن الإنسان الجديد. إنه يبدو كما لو أنه تكملة لميشال فوكو. يكتب في تفاصيل الحياة والاقتصاد والسياسة وفلسفة التواصل. يعتبر «سير» أن الأجيال الحالية أقل اهتماما بالإيديولوجيا والهويات. الفايسبوك هو نظام يوزع الفاعلية بالتساوي ويمنح

الناس أصواتا ومساحات لإنتاج التغيير والإختلاف.

20 - القديس **أغسطين أوف هيبو:** ولد في نوفمبر 354 ميلادي في سوق أهراس بالجزائر حاليا. وتوفي في العام 430 في عنابة (76 عاما). أمازيغي. يعتبره الكاثوليك أهم ثاني شخصية أثرت في الفكر المسيحي بعد القديس بطرس. في كتابه (الاعترافات) قال أنه يؤمن بالجبر وبأن تاريخ البشر عبارة عن صراع بين مملكة الرب ومملكة الدنيا. دافع بقوة عن روحانية المسيحية. استعمل الصليبيون فيما بعد كلماته لتبرير حروبهم ضد المسلمين بقولهم: «أن الحرب عادلة إذا كانت من أجل مملكة الله».

22-21 - **هايدغر Martin Heidegger** . ولد في سبتمبر 1889. وتوفي في مايو 1976 في ألمانيا. فيلسوف ألماني كان له تأثير كبير على القرن العشرين. من كتبه «الوجود والزمن»، و«مقدمة في الميتافيزيقا»، و«نيتشه»، و«دروب موحدة»، و«نداء الحقيقة».. كان موضوع بحث لدى جميع فلاسفة القرن الـ20. وعرف بفلسفة النقض أو التفكيكية ما بعد الحداثة. اتجه بعد نقضه للميتافيزيقا إلى الأنطولوجيا. وركز على أسئلة الروح والكينونة. اتهم باللاسامية ولم يخف أبدا إعجابه بالفوهور هتلر. يعتقد جيدا أن هم الإنسان ليس الوجود في حد ذاته، بل العدم، لأن الإنسان يعيش على قلق الموت والنهاية!..

24-23 - كانت اللغة سلاحا لدى كثير من الشعوب المضطهدة. فهي التي حافظت على العلاقات والهوية. لقد تمكن اليهود من العودة إلى التاريخ بفضل حفاظهم على لغتهم. وكذلك فعلت شعوب أخرى في إفريقيا وآسيا. ثم هناك كثير من الدول حين أرادت أن تتقدم، اتجهت في البداية إلى تقعيد وتحديث لغاتها مثل الأتراك واليابانيين. وفي الحالة العربية، فإن المد القومي قد بدأ مع عودة الكتابة باللغة العربية والتفكير بها والدفاع عنها. وهذا ما أشار إليه مؤرخون كبار مثل البريطاني «هابزباوم» إذ يقول: «أن القرن الـ19 كان فترة العودة إلى المرجعيات الكبرى التي أرست دعائم المفردات واللغة وأقرت الاستخدامات الصحيحة للمصطلحات..»

أنظر كتاب: عصر الإمبراطورية 1875-1914 - اريك هابزباوم -

ترجمة فايز الصباغ - إصدارات المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2011.

25 - في العاشر من حزيران 2014 استولى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام على مساحة تقدر بمساحة تونس (160 ألف كلم مربع) من أرض العراق ووضع تحت يديه تكريت والرمادي والفالوجة والموصل ولم يكن بإمكان الجيش العراقي أن يصده أو يصمد أمامه.

ولد التنظيم داعش من القاعدة. كما كانت القاعدة قد ولدت من تنظيم التوحيد والجهاد كجماعة إسلامية من الجماعات. ومن القاعدة الأم في أفغانستان، ولدت قاعدة بلاد الرافدين. وهناك ولد تنظيم الدولة الإسلامية - داعش. ثم تحول إلى خلافة، حيث يريد أن يظم كل روافد الجهاد الإسلامي من أجل إعلان الخلافة الإسلامية.

وتتصدر داعش قائمة أغنى التنظيمات الإرهابية في العالم.

وكشفت صحف أجنبية عن أن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش» أصبح من أغنى التنظيمات الإرهابية في العالم، بعد تمكنه من السيطرة على عدة مناطق في العراق ونهب بنوكها.

وأشارت مصادر أجنبية نقلا عن لاجئين عراقيين في معسكر «حلاق» المتمركز قرب مدينة أربيل عاصمة إقليم «كردستان العراق» أن مسلحين تابعين لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش» نهبوا عدة بنوك في المنطقة، وقدرت المصادر غنائمهم بحوالي 350 مليون يورو نقدا، بعد أن سيطروا على مناطق متفرقة من شمال البلاد.

وكتبت صحيفة الـ«هافينغتون بوست» الأمريكية أن عملية السطو على البنك المركزي في الموصل أسفرت عن نهب 500 مليار دينار عراقي أي ما يعادل نحو 425 مليون دولار ليتصدر تنظيم «داعش» بذلك قائمة أغنى التنظيمات الإرهابية في العالم.

ووفقا لصحيفة «نيويورك تايمز» تم تصنيف «داعش» كأغنى تنظيم إرهابي عالمي من حيث الموارد بعد الغنائم المكتسبة حديثا شمالي العراق.

ونقلت صحيفة «انترناشيونال بزنس تايمز» تصريحات إعلامية لمحافظ نينوى أثيل النجافي: «أن مسلحي داعش استولوا أيضا على الملايين من بنوك أخرى في المنطقة بالإضافة لكميات كبيرة من السبائك الذهبية».

في حين ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن ميزانية حركة طالبان الأفغانية في إحدى السنوات تراوحت ما بين 70 و400 مليون دولار، في حين كانت لدى حزب الله اللبناني ما بين 200 إلى 500 مليون دولار، أما الإيرادات السنوية لتنظيم «فارك» في كولمبيا فتراوحت ما بين 80 مليون و350 مليون دولار، ولدى حركة الشباب في الصومال بين 70 إلى 100 مليون، أما تنظيم القاعدة فصرف 30 مليون دولار كميزانية تشغيلية خلال هجمات 11 سبتمبر /أيلول عام 2011.

وكتب المحلل الإقليمي براون موسيس في حسابه في تويتر: «أموال داعش ستمول الكثير من العمليات الجهادية»، مشيرا إلى أن الأموال التي سيطرت عليها «داعش» بقيمة 425 مليون دولار، ستمكنها من دفع 600 دولار شهريا لنحو 60 ألف مقاتل لمدة عام كامل.

26 - جاء ذلك على لسان وزير الخارجية الأمريكي كيري ثم تكرر على لسان الرئيس أوباما، فيما طالب جنرالات أمريكيون بالتريث والصبر الإستراتيجي.

28-27 - أنظر كتاب «التاريخ الجديد» تحت إشراف جاك لوغوف. ترجمة محمد الطاهر منصوري. نشر المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2007.

وتبدو هنا أفضل إجابة عمن يكتب التاريخ: «اصنع التاريخ. وسوف يكتب التاريخ نفسه بنفسه». أو «لا تسأل من يكتب التاريخ.. إصنع التاريخ أولا»..

29 - ليفي ستروس Claude Levi Strauss. عاش قرنا كاملا (2009-1908) بدأ حياته مع الفلسفة المجردة ثم ما لبث أن اتجه إلى الواقع. سافر إلى البرازيل حيث درس علم الاجتماع ومن هناك أصبح باحثا أنتروبولوجيا. ومن كتبه: «البنيات الأولى للقرابة»، «مدارات حزينة»، «الإنتروبولوجيا البنيوية»، «الفكر المتوحش»، «الأعراق والتاريخ»، «الطوطمية حاليا». كان متأثرا بماركس ومارسيل موس، وروسو، ودي سوسير، كما أثر في بياجيه ودريدا ولوسيان صباغ..

29* - أنظر ما كتبه **جان لاكويتر** في كتاب «التاريخ الجديد» - تأليف جماعي تحت إشراف جاك لوغوف - ترجمة محمد المنصوري - منشورات المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2007.

30 - مذكرات **هيلاري كلينتون** (خيارات صعبة) ترجمة مي سمير. وزيرة خارجية أوباما في فترة أوباما الأولى من 2009 إلى 2013. صدر في جويلية 2014، تحت عنوان «Hard Choices» يقع في 632 صفحة.

القسم الخامس كان الأكثر إثارة. وقد خصصته عن الربيع العربي. وأسرار السياسة الإيرانية والصراع الفلسطيني الإسرائيلي. من أقوالها: «أن تبحث عن الإصلاحات في العالم العربي هو أن تضرب رأسك يوميا بالحائط».

31 - أنظر المرجع السابق.. ثم لم يكن خافيا أبدا، الدور الكبير الذي لعبه سفير أمريكا بتونس «والس» مع جميع الأطراف السياسية. وقد ظهرت صور كثيرة وهو يستقبل زعماء الأحزاب على أنواعها. ويبدو في بعض الصور كما لو أنه أستاذ بصدد إلقاء درس على طلبته. كذلك فعل السفير الألماني والفرنسي وحتى الجزائري.. وقد بدت تونس في العام 2011 إلى انتخابات 2014 كما لو أنها تحت الحماية الأمريكية – الفرنسية – الألمانية – الجزائرية.. وقد فهمت الأحزاب السياسية وخاصة النهضة، الدرس، فقبلت بمبدأ التوافق الذي أشاعه الأمريكان.. وهو ما صنع مشهدا سياسيا مخنثا وكئيبا.. اعتبره البعض استثناء تونسيا.. يمكن أن نفهم هذا الاستثناء في أن تونس كانت البروفة للربيع العربي ثم المخبر للديمقراطية التوافقية..

32 - لم تقدم النهضة أي مرشح لرئاسة الجمهورية عام 2014. كما لم تكن راغبة في الفوز في انتخابات البرلمان عام 2014. كانت ترغب أن تحافظ على عدد مريح من البرلمانيين. وقد لمست ذلك من خلال زيارتين للشيخ الغنوشي عقب إعلان النتائج مباشرة. وقد وجدته منشرحا. وقد عبر لي عن ارتيايحه قائلا: «لو أننا فزنا بالأغلبية، فإن دولا كثيرة كانت ستهجم علينا وتمزق لحمنا.. والحمد لله أننا قد نجونا من ورطة النجاح.. وجودنا في البرلمان مريح وواسع لكنه غير مهين. بل هو مطمئن للجميع..» المؤلف.

33-34 - ألغت المحكمة الإدارية في تونس في العام 2015 بعض مراسيم المصادرة التي خرجت في حكومة السبسي الانتقالية تحت رئاسة فؤاد المبزع. وتبعا لذلك المنطق فإن جميع المراسيم التي صدرت آنذاك بما فيها إنشاء مجلس تأسيسي وتنظيم انتخابات في العام 2011 قد تعتبر لاغية. ومعنى ذلك أن الرئيس بن علي يمكن له أن يعود بما أن المجلس التأسيسي لم يوافق ولم يناقش تخليه عن السلطة أو هروبه كما لم يقدم استقالته ولم يبلغ بخلعه أو عزله. والعقوبة الوحيدة التي يمكن أن ينالها طبقا لهذه «اللخبطة الدستورية والقضائية»، هي عقوبة هروبه من الواجب باعتباره كان قائدا عاما للقوات المسلحة. وتخليه عن الواجب وعن حماية مواطنيه من القتل.

35 - تعبير «الفوضى الخلاقة» وصل إلى العرب على لسان كوندا ليزا رايس وزيرة خارجية بوش/الإبن. وقد نطقت بها أثناء الغزو الأمريكي للعراق. ثم أصبح هذا التعبير متداولا بعد موجة الربيع العربي. ولكن هذا التعبير موجود منذ أزمنة في الأدبيات السياسية وكذلك في النصوص الإبداعية. وقد استعمله حتى السورياليون. وساد بعد الحرب العالمية الثانية. كما أنه متداول لدى الباحثين السياسيين ويعبر عنها بـ«الفوضى التطورية» للانعتاق من النظام المغلق.

- **جايمس غليك:** صاحب كتاب نظرية الفوضى – علم اللامتوقع (chaos). منذ أن شرع العلم في حلّ ألغاز الكون عانى دوما من الجهل بشأن ظاهرة الاضطراب مثل تقلبات المناخ وحركة أمواج البحر والتذبذب في عمل القلب والدماغ.

36 - جيل دولوز Giles Deleuze فيلسوف فرنسي ولد في باريس عام 1925 وتوفي في العام 1995 منتحرا حين رمى نفسه من شقته في باريس. من كتبه: نيتشه والفلسفة، التكرار والاختلاف، أوديب المضاد، منطق المعنى، ما الفلسفة؟ مع فيليكس غيتاري، فلسفة كانط النقدية. كما كتب عن فلسفة الانغلاق L'enfermement.

مع دولوز لايزال التفلسف ممكنا. تعود الفلسفة إلى الحياة لأنها تعيدنا إلى الحياة.. قال عنه فوكو: أن القرن الـ20 سيكون لدولوز. كان بحق ينتمي إلى ما بعد الحداثة.. إلى مجالات جديدة وخصبة عن الحياة والصورة والإشارة واللغة والانغلاق وخلق لغة جديدة ومفاهيم جديدة.

37-38- 39 أنظر كتاب «الفوضى» «Chaos» James Gleik - ترجمة سامي الشاهد - إصدارات المجمع الثقافي في الإمارات - أبو ظبي عام 2000.

- **جيمس كرتشفيلد** الذي كان رئيسا لوكالة الاستخبارات «سي.اي.اي» في الشرق الأوسط في الستينات استعمل تعبير الفوضى لإحداث انقلابات كثيرة من أجل تصفية أعداء كثيرين وتطويع المنطقة.

- **ها باي لين**، فيزيائي صيني تحدث كذلك عن الفوضى باعتباره جزءا من النظام، منذ خمسينات القرن الـ20.

- **ايان ستيوارت**، عالم رياضيات أنجليزي. أشار إلى مفهوم الفوضى في عالم مجهول الخطوات والاتجاهات. آخر مؤلفاته: السعي وراء المجهول، سبعة عشر معادلة غيرت العالم.

40 - زبينيف بريجنسكي: مولود عام 1928 في وارسو ببولندا. أصبح مفكرا سياسيا ومستشارا للأمن القومي في عهد كارتر من 77 إلى 1981. ساند مبدأ القوة ضد الاتحاد السوفياتي. وسقط الشاه في عهده وناصر سياسة حقوق الإنسان. أصبح معروفا منذ كتابه الأول «بين عصرين». وقد كتب كثيرا في الدبلوماسية. وكانت أطروحة دكتوراه حول «التوتاليتارية في الاتحاد السوفياتي». عرف بأنه من أنصار الكفاح الإسلامي ضد الإلحاد الشيوعي. وطبق ذلك في حرب أفغانستان. ثم رأى أن الفوضى في الشرق الأوسط من شأنها أن تخلق ظروفا جيدة للهيمنة الأمريكية. كان شبه موتور ضد الاتحاد السوفياتي. وقد حاربه في بولونيا وأفغانستان ونيكاراغوا ووعد كل زملائه بأنه سيسوق الاتحاد السوفياتي إلى الفوضى. عمل كذلك مع ريغان ثم جورج بوش وكان كثير الصدام مع الديمقراطيين. من أنصار التحالف الأوروبي-الأمريكي: «بدون أوروبا، أمريكا ليست هجومية. وبدون أمريكا أوروبا ليست قوية»..

41 - أنظر كتاب صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الجديد.

صامويل هنتنغتون - الدار الجماهيرية للنشر 1999 -

ترجمة: د. مالك أبو شهيوة - د. محمود خلف.

42 - أنظر كتاب «الفوضى» Chaos» جيمس غليك - ترجمة سامي الشاهد - إصدارات المجمع الثقافي في الإمارات عام 2000.

43 - نفس المصدر.

أنظر كذلك ما كتبه العالم البريطاني لويس ريتشاردسون عن الفوضى المنظمة في الكون.

44 - غاليلو غاليلي: عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي. ولد في بيزا عام 1546 وتوفي عام 1642. والده ماهر في الموسيقى والرياضيات. اتجه غاليلو إلى الطب ثم إلى الهندسة ثم إلى الفيزياء. اخترع أول محرار هندسي. واكتشف نظرية الأجسام المتفاوتة الوزن. وأثبت أن الثقيل والأقل ثقلا يمكن أن يصطدما بالأرض في نفس الوقت. اخترع المنظار. وبه بدأ يكتشف ألغاز الكون ودوران الأرض. عاقبته الكنيسة على أفكاره المضادة للكتاب المقدس. وأذعن في البداية لكنه عاد ليكتب أفكاره التي يؤمن بها. وفي العام 1642 قطعت الكنيسة رأسه ودفن في فلورنسا. ثم اعتذرت منه الكنيسة فيما بعد (بعد حوالي قرنين) عندما أثبت العلم صحة نظرياته.

45 - في العام 1989 سقط نظام الرئيس تشاوسيسكو في بوداست. كان يخطب في ساحة كبيرة ومغلقة أمام حشد كبير من الجماهير. وفجأة سقط ثلاثة ضحايا نتيجة قنص غامض، فاندفعت الجماهير لتهجم على القصر الذي كان يخطب من فوق سطحه. هرب الرئيس بسرعة على متن هيلوكبتر حطت فوق السطح ثم سلم إلى قاعدة عسكرية فتم إعدامه بسرعة مع زوجته بدون محاكمة. فجأة ظهرت أكفان كثيرة في مدينة تيمشوارا قيل أنها من ضحايا القمع البوليسي. وفيما بعد اعترف صحفيون بأن الموتى قد وقع سحبها من المستشفى وتم عرضها في الشارع على أنها ضحايا القمع البوليسي. وعبر الشاشات (السي.اي.اي C.N.N) ظهرت بضعة أكفان على أنها عشرات إذ تم تركيبها وتصويرها في أكثر من مكان.

ومن خلال كتاب: «أكبر كذبة في القرن» «Le plus grand mensonge du siècle» لمؤلفه الفرنسي – تريان أوربان – -Triain Orban- Ed: Seuil . Paris 1992. عرفنا أن تلك الثورة، هي أول الثورات الملونة التي تصنعها أمريكا عبر الفضائيات في أوروبا الشرقية.. وقد تكرر ذلك المشهد في ثورات أخرى كثيرة منها ثورات الربيع العربي حيث لعب فيها القناصة المجهولون و«مجهولو الأنترنت Anonymos» الدور الكبير!..

46 - دكتور فاوست: هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الشعبية الألمانية، عن الساحر الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يبرم عقدا مع الشيطان. نقرأ ذلك من خلال مسرحية فاوست لغوته وكذلك توماس مان وأوسكار وايلد. ومن العرب علي أحمد بكثير في فاوست الجديد. فاوست أراد أن يكشف سر الحياة (الجوهر). فأبرم عقدا مع الشيطان ليقوم بخدمته فيستولي الشيطان على روحه. لكن الاستيلاء كان مشروطا ببلوغ السعادة. فهل بلغ فاوست السعادة؟ أبدا. إنه رمز غير المكتمل.

47 - ظهر بعض الصحفيين التونسيين إلى جانب قيادات عسكرية في الأفريكوم في شتوتغارت وعلق عليها بعض الناشطين في المواقع الإجتماعية، بأن هؤلاء الصحفيين يعملون لحساب الدعاية العسكرية الأمريكية. وقد ترافق ذلك مع توقيع اتفاقية بين أمريكا وتونس بموجبها تصبح تونس حليفا ممتازا من خارج الناتو في العام 2015. ثم ارتفعت حدة النقاشات في التلفزيونات والمواقع الإجتماعية مع – شائعات – تقول أن أمريكا فتحت قاعدة عسكرية في الجنوب التونسي وهو أمر لم يقع نفيه رسميا حتى الآن لا من تونس ولا من واشنطن.. سنتعرض لهذا الموضوع في فصل آخر مع ذكر المراجع.

48 - أنظر كتاب «اختلال العالم»
Le dérèglement du monde
quand nos civilisations s'épuisent

Amin Maalouf
Ed: Bernard Grasset - Paris 2010

49- نفس المصدر السابق.

50- أنظر: مذكرات **بن غوريون**. مساجلات جمعها شمعون بيرس. صدرت بالفرنسية عن دار لوساي في 1985. كذلك كتاب: بن غوريون يتكلم
Ben Gourion parle - par Thomas Branstan
.Ed : Stoch - Paris 1970

wفي واشنطن. أنظر مذكرات كولن باول وزير خارجية أمريكا السابق أثناء غزو العراق 2003.

52 - كلام نطق به الرئيس اليمني علي عبد الله صالح بعد أن تكلم بوش الإبن عن خارطة الشرق الأوسط الكبير. وأوضح الرئيس اليمني آنذاك في العام 2004 أن أمريكا طلبت منهم الانصياع والتغيير وإلا فإنها ستتولى ذلك بنفسها.. وأورد الجملة التي نطق بها بوش: «إذا لم تحلقوا رؤوسكم بأنفسكم، فسوف نتولى نحن حلقها بالقوة»..

53 - الضابط **ماتيو هوه**. خدم في المارينز أثناء الحرب على العراق. ويعمل الآن كباحث في مركز السياسات بولاية كارولينا الشمالية.
- أنظر موقع: «هوفينغتون بوست» Huffington Post

54 - رينيه جيرار Rene Girard: يعد كتابه «العنف والمقدس» حفرا جديدا في كتابه - الكذبة الرومانية. هو كاتب فرنسي، هاجر مبكرا إلى أمريكا. وعمل أستاذا في جامعات كثيرة. متخصص في الأدب والحضارة والأديان. يكتب بأسلوب عميق وساحر وشاعري. تقول ريتا فرح عن كتاب العنف والمقدس: لو قدر لروسو قراءة أطروحة جيرار الصادر عام 72 لأسقط نظريته القائلة بالطبيعة الفطرية الخيّرة عند الإنسان. الإنسان وفق جيرار هو كائن عنيف. يريد الاستحواذ على ما يرغب فيه الآخرون. وهي الرغبة المحاكية. الذبائح البديلة جاءت كجواب عن قلق الإنسان وذلك في العصر الديني الأول. والآن فإن الديمقراطية يمكن أن تحد من العنف عبر آليات التوزيع وإعادة التوزيع. هناك عنف تأسيسي جاء مع الديانات الأولى. وقد استمر كطقوس وعادات. وهو من شأنه أن يعود مع الأزمات وتصاعد السعار الديني (الحقد المسعور).
أنظر كذلك كتاب «الفكر المتطرف: كيف يصبح الناس متعصبين؟» - جيرالد برونر
La pensée extrême :
comment des Hommes ordinaires deviennent des fanatiques
Girald Broner
Ed : Denoël - Paris 2009.

55 - المصدر السابق

56 - المصدر السابق

57 - أنظر كتاب أمين معلوف Amin Maalouf - اختلال العالم
Le dérèglement du monde :
quand nos civilisations s'épuisent
.Ed: Bernard Grasset - Paris 2010

58 - نفس المصدر السابق

59 - داحس والغبراء: هي قصة حرب من حروب الجاهلية وقعت في منطقة نجد بين فرعين من قبيلة غطفان: عبس ودبيان. وتعدّ مع حرب بني اصفهان وحرب البسوس وحرب بعاث من أطول الحروب في العصر العربي الأول. وداحس والغبراء هما إسما فرسين. داحس فرس لقيس بن زهير العبسي. والغبراء فرس لحذيفة الذبياني. ونتيجة لسباق مغشوش، دامت الحرب لمدة أربعين عاما اشتركت فيها قبائل كثيرة. وهي الحرب التي أظهرت قدرات عنترة بن شداد. ومات فيها عن عمر الثمانين عاما.

61-60 - أنظر كتاب بول هازار «أزمة الوعي الأوروبي». كاتب ومؤرخ وأكاديمي فرنسي. أهم كتبه في القرن السابع عشر. نشر هذا الكتاب عام 1935 إبان صعود الفاشية في أوروبا. انتخب كعضو في الأكاديمية الفرنسية في العام 1940 لكنه لم يدخلها بعدما احتل الألمان باريس. كتب كثيرا عن أوروبا وشارك في نقاشات قد تكون فتحت طريق الاتحاد. من كتبه: إيطاليا الحية ومع فيكتور هيغو في المنفى. كتاباته تتميز بالشاعرية والصرامة الأكاديمية. آخر كتبه: الكتب - الأطفال والرجال. كتاب أزمة الوعي الأوروبي - صدر عن المنظمة العربية للترجمة - بيروت - ترجمة د. يوسف عاصي حزيران 2009.

62 - الكسندر بوشكين Alexandre Pouchkine: دبلوماسي وكاتب وشاعر روسي. ولد في موسكو في العام 1799 وتوفي في بترسبورغ في العام 1837 (40 عاما). من كتبه: ابنة الرقيب، دوبروفسكي، سيدة اللعب.

يلقب بأمير شعراء روسيا، كان ثوريا قوميا. وكان من الجماعة الديسمبرية. في العام 1825. وقد قام بتوبيخ النخب الروسية لتقاعسها ونفاقها. تحتفل روسيا إلى اليوم في العاشر من فيفري من كل عام بأيام بوشكين. يلقب بأسير الشرف كما دعاه ليرمنتوف في قصيدة رثائه إثر موته بينه وبين مبارزة مع دبلوماسي هولندي.

63 - غولفريد لابينتز: فيلسوف ألماني من عصر الأنوار (1716-1646). كتب في الأخلاق والمعرفة والسياسة واللغويات.

الفصل الثاني

الإرهاب المعولم

الفوضى والفراغ والسرطنة



الإرهاب المعولم

الفوضى والفراغ .. والسرطنة

« أعطونا طائراتكم.. وسوف نعطيكم قنابلنا التي نحملها في السلال »

المناضل الجزائري **العربي بالمهيدي** متوجها إلى معذبيه الفرنسيين في السجن قبل أن يخنقوه حتى الموت.

«حتى لو لم يكن هناك دين إسمه الإسلام ونبي إسمه محمد، فإن العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط ما كانت لتكون أفضل مما عليه الآن».

غراهام فوللر من كتاب « **عالم بلا أمريكا** ».

لكي نفهم الإرهاب اليوم، علينا أولا أن نخترع لغة سياسية جديدة لإدارك لحظة العبور من الحداثة إلى ما بعد الحداثة. هذا ما يطالب به البروفسور الإيطالي «طوني نغري»*[1] في كل ما يتعلق بمعنى السيادة الوطنية أو القومية والشعب والنقابات والأحزاب السياسية والمنظمات الدولية غير الحكومية..

علينا كذلك أن نتساءل بلغة أخرى عمن هو الإرهابي اليوم؟ هل هو عدو محلّي أهلي، أم هو عدو عابر للحدود؟ وهل هو فعلا «عدو تقليدي» أم عدو آخر من نوع جديد؟ وإذا كان عدوا، فلمن وضد من؟ ثم هل لا يزال عدوا معزولا أم أصبح مندمجا، أي هل يعيش خارج المجتمع أم هو أصبح عدوا عضويا؟ كل ذلك يندرج تحت مفهوم السياسة العضوية أو الحيوية التي هي نسخة جديدة لم يتعود عليها صانعو السياسة اليوم!..

علينا كذلك، نحن الدارسون المبتدئون للإرهاب أن نحذر مما نستمع إليه من الإدارة الإمبراطورية الأمريكية ومن تعريفاتها للإرهاب ومراوغاتها وإخفاء نواياها وكذلك مما نسمّيه بـ«حربها على الإرهاب».

إن العالم كله قد أصبح تقريبا مورطا في الإرهاب. فهو سوق اقتصادي ومسرح سياسي ومناخ اجتماعي وبيئة ثقافية. وهذا ما يمكن تسميته بالتربة العضوية،

أي أن الإرهاب قد أصبح مكونا من المكونات المتعددة «للسياسة العضوية» la biopolitique اليوم.

ففي مجتمع السياسة العضوية، لا تكتفي السلطة بإنتاج أو بتوفير النظام السياسي، بل هي تصبح مشاركة ومنخرطة في التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. وفي الحياة كلها. هنا يمكن أن نلاحظ لحظة العبور من المجتمع المنضبط إلى المجتمع المراقب بتعبير فوكو*2. إن ما يكفل الانضباط عادة هي العادات والتقاليد والأخلاق والقوانين والممارسات المتعارف عليها سواء في المدرسة أو في المصنع أو في السوق. أما آليات المراقبة في المجتمع المراقب فهي تذهب إلى حقول النشاط الجسدي كله من العمل إلى البيت.. ومن الوعي إلى اللاوعي.. ومن المرئي إلى اللامرئي.. إن الإنتاج الاقتصادي في مثل هذه المجتمعات لا يتوقف عما هو مادي أو بضائعي بل يصبح كل شيء سلعة: الثقافة في كل تمظهراتها وكذلك العنف والإرهاب وإنتاج الخوف وزرع الهلع.. وهذا ما يمكن أن يسمى بـ«السلطة العضوية» أو المركبة عضويا. أي السلطة العضوية التي تصبح تعيش إلى جانبك وفي داخلك وقد سيطرت شموليا على كيانك ومحيطك القريب والبعيد. إن معركة التحرر من هذه «العبودية الجديدة» تتطلب إعادة بناء واصطفاف لمكونات المقاومة.

قبل نحو قرن ونصف، إبان صعود الرأسمال المتوحش رأى «ماركس» أن عنوان المقاومة لجبروت الرأسمال هو البروليتاريا.. والآن حيث المجتمعات كلها أصبحت مراقبة ومنقادة ومنزوعة الإرادة والسياسة، فإن المقاومة لابدّ أن تنخرط فيها كل مكونات الشعب، أو الشعوب كلها multitude ou multipeuple.. وهذا لم يعد يجري داخل حدود أو أوطان محددة، بل أصبح الأمر عالميا ومعولما. لذلك فإن على كل ضحايا هذا النظام الكوني (الإمبراطوري) أن ينخرطوا في المقاومة العالمية بما في ذلك الذين يملكون قدرا من المال وكثيرا من المعرفة والمندمجون في ورشات أو بنوك الرأسمال المحلي. إن مفهوم الأحزاب التقليدي تجاوزه الزمن الآن وكذلك النقابات وحتى اتحادات المزارعين أو متعهدي حماية البيئة.. كل ذلك لم يعد قادرا على المقاومة، بل أصبح تراثا منقرضا. وفي أحيان أخرى جزءا عتيدا من آليات المراقبة الشاملة. إن العدو الكبير للشعوب الآن ليس هو الفقر أو الميتافيزيقيا، وإنما هو من يصنع ذلك الفقر ومن يزرع تلك الميتافيزيقيا الجديدة. إنه ليس إلا الإمبراطورية باعتبارها مرحلة عليا من الإمبريالية كما الإمبريالية مرحلة عليا من الرأسمالية حسب لينين..

ومن أجل تأبيد المراقبة والسيطرة، كان لا بد على - الإمبراطورية - أن تقاوم وتخترع في كل مرة أساليبها الجديدة والمثيرة والمفزعة. إنها تعتمد أولا على الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات وعلى نشاط البنوك والتحكم في أسواق الغذاء والطاقة.

وثانيا على منظمات دولية ذات شرعية توافقية مثل الأمم المتحدة والصندوق الدولي والأونيسكو، وكذلك على نوادي دولية للتحكم في القرارات الدولية مثل نادي دافوس، وسيتيل وجينيف ونادي بيلدبيرغ*[3].. ثم في الاتحادات النقابية الدولية والجمعيات غير الحكومية وهيئات المساعدة وصناديق الإعانة واللاجئين.. وهذا النظام كله لا يمكن أن يظل متعافيا وفعالا إلا إذا زرعت من حوله الفوضى والإرهاب! إن الإمبراطورية لا تستطيع أن تعيش وتستمر إلا إذا بسطت سلطتها عالميا وبجميع الأشكال: ففي حقبة ما بعد الحداثة أو ما بعد الإمبريالية تصبح الحروب المستمرة جزءا من نظام الإمبراطورية ويصبح الإرهاب العضوي وكذلك المصنّع أهم أداة لتنظيم المجتمعات المانعة وكذلك لتأبيد النظام. أي وضع كل الشعوب تحت المراقبة والنظام عن طريق الحروب العضوية (الحيوية) التي نسميها جميعا بالإرهاب. إن ما يراه طوني نيغري صالحا لمقاومة هذا السرطان ربما هو ما يقترحه ميشال اونفري بالثورات الصغيرة في كل جسم..

***   ***   ***

اتخذت الحروب تسميات أخرى. فهي لم تعد عادلة أو غير عادلة ولم تعد بين دول فقط. ولم تعد وطنية تحررية أو بين أعداء معينين ومحددين. فالحرب ضد الإرهاب أو الحرب ضد المخدرات أو الحرب ضد فئران الأنترنت (القرصنة) هي حرب ضد مجهولين. أي أعداء غير معرّفين وغير عاديين ولا تعرف حدود تواجدهم أو قوتهم. ومن هناك تصبح الحرب شبه مستمرة أو مستمرة بلا توقف لأنها تخرج عن مكانها وزمانها. إنها عودة إلى حرب الخير ضد الشرّ. وبذلك يصبح تصنيف الأعداء فوقيا وأخلاقيا: عصابات خارجة عن القانون، أصوليون ضد العلمانية، بربريون ضد الحضارة، دول مارقة وفاشية.. وما دام أولئك يهددون السلام العالمي (سلام الإمبراطورية) فإن على الإمبراطورية أن تتدخل لتملك حق القيادة والتوجيه (الإخضاع) عبر فرض براديغمات جديدة مسقطة من الأعالي مثل حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، ولكن فيما تبسط الإمبراطورية قوانين الحرب في كل الفضاءات، فإنها تصبح منخرطة في الحرب ضد الحريات. إن الحرب ضد أعداء وهميين وغير محددين، هي الحرب ضد الحريات.. ولم يكن أبدا هدف أي حرب منذ القديم سوى طلبا للسيطرة المطلقة!..

حاول «طوني نغري» أن ينظر إلى تلك – الحرب الجديدة – على أنها حروب مزروعة، مصنعة ومركبة عضويا.. أي مستنبطة من التربة العميقة وكذلك متدامجة مع الرغبة الجامحة في السيطرة المطلقة. وقد أعطى إجابات أولية عن الحيرة التي وقع فيها مفكرون كثيرون أمام هذا العنف المستفحل والمنتشر عبر أرجاء المعمورة.. وحتى سقوط جدار برلين كان العالم يعرف نوعين من الحروب: الكلاسيكية بين دولتين أو بين حلفين

من الدول. أو «الحرب الأهلية» وهي: إما حرب داخلية بين طبقتين أو عرقيتين أو عدة قبائل أو أحزاب سياسية أو حرب شعبية يشترك فيها كل الأهل (الشعب) ضد عدو خارجي تعرف غالبا بـ«الحرب الشعبية» أو «حرب الشعب» أو «حرب الأنصار».

ولم يجد «جاك دريدا»[4*] أي أثر فلسفي لدى «كارل شميدت» للتعريف بهذه «الحرب ضد الإرهاب». فهو تعبير ملتبس وغامض وبلاغي ولا يفيد في شيء فيما عدا الذين يستخدمونه لأهداف أخرى!.. وقد كان أول من استعمل ذلك التعبير «الحرب على الإرهاب» هو الرئيس بوش الابن حين بدا غزوه لأفغانستان 2001 ثم العراق 2003، ولكنه كان عاجزا عن تحديد «العدو» الذي سيشن ضده الحرب. فهو يعرف أن لا شعب أفغانستان ولا حكومته كانا عدوا للشعب الأمريكي. وأن ضربة نيويورك قام بها مجموعة من المجاهدين لم ينطلقوا أبدا من أفغانستان ولم يستخدموا طائرات أفغانستان، وحتى إن وجدوا في أفغانستان فإنهم لم يطلعوا حكومة أفغانستان عن مخططاتهم.. إن هؤلاء الذين خططوا وضربوا نيويورك هم رجال كانوا يعيشون في قندهار كما في لندن، وفي الباكستان كما في باريس. وهم خليجيون ومصريون وليبيون ولم يعرف أبدا أن وجد بينهم أفغاني واحد أو حتى عراقي واحد..

إذا صدقنا أن بن لادن[4**] هو زعيم هذه الجماعة الذي مول وخطط لهذه العملية، فإن الجميع يعرف أن هذا الرجل سعودي وليس أفغانيا. وأنه كان حليفا لأمريكا في حربها في أفغانستان ضد السوفيات. وأنه يملك شبكة من العلاقات المالية والسياسية تمتد من بيشاور إلى قطر (حلفاء أمريكا) وأن عواصم كثيرة حليفة لواشنطن تستضيف كثيرا من أنصار هذا الرجل. وبالتالي فإن «القاعدة» حتى وإن وجدت ثكناتها في أفغانستان، فإن رجالها وأموالها موزعة في العالم كله. فما من جغرافيا محددة أو حدود معينة أو أرض بعينها ينطلق منها الإرهاب. فهو ينطلق من كل مكان ومن كل أرض وهو مجهول الهوية والأهداف وجنوده يعيشون وسط أحواض بشرية كالأسماك. وهم كالأسماك يعرفون أنهم متى خرجوا من أحواضهم ماتوا.. وبما أن الموت وحده الذي ينتظرهم، فإنهم غالبا ما يصنعون موتهم بأيديهم. إن كل عمل انتحاري هو عمل صفر بين عدوين.. فلا حياة لهذا ولا لذلك بعد كل عمل. ولكن هؤلاء الذين اختاروا الانتحار للانتشار، قد كفوا عن ممارسة ذلك الأسلوب في حربهم ضد عدوهم. إن النتيجة صفر قد بدأت نسبتها ترتفع منذ أن أصبح هؤلاء الانتحاريين يكتشفون أساليب أخرى أكثر فضاعة للعدو.. وقد تمتد إلى أكثر من بلد وأكثر من قارة وأكثر من مجال. إن الإرهاب كما لا يعرف له وجه، فهو كذلك بلا أرض محددة، لكنه عضويا موجود في كل الفضاءات.

إن العلاقة بين الأرض والمجال والرعب أو الإرهاب (terre، territoire، terreur et terrorisme) قد تغيرت. وهذا يعود إلى تطور العلوم التقنية. فالتقنية هي التي بإمكانها أن تدلنا على الفرق بين الحرب والإرهاب. وهي التي ستدلنا أيضا عن مستقبل هذا الإرهاب. وبما أن الذين يشنون الحرب على الإرهاب لازالوا متمسكين بأساليب قديمة كلاسيكية ومتماثلة فلا بد أن يغيروا من أساليبهم حتى يوقفوا هذا الإرهاب. فضربة 11 سبتمبر كانت بالأساس موجهة إلى المستقبل بما يعني أن هؤلاء قادرون على فعل الأسوأ غدا وبطريقة صامتة ولا مرئية وبأكثر سرعة وحتى أقل مشهدية. «ففي يوم من الأيام سيقال أن 11 سبتمبر كانت من الماضي الجميل. كانت آخر حروب الإرهاب المرئية والمشهدية»*5. فالإرهاب اليوم موجود في الكمبيوترات مع الميكروبات والباكتيريا والفيروسات.. والناس يعرفون ذلك. وهذا ما يثير الرعب حقا!..

إذا كان هذا الإرهاب لا يعتبر حربا كلاسيكية بين دولتين، فكيف لدولة ما مهما تعاظمت أن تشن حربا ناجحة أو تكسب حربا ضد الإرهاب. فهو كذلك لا ينتمي إلى فئة الحروب الأهلية أو حروب الأنصار التي تجري داخل حدود محددة ومن أجل أهداف محددة. وبما أن أمريكا الإمبراطورية قد راكمت النصر تلو النصر حتى نسيت طعم الهزائم، فإن عليها الآن أن تخترع أسلوبا آخر وآليات أخرى لكي تربح هذه الحرب الجديدة والطويلة المدى وبدون أن تشن أي حرب، أي إحراز النصر بلا حرب، كما كتب ذات مرة نيكسون*6.

*** *** ***

طوال الحرب الباردة، وجدت جيوش أمريكا في كل القارات. وبعد نهاية هذه الحرب استمرت أمريكا في التواجد على ميادين الحرب. وكانت آخر حروبها الكلاسيكية في العراق. وحين انسحبت من العراق وجدت نفسها في مأزق كبير. فهي من جهة غير موجودة على الأرض كقوة عسكرية. ومن أخرى مورطة في صراعات جيوبولتيكية لا حدّ لها.. وهي من جهة تريد أن تحارب الاستبداد ومن أخرى لا تعرف كيف تحارب الإرهاب. وبما أنها لا تملك الاستراتيجيات ولا الآليات، فقد سقطت وأسقطت الجميع في منطق الفوضى..

الفوضى، هي ربما الحرب المعممة والمنظمة لإحراز نصر بلا حرب. ومن هو قائد تلك الفوضى؟ هو الخوف، ذلك الخوف الذي يعتبره كل الفلاسفة من هوبز إلى والتر بنيامين*7 كشرط لبسط القانون وسلطة الدولة حتى أن هناك من أعطى للدولة وحدها حق إحتكار العنف (أي حق إخضاع الناس بالخوف ثم بالعنف أو الترهيب). إن الرعب أو الترهيب هو شقيق للإرهاب. سيقال مرات عديدة ليس كل ترهيب هو نتيجة عمل إرهابي، ولكن التاريخ السياسي لكلمة إرهاب تحيلنا دائما إلى عهد الرعب

و«الترهيب الثوري» الذي مارسته في البداية الثورة الفرنسية باسم الدولة الجديدة تحت عنوان: الحق الشرعي للدولة في احتكار العنف..

يمكن أن نتصفح تعريفات الإرهاب لدى الأمم المتحدة أو حتى لدى رجال القانون والسياسة وسوف لن نجد إلا تعريفات ملتبسة أو مختصرة أو دوغمائية أو بلاغية مثل: ارتكاب جريمة ضد مدنيين بالتعدي على القانون السيادي أو العالمي. أو استعمال العنف ضد مدنيين أو مصالح مدنية تابعين أو تابعة لدولة أو مجموعة وطنية.. تغيير سياسة أو نظام سياسي أو الدفع إلى التغيير عن طريق العنف أو ترهيب المواطنين!.. هذه التعريفات ناقصة لأنها لا تعرف النظام السياسي الذي يدعو «الإرهابيون» إلى تغييره بحيث تصبح كل انتفاضة أو ثورة هي عمل إرهابي جماعي (وهذا ما يشير إليه القانون الجزائري والتونسي أو المصري مثلا). كما هي لا تنفي صفة الإرهاب عن «إرهاب الدولة»، بحيث يصبح كل إرهاب إنما هو ردّ على إرهاب الدولة!..

كلنا نعرف الاتهامات والأوصاف التي أغدقت على الولايات المتحدة طوال العقود الأخيرة. فهي زعيمة الإرهاب الدولي. وهي دولة لا تتحاور مع الدول الأخرى إلا بالحروب أو الحصارات أو الاحتواء. وهي التي لم تتردد في استعمال القنبلة النووية، وهي التي تقف إلى جانب العصابات والدول العنصرية (إسرائيل وجنوب إفريقيا سابقا) ثم هي التي اخترقت الجبهات العسكرية وجعلت من المدن أهدافا عسكرية.. وأخيرا فهي التي غزت بلدانا كثيرة عن طريق المرتزقة لإشاعة الحرب وقتل الزعماء المحليين في كل قارات العالم. إن إرهاب الدول الإمبراطورية هو الذي فتح الباب على«الإرهاب العالمي». وقبل أن يصبح هذا الإرهاب العالمي سلاحا بيد الضعفاء (سواء في ايرلندا أو فلسطين، أو في الباسك أو في الأرجنتين بيساره ويمينه) فقد كان بالأساس ومنذ البداية سلاحا بيد الأقوياء لإخضاع الضعفاء.

لا أحد يستطيع أن ينفي اليوم أن ما كانت تفعله فرنسا في الجزائر في سنوات الخمسين من القرن الماضي لم يكن إرهاب دولة. في نفس الوقت كانت فرنسا تصف الثورة الجزائرية بـ«العمل الإرهابي». وقد ظلت فرنسا تستعمل وصف «الإرهابي» على كل من ينتمي إلى مقاتلي الحرية في الثورة الجزائرية إلى وقت متأخر حتى اعتبر البرلمان في العام 1990، «أن ما جري في الجزائر يمكن تسميته بالحرب الجزائرية»[7**].. ربما لم يكن ذلك من أجل رد الاعتبار للثورة الجزائرية، وإنما لتعويض جنود فرنسا الذين كانوا يحاربون في الجزائر! ولكن ومهما كان هدف البرلمان الفرنسي الذي انتقل في توصيفه من «أعمال إرهابية» إلى «أحداث شغب الجزائر» ثم «إلى حرب الجزائر»، فإن من كانوا يسمّون بإرهابيي الجزائر قد أصبحوا مقاتلين من أجل التحرر والاستقلال.

وهذا ما يمكن أن ينطبق على مقاتلين كثيرين. هل ظل عرفات إرهابيا بعد ما عقد السلام مع إسرائيل؟ ألم يصبح نيلسون مانديلا أيقونة للتسامح بعد ما عقد السلام مع العنصرية البيضاء؟ وهل كان المجاهدون الأفغان يوصفون بالإرهاب في الغرب حين كانوا يقاتلون الاتحاد السوفياتي؟ وما الذي كان يراه الغرب في حرب الشيشان؟ هل كانوا إرهابيين أم هم مقاتلو حرية؟ وكيف تنظر أوروبا اليوم إلى الايرلنديين؟ هل مازالوا إرهابيين وانفصاليين مثل الباسك أم هم كانوا من أنصار الحرية مثل مقاتلي البوسنة والهرسك؟ مثل هذه الأسئلة يمكن اختصارها في سؤال واحد هو: عند أي حدّ يمكن للإرهابي أن يصبح مقاتل حرية؟ وعند أية نقطة قد يتحول فيها مقاتلو الحريات إلى إرهابيين؟ ومن الذي يستطيع أن يضع لنا الحدود والفواصل؟

تتداخل الحدود وتتشابك الفواصل إلى حدّ يصبح فيه المنطق لا منطقا والواقعي خياليا. وسواء عدنا إلى المفكرين الذين ناقشوا مثل هذه الظاهرة أو طلبنا التوضيح من مفكرين آخرين واستراتيجيين.. فإننا لا نكاد نحصل إلا على خليط من الإرهابيين والمقاومين يستبدلون «المواقع» حسب ما تمليه مصالح الدول الكبرى. فها هم أكراد سوريا، أي الفرع السوري لحزب العمال الكردي من حزب العمال الكردي في تركيا (P.k.k) يصبح محاربا إلى جانب الأتراك ضد داعش فيأخذ لقب بطل بينما العالم يعرف أن P.K.K قد صنفته تركيا منذ أكثر من عشر سنوات على أنه منظمة إرهابية. الأوروبيون والأمريكان يضعون هذا الحزب على لائحة الإرهاب، ولكن يتملكهم الإعجاب به حين يدخل مقاتلوه إلى كوباني.. وعلى نفس المستوى: ما إن تقدمت المفاوضات بين طهران ودول الغرب، حتى شطبت إيران من لائحة الدول الداعمة للإرهاب ومعها حزب الله في لبنان.

مثل هذه الانقلابات المفاجئة في المواقف تذكرنا بفلسطين في نهاية الثلاثينات. فقد ملأت منظمة الأرغون الفاشية/الصهيونية سماء فلسطين بالدخان والرعب وتطايرت أشلاء المدنيين في الساحات والأسواق.. وفي النهاية سجل ذلك الذي كان يسميه البريطانيون بـ«الإرهاب» في خانة «حرب تحرير» إسرائيل وأصبح زعماء الأرغون الإرهابية مناحيم بيغن وشامير، زعماء لإسرائيل ضد «الإرهاب» الفلسطيني!..

مقاومون.. مقاتلو حرية، متوحشون، برابرة أو إرهابيون.. لا تهم التسميات أو الأوصاف. فالجميع يعرف أن صفة «الإرهابي» يمكن أن تطلق على ابراهام لنكولن أو جيفرسون لو أخذنا بكراس الشروط الأمريكي الجديد. والجميع يعترف دون أن ينطق بذلك بأن الإرهابي هو دائما الآخر المختلف، هو المقاتل الآخر وليس «الأنا الغازي» أو «الأنا المهيمن» ولا «الأنا القاهر والقوي».

قال بونابرت ذات مرة: «يمكنك أن تتمرد. إذا نجحت فإنك ستصبح بطلا وإذا فشلت فإنك ستصبح أسيرا. وإذا أبديت مقاومة فستظل خارجا عن القانون»[8*].. وهذا هو الدرس الفذّ الذي مدنا به التاريخ. فإرهابيو الأمس قد أصبح أغلبهم زعماء لشعوبهم وأبطالا قوميين. فعرفات أو مانديلا قد تم احتضانهما في محفل الأبطال وكذلك شامير وشارون واسحق رابين.. كما أن منظمة الايرا الايرلندية أو التامول السيرلانكية وأخيرا حزب الب.كي.كي وأحزاب أخرى كثيرة قد انضمت كلها إلى محفل المقاومين من أجل الحرية، وهو ما يعني أن «الإرهاب» صفة مؤقتة تطلق على أفراد أو أحزاب أو حتى دول لأغراض مركنتلية وأهداف سياسية.. فالقذافي عاش طويلا تحت تهمة «الراعي الأول للإرهاب العالمي». وحين تم تجريده من القوة وقام بدفع تعويضات ضحايا لوكربي وU.T.A وملهى برلين، وقع ضمه إلى صف العاقلين وتم شطب اسم بلاده من على لائحة الإرهاب بمضض.. وحين حانت الفرصة للتخلص منه، لم يتردد الحلف الأطلسي على وصفه مجددا بـ«الإرهابي» فتم غزو بلاده باسم حماية المدنيين ثم تم قتله في وضح النهار لإخفاء الجريمة.. أما صدام حسين الذي عاش وحكم طويلا تحت رعاية الأمريكان لاستخدامه في حروب أخرى يريدها الغرب ضد إيران، فقد أصبح فجأة إرهابيا خطيرا لأن أيديه قد امتدت إلى مصالح الغرب في الكويت. بعبارة أخرى كان على صدام أن لا يخرج عن المهمات التي رسمت له أو لا يخرج من الورطات التي وضع فيها.. وحين حاول الخروج والمطالبة باستحقاق النصر ضد إيران، فقد وضع تحت الحصار ككلب أجرب ثم جاءت الفرصة للتخلص منه بدعوى أنه إرهابي وأنه متحالف مع «القاعدة»..

إذا كان مانديلا قد استعمل العنف الثوري وأقنع حزبه (المؤتمر) بطريق المقاومة عملا بالثورة الجزائرية، فلأنه لم يكن يملك وسائل أخرى للتحرر من العنصرية ولا أسلحة أخرى. وما قاله أحد زعماء الثورة الجزائرية (العربي بالمهيدي) لمعذبيه في السجن قبل أن يخنقوه حتى الموت، «أعطونا طائراتكم، وسوف نعطيكم قنابلنا التي نحملها في السلال»[8**]. يحيلنا مباشرة إلى أن كل عمل مقاوم هو عمل إرهابي بالنسبة للحاكم أو للقوة الحاكمة والباطشة. وأن «الإرهاب» هو سلاح بيد الضعيف لمقاومة القوى المتجبرة. وينطبق ذلك حتى على القذافي وعرفات وأورتيغا وكاسترو. أما الأدهى من ذلك كله، فإن «حماس» حين تقتل ثلاثة إسرائيليين تصبح منظمة إرهابية. أما إسرائيل حين تقتل ألف فلسطيني في أسبوع فإنها دولة تدافع عن حق وجودها.. وأن القذافي حين يطلق النار على بضعة أشخاص خارجين عن القانون (إرهابيين حسب التصنيف الأمريكي) يصبح إرهابيا، أما حين يدمر الحلف الأطلسي بلاد القذافي تدميرا شاملا، فإن ذلك مهمة رسولية إنقاذية من الإرهابيين!..

إن مصطلح الإرهاب الغامض يفرغ السياسة والأخلاق من معناها ويجعلها مادة تدعو إلى الاشمئزاز علاوة على كونه لا يساعد أبدا لا على فهم أسبابه وتداعياته، ولا على فهم مشاكل العالم على نحو آخر مفيد، متعاطف ومتلاحم مع آلام الضعفاء. ففي سبتمبر 2001، كرر الرئيس بوش الابن ما كان يقوله الرئيس ريغان: «أن أمريكا تكافح ضد إمبراطورية الشرّ». كان ذلك أمام الكونغرس، ثم استرسل يقول: «إنهم يكرهون هذا الكونغرس، وهذه الحكومة المنتخبة ديمقراطيا. إن قادتهم (قادة الإرهاب) يقولون ذلك صراحة.. إنهم يكرهون حرياتنا: الدينية والصحفية والسياسية»*[9]. وحين نستمع إلى هكذا خطاب تصبح من العبث، كل إمكانية لفهم السياسة أو لتغيير أي رأي فيما يعتقده الإمبراطور. فالإمبراطور حين يغضب لا بدّ أن يذهب إلى قطع عدة رؤوس. وهكذا فإن الحلّ الوحيد لدى «الإرهابي» أو لدى «الإمبراطور» هو القتل حتى لا نعود نعرف من هو الإرهابي الحقيقي!..

يتساءل الكاتب «آلان غريش» في اللومند: «إذا كان الأخوان غواشي ومعهم أحمد كوليبالي (الذين قاموا بمداهمة صحيفة شارلي هبدو وقتل عدد من صحفييها)، كانوا مدفوعين بكراهيتهم لحرية التعبير التي يتمتع بها الفرنسيون، يصبح من غير المفيد البتة البحث في تداعيات السياسة الفرنسية في ليبيا ومالي ودول الساحل والصحراء الإفريقية»*[10]. وكما لم يتساءل البرلمان الفرنسي عن جدوى وتداعيات تلك التدخلات العسكرية، وهو يترحم على شهداء «شارلي هبدو»، لم يتساءل أيضا حول تداعيات عودة فرنسا إلى العراق أو ذهابها إلى سوريا لمقاتلة الإرهاب في وقت أصبح فيه كل شيء يدعو إلى الريبة والشك..

أليس ثمة من يسال عن جدوى ذلك «القتال المحموم والمنفلت وغير المعقلن»؟ ألم يحن الوقت بعد لننظر في أرقام الضحايا ونتائج هذه السياسة البائسة ضد الإرهاب؟ ألم يعد هناك في الغرب من يرفع إصبعه ضد من يقود هذه الحرب؟ هل أصبح الأمر دوغما جديدة تسيطر على السياسيين والنخب إلى حدّ باتوا فيه عاجزين عن النقد والإحساس بالمسؤولية؟..

*** *** ***

حسب تقرير صادر عن «الغلوبال تروريزم داتاباس»*[11] «Global terrorism Database» التابعة لجامعة ماريلاند، فإن «القاعدة» وروابطها وفروعها قد ارتكبت خلال ثلاث سنوات (2007-2010) حوالي 200 عملية إرهابية، ولكن هذا الرقم تضاعف بأكثر من 300 في المئة في العام 2013.. وطبيعي أن يرتفع هذا الرقم إلى السماء بعد خروج الخليفة أبو بكر البغدادي منذ بداية 2014. فالخليفة أبو بكر الذي ورث الشيخ

أسامة قد انتقل إلى مرحلة أخرى هي احتلال الأراضي وإعلان الدول. وهكذا مثلما ازداد عدد اللاجئين حسب - الانروا - من 8 لاجئ حرب يوميا في العالم في العام 2011 ليرتفع إلى أكثر من 40 ألف لاجئ مع نهاية 2015، ازداد كذلك عدد المقاتلين والجهاديين في صفوف هذه المنظمات الجديدة التي توصف بالإرهاب. لم تكن القاعدة في أوج صعودها تملك أكثر من 5 آلاف مقاتل ومجاهد موزعين في العالم كله (ناشطين ونائمين)، ولكن داعش اليوم تملك جيوشا وأسلحة قوية وميزانيات وآبار نفط ومدن ومواطنين وهي قادرة على الصمود والهجوم والتمدد إلى أمد غير محدد..

لقد بلغ عدد المقاتلين الأجانب القادمين من أصقاع الدنيا كلها في سوريا لوحدها حوالي 22ألف حسب آخر تقديرات الأمم المتحدة. وهؤلاء الذين يقاتلون إلى جانب المنظمات التي تصنف إرهابية من قبل الغرب يمرون إلى سوريا تحت عيون دول غربية كثيرة. ويوجد حوالي 5 آلاف مقاتل داخل هذا -الجيش العالمي- من أوروبا فقط. إن هؤلاء لا يصلون إلى سوريا أو العراق بالمظلات أو بالصحون الطائرة. وإنما هم يعبرون الحدود تحت عيون الجمارك والشرطة والمراقبين الدوليين وبعلم الدول الإقليمية والأوروبية والأمريكية. وها هو رئيس المركز القومي الأمريكي لمكافحة الإرهاب «انك راسموسان»*[12] يؤكد «أن عدد المقاتلين الذين عبروا إلى سوريا يفوق عدد المجاهدين الذين شاركوا في أفغانستان والباكستان والعراق واليمن والصومال والبوسنة خلال العشرين سنة الماضية»..

إنه فعلا عدد مخيف، خاصة إذا عرفنا أنه ينحو إلى الاستقلالية والانفصال عن «أسياده» منذ أن يتموقع على الأرض. فهو قد يتحول إلى -جيش عالمي- ينتقل من أرض إلى أرض ومن دولة إلى دولة دون رقيب ولا تردد. وأكثر ما يحتار في الإجابة عليه أولئك السياسيين الذين يشنون حربهم على الإرهاب بالإرهابيين هو: إلى أين يذهب هؤلاء «الإرهابيون» بعد سوريا أو بعد العراق؟ فالآن لا أحد بإمكانه أن يفكر أن مجاهدي أفغانستان «العالميين» هم الذين فرضوا القاعدة وفروعها في الشرق الأوسط الكبير من الباكستان إلى دول الساحل الإفريقي وكذلك الطاليبان والنصرة وداعش.. وإذا كان إستراتيجيو الحروب يعرفون جيدا أن ثلاثة آلاف مقاتل فقط على طريقة حرب العصابات قادرون على إنزال الهزيمة بدولة في حجم فرنسا، فكيف يفكرون في المستقبل من أجل احتواء وتدجين هذا الجيش العالمي قبل أن ينفلت من عقاله ويدخل إلى ساحات أخرى على تخوم أوروبا أو في قلب أوروبا بالذات؟!

إن هذه «الحرب ضد الإرهاب» ستنتهي إلى كارثة دون كثير من الشك بالنسبة للذين يدعون أبوتها وقيادتها. فهي قد تسقط أنظمة وسياسات وحتى جغرافيات متعارضة أو متناقضة مع مصالح وهيمنة الدول الكبرى، ولكن تلك الحرب تبدو بلا نهاية لأنها

تجري بين «عدوين غير متماثلين» وفي فضاءات مفتوحة وعلى أراض خصبة لإنتاج ما يكفي من المواد العضوية. فحين يتمدد الإرهاب تتمدد الحرب عليه. ومن مكان إلى مكان قد تنتقل هذه الحرب إلى الأناضول ثم تخترق الحدود لتصل إلى جنوب أوروبا ومنها إلى غربها.. فقد رأينا عبر التاريخ كيف أن الذي لا يعرف عدوه جيدا أو الذي لا يعرف متى يوقف الحرب أو الذي ينساق وراء الركض نحو أعداءه إلى اللامكان، يصبح أعمى ويفقد طريق العودة أو طريق النصر. لقد ظل بونابرت مصرا على غزو روسيا حتى فقد كل مجده ومجد بلاده. وتكرر ذلك مع هتلر. ويمكن أن يحدث اليوم أو غدا للولايات المتحدة. فهي لم تنهزم أبدا أمام الجيوش النظامية والحروب الكلاسيكية، ولكنها لا تستطيع أن تنكر هزيمتها أمام حرب العصابات الفيتنامية أو حتى أمام داعش الإسلامية!

لقد قادت الولايات المتحدة مع حلفائها حروبا كثيرة ضد الإرهاب منذ 2001 في أفغانستان والعراق وليبيا والصومال واليمن، ولكن النتيجة في كل مرة كانت صفر أرباح لها وصفر خسارة للإرهاب. فالدولة الأفغانية كسيحة ومهددة والطالييان تمددوا في أفغانستان والباكستان. والدولة العراقية عرجاء وداعش تهدد وجودها. والدولة الليبية أمحت من الوجود وأصبحت أراضيها تحت سيطرة الميليشيات والمجاهدين ومقاتلي داعش. والدولة السورية توشك على السقوط ومعها لبنان يترنح في الفوضى العارمة. والصومال لايزال ساحة لحكم الميليشيات والقراصنة. واليمن قد أصبح خرابا. وفوق خرابه يقف مقاتلو القاعدة. فإذا كانت الولايات المتحدة تريد من حربها على الإرهاب تقويض الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط فقد نجحت. أما إذا كانت فعلا تريد القضاء على الإرهاب والاستبداد فقد فشلت. بل أصبح عليها أن تواجه تداعيات لم تكن تتخيلها، فإذا تمدد هذا -الإرهاب- إلى أوروبا، فإن الحرب على الإرهاب ستصبح حربا على الذات لتدمير الهيكل من الداخل!..

*** *** ***

كان تقويض تلك الدول، فرصة لتمدد الإرهاب. أما ضحايا تلك «الحرب ضد الإرهاب» فهم المدنيون. إن أبناء اليمن أو العراق أو ليبيا أو سوريا أو أفغانستان لا ينسون أبدا قصف الطائرات الأمريكية وصواريخهم العابرة للقارات وقتل أبنائهم وحيواناتهم وتدمير حقولهم وبيوتهم ومدارسهم. فما اقترفه الأمريكان في الفالوجة وهم يحاربون الشيخ الزرقاني أو في قندهار وهم يحاربون الشيخ ابن عمر قد فاقت فضاعته، فضاعات حربهم في الفيتنام. وفي الأخير، ازداد الإرهاب عدة وعددا وتمددا وارتفع غضب الأهالي والمدنيين فتحول مددا وسندا لهؤلاء الإرهابيين.

إن عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من المدنيين قد قتلوا في هذه -الحروب الجانبية-: طائرات بلا طيار، غارات جوية، كوموندوس، إيقافات واعتصامات وتعذيب وإهانات تحت عيون السي.اي.اي.. لم يستثنى أي مجال وآي حقل وآي مصنع أو حتى حفلة زفاف آو ختان آو جنازة.. كل ذلك أصبح «أهدافا» للطيران الأمريكي. الصحفي الأمريكي «توم انجلرهارد»*13 دوّن في مقالاته استهداف ثمانية مناسبات زفاف وختان في أفغانستان والعراق واليمن في السنوات العشر الأخيرة. هؤلاء الضحايا المدنيون لم يحظوا بأي التفاتة من الغرب. لم يحتج أحد ولم يعتذر أحد لأحد. إنها أهداف وفقط، وفي أحيان ما، هي -أخطاء- أو نيران غير منضبطة بالرغم من أن الغرب لايزال فيه عائلات وأعراس وحفلات وجنازات!..

هل يعتقد الأمريكان أن هكذا أساليب ناجحة في كسب الناس والمدنيين الذين يدعون أنهم جاءوا لحمايتهم؟ كم كان سيقتل القذافي أو بشار الأسد قبل أن يعيد النظام؟ وكم قتل الأمريكان والغرب من الليبيين والسوريين الذين جاءوا لحمايتهم ولم يعيدوا حتى الآن لا النظام ولا الأمن ولا الأمل؟؟

وحيثما نظرنا لا نجد أسبابا كبيرة لانتشار هذا الإرهاب، سوى أخطاء ومنهجية أمريكا. فهي تريد محاربة الإرهاب بالصواريخ البلاستية والطائرات والباتريوت، وهي تريد إسقاط الأنظمة واختراق الجغرافيا، وهي تضرب المدنيين وتدمر أملاك الناس. وبذلك فهي تساعد الإرهاب على التمدد والانتشار. وهي تعلن أن الحرب ضد الإرهاب هي حرب وجود بينما تختصر كل الإرهاب في المجموعات الإسلامية الجهادية من ناحية وتتعاون مع منظمات جهادية أخرى، وهي تعلن الوقوف في العراق مع الدولة المركزية من جهة ومن جهة أخرى تمدّ العشائر والميليشيات بالسلاح، وهي تتبنى نظريات احتكار الدولة للسلاح وتتعاون في نفس الوقت مع القبائل والحشود الشعبية. وهي تسلح القبائل من جهة وتحارب أبناء القبائل من جهة أخرى.. وأخيرا فهي ما انفكت تعلن أنها ضاقت ذرعا بتمدد الإرهاب ومن أخرى تدعو بغداد إلى التحلي بالصبر الاستراتيجي!.. ويالها من شناعة حين يكتشف الجمهور أن الإمبراطور قد أصبح أعمى وبات عاريا وهو لا يدري!..

وما دام الفاشيون يحبون الفاشيين، ها هو الفاشي الصغير رئيس وزراء فرنسا «مانويل والس» يقول «أن الحرب على الإرهاب تقتضي إعلان حرب عالمية ثالثة ضد شمولية جديدة وريثة النازية والشيوعية»*14. وماذا يساوي مثل هذا التصريح في سوق الدعاية الدولي: إن القاعدة أو داعش أو بوكو حرام أصبح لها من القوة ما كان للاتحاد السوفياتي وألمانيا النازية. إنه يضيف بعدا خياليا لا تتخيله ولا تدعيه مثل هذه المنظمات وبذلك فهو يزيد من إحباط العزائم وتقويض الإرادات بتمجيد البؤساء!..

لو نظر الغرب جيدا في أسباب الإرهاب في الشرق الأوسط لأدرك أن الحرب ضد الإرهاب هي أقل تكلفة في أقل مدة بأقل خسائر. ومع أن لا أحد يشك في إشعاع العقل الغربي، إلا أن الشك كله يحوم حول انحراف هذا العقل وحول مصداقية سياسييه..

ثمة مشكل كبير يتعلق بفلسطين. ومن ثم تفرعت وفرضت كل المشاكل. لم يبدأ الإرهاب البارحة وإنما بدأ منذ نحو 70 عاما. ولو أن الغرب كان يمتلك صدقية ما لعاد إلى ذلك المشكل لحلّه بما يحفظ كرامة الجميع.. ولكن لأن الغرب لا يريد أن يغضب إسرائيل، فقد أعاد المنطقة كلها إلى القرن العاشر والحادي عشر، زمن الحروب الصليبية. إن معركة القدس هي عين المشكل، وبدون أن يفتح الغرب عيونه، فإن هذا الإرهاب لايزال يصوب عيونه، كل عيونه إلى القدس. فهؤلاء الإرهابيين/المجاهدين ما انفكوا يكسبون لأنهم يمتلكون قضية. وهذه القضية لا تفنى لا عبر الزمن ولا حتى عبر الغبار والدمار.

إلى جانب «مقدساتهم» (القدس ومكة)، فإن بغداد ودمشق رمز الإشعاع، قد أصبحتا على وشك الدمار الكامل. وهذا ما يعطيهم الاندفاع والحماس. أما ثرواتهم فقد باتت منهوبة ومزارعهم ومياههم مسممة وبلادهم مخازن لخردة السلاح! أفليس من واجب الغرب أن ينظر جيدا في الصفحة الأولى من كتاب الصراع العربي/الصهيوني والذي انتقل الآن إلى الفصل الثاني تحت عنوان الصراع الغربي المسيحي/العربي الإسلامي؟!

ألا يعرف الغرب أن الدول في هذه المنطقة غنية بينما شعوبها فقراء. وأن الدول في هذه المنطقة تشتري آخر صيحات وأنظمة السلاح بينما مدارسها متخلفة ومستشفياتها خزائن موتى؟ ألا يعرف الغرب أن الثورة التي انطلقت من تونس قد بلغت اليمن في أقل من شهر ويمكن أن ترتد كموجات إرهابية من اليمن إلى الجزائر؟ ألا يعرف الغرب أن منطقة الشرق الأوسط قريبة وملاصقة للغرب ذاته؟ ألم يكن يعرف أن تدمير الدولة في ليبيا سيترك فضاء مفتوحا للإرهابيين يمتد من صحراء مصر إلى شمال نيجيريا ومن شمال تشاد حتى موريتانيا؟ ألا يعرف الغرب أن سقوط دمشق بيد الإرهابيين سيتسبب في حروب كثيرة مع إسرائيل وتركيا وحتى أرمينيا؟ وإذا كان يعرف كل ذلك وأكثر من ذلك، فما الذي يريد الغرب بالضبط؟

في كتابه «عالم بلا إسلام» عدد «غراهام فوللر»[*15] أحد خبراء السي.إي.إي أكثر من عشرة أسباب خارج الإسلام تجعل العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط سيئة وسيئة جدا. «فحتى لو لم يكن هناك دين إسمه الإسلام ونبي إسمه محمد، فإن العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط ما كانت لتكون أفضل مما عليه الآن».. هناك الحروب الصليبية والاستعمار والامبريالية.. ثم هناك الإستحواذ على ثروات المنطقة

وخاصة الطاقة ومراقبة الملاحة.. ثم هناك الدكتاتوريات المناصرة للغرب والتدخلات السياسية والانقلابات والتدخلات العسكرية، ثم هناك إسرائيل التي زرعها الغرب. وكذلك التغريب السياسي الذي دعمه الغرب. وهكذا بدون إسلام، لم تكن العلاقات أبدا جيدة بين الغرب والشرق العربي الإسلامي.. ولكن في كل مواجهة كبرى لابدّ من كل الأسلحة أن تشهر. وكما كان المسيحيون يشهرون أناجيلهم في الحروب الصليبية، فها هم اليهود يشهرون توراتهم والمسلمون يشهرون قرآنهم ضد الغزاة الغربيين.. وحتى لو أننا في عصر ما بعد الحداثة، فإن مواطني الشرق الأوسط لازالوا يشعرون بأنهم يعيشون في القرون الوسطى، حيث العبيد والسادة يتبادلون الحروب باسم الرب والسماوات، في زمن مفتوح على العولمة.

*** *** ***

كان ماركس قد وصف العولمة في عصره كظاهرة اقتصادية - تجارية رأسمالية صرفة. ولكن بما أنها اقتصادية فلابدّ أن تكون سياسية. وكان هذا التصور الوحيد الممكن عام 1848 (زمن ربيع الأمم الأوروبي) إذ كان توسع السوق العالمية هو المحرك النفاث لها. كان ذلك عصر الانتشار الأوروبي الكبير، أو عصر تعميم الاستعمار.. وجاء لينين فرأى أن المرحلة العليا من الاستعمار هي الإمبريالية.. ومن ما بعد الإمبريالية، جاء عصر العولمة الإمبراطوري. شمل هذا النزوع الشمولي ذو الاتجاه الواحد والمتعدد في الآن نفسه كل النظم وكل البلدان.. واليوم ما من شيء يستطيع التملص من العولمة. لا الدين ولا العلم. لا الثقافة ولا التكنولوجيا ولا حتى الإرهاب، فبات كل حقل أو قطاع من هذه القطاعات سوقا مفتوحة على أسواق أخرى.

إن الفقراء والمهمشين والمعذبين في الأرض هم أكثر الناس شعورا بأن الأرض ذاهبة نحو الجحيم منذ أن أصبحت العولمة دينا جديدا والغوغل هو الإله الوحيد*16. فالسوق العالمية بتدفق رساميها ومعلوماتها تؤدي أيضا إلى تدفق أزماتها وأمراض مجتمعاتها وانتشار فيروسات الإعلامية والأسلحة والأوبئة الجديدة والكوارث البيئية والحروب الأهلية والجرائم المنظمة والإرهاب. والذين يعتقدون أن هناك من يستطيع البقاء بمنأى عن مثل هذه الارتدادات، إنما هم يواسون أنفسهم البائسة. فالحقيقة أن سوق الإرهاب هو أحد هذه الأسواق المعولمة. فأن يغيب الإرهاب لوحده على مسرح العولمة، هو من باب المعجزات!..

إن الطاقات العنيفة التي تختزنها بعض المجموعات المهمشة والمهانة اليوم لا يمكن إرجاعها إلى تقليد معين في الثقافة أو في الدين. فسواء تعلق الأمر بحروب البلقان أو حروب إفريقيا والشرق الأوسط أو بالمنظمات الجهادية التي تدعي رجعية الإسلام

أو الهندوسية، فنحن في كل الحالات لسنا أمام بقايا من التخلف القديم وإنما أمام ظواهر معاصرة ومصاحبة للحداثة تعبر عن الحالة الراهنة للمجتمع الدولي بامتياز. إن حضور الإرهاب ومهما كان مصدره (دينا أو طائفة أو هوية أو ثقافة) لا يظهر فقط في سلوك مرتكبيه فقط ولكن أيضا في اختيار الوسائل المستخدمة وفي طريق انتشاره. وبهذا الصدد فإن الأمر يتعلق أساسا بردود مرضية للخصم شبيهة بردود الفعل التي يصنعها الفيروس المرتد انطلاقا من الخلية المصابة. وبذلك يصبح الإرهابي وضحية الإرهاب والمقاوم للإرهاب شركاء في الفعل نفسه. إن الشعور بأن «العدوان الإرهابي» قادم دائما من الخارج أو هو منتج غريب هو شعور خادع طالما أنه لا يوجد بالنسبة للأعمال البشرية والسياسية في زمن العولمة، فضاء يقع خارج السياق العام.

إن الخطر في عصر العولمة موجود في كل مكان وفي كل منتج تقني أو جرثومي مثل الكاميرات والتلفونات والأنترنت والأقمار الصناعية وحتى الطائرات المدنية أو الأدوية والتلاقيح والمياه. وكلما تمكن جمهور أو مستهلكو العولمة من السيطرة والسباحة في تلك الفضاءات كلما أصبحوا أكثر خطرا. فمرتكبو تفجيرات نيويورك و«فضائع داعش» ليسوا فقط متمكنين من استخدام التقنيات الحديثة المتطورة بل هم بارعون في فن الإستعراض الأوبرالي. فقد قاموا بإخراج فيلم الثلاثاء الأمريكي الأسود في الحادي عشر من سبتمبر 2001 على طريقة الاستعراضات الهوليودية الكبرى مستلهمين المنطق السيمانطيقي للصورة.. وهو العرض نفسه الذي قدمه رجال داعش في العراق وليبيا في العام 2015.

لقد أعادوا حرفيا كتابة وإخراج أفلام الرعب الخيالية التي عرفناها في هوليوود.. وقد بدأ ذلك في منهاتن عام 2001، ولايزال مستمرا في الموصل أو على شواطئ سيرت أو حتى في صحراء شمال نيجيريا.. ومنطقيا، فإن تقليدا على هذه الدرجة من الحميمية للحضارة الأمريكية لا يدل على عقلية متخلفة قروسطية بل يلقي على العكس من ذلك ضلالا من الشك على مستخدميه وكذلك أضواء عاكسة للقناعات المزعومة لأصحابه. ولم يكن أبدا من الصدفة أو من باب التريث أن يظهر التردد واضحا في كل مرة حول مرتكبي هذه الأعمال الإجرامية وحول هوية الذين يقفون وراء تلك الاستعراضات. فبعد تفجيرات نيويورك وواشنطن تعددت الاتهامات وذهبت وسائل إعلام كثيرة إلى اتهام جماعات اليمين المتطرف الأمريكي ثم إلى الجماعات اليابانية وكذلك إلى احتمال تورط الاستخبارات الصهيونية ثم إلى مجرمي كارتلات الكوكايين. ثم استقرت التهمة على تنظيم القاعدة ورجال الشيخ بن لادن[17*]..

ولا يعدو أن يكون اليوم بأفضل من البارحة. فالشكوك تحوم بقوة حول من يقف وراء داعش وحول قدراتهم التقنية وأموالهم وشبكات علاقاتهم إلى حدّ لم يعد أحد يصدق

أحد. فحين تغيب الحقيقة الواقعية، يصبح من الضروري صناعة حقيقة خيالية (وهم) لإقناع الناس بأن كل ما يحدث هو من صنع إرهابيين لا يشبهوننا.. ففي كل مذبحة إرهابية تغيب الحقيقة حتى بات «الإسلام» أو «الخوف من الإسلام» (الإسلاموفوبيا) هو المطلوب حضوره على مسرح العمليات ليفي بالحاجة النفسية لدى الغرب. ففي حقل الإرهاب الجديد يصبح الغموض أحد عوامل تدمير اليقين. فالأعمال الإرهابية التي نعرفها ولا نعرفها حتى الآن تشترك كلها تقريبا في تدمير اليقين (الحقيقة) ثم التدمير الذاتي للعالم الذي يسكن فيه أو ينتمي إليه هؤلاء الإرهابيين!..

لقد كان واضحا منذ البداية أن التدمير الذاتي سيطال الكون الإسلامي كله الذي سجل هجوم نيويورك باسمه. وكما توقع الصحفيون منذ اللحظات الأولى، فقد طال العقاب كثيرا من الدول.. وقد دفعت شعوب بكاملها الثمن في أفغانستان والعراق وفلسطين ثم في مصر وليبيا وسوريا واليمن والصومال.. إن منطق التدمير الذاتي مستعار في أصله من الرغبة في الانتحار. وبما أن هناك تعطش ورغبة في الانتحار لدى مجموعات بشرية ذات ثقافة إسلامية، فلابدّ من استخدامها بشكل جيد لتقوم بالتدمير الذاتي لكياناتها ودولها ودينها وثقافتها. ولتوضيح مما لا يفهم أحيانا، فإن النظر في ماضي الغرب يطلعنا على قدراته العجيبة في استخدام النوازع الإجرامية نحو الخارج وتوجيهها نحو الداخل..

ففي علم نفس الفرد أو الجماهير، هناك سمة مشتركة تجمع بين مرتكبي العنف قاطبة وهي: أن عدوانيتهم لا تتجه فقط وبإطراد إلى الآخرين وإنما تتحول إلى طاقة تدميرية ضد أنفسهم كذلك. وإذا كان «للإرهابي المسيس» أن يستغل هدفا ساميا مثل حق مقدس أو إيمان بثورة أو دفاع عن مهمة عليا، فذلك يخلصه من الاستخدام وإعادة التوجيه والبرمجة. أما إذا كان هذا الإرهابي مأجورا أو مرتزقا أو هاويا، فإن انتصاره (الانتحاري) أن يتكفل بمعاقبة نفسه بنفسه. ولا شك أن الذي يوجه الأوامر من بعيد لهذا الإرهابي الانتحاري، أنه ينتظر في مخبأه تحت الأرض لحظة انطفاء رجاله الانتحاريين. وبعبارة أخرى فإنه يقتات من حتف أنصاره. إن الذي يفضل البقاء على قيد الحياة في «معركة الموت المحقق» سيواجه مشقة في فهم فلسفة الإرهاب.. وبما أن القنابل البشرية الحية أصبحت تعد بالآلاف في سوق الإرهاب، فإن عنفها سوف يرافق البشرية طويلا خلال القرن الواحد والعشرين. وعلى أمريكا التي اختارت العولمة أن لا تحزن كثيرا إذا ما غزتها منتجات الإرهاب العالمي.. فهي منتج ومستهلك ومورد ومصدر لهذه المادة الحارقة..

*** *** ***

فتح القرن الحادي والعشرون عينيه وسط الخراب في أكبر مدن الحداثة والرأسمال: نيويورك، ذات خريف داكن في الحادي عشر من سبتمبر من العام الأول بعد الألفين.

وفيما سجلت الاحتفالات الضخمة التي أقيمت بمناسبة تدشين الألفية الثالثة كجزء من «مهرجان الكذب والخداع» المتواصل منذ حقب طويلة وذلك لطرد الشرّ والأشرار، شكل تدمير المركز العالمي للتجارة في نيويورك حدثا ملحميا تراجيديا جديرا بتذكير الناس، أن الأشرار لازالوا هنا، لأن الشرّ، كل الشرّ لازال يصنع هنا في نيويرك!..

كشف خراب «بيت الحداثة» العالمي على تحدي شيطاني لرمز آخر من رموز أمريكا.. وهو القوة والاستعراض. فقد نفذ الهجمات رجال غير رسميين وقد يكونوا غير أوروبيين أو أمريكيين! لكنهم منظمون تنظيما جيدا يكاد لا يخطر على بال. لقد استغلوا قوة أعدائهم وتكنولوجياتهم المتطورة ومجتمعهم المنفتح وخطوطهم الجوية ثم استغلوا مسرحهم الكبير وشبكات تلفزيوناتهم ومواقعهم الاجتماعية لزرع الهلع والرعب في عالم يخاف من البدايات والنهايات. إن السنة الأولى من كل ألفية لدى المسيحيين عادة ما تكون حاملة لعلامة القرن الجديد. وبما أن الأبواب قد انفتحت على الجحيم في مفتتح تلك الألفية، فقد سجل رجال اللاهوت على أنواعهم في دفاترهم ومعهم رجال السياسة «المؤمنون» مثل بوش (المحافظون الانجيليون) وكذلك الذين ينتظرون «يوم القيامة» بأن العدّ العكسي المشؤوم قد بدأ..

لا يوجد «أعداء أمريكا» في المريخ أو على سطح القمر. وإنما هم يوجدون على الأرض. إنهم يتحركون ويسافرون ويتاجرون ويعملون، لكن من الصعب تمييزهم أو التعرف عليهم. فالعدو الذي كان دائما ينظر له على أنه بعيد، وغريب وموجود في الخارج قد أصبح في الداخل يعيش مع الجميع ويراقب الجميع. وبالتأكيد فإن القضاء على هكذا عدو ليس سهلا على الإطلاق ويتطلب نوعا آخر من التخطيط والسلاح والمهارة والحيل. وهذا ما جعل أحد المحللين الأمريكان يقول «إذا كان الانتصار على اليابان في العام 45 كان أشبه بقتل فيل فإن التغلب على هذا العدو الذي أدمى قلب أمريكا، قد يجعل منا كما لو أننا نحارب جسدا هلاميا بألف ذراع وذراع»[*18].

صحيح أن أمريكا هي عملاق العصر الحديث الذي يراقب العالم كله بطائراته وأقماره الصناعية ونظم اتصالاته وشركاته العملاقة. ومع ذلك فإن هذا العملاق هو في الوقت ذاته الأكثر هشاشة أمام الأسلحة التي تختلف اختلافا كليا عن طائرات الجنرال الياباني -ياما موتو- الذي خطط للهجوم على قاعدة «بيرل هاربور» والوحدات المدرعة التي هاجم بها هتلر بولونيا وصواريخ السكود التي اجتاح بها الاتحاد السوفياتي في أفغانستان! إن سلاح هذا العدو الجديد موجود ومتوفر في الأسواق مع السلع المدنية.. وفي الطرقات مع وسائل المواصلات وكذلك في الصيدليات والمطارات والأنترنت، لذلك فإن تفوق أمريكا التكنولوجي وانتشارها التجاري واتساع إمبراطوريتها هو ذاته «هشاشة أمريكا التي تحتمل». ولنضف إلى ذلك كله: الغاضبون

والمعذبون والمنتقدون لسياساتها الذين يتزايدون يوميا. ثم شركاتها العملاقة المتعددة الجنسيات والمتحكمة في سوق الطاقة والتأمين والملاحة والغذاء والأدوية والتبغ التي تبالغ في فرض هيمنتها على السوق العالمية.

إن سياسيي أمريكا مهما كانوا يحملون من الطيبة في قلوبهم، فإنهم ليسوا إلا «مدراء» شرسون منفذون لمخططات تلك الشركات ومدافعون أشداء على مصالحها. فحين تقوم الإدارة الأمريكية مثلا بتجميد الاتفاقات الدولية حول تنظيم المناخ أو ترفض الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية، أو تجمد اشتراكات مساهمتها لمنظمة الأونيسكو أو تضغط على دول العالم الثالث لفتح أسواقها ورفع مبدأ الحماية أو تمنع قروض البنك الدولي للدول النامية أو تمنع تصدير بعض السلع الإستراتيجية لكثير من الدول أو تعلن الحصار عن دولة ما بإصدارها لقرارات من الكونغرس، فهي تقوم بتنفيذ سياسة شركاتها العملاقة وفي نفس الوقت تقوم بامتهان الشعوب الضعيفة.. وبذلك فإنها لا تجعل من نفسها القوة التي تقهر فقط وإنما هي تصنع من قوتها ذات هشاشة لا تحتمل! إن أمريكا ليست قلعة محصنة فقط وإنما هي غابة موحشة مليئة بالفجوات وأماكن الظل والظلام والضعف. وهذا هو التناقض بين مظهر القوة الأمريكية التي لا تضاهى في الخارج، وواقع مكافحة التهديد الجديد بالنسبة إلى الأمن القومي لأمريكا الذي لم يكن أبدا واضحا مثلما اتضح يوم الكارثة (11 سبتمبر من العام النحس الأول للألفية الثالثة)!..

كان من الصعب ألا يستنتج المرء العاقل كما فعل «تشومسكي»[*19] بأن هذا التهديد سوف يستمر ما دامت السياسات الأمريكية لم تتغير. فمثل هذه القوة الساحقة والجبارة لن تكون قادرة مهما تعاظمت على تحطيم هذا العدو الجديد. فلقد خرج المارد المنتقم من قمقمه. واليوم فإنه ليس باستطاعة أحد أن يؤكد بأن سكان أية مدينة غربية أو شرقية هم الآن بمنأى عن فضائع نيويورك. ورغم أن أمريكا تبدو كما لو أنها نجحت في نقل هذا إلى أماكن أخرى ودفعه نحو حروب لإنهاكه وإفراغ عدوانيته، إلا أن هناك دائما من ينتظر أن يستيقظ ذات يوم على تفجير قنبلة نووية مصغرة في بورصة التجارة بشيكاغو أو فتح أنابيب جرثومية في محطة المترو بسان فرانسيسكو، أو هجوم جوي آخر على البنتاغون أو البيت الأبيض!..

لقد هزت كارثة «بيرل هاربور» عصر الرخاء والعيش الرغيد لأمريكا الثلاثينات الذين خرجوا من أزمة العشرينات منشرحين ومتحمسين للعمل والإستثمار. كما أيقضت لدى إستراتيجييهم الوعي بأن العدو إذا لم نذهب إليه فإنه سيأتي إلينا، وأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم المبكر، وأن من مبادئ الهجوم المبكر هو نقل الحرب إلى أرض العدو!.. وفي الحادي عشر من سبتمبر 2001 وحين تشظت السعادة

الأمريكية مع انهيار البرجين، حزم الأمريكان أمرهم وقالوا: «الآن.. وهناك.. هناك..» فاتجهوا نحو الشرق كما لو أنهم يعيدون إخراج فيلم كابوي شهير «حدث ذات مرة.. في الغرب»*[20]، ولكن رغم ذلك الحزم وذلك الاندفاع فربما كان اتجاههم نحو الشرق ورطة قبيحة. وربما كان القرن الـ21 خادعا لأمريكا مثلما كان القرن الـ20 خادعا لألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي.. ولعلّ أن تكون حروبها في هذا الشرق المعقد والمركب والعصي على الفهم والانقياد، ناقوسا لإيقاظ أمريكا من فراش الخداع.

*** *** ***

لنذهب إلى الشرق. نعم! ولكن كيف وبماذا؟

إن التشويش الذي طرأ على الخط الفاصل بين الحرب الكلاسيكية والحرب الجديدة (غير المتماثلة) قد أوقع الإستراتيجية الأمريكية في أخطاء كثيرة وجعلها تبدو كإمبراطورية عاجزة عن التغلب عن مجموعة من (العصابات). يضاف إلى ذلك التشويش الذي طرأ فيما بعد على الخط الفاصل بين ساحة المعركة (الجبهة) وساحة المنزل (الحي الشعبي)، قد جعل من أمريكا قوة عمياء وأشد دموية.. وفي غياب قانون ينظم الحرب غير المباشرة (الأهلية وغير النظامية) يصبح الهدف غير واضح، ويصبح الانخراط في الحرب الأهلية كما لو أنه توغل وتورط في حروب لا نهاية لها. فالحرب الأهلية بوصفها عمياء ووحشية وغير عقلانية ولا تخضع لقوانين الحرب العسكرية الكلاسيكية، فإن من يتورط فيها يفقد قوانين الحرب ولا يستطيع أن يبتعد أو يرتفع عن ممارسة الانحطاط باسم الدولة، أي أن العدوين يصبحان إرهابيين: الأول إرهاب الجماعة، والثاني إرهاب الدولة..

يقال دوما أن إرهاب الأفراد والجماعات والأقليات هو سلاح الضعفاء والفقراء في حين أن إرهاب الدولة بما فيه الإرهاب الاقتصادي هو سلاح الأقوياء. وفي كلا المعسكرين كان دائما من المهم التمييز بين الهدف والضحية، ولكن هذا التمييز الذي غالبا ما يضيع في ضربات المترو ومانهاتن وباريس ومدريد، قد أصبح كذلك مفقودا في الضربات التي تسددها أمريكا ضد مواقع الإرهاب. فالضحايا المدنيون هنا وهناك. والإحصائيات تؤكد أن ضحايا إرهاب الدولة من المدنيين قد فاق كثيرا ضحايا الإرهاب الآخر..

إن لا أحد يشك في قدرات أمريكا العسكرية الهائلة. وقد حاربت طويلا خلال القرن العشرين تحت جميع السماوات وفوق جميع الجبهات وتركت مقابر لجنودها في كل البلدان التي حاربت بها.. ثم نصبت قواعد عسكرية في أنحاء العالم كله

(حوالي 400 قاعدة) وزرعت أساطيلها في كل البحار حتى أصبحت حدود المارينز المتحولة والعابرة للمحيطات هي حدود أمريكا. وخلال الحرب الباردة أصبحت هي الرائد والمحرك الأول للتدخلات العسكرية (إرهاب الدولة الوقائي). وقد مارست ذلك في العالم قاطبة وسط لامبالاة عامة. فبالإضافة إلى إسقاط الحكومات الشرعية المناهضة لهيمنتها عمدت كذلك إلى الاغتيالات السياسية وسلحت المرتزقة وبعثت فيالق الموت والمقاتلين المشبوهين من أجل الحرية إلى آسيا وإفريقيا وغذت الحروب الأهلية بالمال والسلاح. وبعد الحرب الباردة، ازدادت شراسة أمريكا وباتت كما لو أنها سجينة لانتصاراتها، فغزت بلدان بأكملها (أفغانستان - العراق - الصومال - وبنما) وشاركت في تحطيم دول أخرى مثل اليمن وليبيا وسوريا وحاصرت بلدان أخرى مثل كوريا الشمالية وإيران ثم قادت ثورات ملونة في أوروبا الوسطى وآسيا الوسطى. ولم تتوقف هذه الأعمال الشريرة حتى ظهرت في بلاد العرب كثورات دموية وديمقراطيات خالية من العدالة ومجففة من المساواة. ديمقراطيات بلا أوطان أو في أوطان خالية من الحياة تتذابح على أرضها الطوائف والأديان والأقليات والقبائل..

ما هذه الفضاعة التي توشك أن تصبح قدرا؟

ألا يمكننا أن نتخيل «عالما بلا أمريكا» (A world without America) كما تخيل غراهم فوللر، «عالما بلا إسلام» (A world without Islam)؟. أما كان العالم أجمل وأكثر رحابة وعدالة ومساواة بدون أمريكا؟ أم أنه سيكون أكثر بشاعة وأكثر عنفا؟ وبعبارة أخرى هل أمريكا هي أصل العنف في هذا العالم أم قائدة الخير والفضيلة في هذا العالم؟ يمكننا اختصار الإجابة في فرضيتين: الأولى، بدون أمريكا ربما انتصرت النازية وعمت الفاشية ولكن انتصارها لن يدوم طويلا، فأوروبا المدافعة عن نفسها والاتحاد السوفياتي المناصر للعدالة سوف يخوضان حربا طويلة المدى حتى تنهزم النازية.. وهذا ما تؤكده الوقائع والأحداث، فأمريكا لم تدخل الحرب ضد المحور إلا حين رأت دول التحالف قد بدأت تسترجع الأنفاس والجبهات.. أما الفرضية الثانية، فإن الغرب الأوروبي وأمام تعاظم الاتحاد السوفياتي وحركات التحرر والاستقلال في العالم الثالث كان سيلجأ إلى المهادنة والتسوية التاريخية مع الشعوب التي أخضعها الاستعمار ولم يعد بإمكانه أن يخضعها لوقت أطول. فكلنا نعرف أن أمريكا دعمت بعض حركات التحرر لإضعاف الهيمنة الأوروبية وفي نفس الوقت أعطت قوة إضافية للغرب حين راح ينسحب ويعود إلى الدفاع عن نفسه أمام النازية أو أمام الاشتراكية. ومنذ أن وقع الزواج بين الغرب الأوروبي والغرب الأمريكي، ازداد الغرب شراسة ونهما. وهكذا فإننا في الفرضيتين نرى أن عالما بلا أمريكا ربما كان أفضل مما عليه الآن..

اليوم، ليس العالم هو الأفضل، وإنما أمريكا هي البلد الأجمل والأكثر ثراء وديمقراطية وحرية في العالم كما تتدعي عقيدتها، لكنها بدون شك هي الإمبراطورية الأقوى والأكثر إنتاجا للعنف والفوضى، والأشرس، والتي بدونها ربما كان العالم أقل تطورا وأكثر طمأنينة ورومانسية!.. ومع ذلك تكاد لا توجد السعادة الأمريكية إلا في بيوت مكيفة أو في قاعات زجاجية. وحتى تحافظ على تلك السعادة الاصطناعية الكاذبة لا بد لها أن تخترع الآن الأساليب الأكثر دهاء وذكاء لمواجهة أعدائها الأكثر عددا ومكرا والأكثر تعرضا للإهانة. إن الحرب لا بد منها، ولكن أية حرب وبأية جيوش؟ وإلى أي مدى؟..

*** *** ***

في أحيان كثيرة يتساءل المرء بسذاجة ما إذا كانت الترسانة الأمريكية تصدر لها الأوامر من الإدارة السياسية أو من غرفة عمليات معزولة في بيونس ايريس أو في أفغانستان أو في مقاديشو؟.. فجأة يقع هجوم على كنيس يهودي في الأرجنتين أو يضرب سوق تجارية في العاصمة الكينية أو تنفجر قنبلة في السفارة الأمريكية في دار السلام أو يهجم «قراصنة» الصومال على إحدى السفن في المحيط الهندي.. وقبل أن يستوفي الصحفيون تقاريرهم الإخبارية، تنتقل الكاميرات كلها إلى بواخر المارينز الأمريكية.. ها هو الرئيس الأمريكي يعلن التعبئة العامة. وها هي «الأرمادا» الأمريكية الجبارة في طريقها لتدمير أوكار الإرهاب. حشد كبير من السفن وحاملات الطائرات واستعراضات للقوات الخاصة، قوات المارينز الاقتحامية، ومئات الطائرات التي تنطلق في الجو وصواريخ تبدو موجهة لأهداف بعيدة جدا.. وطائرات بلا طيار تظهر محلقة فوق الغابات والجبال.. ولماذا كل هذه التعبئة؟ ببساطة من أجل ضرب رجل فقط في أفغانستان أو في الخرطوم أو تدمير خلية إرهابية في كينيا أو الصومال.. ألا نتساءل فعلا ما إذا كان ذلك له جدوى في مكافحة الإرهاب؟ ثم ألا نتساءل عن ذلك اللاتكافؤ بين القوة المرسلة وبين الأهداف المعلنة؟

في كل مرة تحرك أمريكا أساطيلها دفعة واحدة كما لو أنها ذاهبة فعلا إلى حرب عالمية ثالثة أو حرب ضد الصين أو ضد روسيا. وما لم تحركه حتى الآن لقتل «علي عيديد» في الصومال أو «أسامة بن لادن» في أفغانستان أو «الزرقاني» أو «البغدادي» في العراق هو الأسطول النووي. لماذا؟ ببساطة لأن السلاح النووي سيضعها وجها لوجه أمام المغامرة الكونية أو أمام الحماقة السخيفة. وبعبارة أخرى فإن السلاح النووي لم يعد يخيف أحدا غير الذين يملكوه. وواضح أن الأمريكان لم يعقدوا صفقتهم مع إيران إلا حين تأكدوا أن السلاح النووي يقوم بردع مالكيه قبل ردع الآخرين.. وقد ترافقت

تلك القناعة مع قناعة أخرى هي أن الإرهاب أصبح عدوا للجميع وأن إيران عليها أن تنخرط في هذه الحرب ضد الإرهاب.. ودون أن يخفوا الشعور بأن إيران انتصرت عليهم في مواقع كثيرة بفضل الإرهاب، فإنهم لن يتغلبوا عن الإرهاب إلا إذا أخرجوا إيران من العزلة وقدموا لها مكافأة هي: الاعتراف بها وبقوتها لكسبها في الحرب ضد الإرهاب!..

نعم يستطيع الأمريكان تدمير أية قوة عسكرية كلاسيكية تعترض سبيلهم أو ترغمهم على الحرب. وفي حربهم ضد العراق عام 2003، لم تستغرق رحلة القتال حتى سقوط بغداد أكثر من شهر بالرغم من أنهم كانوا يبالغون في قوة الجيش العراقي الذي وضعوه في المرتبة الرابعة عالميا دون خجل أو حياء. ولكن حين جاء زمن ما بعد صدام وما بعد الجيش العراقي غرق الأمريكان في الرمال والسراب وباتوا مضطرين للتعاون مع ألدّ أعدائهم -إيران- وكذلك مع الميليشيات وهم يطلبون بركات رجال الدين وشيوخ القبائل. لقد أدركوا أنهم وقعوا في الفخ، وأن القوة الجبارة التي ساقوها إلى العراق لا تحقق لهم النصر النهائي بعد ما بات عدوهم - عدوا آخر- لم يقدّروا جيدا قوته وهويته وقدرته على المقاومة.. آنذاك ثمة من فكر في «ورطة الفيتنام القبيحة» فطالب بالانسحاب التدريجي وكذلك بالتعاون مع أعداء الأمس مثل إيران وسوريا.. ثم عكف إستراتيجيو البنتاغون على البحث عن إستراتيجية جديدة تستطيع أن تحفظ لهم السيطرة وإعادة التوازن. أعطى لتلك الإستراتيجية أسماء كثيرة مثل «الحرب المتعارضة» أو «الحرب المضادة» ثم وقع الاختيار على إسم «الحرب غير المتماثلة»!.. الذي اخترعه الجنرال «ويسلي كلارك»*[21] على صفحات «التايمز ماغازين» في مقال تحليلي لحرب كوسوفو.. وهو لم يخف أنه عثر عليه في كتابات صاحب «فن الحرب» الصيني «صان تزو» الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

تاريخيا، وهذا يعني التاريخ الحديث، كانت حروب الاستعمار تعتمد على قوة نارية ساحقة ماحقة ضد سكان أهليين يسمون عادة «برابرة» منذ الانتشار الروماني، وهم لا يعرفون ماذا يريد منهم هؤلاء الجنود الحضاريون.. كانوا يستسلمون بسرعة لأنهم لا يملكون لا المعرفة ولا القوة ولا مصادرها بعد أن يكون الاستعمار قد صادرها.. بعد نحو نصف قرن، أكثر أو أقل بقليل، بدأت المعادلة تميل لصالح الأهالي الذين راحوا يشكلون خلايا مقاومة طلبا للاستقلال والتحرر الوطني. وفيما كان الاستعماريون يملكون التفوق الناري والتكنولوجي، كان الأهالي قد بدأوا يملكون التفوق العددي والعقائدي. وشيئا فشيئا بدأ الاستعمار يفقد مبررات تواجده وأسباب قوته ووضوح أهدافه، حين انتشرت حرب الأنصار أو حرب العصابات الشعبية أو حرب الغورية (guerilla).

في حرب الجزائر اتضحت تلك المعادلة بالنسبة للفرنسيين. كان يمكن للقوة العسكرية أن تقتل نصف الشعب الجزائري ولكنها لن تقضي أبدا عن مقاتلي جبهة التحرير.. لذلك كانت فرنسا تبحث عن فرصة للخروج متعادلة مع عدوها.. وحين وجدت تلك الفرصة بعد تحقيقها «لانتصارات وحشية» ومؤقتة على الأرض، ومع قدوم رجل جاد إلى السياسة عن طريق المقاومة لتحرير بلاده من النازية وهو الجنرال ديغول، بدأت مفاوضات الاستقلال.. وبات مفهوم حرب الأنصار، أو حرب الشعب مدعوما بحقائق مذهلة ومعتمدا لدى كل الذين يقاومون الغزاة أو حتى المستبدون..

الدرس نفسه استخلصه الأمريكان من حربهم في الفيتنام. وهو شبيه بالدرس الذي استخلصه الجنرال «جياب»[*22] من إطلاعه ومعايشته لحرب الجزائر وكذلك من مطالعته لكتب حرب الريف وسيرة زعيمها عبد الكريم الخطابي[*23]. فالتفوق الساحق الذي كانت تملكه الترسانة الأمريكية لم يحقق لها النصر في الفيتنام. وكانت كلما تقدمت خطوة، كلما وقعت في ورطة. وفي أحيان كثيرة كانت تشعر أيضا أنها باتت محاصرة وسط مستنقعات خط الإستواء من قبل مجموعات صغيرة من المقاتلين تتحرك بخفة ومعرفة وسط أهلها وفوق أرضها وتتكلم لغة شعبها. وتحت ضغط اليأس وشماتة الروس والصينيين وغضب الرأي العام الأمريكي والدولي.. وقبل كل شيء تحت ضغط الخسائر وفقدان الثقة في وهم التفوق العسكري، اتجهت واشنطن إلى مفاوضات باريس لتعلن عن أول هزائمها الكبرى منذ أن خرجت تحارب خارج حدودها!..

ما استخلصه الجنرال جياب حين قال : «أن التفوق العسكري لا يضمن النصر لأعدائنا، لأنه لم يعد حاسما»[**23]، هو نفس ما توصل إليه الجنرال الأمريكي «ويسلي كلارك» خلال حرب كوسوفو ومفاده «أن الحلف الأطلسي لن يخرج منتصرا إذا لم يعتمد على مقاتلي الشعب في كوسوفو». إن مجموعات من المقاتلين بأسلحتهم الخفيفة يمكن لهم أن يتفوقوا على كل طيران العالم. وقد أعطى الفلسطينيون أمثلة كثيرة في مواجهاتهم ضد إسرائيل وأثبتوا مرارا أن الحجارة أقوى من القنابل. واليوم فإن «داعش» تحقق انتصارات على أكثر من جيش ليس بفضل طيرانها وإنما بفضل أسلحتها وسياراتها الخفيفة.. إن الضعيف أو الأضعف هو الذي يتمتع بتعاطف (الوسط)، وهو الذي يتحرك على الأرض بين الأهل.. ثم هو الذي يقاتل باستمرار وفي كل وقت بينما القوي أو الأقوى لا يستطيع أن يدخل أرضا لا يعرفها بدون أهلها، وهو لا يستطيع أن يحتل أو يخضع السكان عن طريق الطيران فقط. وحتى لو زرع الرعب لمدة وسط السكان، فإن ذلك الرعب سرعان ما يزول بمجرد أن يعيد السكان ثقتهم في مسلحيهم.. وثمة رهان آخر أكثر تعقيدا مما يعتقده جنرالات في غرف عملياتهم هو: الأرض والوجود، إذ يمكن للقوي أن يسيطر من الجو على الأرض لفترة، ولكنه لا

يستطيع أن يتواجد على الأرض، بينما الضعيف فإنه يظل موجودا على الأرض.. على كامل الأرض ما لم يسيطر عليها خصمه بنفس الطريقة.

في الحرب غير التماثلية أو غير المتماثلة، ثمة ثلاث اختلافات إستراتيجية هي: الهدف، والطبيعة، والوسائل. وهنا يتقابل الخصمان. فالهدف هو قيمة الرهان السياسي بالنسبة لكل خصم. بمعنى ما الذي تريده أو تضعه أمريكا اليوم كهدف لحربها في العراق ضد داعش مثلا؟ ثم ما الذي تريد داعش تحقيقه من خلال حربها في العراق وسوريا؟ أما الطبيعة فإن الجميع يعرف أن الخصمين لا يملكان نفس التكوين ولا نفس القادة ولا نفس الأفكار ولا نفس العقيدة ولا نفس الأسلوب في التنظيم والتراتبية. وأخيرا عدم التماثل في السلاح وطرق القتال والعتاد والرجال وسرعة الحركة!..

في مثال داعش لا تملك أمريكا إلا مظهر التفوق، بينما هي في حقيقة الميدان، الأقل قوة. إن أهدافها غامضة ولم يعد يكفي أن تتكلم عن الديمقراطية أو العدالة، وهي لا تفعل من أجل ذلك غير القتال. وحتى لو كان قتالها الطويل من أجل الهيمنة على موارد الطاقة وثروات المنطقة، فإن ذلك ليس بالأسلوب الأمثل، بل أن ذلك الهدف المخفي والذي لا يتحدث عنه الأمريكان والغرب عموما هو ما يجعل من مهماتها أمرا مستحيلا، بل هو السبب الرئيسي في محاربتها.. ويكاد يكون الأمر سخيفا جدا لو صدق مواطن واحد في الشرق الأوسط كله أن أمريكا تحارب بهذه الشراسة من أجل نشر العدالة والديمقراطية. وإذا كان الهدف مفضوحا ويدعو إلى الريبة، أي إذا كان الهدف لدى واشنطن كاذبا، فإن العدو بالنسبة لواشنطن كذلك مجهولا. إن ورطة أمريكا، القوة العسكرية الأضخم والتي لا تقهر والقوة السياسية الأشمل، والمجتمع الأكثر انفتاحا والأكثر تسلحا بأدوات المعرفة والأكثر تأثيرا بوسائل الإعلام، إنها تحارب عدوا مجهولا. وهذا الأمر ليس محرجا فقط لهيبتها، بل هو مدمر لعقيدتها وقيمها. إن العدو هنا سواء في أفغانستان أو في العراق، ليست دولة ولا قوة عسكرية كلاسيكية أخرى وإنما هو تنظيم أو منظمة يقال عنها «إرهابية» أي عصابة مستوطنة أو عابرة للفضاءات. وبمعنى آخر لا يصبح العدو مجهولا فقط، بل يصبح فراغا. إن الفراغ أو الخواء هو أخطر ما يصيب قوة عسكرية كلاسيكية ضخمة لأنها تصبح عمياء وتخبط خبط عشواء. أضف إلى ذلك افتراضا أو واقعا أن العدو يحمل قيما مختلفة عن أمريكا، فإن ذلك لا يعطيها الحق أبدا أن تحارب كل من يخالفها الرأي أو العقيدة. أما الأسلحة والوسائل وأسلوب القتال ومهما كانت متطورة فإنها لا تضمن التفوق أبدا. فقد تسلل هؤلاء «الأعداء المجهولون» إلى شبكات أمريكا العنكبوتية وبات بإمكانهم أن يشلوا تلك الشبكات أو يستخدموها لصالحهم. ويثير ذلك كثير من اللغط والشبهات ولكن «فئران داعش» الإلكترونيين استطاعوا في أكثر من مرة أن يتفوقوا

على «فيلة أمريكا»، أو بعبارة أخرى تنتمي إلى تراث المنطقة: لقد أوقع «طيور أبابيل» «فيلة الحبشة» في «الحفرة السوداء»! أي في الفراغ السحيق!.

عاشت أمريكا ربما ثلاثة أنواع من الحروب خلال تاريخها. ويمكن أن تكون في الأولى قد حققت انتصارات بخسائر كبيرة، أي أن النصر كان بفضل الحرب المباشرة (حدث هذا خلال الحربين العالميتين). وقد تكون في الثانية خلال الحرب الباردة قد حققت انتصارات بلا خسائر كبيرة أي النصر بلا حرب كما كان هدف نيكسون. أما في الثالثة والتي تجري اليوم ضد الإرهاب، فيصعب أن يقال أنها أحرزت نصرا واحدا. بل هناك من يسمّي ذلك «بهزيمة النصر». أي أن كل نصر قد تحرزه أمريكا يمكن أن يسجل في حسابها كهزيمة.. ما دامت الأهداف غامضة ووسائل الحرب عاجزة والأعداء «مجهولون»!! فحتى لا ينهزم المنتصر والقوي والمتفوق عليه أن يوضح أهدافه السياسية والثقافية! فلا يكفي أن يقال أن كل هذه الحرب من أجل الديمقراطية. ثم ما هي هذه الديمقراطية؟ وهل الديمقراطية تفرض فرضا؟ كما لا يكفي الوعيد بالعقاب لأن ذلك قد يتحول إلى رغبة في الانتقام.. بعد ذلك عليه أن يحدد عدوه جيدا. فهذا العدو لا بدّ أن له بعض الحق أو بعض الشرعية بينما هو لايزال مجهولا وكذلك -مطرودا- ومطاردا من المجال العام. ولا بدّ أن له أهداف ولكن أمريكا تمعن كثيرا في تجاهله وتجاهل أهدافه. وأخيرا إذا كانت قوة تريد الانتصار فعليها أن تنزل إلى الميدان وتنسى كليا شعار (الخسارة صفر). فأمام من يضع نفسه في مقدمة الهجوم مباشرة وهو -يقتل نفسه بنفسه- في عملية انتحارية، يصبح الكلام عن «الخسارة صفر» لدى عسكريي أمريكا نوعا من الهراء. إن الخسارة صفر لا تقيم معادلة الحساب، إلا إذا كان النصر صفرا أو كان الهدف صفرا أو كانت قيم الديمقراطية صفرا..

فلكي نحارب الإرهاب، علينا أن نذهب إلى ميادين الإرهاب. أي القبول بالمواجهة والتعقب الساخن والخسائر ومخاطر الفشل ثم توضيح الأهداف وتوفير الجنود والعتاد والسلاح (السائل والثقيل، الصلب والخفيف) على أرض الميدان.

*** *** ***

إن سلاح القوى الكبرى، ونعني هنا أمريكا، لايزال سلاحا مصنعا لضرب مدن كبيرة وتحصينات قوية وجيوش كلاسيكية قوية. إنه يحتاج إلى قوة كلاسيكية منظمة لكي يحارب بنجاح.. وهو ما أوقع السوفيات في وهم النصر على مجاهدي أفغانستان. ولكن القوى الجبارة قلما تتعلم من تجربة أعدائها، بينما أعداؤها العزل والضعفاء هم الذين يتعلمون من تجاربها المريرة وتجارب الذين يشبهونها في الوضعية وفي درجة التصميم ودرجة القوة!..

لقد أعطت ضربة 11 سبتمبر فرصة كبيرة للإستراتيجيين الأمريكان لكي يتعرفوا عما تعنيه - الحرب غير المتماثلة. فالردّ الذي سارعت إليه الإدارة هو إعلان الحرب التقليدية بوسائل تقليدية على بلاد لا يوجد فيها جيش ولا دولة تقريبا. وهناك رأى الأمريكان بأم أعينهم كيف تورطوا في حرب لا أمد لها وتورطت ماكينتهم القتالية الثقيلة في قصف الوديان والجبال كما تورط من قبلهم السوفيات. وبما أن الرد كان سريعا وأهوج والعدو كان شبحا، والآلة ثقيلة حتى وإن كانت فعالة، فإن النتيجة كانت مجموعة من الخيبات والاحتقانات وقع تصريفها في حرب أخرى ضد العراق أنهت بلادا بكاملها. وهكذا لم تكن التداعيات إلا مزيدا من الانهيارات بالنسبة للمنطقة كلها، وبالنسبة للولايات المتحدة وحلفائها.

شكلت حرب العراق حدثا مفصليا في تاريخ الشرق الأوسط. فالدولة التي استقلت مبكرا (في عشرينات القرن العشرين) أعيد احتلالها أولا. ومنذ أن سقطت بغداد تحت الاحتلال الأمريكي، فقد الشرق الأوسط معادلة توازنه. وهذا يعني أن ملحقات معاهدة فرساي التي عرفت باتفاقيات سايكس/بيكو، قد وقع تشطيبها أو إلغاءها. وبالتالي فإن بلدا مثل العراق كان جزءا من تلك المعادلة قد تم إغراقه في فوضى جيوسياسية. ولم يكن ذلك إلا مقدمة لإغراق كل المنطقة في تلك الفوضى.

كان التفكير الذي سيطر على المحافظين الجدد في إدارة بوش، يتمحور حول ضرب الاستبداد ونشر الديمقراطية عبر القاطرة العراقية. ولكن بمجرد وصولهم للعراق اكتشفوا أن كل شيء يختلف عن أوروبا الوسطى، فلا يكفي أن يسقط صدام حسين كما سقط تشاوسيسكو في رومانيا حتى تنجح نظرية الدومينو.. فشلت نظرية الدومينو لأن أمريكا وجدت نفسها أمام إيران التي تقاسمها الهيمنة في أفغانستان والعراق ثم وجدت أمامها حلفاء طيبين لا يمكن تعويضهم حتى وإن كانوا مستبدين. فالأردن أو السعودية أو الكويت أو حتى مصر، هم حلفاء مثاليون يصعب تعويضهم أو التضحية بهم.. وإذ فقد المشروع الديمقراطي بريقه في العراق من خلال التنكيل والتقطيع وتدمير أسس الدولة والمحاصصة الطائفية، فقد جذب الاحتلال الأمريكي مقاتلين إسلاميين وعرب وعراقيين لمقاومته عبر كل الأساليب، الأمر الذي حتم على أمريكا المزيد من القوة والتورط وكذلك المساومة مع أعداء الأمس.. وإذ أصبحت حرب العراق عبئا على الإدارة الأمريكية وجرحا في جسد كل الأمريكيين، فإن إدارة أوباما الديمقراطية قد حثت خطاها للمغادرة بعد أن طمأنت نفسها وحلفائها بأن العراق بدأ يتعافى ويتماثل لأدوية الديمقراطية المسلحة!..

ولكن ما لم تدركه الإدارة الأمريكية أن الفراغ الذي أحدثته في العراق ستملأه إيران الباحثة عن القوة والأكراد الباحثون عن الاستقلال ومقاتلو السنة الباحثون عن الاعتراف.

ولكن الفراغ العراقي الإستراتيجي والسحيق كان لابدّ أن يحذب إلى فوضاه الإسرائيليون والأتراك أيضا لتبدأ لعبة «القوميات الشوفينية» على أرض العرب الأيتام والأرامل.

*** *** ***

وفي ظل غياب قائد أو لاعب عربي قوي، تحللت معظم الدول العربية الصغيرة من واجباتها وأصبحت تتخاطب مباشرة مع اللاعبين الكبار. فها هي قطر تصبح أكبر قاعدة أمريكية في المنطقة. وها هي الإمارات تصبح أكبر سوق للبضاعة الغربية. وها هي الكويت تدير بظهرها لكل ما هو عربي. وها هي البحرين تعلن نفسها مملكة خوفا من التعاظم الإيراني. وها هي سوريا تضطر إلى الانسحاب من لبنان. وها هي السعودية توافق على المد الإيراني على مضض. وها هي مصر تكتفي بدور الوسيط الطيب والساذج والعاجز، وها هي ليبيا تقبل بشروط المصالحة مع الغرب فتسلم أسلحتها وتتخلى عن طموحها العربي ثم تتجه نحو إفريقيا.. وفي آخر كشف الحساب، باتت البلاد العربية بعد احتلال العراق كمجموعة من الأيتام المذعورين حين ينظرون لأنفسهم أو كأرملة غنية وجميلة يريد كل لاعب إقليمي أن يتزوجها أو يتخذها عشيقة للحصول على جزء من ثرواتها!

إن أمة بلا قائد لهي أمة بلا بعل أو سيد.. وعليه فإن معارك طاحنة ستندلع بين البعل الإيراني والبعل الإسرائيلي والبعل التركي تحت عيون الإله الأمريكي للفوز بثروات الأرملة العربية الغنية!.. كان هذا يحدث منذ احتلال العراق الذي شارك فيه بعض العرب ومنذ أن غادر العرب سقيفتهم «الجامعة» غاضبين ومتخاصمين، وفي غياب الأب أو البعل الشرعي لا يكثر البعول الغرباء فقط، وإنما يكبر الأبناء عادة بلا انضباط وبلا احترام للأم. وهنا ترافق غضب الأبناء مع طمع الغرباء، فحدث أن شارك ذلك كله فيما سمّي بـ«الربيع العربي»!..

ولكن حتى قبل أن يأتي «الربيع العربي»، كانت لعبة مثلثات البعول قد بدأت ترسم ملامحها انطلاقا من العراق. فالشرق الأوسط الكبير والجديد يتطلب تشكيلا هندسيا جديدا. فهندسة سايكس/بيكو باتت من التراث. والجامعة العربية غدت فولكلورا. وقادة العرب تواروا خلف الضباب الواحد تلو الآخر وعدوهم التاريخي الإسرائيلي أصبح شريكا. والجاران الفارسي والعثماني يتزاحمان على الهيمنة والقوة.. وبكلمة واحدة لم يتبق للعرب إلا «إرهابهم» أو «إرهابييهم» للمقاومة ورد الاعتبار.. لذلك سيكون من الصعب على كل من يريد فهم ظاهرة الإرهاب العربي والإسلامي إذا لم يفهم أولا رهانات هذه اللعبة الإستراتيجية الكبرى التي تجري على أرض العرب التي تتوسط عوالم آسيا وأوروبا وإفريقيا.. إن أمريكا حتى وإن وجدنا من يصفها بالقوة

الخشنة والغبية تدرك بحسها البراغماتي القوي ذلك جيدا إلى درجة أنها مستعدة للتفاهم حتى مع الإرهابيين الأشد عداوة وشراسة!..

يطلق الأمريكان على المنطقة الممتدة من جبال أفغانستان إلى جبال الأطلسي بالمغرب تسمية الشرق الأوسط الكبير. ويطلق الإنكليز والروس كذلك على المنطقة الممتدة من حوض القزوين إلى شرق المتوسط وجزء كبير من جنوبه مرورا بالخليج والبحر الأحمر تسمية الشرق الأوسط. وفي تلك المنطقة توجد أكثر من قوة إقليمية تتقاسم العداءات والتحالفات منذ أمد طويل. إنها منطقة شبه مشتعلة تبدو وكأنها مصرة على ألا تتكلم إلا بلغة المدافع وكأن شياطين كثيرة قد استوطنتها إلى الأبد. فإلى جانب شيطان النفط والغاز، هناك أيضا شياطين الأديان والقوميات والعرقيات والهويات المتقاتلة!..

قلّما وجدت منطقة في العالم اجتمع فيها كل هذا الخليط المتفجر. فإيران والعراق وتركيا وإسرائيل والسعودية ومصر جميعها تتأهب لسباقات طويلة المدى من أجل الفوز بمكانة لائقة في خارطة القرن الجديد. ولكن ما من دولة من هذه الدول قد أدركت أن سباق القوة منهك لها ولغيرها وهو قابل للانحراف والارتداد وحتى الانزلاق نحو الهوة المظلمة.. كما ما من دولة من هذه الدول على الاستعداد للاعتراف بحدود قوتها أو بأنها ليست إلا مجرد «فائض قوة» أو «قوة مضافة» معرضة لاحتمالات الإلغاء والتقسيم والتهميش في لعبة السباقات الكبرى ومع القوى العظمى.. ونعني بها أمريكا، أوروبا، الصين وروسيا..

*** *** ***

لنبدأ في رسم هذه التشكيلة السداسية من دول إقليم الشرق الأوسط، بـ«الاعتراف» بحقهم في حماية أمنهم القومي. فمن حق السعودية بمساحتها الضخمة التي تعادل مساحة أوروبا الغربية، أن تعتقد أنها أرض الإسلام السنّي والنفط بامتياز. وتكاد إستراتيجيتها التي تقوم على حماية الإسلام بأموال النفط وحماية النفط بمركزية الإسلام أن تنطق بذلك. ومن حق إيران بمساحتها الكبيرة (مليون و700 ألف كلم^2) وبسكانها الذين سيبلغون الـ100 مليون في وقت قصير والتي تنفتح على أكبر حوضين لإنتاج النفط هما الخليج والقزوين والتي أوشكت أن تضع نفسها على الخارطة النووية. أن تعتقد أنها أرض الإسلام الشيعي والنفط والقوة النووية. وكان العراق قد تصرف في عقود ما قبل الاحتلال على أنه صاحب أكبر احتياطي من النفط في العالم وصاحب الرسالة القومية وجبهة العرب الشرقية التي لا تغمض عينيها.. ولم تكن مصر لتختلف مع العراق في جوهر الرسالة القومية حتى وإن تصادم النظامان هنا

وهناك في بعض الأحيان. فمصر التي لا تمتلك النفط تمتلك الجغرافيا والبشر والقوة الناعمة والجيش المحترف وكذلك المساحة الشاسعة والسواحل الطويلة.. وإذ تبدو تركيا وكأنها استدارت نحو الشرق بعد رحلة عذاب وامتهان مع الغرب، فلأنها تعتقد بأنها القوة البشرية والمالية والإسلامية التي من شأنها أن تحدث التوازن المفقود في إقليم الشرق الأوسط. أما إسرائيل القوة النووية المزروعة في قلب الإقليم والحاضنة للثقافة الكوسمبولتية الغربية، والتي تحظى بتعاطف كبير في الغرب، فإنها ما انفكت تتساءل بقلق حول مصيرها الذي لايزال معلقا بين «أن تكون أو لا تكون». فإسرائيل وكما تعتقد إما أن تكون «فائض قيمة» سيتبخر مع الزمن أو «قيمة حقيقية مضافة» لهذا الشرق الأوسط المعقد والمركب. وبمعنى آخر على كل هؤلاء اللاعبين الإقليميين والدوليين أن يحسموا أمرهم مع إسرائيل قبل أن تحسم إسرائيل أمرها معهم. فما كان يسمّى بالصراع العربي/الإسرائيلي قد أصبح الآن جزءا من «المسألة الشرقية» برمتها، ذلك أن إنهاء كل المشاكل قد يبدأ من وضع حلّ إقليمي ونهائي للمسألة اليهودية/العربية أولا.

وتتوزع كل قوة من هذه القوى الإقليمية على أكثر من عالم جغرافي. فالسعودية آسيوية عربية إسلامية وعالمية!.. وإيران تنتمي إلى آسيا الوسطى والغربية (القزوين والخليج) ومصر تتجاذبها آسيا وإفريقيا وتركيا تلتحم على أرضها وتتصادم آسيا وأوروبا. وإذ تتقاسم العراق العروبة والأكراد والإسلام الشيعي والسني ويلتحم بإيران وتركيا وأرض الشام، فإن إسرائيل تبدو في شرق المتوسط كحوض غربي وكوسمبوليتي بامتياز. على أن ما من دولة من هذه التشكيلة السداسية لم تعمل في العلن والخفاء من أجل الزواج مع الغرب. فحتى إيران التي عاشت عقودها الأخيرة متخاصمة مع الغرب، ها هي تعود شيئا فشيئا إلى أحضان الغرب. أما السعودية ومصر وتركيا والعراق الجديد وإسرائيل فكلها دول تتمتع بصداقات متفاوتة مع الغرب حتى أن إستراتيجيتها وفي أقصى درجات صدامها أو تصدعها لا تخرج أبدا عن سيطرة الغرب.. إنها بلدان يمكن أن نشكل منها أكثر من مثلث، بيد أن كل مثلث لا يستطيع أن يعمل إلا بالتحالف مع الغرب. وبالذات مع أمريكا. لقد تغيرت المواقف والتحالفات بعد حرب الخليج الأولى ثم بعد حرب احتلال العراق. وبات كل مثلث يعمل بقوة محلية وأخرى غربية. فالمثلث السعودي-التركي-الإسرائيلي، يحتوي على قدر من التناقض، ولكن الغرب يمده بطاقة جبارة للعمل. وكذلك كان في الماضي المثلث الإيراني-الإسرائيلي-التركي. وكذلك يعمل المثلث المصري-السعودي-التركي حاليا.

إن لعبة المثلثات الجغراسياسية كثيرا ما تغري المهندسين الكبار. وبالنسبة لواشنطن لا تبدو تلك الدول متساوية من حيث القيمة في نظرها. بل إن قيمة كل دولة تكمن

في مدى استعدادها لخدمة مصالح الغرب. ولو طلب من مهندسي العلاقات الدولية الأمريكيين رأيهم في كل دولة من تلك الدول لجاءت أغلب الأجوبة متلعثمة وغير واضحة فيما عدا ما هو واضح للعيان من أن نظاما جديدا يخرج الشرق الأوسط من الفوضى يستوجب أولا التفاهم بين المكونات الدينية للمنطقة على نحو جديد وهم السنة والشيعة واليهود والمكونات القومية وهم العرب والفرس والأتراك والأكراد والإسرائيليون، وكذلك مكونات القوة وهي: النفط والغاز والبترودولار والقوة النووية.

في الحقيقة العميقة التي لا تخرج أبدا من أفواه الإستراتيجيين أو المهندسين الكبار. فإن لا دولة من هذه الدول تحظى بالصداقة الدائمة لواشنطن وكذلك بالثقة فيما عدا إسرائيل، الإبن المدلل للزوجة سارة. أما الآخرون فهم أبناء هاجر الزوجة الثانية. فلا تركيا التي تنتمي إلى الحلف الأطلسي ولا السعودية التي تحظى بتحالف إستراتيجي مع واشنطن منذ سبعة عقود أو أكثر يمكنهما بلوغ المرتبة الإسرائيلية في سلم أولويات العلاقة مع واشنطن إذ لا يكفي التحالف أو التعاطف وإنما لابد أن تتوفر الثقة والمصداقية.. أما إيران ومصر ومعهما العراق فسوف تظل بلداننا معلقة بين الشك واليقين وبين الولاء والعصيان على محك التجربة والمراقبة الدائمة.. وبلا أدنى شك ستكون الأولوية الأمريكية بالنسبة لهذه البلدان الثلاث لإيران. فهي قوة إقليمية متنامية بشريا وماديا وتكنولوجيا تفتح على بحرين واحد يطل على آسيا الوسطى والآخر يشرف على آسيا الغربية. لقد تغيرت الأولويات والأفضليات. فقد كف العراق على لعب دور الكابح لإيران وبات شبه تابع لإيران. وهو لا يحظى بأية ثقة لدى الغرب، لأنه حين انفلت من عقاله سابقا تجرأ على احتلال دولة خليجية بكاملها (الكويت) ثم تجرأ على ضرب إسرائيل. ولأنه فقد مؤهلاته وطموحاته منذ الاحتلال، فقد بات عدم وجوده أفضل بكثير من وجوده (فائض قسمة). أما مصر التي ظلت معلقة لعقود طويلة بين الغضب والصمت، فهي لاتزال تحت التجربة قبل أن تنال حق درجة التحالف القديمة التي كانت تحظى بها في عهدي السادات ومبارك. ففي واشنطن كما في تل أبيب لازال هناك من يعتقد أن التجربة الناصرية يمكن أن تتكرر ويمكن لناصر عربي إسلامي جديد أن يكشف عن وجهه في أية لحظة!..

ولا يغيب عن ذهن أمريكا الآن بأن السعودية بإسلامها السنّي والمتزمت والعابر للقارات وبنظامها السياسي المغلق قد أصبحت منذ فترة مخزنا ومصنعا لتصنيع الطاقات الإرهابية. وهو ما يجعلها تفقد رصيدها من الثقة التي لطالما تمتعت بها لدى الإدارة الأمريكية. وإذ تميل أمريكا شيئا فشيئا نحو إيران كقوة ما انفكت تتعلقن وتتطور، فإنها تعمل بكل الأساليب من أجل أن تحافظ على تنامي إسرائيل كقيمة إستراتيجية ثابتة تتغذى من المخزون الغربي اليهو-المسيحي، بيد أن ذلك لن يتحقق إلا بتكسير أضلاع المثلث العربي/الإسلامي (العراق-مصر-السعودية).

فالسعودية إذا عزلت عن مصر والعراق والشام، فإنها لن تكون إلا مجرد خزان نفطي للغرب. وإذا وقع توريطها في حروب إقليمية مع جيران عرب (كاليمن)*24 فإنها قد تعرض نفسها للتقسيم. أما مصر فإنها لن تقدر على إحداث أي توازن لا باتجاه إسرائيل ولا باتجاه تركيا أو إيران، أو حتى الحبشة. فبدون ثقل السعودية والعراق (المغيب والمفتت) وسوريا المحطمة، يصبح مثلث العرب خارجا ومعطلا عن الخدمة.

وطبقا للتدمير المنهجي للعراق الذي يجري منذ عدة سنوات، ثمة من بات يعتقد أن قيمة العراق الإستراتيجية قد انتهت، وأن هذا البلد ربما لم يعد من المفيد إعادته إلى الحياة. فقد أصبح متخلفا حتى عن محيطه بما يقدر بنصف قرن أو قرن من التنمية وقد صودرت كل قواه المنتجة والمبدعة إلى أجل غير محدد، وهو يغيش حربا لا تبقى ولا تذر. لا بل أن تقسيمه أصبح ضرورة لدى القوى الدولية والإقليمية من أجل تدمير المثلث العربي/الإسلامي تدميرا نهائيا. فغياب العراق من الخارطة الجديدة هو مقدمة لتفتيت دول عربية أخرى، ونفي لأية قوة عربية تتوازن مع القوى الإقليمية الأخرى: إسرائيل – تركيا – إيران.

إن تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات لم يعد مجرد رغبات دفينة تحوم من حوله منذ زمن بعيد، كما فكرت قوى أوروبا الكبرى بالنسبة لألمانيا*25. بل هو أصبح سياسة منهجية تمشي على قدميها في بغداد والبصرة والموصل وأربيل. وهذا إغراء كبير بالنسبة لأمريكا وبالنسبة لدول أخرى في المنطقة. فالتقسيم الذي سيجهز نهائيا على إمكانية إعادة تشكيل العراق القوي والجديد، سوف ينتج ثلاث أو أربع دويلات ضعيفة وهزيلة. الأولى شيعية في الجنوب تحت الهيمنة الإيرانية. والثانية سنية في الوسط تحت الهيمنة التركية/السعودية. والثالثة كردية تحت الهيمنة التركية والإسرائيلية.

يجب القول هنا أن السياسيين غالبا ما يرغبون في عكس ما ينطقون أو يصرحون به. فالكويت تريد إلى جانبها دولة شيعية صغيرة في الجنوب وعازلة بينها وبين بغداد السنية التي ستظل مصدر الهواجس الأبدي بالنسبة لها. وإيران تريد دفع العراق السني إلى الداخل لإبعاده عن مياه الخليج. وإسرائيل ترغب في تفتيت العراق حتى لا يعود قوة مهددة لأمنها أو حتى لوجودها في حالة تحالفه مع إيران. وتركيا تريد أن تستعيد هيمنتها على سنة العرب في الهلال الخصيب أي في الشام وبلاد الرافدين، من أجل إضعاف العرب والإيرانيين على السواء. والسعودية ترغب في عزل شيعة الشام والعراق بإقامة كيان سنّي في وسط العراق. وهكذا ما من أحد في المنطقة يدعي أنه ليس لديه أية مصلحة في «غياب العراق» ربما باستثناء مصر التي تريد للعراق أن يبقى ويقوى لحماية الجبهة الشرقية لبلاد العرب وكذلك لإلهاء الإيرانيين والأتراك والإسرائيليين عن العبث بالأمن القومي المصري..

ولو أن مصر كانت تحاذي العراق، فإنها لن تعارض هي أيضا تقسيم العراق. وهو ما تفعله تركيا على قدم وساق. ورغم أن دولة الأكراد في أربيل تثير لديها بعض الإزعاج والقلق خوفا من نقل العدوى إلى أكرادها، إلا أنها تجد في كرستان العراق ملجأ لكل أكراد تركيا الغاضبين. أما إسرائيل فربما كانت أكثر المستفيدين من مخطط تقسيم العراق. فتقسيمه هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن ينهي تهديده إلى الأبد، وهو الذي سيضعف إيران والسعودية ومصر وسوريا. وتدرك إسرائيل أن تدمير العراق هو تدمير مثلث الأمن القومي العربي. فالصواريخ العابرة للقارات التي أطلقتها بغداد باتجاه إسرائيل في بداية الـ90، قد أنهت حرب الحدود في شكلها التقليدي ووضعت إسرائيل تحت تهديد القوى الصاعدة. وهذا ما يجعل إسرائيل في قلق دائم ما لم ينقسم العراق إلى دويلات هزيلة منقادة بلا أهداف ولا مهمات ولا أسلحة ولا ثروات.

وتبدو الولايات المتحدة الآن حائرة ومعلقة في سماء العراق وهي تتساءل: هل ستنتهي معضلة العراق الإرهابية من الجو وبالطيران أم عليها أن تنزل إلى الأرض لتحلّ معضلة العراق الجغراسياسية؟! إنها فعلا حائرة بين الحفاظ عليه في هيئة «الوحدة» أو بين تقسيمه وتثليثه أو تشطيره على نحو ما فعلت في السابق في الصين وكوريا وألمانيا. وإذ لا يستطيع إستراتيجيو أمريكا مقاومة إغراء الحل الذي طبق على المعضلة الألمانية عقب الحرب العالمية الثانية أو حتى الحل الذي طبق على كوريا والفيتنام خلال بداية الحرب الباردة، فهم يعتقدون أن أوروبا لم تخرج من دائرة أوهام الحرب وإنتاج العنف إلا حين تم تقسيمها ثم إعادة صهرها في فرن «الوفاق الدولي» حتى باتت قابلة للاندماج في المحيط الأوروبي والعالمي بلا عدوانية..

كان كيسنجر، وهو أحد واضعي السياسات في أمريكا، يرغب بعد سقوط جدار برلين في الحفاظ على تقسيم ألمانيا أو جعلها ثلاث دول بدلا من إعادة توحيدها في دولة واحدة. وباعتباره ألمانيا ، فقد كان يعتقد وربما لازال بأن الألمان لا يشفون من طلب القوة والهيمنة إلا إذا كانوا ضعفاء. فقد عاشوا طويلا في القرون الوسطى كسادة لأوروبا، وكثيرا ما طلبوا المجد والسيطرة وجعلوا من - ألمانيا فوق الجميع - شعارا لهم، غير أن التاريخ تنكر لهم وجعل منهم أمة بلا دولة موحدة كالفرنسيين أو الإنكليز، الأمر الذي جعل منهم «عطشى إلى الأبد» إلى القوة والازدهار. وهذا ما قد ينطبق على المثال العراقي. فهذا البلد لا يفارقه الشعور بأنه مصدر التألق والمجد للعرب منذ القديم. وقد شارك في العصر الحديث في ولادة مشروع الأمة العربية منذ الثورة العربية الكبرى وجعل من نفسه حصنا كبيرا لهذه الأمة. وقد حارب كثيرا لحمايتها من التمزق أو التخلف، ولكنه لم يجن في النهاية إلا الحصارات والحروب والتمزقات الأهلية. وأخيرا ها هو يوضع تحت مشرحة التقسيم وكل دولة تريد حصتها!..

بالتأكيد لا توجد اليوم في العراق نخب مستنفذة أو حاكمة شبيهة بنخب ألمانيا بعد الحرب الباردة. فالمالكي أو العبادي لا يشبهان لا كول ولا شميدت ولا ميركل. كما أن العراق الحالي لا يعدو أن يكون «خردة دولة» شبيهة بخردة ألمانيا عشية الحرب الكونية الثانية. أما أمريكا التي جعلت من البلدين «خردة وحطاما» فلم تعرف كيف تمد أيديها أو تفتح صناديقها للعراق كما فعلت مع ألمانيا مع مشروع مارشال، أضف إلى ذلك أن جيران العراق الحاليين ليسوا هم جيران ألمانيا الأوروبيين.. لا فلسفة ولا اقتصاد ولا علماء ولا مشروع واضح لدى العراقيين اليوم أو لدى العرب. وحتى لو أن الأمريكيين باتوا يشعرون بالندم وبالذنب لما صنعوه في العراق باسم الديمقراطية، فإن ليس لديهم ما يقدمونه كحلّ إلا المزيد من الدمار باسم محاربة الإرهاب. فهم يعتقدون اليوم ما يعتقده الإسرائيليون وما اعتقده كيسنجر بخصوص ألمانيا، بأن لعبة المثلثات المدمرة بمنطقة الخليج المتوسط لن تنتهي إلا بتكسير وتهشيم الضلع العراقي. ومعنى ذلك كله أن «فائض القوة» أو «فائض الضعف» في لعبة القوى الإقليمية هو العراق. ومن بعده سوريا، وليس إسرائيل (كقوة غربية مضافة).

بلا شك، وهذا كان واضحا منذ احتلاله، أن تقسيم العراق أو تهشيمه سيضعف المثلث العربي/القومي ويجعله أعرج. بل سيدخل سوريا آجلا أو عاجلا في الدوامة.. كان واضحا أيضا*[26] أن سوريا ستفقد احتياطها الإستراتيجي أمام إسرائيل وتركيا وستنحاز أكثر فأكثر باتجاه إيران ثم تصبح ساحة لحرب إقليمية دولية لتصفية آخر حلقات الصمود لدى العرب. بعد ذلك ستسحب السعودية نحو الدوامة وتصبح بلا سند أمام إيران. وقد يضطرها ذلك إلى التحالف مع تركيا وإسرائيل أو يجعلها منكفئة على نفسها وإسلامها، وأخيرا سيجعل مصر معرضة للبعثرة والتفتت حين يصبح المثلث الإسرائيلي-التركي-الإيراني يعمل بكامل طاقته بدون كوابح مستفيدا من قوة الدفع الهائلة للمحرك الأمريكي.. لقد كان واضحا أيضا أن تقسيم العراق هو في آخر المطاف «بروفة» لتقسيم بلدان عربية أخرى. وبذلك تكون مرحلة الحصارات (حصار العراق وليبيا وسوريا والسودان) لتبدأ مرحلة التفتيت.. كان كل شيء واضحا بالنسبة لقراء ومحللي الإستراتيجية الدولية.. وما لم يكن واضحا حتى مجيء الربيع العربي هو: ماهي الدولة الثانية المرشحة «للحالة العراقية». وحين جاء الربيع العربي عرفنا، أن سوريا هي التي استبدت بها «الحالة العراقية»!..

ولكن إلى أين سيقود تهشيم العراق وسوريا معا؟ وهل ثمة لاعبون آخرون جدد لم يخطروا في بال الأمريكيين يستعدون الآن لتحطيم سيناريو التقسيم والتهميش؟ ألم يفكروا في وصول اللامنتظر؟ أليس من قوانين الصراع أن الحلول المفروضة من الخارج غالبا ما تتحطم عبر الديناميكية الداخلية للمجتمعات والسيرورات التاريخية؟!..

إن مبدأ السيطرة في النظام العالمي شاملا وكليا، ولكن ذلك من الصعب أن يتحقق دون وجود أو استحداث أنظمة إقليمية أولا. فالأعمدة الأساسية لبناء النظام العالمي توجد في الدول الإقليمية حتى أن هناك من يطلق على هذه الدول الإقليمية تعبير الإمبرياليات الصغرى. وفي وقت ما كان الأمريكان يعتمدون على البرازيل في أمريكا اللاتينية، وعلى نيجيريا وجنوب إفريقيا في إفريقيا وعلى الباكستان في غرب آسيا واندونيسيا في شرق آسيا، وعلى مصر/إسرائيل في الشرق الأوسط وعلى السعودية في الخليج.. هذه الدول تملك من القوة والأسواق والمواقع ما يؤهلها لتلعب دولا للتوازن البناء في النظام العالمي الآن. فالعدو أولا لم يعد دولة أو جيش أو إمبراطورية أو إيديولوجيا. إنه الآن (إرهاب) شبح عضوي يتعايش داخل المجتمعات. ثم إن هذه الدول/الإمبريالية الصغرى أو الوكيلة لم تعد كما كانت، بل أصبحت هي نفسها تبحث عن تحالفات جديدة في عالم متعدد الأقطاب حتى وإن لم يكن ذلك واضحا. فالصين أو روسيا أو الهند ما انفكت تعمل من أجل أن تتحول إلى دول إمبراطورية في عصر العولمة.. وأما مشكلة الشرق الأوسط فهي معقدة لأن الذين يريدون أن يلعبوا دور المحور في النظام الإقليمي كثيرون ومتعددون. فالسعودية وتركيا وإيران ومصر وإسرائيل كلها دول محورية في النظام الإقليمي للشرق الأوسط. ومن هنا يأتي العجز البنيوي لبناء ذلك النظام، لأن الخصومة ذات درجة عالية من الحرارة، ولأن درجة التفاهم بين هؤلاء لاتزال غير ناضجة، ثم لأن الرهانات مرتفعة (ثروات وأديان) ثم لأن العدو الجديد في هذه المنطقة هو «عدو الجميع»، ولكن الجميع لازالوا لم يحددوا كما يجب من هو عدوهم!

إن القوة العسكرية المتفوقة لا تحرز النصر دائما. كما لا تحمل إرادة المقاومة على الاستسلام. وقد عرف التاريخ أمثلة كثيرة حول كيف يهزم -لاعبون جدد وصغار- تصاميم قوى خارجية كبرى من الداخل. فما إن يجر هؤلاء الصغار اللاعبين الإقليميين إلى مربعهم، حتى تنهار تصاميم ومخططات الخارج كلها. إن أمريكا قد تمنح الوقت والقوة والهامش لهؤلاء اللاعبين الإقليميين لترتيب تفاهماتهم واقتسام مهماتهم، ولكن إذا فشل الحلفاء الإقليميون في ذلك، فإن أمريكا قد تصبح مضطرة إما للدخول مباشرة في الصراع، أو للتفاهم مع دول إمبراطورية أخرى مثل روسيا والصين. وما يجري الآن يفيد أن أمريكا قد استنفدت الوقت المسموح به ولم يعد أمامها إلا الانخراط مباشرة أو التفاهم مع قوى إمبراطورية أخرى.. ولأن الانخراط الشامل في حرب ضد «عدو شبح» قد يضعها في الفخ، فإنها قد تجد نفسها منحنية أمام الآخرين بشكل أو بآخر. فإما أن تنحني أمام القوى الأخرى (نفكر دائما في الصين أو روسيا) أو تنحني أمام العدو/الشبح. ونعني به الآن «الإرهاب» أو تنظيم الدولة

الإسلامية «داعش». إن دبلوماسية الأبواب الخلفية هي جزء طبيعي من دبلوماسية الأبواب المفتوحة في العلاقات الدولية. وبما أنها تدرك جيدا أنها لن تفعل الكثير أو الأفضل عن طريق قوتها العسكرية، فإن الأفضل سيصبح لديها هو التعاون مع هذه المنظمات الإرهابية من أجل احتوائها أو تطويعها أو تدجينها وإن أمكن من أجل جعلها كأداة مهددة للاعبين الإقليميين كي يتحدوا لبناء نظام إقليمي داعم للنظام العالمي.

إن الورطة كلها قد تعود إلى «تدمير العراق كدولة». وهنا تتفوق الحكمة البريطانية على البراغماتية الأمريكية. ولو قرأت أمريكا الخارطة الجيوسياسية جيدا فإنها ما كانت لتقوم بتدمير العراق. كان يمكن أن تقف عند اغتيال أو تنحية صدام بطريقة أو بأخرى دون أن تدخل في حرب مفتوحة لا أحد يتحكم في ارتداداتها. إن تدمير العراق هو تفجير للجغرافيا السياسية لتلك المنطقة حسب معاهدة فرساي وملحقاتها السرية سايكس/بيكو. وثمة من دعى آنذاك إلى جغرافيا سياسية أخرى عرفت بنظام ب.ب. (بوش/بلير) في العام 2003، ولكن التمنيات لاتزال أقل بكثير من الكابوس إلى حدّ الآن. فتدمير العراق أيقظ التناقضات كلها في المجتمع والدولة العراقية ثم استدعى تفجير التناقضات في دول الجوار.. وباتت هذه الدول (دول الجوار) عاجزة عن التفاهم أو التنظيم في منطقة ينتظر فيها الأكراد، وينتظر فيها الفلسطينيون دولتيهما منذ أيام بلفور وسيفر. وهذا يعني أن أي - تفاهم دولي - في المنطقة من أجل نظام إقليمي جديد لابد أن يأخذ في الحسبان الدولة الكردية المستقلة والدولة الفلسطينية المستقلة. فكيف والحال هذه أن يقبل الإسرائيليون والأتراك والإيرانيون بوجود هاتين الدولتين، وهم من اللاعبين الإقليميين؟.. وما لم يذهب هؤلاء ومعهم أمريكا مباشرة إلى جوهر الموضوع، فإن الدوامة ستستمر، ويصبح خيار الدولة الإسلامية كما ترسم حدودها داعش في مخيلة الناس، خيارا ذا جاذبية يستحق العناء والانتظار..

قد يرتعد العالم كله خوفا من حمق أمريكا حين تضرب مصالحها.. ولكن الحمق الأمريكي هو الذي يضرب الآن أمريكا.. فعندما يلغون التاريخ ويغزون الشعوب ويطيحون بالقادة والزعماء ويصنعون الثورات المعلبة والسريعة (الفاست فود) ثم يرسلون أساطيلهم لاصطياد الإرهابيين ولا يعيرون اهتماما بالتنمية أو بالثقافة أو بالمناخ، ويجعلون ذلك كله كما لو أنه مهمات إرسالية، فإنهم يمارسون الحمق في أعلى تجلياته دون أي قدر من الحكمة أو الأخلاق.

ويلامس ذلك الحمق (الحماقة) حدود الجنون (جنون العظمة) حين يعتقد الديمقراطيون مع الجمهوريين بأن سياسة الخوف والتخويف هي الأكثر نجاعة وحضورا وأن درجة الاستعداد للتعاون والتضامن مع هذه الشعوب منخفضة جدا. بل أن كثيرا من العمليات الإرهابية لم تكن لتحدث لولا حماقة الأمريكان، وأن بعضها قد حدث

تحت عيون الأمريكان من أجل التخويف لصناعة السيطرة الشاملة. ثم بسبب الربح لأن الإرهاب لم يعد فقط مفهوما سيكولوجيا أو ثقافيا أو سياسيا فقط، بل هو بات سلعة أي جزء من سوق العولمة..

وما دام مجانين السياسة الأمريكية يتحركون في السوق نفسها مع مجانين الإرهاب. فلا بد أن الإرهاب بات سلعة رابحة: له زبناء ومنتجون وسماسرة!..

*** *** ***

فتحت «سوق المزايدات الوقائية» أمام رجال وخبراء الأمن أبواب العالم على مصراعيها منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك. وبات هؤلاء الخبراء والتقنيون يتحكمون في درجة حرارة «التعايش» مع الإرهاب بكيفية تدعو إلى الريبة والتذمر وحتى اللؤم. وقد تم إشباع رجال السياسة بالتحاليل والدراسات حول الإرهاب حتى باتوا رهائن لفاشية أمنية مقيتة ومتنامية في كل ميدان، على أن ذلك لا يجب أن يخفي بأية حال من الأحوال ذلك التعايش الذي ما انفك يتفشى حول البعد التقني للمنظومة الإرهابية الجديدة في جيلها الخامس..

إن الحروب (ويتعلق الأمر هنا بحرب شبه عالمية ضد الإرهاب) لا تحتاج إلى الأسلحة والجنود والخطط فقط وإنما هي تحتاج إلى منظومات تقنية متطورة ومتماثلة مع منظومات العدو. تناولت أغلب التحاليل والدراسات ما يعرف بالتكتيكي واللوجستيكي والشبكات الناشطة والنائمة وحلقات التنظيم العنقودي ومجموعات الذئاب المنفردة، لكنها لم تتناول إلا فيما ندر «نظام الحيز الداخلي» الذي قد تجري فيه العملية الإرهابية أو تتحرك فيه الذئاب المنفردة أو الحلقات العنقودية. إن هدف الإرهاب في جيله الخامس هو تدمير النظام التقني للعدو، أي غزو «حيزه الداخلي» أو تحويله إلى منظومة مرتدة كما يحدث حاليا مع الإنترنت من داخل الإنترنت نفسها. فالإرهاب لا يعيش فقط في بيئة عضوية وحيوية، إنما هو يحارب من داخل المنظومة التقنية نفسها.

فيما مضى، شكلت القلاع والحصون نظاما دفاعيا وتقنيا جيدا، بيد أن ذلك النظام قد بات عاجزا الآن عن تأمين الدفاع أو إعلان الهجوم منذ أن بات مخترقا كما يحدث في حرب طروادة. فميادين المواجهة مع الإرهاب التي كانت مادية ومرئية قد باتت في أغلب الأحيان غير مرئية وافتراضية. إن الذئاب المنفردة أو المنفلتة (أفرادا ومجموعات) هم أحصنة طروادة الجدد. والغزو من الداخل بات هو الأسلوب الأنجح للضرب من داخل الوسط المحيط. إن المفارقة التي أحدثتها تلك المواجهة التي تطورت من التحصن إلى الاقتحام إلى الغزو من الداخل، هي أن المتحاربين قد أصبحا يعيشان وسط المحيط

التقني نفسه دون أن يرى أحدهما الآخر ودون أن يدري كل منهما أنهما في المكان نفسه، شأنهما شأن السمكة التي سألت سمكة أخرى في البحر: أين يوجد السمك؟..

في مرحلة النمو التقني السريع التي استمرت حوالي قرنين، ربما كان من السخف انتقاد ذلك التطور الهائل للتقنية لما توفره للإنسان من حماية ورفاهية وقدرات إضافية. أما اليوم فقد آن الأوان لكي ننتبه جيدا إلى المخاطر الارتدادية التي تحدثها هذه التبعية الإجتما-تقنية بالنسبة للبشرية جمعاء. فالبشرية اليوم تبدو كما لو أنها تعيش في بوتقة واحدة مع خطر الأعداء. وهذا الخطر المتعدد والمتجدد للتقنية لا حدود له ولا رأس له. فكل شيء في غاية التعقيد حتى أن تنظيما صغيرا وبعيدا جدا عن أمريكا مثل القاعدة قد تحول في برهة زمنية قصيرة إلى تنظيم سياسي/تقني يتحرك بألف رأس ومرتبط بألف ذيل ملتحمة ومتداخلة عبر شبكة تقنية تم زرعها وسط الشبكة/الأم (الإنترنت). وهذا الأمر الذي بات معترفا به لدى خبراء الشبكة/ الأم قد دفع إلى تشديد المراقبة والتحصين. وهنا يمكن أن تعمل وسائل المراقبة الهائلة والمصممة جيدا، ولكنها هي أيضا قد باتت خاضعة للمراقبة والتعقب والشلل وكذلك للابتزاز من داخل فجوات الشبكة/ الأم.

إن أكثر ما يثير إنسان ما بعد الحداثة أو مواطن الإمبراطوريات الكبرى أن يرى عجز نظامه التقني الهائل الذي ينهار تحت ضربات ذئاب طروادة الجدد غير المرئيين، وهو لا يفهم كيف أمكن لمثل هذه الذئاب أن تضرب متى تشاء وحيثما تشاء وفي أكثر الميادين توقعا وتحصينا!..

وما لم يفهمه خبراء الأمن ومعهم السياسيون، أن نموذج الاتصال والمراقبة الذي يعيش عليه الغرب يعود إلى القرن التاسع عشر. وهو ما يسمّى بنموذج القطار: شبكة واسعة وممتدة من الطرقات والسكك المتوازية والمتداخلة يمر عليها الناس والسلع. وهي تعبر منطقة أو مناطق محددة ومحكمة يغطيها نظام تقني يجمع المعلومات عن تدفق الناس والسلع وتدار من مراكز محددة وثابتة.. على هذا الطراز تقريبا أقيمت أنظمة المراقبة الشاملة والكبرى. وآخرها نظام الإنترنت (أو تسرادات المعلومات) وهي نظام بقدر ما هو سريع وناجح وشامل بقدر ما هو هش ومعرض للغزو والسباحة عبر تياراته وقنواته المتداخلة. وبعبارة ما، فإن عقدة المواصلات والاتصالات الضخمة ذاتها للناس والسلع هي التي باتت المركز الضخم أو الحوض الكبير الذي يسبح فيه ذئاب طروادة الجدد.

كان الفيلسوف الألماني «لودفينغ كاجس»*[27] قد لاحظ في بداية القرن العشرين أن المدن قد أصبحت تشكل معسكرات لتحشدات سكانية ضخمة يمكن أن تأتي

عليها صاعقة من الصواعق في رجفة عين. لم يكن بعد في عهد «كاجس» قد وجدت الطائرات أو القنابل النووية. وقد ثبتت رؤيته في هيروشيما وناغازاكي في منتصف القرن العشرين ثم في نيويورك في مفتتح الـ21. وإذا كانت المدن الكبيرة قد وجدت قبل كاجس، فإن تجميع ما يعادل سكان مدينة صغيرة في برجين لم تكن خطرت على بال أحد في عهده. وما أثاره «كاجس» مبكرا، حلله فلاسفة الحداثة الجدد بسخاء كبير ورأوا أن السكان ما انفكوا ينساقون إلى «مصيدة الرعب الكبرى» وهم يعنون بذلك المدينة الضخمة ذات الأبراج والأنفاق. وقد رأينا جيدا كيف أن ذئاب طروادة بعد ما ضربوا برجي نيويورك، اتجهوا مباشرة إلى ضرب ميترو الأنفاق في باريس ومدريد.

ومع أن المدينة الكبرى أصبحت فعلا مصيدة كبرى وغابة كبرى لوحوش الإرهاب، كما نطق الفلاسفة منذ زمن بعيد، إلا أن مهندسي العقارات والمقاولين وكذلك خبراء وسماسرة الإرهاب لم يفعلوا شيئا لكي يأخذوا بأفكار الفلاسفة. بعبارة أخرى لازالت التصاميم التي تتشكل بها شبكات البنية التحتية لأية مدينة في الشرق أو الغرب تجعل من ساكنيها وحراسها ومراقبيها تحت رحمة صواعق وهجمات الذئاب الغامضة.. كما أن الطريقة التي تتم بها معالجة هذه الهجمات لازالت هي نفسها الطريقة التي يتم بها قتل سكان تلك المدن أو مستعملي طرقاتها وأنفاقها أو مستخدمي تقنياتها، إلى درجة تجعل منا جميعا إرهابيين!

فهل يعني ذلك أن المنظومة الإجتماعية والتقنية لعصر الحداثة قد أوشكت على النهاية؟ هل يمكن أن نعيد ذلك كله إلى ما يسمّى بارتداد الديالكتيك؟ بل كيف يمكن أن نفسر ما يحدث من دمار وخراب في عقر الدار نفسها دون أن تكون هناك أحيانا خصومة إيديولوجية أو حتى دينية!..فهؤلاء الأعداء هم في الحقيقة والواقع أخوة يتخاصمون حول السلطة والهيمنة والجاه في الحيز نفسه ومن داخل التقنيات نفسها وفي زمن العولمة نفسه.. وهكذا فإن الشعور بأن هؤلاء الأعداء هم غرباء وبأن العدوان قادم من الخارج هو شعور كاذب وخادع، طالما أنه لا يوجد فضاء خارجي يقع خارج سياق العولمة وتقنياتها المعولمة.. مع ذلك، فإن رجال الأمن لازالوا يقومون بابتزاز رجال السياسة ورجال السياسة يبتزون جمهورهم في عرض كبير من الخداع واللؤم.

ما كانت ظاهرة بن لادن أو حتى ظاهرة «داعش» لتثير بعض الإعجاب في الشارع العربي لولا أنها جعلته يتذكر الظلم المسلط عليه والخداع الذي يعيش فيه. فالمتعطشون للعدالة والاعتراف والديمقراطية والهائمون على وجوههم الذين طحنتهم العولمة يعتقدون أنهم ضحايا الهيمنة الأمريكية المتحالفة مع الاستبداد. وإذ هم لا يتفقون مع الإرهاب الذي تمارسه «الجماعات الإسلامية» المتطرفة، فإنهم كثيرا ما يشكون مع إذا

كانت أمريكا نفسها تتعاون مع هذه الجماعات المتطرفة لإنتاج وتصنيع الإرهاب.

ها هو ذلك الربيع العربي الكاذب قد مضى في حال سبيله. وها هو الاستبداد يعود ليطل برأسه في كل مكان ومعه الإرهاب وإلى جانبهم أمريكا بطائراتها وتقنياتها وشروطها.. إنها ببساطة العودة إلى القبضة الأمنية والتراجع عن إقامة المجتمع المدني وتخريب الديمقراطية. ومرة أخرى يجد الشارع العربي نفسه يعيش في الخداع، ذلك أنه باسم مكافحة الإرهاب يصبح كل من يرفع إصبعه محتجا على القمع أو متسائلا عن ثروات بلاده أو مطالبا بحقوقه أو متضامنا مع ضحايا التهميش، إرهابيا.

ها هنا أصبح «الأمن» مرادفا للحرية. وقوانين الطوارئ القمعية مرادفة للسلام الاجتماعي وإعادة توزيع وتدوير الثروات الوطنية على الفاسدين مرادفة للعدالة الاجتماعية والمساواة. وهكذا تمكن الحكام العرب القدماء والجدد من أن يبسطوا هيمنتهم وقوانينهم القمعية ويعودوا إلى نقطة الصفر جميعا. ومن لم يستطع العودة إلى النقطة صفر جعل من بلاده مسرحا كبيرا للقتل والفوضى.

فالدسترة والدمقرطة والقوننة وحرية التعبير التي تبنتها نخب الربيع العربي، قد عادت الآن لتستقر في أرشيف الدولة العتيدة كقضايا مؤجلة ومحرمة. أما قوانين الإرهاب الجديدة والتي أعيد تنقيحها وقوانين الطوارئ فهي الدستور الجديد إلى وقت غير مسمّى!.

وها هنا أيضا تبدو الرؤى منسجمة بين عقيدة السلطة العربية كقلعة مغلقة وبين عقيدة الإرهاب كغابة كثيفة. فالإرهاب بوصفه إلغاء للآخر ولمبدأ الحوار معه، يلتقي في منتصف الطريق مع عدم اعتراف السلطة العربية بمبدأ الحوار والتعبير السلمي.. فالاثنان هنا نتيجة لغياب الثقافة التعددية أو لغياب السياسة في العالم العربي. وحيث أن الإرهاب مجال مفتوح على التدمير الذاتي والجماعي، فهو يدفع بالسلطة إلى أقصى درجات العنف والتطرف وغلق كل مجالات الحرية وابتزاز المواطنين بالأمن مقابل حرياتهم. وهنا نرى كيف يصبح طرفا المعادلة: إرهابيان يتصارعان كفيلين ضخمين وتحت أرجلهما المجتمع المدني وهو يزداد رعبا وتشظيا وتمزقا.

إن غاية كل إرهاب يساري أو يميني، إسلامي، مسيحي أو هندوسي، هو أن يكشف عن بشاعة السلطة الحاكمة ويدفع بها إلى الكشف عن وجهها البشع ووحشية أساليبها. وبذلك يضعها وجها لوجه مع الشعب حين تزداد قمعا وتوحشا وتضييقا لكل المجالات بدعوى أنها تخوض حربا ضد الإرهاب. وحين تخسر الدولة الثقة في مجالها الحيوي الأول (السكان أو الشعب) يفقد كذلك الشعب الثقة في دولته (الراعي الأول). وحينها تضطر إلى القبول بمساعدة الآخرين/الأجانب على مقاتلة جزء من شعبها فتبدأ في

خسارة سيادتها ولا تعود تسيطر حتى على ثرواتها أو تصبح مضطرة لإنفاق ثرواتها لمقاتلة شعبها. وفي النهاية تموت السياسة التي تقوم على شبكة معقدة من المكونات والفاعلين والشركاء المدنيين، وتصبح الحرب والحرب المضادة (حرب الإرهاب والحرب ضد الإرهاب) مجالا مفتوحا على الخراب والهباء..

منذ البداية، نرى في هذه الحرب: كلما خسرت الدولة من رصيدها، كلما ارتفع رصيد الإرهاب. فالدولة المدنية تبدأ في الخسارة منذ أن تتحول إلى أوليغارشيا شبه عسكرية باسم مكافحة الإرهاب. وكذلك حالما تبدأ تحكم بالمراسيم والقوانين الزجرية. وهكذا فحين تضع الأمن فوق أو قبل الحرية، تكون قد قبلت منذ البداية بالهزيمة أمام الإرهاب لأنه استطاع أن يجرها إلى حيث يريد. والحقيقة أن من لا يستطيع أن يمنح الحرية للناس لا يستطيع أن يحمي أمنهم، أو من لا يستطيع أن يمنع الناس عن الحرية لا يستطيع أن يمنعهم عن قتاله. وأخيرا فإن الذي يتخذ العنف منهجية وحيدة للحكم، لا يستطيع أن يقيم السلم الاجتماعي..

إن قوانين الحرب على الإرهاب التي أصدرتها وشرعتها البرلمانات العربية بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر قد دفعت إليها السلطات العربية دفعا. وهي تقوم على مبدأ بسيط ومطاطي ويمكن تطبيقه على كل وضع مناهض لتلك السلطات حتى لو كان الأمر يتعلق بمظاهرة لذوي الحاجات الخاصة الذين لا يهاجمون أحد وليس بإمكانهم الهروب أو ردّ العنف.. وهذه القوانين التي علقت في بعض البلدان خلال الربيع العربي، ها هي تعود أكثر نظارة وقد تم تنقيحها لتصبح ربما أكثر علوا من كل القوانين الأخرى وربما حتى فوق الدستور حين يتعلق الأمر بإعلان الطوارئ..

من خلال تلك القوانين الجديدة الملحقة بقانون مكافحة الإرهاب*[28]، يصبح من الممكن خلع وتلبيس صفة الإرهابي على كل من يعارض الدولة حتى سلميا. فإذا دعا شخص ما إلى مظاهرة، فربما يكون ذلك الشخص ينتمي إلى شبكة إرهابية.. وإذا قامت حملة ما في المواقع الاجتماعية ضد الفساد، فإن الذين أطلقوا تلك الحملة هم ربما ينتمون إلى الخلايا النائمة للإرهاب. وإذا تساءلت صحيفة ما عن ثروات البلاد، فإنها تثير النعرات الداخلية الجهوية وتستفز الأجانب وتوقظ خلايا الإرهاب النائمة!..

خلال تطبيق تلك القوانين، تصبح مركزية القرار تقديرية ومزاجية تعود إلى السلطة التنفيذية لتصبح أكثر جموحا. أكثر من ذلك تصبح هذه الدول التي تحكم بهذه القوانين الطارئة تعمل بمنطق اللوبيات أو العصابات. كل من يتجاسر على نقدها أو معارضتها يصبح إرهابيا يجب استئصاله. وبتلك القدرة على الالتفاف على الدستور وبالتعاون مع سيولة المال وبالتحالف مع هيئات دولية تدعي الحرب على الإرهاب

وبالاستقواء بالخارج والأحلاف العسكرية، تنزلق السلطة شيئا فشيئا نحو الحرب الأهلية المفتوحة. ولا شك أن في مجتمعات الحرب الأهلية، تصبح السياسة معطلة. وينخرط الكل في معركة ضد الكل. ثم تصبح المجموعات السكانية (مدن أو قرى أو اثنيات دينية أو ما شابه) مختلفة على العيش المشترك وهي تنظر إلى نفسها وغيرها كخصوم دائمين واحتياطيين.. أما من يتجاسر على طلب الهدنة أو الحوار أو المصالحة، فإنه لن يجد من يسمعه لأن المتحاربين قد حلوا محل السياسيين ولأن الثعالب قد أصبحت نمورا. وطبيعي فحينما تنتهي السياسة، تنتهي السيادة على السكان والمكان. وإذ تتمزق الجغرافيا ويتمزق السكان، يصبح التاريخ مجرد أحداث متسارعة ومتفاوتة السرعة والآجال.

*** *** ***

إن مجتمع الحرب لا ينتج إلا العنف. وهذا العنف يصبح قيمة وقيمة مضافة. فهو الحصانة والقوة والقدرة على العيش. وهو الجاه والنفوذ. وهو المنفعة والمتعة. بعبارة أخرى ينتهي عصر السلم الاجتماعي القديم، عصر المصلحة العامة أو المصلحة المشتركة، ويبدأ زمن الخصام أو النزاع المسلح للمصالح المتناقضة والمتعارضة مع القوانين والتشريعات والحقوق والحريات. ثم يبدأ التطبيع مع تشريعات وقوانين الحرب المعقدة التي يخترعها سماسرة القانون وخبراء الأمن في كل مجال لإيهام كل فرد وكل قطب أو كل فريق اجتماعي، الفريق الآخر، أنه الفاعل وأنه الأقوى.. وآنذاك تبدأ السلطة في فقدان سيطرتها على السكان باعتبارهم متخاصمين، ثم تبدأ في فقدان سيطرتها على المكان باعتباره مجالا للخصام. وذلك هو فقدان المعنى للدولة باعتباره سلطة للسلطات، وحينها تتفكك السلطات، فلا تعود السلطة تلجمها أية سلطة في مجال ممتد تجريديا إلى ما لانهاية، أي إلى الموت والهباء.

يشرح تلك المواجهة المفتوحة الباحث الإسباني «لويس مارتينز» في كتابه (الحرب الأهلية في الجزائر)*[29] «فهي حرب لا يمكن إرجاعها إلى سبب واحد. وقد نجد تفسير دوافعها وأسبابها مختزلة في إستراتيجية الأطراف المتصارعة وتصوراتهم للمكانة الخاصة كلاعبين أو كفاعلين أساسيين في هذه الحرب».

وبعيدا عن الكليشيه الذي يقول أن الحرب تجري بين التيار العلماني والتيار الديني، فإن حرب الجزائر الأهلية خلال عقد التسعينات من القرن الماضي كانت حسب مارتينز عدة حروب، واحدة تخفي أخرى بداخلها: ميادينها متعددة وزعماؤها متعددون والأعداء يتحركون في الخفاء.. ومن خلال ذلك الصراع المتعدد الوجوه والأطراف وهو صراع خفي وعلني في نفس الوقت، تنشأ تصورات خاصة لهؤلاء الأعداء. وفي

قلب هذا الصراع يصبح كل طرف يكمل الطرف الآخر، وكل معسكر يريد أن ينفي المعسكر الآخر. فالإسلاميون متعددون ويتعارضون ولكنهم يكملون بعضهم بعضا وهم يحاولون السيطرة على مواقع السلطة والثروة. أما العلمانيون فيأخذون الدولة كرهينة ويستخدمون جيشها وشرعيتها واحتكارها للعنف كأداة للإبقاء على السلطة والثروة تحت أيديهم..

كانت الأفكار السائدة لتفسير تلك الحرب الأهلية الجزائرية في عقد التسعينات ترجع ظهور المعارضة الإسلامية العنيفة إلى الفروقات الاجتماعية والاقتصادية وتوسيع التعليم عبر توسيع قاعدة التعريب وكذلك إلى الزيادة المتسارعة في عدد السكان دون أن ننسى الفساد والبطالة والفقر. وهذا قد يكون صحيح من حيث الوجود والتأثير، ولكن ذلك لا يصنع لا معارضة عنيفة ولا ثورة ولا تفسخ الدولة والمجتمع، لأنها موجودة في بلدان أخرى وكانت موجودة في كل عصور الرؤساء السابقين للشاذلي بن جديد*30. إن عنصر التفجير لتلك الحرب كان يوجد أساسا في الخوف المتبادل بين العلمانيين وجبهة الإنقاذ الإسلامي. فحين اقترب الإسلاميون من الحكم والثروة، تحرك العلمانيون دفاعا عن ثرواتهم وسلطاتهم. فأطراف الصراع منذ البداية كانوا يتحركون تحت تصور مشترك للحرب، أدركوه منذ تأسيس الجزائر في الستينات، مفاده أن العنف في الجزائر هو الأداة الأساسية للرقي الاجتماعي وتكديس الثروات والسلطة. ورغم الانتماءات السياسية المختلفة ظاهريا، يظل هؤلاء الفرقاء قريبين من بعضهم بعضا وذلك بتبنيهم لصور تخيلية مشتركة مثل: صورة القرصان في عهد الإمبراطورية العثمانية والقايد (موظف من أهل البلاد في عهد الاستعمار) والعقيد (ضابط في حرب التحرير الوطنية) والذي أصبح مديرا في عهد الاستقلال يستحوذ على المال والجاه.

إن النزوع إلى الارتقاء باي ثمن قد يجعل من العنف (الحرب) إحدى طرق الوصول إلى المراكز المرموقة. وقد أصبحت صورة «اللص السياسي» هي الصورة التي يشيعها الشارع على هؤلاء المتصارعين من الجانبين. فلا أمراء الدين ولا العلمانيون/أهل السلطة، استطاعوا أن يشكلوا قطيعة مع تاريخ «اللص السياسي» أو القرصان السياسي، إذ هم كانوا يحققون ارتقاءهم الاجتماعي مثل سابقيهم عن طريق العنف والخطف والسطو. كان الجميع (مسلحون وعسكريون، جهاديون وعلمانيون، أعيان أو مجرمون، صغار أو كبار) يطمع في استئثاره بالسلطة ويستخدم العنف والحيلة لتحقيق أهدافه وطموحاته المالية.

وفي جميع مراحل تلك الحرب رأى الجزائريون أن بلادهم قد أصبحت رهينة بين أعداء محليين وكل منهم يدعي أنه أكثر وطنية من الآخر. كما رأوا كيف أن السلاح قد

تغلب على السياسة (موت السياسة) فإذا رفض العسكريون العلمانيون تسليم الحكم إلى جبهة الإنقاذ بعد فوزهم في انتخابات 1991، وفضلوا أن يذهبوا إلى الحرب، فإن الإنقاذيين الإسلاميين كثيرا ما رفضوا الحوار مع هؤلاء مفضلين الوصول إلى السلطة عن طريق حرب العصابات لا عن طريق الانتخابات!.. وهكذا دخل الجميع في «روتنة الحرب» وباتت الحرب أشبه ما تكون بأسلوب جديد للحياة ما انفك يدعم تفوق المحاربين.

كانت الحرب الأهلية في الجزائر، وهكذا أيضا كانت أغلب الحروب الأهلية، مصدرا من مصادر النفوذ ووسيلة من وسائل الإثراء، وسلّما للرقي الاجتماعي. فتنامي الوظائف العسكرية في المؤسسات والأجهزة التابعة للدولة كالجيش والشرطة والجندرمة أو في الأجهزة المواجهة والموازية التي تعمل في هياكل الجماعات الإسلامية، قد أصبح من أهم الأنشطة الاقتصادية في البلاد. وإذا أضفنا إلى ذلك التهريب والاقتصاد الموازي، فإن نصف الجزائر كان فعلا يعيش تحت اقتصاد الإرهاب والتهريب ونصفها الآخر كان يعيش تحت اقتصاد الحرب ضد الإرهاب والترهيب.. إن ديناميكية اقتصاد الحرب هي التي أعطت ديناميكية إضافية لإطالة أمد الحرب، ففي كل مرة يحاول بعض عقلاء الدولة أن يجدوا حلا عن طريق الحوار والمصالحة، حتى يتحرك أمراء الحرب من الجانبين لينسفوا ذلك الحل (اغتيال الرئيس بوضياف*[31])

ودائما حين لا يهزم طرف الطرف الآخر، تظل الحرب مشتعلة إلى أن يصاب الطرفين بالتعب والإعياء والإدماء.. كانت نهاية تلك الحرب تكاد معدومة إلى أن أدرك جميع المتخاصمين أن الانتصار الساحق لأحد الفرقاء يكاد يكون مستحيلا وأن العنف ليس هو الحل بقدر ما يوجد الحل في المصالحة والاندماج دون أن ينسى أي فريق تاريخ بلاده في إنتاج النخب بالعنف وفي وسط العنف.

*** *** ***

لم يكن «الإرهاب الجزائري» حادثا عرضيا خلال التسعينات. وإنما كان موجودا في الثقافة السياسية الجزائرية منذ حرب التحرير. كان مجاهدو حرب التحرير يوصفون «بالإرهابيين» والخارجين عن القانون. وحين حققوا الاستقلال أصبح أولئك الإرهابيين زعماء وطنيين وأبطالا تاريخيين. ولو فكر هؤلاء المجاهدين في سلاحهم البسيط ووسائلهم الضعيفة أو قارنوها مع الترسانة الفرنسية لربما ما كانوا ليجرؤوا على خوض الحرب ضد الإمبراطورية الفرنسية. كان التصميم، ثم كانت «المنهجية الجديدة» وكذلك الاعتماد على الحوض الحيوي-الشعبي- هو كل ما كانوا يملكون ثم انطلقوا. بعد ست سنوات استطاع هؤلاء الضعفاء أن يدموا ويشوهوا وجه الإمبراطورية

ثم يرغموها على المفاوضات. كان الهدف واضحا هو الاستقلال والتحرر الوطني.. وفي خلال تلك الحرب انتقل كل -قبح الإرهابيين- إلى الإمبراطورية الفرنسية، وأصبحت الأسلحة الضعيفة هي التي تحد من غطرسة الأقوياء وتحدد مصير أعتى الإمبراطوريات.

واليوم إذا كان العمل الإرهابي يبدو جنونيا ولاعقلانيا، فلأن الغرب إما أنه لا يريد أن يعترف بهزيمته أمام الضعفاء (فرنسا في الجزائر - أمريكا في الفيتنام أو بريطانيا في حرب البوير*32 في جنوب إفريقيا أو السوفيات في أفغانستان) أو لأن ذاكرته مثقوبة وانتقائية. فدول الغرب نفسها التي تحارب الإرهاب اليوم قد تكونت داخل ما تسمّيه بنفسها: الإرهاب. فلمدة قرنين (18 و19) استخدمت هذه الدول الإرهاب كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية في الداخل والخارج. وتلك الفترة من الحروب الإرهابية لم تكن حادثا عرضيا في تاريخها، بل أن اتفاقية «ويستفالي» Westphalie*33 تؤكد ذلك. وتؤكد أن الإرهاب كان وسيلة لتحقيق أهداف إستراتيجية وسياسية. وقد تدحرج الإرهاب في ألوانه كما قوس قزح، فكان أسود (مع الثورة الفرنسية) وأحمر (مع الثورة البلشفية) وأبيض (مع ثورة القياصرة الارتدادية) ثم أخضر (مع الثورة الجزائرية) ثم عدميا أو فوضويا Anarchiste، ثم إسلاميا رافعا راية السواد مرة أخرى.

ففي اللحظة التي نقرر فيها الصدام مع العدو، تصبح الحرب هي الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل. ثم تبدأ وسائل تلك الحرب تتجمع شيئا فشيئا، من الممانعة إلى التحايل والعصيان السلبي. ومن التجسس والمراقبة إلى التمرد المفتوح ومن العصيان المدني إلى العنف المدني. «فالإرهاب الفوضوي» كان يقتل في بداية القرن العشرين في فرنسا لوحدها 300 مدنيا كل عام. وفي السبعينات كان «الإرهاب الأحمر» يقتل أكثر من 500 مدنيا في فرنسا لوحدها وأكثر من ألفي ضحية في الغرب كله. وها هو «الإرهاب الإسلامي» يصبح في بداية القرن الـ21 جزءا عضويا من المجتمعات الغربية. إنه لا يضرب حيث يشاء فقط أو يقتل المدنيين فقط، بل هو يقوم بتجنيد وتصدير وتصنيع الإرهابيين من داخل أوروبا لإرسالهم إلى ساحات القتال!..

وكما يقال عادة فإن إرهابيي اليوم هم رجال الدولة غدا (في حالة نجاحهم). فالذي يختار طريق الإرهاب ليس بالضرورة أن يكون مريضا أو مجنونا. وإنما هو في غالب الأحيان رجل سياسي ضعيف يجد نفسه عاجزا أمام جبروت خصومة أو يائسا من وضع ما. أو أنه يريد أن يحقق نتائج كبيرة بخسائر قليلة. إن أي عمل إرهابي هو عمل إقتصادي تراعى فيه الوسائل المتوفرة والرجال الأقل خطورة اجتماعيا، ويخضع لمنهجية في قضم العدو واحتواء الخسارات وتوزيع المكان والزمان. فهدف الإرهاب هو

ترهيب الأعداء. وهؤلاء الأعداء غالبا ما يخافون مما هو مجهول أو غير محدد المعالم أو غير مرئي، وهذا يتطلب نخر العدو من الداخل وشحنه بالفيروسات وتشتيت تركيزه الذهني والتكتيكي حتى جعله مقتنعا بأنه سيخسر الحرب إذا لم يجنح إلى المفاوضات. وأثناء المفاوضات على الإرهابيين أن يخفوا جيدا حقيقة حجمهم ويحرصوا على الظهور بقامة أطول من قامتهم الحقيقية!..

أثناء الحرب، على محارب الإرهاب أن يظهر أمام خصومه كما أمام مؤيديه بأنه قادر على الظهور والضرب حيث لا يتوقع أحد. كما عليه أن تكون مسارح عملياته ذات مشهدية عالية تحقق الذهول والإعجاب. ثم عليه أن يعتمد على الصورة، حين مخاطبة الرأي العام، لا على البيانات الجافة. فالصورة هي حاملة لرسائله المشفرة. لأن كلما اتضحت الرسائل لدى العدو كلما بدأ يستدل طريق الرد. لذلك فالغموض ضروري كما ضرب المدنيين ضروري. إن ضرب المدنيين هو جوهر العمل الإرهابي. وبدون ذلك فإنه سيظهر كما لو أنه محارب تقليدي يوجه أسلحته إلى أعداء تقليديين. وآنذاك تنتهي الدهشة ويدخل الروتين فلا يعود أحد يهتم بهؤلاء الإرهابيين أو يخاف من هؤلاء الإرهابيين.

إن المنهجية الإرهابية ذات الدقة والصرامة عليها أن تظهر كمنهجية لاعقلانية. وهنا يزداد العدو جنونا ويصبح يتصرف مع العاقل كمجنون. ثم إن الهدف الذي يقع ضربه عليه أن يظهر كما لو لم تربطه أية علاقة بالهدف المستهدف.. ويحبذ لو تتغير الأسلحة المستعملة في كل هدف. ثم سيكون من المفيد جدا أن تبعث هذه المجموعات الناشطة برسائل إلى الإعلام حول خصوماتها وانشقاقاتها حتى يبدأ تقسيمهم إلى صقور وحمائم. وذئاب مجتمعة وأخرى منفردة، أو إلى «رجال فلان» و«رجال علان». وذلك الغموض لا شك أنه سيضفي على هؤلاء جميعا قوة افتراضية تزيد من هشاشة العدو وعماه.

وكما يعتقد اغلب السياسيين والإستراتيجيين من أن الحرب هي الدبلوماسية العنيفة التي تمارس بوسائل أخرى (حسب كلوزفيتش)، فإن الإرهاب، وهي حرب خارجة عن قوانين الحرب، هي إثبات إرادة الضعيف أمام القوي عبر رسائل عنيفة لا تصل إلا عبر قنوات العنف.

وقد أحصى دارسو الإرهاب ستة أنواع من هذه الرسائل السياسية التي وصلت عبر العنف. ومن خلال تلك الرسائل ومضامينها وأهداف أصحابها لم يحدث العنف دائما بالطريقة الجيدة أو بالطريقة نفسها. لأن رسائل الفوضويين اليساريين تختلف جزءيا عن رسائل الثوريين. كما أن رسائل الثوريين تبتعد كليا عن رسائل الإرهاب اليميني، أو إرهاب القوميين الذين يطالبون بالاستقلال والتحرر (مثل التامول والفلسطينيين والأكراد والباسك) أو إرهاب المتطرفين الإسلاميين لعقيدة ما أو للدفاع عن مقدسات

مدنسة أو هويات مطموسة. وهذه الرسائل تحمل بصمات أصحابها وتكشف إلى حد ما عن إستراتيجياتهم وأهدافهم وحتى «شرعية» مطالبهم.. وبما أن «شرعية المطالب» لا تشرعن للعنف، فإن العنف قد يشرعن هذه المطالب غير المشرعنة أو غير المعترف بها.

في الحقيقة فإن مدونة الإرهاب (بكل لون وكل طيف.. ومن تروتسكي إلى أبي بكر البغدادي. ومن غيفارا إلى بن لادن) لا تختلف لا في الوسائل ولا في أساليب الاستقطاب ولا حتى في تكتيكاتها أو إستراتيجياتها أو أخلاقها. فقط ثمة إختلافات أخرى تعني بالتوجه العقائدي أو الإيديولوجي وكذلك السياسي لكل حقبة أو كل صنف أو طيف من أطياف الإرهاب. فهناك من يريد أن يبني دولة ثورية على قاعدة الإشتراكية والعدالة الاجتماعية وهناك من يريد أن يحرر بلده أو طائفته من التهميش والمهانة. وثمة من يريد إقامة دولة إسلامية على قاعدة شرع الله!..

إن إستراتيجية كل إرهاب هي تدمير العدو (إن كان دولة أو إمبراطورية أو حتى فريق آخر من مكونات البلاد) أي إلغائه نهائيا والحلول محله. ولكن ذلك قد لا يتحقق دائما خاصة عندما يكون الأعداء من الأهل نفسه أو البلد نفسه - فالتوتسي لا يستطيعون أن يلغوا الهوتو والعكس صحيحا. والصرب لم ينهوا لا الهرسك ولا البوسنك ولا كوسوفو. وكذلك السنة أو الشيعة في العراق أو في سوريا. فلا أي طرف سيقضي على الطرف الآخر، لكن كل طرف يسعى إلى السيطرة عن الطرف الآخر.. وفي أقل الحالات تشنجا وإنتاجا للعنف، يلجأ الطرفان إلى المصالحة والمعادلة.

وقبل أن تبلغ تلك الإستراتيجية نقطة النهاية التي تشترك ظروف كثيرة في إنجازها وإنضاجها، عليها أن تبدأ أولا بمرحلة الإيقاظ (التعريف بنفسك ثم تعريف عدوك جيدا وتحديد حلفائه ونقاط قوته وضعفه) ثم تأتي المرحلة الثانية وهي (تحديد الهدف جيدا. هل أنت تريد السلطة والسيطرة أو أنت تريد زراعة الفوضى لعزل عدوك وإجباره على المفاوضات؟ وأخيرا تأتي المرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة القطيعة. فإما أن تنسحب إلى الجبال أو الصحاري وتتكفئ على نفسك في انتظار اللحظة المؤاتية. وإما أن تتحالف مع منظمات أخرى ودول أخرى لمواصلة الحرب.. وإما أن تقوم حتما بمذابح أهلية كبرى تحفر عميقا في الكراهية بين السكان والمواطنين!..

*** *** ***

إن خطر الإرهاب ما انفك يتعاظم. وقد انتقل خلال القرن الماضي من منطقة إلى منطقة في العالم. ومن ضفة إلى أخرى ومن إيديولوجيا إلى أخرى. وفي المقابل لا

يوجد مجتمع أو بلد يستطيع أن يدعي أنه محصن ضد الإرهاب إلى الأبد. بل إن كل بلد أصبح معرضا إما للإرهاب مباشرة أو لتداعياته كالمراقبة الشاملة أو التجسس الدائم بسبب الإرهاب. وهذا يعني أن لا الدول الصغيرة ولا الكبيرة أصبحت بمنأى عن الإرهاب بل حتى تلك الدولة التي نجحت أحيانا في إبعاده من أراضيها، قد جرها الإرهاب إلى أراضيه لإنهاكها واستنزافها..

ويمكن هنا أن نضع ملخصات أصبحت شبه متفق عليها فيما يتعلق بإستراتيجية الإرهاب ومنطقه ومحركاته. وأول هذه الملخصات: أنه لا يوجد شكل محدد للإرهاب مختلف عن إرهاب آخر. إن الإرهاب قد يكون متعدد الدوافع والأهداف، ولكن إستراتيجيته واحدة. ثم لا توجد أية منظمة إرهابية (ولم توجد) ناشطة وهي لا تحظى بدعم دولة ما أو عدة دول (حتى الفلسطينيون حين كانوا يقومون بخطف الطائرات كانوا يجدون الدعم والتسهيلات من دول كثيرة تمتد من كوبا إلى الجزائر وعدن.. كذلك كانت الألوية الحمراء في إيطاليا أو الايرا في إيرلندا أو الدرب المضني في كولمبيا أو الباسك في فرنسا وإسبانيا، تجد الدعم والإسناد من ليبيا حتى كوبا). واليوم فإن الإرهاب الإسلامي بأنواعه لايزال يجد الدعم والإسناد من دول كثيرة من قطر حتى تؤكيا ومن فرنسا حتى أمريكا. فالإرهاب كما هو سلاح لدى الضعفاء لتغيير الأنظمة السياسية من الداخل، فهو كذلك سلاح بيد الدول القوية لتغيير السياسات والجغرافيات السياسية من الخارج.. إلى ذلك فإن أي نشاط إرهابي يتطلب منظرين ومفكرين. فالأفكار في أحيان كثيرة أهم من المال. وحبذا لو أن هذا المفكر يعيش ويمارس حياته إلى جانب مقاتليه مثل بن لادن والظواهري وأبي بكرناجي وريجيس دوبريه وغيفارا وطوني نغري ووديع حداد ومحمد بودية. فهؤلاء هم الذين كانوا يضعون الأفكار والإستراتيجيات ويبعثون بالرسائل والتوجهات ويقومون بالدعاية ويعطون لكل «عمل إرهابي» قيمته وقدسيته. فالأعمال الإرهابية لوحدها ومهما كانت مشهدية، فهي لا تجلب الأنصار والمساندين، بل على كل منظمة إرهابية أن تصبح مفتوحة لأكبر عدد من الأنصار عبر خطابها الإيديولوجي أو القومي، أو الديني. وكلما انحازت هذه المنظمات إلى الخطاب الديني كلما أصبحت أكثر ذيوعا وانتشارا لأن الدين نفسه موجود في أكثر من بلد، ولأن الاكتفاء بالإيديولوجيا لا يفي ببناء «اليوتوبيا» في مخيلة الأنصار!

إن كل منظمة أو تنظيم إرهابي لا تعرف كيف تزرع أفكارها وترمي بشباكها وسط الناس بفاعلية وجاذبية تتحول إلى «منظمة بائسة» لتجمع من المرضى والمهووسين، أو تتورط في جرائم إنسانية كبيرة (مثل الإبادة عن طريق الغاز والإعدامات الجماعية) لإعلان القطيعة الدائمة بين السكان. إن الشعور بعدم الإمساك بالناس أو بالأحداث

كثيرا ما يصيب قادة الإرهاب بالهلع. فعدم السيطرة على خلايا التنظيم أو على الأنصار أو على السكان كثيرا ما يجعل القادة الكبار يقترفون مذابح كبيرة لترهيب الأنصار والأعداء على السواء..

ويستطيع الإرهابي ترهيب أنصاره وأعداءه، ولكن من الصعب ترهيب الإرهابي وعلى نحو فعال إلا إذا تم اختراق تنظيمه أو رجاله من الداخل. ولأن معظم هذه المنظمات الإرهابية ومهما كانت دموية أو متوحشة تقف إلى جانبها دول تدعمها بشكل مباشر أو غير مباشر دول أخرى. فإن «مبدأ ترهيب الإرهابي» يصبح عاجزا عن بلوغ الهدف، لأن تلك الدول الداعمة سرعان ما تهب لمساعدته قبل القضاء عليه أو تضمن له مكانا على طاولة المفاوضات ولا تتركه منبوذا أو محاصرا.. فإذا كان ضعيفا تقويه وإذا كان قبيحا تجمله، وإذا كان قويا بشكل طموح تضعفه وتراقبه وتخلق له منافسين آخرين..

إن توجيه وإعادة التوجيه للإرهاب يقوم بها خبراء وإستراتيجيون يعملون لحساب دول معينة. ومنذ أن أدركت الدول أن «الإرهاب» بات سلاحا ضدها وبين أيديها، خارجها وداخلها، أصبح الخبراء يتفننون في التجسس والتوجيه والتسلل والتحكم عن بعد وصناعة اليرابيع.. ولكن إذا ما أصبح «الإرهاب» لعبة خبراء بين أجهزة المخابرات، فإن الحرب عليه أو ضده لن تكون ناجحة إلا إذا أصبحت شاملة. أي العمل على جعلها قضية إنسانية ومهمة جماعية، وسوف تتأكد جميع الدول التي تحارب الإرهاب، أن الأفضل لها أن تدخل إلى جحور الإرهاب وشبكاته وأعشاشه، لا أن تظل تناوش من الخارج وتتزايد من بعيد وتنسب الانتصارات لفريق دون فريق آخر. فأجهزة المخابرات المتعددة وكذلك مؤسسات الجيش والأمن والحرس، ستظل هي نفسها معرضة للاختراق من الإرهابيين إذا لم تقلع عن المزايدات والمناوشات من الخارج والتسامح الفج والمجاني..

*** *** ***

إن كل عمل إرهابي موسوم بالغموض والخلط والالتباس، وكذلك تعدد الرؤوس والأطراف. ولو أخذنا أمثلة عن ذلك، فإننا سنختار مثالين اثنين: الهجوم على نيويورك في العام 2001. ثم ظهور تنظيم داعش في العام 2014 «كدولة إسلامية». بالنسبة للأول سنجد أن الهجوم كان على أمريكا وقام بتمويله والإشراف عليه رجل كان قريبا أو حليفا من أمريكا، موجود في أفغانستان، وهو من أصل سعودي وقد نفذ هجومه برجال تعلموا في الغرب وعرفوا الحياة في الغرب وهم ينحدرون من بلدان عربية كثيرة، كانوا يتعاونون مع رجال آخرين يعيشون في آسيا وكذلك في بلدان أوروبية في

مناطق هامشية مسموح فيها بممارسة الشعائر الدينية وإطلاق الخطب الحماسية باسم حقوق الاختلاف، ومحميون بمنظومة حقوق الإنسان ويتمولون من نشاطات تجارية وجمعياتية غير شفافة.. بعد ذلك تسببوا في غزو أفغانستان وإصدار قوانين الجديدة ضد الدول التي لا تتعاون مع أمريكا في حربها ضد الإرهاب، ثم تحولت غوانتانامو إلى «زريبة تعذيب» للمئات بل الآلاف من المشبوهين والأسرى ثم تم ترحيل جزء منهم لاستجوابهم في بلدانهم تحت التعذيب والحراسة الأمريكية. وأثناء ذلك تم غزو العراق بدعوى التعاون مع إرهابي القاعدة.. وفي العراق وجدت أمريكا نفسها في مواجهة «قواعد أخرى كثيرة» أكثر تطرفا وأكثر عنفا وأكثر غموضا.. وهنا ولد المثال الثاني «داعش» كمرحلة جديدة. فالقاعدة التي كانت في جبال أفغانستان قد تحولت إلى «دولة إسلامية» في صحراء العراق.. إنها تجمع متناثر قد تم تنسيقه وإعادة تنظيمه. عائدون من أفغانستان، خارجون من السجون، مقاتلون من اجل الحرية، أنصار من أكثر من 20 دولة، خبراء تفجيرات، جرذان انترنت، ضباط سابقون في جيش العراق، إسلاميون وبعثيون وحتى شيوعيون سابقون. إنهم خليط كوسبوليتي وإيديولوجي استفادوا من «الإرهاق الأمريكي» ومن حرب سوريا، ومن براغماتية الأتراك، ومن هيمنة وفساد النخب الشيعية في بغداد، ومن تدفق الأموال السعودية والقطرية وكذلك من تقاعس إيران ولؤم الأكراد ودعم إسرائيل المعلوماتي واللوجستيكي.. إن داعش حين تصر على تسمية نفسها بالدولة، فلأنها فعلا باتت دولة لها علاقات وتفاهمات مع أكثر من دولة.. وسواء اعترفت بها الأمم المتحدة أم لم تعترف، فالمهم أن هناك دول كثيرة تعترف بها وتتعاون معها في ميادين كثيرة كالحرب والتجارة وبطرق متعددة بالوكالة أو بالمداورة أو بالسرية..

إن الأمريكان أنفسهم لا يعرفون حتى الآن كيف سيتعاملون مع «داعش». هل هو مجرد تنظيم أو منظمة إرهابية أم هو مشروع دولة بات يحتل موقعا جغرافيا؟ وهل سيكون التعاون معهم أو محاربتهم؟ ومتى يجب أن يكون الحسم للإجابة عن تلك الأسئلة: هل الصبر الإستراتيجي الذي نطق به جنرال أمريكي، هو بطاقة اختبار لهذا التنظيم أو هو إشارة عن استقالة محتملة أمام هذا التنظيم. مهما يكن، فإن داعش يثير الكثير من التحديات أمام السياسيين والباحثين. فهاهي «أودريه كيرث كرونين»*[34] تقول في «الفورين افيرز» بأنه لا يمكن توصيف تنظيم الدولة بناء على مفهوم الجماعات الإرهابية السابقة. فهذه لديها بضعة مئات من العناصر في أحسن الحالات يقومون بتنفيذ هجمات ضد المدنيين (في مدن بعيدة) ولا تسيطر على أراض ولا يمكنها التصدي مباشرة حتى لشرطة تلك المدن. أما تنظيم الدولة، فلديه الآن أكثر من ثلاثين ألف مقاتل يسيطرون على (مدن عدة) ومناطق شاسعة في العراق وسوريا

(مناطق تفوق مساحتها كل من سويسرا وبلجيكا وهولندا) وتحد أراضيها عدة دول كالأردن والسعودية وتركيا وإيران وصولا إلى إسرائيل من ناحية السويداء في سوريا.. زائد قدرات عسكرية ومالية وإعلامية هائلة وقيادات ذات خبرات عالية..

وهاهو الفرنسي آلان شويت*[35] (Alain Chouet) المدير السابق للاستخبارات وإدارة الأمن الخارجي (D.G.S.E) يقر بأن تنظيم الدولة «داعش» يملك ترسانة عسكرية حقيقية ومحترفة وقائد سياسي وحربي محنك ومشروع سياسي جاذب ومهمة إرسالية مقدسة (تطهير البلاد والعباد والعبادة) ومجال حيوي.. وبهذا فإن داعش ليس هو «القاعدة» حتى وإن ولد من رحمها، كما أن بن لادن ظل شيخا وزعيما على تنظيم بينما البغدادي فقد وضع نفسه منذ البداية كخليفة لكل المسلمين. وربما ذلك ما وضعه في موقع مضاد مع حلفائه الأوائل مثل السعودية. ولكن ما عسى أن تفعل السعودية وهي لم تتعلم من درسها مع بن لادن التي دعمته وأرسلته وسلحته ثم انتفض ضدها وأصبح مهددا لأمنها!؟..

إن البراغماتية الفجة لأمراء السعودية المتحالفة مع العمى والتعصب الوهابي، هو ما حشر السعودية في الزاوية أكثر من مرة.. كانت الرياض تظن أن «داعش» يمكن أن يشكل ضغطا على حكم الشيعة في بغداد ودمشق المدعومتين من إيران، غير أنها سرعان ما كشفت لها الأحداث، أن داعش كانت أكثر شطارة وأكثر براغماتية منها. فما إن استولى على أجزاء كثيرة من العراق وسوريا، حتى امتدت أياديه إلى حلفاء آخرين وكشف عن مشروعه الكبير الأكثر تهديدا للسعودية، وهو مشروع الدولة الإسلامية والخليفة الراشدي الجديد!..

في الحقيقة حين نقرأ ما قاله أوباما أمام الكونغرس*[36] عن داعش نشتم رائحة المراوغة. فحين اتهم من قبل الإعلام والنواب على حد سواء بأنه «يظهر كأكاديمي حين يتحدث عن الإرهاب، وعليه أن ينزل إلى حلبة السياسة»، رد أوباما مرة أخرى بنفس أكاديمي: «هذه جماعات، ويقصد داعش، متعطشة للحصول على الشرعية وتحاول تقديم نفسها كقيادات دينية ومحاربين مقدسين يدافعون عن الإسلام».. بعد ذلك يستدرك قائلا: «علينا ألا نقبل الافتراضات التي قدموها لأنها أكاذيب». وسواء كانت داعش هي التي تسرد أكاذيبها أو كان أوباما هو الذي يتلو مزاميره، فإن داعش قد أصبحت حقيقة سياسية وجغرافية. وأن أمريكا لاتزال مترددة في مواقفها من داعش. وحتى لو قرر أوباما أن «يحارب» داعش بجدارة كما حارب بوش صدام حسين والطالبان، فإن الجنرال الأمريكي المتقاعد ومدير الاستخبارات العسكرية في العام (12- 2014) مايكل فلين*[37] ما انفك يقول ويحذر «لا يمكنك هزيمة عدو لا تعترف

بوجوده». وإذن فإن شرط الاعتراف بوجود داعش هو الخطوة الأولى أمام كل الذين يريدون محاربته أو التعاون معه!.. فهل نحن فهمنا جيدا المراوغة الأمريكية؟ ثم ما شكل ذلك «الاعتراف». هل هو الصبر الإستراتيجي؟ أم هو «الاحتواء المتكامل» (لنحسن النوايا إلى حين)؟

فعلا، لقد كانت واشنطن بطيئة في استيعابها لظاهرة داعش، كذلك بطيئة في تكييف إستراتيجيتها في العراق وسوريا. لقد اهتمت بسوريا بأكثر مما يجب إلى حد نسيت فيه العراق.. وأطالت مفاوضاتها مع إيران إلى حد تساهلت مع بغداد ودمشق.. ثم اهتمت كثيرا بتهديدات القاعدة إلى حد نسيت فيه تهديدات الجماعات الأخرى ومنها داعش.

ويعني بطء أمريكا هنا عدم قدرتها على تجاوز إستراتيجيتها القديمة التي صممت أصلا لمواجهة تحديات أخرى. وبمعنى ما وجدت أمريكا نفسها متخلفة عن الأحداث.. ففي العراق كانت تشترط على الحكومة تسليح الحشود الشعبية فيما هي تنتقد ممارسات الميليشيات، ثم أصبحت تطالب بتسليح هذه الحشود بنفسها ومباشرة بعد أن فقدت الثقة في حكومات بغداد. بعد ذلك عارضت دخول الميليشيات الشيعية المناطق السنية المحررة من الإرهاب. ولكن فشل تلك السياسات توضح جيدا كيف أن واشنطن دخلت إلى «متاهة» لا تريدها، فقررت الإنسحاب المؤقت ريثما تتوضح الرؤية.

وبطبيعة الحال إذا كانت الرؤية غير واضحة في العراق، فإنها تكاد تكون عمياء، في سوريا. فقد أعطت الرئيس الأسد الفرصة أكثر من مرة لكي يطفو فوق الأحداث. رأى العالم كله كيف أن الأسد هو الوحيد الذي يحارب فلول الإرهاب بصدق حتى وإن كان يقمع شعبه. ثم رأى العالم كله كيف أن سوريا أصبحت ساحة قتال دولية بامتياز. أكثر من دزينة من الدول أصبحت تتصارع بكل الأسلحة على أرض سوريا وأكثر من 22 جنسية للمقاتلين الذين جاءوا لتحرير سوريا من الأسد!.. ومع ذلك فإن لا الأسد استسلم ولا الإرهاب توقف. وبات كل طرف يشد من أزر الآخر. فإذا أطيح بالأسد، فربما تحولت سوريا إلى مقبرة أو مصيدة لهؤلاء الإرهابيين (كما حصل في أفغانستان في العام 2002)، وإذا تغلب الأسد على الإرهاب، فإنه قد يجعل من نفسه هدفا سهلا. وإذ انسحب من المسرح السياسي كما يطالب البعض، فإنه قد يجرّ معه حكام آخرون في المنطقة. ولهذا التعقيد كله، فإن أمريكا (إذا كانت ذات نوايا حسنة) عليها أن تضع إستراتيجية «احتواء متكامل» جديدة ومشتركة لكل من العراق وسوريا، تجمع ما بين العسكري والدبلوماسي والأمني والسياسي. فإذا كانت داعش تقاتل وتتواجد في سوريا والعراق، فإن كل من يريد أن ينتصر عليها،

عليه أن يتواجد في معركة العراق وسوريا..

وبما أن أمريكا تتبجح بدعمها للحكومة العراقية دون أن تكون راضية عن أرائها، فبإمكانها أن تمد أيديها لدمشق ولو مؤقتا حتى تبني ما يمكن أن يسمّى بإستراتيجية «الاحتواء المتكامل». إن أمريكا هنا أما أنها لا تعرف أولوياتها وتخلط بين التهديد الكبير والتهديد الصغير، وإما أنها ليست ذات نوايا حسنة. وفي جميع الحالات فإن كل ذلك الإرهاب بنسخه المتعددة لم يولد إلا من رحم سياساتها الخاطئة واعتمادها على القوة والقوة فقط.

*** *** ***

حسب خبراء أمريكيين مثل كرونين*[38]، فإن كل من «القاعدة» و«تنظيم الدولة» قد ولدا من رحم «الغزو الخارجي». فالقاعدة هي نتاج كل تداعيات الغزو السوفياتي ثم الأمريكي لأفغانستان. فحرب المجاهدين التي استمرت نحو عقد من الزمن 1989-79 وشارك فيها آلاف من المقاتلين المسلمين العرب هي التي أفرزت جماعات «القاعدة» بعد ما شعروا بخيانة حلفائهم الأمريكان. فقد قاتلوا معهم السوفيات في أفغانستان، وكانوا يقولون أنهم يقاتلون من أجل ألا يتمدد الاتحاد السوفياتي إلى المياه الساخنة والآبار السوداء والعتبات المقدسة، ولكنهم تفاجئوا حين رأوا الأمريكان يفعلون ذلك بالضبط.. فحرب تحرير الكويت قد كشفت لهم كمية الخداع لدى حلفائهم. فقد زجوا بالعراق في «ورطة» ثم اجتاحوا المنطقة بدعوى أنهم يريدون إخراج العرب من «الورطة» التي وضعهم فيها صدام حسين. وهكذا تحول مجاهدوا أفغانستان العرب من حلفاء لأمريكا إلى أعداء. هناك من رأى أن طريق الجهاد الوحيدة والواضحة هي العودة إلى البلد الأم لمحاربة الاستبداد على أرضه. وقد تشكلت آنذاك جماعات مسلحة خرجت بتسميات عديدة في كل من مصر والجزائر وليبيا واليمن.. وهناك من أصر على أن «العدو الكبير» يوجد في واشنطن وبالتحديد وفي الغرب عموما ويجب إعلان الحرب ضده بلا تردد. فانتشرت كذلك «القاعدة» في أرجاء عديدة من العالم وحررت المبادرة لدى خلاياها. وهكذا تشكلت عدة قواعد. ومن بينها قاعدة العراق بقيادة أبو مصعب الزرقاوي الذي أعلن الجهاد ضد أمريكا إنطلاقا من الفالوجة..

إن قاعدة الزرقاوي في الفالوجة هي القاعدة الأولى لتنظيم الدولة الإسلامية. وهنا نرى كما رأى «كرونين» كيف أن تنظيم الدولة الإسلامية قد ولد من رجم الغزو الأمريكي للعراق عام 2003.

انتمى أبو مصعب الزرقاوي الأردني الأصل إلى المقاومة العراقية، وكان من رجال القاعدة. واتخذ من الفالوجة نقطة إنطلاق لبعث هذا التنظيم بعدما أقسم الولاء

للقاعدة.. وحين قتل الزرقاوي في العام 2006 في هجوم أمريكي متحالف مع «الصحوات» كان التنظيم لايزال في مرحلة التشكيل. مات الزرقاوي لكن رفاقه الذين دخلوا إلى السجون أو فروا من القبضة الأمريكية أعادوا تنظيم صفوفهم بقيادة أبو بكر البغدادي الذي استفاد من الحرب في سوريا عام 2011 فأقام في ظل الفوضى قاعدة لتنظيمه في شمال سوريا ثم اتخذ تسمية جديدة لهذا التنظيم كانت من اقتراح ضابط عراقي سابق في جيش صدام حسين إسمه بكر حجي. (الدولة الإسلامية في العراق والشام).

بكر حجي الرجل الخمسيني الطويل قتل في مواجهة في مدينة «تل رفعت» السورية في يناير/جانفي 2014. ولكن الذين قتلوه لم يعرفوا أنهم قتلوا الرئيس المدبر للمخطط الإستراتيجي لتنظيم الدولة الإسلامية.. وإن بكر حجي هو إسم مستعار لعقيد في مخابرات الدفاع الجوية في عهد صدام حسين وهو سمير عبد محمد الخليفاوي*[39] (دير شبيغل). تضيف الصحيفة الألمانية «دير شبيغل»، «عندما توفي المصمّم، ترك خلفه مخطط دولته في أكثر من ثلاثين صفحة. وهو يضم جداول عديدة مكتوبة بخط اليد وقوائم في الأسماء ونصائح في كيفية إخضاع دولة ما تدريجيا».. وقد أتاحت تلك الوثائق التي قامت «دير شبيغل» بفحص بعضها لأول مرة استنتاجات عن قيادة تنظيم الدولة والتخطيط للإستيلاء على شمال سوريا تمهيدا للوصول إلى العراق.. وفي وقت ما بدا أن تعليمات المدعو حجي بكر قد تم تنفيذها بدقة متناهية حسب الوثائق التي عثر عليها». ويمكن أن يسأل المرء: بما أن هذه الوثائق مكتوبة بخط اليد. وقد عثر عليها في صندوق مهمل في بيت مدمر ومهجور. ونقل بعض صفحاتها إلى تركيا لفحصها، فكيف أن تنتقل بعد ذلك إلى أبي بكر البغدادي حتى ينفذ ما جاء فيها بدقة؟.. منطقيا إذا كانت هذه الوثائق قد أصبحت تحت قبضة المخابرات التركية، فإما أنها نسخة، وإما أنها لم تنتقل إلى البغدادي، وإما أن البغدادي قد اطلع عليها فيما بعد عن طريق طرف ثالث قد يكون من المخابرات.. كل الإحتمالات واردة. وما يهم هنا أن ما كتبه بكر حجي على هذه الأوراق من تفاصيل وتخطيط وجداول وهيكلية لا يقل عن كونه مخطط احتلال دولة ما. لم تكن الأوراق مجرد مناشير دينية أو دعائية أو حماسية، بل هي خارطة طريق بكل تفاصيلها ومراحلها لإنشاء دولة إسلامية «شبيهة بدولة صدام حسين المخابراتية» أو «دولة ستاسي» في ألمانيا الشرقية حسب وصف دير شبيغل!..

كانت الخطة تقضي منذ البداية زرع أجهزة مخابرات بشكل متواز مع بعضها بعضا حتى على المستوى الإقليمي حيث يترأس قسم المخابرات العامة أميرا للأمن ويشرف على نوابه في المقاطعات. وهؤلاء النواب يشرفون على رؤساء الخلايا والقواعد

الجاسوسية في القرى والمحليات. ويتلقى نائب الأمير تقارير أيضا من أفراد الخلايا المحلية.. وكان الهدف أن يراقب الجميع بعضهم بعضا، وخلال تلك المراقبة والسيطرة تبدأ مرحلة التكوين، وهذه الكلمة كما تلاحظ «دير شبيغل» ليست من مصطلحات الدين أو الفقه، وإنما هي تنتمي إلى علم الجيولوجيا أو البناء. ولكن علماء الكيمياء العرب كانوا قد استعملوا مثل هذا المصطلح منذ اثني عشر قرنا. وكانوا يصفون خلق الحياة الاصطناعية بالتكوين. وقد عرف كل من ابن طفيل وجابر بن حيّان بكتاباتهما حول بعث حياة جديدة.

وفي الحقيقة فإن حجي بكر، ضابط المخابرات كان أقرب إلى طبيعة ضباط الدولة البوليسية، أو «جمهورية الخوف» التي تحدث عنها معارضون عراقيون سابقون أو «الدولة الستالينية» التي حاول أن يقيمها صدام حسين في العراق.. كان بكر يؤمن بالتخطيط والعمل وكوادر المخابرات.. وكان يعتقد بأن الدين هو مركبة الوصول إلى النصر. وهكذا حين جاء اجتماع تنصيب أمير على هذا التنظيم، اشترط بكر أن يكون الأمير عالما في شؤون المخابرات والدين، فكانت من نصيب أبو بكر البغدادي. لم يكن بكر حجي إلا رجلا قوميا، وكذلك هو أبو بكر البغدادي، فكلاهما يؤمنان بالقومية العربية أكثر مما يؤمنان بالخلافة الإسلامية. ولكن بما أن توأم العروبة والإسلام يسيران معا إذا أرادا الانتصار، فقد تم تبني كلمة الدولة الإسلامية بدل «الدولة العربية» التي تذكر بتراث البعث «السيء الصميت». وفي قراءة أخرى فإن «داعش» الذي يرمز إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام، إنما هو يرمز أيضا إلى الدولة الإسلامية العربية في الشام.. وليست بلاد الشام قديما إلا بلاد الهلال الخصيب التي تغطي فلسطين وسوريا ولبنان والأردن وبلاد الرافدين!..

*** *** ***

بجرة قلم ألغى بول بريمر*[40] في مايو 2003 الجيش العراقي. وتلك الجرة ستجر العراق كله إلى المطحنة. تم تسريح جيش كامل كان يقول عنه الأمريكان «أنه الرابع في العالم». ومهما كانت أكاذيب واشنطن، فإن عشرات آلاف من الجنود والضباط قد وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل مهمشين ومهانين ومعرضين للاغتيال والقتل. وما لم يدركه «بريمر» الأحمق أنه صنع جيشا من الأعداء المدربين ضده. وأن جزءا كبيرا من هذا الجيش مستعد للمقاومة كما هو مستعد للتحالف حتى مع الإسلاميين المتطرفين! كما هو الحال ربما لأبي بكر البغدادي..

اشترك كل من ضباط الجيش العراقي المنحلّ مع قادة التيارات الإسلامية وخاصة القاعدة في قناعة مفادها أن «قدسية الإسلام»، الذي هو دين العرب أولا، يمكن

أن تكون سرّ نجاح أية مقاومة. وهذه المقاومة عليها أن تستفيد من جماهير الدين المهمشة والتخطيط الإستراتيجي.. تلك القناعة نسجت خيوطها أساسا في السجون والمعتقلات. ففي معسكر «بوكا» الأمريكي أو في «أبو غريب»، عقدت اجتماعات كثيرة بين ضباط من الجيش العراقي وقيادات من التيارات الإسلامية وتم الاتفاق على التحالف والتعاون وزرع الخلايا في انتظار الفرصة. وآنذاك بدأ حجي بكر في إعداد مخططه من داخل السجن بخط يده على أوراق تقول «دير شبيغل» أنها حصلت على بعضها!..

وجاءت الفرصة من سوريا. انتقل حجي بكر مع مجموعة من رجاله إلى شمال سوريا، فوجد أن مكاتب الدعوة قد افتتحت في العديد من المدن. كانت تلك المكاتب تبدو بريئة وتبشيرية، ولكنها كانت تقوم بأعمال أخرى مثل المراقبة والتجسس وجميع المعلومات.. وحين انتقل إلى «الرقة»، وجد رجال حجي أرضية جيدة للتحرك وإمكانيات لوجستيكية. وحين زاره أبو بكر البغدادي في «الرقة»، تذكر كل منهما تاريخ «هارون الرشيد» الذي توفي فيها بمرض بسيط وقد كان متوجها للقتال دفاعا عن الخلافة..

اقترح البغدادي أن يظل في الأنبار/العراق. كما اقترح أيضا أن لا يأتي قادة التنظيم العراقي إلى سوريا. ورأى أن تجنيد أكبر عدد من السوريين قد يجعل من التنظيم سوريًا. وسوف يؤثر ذلك على الخطة الأساسية لأن السوريين يريدون إسقاط الأسد قبل كل شيء بينما وجود الأسد، يسمح بتواصل الحرب في سوريا وهذا من شأنه أن يعطي فرصة أكبر وأوسع لبناء التنظيم. وبذلك تم اللجوء والتركيز على المجاهدين الآخرين العرب والأجانب الذين بدأوا القدوم إلى سوريا منذ 2012 وهم: من السعودية وتونس وليبيا وحتى من تركيا والشيشان وأوزباكستان وبلدان أوروبية عديدة. كان جميع هؤلاء بلا خبرة عسكرية. ولم يكن يعرفون بعضهم بعضا. وقد توزعوا على أماكن عدة للتدريب والتعبئة والفرز. وعلى الرغم من أن البدايات كانت تتسم بالفوضى والارتجال إلا أن السرية كانت الطابع المميز لقادة هذا التنظيم. وقد استطاع التنظيم أن يعد فرقا جيدة وتلتزم بالطاعة فتم إرسالهم إلى العراق بينما كان السوريون يفضلون البقاء في بلادهم لحماية أهلهم وممتلكاتهم. وفي أواخر العام 2013، بلغ عدد الأجانب والعرب القادمين إلى سوريا أكثر من 12 ألف. ثلثهم من تونس ثم من السعودية ثم من مصر فتركيا ثم من الشيشان وأوروبا وحتى من أندونيسيا. ورغم أن الثوار الجهاديين في سوريا يتكاثرون، فإن تنظيم الدولة كان يعمد إلى أساليب خادعة لكي يظهر أعداد مقاتليه أكثر عددا وأكثر بؤسا. كانوا يخفون وجوههم ويستبدلون أزياءهم ثم يظهرون في أكثر من مكان، فتظهر العشرات وكأنها مئات والمئات كأنها آلاف.. أما قادتهم فقد كانوا يحرصون على الظهور وكأنهم خدم للناس، يقدمون خدمات ويعتنون بالجرحى

ويساعدون حتى على الزراعة. وهكذا تمكن التنظيم في وقت قصير من السيطرة على «الرقة». تلك المدينة التي تقع على نهر الفرات وهي تشكل نقطة مثلث: بغداد - حلب - دمشق. كانت بالنسبة لحجي بكر نقطة البداية وامتحان التجريب الأول. تمت مرحلة التسلل ثم جاءت مرحلة «تصفية الأجواء» أي التخلص من أي شخص يحتمل أن يكون قائدا أو خصما من الجماعات الأخرى. اختفى في خلال أسبوع أكثر من وجه بارز، فدب الرعب في رجال آخرين. فر من فر وقتل من قتل، ولكن بدون أثر. بعد ذلك جاء الصدام الأول مع الجيش السوري فتم اقتحام مقراته بسيارات انتحارية. وفي الأثناء عقدت قيادة تنظيم الدولة مع ألوية أخرى صفقات سرية وهاجمت ألوية أخرى، فاعتقد البعض أنه بعيد عن استهداف تنظيم الدولة إلى أن تم القضاء على كل الألوية. وفي خريف 2013 أصبحت «الرقة» تحت سيطرة تنظيم الدولة وقد تعهد 14 من زعماء القبائل بالولاء للأمير أبو بكر البغدادي. وهي نفس القبائل التي تعهدت بالولاء قبل عامين للرئيس الأسد.

بدا مقاتلو الثورة السورية مذهولين ومشلولين. واتهم بعضهم بعضا بالخيانة. ورأى آخرون أن الأسد هو الذي يقف وراء تنظيم الدولة.. ولكن التنظيم كان ينتقل من قرية إلى أخرى لتقوية صفوفه وتحصين مواقعه. بعد فترة من الذهول استيقظ الثوار وراحوا يتنادون بالجهاد ضد هذا التنظيم المتوحش. وهكذا تحالفت أطراف من المعارضة العلمانية مع جبهة «النصرة» المتطرفة لمحاربة الدولة الإسلامية. وبعد جولات وصولات، كان فيها الجيش السوري يراقب من بعيد، تمكن ذلك التحالف من طرد الدولة الإسلامية من بعض قرى الشمال، ولكن الرقة لم تسقط بعدما وصل حوالي 1500 مقاتل من العراق لنجدة أبي بكر البغدادي. استعمل هؤلاء خدعة أخرى. ارتدت بعض المجموعات ملابس الثوار ثم بدأت تطلق النار على الثوار الآخرين، فبدا الأمر وكأن الثوار يقتلون الثوار.. وهكذا خلت «الرقة» منهم جميعا.. لقد قاتل مجاهدو إرادة الله بسراويل الجينز وملابس النينجا، وبكل الأساليب المموهة من أجل أن يبقوا في الرقة، ولكن قائدهم الروحي ومخططهم الإستراتيجي ظل في قرية «تل رفعت» الشمالية إلى أن سقط ضحية وشاية رخيصة. مات حجي وتم اعتقال زوجته، ولكن «الثوار» فيما بعد سيبادلونها برهائن للدولة الإسلامية بطلب من أنقرة وبوساطة قطرية.

لكي تحرز المزيد من الانتصارات حاول أن تلعب دور الصديق لتكون جاسوسا فعالا. إنه من الضروري لكي تعرف عدوك جيدا أن تتعاون معه.. وإذا كنت تكتيكيا جيدا، فإنك ستحصل على نتائج باهرة.. بهذه النصائح الميكيافيلية كان حجي بكر يلقن رجاله، لذلك فإن رجاله سيتذكرون بعدما أصبحوا سادة لمدينة «الرقة» أن هناك عدو

كبير يمكن الاتصال به للاستفادة منه. وعلى أية حال فإن بعضا من هؤلاء الرجال كانوا قد تعرفوا على رجال مخابرات الأسد منذ عقد من الزمن، أي منذ الغزو الأمريكي للعراق عام 2003.

*** *** ***

أصيب العالم كله بالصدمة حين تم غزو العراق. أما الذعر الكبير فقد استقر في دمشق. كان الرئيس الأسد الذي لم يمض على علوه الحكم أكثر من أربع سنوات آنذاك يعتقد أن «جورج بوش الابن» لن يوقف جيشه في العراق، بل هو قد يقتحم الحدود السورية للإطاحة به. وهذا الذعر أحست به حتى السعودية لذلك تعاونت كل من دمشق والرياض في البداية على إرسال آلاف المقاتلين العرب للانظمام إلى المقاومة العراقية وإغراق الجيش الأمريكي في وحل العراق. بعد نحو عامين تأكد للرياض أن الذين سيربحون في حرب العراق هم الإيرانيون. وبما أن الإيرانيين هم أصدقاء سوريا وهم أصدقاء النظام الشيعي الجديد في بغداد، وهم كذلك يريدون تمريغ الجيش الأمريكي في بلاد النهرين، سحبت نفسها ومقاتليها وأصبحت شبه متخاصمة مع سوريا. وفيما كانت الخصومة تتفاعل، جاء اغتيال الزعيم السني اللبناني رفيق الحريري في فيفري /شباط 2005 ليعلن القطيعة بين دمشق والرياض. في ذلك الوقت بالتحديد كانت علاقة غريبة تتطور بين جنرالات دمشق والجهاديين العرب والضباط السابقين للجيش العراقي.. في السابق كانوا أعداء. وها هم اليوم أصدقاء، ولكن كل منهم جاسوس على الآخر.. كان هدف دمشق قبل عشر سنوات منع الأمريكان من اجتياح دمشق وتحويل حياتهم إلى جحيم وبالتعاون مع طهران التي كانت تتقدم كلما ضعفت شوكة الأمريكان. وفي العام 2013 أصبح هدف دمشق مختلفا ويتمحور حول إغراق الثورة السورية في التطرف والمشاريع الفوضوية.. وقد التقى مع هدف تنظيم الدولة الإسلامية الذي كان يريد السيطرة على الفضاء وإنهاء كل منافسيه من الألوية الأخرى..

كانت العلاقة بين دولة دمشق ودولة الرقة براغماتية بشكل كامل، حيث يحاول كل طرف استخدام الطرف الآخر، ريثما يصبح أقوى. وإذ قبل تنظيم الدولة المساعدات التي قدمها جيش الأسد ومخابراته للتغلب على منافسيه في الساحة، امتنع كذلك عن إطلاق النار على الجيش ووجه كل مقاتليه إلى المناطق التي خسرها سابقا فاسترجعها بقوة. وحين وقعت قاعدة الفرقة 17 من الجيش السوري تحت الحصار، هب التنظيم ليرفع الحصار، ولكن ما إن أصبح التنظيم أكثر قوة بعد هجوم رجاله في العراق (الموصل) واستحواذه على مخازن السلاح، حتى عاد التظيم لمهاجمة الجيش السوري

فاحتلوا قاعدة الفرقة 17 للجيش السوري. وهكذا فإن تنظيم الدولة الإسلامية حتى وإن رفع شعارات النزاهة والأخلاق عاليا، فإنه لا يتردد أبدا في استخدام أكثر الأساليب نذالة من أجل إحراز نصر ما.

أصاب التنظيم «داعش» نوع من جنون العظمة فتمدد على أراض كثيرة وسيطر على مناطق عديدة وصلت إلى تهديد بغداد. ولكن بعض قادته حذروا من التمدد اللانهائي. وهذا لم يكن من رأي البغدادي الذي رأى أن وقف الحرب سيفقد التنظيم بريقه وسطوته وقد يختفي بسرعة كشهب في السماء. أصبحت حرب داعش تمتد على جبهات واسعة في كل من سوريا والعراق. وكانت خسارة «عين العرب/كوباني» ومدينة «تكريت» خسارة كبيرة للتنظيم ولكن قادته قالوا أن ذلك حصل بمساعدة الأكراد وليس بفضل الجيش العراقي المنهار أو ضربات التحالف الجوية.. وهنا فكر داعش أن يمدّ يديه إلى تركيا باعتبارها العدو الأكثر تشددا للأسد.

كانت نقطة الضعف الكبرى تتمثل في قلة خبرة داعش في إدارة مناطق آهلة بالسكان. فداعش تستطيع أن تحتل المزيد من المواقع ولكن خبرته في الإدارة المدنية للسكان لازالت ضعيفة. ولذلك فإن الخوف الكبير لا يأتي من العدو، وإنما قد يأتي من السكان لو أنهم انتفضوا ضدهم بسبب تراخيهم أو عدم قدرتهم على تلبية حاجياتهم الحياتية أو ممارساتهم الوحشية أو تسلل بعض الجهاديين المزيفين إلى مناطقهم. وهنا أصبحت مخابرات تركيا تلعب دور الممول والمسلّح والمنقذ والمزود حتى بلغت درجة الرعاية شبه الكاملة، فأصبحت داعش أكثر قوة وغطرسة. فحتى من تبقى من تنظيم القاعدة لم يجدوا مكانا لهم تحت سلطة داعش. وحين أرسل أيمن الظواهري مبعوثيه إلى داعش لعرض التعاون، عادوا هؤلاء بخفي حنين ثم وصفوا مقاتلي داعش «بالأفاعي التي تخون الجهاد الحقيقي»*41. وقد بدا التباعد بين داعش وآبائها «القاعدة» واضحا إلى درجة فكر فيها الآخرون بإعادة إحياء القاعدة لإفساد وتخريب مشروع «داعش» من الداخل.

إن من يخربون «الجهاد الحقيقي» حسب تعبير القاعدة، هم أبناء القاعدة، ولكنهم أبناء ربما أكثر تطرفا وكذلك أكثر رشدا. فهم انتقلوا من الشتات إلى الثبات. وباتوا يقيمون هياكل دولة بيروقراطية وسلطات عتيدة. فإلى جانب هيكل قيادة الخليفة، هناك هيكل قيادة موازي: وحدات النخبة وإلى جانبها القوات العادية. قادة عسكريون بالتوازي مع قادة آخرين، أمراء إقليميون مع أمراء مدن وقرى آخرون. أما الخليفة البغدادي فيحيط به مجموعة من القادة العسكريين. إنه يشبه «خلفاء» آخرين عرفهم التاريخ الإسلامي في شرق وغرب البلاد العربية*42. وعادة ما يقع الاتفاق على الخطط العسكرية والسياسية بين الخليفة وقادته. وفيما تعتبر مجالس الشورى أعلى السلطات

التشريعية، فإن القرارات لا تصبح نافذة إلا إذا وافق عليها «أهل الحل والعقد». وهي بمثابة المجلس الحربي على طريقة ما كان يحدث في إسلام العصور الوسطى.

وتعيش دولة الخلافة من ضرائب الأشخاص الذين يعيشون تحت سلطاتها، كذلك من مصادرة أملاك الذين فروا أو تحالفوا مع العدو. وقد استحوذت على عقارات كثيرة وأموال كثيرة في البنوك والصرافات. ثم إنها تدير جهازا ضخما يختلط فيه الابتزاز مع التهريب. تهريب النفط والسلاح وانحراف والمواد الزراعية، بالإضافة إلى ذلك يلاحظ الفارين من مناطق داعش، أن التدفق المالي من الخارج وخاصة من تركيا لم يتوقف. وهو يصل عبر طرق سالكة تخترق أحيانا حدود أكثر من دولة.. وبذلك استطاعت أن «تدير حياة شبه مريحة» في مدن عديدة مثل الرقة والموصل. ويعتبر البغدادي، خليفة الدولة الإسلامية، أن عاصمته المؤقتة الموصل أكثر أمنا ورغدا من مدينة بغداد عاصمة العبادي المؤقتة. ولا يفوت المراقبون أن يلاحظوا بأن إرهاب داعش موجه بالأساس إلى جيوش بغداد وحشودها الشيعية والحلفاء، وليس إلى الأهالي. وقد استطاعت أن تتغلب على الفساد وتعاقب الفاسدين وتوزع المساعدات على المعوزين وتتعرف على كل عمليات الاختراق والتمرد إلى درجة أصبحت فيها دولة ذات مهابة وهيبة حتى وإن لم يعترف بشرعيتها أحد في العالم!..

إن دولة الخلافة السنية وعاصمتها «الموصل السني» تتطلع بعيدا نحو بغداد السنية من جهة الغرب ونحو دمشق السنية من جهة الشرق ونحو حلب السنية من جهة الشمال. أما جنوبا فربما وضعت نصب عينيها الرياض ومكة والمدينة. فخزان الطموح لدى داعش لازال يفيض بمفاجآت أخرى قد تذهل الجميع كما يقول بعض العراقيين الذين فروا إلى عمان أو أربيل من الرمادي. وما لم يعره الغرب أي اهتمام ها هو يشتعل في سلسلة حروب صغيرة قد تتحول إلى حرب كبيرة تمتد من الأنبار إلى مكة. ومن مكة إلى طرابلس. ومن ثم إلى شمال نيجيريا وصعودا نحو بلاد المغرب العربي.. إن مشكل الشيعة والسنة الذي حرك جمره الغرب هو الذي قد يجعل من داعش قوة مركزية مهابة.. إن عصر صلاح الدين قد بدأ تقريبا من الأرضية نفسها: فحين غرق العرب في مشاكل طائفية وصراعات بين الشيعة والسنة من جهة ومن أخرى وقع اختراقهم وغزوهم من الألمان والفرنجة والإنكليز وقد استحوذوا على القدس، بدأت عائلة صغيرة سنية من وسط العراق تدخل الصراعات المحلية إلى أن تبوأ بعض رجالها مواقع متقدمة في إدارة الحرب والسياسة. وبينما كان الأيوبيون في البداية في جيلهم الأول يتبادلون الولاءات والولايات في مجال يمتد من بعلبك إلى الموصل ومن الرقة إلى دمشق، بدأ الجيل الثاني ممثلا في يوسف صلاح الدين حاملا طموحات كبيرة انتهت بتوحيد بلاد الشام ومصر وتحرير القدس. وإذ يتشبه أبو بكر البغدادي

اليوم بصلاح الدين الأيوبي، فلأن الغرب الصليبي قد خبر جيدا ذلك الرجل الذي كما قال أحدهم قد حرره من الوهم لعدة قرون. فهل سيحرر البغدادي الغرب في نسخته الصليبية الجديدة من الوهم، اليوم؟ أم أن المشروع برمته محكوم عليه بالفشل لأنه ولد منطفئا في صحراء مليئة بالأوهام؟

*** *** ***

إن الصدع الطائفي الأول في بيت الدعوة الإسلامية والذي حدث منذ حوالي 15 قرنا، يبدو وكأنه قد عاد في القرن الواحد والعشرين وفي مهده الأول. بدأ كل شيء في النجف عام 2003 حين استحوذت على القرار السياسي مستبعدة كل من بغداد والموصل.. وهذا الصدع ما انفك يتسع حتى ابتلع الجميع، فأصبح هناك شيعة يحاربون سنة، وهناك سنة يحاربون شيعة. أمر لم يخطر على بال أحد حتى في عهد الاستبداد.. ولكنه أصبح واقعا في عهد الديمقراطية الأمريكية. زاد من ذلك التطاحن الطائفي وجود دولتين كبيرتين في محيط الشيعة والسنة العرب. وهما إيران الشيعية وتركيا السنية. وهاتان الدولتان تبادلتا الحروب والعداوة لقرون طويلة زمن الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة!.. وبما أن إسرائيل اليهودية تريد للجميع الهلاك، فقد شاركت في إشعال فتيل الطائفية بكل جهودها. فهي غير راضية عن سياسة أوردوغان المنحازة إلى غزة ومتوجسة من طهران التي تتسلح نوويا، ولا تريد للعراق أو سوريا أن ينهضا أو يتوحدا. وهكذا تحول الصدع إلى شرخ كبير بات يقاتل فيه الشيعة الفرس، السنة العرب. والشيعة الأفغان، الأفغان السنة على أرض سوريا، والسنة العرب الشيعة العرب، والأتراك السنة الأكراد السنة.. هذه الدورة الدموية التي تحركها عدة نوازع وعدة سياسات متداخلة ومتعارضة لا تخص العراق وسوريا فقط، بل هي موجودة في لبنان وفي اليمن والبحرين وهي مرشحة للانتقال إلى الكويت والسعودية!..

في البداية ربما لم يكن لداعش أن يظهر إلى الوجود، لولا الحرب في سوريا وكذلك لولا المخابرات القطرية والسعودية. فهذان البلدان عملا طويلا ضد بعضهما بعضا وكثيرا ما تعارضت مصالحهما، ولكن بدهاء أهل الخليج وقدراتهم المالية، كانا دائما لا يصلان إلى درجة الصدام المباشر.. ولم يعمل القطريون والسعوديون معا في بلدان الربيع العربي، فكان أحدهم يخسر والآخر يربح، ولكنهما كانا يديران لعبة الربح والخسارة بالمال ورجال المخابرات والأحزاب والمنظمات الجهادية والجمعيات الخيرية.. وفيما كانت قطر تسعى إلى «البرستيج» وكذلك إلى تهديد السعودية أحيانا، كانت السعودية تريد الأمن لها ولجيرانها ولكن بعيدا عن الهيمنة الإيرانية.. وبعد الحرب السورية، اتفق كل من القطريين والمعارضين السوريين على نقطتين: الأولى الإطاحة بالرئيس الأسد بأية وسيلة والثانية الإطاحة بالمالكي في بغداد بكل الطرق.

ومن أجل ذلك توصلت كل من الدوحة والرياض إلى وضع خطة مشتركة تعتمد على دعم الجهاديين في سوريا وتأخذ بالحسبان الحراك الشعبي في الأنبار، وتدفع باتجاه قوة سنية ممولة بأموال سنية تحارب الشيعة/الكفرة في سوريا والعراق وطهران ولبنان واليمن.. تم كل ذلك حين غادر الأمير حمد الحكم وسلم مفاتيح الدولة لإبنه تميم. وقد فسر انتقال السلطة السلمي ذلك على أنه «انقلاب أبيض» دعمته الرياض*[43].. فحين ضاقت الرياض ذرعا بحليفها في مجلس التعاون الخليجي، توجهت إلى واشنطن تطلب منها التدخل لدى قطر لكي تلتزم حدودها ولا تستدعي الفوضى إلى المنطقة. ثم أرسلت تحذر عبر مسؤولين آخرين في الخليج قالوا لقطر: «أن السعودية تستطيع أن تقوم بغزو قطر كما فعل صدام في الكويت. ولكن في هذه المرة لن تأتي لا أمريكا ولا إيران ولا إسرائيل لإنقاذك، لأن من أنقذ الكويت هو الذي قد يغزوك اليوم». هنا أزاحت قطر بعض الأوهام واستعدت للتفاهم مع السعودية..

تم الاتفاق على سوريا والعراق واليمن، ولكن الدوحة والرياض ظلا مختلفتين في مصر وليبيا. ولما تمت الإطاحة بالرئيس/المرشد محمد مرسي، سارعت الرياض إلى الدعم والتأييد للجنرال عبد الفتاح السيسي، ولكن الدوحة تحركت ضد التيار فنددت بما أسمته بـ«الإنقلاب». فالأمير الجديد تميم بن حمد قد سار على نهج والده في دعم الإخوان المسلمين بينما ذهب السعوديون بعيدا إلى حدّ وضعوا الإخوان المسلمين على لائحة الإرهابيين. كان واضحا أن السعودية قد اختارت معسكر السنة من العراق إلى اليمن إلى مصر مفضلة التعاون مع «الشيطان» على التعاون مع «الإخوان المسلمين» أو ما شاكلهم. فهؤلاء ينافسونها ويزاحمونها في «الشرعية الإسلامية» ويفضحون «إسلامها المغلق والوهابي» وهم إن تمددوا في البلاد العربية، فإنهم سيقضون على الوهابية، ولكن قطر المناكفة دائما تسعى إلى إضعاف الوهابية ومستعدة أن تتحالف مع الإسلام السياسي الآخر إن كان ديمقراطيا أو حتى ثوريا.

سوف لن تتغير إدارة اللعبة حتى مع موت الملك عبد الله واستبعاد ولي العهد مقرن بن عبد العزيز*[44]، بل ستزداد شراسة وتفرض شروطها في أكثر من موقع. فالفريق الجديد الذي يحكم مع الملك الجديد سلمان لايزال يصرّ على إخراج قطر من لعبة التمدد الإسلامي غير المحسوب. وقد دفعها دفعا مرة أخرى إلى المساهمة في حرب اليمن كما أرغمها على تبدل موقفها من داعش بعد أن أصبحت داعش تهدد الجميع. فبينما كانت القاعدة تقوم بهجمات منعزلة وسط المدنيين، أصبحت داعش تمتلك جيشا وسلاحا وأموالا وأرضا وهي تقع على شمال المملكة مباشرة. وبينما كانت القاعدة تضرب المدنيين بعيون عمياء ثم تنسحب إلى جحورها لفترة من الزمن، فإن داعش يضرب طبقا لخطه ويمتلك إستراتيجية واضحة وهو يحتل المدن ويدير

الجيوش والأموال. وبينما يقود القاعدة رجال مجهولون إلى جانب زعيم لا يعرف مكانه أو مكانه بعيد، فإن داعش يقودها رجال واضحون وخليفة يصلي بالناس ويجتمع بقادته ويتفقد قطعات جيشه.. فإذا كان الظواهري لم يأت إلى بلاد العرب حتى وهي في عزّ الفوضى والثورات، فإن البغدادي قد خرج متحديا الجميع معلنا نفسه خليفة للمسلمين كلهم.. فمن يقول خليفة، يقول دولة إسلامية. ومن يقول دولة إسلامية سنية على حدود السعودية، يقول حرب طويلة المدى بين دولتين إسلاميتين سنيتين في بلاد العرب من أجل الفوز بالشرعية.. كان الخليفة البغدادي يريد أن يبعث بتلك الرسالة إلى السعوديين أولا ثم إلى الأمريكان ثم إلى المسلمين قاطبة.. فهمت الرياض فحوى الرسالة فأصابها الذعر ثم اتجهت إلى اليمن لتكشف عن شوكتها في عهد الملك الجديد. وتلقى الأمريكان الرسالة فطالبوا الجميع بالتريث ثم رأوا في داعش تهديدا للسعودية التي عليها أن تغير من أحوالها أو أن يطالها التغيير بالقوة ومن الخارج. بعد ذلك رأوا في داعش، جدارا سميكا أمام النفوذ الإيراني وتهديدا للنخب الشيعية الحاكمة في كل من بغداد ودمشق. أما بقية المسلمين، بما في ذلك إخوان مصر المطاردين والمبعدين، فقد وجدوا في داعش إمكانية لعودة الخلافة الإسلامية وانتقاما من السعودية.. وكذلك للتحرر من الهيمنة الأجنبية بكل وجوهها وإنهاء حالة التشرذم التي يعيشها المسلمون العرب. فلمدة عشر سنوات، أي منذ ضربة نيويورك، تضع الولايات المتحدة العرب المسلمين في سلة واحدة. وقد بلغ التجسس على ممتلكاتهم وتحركاتهم وكذلك على بلدانهم وبنوكهم وجيوشهم درجة بات فيها هؤلاء العرب (شعوبا وحكاما) منزوعي الكرامة والسيادة. إن الدقائق الخمس التي أرعبت أمريكا خريف 2001، قد تحولت إلى رعب دائم للعرب المسلمين في بلدانهم..

واليوم حين نرى داعش تتمدد وهي أحيانا تتلاعب برؤوس أعدائها مثل الكرة، وحين نسمع الرئيس الأمريكي يقول بأنه لايزال يفكر وبأن الصبر لم ينفذ بعد، فإن الأكثر ترجيحا أن تكون واشنطن قد وجدت (الجوكر المفقود) في لعبة الشرق الأوسط. فداعش وإن كانت عنيفة وجهادية، فهي «ضرورية» لأمريكا لإدارة لعبتها بنجاح.

*** *** ***

إن أمريكا تلعب، ولكنها ليست وحدها التي تتحكم في نتائج اللعبة. فهناك لاعبون آخرون معها يريدون هم أيضا أن يربحوا. ثم هناك زمن اللعبة.. ولا يكفي في لعبة القوة أن تجمع بين يديك أوراق الربح أو النصر، ولكن يجب أن تضرب أو ترمي بأوراقك في الوقت المناسب. فكثير من الخسارات كانت بسبب عامل الزمن. فلابد

من معرفة أوراق خصمك متى تنتهي صلاحياتها. وعليك إذن أن لا تكون متعجلا ولا صبورا، يجب أن تختار اللحظة المناسبة لكي ترمي بالورقة الرابحة. ولكن من الذي يملك الورقة الرابحة في هذه اللعبة الدموية؟ أمريكا وإسرائيل؟ أم تركيا والسعودية؟ أم إيران؟..

في لعبة القوة يدرك الجميع أن النصر لا يتحقق فقط في ميدان الحرب. كما يدرك الجميع أن ما يمكن تحقيقه في الحرب قد يضيع عن طريق الدبلوماسية، وكذلك العكس صحيح. وتبدو إيران كما لو أنها اختارت هذه المقاربة لكي تدخل إلى لعبة القوة في مثلث بغداد/حلب/دمشق.. فإيران باعتبارها قوة نامية وعقلانية وتمتلك أرصدة كثيرة لا تريد أن ترمي بكل أرصدتها في لعبة قوة غامضة الدوافع والغايات. إنها لا تريد أن تفقد ثقة جيرانها الخليجيين السنة ولا ثقة أصدقائها الشيعة في المنطقة. فإذا ما ظهرت كداعم لداعش حتى وإن قاتلت هذه الأخيرة أعداءها التاريخيين (السعودية وأمريكا) فإنها ستفقد الكثير من سمعتها لدى حلفائها الشيعة وحتى لدى خصومها الأمريكان الذين ما انفكوا يتفاوضون من أجل أن تعود إلى المحافل الإقليمية كدولة إقليمية بكامل أوصافها. إن إيران لا تستطيع أن تدخل في سياسات طائشة قصيرة المدى. فطوال حرب أفغانستان، تعلمت كيف تبتعد عن خلافات المجاهدين ثم عن طيش طاليبان. وهي قد دعمت شيعة حيرات دون أن تدفعهم إلى ممارسة الإرهاب. وهذا تقريبا ما تفعله في العراق وسوريا ولبنان واليمن. فالبوصلة الإيرانية ترى أن الشيعة والسنة العرب لابد أن يتفاهموا مهما طال خصامهم.. وإن أمن إيران الحقيقي يوجد في بناء علاقات مع الشقين.. وأن ذلك يجب أن يستثمر باتجاه عزل إسرائيل لأن عزل إسرائيل سيزيد من قوة وأمن إيران. أما أمريكا فلا شك أنها تحتاج إلى الجميع لكي تبني نظاما إقليميا جديدا. وهذا النظام في نظر إيران لا يبنى بدون صداقة العرب، لأن الصراع مع إسرائيل عميق والتناقض مع تركيا تاريخي..

والحقيقة إذا ابتعدنا قليلا عن بعض التصريحات المشطة، فإن السياسيين في طهران يتميزون بالحذر ونفاذ البصيرة والصبر ويتقنون لعبة الطرح والضرب والجمع.. وفي ميدان مفتوح على جميع الاحتمالات، فإن الإيرانيين لن يرموا في كل الأحوال بثقلهم وبكل أرصدتهم في هذا الميدان. لقد سلموا ملف داعش إلى الأمريكان وتخلصوا منه بطريقة دبلوماسية فابتعدوا عن «الورطة» التي تتمناها لهم إسرائيل واكتفوا بالمساعدة عن طريق الحكومة العراقية دون أن يفقدوا لا هيبتهم ولا مسؤولياتهم تجاه حلفائهم وكذلك دون أن يثبتوا على أنفسهم أية تهمة من تهم السعودية الوهابية التي تنظر إلى إيران كعدو للإسلام. وهكذا إذا ما وقع تدمير الدولة الإسلامية داعش، فليست إيران التي ستبكي عليها، أما إذا انتصرت، فكذلك

ليس إيران التي مدتها بالمجاهدين والأموال والمساعدات!..

إذا كانت إيران تقوم بدعم الشيعة دون أن تتورط في العداء مع السنة، فإن السعودية تشهر عداوتها للشيعة وتبنيها للسنة. فبعد أن تعبت من «ألاعيب الصبية» والمخابرات وخيانة التنظيمات السياسية التي تدعمها وتعمل على تكوينها، اتجهت بنفسها إلى الحرب ضد حوثيي اليمن (الشيعة). أما تركيا فتحاول الوقوف في مكان يبعد ويقرب نفس المسافة من الجميع. إنها لا تريد الصدام العلني مع إيران ولا تحارب مباشرة مع السعودية ولا تعادي بشكل واضح الشيعة الحاكمة في بغداد، وتقف مؤيدة للسنة في سوريا بإسم دفاعها عن الثورة السورية. أما دعمها وعلاقتها مع داعش فتحاول أن تبقيها من الأسرار. إنها تلتقي هنا مع إسرائيل دون أن تظهر ذلك أو تعلن عن ذلك. فداعش أو الدولة الإسلامية هي دولة سنية عازلة بين شيعة العراق وسوريا، وهي منطقة عازلة أمام الإيرانيين للوصول إلى المتوسط (إسرائيل وتركيا) وهي أيضا قد تكون مهددة لشرعية السعودية الدينية. وبذلك كله فإن كل من إسرائيل وتركيا لا يترددان أبدا في دعم الدولة الإسلامية دون أن يبدو عليهما لا الحماس ولا التفاهم.. فتركيا التي انضمت إلى التحالف الدولي ضد داعش منذ تأسيسه في أوت 2014، ثم انضمت إلى التحالف السعودي الإسلامي في أفريل 2015، ضد الحوثيين في اليمن، لم تظهر طائراتها لا فوق الأنبار ولا فوق اليمن.. فأنقرة حريصة جدا على كسب ودّ الجميع بالاكتفاء بالخطب الرنانة التي يلوكها أوردغان وكسب ودّ داعش عن طريق المخابرات التركية وتجارة الترانزيت وفتح بوابات العبور للمجاهدين والمتطوعين من كل صوب. إن تدمير العرب الشيعة بالعرب السنة هو ما تفعله تركيا. أما إسرائيل فإنها تدفع نحو تدمير جميع العرب بجميع العرب إن كانوا شيعة أو سنة. وذلك للاستحواذ على مزيد من الأراضي والثروات والتحكم في مفاتيح الجغرافيا السياسية لمنطقة تمتد من المتوسط إلى بحر الصين.

مصادر و هوامش

الفصل الثاني

1 - **طوني نغري Tony Negri**: مفكر ومنظر إيطالي من أوساط اليسار. كان زعيما لما يعرف باليسار الماركسي الراديكالي. وكان من أنصار – العنف الثوري –. وقد سجن بسبب انتمائه لـ"لألوية الحمراء" Brigades rouges، وبعد أن اتهم بالإشتراك والتخطيط لاختطاف واغتيال رئيس وزراء إيطاليا «ألدو مورو» في العام 1978.

الآن يكتب في الصحف ويعمل محاضرا في عدة جامعات. من آخر كتبه: «الإمبراطورية: المرحلة العليا من الإمبريالية». هذا الكتاب كتبه بالإشتراك مع الأمريكي «مايكل هاردت» بعد حرب الخليج وحرب كوسوفو. ويعني بذلك أن العالم أصبح سوقا مفتوحة إلى آخر المدى على كل شيء بما في ذلك الإرهاب. وأن هذه السوق المعولمة توجد تحت قيادة أمريكا الإمبراطورية.

- أنظر كذلك إلى مجموعة المحاضرات المنشورة بالفرنسية عن دار Exilis بباريس، والتي تناقش نظرية الإمبراطورية والشعوب ثم الديمقراطية في العصر الإمبراطوري (دار La decouverte).

- **طوني نغري** هو من ابتدع مصطلح السياسة الحيوية والإرهاب العضوي. ولد في العام 1933 في بادوا. وهو الآن أستاذ فلسفة بجامعة بادوا. أما صديقه هاردت، فهو كذلك أستاذ فلسفة في جامعة سيتل. وكانت أطروحته على نيغري ودولوز.

أنظر كذلك كتاب: حوار مع نغري.

Entretien avec Antonio Negri – de ses années de plomb "
a l'empire – Pierre André Boutang et Annie Chevalley.
Ed : Monparnasse – 2004.

2 - درس **ميشال فوكو** مسألة المراقبة والانضباط جيدا. وقد حفر عميقا في أصول العقاب والزجر وسياسة السجون والجنون وذلك في كتابه – أركيولوجيا المعرفة – والمراقبة والعقاب. وهي المواضيع نفسها التي استلهم منها جيل دولوز (أحد تلامذته فلسفته فيما بعد.

3 - نادي بيلدربيرغ: نظراً للسرية التامة التي تحظى بها اجتماعات مجموعة هذا النادي «بيلدربيرغ»، استنتج بعض الكتاب والصحافيين الذين تتبعوا آثار هذه المجموعة الغامضة، أن هذا النادي هو الذي عقد صفقة بين باراك أوباما وهيلاري كلينتون. فأنقذ أوباما أموال منافسته وعرض عليها وظيفة في إدارته في مقابل الحصول على دعمها الفعّال خلال الحملة الانتخابية ضد ماكين.

بعد ذلكِ تم إدخال كلينتون وأوباما فيما يعرف بمؤتمر بيلدربيرغ الذي أعلن تعاونه مستقبلاً في ظل وجود باراك أوباما في الرئاسة الأمريكية.

وقام العرش الملكي لإنكلترا والعضو في «بيلدربيرغ»، بتمويل أولى حملات أوباما الانتخابية، وفي الوقت ذاته، قام حلف شمال الأطلسي بتنظيم العلاقات الدولية العامة للرئيس المقبل للولايات المتحدة.

إن مؤتمر «بيلدربيرغ» ليس حكومة أو مجلسا أو حتى منظمة سياسية، حيث لا يوجد هيكل تنظيمي إداري له، لهذا أطلق عليه «المجموعة» أو «النادي»، ويضم هذا النادي، زعماء سياسيين ورأسماليين دوليين يجتمعون سريّاً في ربيع كل عام لوضع السياسات العالمية.

ويبلغ عدد المشاركين بالمؤتمر ما بين 150-120، منهم نواة صلبة حاضرة باستمرار سنوياً، وهم أعضاء عائلة روكفلر وعائلة روتشيلد ومدراء المصارف ورؤساء الشركات الدولية ومسؤولون رفيعو المستوى من أوروبا وأمريكا الشمالية.

يذكر أن المؤتمر الأول عقد بداية في أيار 1954، بالقرب من مدينة أرنهيم (في هولندا)، وشارك في الاجتماع الأول، 70 شخصية، أتت من 12 دولة أوروبية، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى فندق بيلدربيرغ، الذي عقد فيه الاجتماع الأول.

يقول موقع المجموعة، أن هدفها الرئيسي، هو تعزيز الحوار والمناقشات بين

أوروبا وأمريكا الشمالية خلال مؤتمر سنوي يعقد لمدة 3 أيام، إلا أن هذا التعريف هو محل شك عند كثيرين.

ففي جدول أعمال المؤتمر الأخير في 2015، تم تناول قضايا عالمية مثل إيران وروسيا والتجسس الصناعي، والأمن الإلكتروني وتهديد الأسلحة الكيميائية والانتخابات الأمريكية، الإرهاب، اليونان، المملكة المتحدة، الشرق الأوسط.

لا يستطيع أحد شق طريقه إلى اجتماعات «بيلدربيرغ» إلا بعد موافقة لجنة التسيير، التي تقرر من هم المدعوين، وهذه شروط اللجنة، كما توصل إليها الصحافي «دانيل ستولين»:

يجب على المدعوين أن يأتوا وحدهم، لا زوجات أو صديقات أو أصدقاء، ولا يمكن للمساعدين والحراس الشخصيين، أو CIA، أن تحضر المؤتمر، كما أن الضيوف لا يمكنهم الإدلاء بتصريحات أو إجراء حوارات مع الصحافة، أو الكشف عن أي شيء مما يجرى في الاجتماعات.

تقوم الحكومات المضيفة بتوفير الأمن العام ومنع دخول الغرباء، للحاضرين الذين يكون ثلثهم من الشخصيات السياسية، والباقي من قطاعات الصناعة والمال والأكاديمية والعمل والاتصالات.

نظرية ستولين وتاكر:

«حكومة واحدة للعالم»، بهذه الجملة يتلخص هدف مجموعة « بيلدربيرغ » عند الصحافي «دانيل ستولين»، الذي استمر في التحري عن هذ المجموعة طيلة 14 سنة، حتى وضع خلاصة بحثه في كتابه، «القصة الحقيقية لمجموعة «بيلدربيرغ»».

ويقول ستولين أن أهداف المجموعة تتلخص في حكومة واحدة وسوق واحد وجيش واحد للعالم، ممولين من قبل بنك مركزي عالمي يستخدم عملة موحدة عالمياً.

قائمة أهداف «بيلدربيرغ» بحسب ستولين

- تحديد هوية موحدة للعالم نابعة من قيم عالمية موحدة.
- سيطرة مركزية على سكان العالم من خلال ما يسمى بـ «السيطرة على العقول» أو بمعنى آخر، السيطرة على الرأي العام.
- نظام عالمي جديد لا يتضمن طبقة وسطى، بل عبارة عن أسياد وعبيد، لا وجود للديمقراطية، بسحب تعبيرات ستولين.
- تصنيع الأزمات والحروب.
- السيطرة المطلقة على برامج التعليم، والسيطرة على جميع السياسات العالمية والمحلية.
- جعل الناتو جيش عالمي.
- فرض نظام تشريعي عالمي.

رأي «ستولين» يوافق الصحافي المخضرم «جيم تاكر» المتوفي في 2013، والذي تتبع المجموعة لعقود، في كتابه «يوميات بيلدربيرغ «، وقال إن المجموعة عبارة عن منظمة مكونة من قادة سياسيين وممولين عالميين يجتمعون سراً كل سنة لوضع السياسة العالمية.

وهناك عدة منظمات تابعة لمجموعة «بيلدربيرغ» وفقاً الصحافي «دانيل ستولين» هي:

مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي

يعد مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، أحد المنظمات التي تهيمن عليها مجموعة «بيلدربيرغ» حيث يعد «إدوارد ماندل» كبير مستشاري « الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون، أحد مؤسسي المجلس، والذي يعد من مؤسسي نظام الاحتياطي الفدرالي أيضاً.

ووفقاً لستولين، فإن مجلس العلاقات الأمريكي كان يهدف إلى إنشاء حكومة عالمية واحدة على أساس نظام مالي عالمي، والأن يضم المجلس الآلاف من الشخصيات المؤثرة عالمياً.

اللجنة الثلاثية

هي مجموعة نقاش غير حكومية، غير حزبية، أسسها ديفيد روكفلر سنة 1973، لتعزيز التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة، وأوروبا، واليابان، وتتكون أعضائها من الفئات التالية:

- مرشحي الرئاسة الأمريكيين من كلا الحزبيين الجمهوري والديمقراطي.
- الأعضاء البارزين في مجلس الشيوخ والنواب الأمريكي.
- الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في الإعلام العالمي ورؤسائهم.
- مسؤولون رفيعو المستوى في NSA، FBI، CIA وقطاعات الدفاع والمؤسسات الحكومية والمسؤولين في قطاع التجارة والقضاء والمالية.

شركاء إعلاميين:

«مهمتنا ليس إعطاء الناس ما يريدوه، لكن إعطاءهم ما نقرره نحن» ريتشارد سالانت-رئيس شبكة «سي بي اس نيوز» السابق.

ووفقاً للمعلومات الواردة في كتاب ستولين، فإن رؤساء ومسؤولي أبرز القنوات التليفزيونية والراديو، والصحف والمجلات والكتب والأفلام، وكل ما نشاهده أو نسمعه يحضرون إلى اجتماعات «بيلدربيرغ «، وتملك عائلة روكفلر، أحد أعمدة المجموعة الرئيسية، عدد ضخم من وسائل الإعلام.

صناعة كلينتون وأوباما

يقول جيم تاكر، في إحدى مقالاته، نقلاً عن رئيسة الوزراء البريطانية مارغرت تاتشر، أن قرار إسقاطها والإتيان بشخص آخر من حزبها (جون ميجور) إلى جانب الإتيان ببيل كلنتون للرئاسة الأميركية، مرتبطان بمداولات اجتماع مجموعة بيلدربيرغ في بادن بألمانيا عام 1991.

المفكر الفرنسي «تييري ميسان»، يحاول الكشف عن السبب الحقيقي وراء تفضيل «بيلدربيرغ» لأوباما ودفعه للترشح للرئاسة، وقيام حلف شمال الأطلسي بتنظيم العلاقات الدولية العامة له، حيث يقول أن تاريخ عمل أوباما وعائلته دائما لوكالة المخابرات المركزية والبنتاغون، كان سبباً رئيسياً لدعم المجموعة له، وهذا وفقاً لما ذكره الكاتب «واين مادسن»، في كتابه «السيرة المخفية لأوباما: عائلة في خدمة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA».

4 - أنظر حوار للفيلسوف الفرنسي **جاك دريدا** أجرته صحيفة لوموند ديبلوماتيك في فيفري 2004 حول الإرهاب. تساءلت الصحفية «جيوفانا بارادوري» عن الإرهاب. فأحالها دريدا إلى الفيلسوف الألماني كارل شميدت وتقسيمه للحروب التي عرفها

التاريخ ثم سخر من تعبير « حرب ضد الإرهاب». وقال إن «حربا» تتناقض تماما مع «الإرهاب» لأن الإرهاب حرب من نوع آخر. وقال أن الحرب تجري بين دولتين أو جيشين. أما ما يحدث الآن فإن الدول تحارب مجموعات مدنية داخل الدولة نفسها. وقال أن ثمة تحولات جوهرية لا يأخذ بها جنرالات الحرب الكلاسيكية، لأن الإرهاب قد غير من معنى ميدان الحرب وفضاء الحرب ومعنى الحرب وأن هذا الإرهاب يوشك أن يصبح أداة السلطة بيد الأقوياء.

Jacques Derrida – entretien avec Giovana Borradori – le monde .diplomatique Fevrier 2004

*4 - الصحفي الأمريكي **سيمور هيرش** يعتقد أن أكاذيب كثيرة تحيط بالسياسة الأمريكية. ومن بينها ضربة نيويورك ومقتل بن لادن. وهو لا يستبعد أن يكون بن لادن موجود حيا في إحدى القواعد الأمريكية! أما الروائي يوسف زيدان والمتخصص في التاريخ الإسلامي فهو يعتقد أن بن لادن قد يكون قتل في العام 2008 وليس في العام 2011 وأن مسألة رميه في البحر لا معنى لها ورواية لا يمكن تصديقها.

5 - المصدر نفسه. دريدا هو الذي توقع أن يصبح إرهاب اليوم ذكرى جميلة بالنظر إلى شناعة المستقبل. كان ذلك عام 2004. وها نحن نشاهد ذلك على شاشات التلفزيون في دولة داعش.

6 - أنظر كتاب الرئيس نيكسون: Victoire Sans guerre – نصر بلا حرب
Ed : Stock – Paris 1984

توقع نيكسون النصر على الاتحاد السوفياتي. وقال أن عام 1985 سيكون عام بدء الانحدار. وفعلا فإن صعود غورباتشوف في العام 84 للسلطة كان بداية انحدار الاتحاد السوفياتي الذي أسلم الروح في العام 1991 في عهد الرئيس ريغان الذي خطب أمام غورباتشوف قرب جدار برلين حيث قال كلمته المشهورة: «دمر هذا السور.. أيها السيد غورباتشوف». كرر ذلك التعبير ثلاث مرات في حركة سينمائية فبدأ كما لو أنه مطرقة قد انهالت على ذلك الجدار!

7 - توماس هوبز: فيلسوف أنكليزي (1679-1588) متأثر بميكيافيللي – ديكارت وأفلاطون. كان فقيها في القانون. قام بتطوير الفكر الليبرالي حول الفرد والمساواة ثم نادى بالتمييز بين الدولة والمجتمع المدني. من كتبه القانون الطبيعي، الحقوق الطبيعية والقانونية، ولوياثان، وهو الأساس لفلسفة العقد الاجتماعي.

والتر نيامين: في العام 1940 ارتحل هذا المفكر الألماني. واجه النازية وكان ماركسيا. كتب الكثير في الأدب والتاريخ وعلم الجمال. قام بترجمات عديدة لبودليو وبروست. وانتحر على الحدود الإسبانية حين ألقى الألمان القبض عليه.

*7 - أنظر كتاب: إرهاب الدولة – النموذج الفرنسي–
سارج كادروباني – الدار العالمية للطباعة والنشر – بيروت 1990.

8 - أنظر كتاب: نابليون: أسطورة المنقذ
Napaleon: le mythe d'un sauveur
Jean Tulard – Fayard – Paris 1987

8* - أنظر كتاب: إرهاب الدولة - النموذج الفرنسي-
سارج كادروباني - الدار العالمية للطباعة والنشر - بيروت 1990.

9 - عقب ضربة نيويورك في سبتمبر 2001، خطب بوش الإبن أمام الكونغرس بتوتر شديد وحماس وقال: «إنهم يكرهوننا». وأعادها ثلاث مرات. وكان يقصد المسلمون. ثم أعلن الحرب على أفغانستان وقادة القاعدة وطالبان. والحقيقة أن عبارة - إنهم يكرهوننا - كانت تتكرر دائما في خطابات الذين يذهبون إلى الحرب. وقد نطق بها رجال الكنيسة إبان الإعلان عن الغزوات الصليبية في القرون الوسطى، لذلك فقد اتهم بوش بأنه قائد صليبي جديد.

10 - أنظر ما كتبه الصحفي الفرنسي «**آلان غريش**» في صحيفة لوموند ديبلوماتيك - أفريل 2015 - وهو المتخصص في العالم العربي منذ نحو 35 عاما. نتساءل: كيف يمكن أن ننتهي من هذا الإرهاب الغامض؟ واتهم الغرب بأنه يعتمد التضليل والخليط وعدم الصراحة لأنه يستفيد من توزيع الاتهامات وخلط الأوراق السياسية. وقال أيضا أن الغرب كثيرا ما تعاون مع المنظمات التي يصنفها على لائحة الإرهاب، لأنه سرعان ما ينسى الأخلاق حين يفكر في المصالح.

11 - **Global Terrorism Database** (G.T.D منظمة تحتوي على قاعدة المعطيات الشاملة للإرهاب، منذ العام 1970 وحتى العام 2014.

هذه القاعدة أعدها الكونسرتيوم القومي للدراسات الإرهابية في جامعة ماريلاند - وهي تقوم بنشر مؤشرات الإرهاب في العالم بالتعاون مع معهد الاقتصاد والسلام.

12 - **انيك رسموسان:** اعترف مدير المركز القومي لمقاومة الإرهاب في مداخلته أمام مجلس النواب أن أكثر من 20 ألف مقاتل من خارج سوريا يقاتلون في سوريا. وأن حوالي 3500 أجنبي من البلدان الغربية من بينهم 150 مقاتلا من أمريكا.

13 - **توم انجلرهارد:** كاتب وصحفي أمريكي قام مرارا بفضح الممارسات الأمريكية الشنيعة في العراق. وقد نشر مقالاته في النيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز. واشتهر بتحليلاته الذكية وتنبأ بفشل المارينز في العراق.

14 - **مانويل والس** هو وزير داخلية فرنسا. وينتمي هذا الإسباني الأصل إلى اليمين المتطرف. ويقود حاليا سياسة تصفية للمهاجرين. ويطمع إلى طرد أكثر من 500 ألف مهاجر حتى عام 2016.

وثمة من يتهمه بأنه ما انفك يحاول الاستفادة من عملية - شارلي هبدو - لفرض سياسته العنصرية. ويقال كذلك أن المخابرات الجزائرية مدته بمعلومات حول العملية قبل وقوعها لكنه لم يستجب لها.

15 - كتاب - عالم بلا إسلام - غراهام فوللر. A world whithout Islam. من الكتب الشهيرة التي صدرت في أمريكا عام 2010. مؤلفه نائب رئيس سابق للمجلس القومي في المخابرات الأمريكية. من كتبه الأخرى "مستقبل الإسلام السياسي". يعتبر من جيل المفكرين المستقبليين. وكتابه ينطلق من سؤال افتراضي: ماذا لو لم يوجد الإسلام؟ كيف سيكون العالم؟ إنه سؤال المعاناة والقلق الوجودي الكبير لدى الغرب!..

16 - البشرية ذاهبة نحو الجحيم إذا لم تنقذ نفسها من القيادة الأمريكية. صرخة فزع

أطلقها عالم اللسانيات اليساري نعوم تشومسكي الذي ما انفك يندد بالإرهاب الأمريكي فهو يعتقد جازما بأن أمريكا هي زعيمة الإرهاب في العالم.

أنظر كتاب لـ «نعوم تشومسكي»- القوة والإرهاب جذورهما في عمق الثقافة الأمريكية، ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي، دار الفكر، دمشق، 2003.

ويتناول كتاب المعارض الأمريكي والمدافع عن حقوق الإنسان "نعوم تشومسكي" السياسات الخارجية الأمريكية ونهجها الحربي ضد دول العالم واستخدامها القوة اللاشرعي ضد دول العالم تحت يافطة الدموقراطية وحقوق الإنسان، واستشهد بدراسات لعدد من المختصين وأشار إلى الطور الأول من "الحرب على الإرهاب" والذي أعلنه الرئيس الأمريكي ريغان، وجعلها المدخل السياسي والفكري ليشرعن الحروب في بؤرتين الأولى أمريكا الوسطى عبر استخدام القوة اللاشرعي للقوة وقد أدانت المحكمة الدولية أمريكا بخصوص الجرائم في نيكاراغوا، والثانية الشرق الأوسط في فلسطين ولبنان والعراق والحروب الإسرائيلية وجرائم الحرب التي ارتكبتها ولفت الانتباه إلى أن من يتزعم الحرب على الإرهاب حاليا ويقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية قد أدينت بالإرهاب منذ عقد الثمانينات واستخدمت الفيتو ضد قرار دولي لاحترام القانون الدولي. ورغم كل ذلك وما جرته من مجازر وجرائم إبادة للجنس البشري، تستمر الحرب على الإرهاب كما أطلقها بوش عام 2001 وخلفت احتلال دولتين العراق وأفغانستان .

* **نعوم تشومسكي:** عالم اللسانيات الشهير والمعارض الأمريكي العنيد والناشط في الدفاع عن حقوق الإنسان ندد بالحروب التي تقع لدوافع نفطية وفضح أبعادها المستترة بأقنعة الديمقراطية وحقوق الإنسان ونزع أسلحة الدمار الشامل،محللا نزعة السياسة الأمريكية نحو التفرد والتسلط والاستعلاء والسيطرة وإساءة استخدام القوة بتكثيفها وتركيزها وتسخيرها لخدمة المصالح الأنانية غير عابئة بالآخرين ومواجعهم ومعاناتهم وتوطين القيم وربطها بالمصلحة فلا يكون للعدالة والحرية والمساواة وسائر القيم الحق والخير قيمة إلا حين تخدم المصالح الأمريكية ولا يكون الظلم والعدوان وسفك الدماء البريئة مستهجنا إلا أذا ارتكبت في أمريكا أو كان موجها ضد مصالحها.

- كذلك أنظر كتاب: «الإرهاب الغربي» لروجيه غارودي

Le terrorisme occidental – Roger Garandy
Ed : Stock – Paris

حيث يتناول المفكر الفرنسي الأكثر جدلا جذور الإرهاب الثقافي والسياسي والإجتماعي بالعودة إلى 3 آلاف سنة مضت وصولاً إلى الحضارة الأمريكية الحديثة، التي تستخدم الآن مقولة «محاربة الإرهاب» لضرب كل أعداء الولايات المتحدة.

يبدأ الكتاب بمقدمة تتناول تداعيات أحداث (11) سبتمبر وموقف غارودي منها، ثم ينقل إلى توطئة تشكل سيرة صغيرة عن تاريخ تحولات غارودي الفكرية وأسبابها يقول: «نعم أصبحت مسلماً، دون أن أتنكر ليسوع أو إلى ماركس، على العكس فقد أردت أن أبقي على إخلاصي لهما».

17 - الكاتب الفرنسي **تيري مايسون** Thyri Maysson صاحب كتاب – L'effro able imposture – ed : la découverte 2002 «الكذبة المرعبة». نسب ضربة 11 سبتمبر إلى «لوبي صهيوني». وقد قدم أطروحته في كتاب تحقيقي مثير، اتهمت إسرائيل مباشرة بارتكاب هذه المجزرة لإيقاظ الكراهية لدى الأمريكان ضد العرب

والمسلمين. ولم يخلو تحقيقه من أدلة وأسئلة قد تثبت تورط جهاز الموساد. بعد ذلك تعالت أصوات كثيرة من داخل الصحافة الأمريكية متسائلة عن الحقيقة المدفونة مثل سيمون هيرش.

18 - **توم انجلرهارد:** كاتب وصحفي أمريكي قام مرارا بفضح الممارسات الأمريكية الشنيعة في العراق. وقد نشر مقالاته في النيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز. واشتهر بتخيلاته الذكية وتنبأ بفشل المارينز في العراق.

19 - **نعوم تشومسكي** في حوار مع الصحفي اندريه فالتشيك Andre Veltchek في كتاب صدر بالفرنسية في عام 2014 وبالأنكليزية في العام 2013. وهذه الحوارات قد أصبحت في فيلم على اليوتوب. استهل فالتشيك الكتاب بجملة وردت على لسان الروائي البريطاني الشهير جورج أورويل: «ثمة أناس لازالوا يعيشون خارج الولايات المتحدة وأوروبا وخارج بعض البلدان الآسيوية المحظوظة، كانوا لا يحسبون كذوات بشرية – تلك هي العين الإمبرياليةا!..

20 - فيلم **حدث ذات مرة في الغرب** Il était une fois dans l'ouest . فيلم للمخرج سارجيو ليوني – من نوع الويسترن. خرج لأول مرة عام 1968. وقد شكل رائعة سينمائية مع فيلم: الطيب – الجلف – والعنيف – مثل فيه شارلي برونسون وكلوديا كارديتالي وهنري فوندا.

21 - مصطلح حرب غير متماثلة استعمله الجنرال الأمريكي «ويسلي كلارك» Wesley Clark أثناء حرب كوسوفو في "التايم ماغازين". لكن كلارك لم يخف بأن صاحبه الحقيقي هو الإستراتيجي الصيني "صان تزو" الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد ورد في كتاب "فن الحرب". ويعني ذلك المصطلح الفرق بين حرب تخوضها دولة تملك أسلحة معينة ضد جماعة ليست بدولة تملك أسلحة أخرى نوعيا وكميا. وهي كذلك حرب تستعمل فيها الدعاية إلى أقصى حدود.. وإلى الآن لم يحرز الأمريكان أي نصر على مثل هذه الحرب غير المتماثلة والتي تضم حرب الأنصار أو الجماعات الإرهابية أو حرب المقاومة الشعبية..

- أنظر كذلك ما كتبه البروفسور "فرانسوا جيريه" مدير المعهد الدبلوماسي للدفاع، في سبتمبر 2015، بصحيفة لوموند دبلوماتيك. باحث في الشؤون الإستراتيجية. صاحب كتاب: قاموس التضليل الإعلامي.

22 - **الجنرال جياب** هو أحد قادة الثورة الفيتنامية. حارب الفرنسيين مع هوشي منه في "ديان بيان فو" في العام 1945 ثم حارب الأمريكان طيلة الستينات وانتصر عليهم. قال ذات مرة في الجزائر في السبعينات أنه تعلم الحرب الشعبية من الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي في حربه في الريف في العشرينات ثم تعلم من حرب التحرير الجزائرية في الخمسينات.

23 - **عبد الكريم الخطابي:** ولد زعيم حرب الريف المغربي ومؤسس أول جمهورية في العالم العربي عام 1882. وتوفي في القاهرة عام 1963. وكان أول رجال حرب العصابات في العالم فأحرز انتصارات على الجيوش الفرنسية والإسبانية. ثم نفي في الرينيون بإفريقيا. بعدها هرب إلى مصر بمساعدة الملك فاروق. وقد تأثر الأمريكيون

اللاتينيون والفيتناميون بأساليبه العسكرية. كتبت عنه كتب كثيرة. وحاز على إعجاب في العالم كله. وكانت جمهوريته (1926-21) مثالا للتسيير الذاتي. احتضنته الثورة المصرية وأصبح زعيم كل حركات تحرر المغرب العربي. وهو الذي قام بتقديم بن بلة إلى عبد الناصر. توفي في القاهرة في العام 63 ولم ينقل جثمانه إلى المغرب إلا في أواخر التسعينات في عهد رئيس الحكومة اليساري عبد الرحمن اليوسفي.

24 - بحسب الإستراتيجيين الأمريكان لم تكن حرب اليمن أبدا ضرورية. وكان يمكن للسعودية أن تعالج الخلاف اليمني أو التمرد الحوثي بأساليب أخرى. فهي تعرف اليمنيين جيدا. وتعرف أن الحرب لا تنتهي بمجرد إعلان وقف النار. بل كان من الممكن أن تحارب الجوع والفقر، وتستطيع أن تتفوق على إيران بهذه الطريقة. ويبدو أن الحرب ضد اليمن حتى وإن انتهت لصالح الرياض بحساب الميزان العسكري، فإنها أبدا لن تكون لصالحها بالحسابات السياسية. اليمن منطقة معقدة والملك المؤسس عبد العزيز أوصى أبناءه بعدم الدخول في أي حرب ضد اليمن. ولكن ها هو آخر أبناءه الملك (سلمان) يخترق وصيته. وماذا بعد أن تقف الحرب؟: نظام قبائل وميليشيات. تقسيم بين شمال وجنوب، أو حرب عصابات طويلة المدى.. ثم تمدد لما يعرف بالدولة الإسلامية (داعش). لا ننسى أن اليمن هو جنوب مكة والمدينة.

25 - بعد سقوط جدار برلين اقترح كسينجر في مقال في «الفورن أفيرز» في العام 1991، الإبقاء على تقسيم ألمانيا بين شرق وغرب وإن أمكن تقسيم غربها إلى شمال وجنوب لتبقى أوروبا في أمان. فكسينجر الألماني الأصل لم يكن يثق أبدا في الألمان ويعتقد بأنهم سيسيطرون على أوروبا ثم يدخلون في صدام حتى مع الولايات المتحدة.. هل هي قناعة جيوسياسية أو قناعة سيكولوجية مرضية تجاه ألمانيا نابعة من تاريخ أليم لليهود. وكان من بينهم!..

26 - أنظر مقال للصافي سعيد في مجلة - جان أفريك - بالعربية - 2004 (العراق المفتت) وكذلك مقال في مجلة أفريكانا - العراق كفائض قيمة! 2005..

27 - **لودفينغ كاجس:** فيلسوف ألماني - متخصص في اللغة والمنطق وعلم الإجتماع. كان ضد تكديس السكان في بقاع مكتظة. وقد تحققت نبوءته سواء عند الزلازل أو عند قصف الطيران..

28 - أنظر التقرير الذي أعده البروفسور تريستيان روتيه، (فرنسي) Tristan Routier. باحث في فريق البحث والإعلام حول السلام والأمن - بروكسيل GRIP، تحت عنوان: من أجل فهم أفضل للصراعات الدولية - محاولة لتوقع الوقاية. تحدث هذا التقرير الذي وقع استحداثه عام 2013 عن جميع الصراعات التي قد تتحول إلى بؤر إرهابية. وقال أن الغرب لا يملك خرائط هذه البؤر وهو يتفاجئ بانفجارها وحين يسرع إليها يجد نفسه متورطا فيها.. وهذا يعني أن الغرب لا يملك إستراتيجية الوقاية أو الأمن المبكر.

- أنظر كذلك موقع وزارة الدفاع الفرنسية للإطلاع على ما يعرف بالكتاب الأخضر للدفاع. وهو عبارة عن تحالف بين الإيكولوجيين والكاكي (العسكر)

أنظر كذلك كتاب: في قلب الأجهزة السرية.

Au Cœur des services spéciaux:
la menace Islamiste: fausses pistes et vrais dangers

Alain Chouet

Ed : la découverte - 2013

«**آلان شويه**» كان مسؤولا في جهاز الأمن الخارجي الفرنسي

أنظر كذلك: الدستور الأردنية - نوفمبر 2014. وما نشرته عن القوائم السبع للإرهاب:

«من يتابع قوائم الإرهاب العالمية التي تصدرها القوي الرئيسية التي تعتمد مفهوم الإرهاب وفق هواها السياسي، سيجد أن هناك سبع قوائم دولية تتبع خارجية سبع دول، وهي علي الترتيب «الولايات المتحدة الأمريكية- انجلترا- الاتحاد الأوروبي- كندا- روسيا- استراليا- الهند»، تضم 135 جماعة وتنظيم وعصابة مسلحة في جميع قارات العالم، بها ما يقرب من 1.8 مليون عضو رسمي، بينهم 650 ألف إخواني حول العالم أي 36% من حجم أعضاء التنظيمات الإرهابية في العالم.

الغريب أن قوائم الإرهاب السبع أكدت علي أن الدول الحاضنة أو التي يوجد بها تنظيمات إرهابية يصل عددها إلى 43 دولة، تنتشر في القارات الخمس، تأتي علي رأسها القارة الأسيوية برصيد 18 دولة والتي كشفت القوائم عن وجود 75 جماعة إرهابية بنسبة 55.5%، يليها القارة الأوروبية برصيد 8 دول تضم 30 جماعة مسلحة وتنظيم إرهابي بنسبة 22.2%، ثم القارة الإفريقية برصيد 8 دول تضم 14 تنظيم وجماعة إرهابية بنسبة 10.3%، والقارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية بنفس الرصيد دولتين وتضم نفس العدد من الجماعات الإرهابية برصيد 4 جماعات مسلحة بنسبة 2.9%، وأخيرا تنظيمات عالمية ليس لها وطن وتنتشر في 5 دول وتضم 8 تنظيمات بنسبة 6.2%.

دول الإرهاب

أما عن الدول الـ 43 التي كشفت عنهم قوائم الإرهاب السبع، فجاءت الهند علي رأس تلك الدول برصيد 22 تنظيم وجماعة مسلحة، تلتها ايرلندا برصيد 12 تنظيم مسلح، ثم الباكستان برصيد 11 جماعة، وفلسطين بنفس الرصيد 11 جماعة مسلحة، وأفغانستان 6 جماعات إرهابية، وتركيا 5 جماعات و4 جماعات إرهابية لكل من مصر ولبنان، و3 جماعات وتنظيم مسلح لكل من الفلبين والصومال وروسيا وكولومبيا واليونان وأمريكا، بالإضافة للعالم العربي الذي يضم 3 تنظيمات ليس لها وطن أو جنسية محددة، وجماعتين إرهابيتين لكل من سوريا والعراق والجزائر وأوزباكستان وإيران والكويت، بالاضافة الي جنوب شرق اسيا التي تضم جماعتين إرهابيتين غير محددة الجنسية.

كما أظهرت القوائم السبع للإرهاب 10 كيانات تضم حدودها جماعة ارهابية واحدة، وهي علي الترتيب، جنوب إفريقيا والمملكة العربية السعودية واليابان وإسبانيا واليمن وإسرائيل الذي يحتل المركز 31 علي العالم ارتكابا للإرهاب، وسريلانكا وليبيا والصين والمغرب وانجلترا وبيرو وألمانيا وكندا واوغندة ونيجيريا وبنجلاديش، بالإضافة إلى العالم الإسلامي الذي يضم تنظيما إرهابيا ليس له جنسية محدد جنسيته ممثلا في تنظيم جماعة ساعية لإعادة الخلافة الإسلامية، ووسط القوقاز الذي يضم تنظيم هدفه إعادة دولة القوقاز الذي قضي علية الجنس السلافي أثناء إنشاء إمبراطورية الاتحاد السوفيتي، والمغرب العربي الذي يضم تنظيما يهدف إلي إعادة دولة الأمازيغ من جديد.

قوميات الإرهاب

الغريب كذلك أن قوائم الجماعات الإرهابية كشفت عن وجود 14 قومية تتسم أفعالها وسولكياتها بالإرهاب وممارسة العنف، كان أكثر تلك القوميات إرهابا هو

الجنس التتري أو الماغولي والذي يضم 39 تنظيما وجماعة إرهابية عدوانية بنسبة 28.3 %، تنتمي اغلبها للجنس الهندي والبنغالي والسيلاني، وجاء في المركز الثاني الجنس العربي برصيد 38 جماعة إرهابية بنسبة 27.5 %، ثم في المركز الثالث الجنس السكسوني برصيد 17 جماعة مسلحة بنسبة 12.3%، والجنس القوطي برصيد 9 جماعات بنسبة 6.5 %، وستة جماعات لكل من الجنس السلافي والأفغاني بنسبة 4.3 %، والجنس التركي برصيد 5 جماعات إرهابية بنسبة 3.6 %، و4 جماعات مسلحة لكل من الجنس الأصفر واللاتيني بنسبة 2.9 %، و3 جماعات لكل من الجنس الإفريقي والقوقازي بنسبة 2.2 %، والجنس الفارسي برصيد جماعتين إرهابيتين بنسبة 1.4 %، وأخيرا الجنس اليهودي تم تسجيل جماعة واحدة بنسبة 0.7 %.

الدين والإرهاب

وعند الحديث عن ارتباط الدين بالأفكار المتشددة والمتطرفة التي لها علاقة بالأديان كشفت القوائم السبعة عن ارتباط الأديان السماوية بحوالي 85.1% بالجماعات المتطرفة والمليشيات المسلحة بواقع 115 تنظيم، في حين حصلت الديانات غير السماوية علي 14.9% من التنظيمات الإرهابية بواقع 20 منظمة ومليشيا مسلحة ضد الإنسانية، يكونون ستة أديان وإن كان أغلب الجماعات والمليشيات الإرهابية لا ينتمي للدين بشكل فقهي.

وقد إحتلت الديانة الإسلامية المركز الأول بانتماء 77 جماعة وتنظيم إرهابي متطرف بنسبة 57% من التنظيمات، في حين جاء الدين المسيحي في المركز الثاني 27.4% برصيد 37 تنظيم ومليشيات مسلحة، وفي المركز الثالث جاءت الديانة الهندوسية بنسبة 8.9% من التنظيمات برصيد 12 منظمة إرهابية، ثم الديانة البوذية بنسبة 4.4% برصيد 6 تنظيمات، والديانة السيخية بنسبة 1.6% برصيد تنظيمين إرهابيين، وأخيرا الديانة اليهودية بنسبة 0.7% بمنظمة واحدة.

إختلاف قوائم

الملاحظ أن القوائم السبع للشئون الخارجية للدول العظمي أظهرت عددا ضخما من التضارب والاختلافات، مما يؤكد على أن الاعتراف بالتنظيمات والمليشيات والجماعات الإرهابية يأتي دائما حسب الأهواء، خاصة وان كل القوائم لم تتفق علي تنظيم إرهابي واحد إلا مرتين فقط، وهم تنظيم القاعدة في أفغانستان، وعسكر طيبة الباكستاني.

أما عن القوائم نفسها فنجد أن القائمة البريطانية جاءت في المركز الأول باعترافها بـ58 تنظيم إرهابي بنسبة 43% في حين جاءت القائمة الأمريكية بالاعتراف بـ51 تنظيم إرهابي بنسبة 36.3%، ثم قائمة الاتحاد الأوروبي برصيد 49 جماعة إرهابية بنسبة 36.3% ، ثم القائمة الكندية برصيد 37 تنظيم مسلح بنسبة 27.4%، ثم القائمة الهندية برصيد 31 جماعة إرهابية بنسبة 23% ، ثم القائمة الروسية برصيد 19 تنظيم إرهابي بنسبة 14.1% ، وأخيرا في المركز السابع القائمة الاسترالية باعترافها بـ18 تنظيم وجماعة مسلحة متطرفة بنسبة 13.3% من القوائم».

القائمة البريطانية ارتكبت نفس الفعل الأمريكي بتجاهلها ضم التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين، رغم اعترافها بـ37 جماعة مسلحة إسلامية من بين 57 جماعة حول العالم بنسبة 65 %، بينهم جماعة بنك التقوى الإخواني كنوع من الجميل للإدارة الأمريكية، حتى تعترف بـ14 تنظيم مسلح ايرلندي يؤرقون الدولة الانجليزية.

الاتحاد الأوروبي سار علي نهج القائمتين الأمريكية والبريطانية وقام بالاعتراف بجماعة «بنك التقوي» الإخواني ولم يوافق علي الاعتراف بالتنظيم الدولي للإخوان المسلمين رغم اعترافها بالمساهمة في بناء تنظيم القاعدة الأفغاني، فالقائمة الأوروبية ضمت 18 جماعة إرهابية مسلحة تنتمي للإسلاميين، كما أنها تضم 25 تنظيم إرهابي ينتمي للجماعات المتطرفة المسيحية، بالإضافة إلى تنظيمين لكل من البوذيين والسيخ، وأخيرا تنظيم لليهوديين.

كانت القائمة الروسية هي القائمة الوحيدة التي لم تعترف بجماعة «بنك التقوى» الإخواني بجزيرة الباهاما الأمريكية، ورغم ذلك اعترفت بالجماعة الأم في مصر، حيث اعلنت الخارجية الروسية في 28 يوليو 2006 بجماعة الإخوان المسلمين جماعة إرهابية وفق المعايير التي تطبقها، ورغم أن القائمة الروسية قصيرة لا تتعدي 19 منظمة إرهابية إلا أن اللافت للنظر أن جميع تلك المنظمات تنتمي للجماعات الإسلامية في 11 دولة مختلفة، اغلبها الدول المحيطة بحدودها، وعلى الأخص في الشيشان وأفغانستان والباكستان ودول القوقاز في أوزباكستان.

29 - أنظر ما كتبه **لويس مارتيناز Louis Martinez** - كاتب من أصل إسباني متخصص في المغرب الغربي. باحث في CERI. ولد في وهران عام 1933 وأستاذ محاضر في الولايات المتحدة. - الحرب الأهلية في الجزائر-

La guerre civile en Algérie

Edition Kartala – 1998

من كتبه: La violence de la rente pétrolière (Algérie-Lybie et Irak) 2012

Maghreb : vaincre la peur de la démocratie – 2009

30 - الشاذلي بن جديد: هو الرئيس الثالث للجزائر الذي خلف بومدين في العام 1979. بعد الانتخابات التي نجحت فيها جبهة الإنقاذ الإسلامية في العام 89 أرغم على الإستقالة من قبل الجيش. ذهب إلى التقاعد وتوفي في العام 2014.

31 - الرئيس **محمد بوضياف:** اغتيل في عنابة أثناء خطاب حين داهمه أحد رجال الأمن من الخلف وأفرغ في رأسه رصاصات عديدة. تولى الرئاسة حين دخلت الجزائر في اضطرابات. وكان يعيش في المنفى (المغرب) منذ استقلال الجزائر. يعتبر أحد رجال الثورة الجزائرية الستة. كان اشتراكي النزعة وقويا وشفافا. وحين بدأ يقوم بحملة تطهير لمؤسسات الدولة وقع اغتياله. ويقال أن جهاز الأمن هو الذي قام بذلك.

32 - حروب البوير. أولى وثانية قامتا بين بريطانيا وجمهوريتي البوير المستقلتين: الولاية البرتغالية الحرة وجنوب إفريقيا. الأولى من 1880 إلى 1881 والثانية من 1899 إلى 1902. انتهت لصالح بريطانيا ولكن بخسائر فادحة مع وعد بحكم ذاتي. استعمل شعب البوير حرب الشعب أو حرب الأنصار.

33 - اتفاقية ويستفالي Westphalie. هي معاهدة صلح وقعت في ويستفالي عام 1648 وقد أنهت حرب الثلاثين سنة في الإمبراطورية الرومانية (معظم أراضي ألمانيا اليوم) وكذلك حرب الثمانين عاما بين إسبانيا وهولندا. وقد وقعها مندوبون عن هابسبورغ وفرنسا وإسبانيا والسويد وهولندا. يعتبر هذا الصلح أول معاهدة سياسية دبلوماسية بعد أن أرست نظاما جديدا في أوروبا الحديثة على أساس سيادة الدول.

يمكن النظر إليها بمثابة النظام الأوروبي الجديد والذي لايزال معمولا به حتى الآن من حيث قيمته الدستورية والسيادية.

34 - أودريه كيرث كرونين: مديرة برنامج الأمن الدولي في جامعة جورج ماسون. تعترف بأن إستراتيجية كفاح الإرهاب هي المشكلة. تقول أيضا أن طائرات بلا طيار بطيئة وتصدر ضجيجا ويسهل إسقاطها. وفي كتاباتها بـ«الفورين أفيرز» تعترف بأن داعش ليست تنظيما يسهل إختراقه أو التغلب عليه لأنه متشعب ويعيش في حاضنة كبيرة.

35 - أنظر محاضرات المدير السابق لأجهزة الإستعلامات ومديرية الأمن الخارجي. آلان شويه Alain Chouet . آخر هذه المحاضرات: سوريا، أرض المتناقضات، ألقاها في فريبورغ في جنيف، سبتمبر 2015. أنظر كذلك الحوار الذي أجراه معه كل من سعيد برانين وأيان هامل. وقد نشر على موقعهما في سبتمبر 2014. (موقع أمة oumma).

36 - داعش لا تنفع معها إستراتيجيات مكافحة الإرهاب، التقليدية. (المصدر نفسه)

37 - أنظر المصدر نفسه.

38 - نفس المصدر.

39 - أنظر ما كتبته «دير شبيغل» الألمانية. وما نشرته كذلك على موقع Noon post حول قادة تنظيم داعش وحول نشأة هذا التنظيم وتوسعه. وقد نشرت وثائق تكشف بنية التنظيم الهرمية قالت أنها حصلت عليها في سوريا وبالذات في مدينة الرقة.

40 - بول بريمر، هو القائد العام الذي عينه جورج بوش على العراق في العام 2003. أشرف على تفكيك الجيش العراقي واجتثاث حزب البعث وإعدام الرئيس صدام حسين. ثم أعلن ندمه على مثل تلك السياسة في كتاب مذكراته (عام قضيته في العراق) ترجمه عمر الأيوبي ونشر عن دار الكتاب العربي - بيروت - كما اعترف بأنه لم يجد أية شخصية وطنية أمينة ونزيهة تحكم عراق ما بعد صدام. كان يعمل مديرا لمكتب كسينجر في زمن نيكسون.

41 - ساءت العلاقة بين القاعدة وداعش بسرعة. والحقيقة أن أيمن الظواهري لم يكن يبدي ارتياحه حتى للزرقاوي أمير قاعدة الرافدين. وحاول الظواهري أن يتوسط بين القاعدة والنصرة في سوريا لكنه لم ينجح. وحين أعلن البغدادي عن تنظيم الدولة الإسلامية، بدا الظواهري وكأنه تخلف عن المجد. فهو لم يتمكن من الانتقال إلى العراق. وظل مختبئا. ويمكن كذلك أن يكون داعش قد رفض قدومه للعراق أو سوريا.

42 - يشبه تنظيم داعش، التنظيم الأول الذي قام بتأسيسه أبو عبد الله المهدي في أوائل القرن العاشر حين فكر في إنشاء الدولة الفاطمية. انتهز أبو عبد الله المهدي الذي قدم من العراق إلى تونس، وجود الصليبيين في المشرق، فأسس الدولة الفاطمية في المهدية ثم انتقل إلى مصر ليؤسس الخلافة الفاطمية وعاصمتها القاهرة. ثم راح يستحوذ على بلاد الشام حتى العراق.. وكانت تلك آخر الخلافات الإسلامية التي أقيمت في بلاد العرب. فبعدها تفكك العالم العربي وانتقلت الخلافة إلى إسطمبول..

43 - فاجأ أمير قطر العالم بنقل السلطة إلى ابنه تميم في العام 2014. ولكن العارفين يقولون أن ذلك تم تحت تهديد السعودية التي أوشكت على غزو قطر

وأخبرت بذلك أمريكا.

أنظر الكتاب الأخير حول قطر الذي كتبه الفرنسيان: نيكولا بو وجاك ماري بورجيه (قطر هذا الصديق الذي يريد بنا شرا)

Qatar : cet ami qui nous veut

Nicolas Beau et Jacques Marie Bourget

Ed : Fayard.

- أنظر كذلك - الحرب الباردة السعودية القطرية - بقلم جيران بن نيتشه. وهو إسم مستعار لكاتب سعودي مثير للجدل. وقد أقلق الأمراء السعوديين برسائله الساخرة. أنظر موقعه «الساخر». ويعتقد أنه قام بتركيب إسمه من جبران خليل جبران وفريدريك نيتشه..

أنظر كذلك كتاب Qatar : les secrets du coffre fort

قطر: أسرار الخزينة - تأليف شيسنوت ومالبرونوت - باريس 2105.

44 - مقرن بن عبد العزيز ازيح عن ولاية العهد بقرار من أبناء السديرية (إخوته من الأب) لأن أمه من أصل يمني.. وقد اختاره وليا للعهد، الملك عبد الله لأن أم هذا الأخير، كانت شمّرية.. سلمان يمثل عودة وهيمنة لأبناء وأحفاد عبد العزيز من الزوجة السديرية (التحالف الثلاثي: آل سعود آل الشيخ والسديريون).



الفصل الثالث

الجغرافيا المتصدعة

خطوط الهوية والنفط والدم!



الجغرافيا المتصدعة

خطوط الهوية والنفط والدم!

«إما أن ينفجر الماء أو يتفجر الدم.. هذا في السرد الإبراهيمي الأول.
في السرد الإبراهيمي الثاني: فإما أن ينفجر النفط أو ينفجر الدم».
الآن، لقد انفجر النفط وتفجر معه الدم.

المؤلف: **الصافي سعيد**

بعد سقوط مدينة «الرقة» تحت ضربات تنظيم الدولة «داعش»، جاء سقوط «الموصل» في العراق مدويا. وهنا بدأ محللو الإستراتيجيات يفركون عيونهم. أما حين أعلن عن سقوط «تدمر» في أفريل 2015، فقد أعلنت مراكز الدراسات حالة الطوارئ. وها هو تيري ميسان[1*] يقول: «أن سقوط تدمر سيقلب معادلة الجيوبولتيك في الشرق كله». فالدولة الإسلامية بإخضاعها الرقة، دير الزور والموصل وتدمر، تصبح متحكمة فيما كان يسمّى بطريق الحرير القديم والذي هو طريق الغاز في المستقبل. فمن الصين عبر إيران فسوريا إلى المتوسط، لا توجد إلا طريقين أمام عبور السلع والغاز (ذهابا وإيابا). فإما أن تكون الطريق عبر دير الزور فالرقة فحلب أو عبر تدمر نحو دمشق. لقد تم قطع الطريق الأولي منذ نهاية 2013. أما الثانية فقد تم قطعها في العام 2015. اتجه الخوف كله نحو تدمير آثار تدمر وتخريب معالمها الثقافية والحضارية. ومع ذلك فإن قلة من الصحفيين وناقلي الأخبار كانوا على دراية بتاريخ تدمر وإشعاعها ورمزيتها التاريخية..

لقد كانت تدمر رمزا لانتفاضة الشرق العربي على روما (الغرب). وكانت ملكتها الشابة والأرملة الفاتنة زنوبيا تشبه إلى حدّ ما كليوباترا في الإسكندرية. ولكن فيما

كانت كليوباترا تصارع الرومان بكل الوسائل بما في ذلك الزواج*[2] للحفاظ على مملكة أبيها وابنها ذات الأصول الإغريقية، كانت زنوبيا تحارب الرومان باسم الصحراء العربية. ولطالما ظلت «تدمر» محطة لتجار الشام والجزيرة العربية ذهابا وإيابا حتى بعد دمارها، ذلك أن الجغرافيا وضعتها دائما في خدمة التاريخ. فالرسول نفسه قد عبرها واتخذها محطة وهو ذاهب إلى دمشق أو عائد إلى مكة في سنوات شبابه.

حين هجمت شعوب الشمال على روما خلال القرن الثالث ميلادي، بدأ الضعف يدب في أوصال الإمبراطورية الرومانية من ناحية جناحها الشرقي.. وفي «تدمر» بوابة الصحراء ومفتاح التجارة والقوافل، استغلت الملكة زنوبيا تلك اللحظة فتمردت على الحكم المركزي فنصبت ابنها ملكا - إمبراطورا وأعلنت نفسها وصية على العرش إلى أن يكبر ابنها ويصبح راشدا.. وفي خلال سنوات قليلة تمكنت زنوبيا وقد استحوذت على طرق التجارة الإقليمية والدولية (طريق الحرير والتوابل) أن تجهز جيوشا لتحرير مصر وفلسطين وما يعرف حاليا بالأردن ولبنان ثم العراق وإيران وجزء كبير من شمال تركيا حاليا.. كانت «تدمر» عاصمة تلك الإمبراطورية التي تمتد من جنوب المتوسط إلى الرقة حتى إيران منفتحة على التجارة والحريات الدينية والاختلاط العرقي.. ولكن مثلما عرفت مملكة تدمر صعودا مذهلا وسريعا، فقد تم استرجاعها ثم تدميرها بشكل سريع ومذهل. فقد بنى الإمبراطور الروماني الجديد «أورليان» بعدما قام بانقلاب في روما، تحالفا كبيرا وواسعا لإعادة توحيد الغرب.. وبعد ذلك أخضع الناس لعبادة الشمس، وأعلن نفسه: «إله الشمس التي لا تغيب».. إن تاريخ تدمر لا يبخل علينا بالرموز. فهي نقطة الانطلاق الأولى لمقاومة الشرق ضد الغرب. ونقطة الصراع الجيوستراتيجي بين إمبرياليات الغرب وشعوب الشرق.

ستنعم روما لمدة قرن ونيف بسلام إضافي في بلاد الشرق العربي. ولكن الانتفاضات والإحساس بالغبن لدى أمراء الأقاليم البعيدة عن روما زائد مواسم الجفاف المستمرة وتزايد قطاع الطرق في الصحراء، وغضب السكان ونمو هوياتهم المختلفة سيضع بيزنطة الرومانية من جديد في مواجهة مولد أمة جديدة قادمة من الصحراء العربية باسم ديانة جديدة ستتخذ من دمشق مركز حكمها ونقطة انطلاق انتشارها في العالم.

*** *** ***

بعد سقوط تدمر في سوريا تحت قبضة داعش.. جاء الإعلان عن سقوط «سيرت» في ليبيا. إن أهمية سيرت الجيوستراتيجية تعد تحديا كبيرا لتنظيم الدولة الإسلامية ضد الغرب. فهي أهم خليج على جنوب المتوسط. وهي تفتح باتجاه الصحراء حتى تشاد شمال نيجيريا. ثم إنها تتحكم في اتجاهات ليبيا من ناحية الشرق والغرب

والجنوب. وإذ اختارها سابقا القذافي كعاصمة سياسية، فلأنه كان يدرك أهميتها بالنسبة لأوروبا وإفريقيا لا لأنه كان ينحدر منها كما يقال. فسيرت التي ظل خليجها مطلبا لأمريكا منذ قرنين ونيف، لم تصبح ليبية أرضا وسلاحا إلا في عهد القذافي بعد معارك طويلة مع الأمريكان (1981 حتى 1986). وحين تبسط داعش هيمنتها اليوم على سيرت، فلأنها تريد أن تمدّ أذرعها إلى داخل الصحراء باتجاه إفريقيا الغربية (دول الساحل والصحراء) وإفريقيا الشمالية (بلدان المغرب العربي). إن سقوط سيرت ربما كان أكثر إثارة بالنسبة للغرب وكذلك بالنسبة لإفريقيا والعرب غير أن كثيرا ما تلغي سرعة الأحداث وتواترها النظرة الثاقبة لدى السياسيين. فهي تضم قبائل عربية كثيرة وتتصاهر مع قبائل أخرى على الساحل وفي الجنوب وتحتوي على موانئ النفط، وعلى أكثر الموانئ أهمية في شمال إفريقيا بالنسبة للتجارة مع دول إفريقيا المغلقة. إننا لا نعرف من يقود داعش في ليبيا، ولكن وجودها المتنامي بات معطى سياسيا ومكونا من مكونات الساحة الليبية. وإذ يبايع جماعاتها الخليفة البغدادي، فلأن كثيرا من عناصرها وقياداتها كانت قد تدربت وقاتلت في سوريا والعراق. فخلال العام 2012 و2013، كانت ليبيا هي المصدر الأول للمقاتلين إلى سوريا ونقطة تجمع كبير لمقاتلي ليبيا وتونس والجزائر وحتى المغرب والسودان وتشاد. ومن هناك كانوا يرسلون بالطائرات وعن طريق البحر إلى تركيا ثم يعبرون باتجاه سوريا.. وهؤلاء إذا كانوا يدينون في البداية للجماعة الليبية المقاتلة بالولاء أو حتى لتنظيمات متطرفة أخرى، فإنهم الآن يدينون للخليفة البغدادي بالطاعة والولاء.

لم يكن هؤلاء الذين أخذوا طريق الشام والعراق، بلا سند أو بلا دعم دولي. بل كانوا يتحركون بدعم وسند قطري وسوداني وتركي. ويستطيع عبد الحكيم بلحاج أن يتنكر الآن لهؤلاء الذين كانوا يتحركون تحت عيونه، ولكن هم أيضا لا يسعهم إلا أن يتنكروا له. فقد اشتد بأسهم وأصبح لهم مشروعا كبيرا وزعيما آخر هو خليفة الدولة الإسلامية. وكما كانت «القاعدة» هي الحضن الأول لولادة داعش في العراق والشام، فإن «القاعدة في المغرب الإسلامي» ومعها فصيل من «الجماعة الليبية المقاتلة» قد تكون هي الحضن الأول لميلاد «داعش» في شمال إفريقيا*[3].

طبيعي جدا أن تصبح ليبيا أرضا لكل أنواع الإسلام السياسي. من الإسلام الديمقراطي المعتدل إلى الإخواني إلى جماعات القاعدة وأخيرا تنظيم الدولة الإسلامية. فما فعلته أمريكا في العراق حين دمرت البلاد وحلت الجيش وأقصت حزب البعث وغلبت طائفة على أخرى، كرره حلف الأطلسي بقيادة أمريكا في ليبيا: دمروا بلادا بحجم العراق أكثر من ثلاث مرات. وقضوا على جيشها ومؤسساتها

وزعيمها.. ثم ابتعدوا قليلا ليراقبوا ما سوف تنتجه «الفوضى». تداخلت لعبة الدم بين المناطق والأحزاب والقبائل والمليشيات مع الدول الإقليمية والدول الكبيرة ولم يستطع مشروع الاجتثاث الكبير أن يضع مشروعا بديلا للدولة الليبية. كما لم تستطع «الديمقراطية الملونة» أن تضع قدميها على أرض ليبيا، فازداد الناس يقينا أن الغرب جاء لتدمير بلادهم ويستحوذ على ثرواتهم. هاجر أكثر من مليون ليبي هربا من البطش والاستبداد. وراحت الميلشيات تحكم بقوانين الغاب، فتكونت وجاهات جديدة: وزعامات حرب وتهريب جديدة وكذلك ولاءات قبلية وإقليمية جديدة. وهكذا فإن -الفوضى الليبية - كانت جذابة لكل الجهاديين والمقاتلين وحتى المتسولين الدوليين وجميع أنواع المخابرات واليرابيع. فالبلاد التي لم تستطع مخابرات العالم كله أن تغزوها لمدة 40 عاما من حكم القذافي قد أضحت أكبر حوض لجميع مخابرات العالم!

فتحت المخابرات بالتعاون مع بعض الجماعات الإسلامية ليبيا كباب لعبور المجاهدين والمقاتلين إلى سوريا.. وقد كانت أول شحنات السلاح التي تدخل سوريا قد قدمت من ليبيا بالتعاون مع تركيا وقطر. وقد استخدمت زوارق وطائرات حتى من السودان لنقل تلك الأسلحة المستخرجة من مخازن القذافي.. أما المقاتلون فهم من ليبيا وتونس خصيصا. وكذلك من الجزائر. كانت درنة باعتبارها مقرا للجماعات المتطرفة تقليديا هي غرفة العمليات والقرارات. وقد استفادت من موقعها الجغرافي جيدا، كذلك من أبنائها ذوي الخبرة القتالية في أفغانستان ثم من حراك المنطقة الشرقية، لكي تلعب ذلك الدور بامتياز.. وبذلك احتل مقاتلو المغرب العربي موقعا متقدما على جبهات القتال في سوريا. لم يكن أغلب هؤلاء متعصبين دينيا ولا يدعون إلى دولة الخلافة، ولا حتى هم من جند الله أو من مقاتلي «القاعدة».. كانوا فقط، إما محتاجون للمال أو غاضبون من بلدانهم أو متحمسون للإطاحة بنظام بشار الأسد أو مؤمنون بثورات الربيع العربي. ولا شك أن قلة منهم كانوا على إيمان راسخ بأنهم مجاهدون في سبيل الله دفاعا عن الإسلام والسنة في سوريا والعراق.. آنذاك أصبحت لكل من قطر وتركيا وكذلك السعودية اليد الطولى على توجيه هؤلاء المقاتلين وإرسالهم إلى الجبهات التي يدعمونها للإطاحة بالأسد.. وبما أن طريق العودة قد أصبح صعبا بالنسبة للكثيرين، فقد باتوا أكثر شراسة في القتال. وبما أن التحالفات الميدانية تتغير بسرعة وأحيانا يوميا، فإن هؤلاء المقاتلين قد ملوا بسبب طول الحرب وفقدوا بوصلة الاتجاهات فباتوا يبحثون عن مشروع كبير يوحدهم ويخرجهم من الضياع والقتال المجاني. هذا المشروع لم يكن إلا تنظيم الدولة الإسلامية حتى وإن تعارض مع مصالح

مجنديهم وداعميهم الأوائل. فهو لا ينزع عنهم صفة المرتزقة فقط، بل يجعلهم أكثر استعدادا للقتال في سبيله من العراق وبلاد الشام إلى بلاد المغرب العربي.

*** *** ***

إن عودة هذه الطيور المهاجرة والجارحة قد أصبحت ممكنة بعدما تمت برمجتها. فليبيا هي الفضاء الأفضل للانطلاق منها إلى شمال إفريقيا ودول الساحل والصحراء الإفريقي. وكما أن بغداد تتوسط طهران وأنقرة ودمشق والسعودية أو شبه جزيرة العرب، فإن سيرت تتوسط مصر والجزائر والسودان ونشاد حتى شمال نيجيريا. ولا شك أن عودتهم إلى ليبيا ستجعلهم يلتقون مع بعضهم بعض على جغرافيا تمتد من شرق المتوسط إلى جنوبه. ومن ساحل البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي. فمن يصل إلى الجزائر يكون قد توغل في مالي وموريتانيا.. إن طريق الدولة الإسلامية من شرق المتوسط إلى سواحل الأطلسي هو الطريق نفسه الذي سلكه قادة الفتح الإسلامي في القرن السابع ميلاديا.. فحين حسمت الخلافة لدمشق (معاوية)، انطلق الفتح من أرض سوريا. واليوم إذا حسمت الغلبة للدولة الإسلامية لدولة العراق وسوريا (مع سقوط الأسد)، فإن بإمكان مقاتلي داعش أن يؤسسوا دولة دامش (الدولة الإسلامية لمصر وشمال إفريقيا)..

هذه خطوط المشروع الحلم. وهي خطوط لاتزال مرسومة على الرمل بالرغم من أن هناك من يرسمها بالدم. فالذين دعموا ويدعمون هذا التنظيم، لا يوافقون على المشروع، لكنهم يجدون فيه حجة لممارسات سياساتهم وأداة لنهب الثروات العربية وإعادة السيطرة على دول المنطقة عن طريق التفتيت لإعادة رسم الخرائط. إن الغرب يدرك جيدا أن مثل ذلك المشروع لن يرى النور ولكنه يغذي خيال المقاتلين ويجعلهم أكثر حماسا للذهاب باتجاه الطرق التي أمامهم والسياقات الكبرى التي سيوضعون فيها ثم القبول بالخرائط الجديدة التي سترسم لهم. ولكن في لعبة الخداع قلما يعرف المرء: من يخدع من، لكنه يعرف أن الخداع قد يدمر الجميع!..

فمن يضمن للغرب أنه سيتغلب على هؤلاء إذا ما تمددوا وفتحوا عدة جبهات على المتوسط قريبة من أوروبا، كذلك على الأطلسي ثم قرب قنال السويس؟ ومن يضمن لإسرائيل أمنها إذا وجدت نفسها محاصرة من مقاتلي الدولة الإسلامية من الشمال والشرق والغرب؟ ومن الذي سيكون بإمكانه أن يحارب على أكثر من جبهة شعوبا كثيرة في مساحات أكبر من أمريكا بثلاث مرات؟!

مرة أخرى تبرز دمشق كصانعة للتاريخ البشري. فهي منصة متقدمة تشرف على شرق وجنوب المتوسط والجزيرة العربية. ولو لم تكن بتلك المكانة لما تدخل في ثورتها

كل العالم: من الصين إلى روسيا ومن أمريكا إلى فرنسا ومن تركيا إلى إيران ومن السودان إلى تونس.. ولو لم تكن بتلك الأهمية لسقط بشار الأسد في بضعة أشهر كما سقط القذافي أو في بضعة أيام كما سقط بن علي أو مبارك أو علي صالح.. والأكيد في كل ذلك. إما أن بشار الأسد هو الذي صنعّ داعش قطعة قطعة لتهديد الذين يريدون رأسه. وإما أنه سيصبح مضطرا إلى التحالف مع هذا التنظيم.. فالدولة الإسلامية لن تتوسع نوعيا نحو المتوسط وتصبح تهديدا فعليا إلا إذا اقتربت من إسرائيل وكذلك من أوروبا. وهي لن تسجل انتصارا نوعيا إلا إذا سيطرت الآن على بغداد أو دمشق. وبما أن أعداء الأسد يقفون إلى جانب داعش، فيما داعش تريد أن تتملص منهم لبناء مشروعها الكبير، فإن الأسد قد يقامر بالتحالف علانية مع داعش ويصبح جزءا من مشروع الدولة الإسلامية كما كانت دمشق تفعل في كل مرة تجد نفسها محاصرة بأعداء أجانب.. إن حنكة أهل الشام في التجارة والسياسة لا تضاهيها إلا مهارة وفطنة الفرس. وبما أن طهران ودمشق متحالفين فإن مشروع الدولة الإسلامية قد يصبح مشروعا منقذا لهما ومغريا للأمة الإسلامية قاطبة! (إلى حين)

إن «داعش» اليوم هي في نفس الوقت كابوس وحلم للذين صنعوها وكذلك للذين «يتحالفون معها». فهي كابوس لأن هذه الدولة الإسلامية التي تستند إلى تراث عريق وجغرافيا شاسعة وثروات مأهولة، قد تخرج من رماد سوريا والعراق لتهدد الجميع: الغرب وحلفائه من الحكام العرب وكذلك الدول الإقليمية القوية المحاصرة للفضاء العربي الإسلامي مثل إيران وتركيا وإسرائيل وكذلك الحبشة*4. ثم هي حلم، لأنها تحتوي على إمكانية توحيد لهذا الفضاء العربي الإسلامي الممتد على قارتين (آسيا وإفريقيا) وتتحكم في مخارج ومداخل العالم. والذين يطمحون إلى ذلك المشروع الكبير يقبلون مرحليا بمزيد من التقسيم والخسارات من أجل إعادة التوحيد والتمكين (الحكم).

في السياسة غالبا ما يقال: من ليس له خيال لا ينتمي إلى التاريخ. فقبل فترة قصيرة كان يصعب على كثير من السياسيين توقع ما حصل في الربيع العربي. ولم يتخيل أحد منهم أن يقع غزو العراق أو ليبيا بتلك الوحشية.. وكانت معظم الطواقم السياسية الكلاسيكية تعتقد أن الاستعمار في نسخته العسكرية قد انتهى. وقليل جدا من كان يتكلم عن إمكانية عودته (مثل القذافي)، بل ثمة من المفكرين الإسلاميين مثل البروفسور الكيني علي مزروعي*5 الذي كان يحذر من عودة الاستعمار إلى إفريقيا! فيما كان آخرون يدعون إلى عودته وقد صفقوا طويلا للتدخل العسكري الغربي في العراق وليبيا وسوريا..

ومع أن الأمريكان يكثرون من طرح السيناريوهات حين يفرشون خرائط الأزمات أمامهم ويجهدون أنفسهم بالتوقعات إلا أنهم وفي الغالب إما أنهم يغمضون عيونهم

عن الاحتمال الأسوأ، وإما أنهم لا يصلون إلى أهدافهم لافتقارهم للوسائل الناجحة ومعرفتهم للبيئة والمناخ وكذلك لعدم قدرتهم للتصدي لديالكتيك الإرتداد. لقد أيقن الأمريكان أن تدميرهم لدولة العراق كان خطأ. ثم أعادوا الكرة في ليبيا. وحين وقفوا أمام الأزمة السورية رأوا أن تدمير الدولة السورية قد يكون خطأ فادحا. وحين تراجعوا عن التدخل المباشر لأسباب كثيرة منها حماية البيئة والفضاء للكيان الإسرائيلي، وجدوا أنفسهم أمام مشروع آخر لم يتخيله أحد..

حتى لو تبجح قادة إسرائيل مثل باراك، «بأن داعش يمكن القضاء عليها في يومين»[*6]، فإن الأمريكان يعرفون ذلك مستحيلا الآن.. فهي ليست جيشا إذا ضربت مطاراته ودمرت أجهزة اتصالاته، أعلن الهزيمة. كما أنها ليست دولة إذا قمت باحتلال أجزاء منها قد تجعلها تستسلم. إن داعش، جيش متحرك لا يملك لا قواعد ولا مطارات ولا منظومة صواريخ. فهي دولة الفضاء المفتوح تتمدد هنا وتتقلص هناك، ثم هي مشروع قيد التشكيل إلى كيان قد يعيش طويلا وقد ينهار سريعا في منطقة لينهض في منطقة أخرى..

ثمة شيء لا ينتبه إليه عادة محترفو السياسة. هذا الشيء، هو العقيدة والحلم والتجربة الحية. فجنود داعش كما قادتها يعتقدون عميقا بأنهم على حق وبأنهم بصدد إنجاز حلم أمة بكاملها، وبأن تجربتهم حتى وإن فشلت، فإنهم قد رسموا بداية طريق للأجيال الأخرى. فكثير من الأمم عاشت فضائع الحرب الأهلية ثم خرجت قوية ومتحدة. وأقرب مثال يقترب من العرب هو المثال الأمريكي وذلك لشساعة الجغرافيا وتعقيد التركيبة السكانية والعرقية. وخلال نحو 10 سنوات (1873-1863)، أصبحت حرب الانفصال، حربا للتوحيد. وكان أن خرجت أمريكا الفيدرالية الكبرى للعالم. وقد يبدو ما يجري الآن في العالم العربي كحرب انفصال وتفتيت وتجزئة جديدة، ولكنها قد تفاجأ الجميع بأنها كانت حربا للتوحيد وفدرلة الولايات العربية المتحدة.. ففي السنوات الأخيرة لم تفلس الأنظمة الانفصالية والانعزالية في إدارة الصراع وحكم البلاد وتنمية البشر، بل أفلست كذلك صيغة جامعة الدول العربية القديمة. أنعت جامعة الدول العربية نفسها بنفسها منذ أن شرعت للتدخل الأجنبي في العام 1991 لتحرير الكويت (تحرير الكويت من العراق عن طريق الحلف الأطلسي).. فهي الآن ليست إلا جثة قد يرمى بها مع النفايات في النيل.. قبل ذلك، كان هناك من يدعو إلى تجديدها وتغيير منشآتها وجعلها أداة لسياسة عربية توحيدية، ولكن من كان يدعو لها بإعادة بث الحياة في عروقها، قد أطلقت عليه النار (صدام ثم القذافي)..

إن «جيمس واسلي» المدير السابق لوكالة (السي.اي.اي) نفسه هو الذي يتوقع أن تصبح داعش عامل لفدرلة العالم العربي. وهي مهمة لم يقدر عليها سياسيون

عرب كثيرون. وهو يرى أنه من المحتمل أن تتفكك بعض الدول العربية في البداية، ولكن إعادة توحيد العالم العربي ستصبح مفتوحة عن طريق الفدرلة على الطريقة الأمريكية. وآنذاك يمكن أن يرتاح العالم العربي من الصراعات على السلطة ومن الاستبداد.. وإذ لا يساند «واسلي» نظرية التدخل الأجنبي لأنها غير سديدة وتؤدي إلى تعقيد الحل وليس حل المشكل، فإنه كذلك لا يعارضه بطريقة دوغمائية إذا كان ذلك من أجل الحد من ارتكاب المجازر والمذابح..

إن إدارة البلدان (السلطة والثروات) لم تكن في الأصل إلا إدارة للدماء.. وداعش التي تريد إدارة البلاد والعباد والاقتصاد تعتقد أن ذلك لا يتحقق إلا بإدارة ناجحة للدماء.. فحيثما تصل الجغرافيا العربية يجب أن تسيل الدماء لترهيب الأعداء والاستبداد. ولما تقاعست الدول الوطنية عن دورها وتخلت النخب الحديثة والمستحدثة عن قناعاتها القومية والتوحيدية والاشتراكية في جميع مدارسها وأطيافها وباتت الجامعة العربية تسلم مفاتيح الأوطان العربية للمستعمرين الجدد، فإن على داعش وأخواتها في المشرق والمغرب أن تتقدم لإدارة معركة الدماء وتنقية البيئة من الطفيليات. لا تنظر داعش لنفسها على أنها «فيروس» ما لبث أن تحول إلى «وباء» كما يقول بعض المحللين، ولكنها تعتقد أنها صحوة اجتماعية ودينية وقومية بمثابة المضاد الحيوي الذي سيقتل الفيروسات ويقضي على الوهن الذي أصاب الجسد العربي!..

إن كثيرين لم يعودوا يصدقون أن داعش تنظيم ديني متطرف وطائفي، وإنما هي تنظيم قومي عربي يعتمد على المخزون الديني كملاذ وسلاح، لأنه يتحرك فوق جغرافيا عربية ويتمدد فوق جغرافيا عربية وتحتضنه بيئات عربية ولا يتبنى نظريات الذهاب إلى العدو في أماكنه وإنما اصطياد العدو في بيئة غير بيئته. فالتطرف حسب «داعش» قد يبدأ عند هجوم العدو في أماكن بعيدة كما كانت تفعل القاعدة، ولكن حين يتورط العدو في أرض غير أرضه يصبح الدفاع واجبا وتصبح كل الأساليب مشروعة ومقدسة ويصبح سلاح الجغرافيا فعالا.

إن الجغرافيا لدى داعش أو لدى غيرها ليست مسرحا للصراعات فقط. بل هي التاريخ المعجون بترابها وثرواتها وتضاريسها.

*** *** ***

تبدأ صناعة التاريخ انطلاقا من الجغرافيا (المجال الحيوي). أدرك ذلك الروس حين توسعوا باتجاه السهوب والمناطق الساخنة والبحار العميقة. وأدرك ذلك الألمان من خلال توحيد بلادهم وجعلها بمثابة «قلب أوروبا» ثم «قلب العالم» في عهد النازيين

(الهرتلاند). واستطاعت العبقرية الصينية أن تجعل من مساحاتها الصغيرة الصالحة للزراعة مكانا لإنتاج الغذاء لأكثر من مليار ونصف.. وتمكنت جزيرة اليابان الضيقة جدا أن تتسع لأكثر من مئة وأربعون مليون ساكن. وهكذا فعلت شعوب كثيرة كالهند وأندنوسيا، ولكن جغرافيا العرب فتبدو من فرط إتساعها وثرواتها كما لو أنها لعنة على ساكنيها. فما يسميه كبلان*[7] بانتقام الجغرافيا حين تتعرض للإهانة والتقسيم العشوائي يعيشه العرب اليوم كلعنة متكررة. وإلا كيف نفسر بأن الجغرافيا التي تتسع نحو 14 مليون كلم مربع لا تفي حتى لإنتاج ربع غذاء سكانها. وكيف يمكن أن نقنع الأهل والأجانب على السواء أن الأرض التي يقع أكثر من نصفها (70 %) على المتوسط عاجزة حتى الآن عن إنتاج اكتفائها الذاتي من الغذاء. وكيف نشرح للسكان أن البلاد التي تنتج نحو 70 % من طاقة العالم يوميا لازال 70 % من سكانها فقراء، ولازالت فيها نسب الأمية من أرفع النسب في العالم (40 %)؟..

ليس الفقر فقط أو الأمية التي تدلنا على مهانة الجغرافيا العربية واستباحتها. وإنما كذلك درجة العنف والاستبداد التي تخيم على هذه الجغرافيا. بالإضافة إلى البيئة المناخية الملوثة وزحف التصحر وجلب المصانع المتخلفة وعدم الاهتمام بثقب الأوزون وحرق الغابات وتبديد الطاقات وهدر المياه، وأخيرا التنازل عن الثروات الطبيعية للأجانب باسم الحماية والشراكة. وما يزيد من الغضب، أن ما سمّي بالثورات العربية لم تكن أبدا من إنتاج الجغرافيا العربية، وإنما هي صنعت أو برمجت للاستيلاء على الجغرافيا العربية.. فلم نسمع برلمانا من هذه البرلمانات الجديدة أو زعيما من هؤلاء الزعماء الجدد قد طالبوا بحماية الأمن العربي أو تأميم الثروات العربية أو إصلاح الزراعة العربية.. لقد كانت ثورات مستوردة كأية بضاعة أخرى بكل قطعها من لغتها إلى أبطالها إلى برامجها فذهبت مباشرة لعقد الأحلاف العسكرية وبناء القواعد العسكرية لمحاربة كل من يتساءل عن ثروة بلاده وزجه في طابور الإرهاب*[8]..

تفقد الدولة سلطتها حين تتفتت الجغرافيا تحت أقدامها. ويزداد عجزها حين تتجه إلى مراقبة السكان أو معاقبتهم عبر هندسة المكان بما لا يليق لا بكرامتهم ولا بحريتهم ولا بنشاطهم. شيئا فشيئا يميل السكان نحو الكسل ثم نحو الممانعة السلبية ثم نحو التحرر أو التمرد. وبما أن الدولة غالبا ما تتجه لمراقبة السكان (الشعب) فإنها تفقد الإحساس بأهمية الجغرافيا. أي استثمار المكان جيدا وحمايته من الغزو الخارجي وحماية ثرواته. وحين يغيب الوعي الإستراتيجي بالمجال الحيوي لدى الدولة وتتعطل نظرية الترابط بين فضاء الخارج وفضاء الداخل، يصبح الطغيان هو العلاج الوحيد لمن يسمون بالمرضى أو يوصفون بالإرهاب، أي لأولئك الذين باتوا مساجين

داخل أوطانهم. وبما أن الدولة تمارس الطغيان والخداع مع سكانها، فإن سكانها يبادلونها الطمع والتواكل والكسل. وهكذا تنهار منظومة القيم والعمل بكاملها..

إن الطغيان لا يقسم المكان إلى أجزاء صغيرة فقط غير قادرة على الإنتاج، بل هو يشتت المكان إلى مجموعات صغيرة أو إلى شظايا من الأفراد المتناثرين غير المنتجين يقعون بين درجة الرعية والمواطنة تحت الابتزاز المعيشي. وبذلك فإن هندسة الطغيان الجغرافية لا تفي في آخر المطاف سوى بتأبيد الفقر وتحطيم التنمية وزراعة الخوف وإخضاع السكان لثقافة الطمع وتدجين قواه الحية.

لقد قضى الطغيان العربي في كل بلد على حده على نظام المجموعات الكبير (الفاعل والمنظم والضاغط). لم يكتف الطغيان بتقسيم الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة، بل هو عمد كذلك إلى تقسيم وتجزئة الأوطان الصغيرة إلى وحدات جغرافية مسلوبة الإرادة ومنزوعة السيادة والقوة والقدرة على الإنتاج. إن الحريات لا تنمو في المساحات المغلقة أو المساحات الصغيرة الميكروسكوبية. فدرجة التفاعل والجدل والتجمع والمقاومة تصبح ضعيفة منذ أن توضع تحت مجهر المراقبة الكبير والضخم. وتمتد تلك المساوئ والسلبيات إلى مجال النشاط الاقتصادي فتشل حركة التنافس ومجالات التنوع وتسيطر نزعة التقليد والدوران في المكان الصغير نفسه. ولا شك أن الإبداع في كل تجلياته يصبح غائبا ورديئا في مكان صغير أو مغلق به سكان قليلون وفقراء. وآنذاك تصبح الاختيارات المعلبة والمقدمة من طرف السلطة هي الوحيدة والمتاحة والسائدة والطاردة لأية إبداعات أخرى.

لا شك أن المكان الفسيح هو أكثر قدرة على إنتاج حياة أكثر رحابة وتنوعا. فهو يمنح السكان فرصا أكثر وحركية أكثر ومساحات أكثر. كما هو يدربهم على الإدارة والتحكم والاستقامة والتصميم والتسيير الذاتي تحت سلطة الضمير والمصلحة الجماعية لا تحت سلطة خارجية قمعية يمكن خداعها. إن الحريات هي السند الوحيد لأي بنيان اجتماعي ناشط ومنتج وحيوي ومسؤول. وبدونها أو بتعويضها بنظام سلطوي قمعي وزجري، يصبح كل بنيان اجتماعي هش يسير وفق إرادات ومصالح خارجية وإملاءات فوقية تدفع آجلا أو عاجلا إلى العصيان أو الفوضى أو المقاومة!..

إن من يعتقد أن الثورة أو التغيير أو التحول يحدث في اللحظة نفسها التي يحدث فيها الانتقال من نظام سياسي إلى نظام سياسي آخر غالبا ما يرتدي ملابس الإحباط والخداع مبكرا. فالدعايات التي صاحبت كل تحولات الربيع العربي قد شددت على أن الخير كل الخير موجود في المستقبل أو في قبضة أطراف سياسية معينة أو لدى جهة معينة وأن الشرّ كل الشرّ موجود في الماضي لدى أناس آخرين، بيد أن الحقيقة

كانت توجد في مكان آخر. هذا المكان هو ما يمكن أن يسمّى «بالحيز الممكن»، حيث التعايش بين الشرّ والخير اللذين يستمران في الإقامة في المكان نفسه وهما يتخذان أشكالا أخرى وقيما أخرى وتفاهمات أخرى مع الأطراف التي كانت محل شكوى في الماضي. وعموما إذا كان هناك من يضع كل الأخطاء على كاهل السلطة الجديدة أو الإمبرياليات الخارجية، فإن هناك من يتهم هؤلاء بالعرقلة وعدم النضج والالتزام. دون أن يلزم أي طرف نفسه (السلطة أو المعارضة) بتحديد منطقة «الحيز الممكن» والالتزام بالعمل في داخلها.. وهكذا ظل ما يسمى بـ«الحيز الممكن» فارغا من أي نشاط وخاويا من أية حياة إلى حدّ بات يبحث عمن يملأه. وهنا تركض الفوضى بسرعة أكثر مما يستطيع العقلاء. ولكن من داخل الفوضى قد يخرج «عقلاء آخرون» قادرون على إعادة تقسيم المكان بما يليق بكرامة الإنسان. ويعني ذلك إعادة رسم خارطة السلطة والثروة، أي السلطة والسكان (الدولة).

وإذ ينعكس في الدولة المعطى الجغرافي الموضوعي والوعي الذاتي (الوطني-القومي)، فإنه غالبا ما يتم التعبير عنه في السياسة التنموية وإدارة الثروات والسياسة الخارجية والسيادة. فالدولة الطبيعية والقوية هي ذلك الكائن العضوي والحي الذي يجمع بين الكميات المتغيرة والمتحولة للشعب مثل الديمغرافيا والثروات والثقافة والسياسة والجغرافيا والهوية وكذلك الحرب والاستعداد للحرب..

*** *** ***

هكذا في كل مرة، لا ترسم الجغرافيا حدودها إلا بالدم. وهذا لا يقتصر فقط على العرب. وإنما هي قاعدة تاريخية عرفتها كل الشعوب تقريبا. فالعنف هو القابلة للتاريخ والتاريخ ليس إلا دما سائلا أو متخثرا ومتصلبا يتحول إلى خرائط وتضاريس جغرافية. دفعت أمريكا أثناء الحرب الأهلية نحو ثلاثة ملايين ضحية من أصل حوالي تسعون مليون نسمة.. وحضر على مسرحها آنذاك كثير من العنف ومن المقاتلين الغلاظ والعنيفين مثل ما كان يعرف بـ«الوان مينوت» - (الرجال الذين يظهرون على مسرح العنف في دقيقة ثم يختفون في دقيقة). ولاتزال إفريقيا إلى اليوم تدفع من دمائها الكثير بسبب الصراعات على الحدود والتداخلات الجغرادينية والعرقية. فالهوتو والتوتسو هما شعبان يسكنان في بلدين هما رواندا وبورندي كانا ذات يوم بلدا واحدا. جاء الاستعمار فجعل منهما بلدين ثم جعل أقلية رواندا (التوتسو) أغلبية في بورندي. ولأكثر من مرة كان صراع الخرائط ينفجر فتنفجر معه الدماء، وفي كل مرة يقف الغرب متفرجا على المأساة وهو لا يفعل شيئا كي لا تتكرر تلك المأساة.. وسال دم كثير من

الهنود والمسلمين حتى شهد العالم ميلاد الباكستان في العام 48 ثم ميلاد بنغلاديش في العام 71. ودفعت أنغولا دم كثير لتخرج متحدة في سنوات الثمانين بعد خمس سنوات من الحرب الأهلية. وليس السودان هو آخر الأمثلة في إفريقيا. فبعد القبول بالتقسيم الذي جاء عن طريق الانفصال القسري بعد حرب دامت أكثر من ثلاثين عاما، ها هو يواجه أيضا انفصالا محتملا في الدارفور. فالجغرافيا في السودان لا تنام على الشياطين كما يقال، وإنما الشياطين هم أولئك الذين لا يعرفون كيف يصونون الجغرافيا. إنها حروب معاش وحريات ومراعي وهويات يحركها الاستبداد ويغذيها الإرهاب.. وهي نفس ما يحدث في مالي (بين شماله وجنوبه) منذ عدة سنوات وكذلك في تشاد وإفريقيا الوسطى ونيجيريا.. وإذا كانت الجغرافيا غير مصانة كما يجب أو غير مقسمة بما يليق بالإنسان، فإنها ترتد وتنتقم من الذين يحبسونها أو يفرطوا فيها للغير.. وليس أدل على ذلك أن ما يعرف بالإرهاب الإسلامي قد امتد إلى هناك، أي إلى الصحراء الكبرى.. فمالي والنيجر وتشاد وكذلك نيجيريا وهي بلدان مجاورة للجزائر وليبيا والسودان ذات أغلبية إسلامية وتنوع أثني غني، وذات ثروات هائلة، هي الآن «فضاء سائب» يديره العنف والإرهاب والاستبداد متحديا الحدود والجيوش والتقنيات، ذلك أن الجغرافيا السائبة لا تصنع إلا الفوضى الدائمة..

فتحت الحرب الأهلية في ليبيا، كل مخازن الأسلحة. وحين اندلعت الثورة السورية فتحت ليبيا كل الأبواب لدعم الثورة، فكانت أن شاركت عقلية الحرب التي أطاحت بالقذافي في خلق أجواء الحرب في سوريا.. أصبحت أسلحة ليبيا تسافر عبر الجو والبحر وتباع للتجار والمقامرين في رقعة تفتح على أكثر من دزينة من البلدان يسكنها نحو 300 مليون مواطن. فلو حسبنا تشاد والنيجر الذي يفتح على نيجيريا (بوكو حرام) ثم مالي فموريتانيا حتى المغرب وكذلك تونس حتى الجزائر ثم السودان ومصر وصولا حتى سيناء وغزة، فإننا سنجد أن سقوط القذافي، كان أهم عامل في تفجير كل هذه الفضاءات الجغرافية.. كان فيما مضى مناورا أحيانا ومحاربا في أحيان أخرى قد استطاع أن يبني نوعا من السلام في منطقة الساحل والصحراء (تجمع سين صاد) ثم ساهم بشكل جيد وأساسي في بناء الاتحاد الإفريقي وإنهاء عدة صراعات حدودية وقبلية بين الأفارقة. وحين سقط، ترك فراغا سحيقا وأسلحة كثيرة.. فامتلأت ليبيا بالميليشيات والمرتزقة والمخابرات وتجار الأسلحة.. واليوم إذ تتفاخر بعض المنظمات الجهادية في سوريا والعراق بأنها ما انفكت تحقق انتصارات ميدانية، فلربما يعود الفضل الكبير فيها إلى السلاح الليبي والمقاتلين التونسيين القادمين أساسا من ليبيا ثم إلى قطر التي تنقل تلك الأسلحة ثم إلى تركيا التي تسمح بعبور الأسلحة والمقاتلين.. فمن مخازن سلاح القذافي تسلحت في السبعينات والثمانينات

معظم حركات التحرر الوطني من نيكاراغوا إلى أنغولا. ومن الموزمبيق إلى بنما وكذلك الفلسطينيون والايرلنديون والباسك والتامول وحتى الأكراد. وكانت أمريكا تصف ذلك كله بالإرهاب وتطلق على القذافي لقب «الإرهابي رقم واحد». وحين ذهب القذافي، هاهو سلاحه أيضا يسافر إلى بقاع الدنيا ليحارب أمريكا وحلفاء أمريكا.. أو لم يقل القذافي ذات مرة لأمريكا» بقائي مشكلة وذهابي مشكلة*[10]..

وكما أن الجغرافيا تكره الفراغ، فإن العنف لا ينشأ من فراغ. نعم ثمة قوى خارجية وداخلية تتصارع داخل تلك الجغرافيا من أجل إعادة رسمها وفقا لمصالحها المتعارضة وهوياتها المتقاتلة.. وقد يكون الحراك الاجتماعي والسياسي الذي قوّض عدة أنظمة عربية في أسابيع قليلة، قد قوّض أيضا أو حرك تلك الجغرافيات الراكدة.. ولكن الغرب هو الذي حاول الاستفادة من ذلك الحراك الاجتماعي والجغرافي لتحقيق مصالحه.. وقد وضعت أمريكا بكل وضوح يديها بأيدي التيارات الإسلامية المعتدلة ورأت أن هؤلاء قد ينهون عهد الممانعة القومية في البلاد العربية، ويضمنون مرحلة الانتقال الديمقراطي حيث سيتم إعادة توزيع السلطة والثروات في الداخل والخارج.. ثم يسدون الطريق أمام وصول الجيل الرابع من الإرهاب الأكثر تطرفا وتغلغلا في المكان والأكثر تحكما في التقنيات ووسائل الاتصال.

كان الغرب يريد إيصال التيارات الإسلامية إلى الحكم للتغلب على «المتطرفين الإرهابيين» بلا حرب. بدت تلك النظرة ذكية في حينها - بات بروكتور - (Pat Proctor)*[11] ولكن الأحداث وتداعياتها العنيفة قد أثبتت سذاجتها. وهكذا لم يقدر الغرب على تحرير نفسه من واجب الحرب على الإرهاب، وهو واجب مكلف جدا، بل تأكد بما لا يدع مجالا للشك أن الإرهاب قد ازداد في ظل حكم الإخوان سواء في مصر أو تونس أو ليبيا. ثم ارتفعت وتيرته وأصبح مقاتلا جنبا إلى جنب مع الغرب في العراق وسوريا.. إذ كيف للمواطن العادي سواء كان في أوروبا أو أمريكا أو في مصر أن يصدق أن أمريكا تعلن الحرب على الجهاديين في هذا البلد ثم تدعمهم في بلد آخر؟ قد نفهم الأولويات ودرجة الأعداء وتشابك المصالح وترضية الحلفاء. ولكن حين تفتقد أية سياسة إلى الصواب أو المنطق، فإنها تصبح شبيهة برقصات الخداع.

إن الاعتقاد الدوغمائي بأنه يمكن التغلب على «الإرهاب الإسلامي» بالانتصار «للإسلام السياسي»، لا يعدو أن يكون وهما. كما أن إمكانية إنهاء هذا الإرهاب الإسلامي، دون أن يدرك الغرب واجباته تجاه بلاده وتجاه شعوب المنطقة هو كذلك لا يعدو أن يكون وهما.. ويبقى إذن إذا ما أراد الغرب النصر في حربه على الإرهاب أن

يتخلى عن أوهامه ويجيب عن الأسئلة العميقة والثقيلة التي تئن من تحتها الجغرافيا الحبيسة والمنهوبة والمهانة؟..

*** *** ***

منذ سقوط جدار برلين ونهاية الحرب الباردة تحركت الجغرافيا وتحرك معها التاريخ لمسافات بعيدة. وفي هذا العالم لما بعد الحرب الباردة، طرأت ترسيمات جديدة وخرجت دول جديدة، واختفت كيانات سياسية قديمة وكذلك مصطلحات ومفاهيم أخرى. حدث ذلك في جميع أنحاء العالم. وطبيعي أن يحدث جزء منه في ما يعرف بالعالم العربي. انشطرت الصومال إلى دولتين وخرجت اريتريا من تحت جناح الذل الحبشي وتوحد اليمن، وقبل ذلك غزا العراق الكويت ثم وقع غزو العراق وظهر كيان شبه مستقل للأكراد، وأخذ الفلسطينيون جزءا من حقوقهم في «شبه الحكم الذاتي». وغزت الجزائر جحافل الإرهابيين الإسلاميين وحوصرت ليبيا طويلا وانشقت غزة عن رام الله وتخلى المغرب نهائيا عن أراضيه المستعمرة لإسبانيا، وانشطر السودان إلى شمال وجنوب. ونتيجة لذلك الضباب الذي لف العالم العربي وهو يتحرك بلا سند دولي موازن للثقل العربي، اختفت مصطلحات ومفاهيم كانت حاضرة بقوة في عقدي السبعينات والثمانينات مثل: الأمن القومي العربي والصراع العربي/ الصهيوني و«الوطن العربي».

كان مصطلح الوطن العربي الذي ابتدعه القوميون العرب في جميع أطيافهم يطلق على المنطقة الممتدة من مراكش إلى البحرين.. وقد كان المواطن العربي البسيط أو المتوسط يشعر بالفخر وهو لديه وطن صغير وآخر كبير. وحتى وإن لم يتمتع بخيرات هذا الوطن الكبير، إلا أنه مثل له حلما وزادا وفرصة أخرى للحياة.. ولكن مع نهاية التسعينات وقع تغييب ذلك المصطلح تماما. فحتى طرابلس التي ظلت تلهج «بالوطن العربي» صباحا مساءا عبر إذاعاتها، قد كفت عن استعماله منذ أن تم حصارها بسبب العرب وبالعرب أنفسهم*[12].

إن المصطلحات حتى الجغرافية تنطق بمفاهيم وخطابات وهويات أصحابها. فحين تصر إيران على تسمية كل حوض الخليج بـ«الخليج الفارسي» أو يصر العرب على أنه «الخليج العربي»، فمعنى ذلك أن هناك صراعا قوميا وهوياتيا حول هذا البحر الداخلي. وحين نستبدل مصطلح الوطن العربي «بالعالم العربي» فمعنى ذلك أن هناك صراعا بين العرب والغرب الذي ينظر إلى العرب كعالم غير محدد وغير معرّف هوياتيا. وحين يصبح «الوطن العربي كله» جزءا من «الشرق الأوسط الكبير» وكما حدده الرئيس بوش /الابن في العام 2004 بأنه المنطقة الممتدة من أفغانستان إلى السنغال، فمعنى

ذلك أن عين الحوت الأمريكية الضخمة قد دمجت «كيان الوطن العربي المتعدد» في كيان جغراسياسي آخر أكبر منه وأكثر تعددا. وحين كان الفرنسيون يطلقون على «الوطن العربي» تسميتين هما: الشرق الأدنى proche orient (الجناح المشرقي) وبلدان شمال إفريقيا (الجناح المغربي) فلأنهم لا يريدون لهذه الكتلة الجغرافية أن تتوحد وتضع هويتها السياسية.. وقد كان الإنكليز يطلقون تسمية «الشرق الأوسط moyen orient - Middle east» على هذه الرقعة الجغرافية والتي تمتد من حدود إيران الغربية حتى المغرب، وقد تم استخدامها في المراسلات وكتب الرحلات والمعاهدات والدراسات إلى أن باتت معتمدة في الخطاب السياسي الدولي، إلى أن تم توسيعها بإطلاق الأمريكان تسمية «الشرق الأوسط الكبير أو الموسع» Great Middle east.

يشغل الوطن العربي كتلة من اليابسة عظيمة الاتساع تتجاوز مساحتها 14 مليون كلم مربع (الثاني بعد روسيا الاتحادية والفارق قليل جدا) ويمتد على قارتين. يحتل جناحه الآسيوي حوالي 30 % فيما يحتل جناحه الإفريقي نحو 70 %. هذا الوطن الذي يتوزع إلى 22 دولة، تسكنه أمة تتكلم لغة واحدة يزيد عدد سكانها على الـ400 نسمة (أمة في أكثر من دولة). وتتداخل حدوده الخارجية مع ثلاث قارات (هي أوروبا من جهة المغرب) ثم إفريقيا حيث يغطي كل شمالها ثم آسيا حيث يحتل جزءا كبيرا من غربها. وهذه الحدود تظهر واضحة في المتوسط شمالا وشرقا وكذلك في البحر الأحمر وبحر الخليج، ولكن حدوده البرية تتسم أحيانا بالتداخل والغموض كما في حالة العراق/إيران أو في حالة العراق وسوريا مع تركيا أو في (الحالة الإسرائيلية مع كل من لبنان ومصر وسوريا). وهكذا فإن الوطن العربي يحده من الشمال: المتوسط وجبال زاجروش في إيران على مستوى «العمارة» في جنوب العراق وجبال طوروس في تركيا (شمال سوريا) ومن الجنوب: المحيط الهندي ومنه بحر العرب (بحر عمان) ثم الصحراء الكبرى في إفريقيا.. كما يحده من الشرق مرتفعات جبال زاجروش وبحر الخليج وخليج عمان. أما من الغرب، فيحده المحيط الأطلسي وكذلك أوروبا من جهة سبتة ومليلة ومضيق جبل طارق.

إن الحدود الفيزيائية لأي بلد غالبا ما لا تتطابق مع الحدود السياسية، إذ يحدث أن تتنازل دولة عن منطقة معينة مقابل منطقة أخرى. وبالتالي فإن الحدود السياسية هي من صنع البشر والإرادات.

إن جغرافيا الكيانات السياسية تتشكل وفقا لصراع الإرادات. ويتم رسمها كخطوط على الخرائط باستخدام الصور الجوية منذ نحو قرن من الآن وذلك لتوضيح مساحة الأراضي التي تمارس فيها الدولة سيادتها والتي تتمتع فيها الدولة وحدها بحق

الانتفاع والاستغلال والاستخدام على السطح وفي العمق وكذلك في الفضاء.. وبفضل تقنية رسم الخرائط عن طريق الأقمار الصناعية أصبحت غالبية الحدود السياسية واضحة المعالم ومحددة بدقة فيما عدا بعض الدول حيث تعبّر التداخلات الجغرافية عن تداخلات عرقية ودينية وثقافية أو حتى لغوية. وتتضمن أراضي الدولة المسطحات المائية التي تقع داخل حدودها كالبحيرات والأنهار أو حتى القنوات المائية أو الغازية، كذلك أجزاء من البحار التي تجاور شواطئها والتي تعرف بالمياه الإقليمية وكذلك مساحات الفضاء التي تغطي هذه الرقعة السياسية. وعند ذلك تنتهي حدود وسيادة دولة ما لتبدأ حدود وسيادة دولة أخرى عادة ما تختلف في اللغة والثقافة والعملة وحتى القوانين..

*** *** ***

ولكن فيما تبدو حدود الوطن العربي الخارجية ككتلة موحدة، واضحة المعالم مع الخارج فيما عدا بعض النتوءات البسيطة، تظهر لنا حدود هذا الوطن الداخلية معقدة. فثمة في البداية شعب اختار هويته كعرب في أغلبيته يتكلم لغة واحدة ويسكن رقعة جغرافية متحدة ومتصلة. ثم نجد هذا الشعب قد توزع على 22 دولة عربية حسب ما تنص عليه الدساتير والتقاليد والثقافة. وهذه الـ22 دولة لا تختلف في الثقافة واللغة وإنما تختلف في القوانين والعملة وكذلك الحدود السياسية.. فحدودها الداخلية سواء الطبيعية منها أو التعاقدية أو ذات المعيار الهندسي أو التي رسمت بالقوة، علاوة على كونها «وهمية»، فإنها ما لبثت تغذي نزوعا نحو المزيد من التفتيت والتشظي.. وإذ لعبت حدود الدولة الوطنية (المصطنعة) ضد حدود الدولة القومية الطبيعية، فإن الشعب الواحد أصبح متعددا فيما سارت الدولة الوطنية (دولة الجزء من الكل) باتجاه مضاد للدولة القومية. وهكذا فإن كل شعب (جزء من الكل) أصبح ضد (الأمة - الكل من الكل). والنتيجة، ففي غياب الدولة الأمة، يصبح الكل يقاتل من أجل الاختلاف والانفصال والثروة وكذلك من أجل التوحيد والوحدة والسلطة والسيادة القومية!..

بدأت حروب الحدود الداخلية والتي تطورت فيما بعد إلى حروب أهلية داخل كل حدود قطرية، مع اكتشاف الثروات وتراكم البترودولار. لم تكن الخلافات كلها إيديولوجية أو حتى دينية. وإنما كانت أيضا اقتصادية. وهي التي كانت أكثر حسما. فحرب 73 التي التحم فيها العرب كأمة واحدة ضد عدو واحد هو: إسرائيل، كانت هي المدخل لتدمير ما كان يعرف بالأمن القومي العربي.. فالحرب التي رفعت من أسعار النفط قد قسمت العرب إلى دول غنية وأخرى فقيرة. وبدا أن المنطقة التي تتكلم بلسان واحد وتجتمع تحت قبة واحدة (الجامعة العربية) ويصلي أغلب أفرادها باتجاه بيت واحد وتحارب عدوا واحدا، قد أضحت تحتوي على أفقر مواطن في الكون

(اليمن . الصومال . موريتانيا) وأغنى مواطن في الكون (قطر . الكويت . الإمارات).. وحين جاءت الثورة الإيرانية 1979، بدأ العرب يغرقون في الثراء من جهة ومن أخرى في العراء. واكتشف بعضهم أنهم شيعة وتأكد آخرون أنهم لازالوا سنة!.. وفيما انقسم العرب بين أغنياء وفقراء (نتكلم عن الدول) ثم انقسموا كذلك إلى شيعة وسنة. ثم انقسمت سياساتهم وتصنيفاتهم للأعداء والأصدقاء.. تراجعت درجة تصنيف إسرائيل كعدو قومي للعرب ومعها ارتفعت درجة العداء لإيران.. وفي ظل الهواجس القديمة والجديدة من الجار الإيراني (الثوري) تم الاصطفاف المنهجي وراء الخيار الأمريكي (باستثناء ليبيا وسوريا والجزائر) ثم تم الدفع بالعراق إلى حرب مفتوحة ضد الجار الإيراني الهائج.. هنا تشابكت المصالح والتحالفات وبدا أن عرب الثروة قد قاموا بتوريط العراق وفصله عن الصف العربي القومي وانشغاله عن العدو الإسرائيلي، في حرب غامضة انتهت بعد ثماني سنوات بنصر غامض ومغشوش وخادع.

كان التوجه الأمريكي/الخليجي هو: وقف الزحف الإيراني الثوري والشيعي لحماية النفط والمقدسات السنية الخليجية والمصالح الأمريكية. وفي الأثناء أضيفت مهام أخرى غير معلنة لتلك الحرب، حرب الخليج الأولى وهي: إنهاك العراق وإضعاف الصف العربي المقاوم وإدخاله في صراعات لا طائل من ورائها (كالخلاف بين بغداد وطرابلس ودمشق والجزائر بسبب الحرب ضد إيران) والذي انتهى إلى تفكيك جبهة الصمود والتصدي وعزل مصر وإبعادها عن القرار العربي وتحويل وجهة الصراع من إسرائيل إلى إيران. وبنهاية تلك «الحرب الغبية» كما كانت توصف، بات واضحا للعراق أنه خرج من الحرب مفلسا وان نصره كان بلا ثمن. وأن الذين دفعوه إلى الحرب للدفاع عنهم قد خانوه وتنكروا له وراحوا يطالبونه بتسديد ديونهم.

إن أولئك هم الذين سينصبون له فخا آخر في الكويت. فثمانية سنوات من الحرب ضد إيران كانت كافية لإنهاك العراق اقتصاديا وماليا وإنهاك جبهة الصمود العربي، كما كانت كافية لصناعة التفوق الإسرائيلي الشامل إلى حدّ تجرأ فيه على احتلال عاصمة عربية (بيروت 82) وإخراج المقاومة الفلسطينية المسلحة من لبنان نحو الشتات.. وقد ترافق ذلك كله مع تراكم مالي ضخم لصالح دول الخليج، فكانت التهرئة الكاملة لنسيج حرب 73 التي وحدت العرب.. ثم بدا الانزلاق نحو الحروب الأهلية العربية/العربية..

وفي صيف 1990، أي نهاية الحرب مع إيران بنحو سنة، دخل العراق المتوجع من خيانة أشقائه، إلى بيت شقيقه الأصغر (الكويت). وكان ينوي عقابه وإذلاله لا قتله (لم يكن إعلان ضم الكويت إلا كرد فعل) ولكن العالم الجديد، عالم ما بعد الحرب الإيرانية/

العراقية وعالم ما بعد جدار برلين، لم يعد يسمح بأن يعاقب الشقيق شقيقه!

فالمسألة تطال الثروة والقوة. وإذا ما حصل العراق الجديد عن مزيد من الثروة والقوة والبحر وكذلك الهيبة، فإنه سيصعب حتى على الذين يناصرونه اليوم أن يوقفوا جموحه غدا.. وبما أن صدام حسين قد عرف كيف يتسلل إلى وجدان كل العرب (حين أطلق بعض الصواريخ باتجاه إسرائيل)، فقد ازداد الخوف لدى بعض العرب ودول الخليج وأمريكا وإسرائيل وإيران. وهنا اتفق هؤلاء جميعا أن يضعوا العراق بين الكماشة. لم ينسحب العراق من الكويت في الوقت المناسب ولم يفاوض بالقدر المعقول ولم تعطى له الفرصة للإفلات من العقاب، ولم يعرف كيف يبتلع الكويت ثم يلتهم قطعة أخرى للتفاوض عليها كما لم يكن قادرا على خوض الحرب التي وضع فيها. كان قدر العراق أن يخرج لا من الكويت فقط، بل من المعادلة الجديدة للمنطقة. ومنذ ذلك الوقت راح العراق يتمزق ويعيد مناحاته القديمة على الأمة العربية!

إن مقدمات ذلك التصدع العربي توجد في الجغرافيا (فهي أحيانا شحيحة وبخيلة هنا وسخية وكريمة هناك) وحين تختلف السياسات، تصبح الجغرافيا سلاحا. ومن هناك ينشأ مفهوم الجيوبولتيك (الجغرافيا السياسية). وهذا نراه حاضرا مع العائدات النفطية الكبيرة لصالح دول الخليج منذ أواسط السبعينات.. ولكن كيف يمكن أن نجعل من تلك الثروات سلاحا ضد أصحابه؟ بل كيف يمكن تحويل الصراع بين غرب وعرب إلى بين عرب وعرب؟ ثم كيف يصبح سخاء الجغرافيا فائضا بيد الأعداء. وأخيرا كيف أن تتحول نعمة الجغرافيا إلى نقمة؟!

*** *** ***

كان هناك فائض كبير من العائدات (البترودولار) وبالمقابل كان هناك كساد كبير في الدول الصناعية. لذلك ستزرع سياسة جديدة لابتلاع تلك الأرصدة من جهة ولضمان تدفق النفط من جهة أخرى. سيقبل الغرب بارتفاع أثمان النفط على أن تدخل تلك العائدات (البترودولار) إلى البنوك العربية نظريا. جزء يبقى في الدول الغربية كمدخرات أو استثمارات وجزء يدفع كثمن للسلاح الذي تحتاجه المنطقة بفعل لهيب الحروب والترهيب والتهديدات. وجزء ثالث يدفع كقيمة للغذاء والدواء والمعدات. والجزء الرابع يعود إلى شركات البناء والتجهيز والنقل والبنية التحتية وهي كلها شركات غربية. وهكذا فإن سخاء الجغرافيا العربية قد ذهب معظمه إلى الغرب فتحولت تلك العائدات النفطية إلى مصادر قوة نقدية لدى الدول الصناعية، فاتجهت نحو إغراق بعض الدول بالديون (وهي من أموال العرب المدخرة). وتعاظم

دور البنك الدولي حتى صار سلطة فوق سلطات الدول الفقيرة. وقد تم إقراض دول مثل المكسيك والأرجنتين وتركيا والبرازيل وعدة دول أخرى.. ذلك التشابك بين النفط والمال أعطى للمصارف الغربية وعلى رأسها الأمريكية قوة هائلة في التحكم والتوجيه كما نزع من الدول العربية (النفطية وغير النفطية) المبادرة والقوة والاستقلالية. ولم تأت التسعينات حتى أفلست دول مثل العراق والجزائر، وحوصرت دول مثل ليبيا وأفقرت دول أخرى مثل مصر والمغرب واليمن. وطغت دول أخرى مثل السعودية والإمارات وقطر.. وفي اللحظة التي بدأ فيها بعض العرب فك تلك الطلاسم وفهم ذلك التشابك، وهم يستعيدون وعيهم بثروتهم وأمنهم القومي وراحوا يشكلون اتحادات ومجالس عربية وخليجية ومغاربية، تسلحت نخب الدول العربية الغنية بخطاب انعزالي جديد استبعدت فيه العروبة كمكون سياسي والعدالة الاجتماعية كمكون اجتماعي واقتصادي والمقاومة كمحرض ثقافي، وأحضرت في الحين خطابا دينيا معتدلا حينا ومتطرفا في أحيان أخرى مقابل الخطاب العربي القومي.. وهكذا تم إخراج حسن البنا من القبر للقضاء على أبناء عبد الناصر. أصبح الإسلام بجميع أطيافه هو الموجه والمحرض والقائد وانتهى «الوطن العربي» إلى «شرق أوسط» يتقاتل فيه المسلمون في الهباء على الهباء. فحين لا نصون الجغرافيا يتنكر لنا التاريخ!

تراشق السياسيون العرب وكذلك زعماؤهم بكل الأوصاف العنصرية. واتهم بعضهم بعضا بالغباء والكائنات المعدية والغدر والخيانة والبربرية. وعلى تلك التربة العفنة ارتفعت أعلام الشوفينية عاليا وسارعت كل مشيخة وكل إمارة وكل قطر إلى تسييج نفسه بتاريخ عريق وأصيل ونادر ومتميز واستثنائي! ثم علت أصوات المثقفين والصحافيين من هنا وهناك. الخليجيون يقولون: «حان الوقت لكي نستقل عن العرب ونخرج من وهم العروبة ونحمي ثرواتنا ونختار أصدقائنا». والعرب الفقراء يردون» إنهم يفتقدون إلى الأخوة والشهامة. أنانيون وعنصريون ومتبجحون»*13. وهكذا راح الخليجيون بسرعة إلى نحت كيان هوياتي جديد بعيد عن التشنج العربي والقومية العربية والمقاومة العربية. وتدريجيا سوف يبدأون بطرد العمال العرب تحت عنوان «الخلجنة والسعودة» واستبدالهم بعمال آسيويين أكثر استعدادا لتحمل البؤس وأكثر تكتما من العرب الثرثارين والحاسدين. ثم انتقلوا إلى الهجوم الثقافي والإعلامي، فاستطاعوا تركيب منصات إعلامية وفنية عالية استحوذت على جميع ما تنتجه الشعوب العربية (من فنون ودراما وموسيقى وكتب) لإعادة دمجها مع الكوكب الخليجي. بعد ذلك سوف يسيطرون على معارض الكتاب والمساجد والمنابر الدينية والتلفزيونات ليبدأوا في تقسيم العرب إلى محورين: شيعي وسني والأوطان العربية بين مدجن

وممانع.. وسوف يستمر مسلسل التقسيم والتعتيم إلى حد استبدال العدو الإسرائيلي بالعدو الإيراني حتى بات من المقبول معادة إيران ومحاباة إسرائيل. نضجت كل تلك الأفكار البائسة بعد الانتهاء من حرب الكويت. ولم يأت غزو العراق في العام 2003 حتى أصبح التاريخ العربي يكتب بالنفط والجغرافيا العربية ترسم بالدم.

*** *** ***

هاهم العرب إذن قد فقدوا السيطرة على أنفسهم وراحوا يتبادلون التهديد والحصار. أحس الأمريكان أنهم انتصروا على «النزعة القومية لدى العرب». كما شعر السعوديون، حلفاء أمريكا وحراس مكة والمدينة أن الإسلام انتصر مع أمريكا وبفضل أمريكا. وبات حتى أكثر القوميين العرب تطرفا وتشبعا إما عائدا إلى الإسلام كما فعل صدام حسين الذي غير من علم بلاده وكتب فوقه «اللّه أكبر» وإما عائدا نحو إفريقيا متسلحا بالإسلام كما فعل القذافي*[14].

كان على أمريكا (المحافظة) آنذاك أن تدرك أن ثمن الحفاظ على الانتصار قد يكون أكثر كلفة من الانتصار نفسه. فهي مطالبة الآن بترضية إيران في العراق ومحاربة الإسلام الإرهابي العابر للحدود باحتضان الإسلام السياسي المعتدل، وكسب ودّ الإسلام السني الحاكم في تركيا لموازنة الإسلام الشيعي في إيران. ثم كان عليها أن تدفع بانهيار الاتحاد السوفياتي إلى المنحدر النهائي لتقفل عليه أبواب العودة، ثم حماية وتحصين إسرائيل عن طريق اتفاقيات سلام مغشوش مع الفلسطينيين.. وهكذا رأينا كيف أصبح العقد الأول من القرن الواحد والعشرين بالنسبة لواشنطن عقدا لتحصينات كل ذلك النصر المنجز على عدة جبهات. ولكن نصر الإمبراطوريات يظل دائما ناقصا لأن لا حدود له ولا إشباع له. فالعمليات الإرهابية في تنزانيا وكينيا والمغرب والسعودية وعدن، كانت كلها إيذانا بأن الجيل الثالث من الإرهاب قد وصل. وهنا أدركت واشنطن أن حربها مع الإرهاب ستضعها في حرب ضد الإسلام. وعليها أن تعدل من سياساتها وتبحث عن تسوية سياسية بين هؤلاء الإسلاميين والأنظمة العربية والإدارة الأمريكية..

آنذاك عقدت إدارة أوباما العزم على تدشين تلك التسوية. فبعد أن انسحبت من العراق وأعلنت الانسحاب من أفغانستان في حدود العام 2015، اتجهت إلى معالجة ذلك الملف الحارق، أي إيجاد أرضية لتسوية سياسية للحد من الإرهاب ومحاولة تدجين زعمائه عن طريق إغرائهم بالدمج في المشهد السياسي في بلدانهم/الأم. كان الاعتقاد السائد لدى إدارة أوباما الديمقراطية أنه لابد في البداية من إقناع الأنظمة

العربية المتشددة والرافضة للحوار مع هؤلاء الإسلاميين مثل ليبيا وسوريا وتونس، وإذ أبدت تلك الدول ممانعة، فإن بلدانا أخرى مثل البحرين ومصر واليمن قد ازدادت تشددا. وهنا انتقل مخطط أوباما إلى مرحلة الضغط على هذه الدول لدفعها دفعا نحو الحوار مع الطيف الإسلامي، ثم طلب من قطر واسطنبول أن تساعده على تلك المهمة الصعبة خاصة وأن الخيار الإسلامي لأوردغان في اسطنبول قد بات مغريا لكثير من الأطراف ويمكن التكيف معه في المنطقة. ومنذ البداية رسمت قطر على الورق ماذا تريد من هذه المصالحة (بين الإسلام السياسي والأنظمة العربية) فرأت أن ذلك يمثل لها فرصة الدخول إلى غرفة صناع السياسة الدولية. ثم محاولة لإخراج المنطقة من «الهوس» الشيعي وأخيرا تحرير العراق من الشيعة وفصله عن إيران. وهذه الرغبات القطرية ستلتقي مع الرغبات التركية. فهي أيضا تريد إخراج إيران من العراق، ووضع نفسها كقوة موازية للسنة ثم تسويق نموذجها السياسي في المنطقة العربية. ولا شك أن طموحات تركيا أكبر بكثير من طموحات قطر، ولكن طموحات أمريكا وأهدافها البعيدة هي أكثر بكثير من طموحات قطر وتركيا..

فإذا كان المحافظون في عهد بوش قد أثاروا الفزع في أوصال السنة العرب بانحيازهم للشيعة. فإن الديمقراطيين قد أعادوا الطمأنينة إلى قلوب الحكام السنة العرب. فالملك عبد الله الثاني هو أول من دق ناقوس خطر الهلال الشيعي الذي بات كحبل حول أعناقهم. وكررت السعودية على لسان سعود الفيصل ذلك مرارا ثم أعاد ذلك الذي أصبح ككابوس، حسني مبارك وعلى عبد الله صالح (قبل سقوطه وتحالفه مع الشيعة الحوثيين) ثم انتقلت العدوى حتى إلى حيث لا يوجد شيعة البتة مثل المغرب أو تونس..

وفي الحقيقة حاول المحافظون الأمريكان أن يجعلوا من «الشيعة المحرومين» من السلطة منذ معركة علي ومعاوية قبل أكثر من 14 قرنا، حلفاء لهم. فقد رأوا أن ركود السنة وانغلاقهم وهيمنتهم على الثروة والسلطة لا يمكن أن يتزحزح إلا عبر اختراق من الداخل مدعوم من الخارج يقوده الشيعة الأكثر استعدادا للتضحية لأنهم الأكثر حرمانا. وبالتوازي مع ذلك رأى محافظو واشنطن كذلك أن شواطئ وأحواض البترول تقع كلها في مناطق الشيعة حتى أن ما يسمى بالخليج الفارسي أو الخليج العربي ليس إلا خليجا شيعيا من الشمال إلى الجنوب.. بالإضافة إلى ذلك فكر الأمريكان أيضا، أن هؤلاء الشيعة العرب يشبهون «البروتستانت الأوروبيين». فإذا كان هؤلاء قد أصلحوا الكنيسة الكاتوليكية، فإن الشيعة قادرون على إصلاح القلعة السنية المغلقة، ولكن مع خروج المحافظين من البيت الأبيض، بدا مبدأ تحرير المسلمين السنة بكتائب المسلمين الشيعة هذيان مقيت. وهنا ظهر أوباما بمبدأ جديد يمكن تلخيصه «بتحرير

المسلمين السنة بالمسلمين السنة». أي تبني التيارات الإسلامية المعتدلة لاحتواء التيارات المتشددة، ثم تأهيل السلطات العربية السنية للقبول بالإسلاميين لاحتواء الإرهاب والعنف والكراهية للديمقراطية.. وإن تعذر ذلك، فإن الثورات لم تعد إلا كبسة زر بالنسبة لواشنطن.

*** *** ***

كان خطاب أوباما في أنقرة السنية في العام 2009، هو الخطوة الأولى نحو تبني ذلك المبدأ الجديد. وجاءت من بعد زيارته للقاهرة الأزهرية لتكشف لشباب مصر والبلدان العربية «أن أمريكا ستدعم كل تغيير ديمقراطي»[*15]. ولم يكن من الصعب على واشنطن المتحمسة لإدماج الحركات الإسلامية في المجتمع السياسي أن تجد صدى لأفكارها لدى فئات كثيرة من الشعب. بل أصبح أوباما بطلا ديمقراطيا في سماء العرب فجأة. وغير بعيد عنه أو إلى جانبه، كان أوردغان جاهزا، وهو رجل تركيا القوي، الصاعد والطموح والذي راح يكتسب شعبية لدى العرب السنة على حساب إسرائيل لوقوفه إلى جانب غزة وعلى حساب إيران بسبب دعمه لسنّة العراق.. ومع أوردغان، كان كذلك شيخ قطر الأب حمد الذي يملك الكثير من المال والعلاقات والطموحات مستعدا لكي يظهر كقائد عربي على جبهة عريضة تمتد من سوريا إلى المغرب مرورا بغزة ومصر وليبيا وتونس.

لم تكن أمريكا على الأرجح تملك إستراتيجية حاسمة أو مدروسة بشكل جيد. كما لم يكن لهذه الحركات الإسلامية على أنواعها الثقة الكاملة لا في أمريكا ولا في السلطة العربية. وهكذا تراوحت الأفكار بين - زرع الفوضى - داخل هذه الأنظمة بدءا بتسريبات ويكيلكس منذ أواخر 2009 وبين محاولات غزو البرلمانات العربية كما في الأردن والجزائر والكويت والمغرب أو عن طريق غزو الدولة من الداخل - المصالحات المؤقتة - كما تم في ليبيا بعدما قامت الحركات الإسلامية بمراجعات سياسية لدفتر معتقداتها وخارطة طريقها، أو عبر «التغيير الشعبي» من خلال الانتفاضات.

استقر الرأي على «الهجوم الشعبي». فأمريكا لا تصنع الانقلابات فقط، بل هي قادرة على صناعة الثورات الشعبية أيضا. كانت نقطة الانطلاق في تونس. وخلال نحو أربعة أسابيع، سقط دكتاتور تونس وذلك في الرابع عشر من جانفي 2011. وبعد أسبوعين فقط تنحى «دكتاتور» مصر في الـ25 من يناير.. تلك السرعة أذهلت الجميع وأشعلت أسئلة حارقة كثيرة.. وبعد تحرير تونس ومصر من «دكتاتورهما» أصبحت الطريق سالكة نحو «دكتاتور ليبيا» واليمن والبحرين وسوريا.. لقد اعتقد الجميع:

الشارع العربي والأمريكان وكذلك قطر وتركيا أن «التغيير الشعبي والسلمي» الذي نجح في تونس ومصر يمكن أن يحدث بسرعة وسلميا في بلدان أخرى قد تمتد حتى البحرين.. وحين وصل المدّ إلى البحرين، تحركت السعودية تحت غطاء مجلس التعاون الخليجي وبآليات درع الجزيرة لوقف هذا «المد الثوري». تقاعست قطر عن دورها في البحرين بعدما وجهت إليها عدة تحذيرات من جارها الكبير (السعودية). ثم اتجهت إلى اليمن لتلعب مع إخوتها الخليجيين لعبة تقويم النظام وإعادة إخراجه في ثوب جديد ولكن بجسم قديم. وحين حاول القذافي المقاومة تدخل الحلف الأطلسي وفي مقدمته تركيا وقطر لحسم معركة «التغيير» بالقوة. أما في سوريا فقد تعفن سيناريو التغيير. وبفضل التدخلات الإقليمية والدولية تحول التغيير في ليبيا وسوريا إلى حرب تدميرية للدولة والمجتمع معا.. ثم نزع النظام القديم في اليمن ثيابه الخليجية وراح يستعيد مواقعه بتحالفات داخلية وخارجية جديدة إلى أن دخل اليمن نفسه إلى مرحلة «التعفن» الأمر الذي جرّ السعودية إلى حرب عفنة!.. وكانت الحصيلة حتى الآن وكأن السلطة العربية المزيفة والمنغلقة كانت على حق. وأن الشعوب العربية قد وقع خداعها فلم تحصد من هذا الربيع غير الألم والإرهاب والتدمير الذاتي وانغلاق الأفق.. فالذين فازوا في أول انتخابات في تونس أو مصر قد وجدوا أنفسهم في مواجهة تيارات واسعة تنتمي إلى الطبقة الوسطى انتهت بإخراجهم من السلطة على نحو ذليل. لقد تمت الإطاحة بالترويكا في الشارع كما أطيح بحكم بن علي وأطيح بحكم مرسي في الشارع ثم بانقلاب عسكري شبه شعبي. والذين كانوا يستعدون لحفل الديمقراطية في ليبيا قد راحوا يفتتون بلادهم ويضعون شعبهم تحت سلطة ميليشيات عسكرية وقبلية. والذين انساقوا إلى أسلوب «التغيير بأي ثمن» كما في سوريا قد انتهوا إلى تدمير بلادهم بالتعاون مع نظام يريد أن يبقى بأي ثمن.

*** *** ***

وهاهو ذلك الربيع العربي الذي ظهر في تونس ومصر بطلعة بهية، قد كشف عن مؤخرته النتنة والعفنة. لقد انتهى إلى «فوضى» من العلاقات المتشابكة والمؤامرات والاتهامات المتبادلة والحروب الأهلية والطائفية أعادت الجميع إلى مربع الأسئلة الأولى: هل كان الإسلاميون العرب ناضجين بما يكفي للحكم؟ هل يكفي أن يرسم الأمريكان سيناريو على الورق حتى يصبح يمشي على قدميه على الأرض؟ هل يتطابق المنطق النظري مع الواقع المعقد؟ ثم هل أن الذين سلمت لهم مفاتيح الديمقراطية هم ديمقراطيون فعلا؟ أليسوا خليطا متفجرا من الأصوليين والطائفيين والإرهابيين وفي

وسطهم قلة من الديمقراطيين؟ وهل كانت أمريكا صادقة في مشروع التغيير العربي؟ وهل قامت بخداع نفسها وخداع حلفائها حين عقدت العزم على الدفع بالتيارات الإسلامية للحكم دون أن تكون جاهزة لذلك؟ ثم والأهم من ذلك كله: لماذا عاد الإرهاب يضرب بقوة بعد التغيير في كل مكان وصلت إليه موجات التغيير: تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا والعراق؟

من أفضع التفسيرات، أن التغيير العربي الذي أتى به موسم الربيع العربي ، كان بمثابة اعتذار قدمته أمريكا للمجاهدين الإسلاميين العرب بعد مراجعتها لدفتر أخطائها. فهؤلاء الذين حاربوا معها ضد الاتحاد السوفياتي وساعدوها على صعود القمة ثم حاربوا معها في حرب البلقان وساعدوها على الانتصار، قد أحسوا بالغبن والخديعة إلى درجة دفعوا فيها دفعا إلى ردّ اعتبارهم والإعلان عن حضورهم العنيف في عملية نيويورك في العام 2001. ولم تفهم أمريكا آنذاك فحوى الرسالة فردت بالتعقب الساخن وتدمير قواعدهم وبيوتهم وتشريد رجالهم ثم غزو بلادهم وإبادة قاداتهم، لكن ذلك لم يأت بنتائج جيدة. فقد أصبحت أمريكا مهددة في كل مكان وظلت مكروهة في كل بلد عربي أو إسلامي ما جعلها تدرك أن المسألة ليست مقتصرة على المواجهة العسكرية مع هؤلاء المتطرفين الإرهابيين الذين يملكون إيديولوجيا انتحارية وتكنولوجيا جديدة للقتال الدائم والمباغت، بل ربما يوجد الحل لتلك المعضلة في مصالحتهم (على الأقل الشق المعتدل منهم الذي تخلى عن الإرهاب كأداة للتغيير) وإعادة دمجهم ثم إعادتهم إلى بلدانهم وتمكينهم من السلطة لاكتساب المزيد من النضج والمرونة من أجل إخراجهم نهائيا من دائرة العنف والإرهاب..

ولكن الإرهاب ينمو من جيل إلى جيل.. وقد بلغ الآن جيله الرابع. وإذا كانت أغلب التيارات الإسلامية قد أقلعت عن الإرهاب وقبلت الدخول إلى نادي الديمقراطية فإنها قد خلفت وراءها جيل جديد لا يعترف لا بالمصالحة ولا بالديمقراطية. فقد ظل هذا الجيل الجديد الذي تربى وعاش على أطراف البلدان، في الصحاري والوديان، وكذلك في الشوارع الخلفية وأحياء القصدير وفي الضواحي المظلمة ومناطق الذل والظل، يقف بالمرصاد لهذه التجربة الهجينة! فلو نجحت الديمقراطية فإن ذلك سيعد ضربة قوية لهم ولمشروعهم المضاد للغرب وللحداثة الغربية. أما لو فشلت (افشلوا) تلك الديمقراطية فإنهم سيفتحون آفاقا أخرى لمشروعهم الكبير ويواصلون إرغام الغرب على القبول بهم كإيديولوجيا مختلفة تعبر عن حضارة مختلفة ومتصادمة مع حضارة الغرب.

يعتقد هؤلاء المتطرفون (الجيل الرابع) سواء أولئك الذين يقاتلون تحت يافطة داعش أو تحت راية القاعدة أو تحت علم «جند الله» أو أولئك الذئاب المنفردين، أن

إستراتجيتهم مرتكزة على قضم العدو الغربي في كل مكان، من شرق المتوسط إلى جنوبه للالتفاف على غربه ومن الصحراء العربية إلى الصحراء الإفريقية، وذلك لإنهاكه وتبخيس معتقداته وقيمه ثم على استغلال الشعور بالظلم لدى المسلمين قاطبة بما في ذلك الجاليات التي تعيش في أوروبا واستراليا وأمريكا وتوحيدهم مع بعضهم وتوضيح الغاية من قتالهم ضد الغرب. ولا يخفى على هؤلاء بأن «قبولهم» بالديمقراطية الغربية هو رحلة ثانية نحو - تغريب - الإسلام، لتخريبه دفعة واحدة. وفي المقابل فإن الغرب لازال يعتقد بأن معركته ضد «الإرهاب الإسلامي» هو ما يعنيه بالضبط حين يتحدث عن «الحرب ضد الإرهاب». وهي لاتزال متواصلة. وأن ما تم إنجازه قد يعد مجرد تجربة نصف ناجحة بما أنه استطاع أن يخرج «التيارات المعتدلة» من دائرة أعدائه، كما أن دعمه لمثل هذه التيارات المعتدلة كان من أجل إلحاق الهزيمة بالمتطرفين. ولكن كل ذلك لا يعد نهائيا.. فإذا أثبتت لهم الأحداث أن إستراتيجية"احتواء الاعتدال» قد فشلت ووصلت إلى درجة حرجة ثم فشلت معها نظرية احتواء المتطرفين عن طريق المعتدلين، فإنه من المحتمل أن يتبنوا الخيار الصفر مع هؤلاء المتطرفين.

إن الغرب لا يستطيع أن يعيش تحت التهديد وفي خوف مستمر مع هؤلاء. ومن أجل القضاء على هذا الخوف سيبرز احتمال القضاء المبرم على مراكز ومصادر الخوف. وهنا ستجد أمريكا ومعها الغرب نفسها مضطرة إما لتعميم الفوضى وإنهاك الجميع حتى قبولهم بالتسوية أو الهزيمة. وإما التدخل العسكري المباشر، وبذلك قد تكون خرجت من ورطة لتدخل في ورطة أخرى. صحيح أن أمريكا تتدخل في كل مكان وحاربت تقريبا في كل ميدان للدفاع وكذلك لتوسيع إمبراطورية تريد الاستحواذ على كل مكان. وهي قد تبالغ في تدخلاتها حتى لتبدو أو هي كذلك كقوة شاملة وشمولية للقمع والمراقبة والتعقب والعقاب والحل والربط. وحتى حين تمتنع أمريكا عن التدخل (خوفا من الانزلاق أو تريثا) تجد نفسها مضطرة إلى ذلك لأن حلفائها يضغطون عليها أو هم لا يجدون طريقة لحل مشاكلهم (حدث ذلك في حرب البلقان. وهاهو الأمر يتكرر في العراق وسوريا). فهي القوة الوحيدة التي بإمكانها أن تغلق البر أو البحر أو الجو ثم تعيد فتحه من أجل الحوار والتسوية. وقد نجحت أمريكا في أغلب تدخلاتها (أو هكذا ترى نفسها على المرآة) منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن. وقد حصدت جراء ذلك ثروات كثيرة ومجدا عظيما ثم وضعت على نفسها مسؤوليات أخلاقية كبيرة، لكنها لم تعرف دائما كيف تزاوج السياسة مع الأخلاق. كما لم تعرف كيف تفيد بعض الشعوب الفقيرة من ثرواتها أو تتقاسم مع بعض حلفائها بعضا من مجدها. فهي تراقب الجميع وتتجسس على الجميع (الأصدقاء قبل الأعداء) ولا تقتسم مع هؤلاء الفوائد أو المنافع ولا تحارب بدون فوائد أو عوائد. ويبرز ذلك كله على نحو جلي في

علاقاتها المتوترة مع روسيا والحذرة مع اليابان والماركنتلية مع أوروبا والأنانية جدا مع حلفائها العرب والمسلمين والأفارقة. إن أمريكا التي تريد اليوم اقتصادا جديدا يعتمد على «كربون منخفض» في المستقبل عليها كذلك أن تتبنى سياسة جديدة تحت «سقف منخفض» مع كل حلفائها من أجل الوصول إلى «عنف منخفض» لدى المتطرفين الإسلاميين أو غيرهم من المتطرفين الأفارقة والهندوس..

*** *** ***

لقد كف «الربيع العربي» عن الإغواء حين بلغ هضبة الشام. فذا الذي يسمى بالربيع العربي تم الكشف عن اسمه الحقيقي في سوريا وبات يعرف بـ«ربيع التطرف الإسلامي». فكل الذين كانوا يتابعون صمود التيارات الإسلامية منذ الثورة التونسية بشغف أو بقلق، كانوا يرون أن الموجة الإسلامية ستتصاعد وستتدافع الموجات بسرعة الواحدة تلو الأخرى وسوف تضرب الأقوى، الأضعف ثم لا تلبث أن تتكسر وترتد انطلاقا من السواحل الشرقية للمتوسط. لقد كانت هضبة الشام هي الامتحان العسير بالنسبة للموجة الإسلامية وكذلك لحلفائها في الداخل أو الخارج. فهنا تقاطع الإسلام الشيعي مع الإسلام السني والإسلام السياسي المعتدل مع الإسلام السلفي، ثم أمن النفط مع أمن إسرائيل وأمن الخليج مع أمن المتوسط. كانت هضبة الشام هي الهضبة الوسطى بين هضبة بلاد فارس وهضبة الأناضول، فهي المائدة الدوارة لإقليم الشرق الأوسط كله. وهي المنصة الوسطى التي تجري فوقها كل المناورات الإقليمية والدولية، لتشكيل ذلك الشرق الأوسط الجديد، وكل يراه من زاوية مصلحته.

فوق تلك الهضبة تعفن كل شيء. تحولت الثورة السورية إلى «حصان طروادة» لدى جميع تلك القوى المتصارعة (الإقليمية والدولية والقوى الإسلامية المعتدلة والمتطرفة). بعد ذلك تحولت إلى حرب أهلية ثم إلى حرب عربية/عربية بأسلحة وأدوات إسلامية فإقليمية بأدوات الشيعة والسنة حتى باتت حربا دولية بامتياز لا يجرأ أحد على تسميتها ولا يستطيع أحد أن يوقف تمدداتها ولا يتوقع احد بمداها أو بنهايتها. فأن تنتهي برسم خرائط جديدة للمنطقة بدلا من خرائط سايكس/بيكو، هذا أمر بات شبه مقبول. ولكن متى وبأي ثمن ومن يكون قادة أو أمراء الحكم في الخرائط الجديدة.. فهذا ما لا يعرفه أحد حتى الآن!..

الآن يمكن أن نرى فقط المحصلة كالتالي: الإسلاميون المعتدلون أو الإسلاميون السياسيون غير جاهزين ولا ناضجين للحكم.. فقد فشلوا في الحكم في كل قطر عربي تقريبا. (من العراق إلى الصومال إلى السودان إلى تونس فمصر وقبلها الجزائر وكذلك في ليبيا واليمن..) وباستثناء المغرب حيث وصلوا بأمر من الملك، وهم في

انتظار الانسحاب بأمر من القصر حين تغيب شمسهم، فهم لم يعرفوا كيف يبعثون بالطمانينة في الطبقة الوسطى في العالم العربي. كما أن تجربتهم في الديمقراطية لا تؤهلهم لقيادة الديمقراطية. أما برامجهم الاقتصادية فهي أكثر تخلفا من برامج الذين أخذوا أماكنهم. بل ان الذين أطاح بهم الربيع العربي (ربما كانوا أكثر رحمة بشعوبهم وأكثر حذرا من العولمة المتوحشة وأكثر تمسكا بالسيادات الوطنية). أضف إلى ذلك أن الإسلاميين قد باتوا منقسمين ومختلفين وحتى متحاربين وهم طبقات. كل طبقة تخفي التي تحتها. وهذا ما كشف عن الموجة الرابعة أو الجيل الرابع الذي لايزال مؤمنا بالعنف ومسلحا بخطاب إقصائي، وكاره لأية ثقافة ديمقراطية.

في الجانب الآخر من الصورة، بدا ذلك الهجوم الإسلامي بجميع أطيافه وألوانه، كما لو انه يستعد ليوم الحشر، أي حشر السعودية لإنهائها كدولة وكنظام وكعائلة! لم يعد خافيا على أحد أن كل هؤلاء المجاهدين الذين ما انفكوا يتجمعون فوق هضبة الشام ثم في صحراء الأنبار إنما ليجعلوا من تلك الساحة، منصة للقفز إلى شبه الجزيرة العربية. فتحالف الإسلاميين في سوريا والعراق «داعش» هو أيضا لا يخفي أبدا أن بلاد الحجاز، حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة هما الهدف الكبير والمقدس، ذلك أن الحركات التي تستند إلى المقدس سرعان ما تجف عروقها إذا لم تستول على الأماكن والرموز المقدسة. ولو أن إسرائيل مثلا لم تبسط سيادتها على القدس بالقوة، لكانت الحركة الصهيونية قد أصابها الذبول منذ زمن بعيد. ولو أن آل سعود لم يبسطوا سلطتهم على الحرمين، لانتهت الحركة الإسلامية الوهابية ومعها النظام السعودي كما في الماضي. فما افزع فعلا السعودية قبيل موت الملك عبد الله بقليل أن الذين كانوا يدعمونهم للإطاحة ببشار الأسد وبالمالكي، كانوا ينوون القفز إلى بلادهم. فالسياسة التي قادها كل من سعود الفيصل وبندر بن سلطان*[16]، كل من موقعه قد أدت إلى وضع السعودية بين الكماشة الإسلامية. وهذا تم إدراكه قبل أن يعتلي الملك سلمان العرش بنحو أكثر من عام، ولكن الفريق الذي كان يحيط بالملك الراحل، كان مستحوذا على القرار.. لذلك فإن ترتيب البيعة وولاية العهد في البيت السعودي قد اتسمت بالسرعة والحسم وطرد كل الذين تسببوا في هذا الانهيار الجيوبولتيكي للسعودية: انخفض سعر برميل النفط إلى النصف، واستطاعت إيران أن تستميل الغرب كله إلى كفتها. وتموقع الإسلاميون الجهاديون في جميع الجبهات المحاذية للسعودية وكادت مصر أن تتحول إلى منصة تهديد أخرى لولا سقوط الرئيس الإخواني محمد مرسي.

إن السعودية التي نهضت متأخرا على منبهات الفزع قد وجدت في الإطاحة بالرئيس المصري الإخواني، فرصة للحد من الرعب الذي تعيشه. والمليارات الكثيرة التي دفعتها

للخزينة المصرية صباح سقوط مرسي لم تكن إلا «ثمنا» لشراء أمنها القومي (لا حبّا في العسكر). كانت في البداية تريد أن توقف «ثورات الربيع العربي» عند حدود الشام/ شرق المتوسط وتظهر للشعوب العربية ولشعبها أنها تقف إلى جانب «ثورة شعب» لأول مرة في تاريخها. ومن أجل ذلك قامت بتنظيف الشوارع القريبة منها في البحرين واليمن. ودفعت الأموال بكل كرم لكي تستمر الثورة في سوريا لفصلها عن المدار الإيراني ولإضعاف حكم الشيعة في بغداد ولي ذراع الشيعة المقاوم في لبنان.. غير أن تفاعلات الصراع وتداعيات الحرب في سوريا التي طال أمدها قد أدت إلى مزيد من تشديد الحصار على السعودية ودول الخليج. فالإمارات هي أول من ضرب ناقوس الخطر. وبات ضاحي خلفان*[17] مختلفا مع بندر بن سلطان ثم ذهب إلى حد تحذيره من سياسة قيادة الدب من أذنيه إلى الواحة الخليجية. ثم بدأ التحريض ضد قطر التي بدت كما لو أنها تريد أن تدمر الهيكل فوق أصحابه بسبب نهم سياسي غامض تملك الأمير الأب حمد ولم يتخلص منه الأمير/الابن بعد! استمرت المفاوضات والمساومات وحتى التهديدات صعودا وهبوطا بين قطر وبلدان الخليج الأخرى. وفي لحظة ضغط عالية استسلم شيخ قطر الأب فانسحب تاركا القيادة لابنه تميم ولكن دون تغيير كبير في توجهات الدولة. ومع صعود الجيش المصري إلى منصة السلطة ممثلا في الجنرال عبد الفتاح السيسي*[18] (30 يوليو 2013)، تنفس السعوديين الصعداء ومعهم الإمارات والكويت والبحرين. وأصبح بإمكانهم أن يفصحوا عن تخوفاتهم وكذلك عن أوراقهم النقدية. فقد دفعوا عدا ونقدا وفورا وبلا تأخير 11 مليار دولار من أجل ألا تنهار مصر! ثم فكوا العقدة عن أيديهم فأعلنوا الحرب على اليمن..

في الحقيقة، كان يجب أن يقال من أجل ألا تنهار السعودية. فقبل تحول 30 يوليو/ جوان 2013 في مصر، كانت الرياض تغرق شيئا فشيئا في الغموض والخوف والعجز وهي ترى نفسها قد أصبحت محاصرة من كل جانب. من الجنوب حيث الحوثيون في اليمن يتقدمون نحو استرجاع صنعاء بدعم من إيران ومن الشمال حيث «داعش» قد تقفز إلى اختراق الصحراء السعودية باتجاه الرياض. وفي الغرب، حيث «الإخوان» في القاهرة، والقاعدة وداعش في سيناء على بعد مسافة البحر الأحمر.. ومن الشرق حيث إيران ما انفكت تلعب بأعصابها في البحرين المحاذية للظهران حيث النفط والشيعة.. ولأن السعودية قد انتهت إلى ذلك على وقع ما يحدث في هضبة الشام، فقد تحركت في خطوة أولى وحاسمة نحو القطيعة الكاملة مع «الإخوان المسلمين» وكل مشتقاتهم السياسية. فبالنسبة إليها لا تريد أي نوع من «الإسلام السياسي» ينازعها على «ملكية» أو «مركزية» الإسلام. فالإسلام السياسي بالنسبة للرياض هو منتوج محتكر سعوديا. فهي لا ترغب في تلوين الإسلام بأي لون، غير اللون الوهابي. فكما

أن الإسلام السلفي أو الجهادي يهدد كيانها، و«الإسلام الإخواني» يحد من إشعاعها وينافسها على ملكية وأحقية الإسلام، فإن «الإسلام الديمقراطي» لا يناسبها ويضعها أمام حقائق جديدة.

*** *** ***

إن احتكار الإسلام السياسي هو العنوان الكبير للسياسة السعودية في المنطقة منذ عقود طويلة. بل هو العامود الفقري لهرم الجيوبولتيك السعودي. فإدارة الحكم والنفوذ كانت تستمد قوتها الروحية من الدين الإسلامي وقوتها المادية من النفط. فالأرض المقدسة للمسلمين هي المنتج الأول «للطاقة المقدسة» (نار الله الموقدة)، لا بل أن الدين الإسلامي هو أكثر استمرارية وأكثر حيوية حتى من النفط. وعلى أية حال إن كانت الآبار مهمة جدا لتكديس البترودولار (النفوذ المالي)، فإن الصوامع كذلك لا تقل أهمية لتراكم النفوذ الديني والمالي أيضا.. إن الـ50 مليون (سائح بين حجيج ومعتمرين) الذين يزورون السعودية سنويا وهم يأتون من كل أصقاع الدنيا يوفرون لخزينة الدولة أكثر من 100 مليار دولار (مبلغ يقترب من الدخل القومي للجزائر) وكذلك للإسلام السعودي ذخيرة ونفوذا لا ينضب..

وليست السعودية فقط التي وجدت نفسها شبه محاصرة بالإسلام الجهادي. وإنما إسرائيل التي راحت تتفرج كيف يدمر العرب أنفسهم كما لو أنهم في سباق مع الجنون، ومن حين إلى آخر كانت تحرك النيران الساكنة وترسل بطائرتها للضرب حينا وللمراقبة في كل الأحيان، هي أيضا قد وقعت في المصيدة من حيث لا تدري ولا تتوقع! (من جهة سوريا حيث داعش وأخواتها. من ناحية غزة حيث حماس وشقيقاتها ومن سيناء حيث الإخوان ومشتقاتهم ومن باب المندب حيث الحوثيون والقاعدة ثم من جنوب لبنان حيث حزب الله..). وهو ما يعني أن إسرائيل توجد بين الكماشة الجهادية السنية والشيعية منها، وكذلك بجميع أطيافها من داعش إلى القاعدة إلى الإخوان.

في المنظور الأمريكي، فإن حليفي أمريكا الكبيرين والتاريخيين (إسرائيل والسعودية) قد أصبحا تحت الحصار الجهادي. وإن ذلك ما كان ليتم لولا أخطاء كبيرة ارتكبت في لحظات عمى القوة الكبرى. وهنا أصبح من المحتم على إسرائيل والسعودية، وقد باتا حليفين موضوعيين أن يتعاونا على وقف الزحف الجهادي المخيف إلى حد بات فيه بقاء الأسد في السلطة أهون بكثير من ذهابه. ففي حالة انهيار الدولة السورية كما حصل لليبيا والعراق، ستصبح هضبة الشام المنصة العالية جدا لدك تل أبيب والرياض بصواريخ الجهاديين.

كان التعاون بين الرياض وتل أبيب في درجة من الانسجام الصامت، منذ أن أصبحت إيران عدوا مشتركا لهما. تطور ذلك الانسجام الصامت إلى حوار خفي نتج عنه: ارتياح ثنائي لإخراج الإخوان المسلمين من الحكم ثم ارتياح آخر مزدوج لوقف التعاون مع الجماعات الإسلامية الإرهابية (تصنيف السعودية يكاد يكون هو التصنيف الإسرائيلي) ثم قلق مزدوج تجاه الاتفاق الإيراني/الأمريكي. فإسرائيل والسعودية لم ترغبا أبدا في ذلك الاتفاق ورأت كل واحدة في ذلك كما لو أنه «خيانة» أو انقلاب ضد أمنها القومي. وإذ اشتدت وتيرة الاحتجاج السعودي/الإسرائيلي ضد «السياسات الساذجة» التي يقودها أوباما، فقد تدرج الانسجام من الحوار الخفي إلى التعاون السري. وهنا أقدمت السعودية على شنّ الحرب ضد اليمن.. فالحقيقة أن ليس هناك إلا القليل من المراقبين الذين ينكرون التنسيق والتعاون العسكري واللوجستيكي بين الرياض وتل أبيب في حرب اليمن. ولربما ستكشف لنا الأيام، أن مصر قد تراجعت أو تراخت عن الانضمام بسبب مشاركة الطيران الإسرائيلي في قصف المدن اليمنية!..

فهل كانت سياسات الإدارة الأمريكية بشقيها الجمهوري والديمقراطي فعلا «ساذجة» في تعاملها مع منطقة الشرق الأوسط ثم مع «الربيع العربي»؟ أو هي لم تدرك على أقل تقدير رهانات وتحديات وأبعاد وصراعات الإسلام السياسي ومكونات الشرق الأوسط المتعارضة والمتفجرة!!

*** *** ***

يتشكل الشرق الأوسط الجديد الكبير من ثلاث كتل جيوسياسية كبيرة هي: العالم الإيراني الشيعي. والعالم التركفوني السني، ثم العالم العربي المختلط. ويحيط بتلك العوالم أو تتشابك وتتداخل معها آسيا الوسطى والقوقاز والمتوسط والصحراء الإفريقية الكبرى. وفي هذا الفضاء الفسيح والمتنوع يحاول كل عالم أن يصنع مجاله الحيوي المحاذي والملاصق وحتى المتعارض مع المجالات الأخرى، وذلك بالتعاون والترابط مع القوى الدولية الكبرى. فأمريكا وروسيا والصين وأوروبا موجودة في أرض وفضاءات تلك العوالم عبر السياسات الأمنية والحروب وأنابيب النفط والأسواق وتكنولوجيا الاتصالات والبنوك والمؤسسات الدولية كمجلس الأمن والبنك الدولي وكل مكونات النظام الدولي.

ويتفرد كل عالم جيوسياسي بخصائصه الجغرافية والثقافية والديمغرافية ونظامه السياسي ومكونات القوة لديه. وهو ما يسبب التعارض والتناقض بين البلدان أو القوى الإقليمية ذات الطموح، من أجل اكتساب المناعة والقوة والنفوذ.. ولا شك أن إيران تنتمي إلى تلك الدول الإقليمية ذات النفوذ. وتكتسب نفوذها من الموقع الجغرافي الهام

(بين بحرين: الخليج والقزوين) وكذلك من المساحة الشاسعة (مليون و700 ألف كلم مربع) ومن الثروات (ثاني دولة في احتياطها من النفط والغاز) وكذلك من الديمغرافيا (تعد إيران نحو 85 مليون نسمة. وفي العام 2025 قد يصبح عدد سكانها نحو 110 مليون نسمة). ولكن الأهم من كل ذلك لصناعة النفوذ هو إدارة تلك العناصر بنجاح من أجل استخراج معادلة الحكم والنفوذ (الجيوبولتيك). وتدرك إيران، وفي كثير من الأحيان، إنها شبه منعزلة إما بسبب قوميتها الفارسية المهيمنة أو بسبب نظامها السياسي غير القابل للتصدير (ولاية الفقيه) ولكن من ناحية أخرى تمتلك إيران أكبر احتياطي ثقافي شيعي في العالم. فهي قلب الشيعة ودولتهم الوحيدة. وهم يتوزعون على أكثر من فضاء من الباكستان إلى القوقاز إلى الخليج إلى المتوسط. فهم أكثر من 150 مليون شيعي في العالم، وهذا ما تحاول إيران أن تصنع به ما أصبح يعرف بالجيوبولتيك الحضاري.

وتوجد على العلم التركي نجمة كبيرة يحيطها هلال، ويفسر البعض ذلك مازحا، أن النجمة سنية. أما الهلال فهو الهلال الشيعي. ويمثل هذا الهلال امتدادات النفوذ الإيراني السياسي والمذهبي. ورغم أن تلك التسمية ظهرت حديثا في العام 2004 على لسان الملك الأردني، وليس على لسان الأتراك، إلا أنها سرعان ما أصبحت معروفة كمصطلح جيوسياسي لدى الساسة والمحللين. فالطريقة التي نطق بها الملك عبد الله تشير إلى وجود خطر جيوسياسي يهدد الشرق الأوسط. فالهلال الشيعي هو ميلان ميزان القوى لصالح إيران الشيعية على حساب أهل السنة. الهلال الشيعي بالنسبة للملك عبد الله أو بالنسبة لحسني مبارك الذي ردده أكثر من مرة يمتد من إيران إلى لبنان مرورا بالعراق وسوريا. وينبع كلام مصر والأردن من خوف التمدد الإيراني في المنطقة العربية. ولكن في الحقيقة ليس ذلك إلا الهلال الصغير. أما الكبير فهو الذي يمتد من باكستان مرورا إلى أفغانستان ثم إلى آسيا الوسطى بحر القزوين ويبدأ في التقوس في منتصف المسافة (حيث إيران/المركز) ثم يشق العراق في اتجاهين: سوريا ولبنان (المتوسط) ودول الخليج وشرق السعودية (الخليج).. إن نفوذ الهضبة الفارسية الشيعية تتوسط ثلاثة بحار هي المتوسط والخليج التابع للمحيط الهندي وبحر الخزر (القزوين) المغلق.

ونعلم الآن أن مفهوم الهلال الشيعي المثير للنزاع هو موجود لأنه مستخدم في التحاليل والصياغات السياسية حتى وإن كان مرفوضا! وأن نفوذه السياسي قد بات واضحا للعيان، بل أن هناك في إيران من تجرأ وقال «أن إيران باتت تتحكم في أربعة عواصم عربية: العراق على الخليج واليمن على البحر الأحمر وسوريا ولبنان على المتوسط»[*19].. والحقيقة أن إيران لا تحبذ أن تقدم نفسها كقوة شيعية مناهضة

للسنة. بل أن الصياغة الشيعية لسياستها لم تكن واضحة في عهد الخميني. بل ما كان واضحا ومخيفا هو اندفاعها الثوري (ولو أن التشيع كان همها، لدفعت 6 ملايين من الإيرانيين السنّة إلى التشيع!!).. وحين دخلت في حرب مع العراق، لم يكن ثمة من يتكلم لا في العراق ولا في إيران عن المدّ الشيعي أو النفوذ الشيعي. فالعراق الذي كان أغلب جنوده من الشيعة وأكبر جبهاته على أراضي الشيعة وكثير من قياداته البعثية من الشيعة، كان يتكلم عن الصراع العربي/الفارسي.. أو النفوذ الفارسي. أما في إيران فكانوا يتكلمون عن المدّ الثوري الإسلامي، حتى أن الخليج، منطقة التقاطع لا تورد تسميته إلا تحت - عربي - بالنسبة للعرب و- فارسي - بالنسبة لإيران..

وعموما فإن الدولة/الأمة، كل دولة أمة تريد القوة والمجد والانتشار لابد أن تستخدم كل مصادر قوتها وإشعاعها من الفحم الحجري إلى الدين. ومن العصافير أو الحيوانات النادرة إل الأسماك النادرة مثل الكافيار. فالأمة الإيرانية هي مجموع كل العناصر والمكونات الكيفية والكمية التي تصيغها الجغرافيا والتاريخ في ملحمة تسمى الأمة/ الدولة. وبما أن الإسلام الشيعي هو أحد مكونات تلك الأمة الثابتة والمتحولة، فقد وجب عليها أن تأخذ به كمصدر للإشعاع والقوة والتفوق. وكان مجلس تشخيص مصلحة النظام الإيراني قد وضع مشروعا يستهدف تحويل إيران إلى قوة إقليمية في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا حتى حلول 2025. وبالنظر إلى الفترة المتبقية من ذلك التاريخ (10 سنوات) نرى أن إيران ما انفكت تكتسب القوة والمناعة. فمعدلات النمو الاقتصادي تبدو مريحة (ما بين 5 و6 في المئة) ومعدل الدخل الفردي يفوق مثيله في مصر مثلا بنحو 5 أضعاف. وتعطي أرقام التعليم تفوقا واضحا بالنسبة لجيرانها بما في ذلك تركيا. أما مصالحتها مع الغرب فسوف تمنحها فرصة الخروج من العزلة والاستفادة من التكنولوجيات الحديثة وفرصا جديدة للتجارة العالمية ومرتبة متقدمة في تصدير الطاقة. وبطبيعة الحال، فلكي تحقق إيران رؤيتها لعام 2025، كان لزاما عليها استخدام أدوات مادية وثقافية في سياستها الخارجية تتناسب مع طموحها فمزجت بين أدوات القوة الخشنة والناعمة وكذلك الصلبة والسائلة من خلال تشكيل التحالفات السياسية الجديدة سواء مع بلدان الشرق أو مع بلدان الغرب.. إن إيران ليست المصدر الأول للغاز في الشرق الأوسط، أو القوة الوحيدة المتأهلة للنادي النووي في العالم العربي فقط. بل هي البلد الأول شيعيا. فمن مجموع المسلمين البالغ أكثر من مليار وربع، يحتل الشيعة فيهم أكثر من 12%. ولكي نعرف تحديد مكانة إيران لدى الشيعة، علينا أن نعرف مكانة الشيعة في الدول التي تحيط بإيران. وإذا استبعدنا لحين المذهب الإسماعيلي فإن المناطق المعنية بالمذهب الشيعي الاثني عشري بالإضافة إلى إيران

(القلب)، هناك أفغانستان والباكستان من ناحية الشرق وأذربيجان من الشمال والعراق وسوريا ولبنان على خاصرتها الغربية ودول الخليج (البحرين – الكويت – والإمارات والسعودية) على خاصرتها الجنوبية. وذلك دون أن ننسى المجموعات الشيعية في الهند وتركيا ومصر وإلى الدياسبورا الشيعية الموزعة في إفريقيا والدول الأوروبية وأمريكا. ومجموع كل الشيعة دون الإسماعيليين أو الدروز يزيد الآن على نحو 150 مليون نسمة، أكثر من نصفهم يعيشون في إيران.. وهنا يتضح تفوق إيران في عدد الشيعة، لكن الذي يتضح أكثر، تفوقها على استخدام الدين كمصدر للنفوذ في العالم. فالعراق الذي يحتوي على المراقد والمراجع والحوزات لم يستطع أن يكون ممثلا للشيعة. أما الباكستان التي تحتوي على ثاني مجموعة شيعية بنحو 35 مليون، هي الأخرى لم تعرف كيف تجعل من شيعتها مصدر قوة ونفوذ بالرغم من أنها تملك القوة النووية وتعيش بها أغلبية سنية تزيد عن سنّة مصر أو سنة تركيا!..

إن الشيعة لا ينتمون إلى العرقية أو القومية نفسها. فالشيعة الإيرانيون هم من الفرس ومن العرب والأذربيجانيين. كذلك من الصعب اختزال الشيعة الباكستانيين في تعريف عرقي محدد. فهم من البنغال والبنجاب والهنود والبلوش. وينتمي شيعة أفغانستان في معظمهم إلى الهازار. وليس شيعة العراق والبحرين ولبنان وسوريا والسعودية إلا عرب وكذلك شيعة جنوب إيران. وفي تركيا نجد نصفهم من العرب ونصفهم من الأتراك.. ورغم أنه من الصعب تقدير عدد الشيعة وفق المعايير العرقية، إلا أن الشيعة الفرس هم الأغلبية متقدمين على مجموع الشيعة العرب والباكستانيين. بل هم يزدادون عددا. وبالنظر إلى أفق توقعات 2050، فإن إيران ستظل هي مركز القلب للشيعة بنحو 120 مليون شيعي متقدمة على الباكستان (60 مليون) وعلى العراق بنحو 35 مليون شيعي، تليه أفغانستان بنحو 16 مليون وأذربيجان بنحو 9 مليون. أما عدد الشيعة في السعودية فسوف يشهد قفزة نحو الـ6 مليون نسمة في حين سيستقر في لبنان نحو المليونين وكذلك الكويت. أما شيعة كل من البحرين وقطر والإمارات وحتى اليمن فلن يزيد عن المليون نسمة. والحقيقة أن الشيعة في كل هذه البلاد المحيطة بإيران، ينظر لهم كرعايا من الدرجة الثانية. ففي الباكستان لا يصل إلا القلة منهم إلى مراتب القرار. كذلك في أفغانستان. فالدولة السنية قد همشت الشيعة. وقد أعطاهم الدستور اللبناني المرتبة الثالثة ومجلس النواب، ولكنهم كانوا يعانون من التهميش الاجتماعي. وفي سوريا لم يشعر الشيعة بالانعتاق إلا من خلال سياسات حزب البعث العلمانية (ثم لأن قادة البلاد الذين تخرجوا من الثكنات ينتمون في أغلبيتهم إلى الشيعة). وفي السعودية يتركز الشيعة في المنطقة النفطية لكنهم لا

يحصلون إلا على وظائف متدنية. وقد مارست السلطة الوهابية دائما رقابة خاصة على الشيعة ووضعت أيديها على البحرين بسبب مراقبة الشيعة. وهؤلاء يعود وجودهم إلى عهد البويهيين مما يعني أن شيعة الخليج والبحرين هم شيعة قبل إيران. وباستثناء شيعة إيران وأذربيجان، فإن لا وجود لشيعة مترفهين في الفضاء الشيعي الكبير إذا ما استثنينا السنوات الأخيرة في العراق ولبنان. فالأذربيجانيون، سكان القزوين هم عرقيا من التركمان لكنهم إيرانيو الثقافة والدين، حتى أن القائد الحربي الذي استولى على أراضي فارس عام 1500 ميلادي ليؤسس عليها سلالة الصفويين ويجعل من المذهب الشيعي دين الدولة هو أصيل أذربيجان.. تماما كما القائد الروحي الحالي «علي خامنئي». إنه أصيل أذربيجان ولكنه إيراني في دينه وثقافته وسياسته.

إن إمكانية انتقال مركز الثقل الشيعي من إيران إلى بلد آخر تبدو مستحيلة حتى قرن آخر[*20]. وبدون شك فإن إيران تلاحظ تزايد الشيعة في غربها (الباكستان) وهي لن تتغافل هي أيضا على نموها الديمغرافي. كما أن قربها من العراق ومن المدينتين المقدستين (النجف وكربلاء)، ثم من تزعمها التيار التحرري داخل الشيعة (اللاهوت التحرري الشيعي)، سوف يجعل من منافستها على قيادة الشيعة احتمالا ضئيلا.

ولا تعتقد إيران إلا في – التعايش الشيعي/السني –. لأن لا التطهير العرقي ولا الفرز الجغرافي سيجعل الحياة لهؤلاء الشيعة أفضل. فهم موجودون في كل النسيج العرقي والجغرافي. وبدون سياسة التعايش العادلة لن يكون لا لهؤلاء ولا لأولئك أي سلام. وبفعل نموهم الديمغرافي والاقتصادي، فإن الشيعة بإمكانهم أن يحصلوا على فرص أكثر في البلدان التي يحتلون فيها الأقلية، على أنه لا يجب أن ننسى أن التنوع الديني والثقافي هو ما يزيد من إثراء الجغرافيا السياسية لأي بلد إذا عرف كيف يوضفه باتجاه التعايش. وبما أن زحزحة إيران من منصة قيادة الشيعة تبدو مستحيلة لتفوقها العددي ونهوضها الاقتصادي، وكذلك الفرز الجغرافي أو العرقي لتداخل السنة مع الشيعة مع الأعراق والشعوب الأخرى، فإن «حيادية» إيران تجاه الشيعة في العالم تبدو كذلك مستحيلة. فمن المستحيل ألا تهتم إيران بالدفاع عن الشيعة، من منطلقات دينية أو من منطلقات ثورية. وقد لا يمر الدفاع دائما عن مصالحها عبر محور الشيعة، إلا أنها قد تكون وضعت كل مصالحها في خدمة الشيعة. قد تقف إيران مع دولة غير شيعية تتعارض مصالحها مع دولة شيعية كما فعلت في صراع أرمينيا مع أذربيجان بسبب كاراباخ العليا، ولكن من الصعب أن تصمت إيران عن أي ظلم قد يلحق بالشيعة في أي بلد، إن الحياد سيفسر دائما على أنه انحياز لمصلحة الدولة الإيرانية على حساب الشيعة الآخرين. لذلك كثيرا ما تجد إيران نفسها مضطرة لدعم مطالب

الشيعة في كل بلد. وذلك حفاظا على مستوى درجة النفوذ والانتشار الفارسي.

*** *** ***

كان النفوذ الفارسي (الشيعي) في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى مبعث قلق لتركيا منذ زمن طويل (أي منذ الصراع الصفوي/العثماني) وقد غذى ذلك الصراع التاريخي القديم هواجس ومخاوف عديدة لدى الجانبين ولدى السنة والشيعة معا. ومع سقوط نظام الشاه في إيران في العام 1979، انفصل الحلف بين طهران وأنقرة باعتبارهما دولتان قريبتان من الغرب ويقفان كحارسين ضد تقدم السوفيات إلى المياه الدافئة في كل من الخليج والبحر المتوسط. وآنذاك راحت إيران تبني هوية جيوسياسية جديدة إنطلاقا من روح ثورتها فخرجت من حقبة التغريب والانحياز إلى الأمريكان، فيما استمرت تركيا في الحفاظ على نموذجها التغريبي وهي تسعى إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي بعدما نالت شرف العضوية في الحلف الأطلسي عالم 1952.. ازداد الاعتماد الغربي على تركيا بعد الثورة الإيرانية وأصبح ينظر إليها بمثابة الحصن الشرقي الذي يقف بالمرصاد لموسكو التي تتطلع إلى المتوسط والشرق الأوسط والخليج.. ولكن بعد الحرب الباردة سيعاد تشكيل خارطة الصراع. فالتهديد السوفياتي الشمالي لم يعد قائما كما كان.. والبقاء في عضوية الأطلسي تحفظ لتركيا توازنها مع اليونان. والصحوة الإسلامية تتفاعل وتدخل إلى حلبة السياسة كمعطى جديد.. وانطلاق التهديدات من الجنوب، أي من الشرق الأوسط قد أطلت برأسها. ولأن أوزال قد توفي قبل أن يكشف عن إعادة تشكيل أعمدة السياسة الخارجية لبلاده بوضوح، فإن السيدة تشيلر قد حاولت مع الرئيس ديميريل إنهاء العقوبات على العراق ورفع الحصار عن ليبيا وتسخين العلاقة مع دمشق، الأمر الذي أعطى إشارات مبكرة على أن تركيا بدأت تعود إلى الشرق بعد رحلة التيه في الغرب!..

أدرك الأتراك أنهم لن يقبلوا كأعضاء في النادي الأوروبي.. وإذ بدأ هذا «النادي المسيحي» يفتح أبوابه لأعضاء جدد مثل فنلدا والنرويج ثم بولندا والمجر والتشيك وجمهوريات البلطيق، فإن تركيا ظلت تنتظر في آخر الطابور دون أن يفتح لها أي باب. قدمت كثير من الأسباب مثل الأداء الاقتصادي المتدني، ووضعية حقوق الإنسان المتدنية والانقلابات العسكرية المتكررة بما يعني الديمقراطية الحرجة والعلاقة العدائية مع اليونان، ولكن السبب الرئيسي والذي لا تنطق به وسائل الإعلام ولا يقوله المسؤولون الأوروبيون هو، أن تركيا بلد إسلامي يسكنه نحو 80 مليون مسلم بإمكانهم أن يقلبوا التوازنات السياسية والهوياتية في أوروبا المسيحية، لأنهم «ولادون»

ثم لأنهم يرتبطون بروابط إسلامية أخرى سواء داخل الجاليات الأوروبية أو في بلدان تنتمي إلى العالم التركفوني!..

لقد اشتعلت الذاكرة جيدا حالما أراد الأتراك الانضمام إلى أوروبا. تذكر الأوروبيون كوابيس الغزاة الأتراك المسلمين عند أبواب فينيا، ثم أدرك الأتراك بأن الغرب لن يعطي لتركيا أية مكانة لائقة بها. فإما أن تقبل بدور الخادم والحارس ضد بربرية الشرق كما كانت ضد «البربرية الشيوعية». وإما أن تبحث غن طريق القوة بنفسها.. ها هنا بدأت هوية تركيا الجديدة تتضح. لا بل هنا بدأت تركيا تخرج من خداع الذات لتعود إلى رشدها وواقعها وماضيها كسيدة من سيدات الشرق وليست كخادمة من خادمات الغرب..

انتهزت تركيا فرصة تفكك الأتحاد السوفياتي لتقفز إلى عالم الشعوب الناطقة بالتركية. ورأى أوزال ومن بعده تشيللر واربكان أن طريق شركائهم وإخوانهم قد بات مفتوحا. فهم موجودون من الأدرياتيك إلى حدود الصين. وقد كان الاهتمام الأساسي باتجاه أذربيجان وجمهوريات آسيا الوسطى الأربعة الإسلامية والناطقة بالتركية: أوزبكستان وتركمنستان وكازاكستان وكيرغستان. واستطاعت تركيا أن تسجل لنفسها حضورا باهرا في الاتصالات وبناء الطرقات وفتح أجواء الطيران والبنوك ونقل الخبرات الزراعية والإدارية وكذلك المدرسين لتلقين اللغة التركية لهذه الشعوب التي كانت تتخاطب بالروسية. ازداد ذلك الاهتمام مع عودة الصحوة الإسلامية للنخب التركية. فقد آمنت بعض النخب بالغرب فيما آمن بعضها الآخر بالشرق والإسلام. ومنذ البداية أدركت أن هذه الشعوب متعطشة للدين الذي حرمت من ممارسته العلنية. وأن المعطى الإسلامي هو القاطرة الأساسية لهوية هذه الشعوب. ولأن الأجواء في تلك المناطق كانت مشحونة بالحماس للعودة إلى الإسلام، فقد أصبح السباق على أشده بين تركيا وإيران والسعودية.. كانت إيران تقدم منتوجا إسلاميا ثوريا ذا طابع شيعي، فيما كانت السعودية تطرح نموذجها الوهابي الذي لا يستهوي الكثيرين. أما تركيا فقد قدمت نموذجها الإسلامي شبه العلماني والديمقراطي مع لبيرالية السوق.

من الممكن أن يلاحظ المرء هنا أن اندفاع تركيا نحو الإسلام قد فرض عليها من الخارج. فرفضها من أوروبا ثم الانبعاث الإسلامي القادم من إيران، وتمدد الإسلام السعودي في جوارها ثم حرب الإبادة لمسلمي البوسنة والهرسك، كل ذلك جعل جزءا كبيرا من النخبة التركية تتجه نحو «أسلمة السياسة» التركية لتتلاءم مع محيطها ثم «أسلمة الدولة» لتتمكن من التغلغل والانتشار. وحتى قبل أن يصعد أريكان (حزب الرفاه) إلى الحكم، كان تورغوت أوزال الليبرالي هو الذي وضع أسس ذلك المخطط. وربما

كان فشل اربكان لا يعود إلى محتوى الخلاف بينه وبين المؤسسة العسكرية، وإنما في أسلوب إدارة الصراع. فالعسكريون الأتراك كانوا يتعاونون مع أوزال باعتباره ليبراليا وغربي الثقافة. أما نفورهم من اربكان فيعود إلى ميوله الإيديولوجية (الإسلاموية) بالرغم من أنه مهندس من خريجي ألمانيا. كان عليه أن يبحث عن أسلوب للتوازن بين الإسلام كإيديولوجيا والإسلام كجيوسياسة.. أو بين الإسلام كفلكلور شعبوي والإسلام كمصالح قومية.. ولكنه لم يعرف كيف يقوم بصناعة ذلك سياسيا.. بعد سنوات من انقلاب كنعان ايفرين على اربكان، عاد الانبعاث الإسلامي إلى تركيا مع حزب شاب يقوده شباب براغماتيون هو «حزب العدالة والتنمية» وعلى رأسه رئيس بلدية اسطنبول وبائع الثلوج والآيس كريم السابق طيب أردوغان.. أمضى أردوغان عدة سنوات وهو يناور مع حزبه حتى لا يعود الجيش إلى السلطة، فابتعد عن التحالف مع الجماعات المتطرفة واستخدم لغة السوق الليبرالية وحافظ على مجال تركيا الحيوي وتعاون مع الحلف الأطلسي ولم يقطع مع الأوروبيين وقاتل الأكراد وطارد زعماءهم ثم عزز وجود تركيا في البلقان والشرق الأوسط وآسيا الوسطى.. بعد ذلك، أي بعد تلك التنظيمات والتحصينات تقدم أردوغان لمعركة كسر العظم مع الجيش فأضعف دوره السياسي وجعله في خدمة الدولة التركية بدلا من أن تكون الدولة في خدمة الجيش.. وكان كل ذلك يتم بمناورات شديدة الذكاء عبر الديمقراطية مستخدما فن إدارة الاستفتاءات وفن قيادة الشعب من منصات الشوارع..

كانت تركيا دائما بمثابة الجسر الرابط بين الشرق والغرب. وهذا ما يرد على لسان نخبها في جميع ألوانها. فهي جسر بين أوروبا وآسيا جغرافيا، وهي جسر بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي دينيا، وهي جسر بين ثقافة الشرق والغرب. وحين يقال جسر، فهو تأكيد من ناحية على تصدع ما في الكيان الجيوسياسي، كما هو من ناحية أخرى تأكيد على أنها مفترق ثقافي ومادي عظيم جدا يقع بين عدة ثقافات وحضارات. لم يهمل إسلاميو وتركيا تلك الحقائق الجيوسياسية بل عملوا على تنمية عناصرها فبعثوا الحياة حتى في تراثهم القديم الذي ظل مهملا ومحتقرا لعقود طويلة. وكما لعبت تركيا دور الجسر منذ زمن بعيد، أي منذ عهد بيزنطة وروما (المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية) فها هي تعود لتلعب دور المزاوجة والمؤاومة بين الإسلام والديمقراطية. وذلك ما أعطاها الدور الأول في ما يسمى بـ«الربيع العربي». فالتجربة التركية هي التي شجعت الإدارة الأمريكية على وضع أيديها في أيدي التيارات الإسلامية المعتدلة. وتركيا هي التي قامت بدور الوساطة. وتركيا هي التي أثبتت أن الإسلام السياسي بإمكانه أن يكون ديمقراطيا لأن توجهاته ليبرالية وغير

متعارضة مع السوق الرأسمالية.. وأخيرا وطبيعيا جدا أن تصبح تركيا هي «الباب العالي الجديد» للإخوان المسلمين العرب. فإذا كانت إيران قد قامت بثورة، كانت آخر ثورة كلاسيكية في القرن العشرين من أجل أسلمة الدولة ووقف «الامتهان التغريبي». ثورة جمعت كل الأطياف السياسية في لحظة تحدي لقلب نظام كان من أكثر الأنظمة توحشا واستبدادا وتبعية للغرب، ثورة أعادت للإيرانيين «روحهم المعذبة والمتعبة» منذ فشل ثورتهم الأولى في بداية القرن العشرين، فإن الأتراك هم أيضا قاموا بثورة من نوع آخر وعلى نحو متدرج ضد دولتهم لإعادتها إلى الشرق والإسلام. ولكن هناك فرق يكمن في أن ما حدث في تركيا كان كذلك من نتائج الثورة الإسلامية في إيران. فهاتان الدولتان كانتا دائما تتغذيان من الصراع بينهما. فالثورة الإيرانية الأولى قد «دفعت» النخب التركية إلى التمرد ضد الباب العالي ونظام السلطنة. كما أن «غرينة» كمال أتاتورك قد شحنت الضابط القاجاري (رضا بهلوي)*[21] والذي أصبح فيما بعد شاها، على الزواج بالغرب. أما الثورة الإسلامية في العام 1979 فقد أرغمت تركيا على النهوض من فراش الغرب لتتجه وتحدق جيدا في الشرق. إن إيران وتركيا ليسا فقط عالمين للشيعة والسنة، وإنما هما دولتان/أمتان تتصارعان وتتلاقحان، تلتقيان وتفترقان في محيط جيوسياسي متداخل ومتشابك في القلب منه، العالم العربي.

*** *** ***

مع وصول الخميني في العام 1979 إلى طهران، خسرت إسرائيل إيران كحليف إستراتيجي (منذ عهد بن غوريون) وربحت السلام مع مصر عبر اتفاقيات كمب ديفيد.. خرجت مصر من الصراع العربي/الإسرائيلي فدخلت إيران من الباب الذي خرجت منه مصر. ومن زاوية أخرى لنقل خسر العرب مصر ولم يربحوا إيران. فقد تحولت فجأة إلى «قوة غاشمة» في نظر الخليجيين الرجعيين والعراقيين البعثيين. خسرت السعودية إيران ومصر ثم العراق ثم سوريا، ولم يربح العرب إلا الحروب الأهلية. لقد أصبح محور القوة لدى العرب معطلا. لم يعد يشتغل منذ فترة طويلة، طاقته تبددت في الصراعات الداخلية وتوزعت على تحالفات وهمية، ولم يعد له أي قدر من الطاقة أو من النظارة. فإذا ما اختلفت أو تصادمت السعودية مع إيران ومصر مع أثيوبيا وتركيا مع العراق وسوريا، فإن الرابح الوحيد هو «إسرائيل اليهودية». هاهي إسرائيل في الوسط في قلب المسافة بين جميع هذه الدول حيث توجد تركيا على شمالها الغربي. وإيران على شمالها الشرقي والحبشة في جنوبها.. كل هذه الدول ليست عربية. وهي تشترك في النفوذ والحدود مع العالم العربي. وتمسك بأوراق

قوية من المياه إلى الطاقة، ومن الديمغرافيا إلى الأديان.. وداخل هذا المثلث الكبير، يحيط بإسرائيل مثلث عربي متوسط وقريب. هو مصر من الغرب والعراق وسوريا من الشمال والأردن من الشرق واليمن والسعودية من الجنوب والشرق.. وداخل هذين المثلثين تبرز إسرائيل من نواح عدة كقوة متحكمة في خيوط اللعبة، ومن ناحية أخرى كأقلية دينية وجغرافية توشك على الغرق.

في الحقيقة، لا تتحكم إسرائيل في خيوط اللعبة إلا بالقدر الذي تتحكم فيه أمريكا، وهي قد تكون تشعر بالضيق أو الاختناق، ولكنها لا توشك على الغرق.. وإنما هي توجد في منطقة التصادم الكبرى، المولدة للعنف والإرهاب والصراعات بأنواعها.. إن إسرائيل بموقعها ذلك تمنع الجيوبولتيك العربي من النمو. فهي تفصل بين أرض النيل ومصر كأكبر دولة عربية وبين أرض الهلال الخصيب (العراق وسوريا). وهي تغذي الصراع بين السعودية وإيران، وهي تساعد أثيوبيا ودول حوض النيل للضغط على مصر. وهي تتعاون مع تركيا من أجل الضغط على إيران. وبما أن أعداء إسرائيل الحقيقيين ليسوا هم الأحباش ولا الأتراك ولا الفرس، فإن كل ما يحدث لإفساد تلك العلاقات بين تلك الدول يصبح عملا نبيلا. وكل ما يجري من مذابح وإرهاب في سوريا أو العراق أو مصر أو اليمن إنما يصب الحب في طاحونة إسرائيل التي صنفت نفسها كدولة دينية.. إن الصراع في هذه المنطقة الكبرى هو في جوهره صراع قومي من أجل القوة والمصالح حتى وإن بدا شكليا مقاما على الاصطفاف الديني. فإيران الشيعية وتركيا السنية وأثيوبيا الأرتودكسية وإسرائيل اليهودية، كلها دول ذات هوية دينية سياسية ولكنها هي دول قومية. فحتى أثيوبيا التي ودعت نظام «هيلا ميريام» الشيوعي الملحد، ثم عادت تستلهم المخزون الأرتودكسي، وهي تضع نفسها كموجه للكنيسة القبطية في بلاد وادي النيل من مصر إلى أوغندا مرورا بالسودان. إنما كانت تتحرك بنوازع قومية. وإذن يمكن القول أن الحراك العربي كانت تنقصه الطاقة القومية. فحتى الشحنات السعودية تبدو ضعيفة لأنها لا تحمل لا وعدا بالعدالة والديمقراطية ولا وعدا بتوحيد أمة العرب. وها أن بعدما فشل الدفع الإسلامي السياسي في بلاد الربيع العربي، كشف المتطرفون والجهاديون الإسلاميون عن مشروعهم الذي أخذ عنوان «داعش» (الدولة الإسلامية) غير أن داعش حتى وإن كانت تحمل وعود الخلافة والوحدة، فإنها لا تعدو أن تكون «مخلوقا متخلفا» عن عصره. إنه رد فعل متخلف على محيط عاجز ومتخلف. إن داعش لا تعبر هنا إلا عن «حضور الأديان» في لعبة الجيبولوتيك الكبرى كطاقة روحية مولدة للخلافات والانقسامات في منطقة تمتد من أفغانستان إلى بلدان الساحل والصحراء..

لم يعد الإرهاب المعولم جوالا فقط، بل أصبحت له أرض منذ عدة سنوات في بلدان الساحل والصحراء. وفي هذه الأرض الواسعة جدا يتعايش الإرهاب مع الدول المهمشة وشبكات التهريب وحركات التحرر. إن جغرافيا دول الصحراء والساحل (الصحراء الكبرى) ليست جغرافيا متصدعة فقط، بل هي ممزقة وفي نفس الوقت مفتوحة على بعضها بعضا إلى حد يستطيع فيها الإرهابي أن يشقها انطلاقا من البحر الأحمر على واجهة السودان إلى واجهة موريتانيا الأطلسية مرورا بتشاد فالنيجر ثم بوركينافاسو فمالي حتى موريتانيا. وهذه المساحة مرتبطة أشد الارتباط بالعمق المغربي حتى سيناء فغزة وكذلك بأرتيريا حتى باب المندب، كما هي تخترق جنوب ليبيا وجنوب الجزائر وتشرف على شمال نيجيريا ويمكن أن تنحني من جهة بوركينافاسو نحو الكوت ديفوار. إنها صحراء الإسلام السني والصوفي. وتتشكل هذه الصحراء الإسلامية من ستة دول إفريقية تتوسط شمال إفريقيا ووسط وغرب إفريقيا. وقد كان هذا الفضاء المفتوح مقسما حسب الخرائط الاستعمارية إلى السودان الانكليزي والسودان الفرنسي. وتتميز شعوب هذه المنطقة ذات الأغلبية الإسلامية والموزعة على مساحة تقدر بنحو 7 مليون كلم (ضعف الهند) بقلة الكثافة السكانية وبكثرة التنوع العرقي والثقافي والديني. وقد كان من خصائص هذه الكثافة السكانية أن تسبب صعوبات جيوسياسية داخلية. فحكومات هذه الدول الستّ لا تمارس سيطرتها على كامل حدودها إلا نظريا. فهي لا تملك القوة الكافية للإعمار والتنمية والسيطرة. وبات من المستحيل حتى مراقبة الحدود المشتركة بين هذه الدول التي تشترك ككتلة في العديد من الحدود الأخرى. وبما أن النظام المركزي لكل دولة لا يملك الوسائل الكافية لفرض سلطاته على كامل أرضه، فقد أنشئت منظمة للتعاون الإقليمي في طرابلس منذ أواخر الثمانينات عرفت «بسينصاد» (دول الساحل والصحراء). ورغم ذلك فقد كان لا مفر أن تقوم مجموعات محلية لمراقبة الحدود مع الدولة المركزية. وتنتمي عادة تلك المجموعات إلى العرق أو القبلية التي تشعر بأنها وريثة شرعية لتلك المنطقة. وبذلك يبقى احتمال أن تتحول تلك المجموعات (حشود شعبية حسب التسمية العراقية) إلى متمردين على النظام نفسه. وغالبا ما تسير تلك المجموعات وفق سيناريويين. الأول: أن يفرض من يصبح قادرا على إنهاء التمردات ومراقبة المناطق تغيير الحكومة المركزية. أو يسعى التمرد ذاته إلى التحالف مع المجموعات الشعبية ثم إلى السيطرة على النظام وتحويل ذلك الانتصار المناطقي إلى انتصار وطني..

تلك الدورة الجهنمية بين النظام والفوضى والتي لا تتوقف، غالبا ما تنتج انقلابات عسكرية ذات طابع قبلي أو مناطقي لا تلبث أن تصبح مولدة لانقلابات وتمردات أخرى. فتاريخ دول مثل موريتانيا وتشاد وحتى السودان والنيجر ومالي وبوركينافاسو

هو تاريخ الانقلابات بامتياز. وقلما يوجد بلد من هذه البلدان لم يعرف منذ تأسيسه اقل من نصف دزينة من الانقلابات. ولم يكن من الممكن أن يعني الانقلاب في تلك البلدان، نصرا نهائيا أو سلما دائما. وقد عرفت هذه البلدان تجارب متفاوتة لتقاسم السلطة على الطريقة الديمقراطية. ولكن في كل مرة تحدث فيها انتخابات، يستيقظ فيها الشعب ذات يوم على بلاغ عسكري. وقد حدث ذلك في موريتانيا والنيجر ومالي أكثر من مرة حتى بعد أن انضمت هذه البلدان إلى نادي الديمقراطية في أكثر من مرة. ولا يمكن هنا استبعاد السودان لأن الانقلاب الأخير لايزال يحكم منذ نحو ربع قرن. فالثمن الذي دفعه النظام الحالي ربما كان أرفع تكلفة من أي انقلاب آخر. فتخليه عن الجنوب واستقالة السلطة المركزية عن إقليم دارفور قد أعطى للإخوان العسكريين بعض الوقت الإضافي..

إن قلة السكان تجعل من الجغرافيا عبئا على أية حكومة. وهو أمر تعاني منه حتى ليبيا والجزائر بالنظر إلى مساحتيهما. بعد ذلك يأتي الضعف الآخر في عدم الاستقرار*[22]. فشعوب الساحل والصحراء على قلتها إلا أنها تتنوع بكثرة على المستوى العرقي واللساني والديني. ويمكن أن يلاحظ المرء الاختلاف الظاهر بسرعة وهو يتعلق بالاختلاف بين البيض (السكان ذوي البشرة السمراء الذين يسكنون عادة الجزء الشمالي لهذه البلدان) وبين السود الذي يسكنون الجزء الجنوبي. ولكن من الصعب التعرف على حدود وانتشار الأعراق المنتشرة مثل البامبارا والمالنكي والبال والتوكولور والبوزو والبولزار والمينانكا والمور والسوغاي والماندينغ والسينوفو إلى جانب العرب والطوارق والبيجا والنوبة والفور. وهؤلاء كلهم متجاورون لبعضهم بعضا ويشاركون في طرقات القوافل والمراعي والمياه.. وفي المحصلة يتوزع سكان الساحل والصحراء على أكثر من مئة مجموعة عرقية تتدين أغلبها بالإسلام والبقية: إما مسيحية أو احيائية وثنية، لكن كما يصعب فرز الديانات في تلك الدول يصعب كذلك فرز العرقيات بدقة لأن كل مجموعة تنقسم بدورها إلى مجموعات أخرى، ومن هنا نشأ دائما ما يمكن أن يسمّى بـ«الاستحالة الجيوسياسية». فالنظام المركزي لم يستطع أن يقدم هوية وطنية متحدة للسكان، كما لم يستطع أن يحمي مجاله الجغرافي من أية اختراقات «أجنبية». «ففي كل مرة تريد «حكومة العاصمة» أن تصوغ «هوية سياسية» تجد نفسها أمام المقاومة أو التمرد. ويمتد ذلك بسرعة إلى بلدان الجوار للاحتماء بالمجموعات العرقية الأكثر تشابها»*[23]. وقد ثبت مرارا أن هذه المجموعات تفضل التعلق بتقاليدها على الجنسية القانونية كما تفضل الالتحاق بمجموعتها العرقية حين ينشب أي صراع على السلطة. إن توزع نفس المجموعات العرقية على أكثر من دولة كثيرا ما تسبب

في نشوب حروب بين تلك الدول. وتلك الحروب كثيرا ما جعلت بلدانا أخرى أرض استقبال للاجئين من الحرب لأن لهم أقارب في تلك الدول. فالسودان كان باستمرار أرض لجوء للتشاديين. وأولئك اللاجئين يعيدون التسلح للهجوم مرة أخرى على الحكم (مثال الزغاوة وهروب إدريس دبي من نجامينا بعدما فشل في الانقلاب على حسين حبري.. ثم عودته في العام 91 على رأس ميليشيا من قبيلته الزغاوة). ومثل السودان، كثيرا ما كانت الجزائر أو موريتانيا أرضا لاستقبال اللاجئين من النيجر أو من مالي.. واغلبهم من العرب أو من الطوارق.

وبالإضافة إلى الاختلاف العرقي وما ينتج عنه من قتال وتمردات وانقلابات، فإن التوزيع الديني في بلدان الساحل والصحراء كثيرا ما ساهم في تمزيق تلك الدول. فحتى لو كان الإسلام هو دين الأغلبية، فإن الصراع الديني كالذي بين المسيحيين والإسلاميين، أو التطرف الديني بين الاتجاهات الإسلامية نفسها قد أربك تلك الدول وجعلها أرضا لإنتاج العنف الديني..

وتتجلى باستمرار تصدعات داخلية مردها إلى المسألة الدينية.. وتكثر الأحزاب ذات النزعة الدينية خاصة في السودان. فحزب الأمة أو الأنصار ذي التوجه الإسلامي عريق جدا مثل الإخوان المسلمين، إلى درجة أن الصراع العرقي بين شمال/جنوب تحول إلى صراع مسيحي/إسلامي. وتمتد تلك النزعة إلى تشاد، حيث جنوبه مسيحي وشماله مسلم. وهو ما ينطبق بشكل كبير على الكاميرون المحاذية وعلى نيجيريا ذات الأغلبية المسلمة القاطنة بمقاطعات الشمال. وهذا ما يمكن أن نجده في «بوركينافاسو» ذات الشمال المسلم. وفي الكوت ديفوار المحاذية التي تقطنها أقلية مسلمة في الشمال. ويتشابه التوزيع الديني في كل من السودان الحالي مع النيجر ومالي وموريتانيا.. إذ تتراوح الأغلبية الإسلامية ما بين 90 و92%، فيما تتوزع البقية على الإحيائيين والمسيحيين. وقد استقبلت معظم هذه البلدان الإسلام من ناحية الشمال (شمال إفريقيا) سواء عبر الهجرات أو القوافل أو الدعوات الصوفية أو الدعوات الإسلامية الإنبعاثية، في حين جاءت المسيحية من الجنوب عبر الأوروبيين الذي تمددوا على الساحل الأطلسي.. ورغم ذلك فإن عنصر الدين في عموم إفريقيا لا يرقى إلى عنصر العرق. فقد تعاملت الأنظمة الحاكمة والغالبة لبقية المجموعات مع الدين كعنصر للسيطرة وكذلك لصناعة الهوية. وشيئا فشيئا، أصبح الدين محركا سياسيا كبيرا في تلك المنطقة، ولكن ذلك الدين لا يتكلم لغة واحدة. فلغة القرآن (العربية) هي لغة رسمية فقط في السودان وموريتانيا. ولكن حتى في هذين البلدين لازالت لغات أخرى تتواجد إلى جانب العربية كالأمهرية والأريترية والانكليزية بالنسبة للسودان. أما في

موريتانيا فإن لهجات محلية لازالت تعيش إلى جانب العربية مثل «البولار» و«الولوف». وبالرغم من أن مالي والنيجر وبوركينافاسو وتشاد قد اتخذت الفرنسية كلغة رسمية، إلا أن هذه اللغة لا يتكلمها إلا نحو 12% من مجموع الشعب. أما أكثر اللغات استعمالا فهي الهوسا والتماشاق والكانوري والبامبارا والعربية.

وفي الحقيقة، فإن مشاكل هذه الرقعة الجغرافية الكبيرة كثيرة جدا تبدأ من المجاعات وقلة السكان والهجرات الفوضوية وغياب الثروات والصراعات الدينية والعرقية، إلى حد لا تقدر أية دولة من هذه الدول على تحمله. ولقد صنع الاستعمار حدودا في هذا الفضاء الممتد من المحيطين الهندي والأطلسي، لا تستجيب أبدا للمعطيات الجغرافية حتى تتحول هذه البلدان إلى فضاءات جغراسياسة. ولقد كان هذا الفضاء من أكثر المناطق التي استدعت حرب الحدود مثل حرب تشاد بسبب إقليم أوزو*[24]، وحرب المراعي بين بوركينافاسو ومالي وحرب الجزائر مع المغرب بسبب صحراء تندوف ثم بسبب حرب الصحراء الغربية التي لاتزال مفتوحة وحرب موريتانيا مع السينغال بسبب المياه أو حتى حرب السودان الحدودية بسبب حلايب مع مصر أو بسبب سلسلة الجبال الشرقية مع أرتيريا. ومثل هذه الحروب ليست إلا «عقوبات إضافية» لسكان تلك البلدان. فهي تقطع التعاون والاندماج وتصنع مناطق الحماية للإرهاب والتهريب. وهكذا نصل إلى نتيجة أن دول هذه المنطقة ليست كيانات هشة فقط، بل هي كيانات ما تحت الدولة، لأن السكان قليلين وغير ثابتين (رحل في أغلبهم) ولأن المكان غير مراقب ولا يخضع لسيطرة أية دولة، ثم لأن السلطة المركزية عاجزة عن السيطرة والإدارة.. كل ذلك الخليط من الهشاشة والضياع هو الذي أضاع ثروات تلك البلاد.

*** *** ***

لا أحد ينكر أن أرض هذه البلدان تختزن ثروات هائلة. فالسودان يملك المياه والمراعي والبترول والثروات الحيوانية. وتشاد أصبح منتجا ومصدرا للبترول كما اللحوم. والنيجر تملك أكبر مناجم الإيرانيوم في العالم. ومالي تعتبر من مصدري القطن والفوسفاط والثروة الحيوانية. وكذلك موريتانيا، فهي تملك ساحلا غنيا جدا بالأسماك وتنتج الفوسفاط بكميات كبيرة وتملك ثروة حيوانية هائلة. وتوجد دول أخرى محاذية لهذا الشريط الصحراوي غنية بالبترول والغاز مثل ليبيا والجزائر والكاميرون ونيجيريا. ويمكن لهذه الثروات أن تقيم توازنا جيوسياسيا إقليميا للتحول والتغيير، ولكن يبدو أن عنصر التحول والاستقرار (الثروات) هو الذي أصبح عنصر عدم استقرار وحروب. وكما في الشرق الأوسط كذلك تقريبا في دول الساحل

والصحراء. فحين اختلط الدين بالثروات، جاء دور الديناميت ليفجر تلك الكيانات..

إن الرجل الوحيد الذي أدرك منذ ثلاثة عقود على الأقل، أن دول الساحل والصحراء هي امتداد حيوي للأمة العربية، هو: القذافي الذي عمل طويلا وكثيرا من أجل ترتيب كتلة ديمغرافية وجغرافية حامية للأمن القومي العربي.. فهذا العمق الصحراوي يفتح على بلدين عربيين من جهة السودان وكذلك من جهة موريتانيا (البحر الأحمر والأطلسي)، ثم هو يتدين في أغلبه بالإسلام ويحاذي بلدان المغرب العربي أو شمال إفريقيا كلها من مصر إلى المغرب. ويمكن أن يتحول إلى مصدر للتوتر والإرهاب والإرهاق لمثل هذه البلدان.. وقد وسع القذافي في جغرافية دول الساحل والصحراء إلى حدود السينغال في الغرب وارتيريا من ناحية الشرق ثم إلى نيجيريا والكامرون من ناحية الجنوب، وقد استطاع إلى حد ما أن ينجح في ترتيب وتسوية كثير من الصراعات في هذه البلدان، ولكن حجم التحديات كان أكثر مما تعمله ليبيا لوحدها. فالمغرب أو الجزائر كانا على خصام بسبب الصحراء ومصر والسودان كانا على خصام بسبب حلايب، وبذلك فإن العرب الأفارقة أنفسهم هم الذين أفسدوا مشروع بناء السدّ المنيع لحماية الأمة العربية من ناحية الصحراء الإفريقية..

*** *** ***

«إن تاريخ الشعوب يشبه الخطوط الهندسية، فيها المستقيم وفيها المنكسر والمنحني» حسب تعبير أحد أباء مؤتمر طنجة عام 58 عبد الله إبراهيم*[25]. وإذا كان بعض الانتكاسات في تاريخ المغرب العربي قد أتت في الماضي مع الإسبان والأتراك ثم مع الفرنسيين، فإن انكسارات الحاضر والماضي القريب قد صنعت بأيدي ابنائه. هكذا ربما لم يخطئ أحد في حق تقدير بلاده كما أخطأت النخب العربية عموما والنخب المغاربية خصوصا. إن هؤلاء المبالغين في الحديث عن الأمة العربية وعن «مغرب بلا حدود» والميالين بطبعهم إلى أضيق الطرقات والمسارات والآفاق قد أطالوا السير باتجاه المجهول حتى استيقظوا على حقائق مفجعة ومؤلمة. إن المغرب العربي اليوم لا يبدو فقط بلا قيادة وبوصلة، وإنما هو محاصر بمزيد من التفتت والإرهاب من جميع الجهات..

في الحقيقة لم نعد نسمع أو نقرأ اصطلاح «المغرب العربي الكبير» إلا نادرا. فقد حل محله مصطلح آخر: «المغرب الإسلامي». وفي أحيان أخرى «شمال إفريقيا». المصطلح الأول كان تعبيرا عن هوية مفقودة زمن الاحتلال وأثناء حروب الاستقلال. المصطلح الثاني هو التعبير الجديد الذي يلبي حاجيات وجاذبية الإسلام بالنسبة للتنظيمات والجماعات الإسلامية. أما مصطلح شمال إفريقيا، فهو تعبير أوروباني

(فرنسي) يريد أن يفصل إفريقيا عن أوروبا وكذلك عن المتوسط (إذ كان من الممكن أن تسمي كذلك بلدان جنوب المتوسط)، وكذلك عرب آسيا عن عرب إفريقيا. ولكن ذلك الذي كان من أهداف الغرب قد أنجزه أبناء المنطقة على أحسن ما يرام..

كان مؤتمر طنجة لبناء المغرب العربي في أفريل/نيسان 58 خطوة كبرى بمعايير ذلك الزمن على تلك الطريق الوعرة، بيد أنه لم ينتج إلا المزيد من الانقسامات والسدود. فبعد سنوات قليلة من ذلك المؤتمر هبت عواصف أغرقتها فيما يمكن أن يسمى بـ«حمّى الكيانية الصفراء». شكل استقلال موريتانيا وإعلانها كدولة، خيبة كبيرة للمغرب. ثم باعدت الخلافات حول ذلك المولود الجديد بين دول المنطقة. ثم جاءت حرب تندوف بين الجزائر والمغرب لتشكل تصدعا ثانيا في المنطقة.. وترفع جدران الخوف والهواجس. وما كادت المنطقة تخرج من آلام الماضي، حتى انفجرت قضية الصحراء لترفع جدران الرمال والشوفينية الجياشة. بعد ذلك جاء الخلاف على رسم الحدود بين موريتانيا والمغرب وبين الجزائر وتونس وبين تونس وليبيا وكذلك بين ليبيا والجزائر. وإلى هذه اللحظة يأسف بعض التونسيين لأن بورقيبة قد تنازل عن صحراء تونس لصالح الجزائر (بنحو 40 ألف كلم^2 – الخط الفاصل رسمته فرنسا) كما يأسف بعض الليبيين لأن الملك إدريس قد تنازل عن «حاسي مسعود» للجزائر الفرنسية وعن إقليم أوزو لتشاد الفرنسية.. ومر عقد الثمانينات مترنحا ومتلبسا بالشوفينية والأصوليات الوطنية ثم جاء عقد التسعينات حاملا ومثقلا «بالأصوليات الدينية». استوطنت تلك الحساسية الفتاكة في المنطقة الوسطى، الجزائر ثم تمددت أعراضها المرضية في ليبيا والمغرب وتونس وموريتانيا ومنها إلى دول الساحل والصحراء، حتى أن ما نشاهده اليوم ما هو إلا جيلا جديدا من تلك «الأصوليات المحاربة» التي تعاون على إنتاجها الاستبداد والخلافات الحدودية والفقر وامتهان الهوية وعدم الاستجابة لحقائق الجغرافيا السياسية..

تمتد بلاد المغرب على (6 مليون كلم^2). وإذا أضفنا لها مصر، تصبح مساحتها ضعفي الهند أو 14 مرة مساحة فرنسا. ويسكنها حوالي مئة مليون مواطن بدون مصر وهي واحدة وموحدة منذ الفينيقيين إلى الرومان إلى الأتراك مرورا بالفاطميين والمرابطين والموحدين، من برقة على الحدود الشرقية لليبيا إلى جنوب شواطئ المغرب الأطلسية. غير أن هذه البلاد وحين انتقلت السلطة فيها إلى أيدي أبنائها بعد قرون من الاستعمار التركي والأوروبي أصابتها حمّى الكيانية الصفراء. بدا الأمر وكأن لا مفرّ لهذه البلدان من أن تتوزع في البداية إلى أربعة بلدان، ثم خمس ثم خمس ونصف (الكيان الصحراوي لا هو دولة ولا هو إقليم ذاتي ولا هو حكم مشترك – كوندونيوم)!..

إن المغاربة كثيرا ما يعجبهم الحديث بزهو وأحيانا بشماتة عقلانية عن خصوبة البطن المشارقي، بيد أن الجمل المغاربي رغم ادعائه بطول العنق، لا يلتفت عادة إلى الوراء إلا قليلا لكي لا يرى حدبته المرتفعة جدا!..

لقد لاحظ مرة «ميشال جوبير»، وزير خارجية فرنسا الأسبق*[26]، «أن المغاربة الأكثر تطلعا واطلاعا على أوروبا لم يتعلموا شيئا من الأوروبيين». كان بإمكان أي مواطن في الضفة الجنوبية للمتوسط أن يرى كم كان الأمر معقدا ومعاقا، لكي يفكر الأوروبيون في «أوروبا الموحدة».

ورغم ما يتوفر لأبناء المغرب من شروط مثالية للاتحاد، فهم كانوا دوما متمسكين بالماضي، خائفين أو مترددين أمام المستقبل. إن شيوع اللغة نفسها والدين نفسه زائد الجغرافيا المنفتحة على ثلاث بحار هي الأطلسي والمتوسط والأحمر (من جهة مصر) بالإضافة إلى تجانس السكان المستند في أغلبيته إلى جذع واحد، كل ذلك بإمكانه أن يشكل العناصر الأساسية لتكوين إقليم جغراسياسي كبير يتمتع باحترام وتقدير العالم. ومع ذلك فإن أوروبا التي طحنتها حربان كبيرتان خلال نصف قرن فقط، والتي تعيش باستمرار ضمن تعدد لغوي وثقافي يميل فيه كل جناح (لإقليم أو أمة) إلى التفوق والتعالي، استطاعت أن تنهض من جديد على فكرة التوحيد «ما فوق القومي» من الأورال إلى أعمدة هرقل، بينما استمر المغرب العربي مسيجا ومقفلا حتى تم إفراغه من القوة والمعنى وهو يواصل طريق الانحدار إلى الكيانات الهامشية الموازية وتفريخ الأصوليات الإرهابية.

لقد أصبح المغاربة في قلب القرن الحادي والعشرين. ولم يعد هناك متسع من الوقت لأفكار التعقل وسياسة الخطوات الصغيرة.. إن النقاشات حول كيف نحصن السيادة الإقليمية وكيف نفتح الحدود والتجارة البرية وكيف نرفع من نسب التنمية وكيف نضع إستراتيجية مشتركة للحرب على الإرهاب؟ تبدو غزيرة بل شديدة الغزارة غير أن الإنجازات هنا وهناك تؤكد أن كل بلد قد اختار طريقه لوحده نحو المستقبل، ذلك أن ما تحقق حتى الآن بعد نصف قرن أو أكثر لا يعدو أن يكون تضخما في اللغة والدعاية لكي تأخذ الاحتفالات والكلمات مكان الإنجازات. فإلى متى سيظل هذا المشروع الأكثر تداولا على الخرائط الدولية والقناصل والكتب والخطب السياسية والأكثر حضورا واكتنازا في أرحام الأمهات وكراريس الطلبة الصغار ورجال الأعمال، بلا رجال ولا وسائل ولا سياسات؟

تكلم البعض عن مغرب شعوب بدلا من مغرب دول. ودافع البعض عن منهجية التدرج مقابل القفز، كذلك وجد من يتحلى «بالواقعية السياسية» أمام السياسات

الارتجالية. ومدح آخرون سياسة المعالجة الباردة للمشاكل الساخنة.. إلا أن ذلك كله لم يكن إلا تعلات واهية يستخدمها العجزة. فمنهجية التعقل أو التدرج، كانت مجرد ادعاءات. وقد ثبت في الأخير أن الزمن لا ينتظر المتخلفين. فهو ينجز ويضيف ويهشم ويطرح لكي تخرج معادلات أخرى مليئة بأحاسيس وأساليب أفراد وجماعات أخرى. ومثلما يجعل الزمن من أناس، عبيدا متخلفين يجرون أثقاله في مسيرة لا تنتهي، فهو أيضا لا يعرف كيف ينفصل عن الذين يريدون شحنه بأفكار ومعاني جديدة.

إن إطالة أمد الصراعات السياسية هي جزء من إستراتيجية اللعبة الأمنية الوسخة.. وتدخل كثرة القمم كذلك في تلك الإستراتيجية الحذرة وغير الجدية. فقد عقدت نحو تسع قمم بين قادة المغرب من العام 1988 إلى العام 1994. وهذا رقم قياسي بالنسبة للمدة الزمنية. ومع ذلك فلم تنجز تلك القمم على الأرض إلا ضباب الأمل.. ففي القمم تتشخصن السياسة لتصبح لعبة بين القادة للإدعاء والتضخم والزعامة. وهي عادة ما تعقد تحت ضرورات أمنية أو ضرورات اجتماعية (كل زعيم يريد أن يظهر لشعبه أنه يريد المغرب العربي). وفي كل قمة كانت تتخذ إجراءات وقرارات، ولكن لا يعمل بها وغير نافذة المفعول. وفي الحقيقة فمنذ اجتماع مراكش في فيفري 1989 حيث تم الإعلان عن ميلاد المغرب العربي، كان يبدو لأقل مراقب يتحلى بالفطنة أن المجتمعين تحت سقف بلدية مراكش، كان ينقصهم الانسجام العقائدي، ولا يتحلون بالشجاعة الكافية ويخبئون شياطينهم في جيوب سراويلهم وواقعون تحت الشعور بالإثم والتقصير وكذلك تحت التهديدات الأمنية الداخلية والتحولات الدولية الكبرى. كان جدار برلين قد بدأ ينهار والاتحاد السوفياتي راح يتفكك. وهذا يعني أن الجزائر وليبيا سيضعفان وتتقلص أدوارهما (وهذا ما حدث فقد سقط الشاذلي بن جديد ودخلت الجزائر في حرب الإرهاب ثم حوصرت ليبيا وأدخلت إلى العزلة قسريا في العام 1992). ولو أن «قادة مراكش» أدركوا أن مشروع المغرب العربي قد حان إنجازه في تلك اللحظة التاريخية الفارقة، لكانوا صنعوا لبلادهم سلاما ونموا. كانوا بلا إستراتيجية وبلا رؤية وكذلك بلا أسئلة أو أجوبة. فالأسئلة التي أجاب عنها التاريخ بكره كانت غائبة ومغيبة، إذ ماذا يعني «برلمان مغاربي» والحال أن مجرد استفتاء من أجل ذلك الاتحاد لم يفكر فيه أحد في ذلك الوقت؟ وماذا تعني «هيئة عدلية» والحال أن لا وجود لأية محكمة دولية ترغم دولة ما في العالم على الاتحاد مع دولة ثانية أو تتنازل عن سيادتها بصفة مؤقتة أو دائمة لدولة أخرى؟ وكيف يمكن لقطار التعاون والتبادل التجاري أن يسير من طنجة إلى بنغازي والحال لا توجد سكك حديد منجزة لهذا الغرض كما لا توجد تشريعات جمركية موحدة؟ وكيف يكون بالإمكان الكلام عن عملة مغاربية موحدة ولا وجود لعملة قابلة للصرف والتحويل في المنطقة؟ ثم

هل كان يكفي أن نضع علما مرتفعا فيه كل رموز وألوان تلك الدول حتى نقول أننا أنجزنا الوحدة (العلم الأوروبي خال من أي رمز أو لون لأعلام دول أوروبا، وإلا بدا أمرا مضحكا). ومع ذلك فإن الذين صنعوا كل ذلك الفلكلور (بما في ذلك من تقسيم للهيئات والمؤسسات الاتحادية)، قد أصروا أن يسموا ذلك بالإنجاز التاريخي!

إن كل فكرة نبيلة تتعرض للخيانة أو التدنيس قد تثير في البداية السخرية ثم الحطّ من قدسيتها. ولكن في النهاية تتحول إلى نقمة على الذين قاموا بتدنيسها. ها أن الزمن قد كشف لنا أن المغاربة لا يريدون النظر إلى أوروبا إلا من زاوية واحدة هي زاوية التبضع. لذلك لم يدركوا أبدا أن الديمقراطية هي التي بنت أوروبا الموحدة، وليست عزيمة الرجال فقط. وبما أن فكرة الديمقراطية مفرغة وغريبة عن أولئك القادة، فكذلك تعهداتهم ومواثيقهم الاتحادية لم تكن تساوي شيئا في سوق الصرف الدولي. وقد يزعم بعض المغاربة أنهم ممنوعون من الوحدة والاتحاد ولكن من المنطقي أن يسأل المرء ممّن هم ممنوعون؟ الأرجح أن ذلك تبرير نخبوي قائم على الخوف من فقدان الامتيازات ثم من عدم التقدير والمعرفة لديناميكية العلاقات الدولية.. فقبل سقوط جدار برلين، كان يمكن أن يجد هذا الزعم بعض الصواب، إذ أن المنطقة تقع في مثلث التنافس الأوروبي/الأمريكي/السوفياتي. أما بعد التسعينات، فإن بارونات الأمن هم الذين أصبحوا يضخمون من العدو الخارجي للاتحاد المغاربي. فنحن نعيش في عصر التكتلات والاتحادات الإقليمية.. وقد أصبح فتح الحدود وتوسيع الأسواق والتخلي عن السيادات الضيقة ومفاهيم الدولة الحاضنة والمرضعة مطالب ملحة وضرورية لنظام العولمة.

من المحتمل أن يكون المغاربة لازالوا يبالغون في طرح «مغربهم الكبير» كإشكالية دولية لأنهم لا يريدون أن يصبح فعلا مركزا إقليميا يحظى بمكانة دولية لائقة. إنهم يخطئون إذا ما تصوروا أن «الجرأة» التي يعربون عنها باستمرار ولا يقدمون عليها، من شأنها أن تثير الخشية لدى الدول الكبرى.. ولو أن المغاربة (أعني الأنظمة والنخب السائدة حاليا) أدركوا أن فرصتهم في تكوين اتحاد هي حاجة لدى جيرانهم الأوروبيين لسارعوا إلى تنفيذ ذلك. وبما أنهم لازالوا منهمكين في سياسات الأمن والعزلة، فإنهم غير قادرين على إنجاز أي قدر من ذلك الاتحاد. فها هي ليبيا تتمزق وترمي بشظاياها في كل اتجاه بينما الجميع غائبون عن فعل أي عمل جماعي. وها هو شريط الصحراء الكبرى يبعث بعواصفه ورسائله الخطيرة، ولا أحد يتحرك. وها هو المشرق العربي يتشقق ويتذابح بينما الجميع لا يفكر إلا في بيته الصغير. وباختصار، إذا ما عجز هؤلاء عن القيام بواجباتهم تجاه شعوبهم وتجاه جغرافيتهم، فإن هناك قوى سياسية

أخرى تنتظر فرصتها. وهذه القوى المعادية والتي توصف أحيانا بالإرهاب والتطرف قد تقلب المعادلات التي لا يريد الآخرون تحريكها. فهل ينتظر قادة المغرب الكبير الحاليين مصير قادته السابقين: الرحيل بلا أسف مع لعنة التاريخ! وهل هم مصرون على أن يعطوا تلك القوى المعادية المبررات الكافية والشرعيات المفقودة ويفرشون لها الطريق لتتقدم نحو إنجاز مهمات عجز عنها العلمانيون والعسكر والتكنوقراط؟ وافتراضا لو أن هؤلاء الأصوليين الإرهابيين قد افتكوا السلطة في ليبيا ثم في تونس ثم في الجزائر، فإن هؤلاء سوف يكسبون الشرعية التاريخية في اللحظة التي يباشرون فيها بطرح منجزهم المغاربي غير المنجز. وعند ذلك فقط، قد يصبح الخوف لدى الجيران في شمال المتوسط والقوى الدولية مبررا لكي تتدخل*[26]. (بريطانيا أرسلت فريقا من السكوتلانديار بعد تفجير فندق في تونس في العام 2015). وإلى من سيعود اللوم آنذاك؟ إلى الموحدين الجدد الباعثين لأصولية جديدة كانت دائما نائمة في الوعي الجماعي لسكان هذا المغرب الكبير؟ أم إلى «المرابطين القدماء» الذين تيبسوا تحت الشمس الواحد وتلو الآخر. ولم يعرف أحد منهم كيف يطور من أساليبه ويمسك بالمبادرة؟ أم إلى «قراصنة البحر» الجدد حيث كانوا دوما يتأهبون لبعث الفوضى وبسط النفوذ؟!

***   ***   ***

إن المغرب العربي لم ينجز. وليس هو قيد التفكير لدى جميع أقطار هذه المنطقة. وما أصبح مطروحا للنقاش الآن هو: المغرب الإسلامي. أو شمال إفريقيا، بما يعني أن داعش المشرق قد يصبح دامش في مصر وشمال إفريقيا. وبما أن لا طريق للديمقراطية قد عبّد كما يجب ولا طريق للوحدة أو الاتحاد قد أنجز ولا طريق للتنمية قد اصبح سالكا، فإن المفاجآت والانقلابات والزلازل لن تبعد عن المنطقة بشكل نهائي. فتاريخ هذا المغرب الكبير يبدو ممزوجا بالدين إلى حدّ يصعب فيه الكلام عن سلطة قوية وموحدة وشرعية في الأرض دون أن تتحدد أولا مع السماء. إن الإسلام السني، الصافي والمعجون بالعادات والممارسات المحلية والمشحون دائما بحاسة ضد «عالم الكفار» ليبدو أكثر أريحية في بلاد المغرب من أية بلاد أخرى. هنا يكتسي الإسلام بطابع الصفاء السني (أقلية بسيطة من الأباضيين الخوارج في ليبيا وتونس والجزائر). وهنا يختلط المغاربة باعتزاز ثقافي ما انفك يدهش الأجانب بثرائه وأصالته. ولكن مثلما يشعرون بالدهشة، فهم يشعرون بالرهبة تجاهه لأنه يشكل الحصن الكبير لردّ «الكفار». فقد كان سماد المقاومة للاستعمار الأجنبي، وأخرج قادة كبار في حرب العصابات ضد الاستعمار. فالأمير عبد القادر الجزائري أو الأمير

عبد الكريم الخطابي أو الشيخ عمر المختار وعلي بن غذاهم، هم بالأساس فقهاء ورجال دين وحاربوا الاستعمار تحت راية الإسلام. وقد وصفوا آنذاك بأنهم متمردون وخارجون عن القانون، لكن التاريخ أنصفهم ووضعهم في مقدمة المجاهدين.

إن التاريخ المشترك لهذا المغرب من تواصل التراب إلى أنماط العيش. ومن الجذور العرقية إلى التلاحم خلال الشدة إلى الهجرة والاختلاط وصولا إلى الإمكانيات والطاقات، لهو شيء حاضر باستمرار في وعي المغاربة رغم البداوة والقبلية والانقلابات والتمردات وفضاءات السيبة والعداوات المتكررة خلال العقود الأخيرة. إن بلادا تحتوي على مدن إسلامية/منارات مثل القيروان وطرابلس وقسنطنية وتلمسان ومراكش وفاس وشنغيط، لا يمكن لها أن تنهض دون أن تتسلح بالإسلام. وهذا الدرس إذا نسيته «النخب والبيروقراطية العتيدة» فإنه يزال يستنهض همم رجال آخرين يعيشون مطاردين في صحراء تلك البلاد. وثمة قاعدة تاريخية أصبحت شبه مؤكدة من فرط تكرارها، أن الانبعاث أو الإحياء الثقافي والديني كان تقريبا يأتي من الشرق أو من الجنوب (من قرطاج إلى الفتح الإسلامي. ومن المرابطين إلى الموحدين) وأن الاستعمار يأتي من الشمال أو من الغرب (من الرومان إلى الوندال. ومن الإسبان إلى الأتراك إلى الفرنسيين).. يقال كذلك أن سكان المغرب الكبير كثيرا ما يفرشون السجاد لزائريهم، لكنهم أبدا لا يستسلمون للطامعين أو الغزاة أن يقيموا معهم.. وهذه صفة قد يعيدها البعض إلى ثقافة البداوة، ولكنها تفيد أن مبدأ التحرر هو فوق كل اعتبار. فالبلاد التي كانت تسمى ببلاد الرجل الحر (الأمازيغ) قد جعلت منها روما بلاد البربر أو البرابرة. (لا يختلف الأمر في شيء بين البارحة واليوم، فكل من يريد أن يقاوم الاستعمار أو الاستعباد يصبح إرهابيا أو بربريا). ولكن هؤلاء البرابرة/العرب أو هؤلاء العرب البرابرة كثيرا ما يفضلون عزلتهم على رفاهيتهم، ويفضلون تخلفهم عن حريتهم. إن المغرب الكبير إذ يبدو سهلا وبسيطا للوهلة الأولى ويغري بالامتلاك والاستحواذ، إلا أنه كان دائما معقدا ومركبا ولا يمكن القبض أو السيطرة عليه إلا إذا امتلكت أحاسيسه وتوقه إلى الحرية والتوحد. وحين يقرن المغرب بالإسلام، فلابد من اليقظة الشديدة. فقد نجح الاستعمار حيث لا يريد أن ينجح . أراد طمس ثقافة الشعب والأهل فأيقظ شعورا وطنيا قويا. وأراد أن يجعل من بلاد المغرب طريقا للعابرين بين القارات، فكان أن صنع منه كيانا ثقافيا هوياتيا موحدا يبحث عن إطاره السياسي (مجاله الجيوسياسي الحيوي).

وبالتأكيد فإن المغرب الكبير الذي ينتظر ذلك الإنجاز العظيم (المجال الجيوسياسي) هو الآن في قلب تلك التحولات التي تحدث من حوله، في شماله كما في جنوبه كما في

شرقه، وسواء تجاهل ذلك أو اختار «المعالجة الفردية المؤقتة»، أو اعتمد على الخارج أو ناور أو ساوم، فإن لا شيء سيجعل سياسييه ونخبه جديرة بالحياة إذا لم تفتح لشعوبها طريق الحياة الحرة والكريمة..

*** *** ***

إن المغاربة يعرفون إلى حد ما: من أين جاءوا؟ ولكن من المحتمل أن يكونوا لا يعرفون أين هم الآن؟ فالجغرافيا السياسية لهذا المغرب تكاد تكون مطموسة أو مهمشة أو متصدعة. وهو ما يجعل من سؤال الجيوبولتيك المغاربي: إلى أين؟ معلقا وغائبا ومهددا.

لابد أن نلاحظ أن هذا المغرب لايزال بلا مركز أو محور. وقد حاولت الجزائر بجغرافيتها المفتوحة على الدول الخمس أن تلعب دور المحور، لكن التعارضات الداخلية والخارجية كانت أقوى من الوسائل والإمكانيات. كما أن دخولها في سباق مع المغرب حول الصحراء الغربية قد أظهرها على أنها تريد الهيمنة من خلال الوصول إلى المحيط الأطلسي. وجاءت سنوات الحرب السوداء مع الأصولية الإسلامية فازدادت جدران المراقبة ارتفاعا.. وكلما تقدمت الجزائر نحو الديمقراطية أو نحو الاتحاد أو نحو بناء مركز سياسي قادر على التأثير والقيادة، وجدت من يصدها ويقف أمامها بالمرصاد.

من دون شك تعطي الجغرافيا الفسيحة الموروثة، الحق أو الأولوية للجزائر لكي تفكر في الاتحاد، ولكن الجغرافيا بلا سياسة وتجارة وتعاون ومشاريع ومواصلات تصبح جغرافيا صماء. بل تصبح عبئا على دولتها. إن الجزائر التي تملك نحو 7 آلاف كلم من الحدود البرية المشتركة والملتهبة لا تستطيع أن توفر لها الحماية إذا لم تتعاون مع جيرانها.. وبما أن الخصومات السياسية تتكاثر، فإن الجزائر تجد نفسها رغم تماسكها ربما أكثر هشاشة من جيرانها. إن 40 مليون ساكن على مليونين ونصف المليون كلم^2، هي تقريبا نفس نسبة الكثافة السكانية في مالي أو النيجر. وهذا ما يجعلها غير قادرة على حماية حدودها. فالجيش الذي قد يصل إلى ربع مليون هو تقريبا اقل من 20% من طاقة الجيش التونسي بالنظر إلى مساحة تونس التي هي أقل بنحو 15 مرة من الجزائر. إن موقع العاصمة لم يعد مؤهلا ليكون هو مركز الدولة الجزائرية. فلكي تخرج الجزائر عن انحيازها للبحر وتدرك أنها دولة برية ذات واجهة بحرية ثم تبتعد عن البيروقراطية والاكتظاظ عليها أولا أن تتجه نحو بناء عاصمة جديدة في وسط الجزائر لصياغة جيوبولتيك جديد. فإذا كان أغلب السكان على الساحل، نحو 75%، فإن أغلب ثروات البلاد في الجنوب الذي يبعد نحو ثلاث ساعات طيران. وبمعنى ما فإن الدولة التي لا تملك تصورا جيوبولتيكيا خاصا بها لا يمكنها

أن تصنع من نفسها قلب المغرب العربي (الهارتلاند). إن لا أحد بإمكانه أن يضع نفسه مكان الجزائريين ولكن من حق المغاربة جميعا أن يسألوا الساسة الجزائريين حول منجزاتهم من أجل مستقبل المغرب الكبير. وينبع ذلك الحق من اعتقاد راسخ لدى المغاربة جميعا، أن المغرب العربي معطل وجغرافيته متصدعة أما بسبب الجزائر أو بقرار من الجزائر. فخطوط الصدع الجغرافي والديني تمر كلها عبر الجزائر.. وما من طريقة للتغلب على الإرهاب العابر للصحراء أو التهريب إلا بالتنسيق والتعاون مع الجزائر. وبما أنها تملك خيوطا كثيرة في هذه المنطقة المتشابكة والمعقدة، فإنها كثيرا ما تتظاهر بأنها صاحبة الربط والحل، بينما هي أكثر هشاشة مما هي عليه وأكثر حاجة إلى التعاون مع الآخرين.. إن الطاولات المنتصبة (المستطيلة أو المستديرة منها) في الجزائر لاستقبال وفود القبائل والمليشيات والحكومات المقالة والحكومات المستقبلية لعموم دول الساحل والصحراء، هي أكثر بكثير من طاولات رجال الأعمال والسياسة الذين يريدون التعاون والتبادل.

من حق المغاربة أو المغاربيون أن يسألوا أيضا ما الذي فعلته الجزائر كي لا تسقط طرابلس أثناء الهجوم الأطلسي خلال العام 2011. وما الذي فعلته الجزائر حين تدخلت فرنسا عسكريا في مالي لضرب حركة أزواد في تمبكتو؟ وما الذي يمكن أن تفعله الجزائر لتونس فيما لو تعرضت لهجوم إرهابي بري ما يزال يتجمع ويجمع صفوفه ما بين صحراء ليبيا وصحراء الجزائر؟ وهل تستطيع الجزائر التحرك من أجل حماية موريتانيا أو تونس أو ليبيا من الإرهاب دون التعاون والتنسيق مع المغرب ومصر مثلا؟ كل تلك التساؤلات تفيدنا بأن الجزائر التي تعتقد بأنها مركز أو قلب المغرب العربي، لا تشتغل ضمن أهداف واضحة أو إستراتيجيات واضحة.

لم يعد خافيا الآن أن الأمريكان قد أقاموا قاعدة عسكرية في جنوب تونس. وقد بدأ بناء تلك القاعدة منذ العام 2013*[28] في عهد الترويكا. وما سمّى آنذاك «بالمنطقة المحرمة» قرب رمادة وقرب مثلث النفط التونسي/الليبي/الجزائري، قد أصبح الآن قاعدة عسكرية وإلى جانبها (ربما في جرجيس مركز قيادة «للأفريكوم»). ثم جاء اتفاق «الحليف من خارج الحلف الأطلسي» الذي تم التوقيع عليه في واشنطن في العام 2015، لتبدأ القاعدة في العمل بصفة رسمية*[29]. ومع أن الجزائر تعلم جيدا بأن وجود الحلف الأطلسي في تونس من أجل أهداف إستراتيجية تتعلق بالخصوص بليبيا والجزائر، إلا أنها لم تتحرك لكي تبطل ذلك أو توقف ذلك. وتستطيع أن تقدم تبريرات مثل أنها لا تتدخل في سيادة الآخرين، ولكنها لا تقنع أحدا بمثل ذلك الكلام إذا كانت تتكلم عن أمن قومي أو «أمن مغاربي». فوجود تلك القاعدة سيزيد من هشاشتها ويحد

من قدرتها على المناورة، وربما كان بداية لتصدعات أخرى على صعيد الجغرافيا السياسية. فأينما حل «المارينز» في العالم العربي والإسلامي إلا والتحق به الإرهاب، إلى حد بات فيه الناس يصدقون، أن الإرهاب صناعة أمريكية وأداة حربية وسياسية للسيطرة والنفوذ تستعمله الدول الصغيرة والكبيرة في الداخل كما في الخارج.

هذه القاعدة العسكرية لن يكون دورها أفضل من دور القواعد العسكرية في قطر التي تعتقد الجزائر أنها تقف وراء الإرهاب الإسلامي في ليبيا والسودان ومالي والجزائر وتونس. بل هي القاعدة الوحيدة في بلاد المغرب منذ أن أطرد القذافي قاعدة هويلس الجوية في العام 1971. وقد سبق أن طالب بها جورج بوش الابن، ولكن أولئك الذين ذهبت بهم رياح الربيع العربي في العام 2011 من بن علي إلى القذافي إلى حسني مبارك، وكذلك بوتفليقة الذي صمد أمام تلك الرياح، كانوا دائما عاقدين العزم على رفض ذلك الطلب.. وهكذا منذ زيارة الجنرال الأمريكي «دافيد رودريغيز» الذي شارك في الحرب الأفغانية والعراقية، في العام 2012، إلى الجنوب التونسي، تم رسم تلك «المنطقة المحرمة» لتصبح قاعدة عسكرية وسط صمت رهيب من السياسيين التونسيين والجزائريين. فهل ساومت حركة النهضة على بقائها في الحكم باسم السيادة التونسية؟ وهل قدمت حكومة الترويكا «قاعدة رمادة» العسكرية هدية مقابل بقائها في السلطة؟ ثم ما الذي يجعل الحكومة الجديدة والرئيس الجديد الباجي قايد السبسي يسارع إلى توقيع الاتفاقية الدفاعية مع أمريكا لو لم تهيئ له حكومة النهضة الطريق. كذلك من الممكن أن نتساءل عن صمت الجزائر. هل هو نتيجة عجز على الاعتراض أم هو مقابل تواجد عسكري جزائري في منطقة أخرى هي «جبل الشعانبي». فهذا الجبل الذي يحاذي الجزائر من ناحية الشرق والذي لا تزيد مساحته عن 60 كلم^2 قد أعلن هو الآخر «منطقة محرمة» منذ 2013 بدعوى أنه «وكر للإرهاب» بينما لم يعثر فيه حتى الآن لا على إرهابيين ولا على مخازن سلاح ولا على مساحات للتدريب. وكل ما يوجد فوقه هو أجهزة إرسال للبث الإذاعي والتلفزيوني التونسي دون أن يتم قطعها حتى الآن!..

حقيقة أن الطلاسم كثيرة، لأن عميان السياسة قد حضروا. وإذا كانت تونس قد انتقلت بعماء وهي منساقة وراء التصفيق والتهليل من دكتاتورية شبه وطنية إلى ديمقراطية خالية من أية وطنية، وهي تكاد أن تنهار من فرط الزيف والرثاثة والهشاشة، فإن قلب الجزائر ينبض بصعوبة من فرط ما تضخم جسدها وأصبح ثقيل الحركة وقليل النشاط. فالقواعد العسكرية الغربية المنتشرة بالقرب منها في مالي والنيجر وتونس تتموقع كلها عند خطوط الغاز والبترول والشمس (الطاقة البديلة)

وهي تتحكم في خرائط الأنابيب والطرقات وحركة مرور وعبور التهريب للسلاح أو للإرهابيين من صحراء مصر إلى كانو في نيجيريا، بما يعني أن تحريك مجموعات إرهابية نحو أهداف في الجزائر أو ليبيا أو تونس سيصبح مبررا كبيرا لكي تدخل هذه القواعد إلى العمل الميداني. وشيئا فشيئا يصبح الاعتماد على الأمريكان أكثر، تماما كما حصل في العراق حاليا. وشيئا فشيئا تفقد تلك الدول سيادتها وأمنها القومي وينتهي ما يسمى بوجودها الجيوبولتيكي، أي رهاناتها السياسية والاقتصادية والسيادية. بمعنى ما، يصبح فضاء المغرب العربي ملحقا بفضاء الصحراء والساحل ليشكل المسرح الكبير للذين يملكون أهدافا ورؤية جيوستراتيجية. وهنا لا يمكن أن نخطئ في إسم الأمريكان، الذين يستعدون بكل الطرق والوسائل لكي يمنعوا الصين وروسيا أو حتى الهند من التمدد والتوسع.

لقد كان المغرب العربي مسرحا كبيرا للإستراتيجية الأمريكية من اجل دحر دول المحور في الحرب العالمية الثانية. هجم الفرنسيون بمساعدة الأمريكان من السنغال ومالي نحو الجزائر ثم هجموا من ناحية تشاد إلى ليبيا، وجاء الإنكليز من الصحراء المصرية ليبدأ الهجوم الكبير باتجاه أوروبا. انتهى نصف الحرب العالمية الثانية ما بين طنجة وتونس انطلاقا من تشاد والسنغال والصحراء المصرية، ثم بدأ النصف الثاني في أوروبا لينتهي عند سقوط برلين. واليوم فإن أمريكا تبدو كما لو أنها تعيد نفس السيناريو على المسرح نفسه ضد «عدو» تمت شيطنته أكثر من هتلر.، وكل ذلك من أجل النفوذ والسيطرة على خطوط الغاز والنفط واعتراض التمدد الصيني أو الروسي في المغرب العربي ودول الساحل والصحراء وإفريقيا كلها. ففي غرب إفريقيا من نواديبو أو من السنغال تبدو أمريكا أقرب إلى العالم تماما كما رآها كريستوف كولمبوس منذ عدة قرون على حافة إسبانيا!

*** *** ***

إن الإرهاب ليس له وجه محدد في هذه المناطق. وقد اختلط مع النزعات الدينية والعرقية وبقايا حركات التحرر. ثم بالعولمة والرأسمال الجوال والتقنيات الالكترونية حتى بات مستخدما على نطاق واسع لدى الدول في صراعاتها الإستراتيجية. فمن السودان حتى موريتانيا توجد عدة صدوع عرقية ودينية تبدأ بالصدع الكوردفاني على حدود أريتريا ثم الصدع الدارفوري على حدود تشاد وليبيا ثم صدع التبو والزنوج على الحدود التشادية الليبية ثم صدع الطوارق على حدود النيجر وليبيا ليمتد إلى الجزائر ثم إلى مالي فموريتانيا ثم الصدع العربي/الزنجي داخل مالي. والذي يمتد إلى موريتانيا ليتوسع باتجاه السنغال. وأخيرا الصدع الصحراوي الذي يخترق المثلث

الجزائري/الموريتاني/المغربي.. خارطة الصدوع هذه تتشابك مع جماعات الإرهاب وعصابات التهريب وأنابيب النفط والغاز والأعراق والأديان، وهي تلتقي من ناحية الشرق الشمالي بعصابات التهريب وجماعات الإرهاب وأنابيب الغاز في سيناء المصرية ثم تتجه نحو جنوب تشاد لتدخل إلى شمال نيجيريا حيث «بوكو حرام» وآبار النفط.

بخلاف معظم الحركات الجهادية، لم تعلن «بوكو حرام» أبدا أنها حركة مناهضة لأمريكا. كما أن علاقاتها لم تتجاوز تلك التي تقيمها مع حركة الشباب الجهادية في الصومال أو مع بعض الحركات الأخرى في تشاد. فبوكو حرام بالأساس هي حركة تمرد داخلية تتخذ من الشمال النيجيري مسرحا لعملياتها. ورغم أن شمال نيجيريا في معظمه مسلما وأن الأغلبية المنفذة والحاكمة كانت باستمرار من المسلمين، إلا أن هذه الحركة تعلن العصيان وترى في تلك النخب المتنفذة نخبا تغريبية. لم يقبض منذ العام 2001 أي منذ الإعلان عن ولادة هذا التنظيم، عن أي عنصر من عناصرها متورط في الإرهاب الدولي. أهدافهم كانت دائما داخل نيجيريا ضد الدولة النيجيرية حيث الفساد بأنواعه وحيث الامتهان العرقي والديني بجميع أطيافه. وإذن أين تكمن حقيقة بوكو حرام. إذا ابتعدنا قليلا عن بياناتها التعبوية التي تدعو إلى الانفصال عن «الكفار» ورفض التعليم الغربي والعودة إلى القرآن وكذلك العودة إلى الهوسا وحروفها العربية!..

ثمة حقيقة أصبحت ثابتة هي أن «قادة» هذا التنظيم معظمهم ينتمي إلى طبقة الطلاب الحجاج. فهم عائدون من مكة والمدينة بعد دروس في العربية والدين. ومعم وجاهة العلم الأصولي وحقائب البترودولار. من الرياض ثم من قطر. وبما أن نيجيريا تعتبر المنتج السادس عالميا لمادة البترول والأول في إفريقيا في الإنتاج والتصدير والرابع في احتياطات الغاز، فقد أصبحت هدفا للذين يزاحمونها خاصة وهي أنها تقع على ساحل الأطلسي وتوجد معظم ثرواتها واحتياطيها في منطقة الجنوب الساحلية.

كانت نيجيريا منذ استقلالها في الستينات منطقة زلازل وانقلابات كثيرة. وقد حاول المسيحيون أن يستقلوا بمنطقة «بيافرا» الغنية بالبترول بانفصال أعلنه الضابط اوجوك. لكن الضباط المسلمين المنحدرين من الشمال أنهوا ذلك الانفصال وظلوا يتوارثون السلطة مع التجار الكبار والريع النفطي.. وفي سنوات الثمانين استطاع الضابط «مرتضى الله» الذي لقب بـ«ناصر نيجيريا» تأميم النفط النيجيري. ثم قتل في انقلاب آخر بعد نحو سنتين، واستمرت الانقلابات والديمقراطية الشكلية تتبادل الأدوار إلى أن بدت الحالة تستقر مع بداية 2000 مع الانتخابات التي رفعت «غودلايك جوناثان» المسيحي إلى السلطة. هنا بدأ الشماليون المسلمون يفقدون مراكزهم ومواقعهم التاريخية. وفي هذا المناخ ولدت «بوكو حرام».. فهذا التنظيم الذي

راح يتسع ويكبر قد أصبح تارة عصا في يد مسلمي الشمال ضد مسيحي الجنوب ووثني الغرب، وتارة عصا في يد دول الخليج النفطية من أجل التحكم في الأسعار وفي الكوتا التي توزعها الأوبيك، وتارة ثالثة آلة في يد الغرب وشركات النفط العملاقة. وهنا تلتقي مصلحة أمريكا مع السعودية وقطر على أرضية النفط المشبع بالإسلام أو الإسلام المشبع بالنفط. فحين يصبح الشمال النيجيري مفخخا بالإرهاب، يصبح نفط التشاد والنيجر بلا مخرج. وبما أن المسافة بين الأطلسي وتشاد ستصبح مقطوعة ومهددة والمسافة بين تشاد والمتوسط شبه مقطوعة ومهددة بحركة الجهاديين وحركة مجاهدي التبو الانفصالية، فقد وجد تشاد نفسه يحارب على ثلاث جبهات: الأولى ضد بوكو حرام في الشمال النيجيري والثانية في شماله باتجاه الجهاديين المسلمين والانفصاليين التبو والثالثة باتجاه درافور في السودان. إن تشاد الذي اكتشف في السنوات الأخيرة مخزونا هائلا من النفط والغاز تحت أرضه سوف لن ينعم به أبدا. فالعائدات كلها تذهب إلى الجيش والسلاح وأمامه سنوات طويلة لكي يرى آخر النفق. إنه يحارب الآن من تمبكتو في مالي إلى عبادان وكانو في نيجيريا. ويبدو كما لو أنه وجد دورا إقليميا بعد غياب القذافي، ولكن متاهة الصحراء لن تمنحه إلا الضياع داخل الإستراتيجيات الكبرى.

وبالنظر إلى التقسيمات الدينية والعرقية فإن حالة تشاد تشبه حالة نيجيريا، ولكنه يفتقد إلى بحر. فهو دولة مغلقة. وذات ثقافة إسلامية في الشمال وأخرى مسيحية في الجنوب.. ويحكمها الجيش وتسيطر عليها النزعات القبلية، أما سياسيوها، فهم «مغامرون» وقادرون على عقد وفك التحالفات بسرعة ودون التفكير جيدا.. ولا يمانعون في أن يصبحوا جنودا لدى فرنسا (المستعمر التقليدي) أو لدى حلف الأطلسي. وفي المحصلة الأخيرة، ليس من الغريب في تلك المنطقة أن نجد مسلمي شمال تشاد يدافعون عن مسيحي نيجيريا، وجيش إدريس دبي المسلم يقاتل جيش بوكو حرام وأبو بكر شيخو النيجيري المسلم. فحقائب المال تأتي من باريس كما من قطر والسعودية، ومعها السلاح وكتب القرآن والكتب المدرسية، وفي سباق مع الزمن نحو هدف مشترك لدى اللاعبين الكبار ومختلف لدى اللاعبين الصغار. فإذا كانت نجامينا تريد أن تصبح ذات مكانة في وسط إفريقيا من دارفور إلى إفريقيا الوسطى وهي ترتدي الزي الغربي، فإن «بوكو حرام» ربما تريد أن تعيد إحياء سلطنة سوقوطو، تلك السلطنة التي عرفت الإشعاع في القرن التاسع عشر بجانب مملكة تومبكتو، وهي تسيطر على شمال نيجيريا وشمال الكاميرون وجنوب النيجير وبلاد تشاد كلها حتى دارفور في السودان. وفي تلك اللعبة الخطرة والحارقة لا شك أن الرئيس دبي يدرك

جيدا أن ما يقوم به لا يعدو أن يكون «دورا» ثانويا يمكن التخلي عنه في أي وقت. والأمر نفسه بالنسبة لشيخ «بوكو حرام»*30 أبو بكر شيخو. فهو قد يكون مجرد آلة يمكن الاستغناء عنها وتعويضها بآلة أخرى كما حصل مع الشيخ محمد يوسف الذي سبقه في التأسيس والذي سقط قتيلا برصاص الجيش في العام 2009.

*** *** ***

إن الأنابيب السوداء هي السبب الرئيسي لكل هذه التصدعات والصراعات في الشرق الأوسط كما في شمال إفريقيا وفي آسيا الوسطى كما في دول الساحل والصحراء، ومن أجل السيطرة على الطاقة لابد أن تصبح تلك الأنابيب حمراء. فالنفط ببساطة هو دم العالم. بل هو أغلى من الدم، كما قال ذات يوم الجنرال «جورج كليمنصو»*31.

إن شعوب الكونغو والكاميرون والغابون ونيجيريا وأنغولا لا تخفي شؤمها من وجود النفط على أراضيها. فحين تفجر النفط في مالي وتشاد والكونغو ونيجيريا تفجر معه الدم. وهذا تقريبا ما يقوله العرب عن بلادهم: كلما عثرنا على بئر نفط، انفتح إلى جانبه أنبوب من الدم. فالجزائر وليبيا والعراق وبلدان الخليج قاطبة بما في ذلك اليمن تظهر كأمثلة ساطعة عن تلك المعادلة. وليست إيران أو فنزويلا أو المكسيك بعيدة عن لعنة النفط. وقد عرفت المكسيك مذابح بسبب النفط منذ بداية القرن العشرين إذ كانت أول الدول المنتجة لهذه المادة ثم سارت اللعنة في كل اتجاه يشير إلى وجود النفط والغاز حتى أن هناك بعض الدول قد فضلت الفقر والنظام على النفط والفوضى، فأخفى احتياطاته أو «فرّط» في ثرواته. وقد دللت الحملة الشعبية الأخيرة في تونس التي رفعت شعار: «أين البترول»*32 على أن الحكومات الضعيفة تفضل الفقر والصمت على الثروة المصاحبة للفوضى.. فثمة من اتهم القائمين بهذه الحملة بعملاء الخارج وثمة من قال: «إنهم يجرون الاستعمار من جديد». أما الحكومة فقد سعت بكل طريقة لغلق الأفواه وغلق أبار الدم!..

إن الصراع على النفط ليس جديدا ولا طارئا. فالنفط هو البحيرة التي عبر عليها الغرب إلى القرن العشرين ثم القرن الواحد والعشرين. وتعمل الدول النفطية الكبيرة على أن تصبح دولا إقليمية مؤثرة في مناطقها لامتلاكها هذه المادة (مثل المكسيك وإيران والعراق والسعودية والجزائر ونيجيريا وفنزويلا وحتى ليبيا) ولكن حالما تقترب هذه الدول من امتلاك الثروة والقوة، تقترب من الحريق وتدخل في حروب وصراعات لا تنتهي. فالغرب الذي يريد أن يبقى قويا لا يريد لأية دولة أن تشاركه في السيطرة

إلا بالقدر الذي يحدده ويخدم مصالحه. فهو لا يريد النفط فقط لاقتصاده ورفاهيته فقط، لأن النفط كمادة سلعية لا يساوي شيئا إذا لم يدخل إلى السوق العالمية، وإنما هو يريد السيطرة عليه كمادة يحدد أسعارها وقيمتها ويتحكم في عائداتها ثم في أنابيبها من أجل ضمان سيطرة جيوستراتيجية على كل منافس محتمل.

لقد حطمت نظرية القيادة الأحادية أو القطبية الأحادية التي برزت مع سقوط الاتحاد السوفياتي، التوازنات الإقليمية القديمة .. كما أن الذين يسيطرون على النظام الدولي الحالي قد تمكنوا في السابق من تحطيم النظام الثنائي بفضل إضعاف مناطق النفوذ الإقليمية. فالحروب التي عرفتها سنوات الثمانين مثل حرب أفغانستان والحرب العراقية/الإيرانية وحرب الفيتنام/الصين وحرب الكشمير بين الباكستان والهند وصولا إلى حرب البلقان، قد أضعفت المتربصين الإقليميين وانهكت الاتحاد السوفياتي كقطب إستراتيجي.. بعد ذلك جاءت حقبة تفتت المركز والأقاليم المعادية. فالاتحاد السوفياتي قد تفكك وأصبح عبارة عن اتحاد لدولة/أمة. ودخلت إيران تحت الحصار ومعها العراق وليبيا وتبعتها فنزويلا مع صعود هوغو تشافيز، ودخلت الجزائر في حقبة مظلمة ومعها نيجيريا والسودان. وقد نتج عن ذلك «فراغات أمنية كبيرة» في الخليج وفي القوقاز وكذلك في المغرب العربي ودول الساحل والصحراء. وأمام ذلك الفراغ الأمني، سعت بعض الدول إلى استحضار قوتها من جديد مثل إيران وسعت دول أخرى أن تستفيد من ذلك الفراغ مثل تركيا. وحاولت دول أخرى أن تعوض اللاعبين التاريخيين مثل السعودية التي أصبحت تطمح في لعب دور العراق ومصر معا. ولم تكن إسرائيل باعتبارها دولة إقليمية تستمد شرعيتها وامتدادها الحيوي من الغرب، إلا أحد المستفيدين الكبار. ولأن إسرائيل تدرك ذلك النقص الفادح في الجغرافيا السياسية، فإنها تعتمد على ما يمكن أن يسمى بـ«الجيوبولتيك الافتراضي والهجومي». أي الارتباط العضوي بالغرب وبمصالح الغرب والذهاب مباشرة إلى ضرب وتخريب القوى المحتملة وإشاعة الفوضى والاعتماد على التكنولوجيات الحديثة والأسواق الخارجية. فحين يتقاتل الكل ضد الكل، تصبح إسرائيل المستفيد الأول. وباعتبارها الدولة اليهودية في العالم، فهي تستفيد من تمزيق تركيا وإنهاك إيران وتورط السعودية وفوضى العراق وحرب سوريا الأهلية وكذلك من تصاعد دولة داعش إلى حين!..

إن أهداف الدول يجب أن تكون ممكنة التحقق، وإذا هي لا تمتلك كل الوسائل لتحقيقها، فعليها أن تستفيد من وسائل أعدائها. وبما أن الجميع يظهرون كأعداء بالنسبة لإسرائيل، فإن الجميع يقدمون لها الوسائل لتدميرهم وتحقيق النفوذ والسيطرة. وهنا تلتقي إسرائيل مع الغرب. إنها موجودة جغرافيا في قلب الشرق، ولكنها موجودة

كحقيقة وقوة غربية مرتبطة حيويا وإستراتيجيا بالغرب. فلقد أدرك بن غوريون*[33] منذ زمن بعيد «أن إسرائيل لا تحميها معاهدات السلام مع العرب وإنما يحميها خراب العرب»! ولو نظرنا جيدا إلى الخرائط لرأينا كيف أن مسرح الخراب الكبير الذي يمتد من بلاد الرافدين إلى بلاد النيل ثم ينحني باتجاه بلاد نجد والحجاز والبلاد السعيدة، إنما هو يرسم خارطة إسرائيل الكبرى كما يحلم بها الصهاينة التوراتيون. فهم قد عاشوا ووجدوا في مصر ثم في العراق ثم في اليمن حتى يستحيل إلى يومنا هذا على كل عقل توراتي أن يسلم بأن أطراف إسرائيل الكبرى لا توجد في تلك البلدان!.. إن تخريب الآثار وتدميرها والاتجار بها في العراق وسوريا واليمن، إنما هو جزء من رحلة إسرائيل في البحث عن تاريخها الأسطوري!..

ولكن إذا كانت تبدو تلك الصراعات دينية وكأنها عائدة من الزمن القديم أو العهد القديم أو منبعثة من حروب القرون الوسطى الصليبية، فلأن خطوط النفط (الثروة) توازت مع خطوط الصدوعات أو التصدعات الدينية ثم لأن السلطة في هذه البلدان قد ارتبطت بالتبعية الدينية. إن من يسيطر على السلطة في هذه البلدان يتحكم في ثروات وموارد الدولة. إن أغلب الأفكار المتداولة حول الحرب في العراق أو في سوريا وتلك التي في اليمن تتحدث عن صراعات دينية/شيعية دون أن تنتبه إلى رهانات الثروة والنفط والمال. لقد اكتشف الشيعة ومعهم الأمريكان أن النفط في أراضي الشيعة (جنوب العراق، الكويت، شرق السعودية والساحل السوري بالإضافة إلى إيران) بينما السلطة ظلت بيد السنة. وفيما هجم الشيعة لاسترداد ثرواتهم من السنة في العراق مستفيدين من الغزو الأمريكي وجدوا أمامهم السنة يتآمرون عليهم ويصنعون لهم الإرهاب مستفيدين كذلك من أمريكا (قطر، تركيا والسعودية). وفي سوريا توضحت خطوط الصدع وأنابيب النفط.. ففي سوريا كما في إيران، فإن الشيعة هم الذين يحكمون، ولذلك فإن تركيا وقطر والسعودية لابد أن تحاربهم حتى لا يكتمل الهلال الشيعي الذي يمتد من بحر القزوين إلى المتوسط، لأن ذلك سيجعل من الشيعة أكثر سيطرة على ثرواتهم ومن السنة أقل استبدادا وثراء. إن قلب ميزان السلطة في هذه البلدان سيستدعي تغيير موازين الثروة. وبما أن الثروة كلها توجد في الأنابيب والآبار، فإن الأنابيب كلها قد باتت حمراء.

يحدد الباحث «أنطوان مرعب» في كتابه « أنابيب حمراء في سوريا .. لماذا الآن؟»*[34]، أصل الصراع الدائر في سوريا بأنه صراع على خزان النفط والغاز الرئيسي في العالم وفي القرن الحادي والعشرين. ويمكن مناقشة ذلك بالنظر إلى إنتاج أمريكا الحالي والاحتياطي من نفط الشيست الذي سيجعلها بداية من العام 2018 منتجا ومصدرا

كبيرا، ولكن أمريكا تفكر في أبعد من ذلك. فإذا كانت تريد أن تظل قوية ومتحكمة في الاقتصاد العالمي، فعليها أن تتحكم في سوق الطاقة. أي أن تجعل كل العالم بما في ذلك الصين واليابان والهند وحتى أوروبا تحت الحاجة.

ويوضح الضابط الأمريكي «روب تايلور»، في بحثه (سياسة أنابيب النفط في سوريا) وقد صدرت في مجلة (القوات المسلحة الأمريكية) من خلال سرده لبعض التفاصيل: «أنه في العام 2009 اقترحت قطر مد أنبوب لنقل الغاز الطبيعي عبر سوريا وتركيا نحو أوروبا، لكن الأسد رفض وقام عوضا عن ذلك بعقد اتفاق مع العراق وإيران لمد خط أنابيب من جهة الشرق للوصول إلى المتوسط والأسواق الأوروبية. ومن هناك بدأت حرب الأنابيب»، ولكن «تايلور» يعتقد هو الآخر أن حرب الأنابيب هي أيضا حرب سنية/شيعية، ويوضح في هذا السياق بأنه لا يكاد يختلف الصراع الشيعي/السني في المنطقة في شيء عن صراعات أخرى ذات طابع اجتماعي-اقتصادي تتغذى من التنافس على الثروة والموارد.. ويضيف تايلور: «بأن هذا النوع من الصراع في سوريا وعلى سوريا يشبه النمط الموجود في عدة بلدان أخرى شرق أوسطية وإفريقية. وبناء على ذلك فإن أية دراسة للصراع في سوريا تتجاهل الاقتصاد الجيوسياسي (أو بالأحرى الجيواقتصادي) هي دراسة غير مكتملة». ومن هنا فإن ما نشرته الباحثة ريفا بهالا*[35] في دراستها «الجغرافيا السياسية للحرب الأهلية السورية».. يتميز بالعمق والدقة التاريخية، ولكنه لا يتعرض إلى حرب خرائط أنابيب النفط والغاز كما تعرض لها «روب تايلور» أو الباحث الأمريكي الآخر «ويليام انغدال»*[36].

إن الغاز الطبيعي الذي تملك منه إيران وقطر والسعودية وروسيا وأذربيجان وليبيا والجزائر الكثير، قد تدفق مؤخرا على الساحل الشرقي من المتوسط. فإسرائيل ولبنان وسوريا وكذلك مصر أصبحت دولا تملك الكثير من هذا المكون القابل للاشتعال والذي يذكي لهيب الصراعات من أجل امتلاكه والسيطرة عليه.. وفيما تبدو صراعات إسرائيل ولبنان والفلسطينيين وسوريا وكذلك قبرص على حقول الغاز المائية في شرق المتوسط مؤجلة، فإن حروب الغاز وأنابيبية تبدو شبه ملتهبة في القوقاز لتلتهب فعلا في سوريا والعراق.

لقد عانت ولاتزال تعاني دول القوقاز (جورجيا، أرمينيا، أذربيجان) بسبب خارطة خط الأنابيب المقترح من بحر قزوين إلى أوروبا. وقد تدخلت دول كثيرة للتأثير على خط السير من أجل مكاسب مادية واقتصادية مثل إيران وتركيا وروسيا. وكان الصراع الذي دار بين أذربيجان وأرمينيا وهي حليف مهم لروسيا، قد حال دون اتخاذ أقرب مسلك عبر أرمينيا لتفوز تركيا أمام روسيا. وفي الأخير اخذ أنبوب الغاز طريق

تبليسي عاصمة جورجيا عدوة روسيا ثم ميناء جيهان التركي، ولكن ذلك لم يتم إلا حين تحصلت روسيا على خط أذربيجان المنحرف شمالا إلى روسيا، على أن تلك التسوية لم تنه المشاكل. فالمناطق المتضررة قد راحت تنتقم. فانطلقت الصراعات الإثنية والدينية في «ناغورنو كاراباخ» الأرمينية بدعم من روسيا والصين (التي لا تريد لتركيا أن تكبر أو تتعملق لأن امتداداتها الدينية واللغوية تصل إلى غرب الصين إذ يعد المسلمون في الصين نحو 70 مليون) وصراعات انفصالية في ابخازيا وجنوب اوستيا والشيشان وداغستان. وفي هذه الصراعات نجد تقريبا نفس اللاعبين في صراعات الشرق الأوسط. فروسيا والصين وتركيا وإيران وأمريكا حاضرون بامتياز ويقاتلون بلا هوادة بما في ذلك القطريون والإسرائيليون والأكراد..

إن صراعات القوقاز كبيرة جدا. وقد استدعت حضورا أمريكيا مكثفا منذ بداية حكاية أنابيب الغاز. ويجد الأمريكان في مناطق القوقاز مسرحا جيدا للتدريبات والمواجهات الحربية الجديدة، وكذلك مناطق نفوذ وضغط على كل من روسيا وإيران والصين. ولا شك أن القوقاز، آسيا الوسطى، هو الهضبة العليا للشرق الأوسط الذي يدور فيه أكبر صراع من أجل الاستحواذ على القرن الواحد والعشرين. فها هو الشرق، وقلبه أو مائدته سوريا، يبدو وكأنه يتحكم في مناطق إقليمية كثيرة منها القوقاز وشمال إفريقيا والصحراء الكبرى والخليج لإدارة ذلك الصراع الكبير الجيوستراتيجي. في هذه الحقول والرهانات الجيوسياسية والجيوستراتيجية تبدو معارك الديمقراطية مزيفة وثورات الربيع العربي مدنسة والصراعات الشيعية/السنية مصطنعة أو هي مصنعة من أجل كسب الصراع.

لقد صادف، ويالها من مصادفة! أن اندلعت الثورة السورية في حزيران/جوان 2011، وهو الشهر نفسه الذي شهد التوقيع على تفاهم بو شهر (25 جوان/حزيران 2011) حول بناء خط أنابيب غاز جديد يمتد من إيران إلى العراق إلى سوريا على مساحة 1500 كلم انطلاقا من أضخم حقل غاز في العالم تشترك فيه إيران مع قطر ومعروف تحت تسمية (نورث دوم/ساوث بارز*[37]). ولكن فيما كانت قطر تريد أن يمر هذا الخط عبر تركيا، فإن إيران قد حسمت الأمر لصالح العراق وسوريا. (سيشق إيران 250 كلم ويقطع العراق بـ500 كلم ويمتد داخل سوريا بنحو 700 كلم. وفي مرحلة لاحقة يمتد تحت البحر وصولا إلى اليونان دون أن يعبر تركيا.

ولقد كان من المقرر أن يبدأ خط هذه الأنابيب عمله ما بين 2014 و2016 إذ ستبلغ طاقته المتوقعة نحو 110 مليون متر مكعب من الغاز في اليوم، أي نحو 40 مليار متر مكعب في العام. وهو سوف يفي بحاجيات لبنان وسوريا وكذلك الأردن وهو يشق

طريقه إلى أوروبا، ولكن الذين رأوا في ذلك المشروع استكمالا للهلال الشيعي الذي يتقوس نفوذه نحوهم، قد سارعوا ليوقفوه مهما كانت التكلفة. فخط أنابيب غاز يمتد من إيران إلى سوريا فاليونان، سيكون مريحا جدا لسوريا ومفيدا لأوروبا، ولذلك فإن الحرب يجب أن تندلع في النقطة الفاصلة بين المنبع والمصبّ. فبتلك الإمدادات الضخمة من الغاز لأوروبا عبر سوريا، ستصبح تركيا في المؤخرة وتتقدم عليها إيران باكتساح أسواق أوروبا. ولكن من الواضح جيدا أن لاعبين كثيرين لم يعجبهم ذلك. فلا إسرائيل المنزعجة والمتوترة أمام التمدد الإيراني أو الإستقواء السوري. ولا تركيا التي حرمت من أن تصبح الناقل الأكبر للغاز نحو أوروبا من جهة الخليج والقوقاز. ولا قطر التي حرمت من الوصول إلى أوروبا من قبل إيران، ذلك اللفيف من تجار الغاز هو الذي بات يدافع عن الديمقراطية في سوريا بالسلاح وكذلك بالعصابات وجماعات الجهاديين الإرهابيين.

ترى البلدان السنية وعلى رأسها تركيا والسعودية إلى ذلك الخط من الأنابيب، أنه خط أنابيب شيعي. ينطلق من إيران ثم العراق ثم باتجاه سوريا «العلوية»، مما يعني أن «الهلال الشيعي» الذي يتكلمون عليه منذ 2004 قد أصبح على الأرض كسياسة واقتصاد ولم يعد مجرد توهم أو توعك في المعدة السنية! وكما يقول الباحث الأمريكي في قضايا الطاقة «ويليام انغدال»، «فإن هذه الدراما الجيوسياسية تتعقد أكثر لأن حقل «ساوث بارز» يقع في الخليج مباشرة على الحدود بين إيران الشيعية وقطر السنية. لكن قطر الصغيرة بحجمها وقوتها أمام إيران استغلت عواصف الربيع العربي لتجعل معركة الغاز مع إيران «معركة ثورية» وإقليمية. ولأنها تستقبل على أراضيها أكثر من قاعدة عسكرية أمريكية كمقر للقيادة المركزية للقوات المسلحة الأمريكية التابعة للبنتاغون ومقر القيادة العليا للقوات الجوية، والمجموعة الجوية رقم 83 المخصصة للخليج والتابعة لبريطانيا والجناح الجوي رقم 379 التابع للقوات الجوية الأمريكية، فقد استطاعت أن تشكل رأس حربة باتجاه إيران على الأرض السورية. وهكذا منذ بداية الحراك السوري، راحت قطر تسلح المعارضين السوريين وتأتي بالمقاتلين عن طريق أصدقائها في ليبيا وتدعو إلى طرد سوريا من الجامعة العربية وتضغط على أصدقائها في تونس*[38] لكي تقطع علاقاتها مع سوريا وتجيّش السنة في لبنان وتمد أيديها باتجاه تركيا و«مصر الإخوانية».

وحين تم اكتشاف حقول غاز ضخمة في أواخر العام 2011 بالقرب من الحدود اللبنانية وغير بعيدة عن ميناء طرطوس (وحقل آخر قرب حمص) ازداد غضب قطر. فسوريا حتى بدون خط أنابيب إيران، فقد أصبحت إذا حسب الاكتشافات الجديدة الداخلية واكتشافات الساحل، دولة غازية من درجة متقدمة..

فكرت قطر أن توقف ذلك حتى تصبح خطوط امداداتها جاهزة (ومن بينها خط يعبر السعودية ثم يخترق الأردن فإسرائيل) ولم تجد طريقة إلا إغراق سوريا في حرب شاملة وفي جميع الأراضي حتى لا تتمكن الدولة السورية من أن تستفيد من أي خط أو استثمار دولي. وإذ دققنا جيدا كما يؤكد «انغدال» «فإن المعارك الأكثر شراسة تحصل بالقرب من أية منطقة قد يصلها خط الأنابيب مثل حمص والقصير ثم القلمون. ففي الأردن يتفرع خط قطر نحو إسرائيل ثم نحو حمص فالقصير فالقلمون ليصل إلى لبنان..«إن مقارنة بين خارطة النزاع المسلح وخارطة مسار خط الأنابيب القطري تشير إلى رابط بين النشاط المسلح والرغبة في السيطرة على أراضي سوريا وتقسيمها إلى كانتونات ليسهل التفاهم معها لعبور أنابيب الغاز» (حسب انغدال دائما). إن التحالف القطري-التركي-الأمريكي يريد تحقيق الأهداف التالية وهي: كسر الاحتكار الروسي للغاز في أوروبا. وليس الصراع في أوكرانيا إلا واجهة من واجهات ذلك الصراع الذي يسعى إلى قطع الاعتماد الأوروبي على غاز روسيا. ثم تحرير تركيا كذلك من الاعتماد على الغاز الإيراني وأخيرا منح إسرائيل الفرصة لتصدير غازها إلى أوروبا عن طريق البر بكلفة منخفضة وعن طريق سوريا إلى تركيا.

ولكن هدف قطر السياسي والاستراتيجي ربما كان موجودا في قلب الأمير الذي لم ينطق به إلا للقذافي حين كانا في شهر العسل. فقد أصر الأمير حمد، بأن باله لن يهدأ إلا إذا تمكن من الإطاحة بالبيت السعودي*[39]!! تلك الجملة هي نصف الحلم، أما النصف الآخر فقد جاء حين عرض على محمد مرسي (الإخواني) المليارات مقابل التحالف معه ضد السعودية. وذلك لتمكين «الإخوان المسلمين العرب» من وضع أيديهم على الحرمين بشرط أن تعقد مصر معاهدة سلام مع قطر. وهكذا فإن نظاما إخوانيا في مصر وآخر في تونس وثالثا في سوريا بالإضافة إلى حماس وحكومة بن كيران في المغرب ودولة عمر البشير في السودان زائد حكومة أوردوغان في تركيا وقوة الإخوان في الأردن والكويت وقوة فجر ليبيا في طرابلس، من شأنها أن تحقق الحلم القطري وهو بناء الخلافة الإخوانية على حساب دولة آل سعود الوهابية. وهذه الخلافة ستكون مصر وبلاد الشام هلالها وقطر نجمتها! وهذا لن يشكل فقط ضربة ساحقة للسعودية فقط كعائلة ونظام، وإنهاء احتكار النفط السعودي، إذ سيقع تقسيمها وضم أجزاء منها إلى قطر واليمن والأردن، وبسط السيادة الإخوانية على الحرمين (ستكون من نصيب مصر وكما كانت في عهود سابقة) وإنما سيغير ذلك على الفور وبشكل راديكالي من سوق النفط والغاز العالمي، لمصلحة قطر وضد مصالح روسيا وإيران والعراق الشيعيّ وكذلك ضد الصين!.

إن الشرق الأوسط يأخذ أهميته وكذلك تنميته من كونه «هرتلاند» صغير حسب تعبير ماكيندر، أي مركز صغير لعالم كبير يمتد من الصين إلى أعمدة هرقل في طنجة. وهنا يوجد العالم الإسلامي والعالم العربي وعالم القوقاز والعالم التركفوني وبلدان الساحل والصحراء والبحر المتوسط.

*** *** ***

وفي الحقيقة فإن العالم كله يوجد في المتوسط. ولما كان العالم العربي يحتل ثلثي واجهات المتوسط، فإن كل العالم يصارع من أجل السيطرة على هذا العالم الغني والمتصدع في نفس الوقت..

يتميز المتوسط بالثبات والحركة. فهو ثبات حضاري عظيم وفي نفس الوقت سفر وترحال دائم ومتداخل. يمكننا أن نعثر على عالم الرومان في لبنان وتونس وسوريا ومصر. وعلى عالم الإغريق في كورنثيا الليبية والإسكندرية المصرية وكذلك في مقدونيا الأدرياتيك.. ثم على عالم الفينيقيين في صور وقرطاج وقرطاجنة (إسبانيا) وطنجة. وعلى آثار ما قبل التاريخ في سردينيا والجزائر والمغرب والوجود العربي في إسبانيا ومالطا وكورسيكا. وعالم الإسلام كما صاغه العرب ثم الأتراك على ضفاف الجنوب والشرق والأدرياتيك وبحر مرمرة واسطنبول، ذلك أن هذا البحر الصغير في مساحته (3 ملايين كلم^2، أي ما يقارب مساحة الجزائر والمغرب)، إنما هو عظيم في إشعاعه القديم والجديد.

كل شيء كان يصب فيه متنوعا صاخبا ومتدفقا. كل شيء كان يعبره بشغف وحماس. وكل شيء كان يتوق إليه ليأخذ مكانته في التاريخ: من البضائع إلى الدواب ومن الأفكار إلى السفن ومن الأساطير إلى الديانات إلى الفنون ومن الحوارات إلى الصدامات. ومن النباتات إلى الحشرات. وكما قال فيلسوف المتوسط بردويل*[40] ذات مرة: «فلو بعث هيروديت، أب التاريخ الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد من مرقده اليوم لأذهلته المفاجآت بدءا بالناس وانتهاء بالديانات والنباتات». ولكن ذلك المتوسط الذي جمع العبقريات وعجن الحضارات وأخلط الأجناس والأعراق وهجن الشجر والنبات وأخضع الخوف والعواصف لمزاج السفن في تدفق وتآلف حينا وفي أحيان كثيرة بالعنف والإخضاع، هو الآن (وربما كما كان دائما) ملتقى صراعات كثيرة وبؤر كثيرة مفتوحة على العنف والتهميش والإقصاء. إنه ليس بعيد عن مصادر التوتر. بل هو في قلب هذه التوترات. من ناحية الشرق حيث الصراع العربي/الإسرائيلي والحرب الدائرة في بلاد الشام والعراق والكيانات الإرهابية التي راحت تتموقع في

قلب الشام وقرب قناة السويس. كذلك من ناحية الجنوب حيث الساحل الليبي وهو أطول السواحل في المتوسط توترا إذ يحتله الإرهابيون وسماسرة الهجرة السوداء وتجار النفط والسلاح وهو ما يؤثر على الجارة تونس والجزائر. وفي الشمال هناك بؤر صراع من نوع آخر كالخلاف اليوناني/التركي على بحر ايجه، والانقسام الحاد المسيحي/الإسلامي في قبرص ثم الصراع التركي الكردي، واحتمال انفجار الصراع العربي العلوي/التركي في لواء الإسكندريون (السليب) الشيء الذي نجد شبيها له في شمال المغرب الذي لازال يعاني من استكمال وحدته الترابية سبتة ومليلة.

ثم لا يجب أن نسلم بحقائق ما هو يظهر ثابتا حاليا. فمشكل البلقان والأدرياتيك يمكن أن تنفخ فيه النار من جديد، وإمكانية انفصال كورسيكا عن فرنسا أو الباسك وكاتالونيا عن إسبانيا ستبقى واردة ومحتملة، ولا ننسى أن جبل طارق سيظل مشكلة بين ثلاثة ممالك (المغرب - إسبانيا - بريطانيا) إلى أن يجد تسوية جديدة.. هذه احتمالات انفجار السواحل والشواطئ. أما ما يحيط بالشرق الأوسط في الدائرة الثانية فهي بؤر صراع وحروب إقليمية تختلط فيها الأديان مع الأعراق مع الفقر مع أنابيب النفط والغاز. ونعني بها دول الساحل والصحراء، الشرق الأوسط حتى إيران والخليج، الكتلة التركفونية التي تمتد نحو القوقاز.. وكما تلتقي سفن جميع هذه البلدان على صفحة المتوسط، فإن صراعات كل هذه الأقاليم تصب وتتدفق نحو المتوسط..

في بداية التسعينات غرقت الضفة الشمالية للمتوسط (أوروبا) فيما يسمى بمشكل البلقان. وإذ هي أدارت ظهرها للجنوب، فقد اتجهت إلى تحصين حدودها وتوحيد فضاءاتها وتنظيف حدائقها الداخلية من العنف (البلقان ووسط أوروبا). ولما كانت السياسة في أوروبا في غالب الأوقات مصابة بداء الانفصال عن المنفعة الجماعية لشعوب المتوسط، فقد أحست شعوب الجنوب وقادتها أنهم مستبعدون من الانفتاح والشراكة والتعاون ضمن ثقافة جديدة متسمة بالتعالي والتهديد. فأوروبا الموحدة والقوية لم تف بوعودها لسلام الشرق الأوسط. ولم تقم بدورها التاريخي ولم تلتفت إلى تراجيديا يوغسلافيا السابقة إلا في وقت متأخر وبعد اقتراف المذابح. ثم تدخلت بانحياز واضح ضد المسلمين ثم ضد الصرب الأورتودكس المتحالفين مع روسيا. ومع ذلك لم تساعد ألبانيا المسلمة ولم تكن واضحة في تعاطيها مع الأزمة الجزائرية أو مع أزمة تركيا واليونان. وينطبق ذلك على الهجرة وكذلك الجاليات المهاجرة من الجنوب التي تعيش على أرض أوروبا. وفي النهاية بدا واضحا أن المشاريع التي كثر عنها الحديث مثل الحوار العربي/الأوروبي أو السوق الشرق أوسطية أو الشراكة الأوروبية المتوسطية ليست إلا مشاريع أمنية/عسكرية لتوسيع مظلة الحلف الأطلسي لإبقاء المتوسط حلقة

تابعة للأطلسي مغلقة أمام الروس والصينيين أو حتى على سكانه الجنوبيين والشرقيين العرب والمسلمين. وقد رأينا بوضوح كيف تعاملت هذه الأوروبا المتوسطية مع ليبيا المتوسطية في العام 2011 ثم كيف تعاطت مع الأزمة السورية من أواخر العام 2011 وحتى هذه اللحظة. ولم يكن رفض تركيا للانضمام إلى أوروبا، إلا دليلا على أن الاتحاد الأوروبي هو اتحاد مقدس للمسيحيين، ودليلا آخر على أن الهيمنة في المتوسط يجب أن تبقى للغرب الأطلسي المسيحي. فلا الروس مسموح لهم بالإقامة المريحة! ولا الهنود أو الصينيون بإمكانهم أن يعبروا المتوسط بدون رضا الأوروبيين!..

لايزال الغرب الأوروبي يخاف من دولة إسلامية بداخله حتى وإن كانت بحجم اللعبة مثل البوسنة أو ألبانيا. كما هو قلق ومتوتر تجاه الجاليات الإسلامية التي تتكاثر في فضاءاته وهي تأتي من إفريقيا الشمالية ومن العراق وتركيا وسوريا وكذلك من دول الساحل والصحراء.. أما ما يجعله فعلا فاقدا للصواب، هو أن يرى «دولة إسلامية متطرفة» تنادي بالخلافة تمتد من حوله في الشرق وربما في الجنوب، وهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء سوى أن يمدها بالسلاح والرجال وكذلك الأموال! إن مشروع دولة داعش ما كان ليوجد أو يمتد لولا «تواطؤ الغرب مع الإسلاميين» الذين أطاحوا بالقذافي في ليبيا وبصدام حسين في العراق وهم لازالوا يسعون للإطاحة ببشار الأسد في سوريا وبأي ثمن!

إن خط الصدع الكبير الذي يقسم المتوسط إلى جنوب وشمال، قد فتح صدوعات أخرى من الشرق إلى شمال المتوسط وهو الممتد من القوقاز مرورا بأرمينيا المسيحية ثم بالشرق التركي والذي يسحب معه اليونان الأرتودكسي نحو تيرانا فسراييفو المسلمتين. ويضعنا هذا الصدع مباشرة في مواجهة واضحة بين الشرق والغرب ثم يعود بنا في حركة ذهاب وإياب نحو شرق المتوسط فمصر فشمال إفريقيا كله، لنجد أنفسنا في «صراع الموت» حيث التصفيات الدينية والعرقية، وحيث المواجهات المستمرة بين الدول والجماعات الإرهابية وحيث التضاد يصبح واضحا بين (شرق/غرب، شمال/ جنوب، شباب/شيخوخة، علمانية/دين). إن حضارة بحيرة المتوسط تتشكل من ثلاثة أنهار دينية هي اليهودية والمسيحية والإسلام. ومن ثلاث ثقافات كبرى: اللاتينية / الإغريقية /العربية، كذلك من ثلاث حضارات كبرى هي الإغريقية /الرومانية / الأوروبية والفينيقية/العربية/الإسلامية. بالإضافة إلى ثلاث قارات هي أوروبا وآسيا وإفريقيا. وقد عاش خلال القرن العشرين على ثلاثة أفكار كبرى هي الرأسمالية الغربية والشيوعية والعالمثالثية.. وهذا الخليط من الثلاثيات نعيشها اليوم نحن أبناء الجنوب وشرق المتوسط بحسرة وفواجع يومية فيما نرى أيضا شمال المتوسط كما لو

أنهم نصبوا أنفسهم كآلهة جديدة لا تسمع ولا تنصت ولا تنطق، ولا تشعر بالآلام أو المخاطر.. (سوف نتعرض للغز استقبال اللاجئين السوريين في فصل آخر).

*** *** ***

مرة أخرى ليس المتوسط إلا بحرا صغيرا. وهو يظهر على الخارطة العالمية كشق أو فتق في القشرة الأرضية. وبحسب الإستراتيجيين فهو مجرى مائي لعدة بوابات بحرية. وهو ينقسم إلى حوضين كبيرين عند النتوء التونسي وجزيرة صقلية الإيطالية. كما هو يتكون من عدة بحور صغيرة داخلية مثل بحر ايجه وبحر الأدرياتيك وبحر تيرانا بالإضافة إلى البحر الأسود الذي يشق تركيا ويتوسع على سواحل بلغاريا ورومانيا وأوكرانيا وروسيا.. وكذلك البحر الأحمر الذي يصل إلى السودان واليمن والسعودية. وبعبارة أخرى فإن المتوسط يتوسع نحو دول أخرى كثيرة لا توجد على صفحته الرئيسية وإنما هي على مدى مداخله وامتداداته وواجهاته البحرية الأخرى..

وبنحو ثلاثة ملايين كلم^2 من المساحة المائية، قد يبدو كبركة صغيرة أمام الباسيفكي (165 مليون كلم^2) أو حوض سباحة أمام المحيط الأطلسي (106 كلم^2). ولكن كما يقال دوما لدى الإستراتيجيين، لا تصبح الجغرافيا ذات قيمة إلا إذا امتلكت أو حملت معها معطيات أخرى وتسلحت برؤى حضارية - اقتصادية واجتماعية ثقافية. فالمتوسط كعبور وسكن وامتداد يصل إلى اليمن والسودان عبر الأحمر ثم يصعد إلى أوكرانيا وروسيا عبر البحر الأسود ثم يتقوس إلى سلوفينيا وكرواتيا من جهة الأدرياتيك ويصل إلى البرتغال وجنوب المغرب من ناحية الأطلسي. ولما امتلك المتوسط هذه القيمة الجيوبولتيكية، فقد أصبح رهانا جيوستراتيجيا منذ عصور قديمة، أي منذ فجر المجذاف الأول وحتى زمن البواخر النووية. وهو رهان لم يفقد بريقه أو إشعاعه أو سطوته منذ الإمبراطوريات القديمة حتى الإمبراطوريات الحديثة.. إن ذلك البحر الصغير استطاع أن يغرق عدة حضارات بلا أسف بعد أن تعاون معها بشغف. ورغم كونه بركة صغيرة، إلا أنه لم يفقد قيمته كممر أو معبر أو مقر لدى جميع القوى الدولية الكبرى من الأشوريين والفراعنة إلى الفينيقيين والإغريق والرومان حتى الفرنسيين والبريطانيين والأمريكان. ظل باستمرار نقطة جذب كبرى وتصادم حاد أدت إلى تجدد الصراعات الدينية والاقتصادية والسياسية الملتهبة.. وقد كان وباستمرار إلى نهاية الحرب الباردة مفتاح النصر أو الهزيمة لأية قوة صاعدة..

مبكرا أدركت كل قوة تريد الصعود أن تختبر نفسها في المتوسط وتغلق ما استطاعت من مداخله على الأعداء. وكانت بريطانيا منذ العام 1704 قد أدركت كقوة جزيرية

عائمة أن المتوسط قد يكون ضيقا لمسرحها الجيوستراتيجي لكنه ضروري للعبور نحو العالم ونحو امتلاك القوة. بسطت نفوذها على جبل طارق في العام 1704. ثم على جزيرة مالطة، ثم على عدن ثم على قبرص، وحين فتحت قناة السويس وضعت أيديها على مصر. إن الانتشار البريطاني المبكر هو الذي أدخل المتوسط في استراتيجيات القوة الحديثة. فقد كان يستحيل تخيل مسرح دولي متكامل ومتلاطم بالأحداث والشعوب والسفن بدون المتوسط وتأثيراته وتفاعلاته المتبادلة. فهو من حيث سكانه على الضفاف ربما لا يمثل حتى الآن أكثر من 8% من سكان العالم. ولكن من حيث امتداداته السكانية فهو يصل إلى 15% فيما يصل رقم معاملاته التجارية بين الداخل والخارج مما يزيد عن 40%. وبذلك فقد احتل المساحة الأعظم من الاهتمام الدولي في سياق الحرب الكونية الأولى والثانية وكذلك خلال الحرب الباردة. كما كان جميع القوى المحيطة به مثل فرنسا وإيطاليا أو القريبة منه مثل بريطانيا وألمانيا وروسيا أو البعيدة عنه مثل أمريكا محط أنظار وموقع جذب وإلحاح سواء بالنسبة للغرب الأطلسي أو للشرق الروسي.. سواء في عصر البخار والفحم الحجري أو في عصر النفط والطاقة النووية..

ومن الإمبراطورة كاترين إلى نيقولا الثاني مرورا بكيرنسكي ولينين الشيوعي إلى بوتين الجمهوري/القومي، كان دائما المتوسط وخاصة في جزئه الشرقي والجنوبي (سوريا ومصر وليبيا والجزائر) مثار اهتمام للروس. ولم يتردد هؤلاء في جميع طلعاتهم السياسية أن يخفوا نزعتهم للتمدد نحو هذا البحر الحر، عن طريق ضم المضايق وافتكاكها من الأتراك ثم من الإنكليز ثم من الفرنسيين. كان المتوسط دائما يعني لموسكو الاستحواذ والنفوذ في البحر الأحمر (أثيوبيا، اليمن والسودان في أحيان كثيرة) والبحر الأسود وبحر قزوين والخليج العربي. ظل الروس لفترة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية يحاولون القفز إلى المتوسط إلى أن جاءت فرصة حرب السويس عام 1956. ومن ثم جاء التمدد من مصر إلى سوريا ثم إلى اليمن ثم إلى ليبيا فالجزائر. ومنذ إنشاء الأسطول السادس الأمريكي في عهد ترومان المخصص لمراقبة وحماية المتوسط، سيجد الروس صعوبة في التمدد. فقد التحق اليونان بالحلف الأطلسي في العام 52 وتركيا في العام 53 ثم إسبانيا في العام نفسه. وحين أعلن ايزنهاور عن عقيدته في أواخر الخمسينيات كان واضحا أنه شدد المراقبة على المتوسط وتعبئة فراغاته الأمنية بالقوة الأمريكية. كان الرهان الأمريكي على المتوسط واضحا: حماية أوروبا الغربية من أي تهديد سوفياتي وحماية إسرائيل من أي تهديد عربي ثم حماية تركيا من الانهيار أمام الشيوعية وحماية بواخر النفط ومنابعه سواء في الخليج أو في جنوب المتوسط.

وعلى أية حال فإن اهتمام أمريكا بالمتوسط كان مبكرا جدا هو الآخر. وقد يؤرخ منذ 1803 (تزامن ذلك مع الحملة البونارتية على مصر). ففي ذلك العام اندلعت أول أزمات أمريكا في المتوسط مع ولاية طرابلس في عهد عائلة القرامنلي، وفي زمن الرئيس مونرو. إن «فيلادفيا» تلك الباخرة الأمريكية التي وقع أسرها في موانئ طرابلس يمكن أن تعتبر كأول قطعة بحرية من الأسطول الأمريكي السادس الذي لايزال حتى الآن يجوب المتوسط. انهزم الأمريكان في تلك المعركة، ودفعوا ما عليهم ثم وقعوا اتفاقيات تجارية أخرى مع كل من أيالة تونس والجزائر وليبيا، ثم أدركوا أن التجارة الحرة تحتاج إلى أساطيل قوية تحميها من القراصنة أو من الدول المنافسة.

*** *** ***

وحين قال الأميرال الأمريكي الفريد ماهان*[41] بعد قرن من تلك الحادثة في العام 1902.، «بأن المتوسط سيكون لسيد واحد وسيبقى تحت هيمنة قوة عظمى ستدفع بامتيازاتها في جميع الاتجاهات أو أنه سيصبح مسرحا كبيرا لصراعات دائمة ومتجددة»، لم يكن هذا الأميرال يطلق نبوءة بقدر ما كان يعاين تاريخا متشعبا ومتنوعا لبحر فاق جميع البحار في أهميته من فرط ما تحدى الإمبراطوريات القديمة والحديثة بجميع الخيالات الشيطانية!

إن كثيرا من الإمبراطوريات لا تجد التعبير عن وجودها ومناعتها إلا من خلال المتوسط. ويمكن أن نفهم تواجد الإنكليز وحتى التطلع الروسي، ولكن الهيمنة الأمريكية لا يمكن فهمها إلا في سياق ما يسمى «بوعي القوة». فمنطقة الارتكاز الكبرى للجيوستراتيجيا الأمريكية لازالت توجد في المتوسط، حتى وإن كثر الحديث عن انتقالها إلى الباسيفيكي!

وأخيرا لابد أن هناك من الإستراتيجيين من يرى أن المتوسط لم يكن دائما فريسة للأقوياء، بل كثيرا ما تحول إلى مقبرة لإمبراطوريات عدة إذ تجابه على ضفافه وصفحته المائية الأشوريون والفراعنة دون انتصار والإغريق والفرس دون رحمة وروما وقرطاج على نحو فظيع والإسلام والمسيحية لحقب طويلة قبل أن يأتي الأتراك والإسبان ثم الفرنسيون والبريطانيون والروس والأمريكان. ففي هذا المتوسط وجدت وتوجد حتى الآن كل أنواع الصراعات والتصدعات. اقتصادية/اجتماعية بين شمال/جنوب. ودينية بين الإسلام والمسيحية وحضارية بين الغرب والشرق. أما مسرح كل تلك الصراعات حاليا فهو هضبة الشام المرتبطة جغراسياسيا بهضبة الأناضول وهضبة فارس وبلاد الخليج حتى هضبة الحبشة وهضبة شمال إفريقيا بدءا من مصر حتى بلاد المغرب. إنه عالم متصدع..

إن الجغرافيا السياسية التي تحيلنا عن سؤال قديم هو: أين نحن الآن؟ هي المنهجية التي علينا أن نتسلح بها لنعرف إلى أين نحن ذاهبون (الجيوبولتيك). وهذا الحسّ البيوجغرافي الذي عرف بالجيوبولتيك عند الألمان والروس[*42] يشبه تماما الحس التاريخي (البيوتاريخي) والذي يقوم على أساس أن كل حدث صغير أو كبير في حياة الشعوب والكائنات البشرية وعلاقتها بالأرض والحيوانات والتقنيات مرتبط بسلسلة معقدة تمتد إلى أعماق الزمن. فالتاريخ لأية دولة أو إمبراطورية لا يصنع إلا داخل فضاء جغرافي محصن، قابل للحياة والتوسع والاستثمار وحامل لرؤى ومحمل بوعي تاريخي. وما السيادة لأي شعب أو أية دولة إلا الانسجام المتكامل بين عدة عناصر وأهمها عنصرا: الجغرافيا السياسية ثم السلطة السياسية. ومن تلك (الملحمة) يخرج التاريخ من معتقله. فالتاريخ الأسير هو في آخر المطاف جغرافيا متصدعة.

مصادر وهوامش

الفصل الثالث

1 - تيري ميسان: حسب الكاتب تيري ميسان فإن سقوط تدمر في قبضة داعش قد يقلب التوازن الجيوبولتيكي في الشرق كله. فهي مفتاح الطريق من المتوسط إلى الصين.. أنظر موقع شبكة فولتير Réseau Voltaire.

- أنظر كذلك ما كتبه «جيمس وسلي» مدير وكالة الإستخبارات الأمريكية السابق – موقع ميديا 24. يعمل حاليا كمستشار لمجموعة تركية كبرى.

2 - كليوبترا: هي ابنة بطليموس الثاني عشر وأمها كليوبترا الخامسة. حكمت مصر لمدة عشرين عاما من 51 قبل الميلاد إلى 30 ق.م. عاشت 39 عاما فقط (من 69 إلى 30 ق.م). تلقب بالملكة السابعة من العائلة البطلمية. ولكن أخاها بطليموس الـ13 قد شاطرها الحكم. كانت إمرأة فاتنة. طردها أخاها من الحكم وكذلك من مصر التي

كانت تحت الحماية الرومانية. وحين جاء يوليوس قيصر إلى مصر طلبا للقمح، وجد أن الحرب الأهلية قائمة. وتعرف على كليوبترا فوقع في غرامها ثم أعادها إلى الحكم. بعد سنوات جاءت حرب الزعماء في روما، وكانت مصر من نصيب اكتافيو. وبعد أن مات قيصر، أصبحت عشيقة لأنطونيو، وهو ما كلفه الإبعاد عن الحكم في روما فمات منتحرا أمام هزيمته مع أكتافيو. هي من سلالة الإسكندر المقدوني. وبعد موتها بنحو 30 عاما، ظهر المسيح.

3 - **«دامس»:** هو إسم التنظيم الجديد الذي تداولته بعض الصحف والمواقع للإشارة إلى «الدولة الإسلامية في المغرب الإسلامي» أو «الدولة الإسلامية في مصر والسودان». وتعمل الآن مجموعات مسلحة في منطقة سيرت بليبيا يطلق عليها إسم «داعش الليبية». من المحتمل أن تكون قد بايعت أبو بكر البغدادي. ولا يعرف ممن تتكون وهي تحارب من جهة الغرب الليبي ما يعرف بفجر ليبيا وفي الشرق ما يسمى بالجيش الوطني.. وتقول بعض الدعايات أنها تجمع أنصار القاعدة وأنصار القذافي، ولكن مؤيديها يقولون إنها تنظيم بايع داعش في العراق والشام، وإن كل ما يقال عنها هو دعاية رخيصة.. وقد ظهرت داعش في عديد المرات في سيرت. وقامت في الشتاء الماضي 2015 بإعدام - الإقباط المصريين - على طريقة ما تفعل داعش في المشرق. ويقال أيضا أن داعش في سيرت قد تكون مدعومة من تركيا كما داعش سوريا والعراق. وأن تركيا تدعم فجر ليبيا في العلن وداعش في الخفاء.

«ويرى مراقبون أن فكرة «افتتاح» فرع لـ«داعش» في المغرب العربي قابلة للتجسيد بالنظر إلى وجود مقاتلين لتنظيم داعش من دول تونس والمغرب والجزائر وليبيا، فضلاً عن انتشار تنظيم داعش على مواقع التواصل الاجتماعي كـ«علامة» (براند)، وهو يلقى شعبية كبيرة لدى المتأثرين بأفكار التطرف، خصوصاً لدى فئة الشباب والمراهقين، وهي الفئة التي تستعمل بإفراط مواقع التواصل الاجتماعي.

كما رصدت مصالح الأمن في منطقة المغرب العربي حركة ذهاب وعودة لعدد من المسلحين الذين توجهوا للقتال في سوريا والعراق، بدافع الجهاد، فوجدوا أنفسهم في قبضة تنظيم «داعش».

وانتشرت على الإنترنت فيديوهات لمقاتلين تونسيين وجزائريين ومغاربة وليبيين، يتكلمون بلهجات محلية، قالوا إنهم من «داعش»، وذهبوا إلى سوريا لقتال «النصيرية»، لكن قبض عليهم في مناطق يسيطر عليها مقاتلو الجيش الحر السوري.

وكانت وسائل إعلام تونسية قد أعلنت في وقت سابق خبرا مفاده أن سيف الدين الرايس المتحدث السابق باسم تنظيم «أنصار الشريعة» التونسي المحظور قد بايع البغدادي أمام الملأ في أحد مساجد مدينة القيروان التاريخية، لكن الرايس نفى ذلك لدى مثوله أمام النيابة العمومية. كما أعلن ما يسمى تنظيم جند الخلافة في أرض الجزائر مبايعته لـ «داعش» ولأميرها بمناسبة إعدامه لرهينة فرنسي يوم 24 ايلول/سبتمبر 2014. كما تم الحديث مؤخرا عن انخراط عدد كبير من التونسيين في تنظيم «داعش» بعد انسلاخهم عن «جبهة النصرة» في سوريا، وأن جانبا من هؤلاء المقاتلين يعتزم تنظيم الدولة الإسلامية إعادتهم إلى تونس للمساهمة في دفع «أنصار الشريعة» و«كتيبة عقبة بن نافع» إلى الإنخراط في مشروع «داعش» من خلال التأسيس الرسمي لما ستطلق عليه تسمية تنظيم الدولة الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي «دامس».

ويعمل زعماء الكتائب الإرهابية في تونس وفي المغرب العربي عموما والذين لا يتجاوز عددهم عادة ستّة أفراد ضمن استراتيّجية الذئاب المنفردة، وقد استجاب العديد

من الموالين لتنظيم الدولة الإسلامية إلى نداء أطلقه زعماؤها من أجل القيام بعمليات إرهابية منفردة تتضمن اغتيال السياح والأجانب وصناعة المتفجرات بطرق يدوية بدائية واستهداف وحدات من الأمن والجيش الوطنيين.

والذئاب المنفردة هم أشخاص يقومون بعمليات عنف ممنهجة بشكل منفرد دون أن تربطهم علاقة ما بالتنظيمات المتشددة، وبات يطلق هذا الوصف أيضا على هجمات فردية تنفذها مجموعات صغيرة من شخصين أو ثلاثة كحد أقصى، وهي إستراتيجية جديدة تعتمدها الجماعات الجهادية لإرباك رجال الأمن.

وبالعودة إلى أصول هذه التسمية، يبدو أنها غير مرتبطة بالفكر الجهادي فقط، بل هي تعبّر عن أي شخص يمكن أن يشن هجوما مسلحا ضدّ أشخاص معيّنين بدوافع عقائدية أو اجتماعية أو نفسية.

وينبع خطر الذئاب المنفردة من كونهم يتحركون في الخفاء وخارج دائرة الرصد الأمنية، يساعدهم في ذلك عامل محوري يعدّ أسوأ السيناريوهات المحتملة لأجهزة الأمن، ألا وهو عامل المباغتة.

ولطالما حذّر خبراء أمنيون من خطورة استراتيجية الذئاب المنفردة، التي لجأ إليها الموالون إلى القاعدة سابقا لتنفيذ اعتداءات في الدول الغربية مثل بريطانيا، بواسطة عناصر قليلة لا تتبع بالضرورة توجيهات وأوامر المركز. ويعتبر الهجوم الدموي على متحف باردو في تونس في بداية العام 2015 نموذجا تطبيقيا لهذه الاستراتيجية.

وعموما بدأ تنظيم داعش يعاني من نكسات ميدانية رغم سيطرته على عدد من المناطق والمدن المحورية في العراق وسوريا خلال الأشهر الأخيرة الماضية، لذلك قام بتصدير فرع له إلى ليبيا، عله يخفي نقاط ضعفه ويقيم الحجة على قوته وقدرته على اختراق الحدود والتوسع.

ويمثل داعش ليبيا خطرا على دول الجوار المدفوعة لدعم تدخل عسكري عاجل لتأمين حدودها، ولكن من المؤكد أن التنظيم المتشدد يواجه صعوبات في الدفاع والسيطرة على مناطقه (درنة وسرت أساسا) في حال تعرّضه لهجوم عسكري من نقاط متعددة.

ورغم حالة الفوضى والانفلات الأمني وانهيار مؤسسات الدولة في ليبيا، إلاّ أن التنظيم غير قادر على التوسع نحو العاصمة طرابلس وبنغازي أو حتى السيطرة على بعض المناطق الأخرى القريبة من درنة، لاعتبارات عدّة أهمّها أنه محاصر من قبل قوات الجيش الوطني» (علاوة على استعداد مصر والجزائر للتدخل). (موقع: العربية / وموقع القدس العربي)

4 - العرب محاصرون بأربعة قوى قومية، هي: تركيا وإيران وإسرائيل والحبشة.. إن تأثير الحبشة (60 مليون نسمة) على مصر والسودان لا يقل ثقلا عن تأثير إسرائيل أو تركيا أو إيران. فالحبشة التي بدأت تنمو وتتوسع بدعم من إسرائيل (تكنولوجيا) وتركيا (مقاولات وزراعة)، إنما تدخل في الحلف المعادي للأمن القومي السوداني المصري باعتباره متحكما في نهر النيل. فسدّ النهضة العملاق الذي شرعت أثيوبيا في بنائه منذ سنوات والذي أوشك على الانتهاء ليس أقل تأثيرا من الجدار النووي الإسرائيلي أو السلاح النووي الإيراني!.. ففي الستينات كانت هذه البلدان الأربعة متحالفة ومتضامنة ضد مصر الناصرية بدعم من واشنطن.

5 - المفكر الكيني **علي مزروعي**: كاتب ومفكر أمريكي من أصل كيني. يعيش في أمريكا. كتب الكثير عن العبيد وعن إفريقيا والعالم وكذلك عن العرب. ورغم أنه لا يخفي أصوله العربية إلا أنه كثيرا ما يظهر مناهضا للإسلام الذي نشر العبودية في إفريقيا!.. ومع ذلك فإنه يعتقد من غير المجدي أن يتهم العرب بتجارة الرقيق لأن الإسلام لم يكن

مشروعا تجاريا. وقال أن تجارة العبيد فيما بعد تولتها الرأسمالية. وأهم ما أشار إليه هذا المؤرخ الذي توفي في العام 2014 هو أن الأفارقة لم يبنوا دولهم القومية وهو ما يجعلهم قابلين للاستعمار.. وأن الإستعمار الذي ذهب قد يعود في أية لحظة.

6 - في حوار معه على قناة روسيا اليوم (يوتوب بتاريخ 26 جوان 2015) قال أيهود باراك وزير الدفاع الإسرائيلي السابق، «أن داعش يمكن القضاء عليها في يومين»، وأضاف: «إذا كانت داعش قد أحرزت بعض النصر فلأنها لم تجد أمامها قوة تدميرية كبيرة». وفيما اعتبر البعض ذلك مجرد تبجح إسرائيلي، رأى البعض الآخر أن باراك يعتقد بأن داعش محمية من قبل الأتراك وأن الأمريكان يعرفون ذلك. وهم يريدون داعش والأسد في نفس الوقت.

7 - **روبرت كابلان** هو مؤلف كتاب –انتقام الجغرافيا– - Vengence de la Géogr phie. وكتب خيري منصور في جريدة الدستور الأردنية بتاريخ 2015-02-24 يقول:

« ما يقوله مؤلف الكتاب هو أن البينات الجغرافية كان لها دور البطولة في صياغة ثقافات ومفاهيم . ويختار العديد من الأمثلة، منها فهم النازيين للجغرافيا السياسية ومحاولتهم توسيع رقعة بلادهم من خلال التمدد والاحتلال، ومنها أيضا القسوة والعناد لدى سكان السّهوب الروسية، والجغرافيا ليست مناخا فقط. إنها ثروات معدنية يمكن الاستعاضة بها عن مصادر أخرى، كما هي الحال في الصين التي لا تستطيع كما يقول كابلان تغذية أكثر من ثلاثين أو عشرين بالمئة من سكانها والأراضي الصالحة للزراعة فيها لا تزيد عن سبعة بالمئة .

وهو يذكّرنا بالحالة المصرية حيث يقيم تسعون مليون إنسان على مساحة لا تتجاوز السبعة بالمئة من بلادهم، وكون الجغرافيا محركا أساسيا للتاريخ أمر أصبح من المسلمات، ولعل أقرب الأمثلة إلى الذاكرة العربية هو ما سمي قبل نصف قرن «غزو أساطيل البلدان الباردة بحثا عن المياه الدافئة» .

إن موضوعات هذا الكتاب تستكمل سياسيا واقتصاديا ما قيل عن انتهاك البيئة من الجماعات الخُضر، فالبيئة التي أشبعت بمختلف الأكاسيد واستبيحت من خلال التصحّر وزفير المصانع مارست انتقامها أيضا سواء من خلال التصحر أو أمراض جديدة لم يكن الناس سمعوا بها من قبل كجنون البقر والأنفلونزا التي شملت الدجاج والخنازير وقد تشمل كل الكائنات . فالإنسان الذي لم يقم وزنا للبيئة واستخف بها دفع الثمن، إنه أشبه بمن يقضم ثدي أمه التي أرضعته، ويبدو أن ما سماه فوكوياما النظام العالمي الجديد بعد الحرب الباردة هو ما يسميه كابلان النظام الجغرافي الجديد.»

8 - كانت ثورات الربيع العربي كلها خارج سياق السيادة وكذلك سياق الثورة في بعدها الشامل. ما من ثورة تكلمت عن الإشتراكية أو شككت في نظام العولمة أو أوقفت الديون، أو ساندت الفلسطينيين أو تكلمت عن وحدة الأمة العربية أو قطعت التطبيع مع إسرائيل أو غيرت من منهجية التعليم أو أممت ثرواتها أو امتنعت عن الإستعانة والإستقواء بالأجانب أو رفعت صوتها أمام الإجتياح الأمريكي أو تكلمت عن التنمية أو كهربة الريف أو رفع الأمية.. ويقولون لك ثورة!..

9 - أنظر كتاب «**المكان والسلطة**» لمؤلفه بول كلافيل Paul Clavel. وهو جغرافي فرنسي من مواليد 1932 تركزت أعماله على الجغرافيا وتوزيع المكان. واخترع ما أصبح يعرف بجغرافيا الثقافة وجغرافيا السلطة. من كتبه: «منطق المدن»، «غزو الفضاء الأمريكي» و«الجغرافيا في القرن الـ21».

10 - كثيرا ما ردد القذافي للأمريكان «أن ليبيا قوية أفضل من ليبيا ضعيفة للغرب». ولكن الأمريكان ومعهم العرب لم يعرفوا معنى ذلك إلا حين سقطت ليبيا في الفوضى.. وذات مرة قال في خطاب لريغان بعد الهجوم على سيرت في العام 1986، «إن بقاء القذافي في الحكم نقمة لكم. وأن ذهابه أو غيابه سيكون مشكلة لكم».. وهذا ما حدث. فالمنطقة التي تمتد من سيناء والسودان حتى موريتانيا مرورا بمصر والسودان وتونس ومالي كلها تعاني من الفوضى الليبية لما بعد القذافي!..

11 - **بات بروكتور:** هو كولونيل في الجيش الأمريكي. كتب العديد من الكتب في الحرب والإستراتيجيا. من بينها: ميديا الحرب – Media War.

12 - في العام 1991 فرض حصار على ليبيا دام نحو تسع سنوات بسبب ما عرف بقضية لوكربي.. ولم يرفع ذلك الحصار إلا بثمن عال جدا (تعويضات كبيرة ثم التخلي عن السلاح الكيمياوي والمركب النووي). القضاء الإسكتلندي قال أن مفجر طائرة أمريكية فوق لوكربي في العام 1988 هو ليبي (عبد الباسط المقرحي) ويعمل بجهاز المخابرات الليبية. ولكن الليبيين لم يعترفوا ابدا بتلك التهمة التي وجهت في البداية ضد إيران ثم ضد سوريا ثم استقرت ضد طرابلس دون دلائل واضحة.

13 - بعد حرب الكويت، طغت ثقافة جديدة في الشارع الخليجي مضادة للعرب. حتى الشارع الكويتي المشبع تقليديا بالعروبة أصبح معاديا وكارها للعرب. شعر الخليجيون بالخيبة من بعض العرب (شعوبا وحكاما) الذين وقفوا إلى جانب صدام. وقال بعضهم أن العرب يحسدوننا تماما كما قال الأمريكان أن المسلمين يكرهوننا.

14 - أثناء الحصار على بغداد أصبح صدام العلماني رجلا ورعا وانحاز إلى الإسلام لكنه لم يتعاون أبدا مع «الإخوان» أو «القاعدة» كما كذبت الإدارة الأمريكية. كتب على علم بلاده: «الله أكبر»، فنال عطف جمهور عريض من المسلمين. كذلك فعل القذافي أثناء حصار بلاده. أصبح داعية للإسلام في إفريقيا وهو المتهم بالإلحاد والعلمانية واقترب من المسلمين في العالم وأصبح قائدا للقيادة الإسلامية القومية، لكنه لم يدخر جهدا في محاربة الإرهاب الإسلامي. إلى جانب ذلك فقد انهمك في بناء الاتحاد الإفريقي مديرا ظهره لجامعة الدول العربية التي خربت الوطن العربي حسب رأيه. وفي العام 1999 أصبح الاتحاد الإفريقي مؤسسة اتحادية قائمة الذات. وآنذاك بدا الأمريكان يرفعون الحصار على ليبيا.

15 - يعتقد سياسيون كثيرون أن زيارة أوباما إلى إسطمبول والقاهرة في العام 2009 كانت إيذانا بثورات الربيع العربي. فهناك أعلن انحيازه للتغيير وهناك كشف على أن الإسلام يمكن أن يكون ديمقراطيا! لقد كان التحالف الأمريكي/التركي واضحا كما كان واضحا التركيز على مصر وكذلك على قوة الإخوان في التغيير. وما لم يكن واضحا أو متوقعا هو أن يبدأ التغيير في تونس. ومنذ أن بدأ موقع الويكيلكس يهاجم مبارك وبن علي وبشار الأسد وعلي صالح، قال القذافي لبن علي: «أن الأمريكان يريدون رؤوسنا بالجملة هذه المرة!»..

16 - كان **سعود الفيصل** وزير الخارجية وبندر بن سلطان رئيس المخابرات أبناء عمومة. وقد شغل كل منهما طويلا في الدبلوماسية وأصبحا كما لو أنهما يفكران أمريكيا ويطبقان سياستهما عربيا.. ولم ينتبه هذا الثنائي حين وقفا ضد بشار الأسد، أن

بلدهما السعودية قد يصبح من المتضررين.. وكانا يركزان على العداء الشيعي الإيراني ويهملان ما عداه. وفي المحصلة لم يفهما التحولات الجديدة وخاب ظنهما من أمريكا التي اختارت في الأخير التسوية مع إيران. ولولا صعود السيسي إلى الحكم في مصر لكان مصير السعودية أسوأ.

يمكن أن نقرأ *شهادة بندر بن سلطان في الاتفاق الإيراني/الأمريكي لندرك ذلك*. ففي رسالة خص بها موقع إيلاف بعنوان «طبق الأصل ثانية» كتب الأمير بندر بن سلطان معلقا عن الاتفاق النووي مع إيران يقول:

«يقول نقادٌ في الإعلام وفي السياسة إن الاتفاق النووي الذي عقده الرئيس باراك أوباما مع إيران هو نسخة طبق الأصل عن الاتفاق النووي الذي عقده الرئيس الأسبق بيل كلينتون مع كوريا الشمالية.

إلا أنني، وبكل تواضع، لا أتفق مع هذا الرأي. فالرئيس كلينتون اتخذ قراره آنذاك على أساس تحليل استراتيجي للسياسة الخارجية الأميركية، وعلى معلومات استخبارية سرّية، على رغبته ونواياه الحسنة لإنقاذ شعب كوريا الشمالية من مجاعة تسببت بها قيادته. واتضح بعد ذلك أن ذلك التحليل الاستراتيجي للسياسة الخارجية كان خاطئًا، إلى جانب فشل استخباراتي كبير، لو عرف به الرئيس كلينتون قبل اتخاذه قراره لما اتخذه، وأنا واثق تمامًا من ذلك.

أما الرئيس أوباما، فقد اتخذ قراره بالمضي قدمًا في الصفقة النووية مع إيران وهو مدرك تمام الادراك أن التحليل الاستراتيجي لسياسته الخارجية، والمعلومات الاستخبارية المحلية وتلك الآتية من استخبارات حلفاء أميركا في المنطقة لم تتنبأ جميعها بالتوصل إلى نتيجة الاتفاق النووي نفسها مع كوريا الشمالية فحسب، بل تنبأت بما هو أسوأ، إلى جانب حصول إيران على مليارات من الدولارات. فالفوضى ستسود الشرق الأوسط، الذي تعيش دوله حالة من عدم الاستقرار، تلعب فيها إيران دورًا أساسيًا.

وبالتالي، السؤال الذي يجب طرحه هو:

لماذا يصر الرئيس أوباما على عقد مثل هذه الصفقة رغم أنه يعرف ما لم يعرفه الرئيس كلينتون عندما عقد صفقته مع كوريا الشمالية؟

ليس الأمر بالتأكيد أن الرئيس أوباما ليس ذكيًا بما فيه الكفاية، ولكن لأنه ذكي بما فيه الكفاية. وأرى أن السبب الحقيقي وراء عقد هذه الصفقة هو أن الرئيس أوباما صادقٌ ومتصالح مع نفسه، ولأنه مقتنع تمامًا بأن ما يفعله هو الصحيح. وأعتقده يرى أن كل ما يمكن أن يكون كارثيًا بسبب قراره هذا هو ضرر جانبي مقبول.لكن، من أكون أنا لأخرج بمثل هذا الاستنتاج العميق؟

بكل تواضع، أنا رجل عمل مباشرة مع رؤساء الولايات المتحدة من جيمي كارتر حتى جورج دبليو بوش. وبكل تواضع، أنا رجل مثل بلاده في الولايات المتحدة الأميركية العظيمة 23 عامًا، وقضى 17 عامًا من حياته يخدم في جيش بلاده. وإن كان كل هذا لا يؤهلني للإدلاء برأي مستند إلى معلومات أكيدة بشأن هذه المسألة، يمكنني أن أضيف أنني منذ 2005 وحتى 2015، شغلت منصب مستشار الأمن القومي لقادة بلادي، ورئيسًا للاستخبارات، ما مكنني من الاطلاع مباشرة على قرارات قيادة بلادي، وعلى التحليل الذي يقدمه الرئيس أوباما.

وكشفًا عن المعلومات، علي أن أعترف بأنني لم يسبق لي أن عملت مع الرئيس أوباما، كما لم ألتق به شخصيًا، لا قبل أن صار رئيسًا ولا بعد ذلك. والمعلومات الوحيدة التي أستند إليها في تقويمي للرئيس هي التي أمدني بها الملك الراحل عبد الله، أو تلك التي طلب نصيحتي بشأنها، حين كان يستدعي الأمر التعامل مع الرئيس أوباما. وهذه

المسائل كلها كانت تمر، ذهابًا وإيابًا، من خلال السيد عادل الجبير، سفيرنا في واشنطن آنذاك ووزير خارجيتنا راهنًا.

لقد قصرت ملاحظاتي على الاتفاق النووي الإيراني، لكن ثقوا بي حين أقول إن سياسات الرئيس بشأن الشرق الأوسط عمومًا وسوريا والعراق واليمن بصفة خاصة فتحت عيوننا على شيء لم نكن نتوقعه منه ويمكن مناقشتها في وقت آخر. أما الآن، وبكل تأكيد، أنا أكثر اقتناعًا من أي وقت مضى بأن صديقي العزيز، الثعلب القديم هنري كيسنجر، كان مصيبًا حين قال: «على أعداء أميركا أن يخشوا أميركا، لكن على أصدقائها أن يخشوها أكثر».

في النهاية ان الناس في منطقتي يتوكلون على الله ويعززون قدراتهم وتحليلهم للوضع بالتعاون مع الجميع، باستثناء حليفنا الأقدم والأقوى.

هذا يفطر القلب، إلا أن الحقائق مرّة، ولا يمكن تجاهلها».

17 - ضاحي خلفان: يقول عارفو خلفان إنه رجل أمن عصري، يعتمد في تحقيقاته على الأساليب العلمية.

ولد الفريق ضاحي خلفان تميم في العام 1951 بدبي، وحصل على درجة دبلوم في العلوم الشرطية من كلية الشرطة الملكية في عمّان في العام 1970، ثم ابتعث في دراسة تخصصية في مجال المباحث الجنائية، وحصل على دورات في التفاوض.

في ظل قيادته، نالت شرطة دبي جائزة «أفضل دائرة في الأداء الحكومي المتميز» في العام 1998، في أولى دورات المسابقة التي تعقد على مستوى دوائر إمارة دبي، ونالت ثماني جوائز أخرى في العام 1998، و9 جوائز في العام 2002، و3 جوائز في العام 2003، في المسابقة نفسها.

وألّف خلفان عددًا من الكتب في مجال العمل الشرطي، هي «نظام النقاط السوداء وأثره على فعالية الضبط المروري»، و«الشرطة وحقوق الإنسان»، و«دور الشرطة في علاج وتأهيل المدمنين التائبين»، و«غرف العمليات ودورها في رفع كفاءة الأداء الشرطي».

في مجال القضايا العامة، ألّف كتباً، هي: «راشد والمسيرة البناءة»، و«همٌ وأرق على الورق»، و«التخطيط المحكم».

عُرف عن خلفان انتقاده الشديد لجماعة الإخوان المسلمين. وخلال أحداث الربيع العربي، سجل خلفان مواقف كثيرة وقاسية ضد الجماعة، وقال إنهم يشكّلون خطرًا على أمن دول الخليج، لأنهم يخططون لقلب أنظمة الحكم.

ومن أقواله إن جماعة الإخوان أسقطت الرئيس الأسبق حسني مبارك، وأنه، أي خلفان، سيسقط الإخوان، وإن تنظيم الإخوان قائم على قانون الطماطم. وزادت انتقادات الرجل غضب التنظيم الدولي للإخوان حين هاجم الشيخ يوسف القرضاوي، ما تسبب في توتر في العلاقات بين الإمارات ونظام حكم الإخوان قبل سقوطه في (يوليو) 2013. ويقول خلفان إن لا خصومة بينه وبين الإخوان، لكنه يقف ضد محاولة التنظيم «زعزعة الأمن في بلاده». (موقع إيلاف)

18 - عبد الفتاح السيسي: لم يعرف المصريون اسم عبد الفتاح السيسي إلا بنهاية حزيران (يونيو) 2011، مقترنا بفضيحة ما يعرف بـ«اختبارات العذرية» التي أجراها الجيش المصري لفتيات تظاهرن احتجاجًا على التعديلات الدستورية في شهر آذار (مارس) 2011.

بعد عامين من تلك الحادثة، وتحديدًا في 30 حزيران (يونيو) 2013، تحوّل السيسي

إلى زعيم يشار إليه بالبنان، وصار اسمه معروفًا في أنحاء العالم عقب الإطاحة بنظام حكم الإخوان وعزل الرئيس السابق محمد مرسي.

وجد السيسي نفسه، مع 18 قائدًا بالجيش المصري، في بؤرة الأحداث والأضواء، عقب نجاح ثورة 25 يناير في الإطاحة بالرئيس السابق حسني مبارك، والقضاء على أحلام نجله جمال في التوريث، وتولي المجلس العسكري الحكم في 11 شباط (فبراير) 2011.

ولد عبد الفتاح سعيد السيسي في حي الجمالية الشعبي بالقاهرة، بتاريخ 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1954، وهو الحي نفسه الذي ولد فيه الأديب العالمي الراحل نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل للآداب.

وتخرج السيسي من الكلية الحربية في 1977، وحصل على ماجستير في كلية القادة والأركان البريطانية في 1992، كما حصل على زمالة الحرب العليا الأميركية 2006. ولم يول وجهه شطر الإتحاد السوفياتي، مثل غالبية القادة العسكريين المصريين، بل تعلم في أميركا، لاسيما أنه قضى فترة شبابه وكهولته في عهد الرئيسين أنور السادات وحسني مبارك، اللذين تحولا من التحالف الاستراتيجي مع الإتحاد السوفياتي السابق إلى التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية.

الحياة الخاصة للسيسي شحيحة جدًا، ولا يعرف عنها سوى أنه أب لأربعة أبناء، ثلاثة ذكور وبنت. أستاذه الأميركي البروفيسور ستيفين جيراس، الذي عمل مستشارًا أكاديميًا للسيسي في كلية الحرب العليا الأميركية في الفصل الدراسي 2005 - 2006 خلال دراسته للزمالة، كشف بعضًا من شخصيته. قال عنه: «كان طالبًا ذكيًا يتقن اللغة الانجليزية، وجادًا يعتبر من أكثر الطلاب العسكريين الذين كانوا يدرسون الزمالة جدية»، مشيرًا إلى أنه «متدين في غير تعصب».

إلا أنه برهن أنه رجل قوي فعلا. فقد أستطاع الحفاظ على استقلال القرار السياسي المصري، وأرغم الولايات المتحدة على مراجعة مواقفها من ثورة 30 يونيو، ولم يلن لإدارة الرئيس بارك أوباما عقب تجميد المعونات الأميركية لمصر، ولم يرضخ لضغوط تركيا، بل طرد السفير التركي من القاهرة، ولم يخجل من تقديم الشكر لدول الخليج العربية على مساعدتها مصر.

تصاعدت الأحداث في مصر خلال العام الذي حكم فيه مرسي البلاد بسرعة شديدة. واشتعلت المعارضة لنظام الإخوان، بعدما شكلت جبهة قوية ضمت الأحزاب الليبرالية والحركات الثورية. لكن ظهور حملة «تمرد» كان له القول الفصل بعد التفاف المصريين حولها، وتوعدت بأن يكون تاريخ 30 حزيران (يونيو) 2013 بداية نهاية حكم الإخوان.

إلا أن المعارضة و»تمرد» كانتا تشكان في قدراتهما على إزاحة الجماعة التي تمتلك قدرة كبيرة على الحشد، فاستنجدتا بالجيش وطالبتاه الإنحياز للشعب، وإسقاط نظام حكم الإخوان، وكان على رأس هؤلاء، الدكتور محمد البرادعي، نائب رئيس الجمهورية السابق.

رفض السيسي الدعوات داعيًا المعارضة والإخوان إلى ضرورة التفاهم. وقال في 11 آيار (مايو) 2013: «لا بد من وجود صيغة للتفاهم، فالجيش نار، لا تلعبوا به ولا تلعبوا معه».

كان السيسي يأمل أن يستطيع الفرقاء السياسيون إيجاد صيغة للتفاهم، إلا أنهم ما كانوا على مستوى المسؤولية، فلم يتقدم أي طرف بمبادرة للحل، بل إستمرت حالة الشحن والشحن المضاد، والتنابز بالمظاهرات المليونية، وتهديد الإسلاميّين معارضيهم الليبراليين بالسحق.

لم يجد السيسي أمامه سوى التدخل، فوجّه إنذارًا لجميع الأطراف بضرورة الوصول

لحل سياسي خلال أسبوع، إلا أن كل طرف اعتبر التحذير موجهًا للآخر، ورفض تقديم تنازلات. خرج المصريون في تظاهرات مليونية في 30 يونيو منادية بإسقاط حكم الإخوان، وقالت الجماهير إنها لن تبرح الميادين إلا بعد رحيل مرسي. استجاب السيسي لنداءاتها وعزل مرسي من الحكم في 30 تموز (يوليو) 2013.

بغض النظر عن توصيف ما حصل، إنقلاب أم ثورة شعبية، تحول السيسي إلى زعيم ورآه المصريون منقذًا من الحرب الأهلية، فسمّوا مواليدهم باسمه، وصار لمصر رجل قوي بعد عقود من فقدان الرمز السياسي. (موقع: إيلاف)

19 - نسب ذلك التصريح إلى «ظريف» وزير خارجية إيران في بداية العام 2015. ولكن الرئيس الإيراني روحاني «خفض» من حدة الغضب والاستفزاز وقال أن إيران تقف إلى جانب قضايا العرب وعلى رأسها القضية الفلسطينية. بعد ذلك أصبح الكلام عن الجنرال قاسم سليماني في الصحافة الخليجية كما لو أنه قائد الغزو الإيراني للعالم العربي دون أن يتكلم أحد عن وجود الجنرالات الأمريكان. فمن قاسم سليماني ؟

هو قائد «فيلق القدس» منذ 15 سنة.

الرجل في الـ56 من العمر ولد في رابور، القرية الجبلية الفقيرة في شرق إيران، صغير الحجم اجتاح الشيب رأسه، بلحية مشذّبة قصيرة وصاحب نظرة تنمّ عن ثقة كاملة بالنفس. وقال عنه جون ماغواير، العميل السابق لوكالة الاستخبارات الأميركية «سي آي أيه» في العراق «سليماني هو أكثر فرد نشاطاً في الشرق الأوسط اليوم، وفي الوقت نفسه لم يسمع به أحد».

يبدو أنه يعيش حياة منزلية لائقة، ويقول أحد عارفيه إنه «يصحو في الرابعة فجراً، ويخلد إلى النوم عند التاسعة والنصف مساء». ويعاني سليماني مرضًا في غدة البروستات وآلامًا في الظهر. ويُعرف عنه احترامه الكبير لزوجته وهو يصطحبها أحيانًا في رحلات طويلة. لديه ثلاثة أبناء وابنتان، وهو ظاهريًا صارم لكنه أب عطوف، بحسب مقربين منه.

مؤخرًا نشرت صحيفة «نيويوركر» الأميركية الواسعة الانتشار تحقيقًا موسعًا عن دور الحرس الثوري بقيادة سليماني في سوريا، واعتبرت أن الحرب هناك وضعت المشروع الإيراني في المنطقة على المحك، فكان سليماني الخيار الأول لخوض المعركة اليائسة حتى لو كان الثمن صراعًا مذهبيًا يلفّ المنطقة لسنوات.

وتنقل الصحيفة عن مسؤول عراقي قوله «سليماني قال لنا إن الإيرانيين سيقومون بما هو ضروري، لسنا مثل الأميركيين، لا نتخلّى عن أصدقائنا».

في دمشق، يُقال إن سليماني يعمل من مركز قيادة محصّن بشكل كبير في أحد المباني غير المعروفة، حيث يعاونه عدد كبير من القادة من جنسيات مختلفة: قادة الجيش السوري، قائد من «حزب الله»، ومنسق عمليات الميليشيات الشيعية العراقية، الذين جنّدهم سليماني وزجهم في المعركة.

وعلى الرغم من العمل الصعب لسليماني، فصورته لدى الإيرانيين هي صورة بطل الحرب الذي لا عيب لديه، مخضرم حائز على أوسمة عديدة خلال الحرب الإيرانية العراقية، التي رقي خلالها إلى قائد فرقة على الرغم من كونه في العشرينات من العمر حينها.

وعلى الرغم من عدم تقدمه في العلوم كثيرًا، إلا أن مسؤولاً عراقياً سابقًا قال عنه لـ«نيويوركر» «إنه داهية، واستراتيجي ذكي مخيف. وأدواته التي يستخدمها تتضمن دفع مكافآت إلى السياسيين في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وتخويفهم عند الحاجة،

والقتل كآخر الوسائل». (موقع إيلاف)

20 - أنظر مجلة - عرابيا - جيوبولتيك - عدد 1 - 2011. وبالتحديد ما كتبه «جيرار ديمون» عن جيوبولتيك أو خارطة الهلال الشيعي - أساطير، حقائق ونظرة مستقبلية.
ديمون هو جغرافي واقتصادي وباحث في الديمغرافيا من مواليد فرنسا 1948. أستاذ محاضر في جامعات فرنسا.

21 - **رضا شاه بهلوي** هو الضابط الذي أسس «الإمبراطورية الإيرانية» في العام 1925 إثر انقلاب ضد أحمد مزرا آخر شاهات الدولة القاجارية. وقد حكمت أسرة رضا بهلوي حتى عام 1979 تاريخ اندلاع الثورة الإيرانية.
أجبر الغزو البريطاني المؤسس رضا شاه على التنحي عن الحكم عام 1941 لصالح ابنه بسبب علاقته الشخصية مع هتلر الذي كان يحتاج إلى بترول إيران.. وحكم الابن محمد رضا إيران حتى 1979. وفي العام 54 هرب إلى الخارج ثم عاد بمساعدة السي. اي.اي. وفي أواخر الستينات أعلن نفسه إمبراطورا شاهنشاه!.. وكان حليفا كبيرا لأمريكا وإسرائيل. ومات مطاردا من بلد إلى بلد، حتى أمريكا لم تقبل بوجوده على أراضيها. ودفن في مصر.

22 - أنظر مجلة - جيوعرابيا - عدد 1 - 2011.
الاختلافات الدينية والعرقية واللغوية - جيوبولتيك الساحل والصحراء.
جيرار ديمون. أستاذ محاضر في جامعات فرنسا متخصص في الديمغرافيا السياسية.

23 - نفس المصدر.

24 - **شريط أوزو:** مساحته تقدر بنحو 150 ألف كلم2. يقع جنوب ليبيا المحاذي لتشاد. حسب الخرائط العثمانية فإنه ينتمي إلى ليبيا ولكن حسب الخرائط الفرنسية فقد أصبح من ممتلكات تشاد. طالب به القذافي ثم تطور الأمر إلى حرب طويلة المدى استمرت لأكثر من عشر سنوات. ودخل الجيش الليبي إلى نجامينا عام 1981 وأسقط الرئيس حسين حبري، ولكن الفرنسيين ضغطوا فانسحبت ليبيا. وتقدمت ليبيا وتشاد إلى محكمة العدل الدولية بلاهلي للتحكيم، فكان شريط أوزو من نصيب تشاد منذ التسعينات.

25 - **عبد الله إبراهيم** هو أول رئيس حكومة للمغرب المستقل في عهد الملك محمد الخامس. كان أحد رجالات الاستقلال. وكان ينادي بتوحيد المغرب العربي وقد شارك في مؤتمر طنجة عام 58. يعتبر من الجناح اليساري في حركات التحرر المغاربية وكان صديقا للزعيم بن بركة. وهو أول من أقام علاقات مع الاتحاد السوفياتي حتى أن أول طائرة «ميغ» تدخل إلى العالم العربي، كانت للمغرب في عهد عبد الله إبراهيم في العام 1959: أستاذ قانون وعلوم سياسية. وله مؤلفات كثيرة. وتوفي في الدار البيضاء قبل بضعة سنوات.

26 - **ميشال جوبير**: وزير خارجية فرنسا في عهد بومبيدو. ديغولي النزعة. كاتب ومفكر من مواليد مكناس - المغرب. أنظر كتابه:
Le maghreb entre les mains de ses enfants

Ed. Lafond –Paris 1988.

27 - بعد مجزرة فندق سوسة (امبريال) في جوان 2015 التي راح ضحيتها حوالي 40 سائحا أغلبهم من حاملي الجنسية البريطانية. أرسلت حكومة لندن فريقا للتحقيق من السكوتلنديارد قوامه 30 شخصا إلى تونس. وقد قام هذا الفريق بتحريات كثيرة خاصة مع البوليس التونسي. وحامت شكوك حول تورط الأمن التونسي في تلك المذبحة، ولكن لم يعرف حتى الآن ما توصلت إليه التحريات البريطانية. والمهم هنا هو: كيف يجد الغرب في كل مرة الأسباب والأبواب للتدخل. ولو أن العملية حدثت ضد التونسيين في لندن، فإن تونس ما كانت لتتجرأ وتطلب التحقيق مع أجهزة الأمن البريطانية!..

28 - بتاريخ 13 جويلية 2015 نشرت «الواشنطن بوست» مقالا تحدثت فيه عن القاعدة الأمريكية في الجنوب التونسي. وقالت: «أن تلك القاعدة قد تم الاتفاق على بنائها بعد وصول حكومة الجبالي في العام 2012-2011. وأن الاشغال بدأت في عهد الترويكا حين كان المرزوقي رئيسا. وأن هذه القاعدة هي أكبر من قاعدة الخبر في السعودية». أضافتْ الواشنطن بوست، «أن قائد قوات الأفريكوم الجنرال دايفيد رودريغيز قام بزيارة لتونس في 20 ديسمبر 2013 حيث التقى رئيس الحكومة علي العريض لمراقبة تقدم الأشغال في القاعدة.. وكان السفير الأمريكي بتونس جاك والس قد قام بزيارة هذه القاعدة في مارس 2012. وترافق ذلك مع إعلان المرزوقي منطقة في الجنوب كمنطقة محرمة تحت دعوى مكافحة الإرهاب»..
تضيف «الواشنطن بوست» أن واشنطن تقيم علاقات مع النهضة منذ سنوات، وقبل سقوط بن علي في العام 2011. وأن النهضة قد قدمت تلك القاعدة كهدية لأمريكا لكي تمنحها بركة البقاء في الحكم!..

وفي أواخر مايو 2015 قام الرئيس المنتخب الباجي قائد السبسي بزيارة لأمريكا. وهناك تم التوقيع على بروتوكول يعطي لتونس مرتبة الحليف المميز من خارج الحلف الأطلسي. وهذا البروتوكول لم يخضع للمساءلة في البرلمان التونسي حتى كتابة هذه السطور. وكانت صحيفة «جون أفريك» الفرنسية، قد كشفت منذ ديسمبر 2013 عن دخول مجموعة من المارينز في نوفمبر 2013 إلى تونس من ليبيا واتجهوا نحو المنطقة المحرمة بقرار رئاسي في أوت 2013 وذلك لتفقد قاعدة رمادة العسكرية التي أصبحت جاهزة.

مقابل ذلك يخفي المسؤولون التونسيون السابقون واللاحقون أية معلومة وينفون ذلك ولا يرغبون في نقاش هذه المواضيع. وللتذكير فإن الرئيس بن علي قد تعرض للضغط من أجل بناء قاعدة عسكرية لكنه كان يرفض ذلك وبالتنسيق مع بوتفليقة والقذافي..

29 - أنظر «جون أفريك» ديسمبر 2013 و«الواشنطن بوست» في جويلية 2015

30 - **بوكو حرام:** هي «مجموعة أهل السنة للدعوة والجهاد».. المعروفة بالهوساوية باسم «بوكو حرام» أي «التعاليم الغربية حرام»، وهي جماعة إسلامية نيجيرية سلفية جهادية مسلحة تتبنى العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع ولايات نيجيريا.

القائد الحالي لها هو أبو بكر شيخو، وسميت هذه الجماعة بـ«طالبان نيجيريا». وهي مجموعة مؤلفة خصوصا من طلبة تخلوا عن الدراسة وأقاموا قاعدة لهم في قرية كاناما بولاية يوبه شمال شرقي البلاد على الحدود مع النيجر..

وفي 12 مارس 2015 قبلت داعش بيعة بوكو حرام، وذلك بعد بث شريط صوتي

على الشبكة العنكبوتية.

تأسست الجماعة في يناير 2002، على يد محمد يوسف، وهو الذي أسس «قاعدة الجماعة» في شمال نيجيريا. يدعو يوسف إلى الشريعة الإسلامية وإلى تغيير نظام التعليم، وحسب قوله: «هذه الحرب التي بدأت سوف تستمر لوقت طويل».

كبير مراسلي مجلة ليكسبريس الفرنسية «فانسون هيجو» زار نيجيريا وكتب الكثير من التقارير عن بوكو حرام ويرى أن تطرف الجماعة زاد بالفعل بعد قتل مؤسس الجماعة محمد يوسف ولكن الفوارق الموجودة بين الشمال النيجيري المسلم والجنوب المسيحي تساعد بوكو حرام على أن تكون لها قاعدة اجتماعية لدى بعض الشباب المسلمين في الشمال النيجيري.

جماعة بوكو حرام أعلنت في عدة مرات انتمائها لتنظيم القاعدة ويعتقد كثير من النيجيريين أن الحكومة النيجيرية بقيادة الرئيس السابق «غودليك جوناثان» تركت شوكة بوكو حرام تتزايد في السنوات الأخيرة حيث تساهلت في التعامل معها وتركت بعض الميليشيات المدنية المسيحية تتعرض لبعض المسلمين و لبوكو حرام مما زاد في اعتقاد جماعة أبو بكر شيخو أنها أصبحت حامية لواء الإسلام والمسلمين في نيجيريا.

وأمام الرئيس النيجيري الجديد، مهمات صعبة للقضاء على هذا التنظيم، فالرئيس نفسه محمد بوخاري، هو عسكري مسلم شمالي. وبإمكانه أن يخوض حربا عنيفة ضد هذا التنظيم دون أن يتهم بأنه متعصب مسيحي كما كان يتهم الرئيس السابق غودلايك جوناثان.

31 - جورج كليمنصو: (1841-1929) رجل دولة فرنسي. من الإشتراكيين الراديكاليين. شغل رئيسا للبرلمان مرتين في العام 1906 وفي العام 1917 حتى 1920. كان سياسيا بارعا. وقد عرف أهمية النفط للغرب. وقد شارك في الإعداد لاتفاقيات فرساي وملحقات سايكس /بيكو.

32 - في ربيع 2015 قامت حملة على المواقع الإجتماعية عنوانها: «وينو البترول» اتسعت وأصبحت مصدر صراع لحكومة الحبيب الصيد والرئيس السبسي. وهكذا تم الضغط عليها وتبخيسها. وقال مسؤولون أن تونس لا يوجد بها بترول. وأن الذين يبحثون عن البترول هم - مرتزقة - هدفهم إشعال الحرائق في البلاد. وكانت هذه المواقع اتهمت الحكومة بإخفاء الحقائق والشركات بالنهب والتلاعب بثروات البلاد حين اكتشف التونسيون لأول مرة أن نفطهم غير مؤمم. وتحدث وزراء في حكومة الصيد عن الحملة بكثير من السخرية فيما اعترف وزراء آخرون بأنهم لا يملكون إحصاءات حقيقية وأن عدادات الآبار لا تعمل، وأن الدولة التونسية تتعامل بالثقة مع الشركات المنتجة!.. بعد ذلك قامت شركات نفطية مثل - شال - بتلميع صورتها فقامت بحملة إعلانية ظهر فيها صحفيون (نجوم التلفزيونات التونسية) وهم يرتدون «تي شيرتات» مزينة بشعار «شال».

33 - انظر مذكرات بن غوريون، «النبي المسلح» - شيمون بيرس

Ben Gourion : le prophète armé

Shimon Perès

Ed : Stock - Paris

منشورة بالفرنسية عن دار ستوك.

- أنظر كذلك بن غوريون يتكلم

Ben Gourion parle - Thomas Bransten
Ed : Stock - Paris 1970

34 - ينحو كتاب الباحث **«أنطوان مرعب»**: «أنابيب حمراء. لماذا سوريا؟ ولماذا الآن؟» الصادر في عام 2014 عن دار سائر المشرق - بيروت - منحى الدراسة الجيوبولتيكية التي تميط اللثام عن الخلفيات والأبعاد الحقيقية للصراع في الشرق الأوسط. ويتمحور الكتاب حول منطقة الشرق أحواضا وآبارا وأنابيب ومضائق وبحارا. ويعود الكتاب إلى بداية تكون الدول العربية قبل الحرب العالمية الثانية.

35 - **ريفا بهالا:** خبيرة في شؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا وأمريكا اللاتينية. كتبت عن تركيا والأكراد والعراق. كما كتبت عن إيران واتفاقها النووي مع أمركيا. كتابها: الجغرافيا السياسية للحرب الأهلية السورية يتميز بالعمق

Géopolitique de la guerre civile en Syrie -
Ed : Lafond. Paris 2014

وهو بحث في الاتجاهات والتوقعات على خرائط متحركة. وكما قال جنرال أمريكي ذات مرة: «لدينا دائما خرائط خاطئة ولغات خاطئة عندما نذهب إلى الحرب»..

36 - **ويليام إنغدال:** خبير جيوسياسي. يعتقد بأن الربيع العربي فيلم من إخراج واشنطن. مخطط وقع التحضير له منذ سنوات. والقصد هو التغيير بالقوة على مستوى الهلال الإسلامي من الباكستان حتى شمال إفريقيا.

37 - **نورث دوم** / ساوث بارز هو حقل الغاز العملاق الذي تشترك فيه قطر مع إيران. أنظر موقع: «ستراتيجيك كلتشر فاونديشن» - مايو 2015.
ديمتري مينين - ترجمة مالك سلمان

38 - أول دولة عربية قطعت علاقتها مع سوريا عند بدء الحراك الشعبي، هي تونس في عهد الترويكا. النهضة تتهم الرئيس المرزوقي بأنه قام بقطع العلاقات دون إستشارة أحد. والمرزوقي يقول أن الترويكا هي التي قررت ذلك. كان ذلك عقب أول مؤتمر لأصدقاء سوريا عقد في تونس في أواخر 2011. وقد تم ذلك بالاتفاق مع تركيا وقطر. والحقيقة أن قرار قطع العلاقات هو قرار تركي/ قطري!

39 - يمكن الاستماع إلى المكالمة الهاتفية التي جرت بين القذافي وشيخ قطر حمد في العام 2010 (اليوتوب - القذافي). وهي من التسجيلات التي عثر عليها. وقد كان الشيخ حمد واضحا وحازما في تأكيده للقذافي ب«أن آل سعود ستكون نهايتهم على يديه». أما القذافي فقد كان يستمع دون أي تعليق حتى بدا الأمر كما لو أن الشيخ حمد كان يريد توريط القذافي ضد السعودية!..

40 - **فرديناند بروديل:** مؤرخ وجغرافي فرنسي مختص في البحر الأبيض المتوسط (عاش 83 عاما وتوفي العام 1985). كان عضوا في الأكاديمية الفرنسية. بحوثه التاريخية تتميز بالدقة والشاعرية. من كتبه: «البحر الأبيض المتوسط»، «الهوية الفرنسية» و«الحضارة المادية - اقتصاد ورأسمالية». متخصص في نحت المصطلحات الجديدة. وقد سيطر لفترة على كتابة التاريخ في المدرسة الفرنسية (حوليات)

جميع كتبه للقوة البحرية. شارك بفعالية في السياسة ويرى أن التجارة هي الأداة الأولى للسياسة وللقوة. رأى ماهان أن مصير أمريكا بحريا (المصير المعلن) ويمكن اعتباره بصانع المارينز. بل ربما «أب الناتو» غير المعلن. كان يعتقد أن عدو أمريكا هي الكتلة الأوراسية لذلك لابد لقوة بحرية أن تنتشر في جميع البحار منعا لأي خطر.

42 - **ألكسندر دوغين:** أنظر كتاب ألكسندر دوغين.

اسس الجيبولتيكا - مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

ترجمة عماد حاتم - إصدارات دار الكتاب الجديد المتحدة.

عمل دوغين مستشارا للبرلمان الروسي. يعتبر قائد حركة أوراسيا العالمية. من مؤلفاته: الوطن المطلق - شيء روسي - بحث المؤامرات - نهاية العالم -فلسفة السياسة.

الفصل الرابع

التاريخ الأسير

بلا سيادة، ولا سرد، ولا ظفر



التاريخ الأسير

بلا سيادة، ولا سرد.. ولا ظفر

«يثور على الأب ويقتله (لايوس).. يعود ليتزوج أمه الأرملة (جوكاست). لكن أمريكا لن تجعله يتزوج غيرها.. وتلك هي أزمة أوديب العربي».

المؤلف: **الصافي سعيد**

«عرف العثمانيون كيف يجمعون بمهارة بين الصراع والتعايش وبين المأساة وإقامة الموائد. فمنحوا البلقان والعرب وظائف سامية بل وأرفعها وأكثرها أحيانا كمنصب رئيس الوزراء وقائد الجيش أو وزير الخارجية ثم أورثوهم حب السلطة والطغيان ثم سلموهم إلى الآخرين!».

الروائي الألباني - **إسماعيل قداري**-

إن غياب «الحس التاريخي» هو الخلل الموروث والمشترك عند جميع العرب.. أما الغرب فقد عرف هذا الحس في اللحظة التي بدأت تنبثق فيها مدن النهضة الأوروبية في إيطاليا في القرن الرابع عشر. وقد كتب ابن خلدون مقدمته تقريبا في ذلك الزمن. وشدد أن التاريخ ليست له بداية أو نهاية، وأنه فلسفة المتغير والمتحول. وهو ليس دوغما أو سرد بسيط لذكرى الماضي والذكريات. وأن حقائقه غير ثابتة وإنما هي في صيرورة دائمة. وأن الدول التي لا تعرف تاريخها لا تعرف اتجاهاتها.. ومع ذلك فإن العرب لم يكن ينقصهم الحس التاريخي فقط (وهو ما ينقصهم حتى الآن) وإنما بسبب غياب ذلك الحسّ، تلك الروح على رأي نيتشه، فقد فقدوا مسارات تاريخهم ومسارات روحهم.

الغريب أن الذين صادروا تاريخ العرب أو الذين قاموا بفصله عن روحهم (ونعني هنا الغرب)، لم يكتشفوا ما اكتشفه ابن خلدون في القرن الرابع عشر، إلا بعد نحو

ثلاثة قرون أو أكثر.. اكتشف روسو، أن ديوان الشاعر الألماني غوته (فاوست Faust)، هو بداية ملحمة الحس التاريخي لدى الأوروبيين. واعتبر أن كفاح فاوست اللامتناهي والروحاني وغير المكتمل دائما والذي يرتكب من خلاله بعض الجرائم (قد تأخذ معنى الفعل الثوري غير المنسجم مع الشرعية) هي الطريقة التي أدرك بها الإنسان الأوروبي نفسه كإنسان حديث.. اكتسب حسه التاريخي حين اكتسب وعيه الشقى بالتاريخ.. هنا كانت المرحلة الأولى من الحداثة.. تجاوز الإنسان تقبل فكرة التاريخ الجامد والمنجز إلى فكرة التاريخ المتحرك وغير المنجز أو المكتمل. ودعا ذلك المؤرخ اشبنغلر بـ«اللحظة الرومانسية» (لحظة فاوست)*1.

يدخل روسو على الخط فيستنتج أن عمل «فاوست» الذي منحه الإمبراطور الألماني قطعة من الأرض، كان مجابهة للطبيعة العنيدة والمستعصية (الجغرافيا). أن مأساته أنه لم يعرف كيف يخضع تلك الطبيعة لرغباته، لأن رغباته كانت تتعارض مع وجود الآخرين. وهنا شق روسو طريق المرحلة الثانية من الحداثة بضرورة الانسجام بين الطبيعة والمجتمع والعقل والأخلاق. وأعلن الخروج من الإحساس بالمأساة إلى الإحساس بالوجود البهيج أو السعيد. وهنا يبدأ زمن الاتحاد والانسجام بين الإنسان والطبيعة. ولكن ذلك لم يصنع تلك السعادة لأنها لحظة متغيرة ومتحولة.. فالإنسان سيظل في حاجة إلى الهيمنة والسيطرة على الطبيعة والوجود الآخر كي يحقق تفوقه ورغباته، وأن ذلك ما يجلب الحرب والرعب والمعاناة بدل الانسجام والسلام. وتلك هي اللحظة الثالثة مما يسمّى بالحداثة!..

كان نيتشه هو من تبنّى تلك اللحظة الفارقة للحداثة في موجتها أو مرحلتها العليا/ الثالثة. التقط روسو قبله استحالة تحقيق السعادة، غير أن نيتشه ذهب بعيدا حين تبنى مفهوم القوة والعنف والهيمنة. وذلك ما عرف بالحس التاريخي أو اكتشاف التاريخ كمدخل لبناء الدول القوية. ولم يحز هيغل على لقب فيلسوف التاريخ إلا حين أكد أن التاريخ مرتبط بالعقل الذي هو الدولة في تجلياته المنجزة: وأن هذه الدولة العقلانية (ما بعد الثورة) هي الأرض وهي كذلك الدين (المسيحي) وهي العلمنة والإصلاح المستمر والفكر الحرّ.

في الحقيقة لم يكن التاريخ لا الأوروبي ولا غيره قد اكتمل أو وصل إلى النهاية في عصر هيغل. وإذ تحدث عن بداية ونهاية للتاريخ ورأى أن دولة ما بعد الثورة (وكان يقصد الثورة الفرنسية التي اجتاحت أوروبا)، فإن ذلك ما اعتبره البعض «انتهازية هيغلية» تتناسب مع جموح نابليون بونابرت، أو هو افتقار لمعنى التعاقب والتحاقب الذي تحدث عنه ابن خلدون قبل أربعة قرون.

لم يكن ابن خلدون بعيدا عن السياسة وتحالفاتها وتقلباتها. وقد عاش متنقلا بين ممالك منهارة وأخرى توشك على الولادة، وأدرك أن العصبية (فكرية كانت أو إجتماعية) هي الشحنة الأولى للدولة ثم يأتي العمران والاجتماع والأخلاق والدين، وبعد ذلك فإن القوة أو الغلبة هي التي تحسم سيرورة التاريخ وتجعله يتقدم.

وبذلك فإن ابن خلدون قد لخص لحظات الحداثة الغربية الثلاثة في زمن لم يكن أبدا غربيًا. ولكنه رأى أن التحولات التي تحيط بعالم المسلمين والعرب من الأندلس إلى بلاد الرافدين والشام، قد لا تقضي على دولة بعينها، بل تبعث الوهن والموت في حضارة العرب والمسلمين بكاملها. وقد حذر طويلا من عدم الانتباه إلى ذلك والنوم في خدر الماضي، متسلحا بعقل تقاسمه فيما بعد روسو الذي يبحث عن لحظة الانسجام بين الطبيعة والإنسان (العمران) ونيتشه الذي كان يبحث عن معنى التاريخ في القوة والغلبة، وكذلك هيغل الذي كان يرى في الدولة العقل الكامل. إنها ثلاثية الكفاح والقوة ثم السيطرة.. في تلك اللحظة البعيدة التي تفصلنا عنها الآن نحو سبعة قرون، كان العالم العربي الإسلامي، عالم ابن خلدون يشبه كثيرا عالمنا العربي الإسلامي في هذه اللحظة..

*** *** ***

ذهب ابن خلدون إلى الشرق، فوجد أمامه تيمورلنك المغولي يدق أبواب الشام لخلعها بعدما هلك «هولاكو» من قبله الحرث والإرث والأرض والعرض في العراق، وبعث بأمرائها وقادتها وكتابها ومكتباتها إلى المحرقة، ولكن ابن خلدون الذي انتدب للمفاوضات مع تيمورلنك حتى لا تستباح الشام كما استباحت بغداد، قد ترك وراءه في الغرب (الإسلامي) أمراء وسلاطين يتناحرون وهم يحاولون صدّ الاجتياح المسيحي (حركة الاستعادة التي قادها الأمراء المسيحيون بمباركة الكنيسة). وهنا أدرك ابن خلدون أن عصرا آخر قد بدأ.

في الحقيقة بدأ ذلك العصر الآخر (المظلم بالنسبة للعرب) منذ سقوط بغداد في العام 1258. وراحت موجاته تتناوب حتى سقطت آخر مماليك الأندلس (غرناطة 1492). وربما لم يوجد من العرب من يصدق في غياب ابن خلدون، أن كل شيء قد خرج من أيدي العرب، بما في ذلك إسلامهم ولغتهم، واستقر بين أيدي شعوب أخرى هم الأتراك العثمانيون، سليلو المغول.

كانت الرحلة «عالمية» حقا ومثيرة بحق. وقد حقق العرب انتشارا ونفوذا في كل بقاع الدنيا في مدة قصيرة فبدوا وكأن العالم كله كان في انتظارهم. إندفع العرب،

عرب الإسلام الموحدون من قلب الدائرة الأولى (النواة) لينتشروا في محيط الدائرة الثانية لشبه الجزيرة العربية. وخلال فترة وجيزة تمكن هؤلاء الرافعون لراية الإسلام أن يرفعوا أعمدة دولة كبيرة وفخورة بنفسها وبدينها ولسانها حتى بلغت ما عرف «بالإمبراطورية الإسلامية» التي امتدت من أطراف الصين (حيث يسكن المغول) إلى جبال جنوب فرنسا (حيث يسكن القشتالانيون) وهي تضم شمال الهند ووسط آسيا حتى هضبة فارس وجميع البلاد العربية من ثغور عمان إلى ثغور المغرب.

كانت تلك الإمبراطورية العالمية تمثل انقلابا كبيرا في الجيوبولتيك العالمي، إذ لأول مرة ربما أصبح الجنوب هو المنتج للقوانين والمفاهيم والحضارة حتى بلغ حدود الشمال. فبعد أن انضمت قبرص وكريت ومالطة ثم صقلية ثم الأندلس حتى حدود جنوب فرنسا الحالي، بدأ أن الحضارة اللاتينية /الإغريقية /الرومانية قد انهارت فيما أصبح ما كان يعرف ببحر الروم (المتوسط حاليا) بحرا عربيا إسلاميا حتى وإن لم يحمل تسمية بحر العرب.

كانت تلك الإمبراطورية تمتد من جبل طارق على مدخل المحيط الأطلسي حتى سنغافورة في المحيط الهندي. وقد توسطت ثلاث قارات هي آسيا وإفريقيا وأوروبا. وثلاث محيطات هي الأطلسي/الهندي والهادي واحتضنت خمسة بحور هي: قزوين (الخزر)، البحر الأسود، البحر الأبيض، البحر الأحمر ثم بحر العرب والفرس (الخليج حاليا). خرجت تلك الإمبراطورية من تحت الرماد الفارسي والروماني فحاربت الاضطهاد الوثني والابتذال المادي وأدمجت في كونها ألوانا وعناصر وثقافات عدة، فكانت «وسطا حضاريا» بدون احتكار مركزي، حتى إن نواة الدولة كانت مهاجرة، من جزيرة العرب إلى بلاد الشام ثم إلى العراق ثم شمال إفريقيا في تونس حتى بلاد النيل.. ولقد كان واضحا في البداية أن ذلك الدين التحرري الجديد الذي أصبح يعرف بـ «الإسلام»، كان في الأساس ولادة شعب لم يعش غير قسوة الصحراء حتى ذلك الوقت، يعرف بـ «العرب».

كان يمكن للعرب أن لا يخرجوا من تلك الصحراء، تلك الرقعة الميتة، لولا وعيهم المبكر أنّ هناك ثلاثة أهلّة خصيبة تحيط بهم. في الشمال حيث هلال العراق والشام الخصيب.. وفي الجنوب حيث هلال حضرموت والحجاز حتى عمان الخصيب.. ثم في الغرب حيث هلال وادي النيل في مصر ومنه إلى بلاد المغرب.. وهو الهلال الإفريقي/ المتوسطي الخصيب.. وهكذا بدأت تتجمع عناصر القوة والمدّ لمواجهة الإمبراطورتين الفارسية والرومانية.. ولأن الموقع قد أصبح له ثلاث قواعد صلبة وخصيبة، فسرعان ما كانت الشام نقطة الانطلاق للانقضاض على القوة الرومانية والبيزنطية، ثم تحول

العراق إلى نقطة الانطلاق نحو آسيا وسباسبها وبحارها. أمّا مصر، فكانت الجسر الذي ربط بلاد المشرق ببلاد المغرب وإفريقيا.

ومن البرّ حيث كان «الموت» يحيط بالعرب الأولين، حتى البحر حيث أصبح العرب يملكون أسراره ولغته ومفاتيح ملاحته، إنتشر العرب المسلمون وهم منهمكون في بناء إمبراطورية متميزة. فهي قد انتقلت من رعوية إلى زراعية وهي تتجه إلى الرافدين والنيل، ثم انتقلت من برية إلى بحرية وهي تتجه إلى المتوسط والساحل الشرقي لإفريقيا.. وستتمكن هذه القوة البرمائية على حدّ تعبير «جمال حمدان»*[2]، بسرعة من توسط قلب العالم القديم وسرّته. فلقد خرجت عن وصاية الصحراء لتضع قوى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها. وهكذا لأول مرة، ومنذ انهيار الدولة الفينيقية التي فازت بزراعة المتوسط وتجارته لفترة طويلة، دلل أحفادهم العرب المسلمون مرة أخرى أن المنطقة ليست معزولة أو جدباء أو هي منطقة ضعف وانكفاء تاريخي..

غير أن تلك الدولة التي ظلت لفترة مزدهرة ومتعاظمة بمنتوجاتها وتوسعاتها ما لبثت أن ظهرت عليها عوامل الشيخوخة والتفكك..ففي النهاية سرى عليها قانون الإمبراطوريات الصارم وهو: أن التوسع المستمر لا يؤدي إلا إلى التفكك. وهو قانون سيظل ساري المفعول حتى هذه اللحظة..لقد أصبح الربط بين الأطراف صعبا وشاقا.. وكلما ازداد ثقل الانتشار بات التحكم صعبا.. ثم إنّ الاختلاط العرقي والجنسي وتعدد الأقليات الديني بما في ذلك الطوائف، كان يضيف تنافرا إلى ذلك التنافر الأصلي والمزمن والجغرافي.. فهي إذا كانت كثيفة من حيث السكان بالنظر إلى الشعوب الأخرى المجاورة، إلا أنها كانت تبدو ضعيفة بالنسبة إلى جغرافيتها الممتدة. ومن هنا بات التفكك والانقسام السمة البارزة داخليا، فيما كان سوء الفهم والخوف الغامض لدى جيرانها هو السمة البارزة خارجيا..التقت الحركات الانفصالية الشعوبية والعرقية والطائفية مع القوى الخائفة والمتربصة بها، فكان أن بدأ الانكماش كمسار طبيعي لتلك الدولة/الإمبراطورية..

وسوف لن تنجو تلك الإمبراطورية العظيمة من السقوط في نهاية الأمر. وذلك بعدما حطمت أعمدتها الخلافات الداخلية والصراعات الخارجية.. فبعد خلافة الشام الأولى وخلافة بني العباس الثانية (آسيا) والفاطمية التونسية/المصرية الثالثة (إفريقيا) ستكشف الأيام لتلك الدولة عن فراغات سحيقة وفاصلة بينها وبين الشعوب التي كانت تحت قبضتها..

جغرافيا، باتت أرض العرب الأولى، بقعة جغرافية صغيرة على خارطة الإمبراطورية الكبرى.. وديموغرافيا أصبح العرب فيها كأقلية داخل النسيج المختلط لتلك

الإمبراطورية.. فمن قادة لا منازع لهم تحولوا إلى شركاء ثم ما لبثوا أن أصبحوا «خدما» لماليكهم.. وبهجوم المغول من الشرق بدا واضحا أن آسيا تغلبت على جغرافية العرب الأولى: الشرق الأدنى.. أمّا حين هجمت أوروبا المسيحية من الغرب وبدأت حروبها الصليبية، فقد اتضح أن مغول آسيا قد ضربوا الكماشة مع مسيحي أوروبا، ليطبقوا على روح العرب كسلطة وثقافة ودين وتاريخ!!..

*** *** ***

إنّ لكلّ قارة برابرتها.. وبرابرة آسيا في ذلك الزمن كانوا هم رعاة التتار الذين يسيطرون على برّ يمتد من الصين حتى حدود أوروبا. وكما رأينا كيف تحول برابرة الإمبراطورية الرومانية، وهم قبائل الوندال والجرمان، إلى سادة للإمبراطورية المقدسة، فقد رأينا كذلك كيف انتهى برابرة المغول إلى سادة للعالم الإسلامي..كانت دار الخلافة العثمانية تتعامل مع قبائل التتار والأتراك التي تجمعت حول تخومها برفق لكسبهم تحت جناح الإسلام، فإذا بها تنتهي على أيدي هؤلاء الذين سيستمرون على أنقاضها لعدة قرون..

كانت الموجة الأولى قد بدأت في القرن الحادي عشر. وقد انطلقت من غزنة على حدود الهند الشمالية، أي ما يعادل اليوم النقطة الحدودية بين الصين وأفغانستان. بعد ذلك ظهر السلاجقة في وسط آسيا، فإذا بهم يكتسحون قاعدة الحكم العربي في بغداد والشام حتى القدس، بحيث بات ذريعة من ذرائع الغزو الصليبي. بعد ذلك انطلق «جنكيز خان» فزحف حتى بلاد فارس ثم تقدم «هولاكو» حتى وصل إلى العراق، فكانت نهاية الخلافة العباسية المترنحة. بعد فترة قصيرة تقدم المغول نحو الشام. وفي تلك اللحظة، كان الصليبيون لا يزالون على أبواب مصر في النقطة الحدودية بين آسيا وإفريقيا.

حاول المغول أن يتحالفوا مع الأوروبيين (قوى البرّ مع قوى البحر) ليضعوا العالم العربي بين الكماشة. ناورت كل من الشام ومصر لكسب الوقت ثم كان عليهما أن يختارا فحاربا على جبهتين..وقد قدّر لمصر المملوكية أن تهزم المغول في عين جالوت (فلسطين)، كما قدر لمصر الأيوبية قبل ذلك أن تهزم الصليبيين في حطين (فلسطين)..

بعد حوالي قرن، عاد المغول بقيادة تيمورلنك إلى الشرق العربي الإسلامي. ولكنه سوف يجد مصر سدّا منيعا أمامه كما وجد ذلك هولاكو من قبله. اتجه تيمورلنك من دمشق نحو الأناضول حيث بدأت قوة بني عثمان تظهر تدريجيا. ومع أنّ المغول سجلوا بعض الانتصارات، إلا أن العثمانيين هم الذين ربحوا الحرب حين أوقفوا المدّ المغولي إلى الأبد..

ورث الأتراك العثمانيون الدولة العربية الإسلامية المفككة ومعها ورثوا الثقافة المغولية المتخلفة. وإذ أوقفوا المغول الزاحفين نحو أوروبا وإفريقيا، فقد تابعوا هم خط تلك المسيرة بحيث لم يمض وقت طويل حتى أصبحت اسطنبول عاصمة لإمبراطورية تمتد على ثلاث قارات.

سيلاحظ المؤرخون بعد ذلك أنّ العثمانيين الآسويين قد توسعوا باتجاه أوروبا قبل إفريقيا، بل قبل تدعيم حكمهم في آسيا. ولربّما أدرك العثمانيون مبكرا أنّ سقوط الدولة البيزنطية سيكون أكثر جدوى لتقدمهم أكثر من إسقاط الدول العربية الإسلامية. فقاعدة التوسع شمالا قد مدتها بقوة لا تضاهى لبتر العالم العربي، إذ أصبح تحت قبضتها بشكل أو بآخر. وقبل العثمانيين، لم تستطع أية قوة أن تطرق أبواب أوروبا على ذلك النحو. فقربها من البلقان ووسط أوروبا قد أعطاها قوة الوثب السريع من بلد إلى آخر ثم من قارة إلى قارة.

بعد شرق أوروبا، تدافعت القوة العثمانية باتجاه الشرق العربي وإفريقيا الشمالية. ولقد كان الهدف الكبير هو مصر المملوكية بعد سوريا مباشرة، باعتبار مصر، مركز الثقل العربي منذ سقوط بغداد على يدي المغول. وبعد مقاومة كبيرة على تخوم الشام، ثم تخوم القاهرة، انهارت مصر بالكامل أمام الزحف العثماني. هدأت الحرب الإسلامية/الإسلامية، بين العثمانيين والعرب بدخول مصر ولو شكليا تحت قبة اسطنبول.. ثم عاودت الظهور على ساحل المغرب العربي بين العثمانيين الإسلاميين/والإسبان المسيحيين. ولأنّ سكان تلك المنطقة كانوا يفضلون الأتراك المسلمين، فقد قبلوا بأهون الشرين، أي باحتلال الأخوة في الدين رافضين احتلال المسيحيين الإسبان. انضمت الجزائر تحت لواء الباب العالي في العام 1529 أي بعد 12 عاما من انضمام مصر. ثم تبعتها تونس في العام 1534 فطرابلس في العام 1565.

ولو أنّ مصر تمكنت من إنقاذ المغرب العربي من المسحنة الاسبانية، لفازت بموقع القوة الأولى في المشرق العربي والمغرب آنذاك. ولتقاعس ما أو عدم رغبة أو لعجز بنيوي، فإن مصر ظلت تنتظر بلا أية استجابة عميقة حتى بلعتها الدولة العثمانية ثم بلعت محيطها العربي.ولم تكتف الدولة العثمانية بذلك، بل إن تقدمها نحو العراق في العام 1552، قد جعلها مباشرة على رقعة الشطرنج الكبرى في مواجهة فارس وحلفائها في المنطقة.

وفي نصف قرن فقط (من العام 1517 حتى العام 1565) سقطت معظم ولايات الدولة العربية. وإذ سيتأخر سقوط الجزيرة العربية والسودان لفترة أخرى، فإن الاستثناء الوحيد، كان المغرب الأقصى الذي استطاع سلاطينه أن يحموه من الاندفاع

الآسيوي التركي، بسبب استقلاليتهم أولا ثم بسبب قربهم من إسبانيا المسيحية التي لم تسمح أبدا بأن يصبح المغرب مرة أخرى رأس جسر للمسلمين للقفز إلى العالم المسيحي الكاثوليكي.

*** *** ***

سيدخل الأتراك إلى بلاد العرب كحماة للدين الإسلامي من هجمات المسيحيين. ولكن دخولهم كان بمثابة استعمار متخلف لحضارة كانت أرقى من حضارتهم. وهذا ما سوف ينتج تاريخيا إنجازات عقيمة بحيث سوف يتوقف العالم العربي تقريبا منذ تلك اللحظة وإلى نهاية القرن التاسع عشر عن إنتاج أي شيء ذي قيمة عالية. ولأنّ نظام الإنكشارية الذي أقيم في البلاد العربية كان قاسيا وعقيما، فقد دفع بالعرب إلى التمرد حينا والممانعة السلبية أحيانا، ولكن في المحطة الأخيرة إلى النكوص التام، حتى إذا ما ظهرت أوروبا الحديثة، وجدت العالم العربي مستعدا وجاهزا للتسليم بالتفوق الأوروبي.

وهكذا وتحت القناع الديني، تغلغل الأتراك مستغلين الذكريات المدمرة للحروب الصليبية، إلى أعماق البلاد العربية من مكة إلى الشام. ومن القاهرة إلى تلمسان. ولقد كانت تركيا، هضبة الأناضول هي المركز والنجمة. أما بقية الولايات العربية فهي المحيط أي الهلال الذي يحيط بتلك النجمة..

إن التاريخ الحقيقي، ذلك التاريخ المضيء لا يظهر للمفكر «كوندورسيه» إلا مع الإغريق. ثم وللحظات طويلة نسبيا مع العرب. فالإغريق، فاتحو طريق المعرفة والحرية هم الشعب الأول الذي يشير إليه «كوندورسيه». أما الشعب الثاني الذي يمنحه «كوندورسيه» شرف التأهل، فهم العرب. فهؤلاء قد أضافوا كثيرا للمعرفة والحضارة بسبب شجاعتهم وصياغاتهم الجديدة للتاريخ والجغرافيا. فعند أطراف آسيا وعلى تخوم إفريقيا وجد شعب تمكن بسبب موقعه وشجاعته من الإفلات من فتوحات وغزوات الفرس والإغريق والرومان (إلى حدّ ما..).. وبينما كانت بعض قبائله العديدة تدين بإعاشته للزراعة، احتفظ بعضها الآخر بالحياة الرعوية، فيما انكب الجميع على التجارة وفتح طرق الرحلات الطويلة. ولما كانت هذه القبائل قد جمعت بينها وحدة الأصل ووحدة اللغة والعادات الدينية. فقد شكلت أمة عظيمة دون أن توحد أجزاءها المختلفة أية رابطة سياسية !. وفجأة برز وسطها رجل ذو حماسة متقدة وسياسة عميقة، ولديه مواهب شاعر ومواهب محارب، فارتأى تنفيذ المشروع الجريء والخاص بتوحيد القبائل العربية في كيان واحد، وكانت لديه الشجاعة الكافية لتنفيذه»[*3]..

«ولكي يتمكن من زعامة أمة كانت حتى ذلك الحين حرونا، فإنه قد بدأ برفع دين جديد أكثر تهذيبا وتسامحا على أنقاض العبادات القديمة. ولما كان محمد (صلعم)

نبيا ومشرّعا وقاضيا وقائد جهاد، فقد تجمعت لديه كل وسائل القيادة، وقد كان يعرف كيف يستخدمها ببراعة عظيمة»..

«كانت عادات العرب تتميز بالسمو والرقة. وكانوا يدرسون ويعشقون الشعر. وعندما هيمنوا على أجمل بلدان آسيا. وقد هدأ الهوس الديني، امتزج لديهم عشق الآداب والعلوم بحماستهم في نشر الدين، الأمر الذي خفف من حماسهم للغزو والفتوحات.. كانت العلوم لدى العرب حرة وكانوا مدينين لهذه الحرية بكونهم تمكنوا من إحياء بعض شرارات عبقرية الإغريق..لكنهم بعكس الإغريق، كانوا خاضعين أو حاملين لمفاهيم أخرى يكرسها الدين.. وهكذا. «فإن هذا النور الذي لم يكد يشع للحظات حتى أخلى المكان للظلام الأكثر كثافة. وقد كان لأعمال العرب العظيمة أن تضيع إلى الأبد على الإنسانية جمعاء، لو لم يساعد على ذلك البعث الذي سوف تأتي صورته مع حداثة الغرب. وهكذا نرى للمرة الثانية كيف أن العبقرية تهجر الشعوب التي كانت قد حررتها في السابق من الجهل»*4..

لكن العبقرية لا تختفي أولا ترغم على الاختفاء إلا أمام الطغيان وانتشار الخرافات. إنّ العبقرية التي ولدت في اليونان إلى جانب الحرية لم تتمكن من وقف سقوطها ولا من حماية العقل من الأوهام والعبودية التي جعلت البشرية منحطة. وعندما ولدت العبقرية من جديد عند العرب، سرعان ما وجدت الاستبداد على مقربة منها، الأمر الذي أدى بسرعة إلى سقوطها في أسر الخرافات والأباطيل والانحطاط».

هكذا يربط المفكر «كوندورسيه»*5 تاريخ العرب بتاريخ الارتفاع السريع والسقوط السريع لتلك الأمة التي امتدت في لمح من الزمن من ضفاف المحيط الأطلسي إلى ضفاف نهر الأندوس لتجد نفسها وقد حرمها البرابرة المغول ثم الأتراك ثمرات فتوحاتها ومعارفها وكذلك من أرضها لتضحى مشهدا بشعا وممزقا يدعو إلى الرثاء. ولا شكّ أنّ عرب التنوير (عرب ما بعد الإغريق) كانوا أمة عظيمة نقلت إلى العرب عبقرية التقدم وذلك باعتراف أكثر المؤرخين تحريفية، ولكن سقوطهم المروّع بين هجمات الشرق الآسيوي البعيد والوثني وهجمات الغرب البارد والكاسر المسيحي، قد جعلهم فيما بعد عرضة لجميع الشبهات والأوصاف النذلة !!

وإذا كان انحطاط العرب يعود وبإجماع المؤرخين إلى غزوات الأتراك وقبلهم المغول، فإن «كونورسيه» يضيف سببا آخر هو طغيان الدين على الأمة. وباعتباره الوفي لروح التنوير الذي لا يمكنه أن يعترف بتاريخ آخر غير تاريخ العقل والحرية، رأى «كوندورسيه» أن الدين والاستبداد هما الخصمان اللدودان لكل حضارة. وحسب «كوندورسيه»

نفسه، فإن قدر آسيا فيما عدا صعود العرب الرائع، هو السقوط تحت هوس الدين والاستبداد الأبدي.. ويؤدي تفكير «كوندورسيه» إلى معطى يبدو له بديهيا باعتباره أوروبيا، هو أن تتحرك أوروبا المتحضّرة لتحرير الشرق من مضطهديه. فحسب زعمه. «هناك أمم مستعبدة يهمين عليها مستبدون ذوو قداسة أو فاتحون أغبياء، وهي منذ أزمنة بعيدة تتوجه بالنداء إلى محرريها»*6.. ولكن ألم تشارك أوروبا المسيحية مرتين في تأخير العرب ودفعهم نحو الانحطاط مرة باسم الدين، وأخرى باسم التنوير؟ ثم كيف كان سيكون موقف «كوندورسيه» المعادي للدين، وهو يقرأ صفحات الحروب الصليبية التي شنت على العالم العربي؟

*** *** ***

من هناك، من تلك الحروب الصليبية البعيدة، بدأت قصة الأسر التركي لتاريخ العرب. فالإسلام الذي كان لسانه الحاد عربيا، قد بات أعجميا متلعثما وثقيلا ومولدا للسخريات والشعوذة والانشقاق.

فيما تغلب سلاطين المماليك في مصر على المغول وقد أضعفوا ملوك أرمينيا والصليبيين والإسماعيليين في الشام جاعلين من آخر أمراء العباسيين الهاربين من الموت متراسا ولباسا لشرعية الخلافة الإسلامية في بلاد العرب، تفككت الإمبراطورية السلجوقية (الأناضول) وهو المعقل السني الأخير، إلى عدة إمارات. إحدى هذه الإمارات أصبحت مهدا لما سيعرف بـ «الإمبراطورية العثمانية»، وذلك بفعل إصرار قبيلة تركية كانت قد هربت من آسيا الوسطى والأناضول إلى ضفاف بحر مرمرة أمام غزو المغول. ففي القرن الرابع عشر اندفع بنو عثمان من هضبات الأناضول نحو البحر ثم احتلوا السواحل من البحر الأسود حتى خليج أزمير مجتازين المضائق نحو المتوسط وكذلك نحو أوروبا.

وفيما نشأت ممالك متحاربة ومتخاصمة في بلاد فارس (مغول سنة وفرس شيعة)، بدأت مملكة بني عثمان السنية تشق طريقها نحو العظمة. ولكن بصعوبة.

وهكذا ومنذ السنوات الأولى من القرن الرابع عشر، بدا أن الوحدة السياسية لآسيا الغربية التي لطالما حلم بها المغول قد ماتت، لتعيش الفوضى. انطلق «تيمورلنك» في العام 1365 من سمرقند في حملات تأديبية لإعادة النظام للإسلام السني في كل من فارس وأفغانستان والهند وروسيا وكذلك على إمارة العثمانيين..وقد كاد العثمانيون المندفعون أن يفوزوا بالقسطنطينية، عاصمة البيزنطيين منذ نهاية القرن الرابع عشر لولا تلك المعركة المدمرة التي جرت بين «تيمورلنك» و«با يزيد» إلاّ أنّ ذلك لم يضعف

من طموحهم. وحين توفي «تيمورلنك» وهو يحارب على عدة جبهات من الصين إلى أنقرة، عاد العثمانيون للانطلاق من جديد في بداية القرن الخامس عشر.

وحين استولى محمد الفاتح الثاني على القسطنطينية في العام 1453. هدم آخر الرموز البيزنطية. كان سقوط هذه العاصمة المسيحية مدويا على النحو العنيف الذي أحدثه سقوط بغداد قبل ذلك بنحو قرنين..اجتاح العثمانيون الخط الفاصل بين الغرب والشرق وباتوا أسيادا لدول البلقان وجزر بحر ايجه ثم نصف آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والبحر الأسود.

لم يتحقق مشروع توحيد آسيا فاستبدل بمشروع آخر هو: «زواج آسيوي وأوروبي» على يدي العثمانيين. ظل مماليك سوريا ومصر على عروشهم، وانكفأ سلاطين الهند وقد أسسوا مملكة جديدة في «غزنة» (أفغانستان حاليا). أما «هيرات» و«سمرقند» فقد دخلتا في حكم محلي بلا طموح كبير، ولكن بمهارة فائقة في التجارة. ومن ناحية فارس فقد أصبحت مسرحا لحروب أهلية طوال النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

ومنذ القرن السادس عشر، أصبحت سلالة بني عثمان تتربع على إمبراطورية كبيرة جدا. وقد تحول سليم الأول إلى «إمبراطور» عن الغرب والشرق. وفيما نهضت سلالة الصفويين الشيعية في بلاد فارس وهي تنفض الغبار عن البلاد التي حطمتها الحرب الأهلية، بات العثمانيون الخائفون على سلطتهم النامية والفتية، يضربون بشدة باتجاه الشرق والغرب.

إن الصفويين مثلهم مثل العثمانيين. يتحدرون من آسيا. الصفويون من بحر قزوين والعثمانيون من هضبة الأناضول (وبالتحديد من البحر الأسود). وفيما ارتبط الأولون بالإمام العلوي السابع مدعين أنهم من أصل عربي. كان العثمانيون قد ارتبطوا بالمذهب السني وقد ادعوا هم كذلك أصلهم العربي (العباسي)! وهكذا وبعد نحو نصف قرن من فوز العثمانيين بالقسطنطينية، فاز إسماعيل الفاتح الصفوي ببلاد فارس بعد أن قضى على جميع الأمراء الاثني عشر المتقاتلين. فرض إسماعيل الأول نفسه شاها على بلاد فارس وتبنّى المذهب الشيعي فبدا وكأنه رد فعل جانح على سلاطين بني عثمان السنيين، فكان أن ولدت على أطراف الإمبراطورية العثمانية، إمبراطورية إسلامية أخرى منافسة لها. وبعد معارك طويلة وقاسية بين هذين الجارين الخصمين، مالت الكفة لصالح العثمانيين فاتجهوا نحو مصر. وهناك استعار السلطان سليم لقب الخليفة (خليفة المسلمين) من آخر أبناء الخلافة العباسية الذي كان لاجئا بالقاهرة..

امتدت إمبراطورية بني عثمان منذ تلك اللحظة من الدانوب إلى شلالات النيل ثم توسعت من الفرات إلى جبل طارق، وفيما باتت «فيينا» قلب الغرب محاصرة، تمكن بنو عثمان من إيقاف المسيحيين الإسبان من الزحف على ديار الإسلام. وباحتلالهم المدن الرسمية في شمال إفريقيا، باستثناء مراكش التي استسلمت لأشراف السعديين الذين ارتبطوا بأئمة العلويين ومجاهديهم، وقد رفضوا أن ينتظموا تحت الراية العثمانية.

في تلك اللحظة، راح العرب يتوارون خلف الضباب وخلف الإمبراطوريات الأعجمية ولم يبق لهم إلا أن يسيروا في موكب جنازاتهم كأمة قائدة ثم كدين تنويري ما لبث أن أصبح أعجميا أو عثمانيا بعد أن كان عربيًا.

كانت غرناطة آخر ممالك العرب في البرّ الواقع بين شمال المتوسط والأتلانتيك... ظلت محاصرة لمدة من الزمن. قاومت بجهود مبعثرة ثم سقطت كآخر ذبيحة من ذبائح الخلافة الأموية. وفي مطلع العام 1492 دخل الملك «فردينانياند» والملكة «ايزابيل» إلى قصر الحمراء (آخر انجازات العرب المسلمين).. تميز ذلك العهد بقلاقل في الأندلس وكذلك في المغرب بسبب مؤامرات القصور وخيانات الأمراء وتقاعس الحلفاء من جهة. ومن أخرى بسبب صعود وتوسع حركة الاستعادة التي قادها الأمراء المسيحيون. وبالتحالف (الزواج) بين «ايزابيل دي كاستي» القشتلية) و«فرديناند دي أراغون». وجدت حركة الاستعادة أو الاسترجاع المدعومة من باباوات روما من يقودها نحو النصر الأخير، فدفعت بآخر أمراء العرب إلى المنفى أو المقصلة.

كان الأتراك العثمانيون المنتصرون والمنتشرون على ثلاث قارات (آسيا- أوروبا وإفريقيا) يمثلون الخطر الأكبر لحركة الاستعادة المسيحية في اسبانيا، لكنه كان خطرا زائفا أكثر منه حقيقيا. فالمساومات وخطوط التجارة والاندماج في أجواء أوروبا، قد جعلت من سلاطين القسطنطينية أقل هموما أو أكثر تفهما لأوضاع اسبانيا. وقد قيل آنذاك «إن الواقعيين قد تغلبوا على أصحاب مبدأ الفتوحات البعيدة». بعبارة أخرى هناك من رأى أن لا فائدة من إعادة التاريخ إلى الوراء..فملوك المغرب الذين اختاروا الابتعاد عن العثمانيين، إنما هم يستحقون تلك الهزيمة التي لقوها في الأندلس !!

خرج العرب والمسلمون ومعهم اليهود الرافضون للمسيحية والهاربون من محاكم التفتيش إلى عالم آخر، كان واقعيا، لكنه أكثر انحطاطا واضطرابا. فبعد 781 سنة من الحكم العربي الإسلامي في الأندلس بدا واضحا للعيان أن العرب فقدوا كل شيء. فالأندلس قد عاد أخيرا إلى سلطة أبنائه المسيحيين. أما «ديار العودة» التي لطالما تاق إليها أبناء العروبة والإسلام، وهم يكابدون التراجع والانهيار، فقد بدأت تنتقل الواحدة بعد الأخرى إلى أياد أخرى غريبة وقاسية وغليظة..هكذا لم يخسر العرب أرضهم

حين أصبحت مقسمة بفعل المساومات والتقاطعات المصلحية بين العثمانيين الآسويين وبين الاسبان الأوروبيين، بل خسروا بذلك دينهم الذي بات يتكلم بلغة أعجمية. وكذلك روحهم المعذبة التي لم تعرف إلى أين تسكن لمدة تزيد على أربعة قرون ونصف.

بعد نحو سنتين فقط من سقوط آخر حكم عربي في بلاد المسيحية، وصل الملاح «كريستوف كولمبس» إلى قارة جديدة، ستعرف لاحقا باسم «أمريكا»..استغرق الإعداد والإبحار نحو سنتين، وهذا يعني أن «كولمبس» قد انطلق لحظة سقوط غرناطة. وهنا لم يفقد العرب خط مسيرهم نحو الشمال فقط، بل وقع رميهم في سجن الجنوب إلى الأبد. صدفة أو مفارقة أم قدر؟ ففي جميع الحالات، فإن صفارات بواخر كولومبوس وهي تعلن عن اكتشاف قارة جديدة، لم تأت إلى العالم إلا مختلطة بنواح موت العرب في العصر الحديث!..

***   ***   ***

بدأت الحداثة من تلك النقطة الفاصلة والمفارقة بين موت العرب وميلاد الغرب الجديد. وعن تلك النقطة المفارقة بين العرب والغرب سيكتب فيما بعد المصري رافع رفاعة الطهطاوي «نقطة».. يالها من نقطة!![*7] وسوف لن يعي العرب ذلك القدر البائس إلا حين يتلقون أول صدمات الحداثة. فلكي تنتهي دولة ما أو حكم وراثي، لا بد من عدة سنوات حتى يتأكد المؤرخون من ذلك. وتحتاج الإمبراطورية إلى عدة عقود لكي تختفي. أمّا الحضارة فقد يستغرق اضمحلالها بضعة قرون قبل أن تختفي إلى الأبد... فمنذ سقوط بغداد في العام 1258 تحت ضربات المغول الآسويين، إلى سقوط غرناطة تحت ضربات الاسبان المسيحيين، بدا واضحا أن العرب قد فقدوا زمام الأمور بشكل نهائي في الكون الإسلامي وباتوا شعبا أو أمة يتيمة مهددة بالتفكك والنكوص نحو مجتمع القبائل والطوائف الأول..

وكما استغل المغول ضعف العرب بعد الغزوات الصليبية/المسيحية. استغل الأتراك العثمانيون ضعف العرب أمام هجمات المسيحيين الكاثوليك..أصبحت ديار العرب المسلمين الأولى تتقاتل وتتخاصم تارة بمرارة وأخرى بشماتة، وهي تقع تحت «إسلام مقومن» عثمانيا، اتخذ الهلال شعارا له، و«مسيحية مقومنة» (إسبانيا) اتخذت من الصليب شعارا لها..

لم يكن الأتراك أكثر رأفة حتى وإن ادعوا حماية أرض العرب، من الغزاة الإسبان الذين راحوا يدنسون ويفتتون ديار الإسلام. ولما كان إدراك المسيحية الناقمة والمستفزة، لخطورة التعايش الإسلامي/اليهودي عاليا. فقد نال ذلك التعايش كل عقاب.. أرتكبت

جرائم كثيرة في حق اليهود والمسلمين خلال القرون الآتية، فكانا ضحيتين ممتازتين لذلك الغرب المتكبر والجامع والمتعاظم.

ضحيتان رسمتا معالم تراجيديا عصر الحداثة.. لقد ظلت اليهودية منذ ميلادها دينا شرقيا مثلها مثل الإسلام رغم التيه الكبير لليهود.. وخلال ذلك التيه كان العناق والتعايش بين اليهود والمسلمين كبيرا وغنيا، ولكن المسيحية وهي تسترجع أنفاسها كان عليها أن تهيمن وتغتصب تلك الديانة اليهودية مرة عن طريق تعظيم الذنوب ومرة من طريق شيطنة اليهود. فقد عمل الغرب جاهدا وبكل الأساليب على أن يخضع اليهودية لنزاوته الأكثر انغلاقا وأنانية.. بعد ذلك انفصلت اليهودية عن الإسلام وعن الشرق فانضمت إلى مسيرة المسيحية والغرب الظافرتين (تمسحنت ثم تغربنت). وشيئا فشيئا حلّ مصطلح الحضارة اليهو-المسيحية محلّ الإغريقية الرومانية!..

أصبحت أرض الإسلام في جناحها الآسيوي الغربي مسرحا كبيرا للحرب بين العثماني السني والصفوي الفارسي الشيعي..استفاد سليم الأول من سلاح المدفعية وضعف الفرس قليلا، فاتجه إلى مصر لحسم الموقف مع المماليك..كان المماليك الذين جلبهم الأيوبيون للاستعانة بهم في الجندية والحرف والصنائع عبارة عن عبيد بيض أغلبهم قدموا من آسيا الوسطى، من القوقاز وحتى البلقان. وكما حصل سابقا في تاريخ الإسلام، وخاصة في عصر العباسيين، فقد ولد «جيل وطني لكنه هجين». من هؤلاء العبيد البيض استطاع أن يبسط سلطته على أرض الشام ومصر حتى الفتح العثماني.. وإذ تمكن المماليك من صد المغول عند «عين جالوت» وردهم على أعقابهم وهم يتقدمون نحو البرّ الإفريقي، فقد كسبوا سمعة جيدة تتصف بالشجاعة والنظام والشرف..التقط «الظاهر بيبرس» الفرصة، فتقدم خطوة أخرى نحو توطيد دعائم عرشه. نادى على آخر أحفاد «بني عباس» الذي كان لاجئا في القاهرة ثم بايعه لشرعنة الحكم..

في الحقيقة لم يسلم «الظاهر بيبرس» حكمه إلى «بني العباس» وإنما جعل منهم خلفية دينية لشرعية حكمه. جهز لهم جيوشا لاسترجاع بغداد من يد المغول، ولكن حين قضي عليهم في الطريق أمام المغول، بدا أنه استراح من أكثرهم ولعا وإلحاحا بالحروب. أما الآخرون، أي أبناء بني العباس، فقد باتوا دمى في يد المماليك.

*** *** ***

وفي قصره الكبير بإحدى ضواحي القاهرة ذات المعمار الطولوني، اختار السلطان سليم الأول العثماني لجنة كان على رأسها أحد أبناء شريف مكة والمحافظ الكبير

لأسواق القاهرة ومعهم أحد أحفاد بني العباس. تلقى القائد العثماني المزهو بنصر لا مثيل له وهو افتتاح قاهرة المعز، بوابة، آسيا وإفريقيا، هدية فخمة من تلك اللجنة ثم بويع كحام لأرض الإسلام.. أراد آخر أبناء العباسيين، «المتوكل» أن يحتفظ بلقب خليفة المسلمين.. وإذ رآه سليم الأول يصر على ذلك، فقد استجاب له ولم يعارضه في الاحتفاظ بلقب شكلي لم يعد له من بريق أو سلطة أو مجد.. أو لم يفعل ذلك من قبله المملوكي «الظاهر بيبرس»؟!.

هيّأ سليم الأول حملة ناجحة نحو حلب. وهناك بعد سنة واحدة من دخوله إلى القاهرة، أصبح سليم يحمل لقب «خادم الحرمين الشريفين» وهو اللقب الذي كان يحمله سلاطنة المماليك. وفي حلب عرف العثمانيون أنهم أصبحوا أسياد ديار الإسلام الأقوياء والعظماء. ومنذ تلك اللحظة اغترب الإسلام وأصبح يتكلم العثمانية، بينما راح المسلمون العرب يلهجون بلغات عدة ومستعصية على لسانهم من الألبانية إلى اليونانية إلى التركية إلى الإسبانية.

كانت نقطة ضعف العثمانيين في ذلك الوقت تتمثل في الضفة الجنوبية للمتوسط. فبلاد المغرب كانت تحت القبضة الإسبانية منذ أن تكلمت «ايزابيل» قائلة :»إن حدود اسبانيا الإستراتيجية هي جنوب المتوسط كله»*8. وحتى يكتمل مجد إسطنبول كان لا بدّ من محاربة الاسبان في تلك الضفة الجنوبية، وقد استكان ملوكها الصغار والضعفاء لإغراءات الاسبان. أبحر «بربروس» (خير الدين) وهو من أصل يوناني صوب تونس وكانت آنذاك تحت سلطة مولاي الحسن، أحد أمراء الدولة الحفصية الذي اشتهر بدمويته بعد أن قتل إخوته الأربعة والأربعين، فاستطاع أن يخضعها لبحارتها. كان مولاي الحسن مولعا بالغلمان والحريم ومتعاونا مع الأجانب المسيحيين فلم يقدر على الحرب وفرّ إلى الصحراء.. وما إن أصبحت تونس تحت الراية العثمانية حتى اطمأن بنو العثمان إلى حدّ كبير..

كان ذلك بمثابة الخراب بالنسبة لـ «شارل الخامس». فإذا لم يتصد إلى «بربروس» الذي يقاتل تحت العلم العثماني، فإن جنوب المتوسط كله سيصبح عثمانيا. جهز «شارل الخامس»**8 حملة كبيرة باتجاه تونس. وفي صيف العام 1535 تم الاستيلاء على تونس. وبعد فترة من التخريب والتقتيل والوحشية أعاد «شارل الخامس» المملكة إلى «مولاي الحسن الحفصي» الذي أصبح مواليا للإمبراطور المسيحي.

تعهد هذا الأمير الحفصي بدفع غرامة سنوية لاسبانيا وكذلك بإقامة الشعائر الكاثولكية ثم بالتنازل عن ميناء حلق الوادي وأغلب حصون المدينة. كان يصعب على المسيحيين المنتصرين أن يصدقوا أن المعركة مع العثمانيين قد انتهت. وفعلا فإن

احتلال تونس لم يكن هو المحطة الأخيرة.. ففي فترة وجيزة عاد العثمانيون لجولة ثانية في جنوب المتوسط.

هكذا استكان جزء من إفريقيا للدولة العثمانية. فمصر وطرابلس وتونس والجزائر كلها باتت تابعة لاسطنبول. وكان يحق لاسطنبول أن تقول آنذاك إنها أصبحت عاصمة دار الخلافة الإسلامية الرابعة والجديدة..

كانت دار الخلافة الأولى في دمشق (بنو أمية). وقد جاءت مع تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ذات العنصر القيادي العربي. لم يعرف العرب خلال تاريخهم الحكم الوراثي. ولكن الأمويين مؤسسي الخلافة الأولى قد ساروا على منهج البيزنطيين فقرروا توريث الحكم لأبنائهم. يمكن أن تسمّى تلك المرحلة وبشيء من المجازفة بمرحلة الإسلام العربي.. بعدها خرجت الخلافة العباسية، إلى العنصر المشترك فبدت هذه الخلافة أكثر انفتاحا وتسامحا وانتشارا. وإذ وجدت الحركات الباطنية والعنصرية والشعوبية مناخها الخصب في فضاء الخلافة العباسية، فإن انشقاق توأم العروبة والإسلام قد أصبح ماثلا للعيان. وحين انتقلت دار الخلافة إلى القاهرة في عصر الفاطميين انطلاقا من تونس حملت معها الهندسة والتنظيم مثلما حملت معها الإنشطارات الطائفية والعرقية اختلطت بصراعات دموية، فذلك لم يكن ردّ اعتبار للعرب داخل القيادة الإسلامية، وإنما كان ردّ فعل على الخلافات بين أمراء العرب والأمراء المسيحيين الصليبيين. وهنا تمزق الكون الإسلامي من غربه إلى شرقه ومن إفريقيا إلى آسيا ثم راحت شعوب أخرى أكثر اندفاعا، تتهيأ لاستلام القيادات العليا.. وآنذاك تهيأ كل شيء ليصبح المغول ومن بعدهم العثمانيون سادة العرب والمسلمين أجمعين.

«ففي عهد الخلافة العثمانية فقد العرب كل مواقعهم وامتيازاتهم في القيادة وأصبحوا هم ودينهم في أيدي سلاطنة غلاظ لا يتكلمون العربية، يذبحون أبناءهم الذكور، يغازلون الغلمان في الحمامات ويحتقرون زوجاتهم كما يحتقرون العرب»[*9]..

***　***　***

كانت الثورة الفرنسية في أوج حماسها ونقاشاتها. حين بدأت أعراض المرض والسقم تظهر على الجسد العثماني. فقد كفّ عن التعاظم منذ أن عجز عن امتلاك التقنية الحديثة والعلوم الجديدة والفلسفة الجديدة. ورغم أن اسطنبول كانت ارض تسامح واختلاط إذ جمعت عرقيات وأديانا متعددة، إلا أن الأرض بدأت تتقلص من تحت أقدام سادتها. فقد بدا للحظة أن تركيا قد تجاوزها التاريخ لأنها قامت بـ«اعتقال» تاريخ شعوب كثيرة تحت هوس التوسع باسم الدين.. وبالنسبة لأمة مثل

العرب، فقد خسرت كل شيء» هويتها، لغتها، دينها وأخيرا تاريخها باسم حماية الدين الإسلامي من المسيحية. فقد انتقلت روح العرب التاريخية إلى اسطنبول فدفعتها نحو التوسع والتعاظم ثم انطفأت لأن العرب كفوا عن إنتاج المعرفة والفلسفة وعلوم الهندسة. وخلال أكثر من أربعة قرون، يصعب أن نجد بحثا أو دراسة أو مناقشة فكرية أو مناظرة هندسية أو طبية أو حتى كتابا أدبيا أو شعراء باللغة العربية قد برزوا إلى الوجود. وقد سادت قرون الركود الثقافي والمعرفي لدى العرب إلى أواخر القرن التاسع عشر، مع ظهور شعراء وأدباء المهجر، وهم في غالبيتهم مسيحيون عرب قد فروا من بلادهم إلى أمريكا من فرط التضييق والاستبداد والانسداد الروحي في العهد العثماني..

ولكن في اللحظة التي بدأ فيها القيد العثماني يضعف وقبضته تتراخى، كان واضحا أن العرب قد يخرجون من الأسر العثماني لا ليتحرروا فعلا، ولكن ليدخلوا إلى الأسر الجديد القادم من أوروبا باسم التنوير. ففي العام 1798، وبعد نحو عشر سنوات من انتصار الثورة الفرنسية، انقض نابليون بونابرت الذي كان لايزال في الثلاثين من عمره على أكبر وأحسن ممتلكات التاج العثماني، في إفريقيا والشرق الأوسط*[10]. ومن الإسكندرية تقدمت حملة بونابرت نحو القاهرة. لم يكن من الصعب عليه أن يجد الأدوات والأنصار لأن المصريين، ورثة الفراعنة والمسيحية الأورتودكسية والعرب المسلمين، قد ضاقوا ذرعا بالاستبداد العثماني. هزم المماليك الذين كانوا (رمزيا) حماة الأرض المصرية فأرسل الباب العالي بالتعاون مع بريطانيا (المنافس الكبير لفرنسا) جيشا لردّ الحملة الفرنسية. كان قائد تلك الحامية العثمانية رجل في عمر نابليون. وهو محمد علي الأرناؤوطي. وهو ابن مزارع تبغ في مقدونيا، من أصل ألباني. لم يكن محمد علي قادرا على وقف الحملة، ولولا الأسطول البريطاني بقيادة الضابط ويلسون لمات محمد علي غرقا في «أبو قير» قرب الإسكندرية. تابع نابليون غزواته رغم هزيمة أبو قير، باتجاه فلسطين وسوريا.. وخلال ثلاث سنوات انتهت، تلك المغامرة المثيرة والسريعة في الوقت نفسه. فبريطانيا لم تكن لترضى ببقاء مصر، طريق الهند، تحت النفوذ الفرنسي.

تلك المغامرة ستبقى ذكراها كأبهى شيء في ذهن نابليون إلى لحظة مماته في المنفى البريطاني (جزيرة سانت هيلان) وكذلك لدى نخب العرب الجديدة التي أحست وكأن روحا جديدة قد حلت بأجسادهم الثقيلة والأسيرة.

حين أجبر الفرنسيون على الانسحاب والعودة إلى أوروبا بدواعي الدفاع عن فرنسا التي باتت تحارب دول الحلف المقدس على جبهات متعددة، وثب الشاب الأرناؤوطي

محمد علي إلى مركز القيادة العامة بعد أن فقد القائد -خسرو- وهو من مماليك أبخازيا جزءا كبيرا من سلطته. بسط محمد علي سلطته على مصر العليا والسفلى. وفي العام 1803 أعلن نفسه صاحب السلطان بتأييد من علماء الأزهر. وفي العام 1806 اضطر الباب العالي للاعتراف به وبولايته.. وعندما حصد رؤوس المماليك ذات ليلة من ليالي ربيع 1811 في القلعة، استسلمت مصر كلها إلى سلطانه كما لم تستسلم لحاكم آخر من قبله.

بعد ذلك اتجه محمد علي لتحصين مصر في فضاءاتها الشرقية والجنوبية. كان الهدف باتجاه السودان، هو إخضاع أهل النوبة وسِنّار ودنقله وحماية النيل وجلب «العبيد» للزراعة والأشغال العامة. وكان هدفه باتجاه بلاد الشام بحثا عن حلفاء متنورين (من بينهم مثقفين مسيحيين)*[11] لمشروعه وسياسته للضغط على الباب العالي. أما هدف حملته نحو الحجاز، فهو مقاتلة «الحركة الوهابية» حتى لا تضع أيديها على طريق الحج ومقدسات المسلمين..

كان محمد علي لحظة فارقة بين عصرين وأسرين، عاشهما العرب. كان عنوانا للتنوير ضد الأصولية الوهابية وعنوانا للتحرر من الأسر العثماني وعنوانا للحداثة والأخذ بالعلوم التقنية والعسكرية، ولكن لا أحد من القوى الكبرى المتربصة بالعالم العربي سيعطي الفرصة لمصر لكي تنهض كقائدة للعرب. فحين اقترب محمد علي من وضوح الرؤية، اقترب منه الخطر، وهكذا أوقف قبل أن تستجيب اسطنبول لمطالب محمد علي. فالغرب لا يريد لمصر أن تنهض أو تقود العرب نحو التحرر أو تأخذ زمام المبادرة كما في العهد الفاطمي! كان الغرب لا يريد لولايات الدولة العثمانية إلا أن تسقط الواحدة تلو الأخرى في شباكه. فقد قرر أن يرث - الرجل المريض - في كل مكان من البلقان إلى الشرق الأوسط إلى شمال إفريقيا. وهنا سيبدأ الأسر الأوروبي لتاريخ العرب.

*** *** ***

بينما كان نابليون يستعد لحملته على مصر، احتاج إلى القمح الذي جلبه من «داي» الجزائر. ولطالما ماطلت باريس في دفع مستحقات القمح. وبعد أن دخلت الصفقة ولسنوات طويلة في أحابيل التجار اليهود. اضطر «الداي حسين» إلى حجز بعض السفن الفرنسية، ففقد كلّ طرف أعصابه*[12]! وهنا وجدت فرنسا الفرصة لتغزو الجزائر ردّا للإعتبار وبحثا عن المكتسبات الجديدة. ولولا إصرار «نابليون الثالث» لانسحبت القوات الفرنسية. فقد واجهت ثورة عارمة في الداخل وغضبا حادا في الخارج وخاصة في لندن. وإذ كانت الفوضى تضرب أرجاء الجزائر، خاصة وأن قائد الحملة حاول استرضاء بايات تونس بمنحهم مقاطعة قسنطينة الشرقية، فقد برز

شاب مقدام عاد لتوّه من مكة بعد أن أدى فريضة الحج لينضم إلى صفوف الثورة في غرب الجزائر. كان ذلك الشاب يدعى «عبد القادر» الذي استطاع أن يجمع شمل عدة قبائل متخاصمة أبرزها قبيلتا :»هاشم» و»عامر» ثم تقدم إلى الميدان بعد أن لقّب بـ «أمير المؤمنين» داعيا إلى الجهاد ضد الكفار الفرنجة !.. وفي بعض سنوات أنزل الأمير عبد القادر عارا لا يمحى بجنود فرنسا، خاصة عندما تمكن من استعادة قسنطينة من بايات تونس. ثم حين تمكن من عقد معاهدة صلح لم تكن في صالح باريس أبدا. أصبح عبد القادر سيّد عاصمته السياسية «معسكر» ثم مقاطعة وهران كلها إلى جانب جزء كبير من مقاطعة الجزائر العاصمة، ومعها الأغواط ونصيب كبير من الصحراء، غير أن الفرنسيين الذين ما لبثوا أن استعادوا تنظيم قواتهم، تنكروا لمعاهدة «تافنا»[13*] وراحوا يضربون رجال عبد القادر ويتعقبونهم من بلدة إلى أخرى.

استمات الحرس الخاص في الدفاع عن أميره. وتمكن الأمير من المرور إلى مراكش. ورغم أن الأسطول الفرنسي قد تقدم نحو طنجة والصويرة مهددا، إلا أنّ السلطان العلوي رفض تسليم الأمير تحت أي مبرر. ثم عاود تسليحه ليبدأ هجوما جديدا على الجيش الفرنسي. وآنذاك اختارت فرنسا الهجوم داخل أراضي المغرب الأقصى. وفي العام 1847، اضطر الأمير إلى الاستسلام بعد أن وعد بأن يذهب لاجئا إلى عكا أو الإسكندرية، غير أنه إقتيد كأسير بعد ذلك إلى تولون. وفي العام 1852 عفا عنه نابليون الثالث فذهب إلى أسطنبول ومنها إلى دمشق ليتوفى فيها في العام 1883. وفي ذلك العام استكملت فرنسا مرحلتها الثانية حين بسطت نفوذها الكامل على تونس الحسينية الذي بدأ عام 1881.

كان الباي الحسيني «الصادق باي» قد تمتع باستقلال نسبي عن الباب العالي لكنه بالغ في الإهمال الإداري والسياسي كما بالغ في حماية الوزراء الفاسدين والمرتشين حتى بات ثلث الأراضي التونسية الخصبة تحت النفوذ الايطالي والأجنبي وباتت ثرواتها مهلابة في خزائن الخارج. أبقت فرنسا للباي سلطة صورية بعدما سلبته كل سلطاته الحقيقية ثم أصبح عبارة عن أداة من أدواتها الجيدة والمطيعة.

بعد نحو عشرين عاما تقدم الفرنسيون نحو المغرب ليجدوه لقمة سائغة. كان قد غرق في الفوضى والمساومات ودناءة القنصليات. فبعد أن أصبحت فرنسا الحاكم الفعلي في كل من تونس والجزائر، استطاعت أن تنتزع من اسبانيا وبريطانيا قرار الهجوم على المغرب. وإذ توغلت بريطانيا في مصر، واسبانيا في شمال المغرب، فقد هجمت فرنسا قبل أن يتقدم الألمان الذين حاولوا الوقوف إلى جانب السلطان العلوي، لتتوغل في باقي المغرب.

في تلك الأجواء الملبدة بهوس التوسع الأوروبي، كانت ايطاليا تبحث عن مستعمرة لجاليتها المتكاثرة في جنوب المتوسط. ولما كانت فرنسا قد فازت بكل شمال إفريقيا وجزء من شرق المتوسط، وفازت بريطانيا بمصر والسودان، فقد كان اختيار ايطاليا لليبيا ضروريا وحاسما. وفي خريف 1911 تقدمت اسطاليل ايطاليا لتأمر «باشوات طرابلس» بالاستسلام. حاول السكان أن يستنجدوا بالباب العالي، إلا أن ذلك لم يكن له جدوى. فالإمبراطورية العثمانية قد أصبحت كعربة هرمة تطقطق على الطرقات دون أن تعرف أية طريق تسلك.

بعبارة أخرى، فقد فقدت الإمبراطورية العثمانية معالم الطرقات. فهي تواجه قوى استعمارية حديثة وشرهة وإلى جانبها حركات تحرر مشبعة بالروح الوطنية والقومية من البلقان إلى شرق المتوسط. أما الولايات العربية الإفريقية من مصر إلى الجزائر، فقد أصبحت منذ فترة تسبح في ملكوت آخر غير ملكوت الإسلام العثماني.

كانت تلك لحظة مفارقة بالنسبة للعثمانيين الذين بدا أنهم خسروا القرن العشرين قبل أن يبلغوه، وكذلك بالنسبة للعرب الذين ما إن شرعوا في تدريب أنفسهم على حكم أنفسهم بأنفسهم حتى فقدوا أوطانهم وثقافتهم وكثيرا من طموحاتهم.

*** *** ***

وفي مقصورة – النجمة الجديدة– الفخمة التي تقع في قصر «يلدز» العظيم، كان السلطان الكبير عبد الحميد الذي لم يكن ينقصه لا التفاؤل ولا الحكمة ولا الشجاعة يحبّ أن يتأمّل في إمبراطورية أجداده التي أصبحت مبعثرة ومهددة. كانت أوروبا المتعاظمة قد انقضت على جزء من ممتلكات الإمبراطورية وخاصة مصر وتونس والجزائر. أما الجزء الآخر الذي ما زال يتمايل مع تمايل العرش، فهو يتألف من بقعة في البلقان وشبه جزيرة الأناضول وبعض الجزر اليونانية وسوريا الكبرى والعراق.. وإذ لم يخضع المغرب أبدا لسلطان غير السلاطين العلويين، فإن اليمن وصحراء العرب ومعها مشايخ الساحل المتصالح قد باتت تحت إغراءات الانكليز المتحالفين مع ابن سعود الأول.

وإذ بدت فرنسا وكأنها المنافس الفتّاك للسلطة العثمانية، بعد أن استحوذت على شمال إفريقيا كله من تونس إلى المغرب، ففازت بكراهية مقيتة من الباب العالي لم تعادلها إلا رغبة نادي «الترقي»*[14] المعارض الذي اقترب منها جيدا، أظهرت بريطانيا في أحيان كثيرة أن سياستها تختصر في إبقاء الإمبراطورية العثمانية معلقة بين الموت والحياة. فحين أصبح «محمد علي»، والي مصر على مشارف أسطنبول، تدخلت

بريطانيا لتحطم مشروعا كانت ترى فيه ميلاد «بونابرت عربي».. وحين كان عليها أن تحارب الإمبراطورية الروسية في القرم، تدخلت بريطانيا لصالح العثمانيين ولكن للسيطرة أيضا على مواقع في أوروبا الوسطى...

وإذا كان الباب العالي لم يتفطن إلا حين فاتت الفرصة، أن بريطانيا سترث جزءا كبيرا من ممتلكاتها بل ستحكم أكبر عدد من مسلمي العالم، فلأن لندن قد أفلحت كثيرا في إخفاء نواياها. كانت تقوم بلعبة مزدوجة تطيح خلالها أولئك بهؤلاء. وكانت كثيرة الحذر، لكنها تهوى إثارة المشاكل والقلاقل لكي تتسرب داخلها وتمسك بخيوط جميع اللاعبين. وهو ما يعني في المحصلة أن لا فرنسا ولا بريطانيا كانتا تنظران إلى الباب العالي بعيون الشفقة أو الاحترام أو بنوايا المساعدة..كانتا على اتفاق عام بأن تحفر أكبر قبر ممكن لدفن هذه الإمبراطورية ثم الانقضاض على جميع ممتلكاتها..ومع فرنسا وبريطانيا، كانت روسيا أيضا تفعل الشيء نفسه ولكن بأساليب جد بالية أو متخلفة.

هكذا فتح السلطان عبد الحميد عيونه على دسائس الحريم ثم أغمض عينيه على دسائس الملوك والأمراء الفرنسيين والبريطانيين والروس.. استعان بإحياء الإسلام في سنواته الأخيرة فلم ينفع. واستعان بمستشارين أغلبهم من عرب الشام فلم يقدموا له أي شيء جديد.. وحين غاب عبد الحميد، أيقن العثمانيون أنهم ودّعوا آخر سلاطينهم الكبار وأكثرهم صلابة وتكتيكا، بحيث استطاع أن يؤخر من سقوط الإمبراطورية المحتوم، طويلا.. أما العرب فقد انتسبوا إلى جبهتين: جبهة رأت أن ساعة الخلاص من العثمانيين قد أتت، وأنّ عودة العرب أصبحت ممكنة. وجبهة أخرى رأت أن العثمانيين قاموا بتسليمهم بالجملة والتقسيط، بثمن ولا ثمن، بوعي وبلا وعي إلى حكام آخرين أكثر غرابة..

وفي المحصلة، فإن أرض العرب والإسلام لم تعد تحت قبضة أناس غير عرب (كما في العصر العثماني) فقط، وإنما أصبحت تحت نعال حكام لا هم بعرب ولا هم بمسلمين. إنهم المسيحيون الفرنسيون والبريطانيون والاسبان والطليان.. اضمحلت سلطة المؤمنين، وجاءت سلطة «الملحدين الكفار» فانشطر كل شيء.. من الذات إلى المرآة.. وانفتح كل شيء من الباب إلى الحجاب ثم انفصل كل شيء عن كل شيء على مذبح فلسطين!..

*** *** ***

اعترف هرتزل، ابن عاصمة المجر، هنغاريا التي تقع على نهر الدانوب، فيما بعد «أنه لم يتحمل الحرّ الشديد حين قفز من الباخرة التي ألقت به على ساحل يافا»[*15].. مع

ذلك واصل جهاده من أجل أن يصنع «وطنا» لإخوته اليهود، إن لم يكن فلسطين، فقد يكون سيناء أو العريش أو قبرص أو أوغندا أو الأرجنتين أو الجبل الأخضر في ليبيا*[16] ..

رأى هرتزل لأول مرة فلسطين، وكان قد جلس إلى السلطان عبد الحميد فخرج خائبا بعدما سمعه يقول: «كيف تريدني أن أرمي بجزء من مقدسات المسلمين إلى الكلاب»؟ *[17] .. أمّا بيسمارك فقد احتقر فكرة - الوطن القومي لليهود-. وكما أهمل المليونير «الفريد روتشيلد» رسائله ومطاليبه، فقد قابل بعض يهود أوروبا فكرة «الوطن القومي» بالامتعاض والخوف لأنها تحمل تسليما بالنظرية اللاسامية.. وضحك زملاء صحافيون آخرون من فكرته لأنه لا يملك لا مالا ولا جيشا، وهو إلى ذلك ليس من نبلاء اليهود.. أمّا الدولة الوحيدة التي وجدت في هذه الفكرة مركبا يحمل اليهود إلى خارج أوروبا، فهي بريطانيا.. بريطانيا التي كانت تسيطر على ربع سكان العالم..

كان يهود فلسطين لم يعبروا أي اهتمام لقدوم هيرتزل. بل إنه كثيرا ما شعر بالكآبة تجاههم لأن معظمهم من السفارديم، أولئك اليهود «السمر والوسخين!»**[17] الذين طردهم الكاثوليك الإسبان فلجأوا إلى بلاد الإسلام. أمّا اليهود الصابرا فقد اندمجوا منذ أمد بعيد في العادات العربية ويصعب معرفتهم إلا في مواسم الأعياد أو أماكن الصلاة.. وثمة عدد قليل من اليهود «الاشكيناز» جاؤوا من وسط أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، كانوا لا يزالون يبحثون عن الطمأنينة. وحتى هؤلاء كانوا من فقراء الاشكيناز.. وفي نظر الأوروبي أو حتى في نظر اليهودي المثقف مثل «هيرتزل» «فإن جميعهم قابعون في الماضي، لا يريدون تمزيق العادات ولا يرغبون في انفجار الأحاسيس. كانوا مثلهم مثل العرب الآخرين من مسلمين ومسيحيين قد التقوا ليصلوا لربّ واحد ويعيشوا في أرض واحدة»*[18] ..

خاب أمل «هرتزل» من أهله في «فلسطين» بالقدر الذي خاب فيه من الذين قابلوا مشروعه بالسخرية أو بعدم الاكتراث. مع ذلك فقد واصل طريقه ليجد من يأخذ بمشروعه إلى حيز التطبيق..

كان كل شيء يشير إلى أن فلسطين قد دخلت قلب الدوامة، وأن الشرق الأوسط كله سيظل يرقص داخل هذه الدوامة أكثر من قرن..كما بدا واضحا لبعض المسلمين والعرب..أنه لم يعد يكفي أن يحكم الغرب المسيحي بعض أراضي الإسلام الأخرى، ولكن حان الوقت لكي يغزو مقدساتهم: فلسطين.. إن الغرب المسيحي هو الذي سيسلم هذه المقدسات الإسلامية إلى اليهود بعد أن سلمها العثمانيون إليهم.. ذلك أن أفضل «عرض تراجيدي» يمكن أن يشاهده مسيحيو القرن العشرين، هو أن يتقاتل اليهود

والعرب إلى ما لا نهاية دون أن يعرف كل منهما أنه ضحية، وذلك انتقاما لدم المسيح!

إن «أرتير بلفور»[19*] سيفصح عن ذلك في وعده الغامض والملبّد بالكراهية والحقد بعد برهة من زيارة «هرتزل» إلى فلسطين. وسوف لن يدرك العرب حجم المصيبة التي حلّت بديارهم إلاّ حين تصبح اتفاقيات سايكس/بيكو السرية ومن بعدها وعد بلفور.. تسير على الرمال وهي تتمايل مثل هودج الجمال.

*** *** ***

تصادفت تلك الانشقاقات عن المركز العثماني في الأطراف العربية والسلافية (إما بسبب الاستقلال الذاتي أو التحرر من حكم العبادة الدينية أو بسبب الاندفاع الغربي) مع حركة تجديد وإصلاح في المركز والأطراف. فالأتراك أنفسهم كانوا يطالبون بالإصلاح وحتى بالتخلي عن بعض المناطق الضعيفة أو المتمردة. وهو ما سيفرض نفسه كمنطق جديد مرة بالتعارض وأخرى بالتقاطع مع حركة الجغرافيا السياسية في العالم.

في تلك اللحظة بدأت الجغرافيا السياسية تتغير. وبدأ لاعبون إقليميون ودوليون يدخلون إلى المسرح السياسي. فهاهي أوروبا تبدأ رحلة توسعها (العقلاني والحضاري) كتعبير عن موجة جديدة من التضامن القومي، عنوانا في المجال العربي وكذلك في الفضاء البلقاني للخروج من التطاحن الديني (إسلام/مسيحية) أو من التطاحن القومي (عثماني/عربي) أو (عثماني/سلافي). وهاهي روسيا قد بدأت تنهض وتزداد تغلغلا من جهة الشرق والغرب. أما أمريكا فقد استقلت عن أوروبا ثم راحت تستعد للخروج إلى مغامرة عالمية. وفيما ظلت الهند غواية قديمة لدى الغرب، فإن بلاد فارس كانت تفاحة شهية للإنكليز والروس معا.. أما فضاءات الدولة العثمانية، (العربية منها)، فكانت أكثر إغراء بالنسبة لأوروبا العائدة من العالم الجديد (أمريكا). بعبارة، كانت تلك الإمبراطورية العثمانية القديمة قد دخلت في خط التراجع منذ فترة وظهرت عليها علامات الاضمحلال والضمور والانشقاقات. وبما أنها كانت تسيطر على عالم مليء بالانقسامات العرقية والملّية والدينية، وهي تتوسط عالم قديم في تماس كبير مع عالم جديد يريد أن يستحوذ على كل فراغ، فإنها في الحقيقة كانت ماثلة للإجهاز عليها وعلى ممتلكاتها، بل مهيأة للانحناء أمام جبروت الموجة الاستعمارية «الأكثر عقلانية وحداثة» حتى ذلك الوقت.

إن عملية انهيار «المركز السياسي» في إسطمبول التي بدأت بطيئة ثم تسارعت خلال القرنين الثامن والتاسع عشر قد شجعت أوروبا على الدخول في لعبة التمزيق. وتحت قيادات سلطوية أنشأها باشوات كراغلة ومماليك متمردون وأخرى أميرية

أنشأها محاربون عرب مناهضون، تشكلت أشباه دول في أقاليم الإمبراطورية العثمانية الرئيسية.

لم تجد السلطة العثمانية أية وسائل جديدة لمنع عدم الانصياع والاستقلال، سوى توسيع حروب المنافسة بين أولئك المتمردين على سلطتها المركزية. وإذ بات العجز مستفحلا، فإن الباب العالي اكتفى بإشعال الفتن مرة، ومعاقبة المتمردين مرة أخرى وضرب هؤلاء بأولئك مرة ثالثة، من أجل حفظ ما كان يسمّى ب«توازن المجال العثماني». أصبحت القوة العسكرية هي المنطق الوحيد لإعادة النظام داخل الفضاء العثماني، ولكن تلك القوة كانت في كل مرة لا تنتج إلا الانفصال عن المركز. فالقادة الانكشاريون أو العبيد البيض الذين يرسلهم العثمانيون كولاة للمناطق الساخنة، سرعان ما يتمردون على الباب العالي بمجرد أن يتمكنوا من بسط نفوذهم.. وبينما كان الجيش العثماني الإمبراطوري مثالا ناصعا على عدم الانضباط والاختلاط والعجز والأنانية، فإن الجيوش الأوروبية الحديثة قد عادت مع الموجة الاستعمارية الجديدة، منضبطة ومدربة ومنصاعة لقيادتها المركزية/ السياسية.

ترافق ذلك الهبوط في الاستعداد والانضباط مع هبوط آخر في النمو السكاني داخل الفضاء العثماني. فالحروب حصدت الكثير والتخلف قد جمّد الكثير. أما الطاعون والأوبئة فقد أعدمت الكثير، يضاف إلى ذلك تخلف الإدارة والتعليم وانعدام الأمن وتقلص المداخيل وتزايد الضرائب وتراجع الزراعات. وفي مناخ كهذا، كانت الدولة العثمانية تئن تحت أوجاع كثيرة، بينما كانت أوروبا تصحو على وعود كثيرة. فالميزان الديمغرافي قد أصبح لصالحها ثم إنّ العلوم قد أوقفت الأمراض والأوبئة إلى حدّ كبير. ومن الناحية العسكرية، فإن تجربة الكشوف الكبرى قد مدتها بتفوق ساحق في جميع المجالات من الخطط إلى العتاد ومن الوسائل إلى الرجال..

وبعد حربين مدمرتين تورطت فيهما الدولة العثمانية بتواطؤ من أوروبا. وهما حرب القرم 1768 وحرب القرم 1774. سيجد الباب العالي نفسه تحت الجدار الغربي السميك والقوي. وإذ ارتطمت الرأس العثمانية الصلبة أكثر من مرة بكتل أكثر منها صلابة، فإن ذلك لن يسبب لها صداعا معهودا لديها وإنما جروحا دامية ستؤدي إلى شلل في الدماغ. وإذ تدخل الدولة العثمانية مرحلة الأوجاع المؤلمة، فإن أوروبا الحديثة (أو الحس الأوروبي المشترك وليد الكراهية المزمنة باتجاه الشرق) ستبدأ في تشريح ما أصبح يعرف ب «المسألة الشرقية»، التي بدت ك «مسألة جوهرية» بالنسبة لأوروبا للإجهاز على الدولة العثمانية مرة واحدة وبشكل حاسم حين بات رجل أوروبا المريض ممددا على مشرحة الغرب.

كانت فرنسا الملكية أكبر شركاء الدولة العثمانية في أوروبا.. فقد استطاعت فرنسا أن تتغرس عميقا في أرض العثمانيين بفضل شبكاتها التجارية والإرسالية والاستشراقية. وربما كانت مضطرة لذلك لتعويض نفسها على خسارة الهند أمام الانكليز. ثمّ للحدّ من نفوذ الروس والنمساويين، غير أنها كانت أيضا مقتنعة أنّ فرنسا غير المتدربة جيدا على البحر والتي خسرت مغامراتها الكبرى فيما وراء البحار البعيدة، لا يمكنها أن تتوسع وتكون فاعلة إلا في مجال البحر الأبيض المتوسط. أصبحت مرسيليا وغرفها التجارية الضخمة بمثابة القيادة العامة لفرنسا.وهي كمدينة متوسطية قد بدأت تأخذ دور البندقية أو حتى دور أثينا القديم..إن كادر القناصل والمترجمين والمبعوثين التجاريين المتخصصين في الطوبوغرافيا واللغات الشرقية والاقتصاد، سيضم أكثر ما لدى الدولة الفرنسية من رجال ونوابغ مسحورين بالشرق. وحال انتصار الثورة، عاودت تلك الرغبة الملكية، الجمهورية الوليدة للاهتمام بالشرق، وكما يجب أن يكون الاهتمام، أي كما يجب لفرنسا أن تبقى القوة الأولى في عالم المتوسط إلى جانب الدولة العثمانية. ولما كان الرأسمال الفرنسي راسخا في الدراية والخبرة والمحاسبة والقوة، فإنه سيساعد على انتهاج ما يمكن أن يسمّى بسياسة عقلانية تقوم على الحقائق الواقعية، حتى وإن تصادمت مثل تلك الحقائق بنوازع دفينة وماضوية!!.

كان السؤال المركزي الذي انصب وسط جدول واسع ومثير من النقاشات في أواخر العهد الملكي هو: ماذا سيكون عليه موقف باريس في حال هزيمة أو تفكك العثمانيين؟! وضعت اجابات عديدة لذلك السؤال المحير والذي يحمل رغبات متعاكسة. ولكن الاتفاق كان حاصلا على قاعدة الإجماع، بأن وجود الدولة العثمانية، إنما يمنح لفرنسا فرصة الظهور كقوة جديدة.. فإذا ما استولت روسيا أو النمسا على أجزاء من الدولة العثمانية، فإن الهزيمة ستلحق أيضا بالتوسع الفرنسي. غير أنّ ما كان يحيّر باريس هو أنّ صداقة الضعفاء قد تزيد من ضعف الحليف.وتؤدي إلى زوال الاثنين.. لذلك نشأت نزعة تدخل داخل الدولة الفرنسية، ما لبث أن تورطت داخل الشبكات القنصلية والتجارية، لتظهر جلية وواضحة بعد الثورة الفرنسية مباشرة..

كانت الإغراءات وكذلك الضغوط كبيرة على جهاز الدولة الملكية بحيث عجزت عن الاختيار الصارم. فمغامرة شرقية قد تكلف فرنسا الكثير، خاصة أنّ روسيا والنمسا تترصدان أي خطأ تقوم به. أما النكبات التي تعرضت إليها في أمريكا فهي تزيد من الحذر. وهكذا تحولت المسألة العثمانية إلى أزمة سياسية مستفحلة داخل فرنسا ثم تطورت فأصبحت بمثابة «المسألة الشرقية المؤرقة».. استمرت المناقشات حتى أصبحت مناقشات بيزنطية. وبرز تياران في المحصّلة: الأول: يدعو إلى عدم التدخل

في الدولة العثمانية، لأنّ التوازن الأوروبي قائم آنذاك على التوازن القاري، بعيدا عن بريطانيا الجزيرة المنهمكة بعيدا عن أوروبا. ثم لأنّ التدخّل سوف لن يزيد إلا من عداوة فرنسا. والحال أنّ كلّ تحديث للحليف العثماني لن يكون نافعا إلا إذا كان من الداخل، وهذا سيحصل لا محالة، لأنّ الشرق كله لن يفلت من مغامرة التحديث التي أصبحت عالمية منذ أن أصبحت العلوم تسيطر على الطبيعة والعالم. أما التيار الثاني، فذلك الذي يدعو إلى التدخل لوضع فرنسا في مقدمة الأحداث بل وصانعة لتلك الأحداث، حتى لا تبقى في موقع الشريك الضعيف. (جول فيري)

*** *** ***

في ذلك الوقت، انتقلت المناقشات إلى المستوى الاجتماعي المعقد. وقد جنّد دعاة التدخل مثقفين ومستشرقين أذكياء وقادرين على صياغة تبريرات موضوعية براقة. وحسب زعمهم، فإن علمنة الفكر السياسي الذي أدى إلى انفصال الكنيسة عن الدولة، سيمنع من وضع المسيحية في مواجهة الإسلام.. وقد نسق الفكر النقدي لأطروحات الاستعمار القديم كل التبريرات الدينية التي كانت تقدم كخلفية سواء للصليبيين أو للإمبراطوريات الاستعمارية الأولى. وهكذا كان لا بدّ من صياغة أفكار أولية لتجديد أطروحة الاستعمار على أساس اقتصادي وثقافي تنويري وتحديثي.

تلك الأفكار، ستصبح هي إيديولوجيا الثورة الفرنسية في جناحها المناصر للتدخل. إن عنصر التنوير هو الذي سيوجه معظم عجلات السياسة الفرنسية في الشرق. وهنا ظهرت فكرة تخلف الشرق الذي لا بد من استعماره لتحديثه. وتلك الفكرة تزوجت بفكرة أخرى مفادها : «إن تقدم الغرب لن يتحقق إلا بالتقابل و بالانخراط في التخلف الشرقي.. وبما أنّ الشرق المتخلف هو ماضي أوروبا، فإن مستقبل أوروبا، سيتحقق في مشروع تحديث ذلك الشرق المتخلف، الذي هو حسب الفرنسيين ليس إلا مصرا». «وبما أن العقل هو التاريخ (هيغل). فهو قد ولد في مصر، وانتقل عبر الإغريق والرومان إلى العرب ثم وأخيرا إلى مستقره النهائي في أوروبا عبر العرب وهذه الدورة حديثة حتى وإن كانت تستند إلى عناصر قديمة. وهي تقود إلى التأكيد على أنّ كل ثقافة لا تنتمي إلى مسيرة العقل في المكان والزمان إنما هي ثقافة عديمة الجدوى وبلا أية شرعية، وهي تدار من قبل خصم العقل الذي هو : الاستبداد»*[20]..

ولكن الاستبداد الشرقي لا يعدو أن يكون مصطلحا حديثا نسجته الايدولوجيا التنويرية.. فهو بالأساس ليس شرقيا وإنما المستشرقون هم الذين جعلوه شرقيا. ولو

تصفحنا معظم الكتابات، فإننا سنجد الصينيين والهنود والفرس كمثال على الحكمة والتصوف والرجحان.. كما سنجد العثمانيين كمثال على الانضباط والتضحية. ثم نجد المصريين القدماء كمثال على المعرفة والتوق إلى مغالبة الزمن والورع الديني.

وكما ولد مصطلح الاستبداد الشرقي كمبرر للدخول في مغامرة كونية جديدة، فإن مصطلح «الغرب» سيضع نفسه كذلك على خارطة الأفكار الجديدة -كحقل معرفي جديد-. فهو أولا يعني أوروبا وتراثها الجغرافي والسياسي والديني، أي أوروبا وأمريكا، ثم هو كائن جديد وحديث لإثبات وجود الحداثة أو إشهار هوية جديدة مقابلة أو مضادة لهوية الشرق. إن الأنا الأوروبية هي التي صنعت الأنا الغربية كتأويل للآخر الشرقي.. وهو ما أدى إلى بعث تأويل جديد للحضارة كمصطلح جديد نابع من التصور الأوروبي.

إن حركة التاريخ في نظر الإيديولوجيين الأوروبيين تختصر في كلمة «الحضارة»، التي تعرّف بعملية تدجين للعنف الأهلي الجماعي والفردي. وقد يكون التاريخ لا يتقدم إلا عن طريق العنف كقابلة، غير أنّ التاريخ في مفهومه كعقل كامل وكمحرك نشاط، إنما هو الحضارة عينها أو التاريخ عينه.

وسوف تجد مثل هذه التعريفات حقولا واقعية في زمن الثورة الفرنسية، لتحقق نفسها وفق معايير إيديولوجية.. فمخترعو التنوير، وكذلك دعاة الثورة الفرنسية وصناعها قد جعلوا من تلك التعريفات نماذج واقعية، إذ سيصبح الغرب الجديد منتجا كبيرا للتاريخ والحضارة.

وبما أنّ الحضارة تاريخ ذو حركة دائمة، فهي بالأساس- دوارة-. «فقد تجلت في مصر واليونان وروما ثم لدى العرب.. وأخيرا في أوروبا فالغرب، فكانت أن جمعت العلم والمعرفة ومفهوم المكان والزمان والمواطنة والعقلانية. وبحسب تلك التحليلات، فإن أوروبا الحضارية (الغرب) كانت آنذاك في مقدمة الإنسانية ثم يأتي من بعدها الشرق الذي أثقلته الأوجاع والممارسات الاستبدادية. وأخيرا يقف «المتوحشون» في آخر الصفّ. وعليه فإن حاملي الحضارات القديمة أكثر استعدادا من غيرهم لتقبل المفاهيم والممارسات الحضارية الحديثة»*[21]. ولما كان الاهتمام بالأساس منصبا على «المسألة الشرقية»، ثم لما كان الشرق القريب في التصور الفرنسي هو مصر، ثم لما كانت مصر كحضارة قديمة تبدو أكثر استعدادا لتقبل حضارة الغرب، فقد حسم الاختيار لصالح تيار «نزعة التدخل»*[22].. وفي مصر بالذات.

كان البرنامج الثوري لفرنسا الجديدة (التدخل) هو الذي انتصر في الأخير. وحين انتصرت الثورة الفرنسية، أصبح ذلك البرنامج في ذهن الجمهوريين، بمثابة البرنامج

التحديثي والتنويري الذي تقدمه الثورة الفرنسية للشرق وكذلك للإنسانية جمعاء. ولا شك أنّ نزعة العودة إلى الأصول قد كانت بارزة لدى حاملي ذلك البرنامج، بأن ما يفعلونه تجاه الشرق لا يعدو أن يكون دينا، عليهم أن يردوه للشرق أو هو إعادة للاعتبار أو استعادة لطبيعة الشرق الحقيقية..

وجد ذلك البرنامج في الشاب العسكري والثوري نابليون بونابرت، الحامل لمفاهيم الحضارة الجديدة والمدافع عن مكاسب الأمة العظمى، والمؤمن بعالمية الثورة الفرنسية، وكذلك المسحور بعبق الشرق القديم، الرجل المناسب لتنفيذه.. ولما كان ذلك البرنامج يتطلب تحالفا بين الجمهوريين والعسكريين، فإن السياسيين قد قبلوا مطالب الجنرالات. وهكذا سيتورط العسكريون، (بونابرت، هوش، كليبر، مورو ومينو) في لعبة السياسة خلال الثورة الفرنسية، حتى أن ذلك البرنامج التحديثي الذي دافع عنه التنويريون منذ منتصف القرن الثامن عشر، أي منذ الملكية، سينفذ بطريقة عسكرية عنيفة، وهذا ما سوف يطبعه بطابع العنف الذي هو ضد الحضارة حسب الفكر التنويري!

ولا يخفي كتّاب سيرة بونابرت، حبه للاسكندر المقدوني الذي استحوذ عليه عبق الشرق وخاصة مصر التي يقال أنه توفي فيها. ويضيف «فرويد» تفسيرا آخر لعشق بونابرت للشرق وخاصة لمصر، فيرى، «عقدة يوسف» لدى بونابرت حيث تكشف لنا إرادة الانتقام من الأخ، المنافس المكروه والذي يصبح فيما بعد أكثر من محبوب، بعد تسليط الكراهية على أشياء أخرى. فالذهاب إلى مصر تلك الأرض الأثيرية، هو إعادة لذهاب يوسف إليها.. وحسب فرويد، دائما فإن السيدة جوزفين (تأنيث ليوسف/ جوزيف) هي إحدى تجليات «عقدة يوسف» التي استمد منها نابليون قوته*[23].

وسوف يحمل «بونابرت» إلى مصر فنون الحضارة (من اقتصاد وعلوم وزراعة) وهو الشيء الذي حمله النبي يوسف إلى مصر حسب الأسطورة (يمكن أن نلاحظ ذلك حتى في خطاب يوسف شاهين السينمائي عن قصة يوسف كما جاءت في فيلم «المصير»، والتي مزج فيها شاهين بين حبه ليوسف، وهو الترجمة الذاتية النابعة من تشابه الأسماء وبين حبه لبونابرت كحامل الحضارة الجديدة للشرق في فيلم «وداعا بونابرت»). غير أنّ تلك الحضارة التي هي تدجين للعنف كما يؤكد «روسو» قد أصبحت تجليا للعنف نفسه. إن خلع أبواب الشرق عن طريق القوة العسكرية، إذا كان يحمل إنذارا مبكرا بأن الغرب قد أصبح قويا، فهو كذلك ترسيخ لمبدأ القوة والاستبداد والاستئصال الذي طبع الشرق تاريخيا.

*** *** ***

إن زمن التنوير لدى الثورة الفرنسية هو كذلك زمن العنف والتوسع والأسر لتاريخ شعوب أخرى، وهو كذلك زمن استنهاض المكونات الضعيفة والقديمة. وهو ما يضعنا

حاليا في زمن «المحافظين الأمريكان الجدد»!. فالدين كدافع أو محرك قد تراجع وبات لا يحمل أية مصداقية في توجيه السياسات أو كسب الأصدقاء. ثم إن المسيحية لو استعملت كمحرك باتجاه الشرق فإنها ستبدو كما لو أنها مرحلة تكرار بائس للحرب الصليبية ومواجهة سافرة للإسلام من أجل تحطيمه.. ولذلك فإن التوجه قد كان مركزا على حقوق الجماعات السكانية التي تملك استعدادا موضوعيا للتمرد. تماما مثلما نلاحظ اليوم مع المشروع الأمريكي في العراق أو في غيره. وسوف يجتهد الفرنسيون كما تفعل الآن واشنطن في إيجاد كل التبريرات لكي يجعلوا من كل طائفة حتى ولو كانت دينية، أمة. وهذا ما سوف يؤدي إلى انتشار مصطلح - حق تقرير المصير- في عهد نابليون، وهو المصطلح الذي انقلب فيما بعد كسلاح مضاد للاستعمار الفرنسي بدءا من بروسيا إلى العالم الثالث!

وطبقا لتلك الأفكار الفرنسية، فإن إنشاء أمم جديدة أو بعث أمم قديمة، كانت هي المدخل لتفكيك الإمبراطورية العثمانية، ذلك الخليط المتفجر بين الأمم والطوائف والأعراق والملل.. سيجري تمجيد ذلك الخطاب الرومانسي الذي يقوم بتعظيم القوة لدى الأمم القديمة وكذلك بتمجيد التحرر «للأمم الجديدة». وعليه فإن المصريين سيصبحون في خطاب «بونابرت» «أمة لها مآثرها تستحق التحرر والمجد. أما العرب فسوف يصبحون أمة خالدة تستحق الخروج من عباءة التخلف العثماني!»..

بتلك الأفكار، ذهب «بونابرت» إلى مصر في فجر القرن التاسع عشر.. وبنفس الأفكار تقريبا جاء بوش إلى العراق في فجر القرن الواحد والعشرين! غير أنّ الأفكار لن تكون ذات جدوى ما لم تملك الوسائل لنشرها في المجال الخصب، وكذلك الرجال المستعدين للتضحية في سبيلها.

*** *** ***

ومع أن بونابرت نفسه قد حاول استخدام مبدأ «الإسلام السياسي»، وقد استطاع في هذا الشأن أن يساعد «أشراف مكة» على تأكيد استقلاليتهم تجاه الباب العالي. إلا أنه تراجع فيما بعد حين تأكد أن ذلك المبدأ هو من احتكار العثمانيين والأنكليز. وهكذا نراه يتجه إلى استخدام مبدأ آخر هو: مبدأ تقرير مصير شعوب الشرق. كما أنه سيعمل على استنهاض النزعة العروبية لوضعها في مواجهة الإسلام السياسي. ومن هنا سيبدأ الصدام الكبير بين العروبيين والإسلاميين في المنطقة العربية والذي سيستمر في تجليات انشقاقية مستمرة حتى اليوم منذ أن أخذ محمد علي باشا المتأثر والمعجب ببونابرت، على عاتقه مقاتلة التيار الوهابي/ السعودي.

تساءل بونابرت: «لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ وكيف تهيمن على مصر الخصيبة وشبه الجزيرة العربية، شعوب غريبة من البلقان والقوقاز؟ ثم أجاب على

طريقته: إذا ما هبط محمد (صلعم) اليوم من السماء، فإلى أين سوف يذهب؟ هل سيذهب إلى القسطنطينية؟ لكن هذه المدينة دنيوية بها من الكفار أكثر من المؤمنين.. ثم إنّ وجوده هناك يعني أنه يضع نفسه وسط أعدائه. كلا إنه سوف يأتي إلى مياه النيل المباركة. وسوف يجيء للإقامة في مسجد الجامع الأزهري، ذلك المفتاح الأول للكعبة المقدسة».. عند هذه الكلمات تهللت وجوه أولئك الشيوخ الأجلاء ومالت أجسامهم ورددوا مكتوفي الأيدي: «طيب.. طيب.. آه! هذا صحيح تماما يابونا». (كان الفلاحون المصريون يسمون بونابرت بـ«بونا» أو «بوناتراب»)*24.

كان بونابرت قد اندمج إلى حدّ كبير في التصور الذي وضع العرب بداخله.. وقد أعجبهم أنه يريد أن يعيد للعرب مجدهم. فقد قال عندما قام بعزل آخر أمراء المماليك «مراد بك».. «إنني سوف أحيي زمن مجد الفاطميين»..

والحقيقة أنّ استخدام بونابرت للنزعة العروبية، كان متناغما مع أفكاره الجمهورية التحررية من ناحية. ومن أخرى كان متناغما مع التوجه النهضوي الذي بدأ يكشف عن نفسه في بعض أنحاء العالم العربي. وسوف نعرف فيما بعد أنّ بونابرت، رغم هزيمته وهزيمة مشروعه، فإنه شارك في وضع ما سمّي بتاريخ العروبة على سكة الطريق. ورغم أنّ الزمن الشرقي آنذاك كان لا يزال للدين، إلا أن أحاسيس بونابرت كانت صادقة في توقعها لما سوف يصبح واقعا في العالم العربي، حين تصبح النزعة العروبية نزعة لا يمكن إخمادها بأي خطاب آخر.

*** *** ***

قبل المواجهة الثانية مع الغرب التي ستبدأ مع قرون الحداثة. كانت هناك المواجهة الأولى التي حدثت في القرون الوسطى، قبل النهضة الأوروبية (ولعلها كانت المحرك النفاث لتلك النهضة). إن مسيحي القرون الوسطى لم يقبلوا أبدا بتفوق المسلمين العرب. لقد فرض عليهم البعث العربي الإسلامي تحديا مزدوجا. من ناحية كان عليهم أن يتعلموا من الأقوى والأعظم. ومن ناحية أخرى كان عليهم أن يتقاتلوا معهم كعقيدة غريبة وربما انشقاقية. لقد وضع «دانتي» داخل جحيمه النبي «محمد» (صلعم) وعلي ابن طالب. الأول لأنه حمل انقساما جديدا للعالم. والثاني لأنه قسّم الاسلام إلى ثلاث طوائف (الشيعة- السنة والخوارج) ولكن «دانتي» وضع كذلك في منطقة (اللمبو) أي في مطهرة جحيمه، بعض علماء المسلمين مثل ابن سيناء وابن رشد لعلمهم ومزاياهم الكثيرة على الإنسانية جمعاء..

..وهكذا.. ففي خضم العصور الوسيطة، التي تميزت بانفجار الصراعات والمبادلات التجارية، انفتح الوعي الأوروبي/ المسيحي على الاضطرابات الدينية والتحولات

الجغراسياسية. وهنا تشكل ذلك الوعي على قوالب ونمطيات ذهنية مرضية غذتها الكنيسة بمواقفها التقليدية من الإسلام. أصبح الاسلام في نظر الغرب مزيجا متناقضا من التشوهات وكذلك من الاعتراف بتفوقه. ترسخت تلك الصورة خلال الحروب الصليبية، ثم بدأت الصفحات البيضاء تمتلئ بتوهمات مرضية ورثها أبناء أوروبا المعاصرة حتى أصبحت بمثابة أفكار مسبقة حول الإسلام لا تتغير إلا شكليا.. إن أدب أوروبا-القرون الوسطى وحتى مشارف القرن العشرين، لم يكن إلا سلسلة من الحكايات الشعبية الممزوجة بقصص الأبطال والحجاج إلى جانب جداليات لاهوتية غارقة في الانحياز. وهذا كله كان يكتب وينشر تحت وصاية الكنيسة، بحيث كانت الحقائق ناقصة ومشوهة.

فالإسلام لم يفزع الأوروبيين بتفوّق معارفه وثرواته واتساع أراضيه وبساطة عقديته، وإنما جعلهم بلا عقول حين هدّم عليهم البيت الذي تسكن فيه عقيدتهم.. فبينما تعتقد المسيحية أن إرسال الأنبياء، هو تمهيد الاهي لبلوغ ذروة التاريخ الكوني وصولا إلى عودة المسيح ونهاية الكون، فإن مجيء محمد كخاتم للأنبياء (لا نبي من بعده) بعد 6 قرون من المسيح، قد أغلق عليهم باب الأمل في عودة المسيح. ولفقدانهم الطمأنينة والشرعية، أصبح رجال الكنيسة يشيعون الأكاذيب حول النبي العربي. ففيما اعتبره البعض نبيا مزيفا، رآه البعض الآخر «شيطانا» أو «رجلا مرتدا» أو «ساحرا وثنيا»*[25]. (كل شيء يعاد بثه وإنتاجه حاليا: تشويهات للرسول والإسلام بإسم حرية الصحافة وتدخلات عسكرية بإسم حقوق الإنسان: عصران في عصر واحد)

إن تلك التشويهات التي شكلت جزءا كبيرا من الوعي الأوروباوي، قد انتقلت من مسيحي بيزنطة إلى مسيحي أوروبا. كانت المجادلات السورية أكثر اتساعا وموضوعية غير أنّ بيزنطة ثم أوروبا قد حرفتها وجعلت منها حقلا إيديولوجيا غاية في الإسفاف. رسم الإسلام على أنه ديانة منحلة أخلاقيا تتيح الدعارة وتسمح باللواط. وهو (أي الإسلام) لا يعدو أن يكون عقدة ناتجة، عن عقدة الإحباط والفشل الذي أصاب النبي في حياته، إذ قيل أنه حاول أن يجلس على كرسي البابوية ثم هرب عائدا إلى أرض الجزيرة العربية.. وبذلك استطاع أن يجلب إليه عامة المقاتلين وكل القوى القاسية والمنحلة!!*[26].

مقابل ذلك، كانت صورة المسيحية، هي صورة البراءة والتحدي والشفافية التي تصدت للإسلام العنيف والقاسي والمتجبّر. وحتى عندما تمت ترجمة القرآن إلى اللاتينية لأول مرة ظلت صورة الإسلام مشوهة. فالقديس «توما الأكويني» رغم اعترافه ببعض التفوق الفلسفي للعرب، إلا أنه ظل يحتفظ بقناعة ويقينية حول تفاهتها من

حيث المضمون اللاهوتي.. وفي كتابه - الردّ على الخوارج- (والعرب كانوا أمة من الخوارج على المسيحية بحسب توما الأكويني) وضع المسيحية السمحاء مقابل الإسلام العنيف مؤكدا «أنّ المسيحية انتشرت سلميا، بينما كان انتشار الإسلام بالإكراه.. وقد فرضه جهلة بدائيون على الآخرين. ثم أغووهم بالملذات الحسية.. وكذلك بقواعد وإحكام تتناسب مع قدرات العقل المتوسط غير القادر على النفاذ»[27]*.

لم تهدأ تلك الحمى المضادة للإسلام إلى حدود النصف الأول من القرن الخامس عشر. آنذاك أصبحت الحروب الصليبية مجرد ذكرى أليمة للطرفين. أو في أحسن تقدير «امتحان رباني قاس لكل أتباعه في الدنيا»، ولكن بعد أن ظهر الأتراك المسلمون على حدود أوروبا ثم في وسطها، عادت إشكالية الإسلام لتهيمن على عقول الأوروبيين من جديد. ولكن باتجاه آخر إذ باتت الدعوة إلى التصالح واضحة في كتابات ورسائل الفلاسفة والدبلوماسيين على حد سواء. ومع أنّ الأوروبيين قد ارتعدوا أمام الزحف العثماني الإسلامي، إلا أنهم أصبحوا على قناعة بأنّ الحرب لا تحل أي خلاف وأن لا المسيحية ستنجح في تحويل المسلمين إلى المسيحية، ولا الإسلام سيكسب كثيرا لو أنه حشد كل قواه من أجل إدخال المسيحيين في الإسلام.

اعترف الجانبان بالفوارق والاختلافات، وبات البحث عن الأشياء المشتركة جادا.. وإذ شرع البعض في وضع أسس راسخة للحوار، شرع البعض الآخر في الاستعداد لمغامرة جديدة..

*** *** ***

حين انهمك الأوروبيون في صراعاتهم الدامية من أجل صناعة الجغرافيا الحديثة للعالم، كان العرب قد بدأوا يخرجون (ينسحبون) شيئا فشيئا من مسرح صناعة التاريخ.. فقد تقاسم العثمانيون والاسبان في البداية ذلك المسرح الكبير الممتد من عمان إلى طنجة. ثم جاء البرتغاليون فالهولنديون، ثم الفرنسيون والأنكليز. أصبح العرب مغيبين تماما كلاعبين إذ استولى الأتراك على دينهم ثم تقاسموا مع الأوروبيين أرضهم ومخارج ومداخل بحارهم وطرق تجارتهم التقليدية والبحرية.

كان ذلك بمثابة انقلاب ضخم في العلاقات التجارية في العالم. وسوف لن يعي العرب ذلك الانقلاب إلا حين يصبحوا مجرد أيتام على عتبات الباب العالي، الأمر الذي سيدفعهم مرة إلى الانتفاضة (الاستقلال) وأخرى إلى الانتكاسة (الاستقالة). وهذا الانقلاب التجاري قد جعل العرب مضطرين إلى تغيير محور حركتهم. فقد استداروا جميعا نحو اسطنبول، حتى باتت هضبة الأناضول بديلا سياسيا وروحيا

للشام أو العراق أو مصر أو الحجاز. بعد ذلك جاء الانقلاب الميكانيكي الذي سيطلق عنان أوروبا إلى خارج المدار العربي الإسلامي- العثماني.. ويعطيها تفوقا حاسما بعد أن يترك مسرح التجارة القديم (المتوسط وضواحيه) خلف سفنه وأشرعته المنطلقة باتجاه العالم الجديد. ولا شك أنّ تراكم التجارة والميكانيك والبشر، سيؤدي إلى انقلاب صناعي ساحق لكل آمال ذلك المسرح الكبير والتقليدي من أجل أن يعود إلى لعب دوره المتناسب مع إمكانيته وتاريخه. وبطبيعة الحال، حين يفرض سباق غير متكافئ على أمة معطلة ومحكومة بقوانين غريبة واستبدادية، فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى حركات انتفاضية بائسة أو يائسة أو غير واعدة أو ناقصة ومشوهة.

وفي الحقيقة أن رغبة الاستيلاء على العالم العربي، لم تكن إلا رغبة قديمة ومتكررة. ففي العصور القديمة تقاسم الفرس والإغريق بلاد العرب ثم كان الاستيلاء الروماني. بعد ذلك، كانت الحروب الصليبية في القرون الوسطى والتي تراقصت مع هجمات المغول القادمة من آسيا الرعوية البعيدة. ولم يكن الاستحواذ الأوروبي منذ فجر القرن الخامس عشر إلا جولة أخرى من تلك العلاقات المريرة والعاصفة التي ستزداد ربما غطرسة مع القرن التاسع عشر وسيادة استعمار المحركات البخارية، وصولا إلى استعمار المحركات النفاثة.

لم يكن العالم العربي مجهولا بالنسبة لجيرانه الأوروبيين والأتراك. فأوروبا قد عرفته منذ روما الإمبراطورية ثم جربته في القتال كما في التجارة في العصور الوسطى، وبعد أن سطع الإسلام في العالم بقوته وانتشاره. أما الأتراك فقد كانوا على خط تماس معه حتى تبنوا دينه وجعلوا منه تغطية لانتشارهم وتوسعهم.

وسيحتفظ العالم العربي ولعهود طويلة بموقع القوة العظمى المنافسة لأي قوة أخرى في المتوسط. فالفينيقيون، أجداد العرب، كانوا يشكلون القوة الرادعة للإمبراطورية الرومانية قبل أن تسقط عاصمتهم الجديدة ذات السطوع القوي : قرطاج، كما إن انتشار الإسلام بقيادة العرب من العهد الأموي حتى العهد الفاطمي والأيوبي (في مصر والشام) قد جعلهم ندا قويا أمام أوروبا القرون الوسطى. ولقد كانت دروس الصليبيات واضحة جدا للجانبين. أوروبا لا زالت غير مهيأة للاستيلاء على العالم العربي/الإسلامي. والقوة العربية الإسلامية لا زالت قادرة على الاحتفاظ بدورها الكبير. وأن كلا من أوروبا والعالم العربي هما المنطقتان الوحيدتان اللتان استمرتا في إنتاج الحضارة منذ العهود القديمة وحتى العصور الحديثة، حتى أن كلاّ منهما كان لا يزال يعتقد بوعي وبلا وعي أن السيادة الكاملة لأي طرف منهما كانت في حكم المستحيل لشعور كل منهما بالتفوق والقدرة على منازلة الآخر حتى سحقه.

إن موقع العالم العربي هو الذي شكل سياقات تاريخه العنيف والمزدوج الحركة والسرعة والقيم. فهو تاريخ غير هادئ، مهتز، هائج وعاصف ثم هو متنور وطموح وشمولي وشبكي في نفس الوقت. فهو مساحة للحرب والتجارة معا ومنتج للتسامح والتعصب ثم للوحدة والتمزق، وكذلك للتحرر والاستبداد. إن خروج الديانات الثلاث التوحيدية من أرض العرب هو في حد ذاته إنتاج للانقسام والتعصب، وفي نفس الوقت لقاء للتسامح والتجدد والإختلاف والتجاوز، وهذا ما وضع أعباء كبيرة على عاتق العرب والمسلمين فيما بعد. فهم باستمرار ينظرون على أن موقعهم الاستراتيجي عقدة الطرق والمواصلات ونقطة التقاء القوى والأجناس، وحوض التمازج العرقي والثقافي وموطن الصدامات والتلاقحات. وبهذا كله، فقد كان ذلك الموقع «مطمعا أبديا» منذ الفرس فالرومان، فالأتراك فالأوروبيون القدماء والجدد.. (الأمريكان).

وحين يقال إنّ الوطن العربي ليس إلا طريق مواصلات أو عقدة طرقات، فإن ذلك ما يعطيه أهمية إستراتيجية نادرة. فهو قلب العالم القديم الذي يقع بين ثلاث قارات وعقل العالم القديم المنتج لثلاث ديانات ومسرح العالم القديم الذي يفتح على ثلاثة بحار: من المتوسط إلى الهندي باتجاه الشرق والأطلسي باتجاه الغرب. وسواء في عهد تجارة القوافل البرية، أو في عهد تجارة المراكب البحرية. كان العالم العربي كوحدة جغرافية تتمتع بالسيطرة على الطرقات البرية والبحرية من آسيا حتى أوروبا مرورا بإفريقيا. إن تلك الممرات والمضايق الحجرية التي تحكم فيها الفينيقيون ثم العرب المسلمون من بعدهم، كمضيق جبل طارق وباب المندب وهرمز، هي التي جعلت تجارة العالم في قبضة العرب. فالتجارة بما أنها عصب القوة والهيمنة والاطلاع والاختلاط قد جعلت من الوطن العربي أرضا خصبة لإنتاج الحضارة وإنتاج صداماتها وتناقضاتها. يضاف إلى تلك التقاطعات في طرق التجارة والملاحة، تقاطعات مناخية أخرى مدارية إلى صحراوية إلى معتدلة، الأمر الذي وفر ومنذ القديم اكتفاء ذاتيا في المحاصيل الزراعية الغذائية من الحيوانات والحبوب إلى الزيتون فالتمور فالغلال.

ولا شك أنّ موقعا بهذه الصفات، كان موقع طرد وجذب. فهو يدفع بالتجار إلى الخارج، أي إلى المحيط الآسيوي والإفريقي، فيما هو يجذب البضائع مع الأفكار والتجار مع القراصنة والغزاة حتى بات أرضا لحروب لا تنتهي تتخللها فترات من الازدهار والاستقرار لا تختفي. وسوف يتكرر ذلك المشهد المزدوج عدة مرات عبر حقبة طويلة ومتنوعة منذ عصر القوافل والتوابل إلى عصر المراجيل والبراميل.

لقد كانت دائما التحولات بطيئة في العالم العربي رغم التقاطع الكبير مع العوالم الأخرى. أما استيعاب التحولات الطارئة من حوله، فقد كان أكثر بطئا. وهذا البطء

ازداد منذ أن أصبح الإسلام كقوة روحية ومعايير ثقافية مهيمنة على العرب. فقد كفّ عن التجديد منذ أن تحوّل إلى عقيدة صدامية في الخارج وجامدة في الداخل. إن الاكتفاء المشبع بتلك العقيدة سوف لن يجعل العرب يشعرون بأية حاجة للتجديد. ولربّما تلك العقيدة التي حققت للعرب في البداية تفوقا في المداخيل والغنائم والانتصارات، هي التي ستلعب ضدهم منذ أن تصبح بأيدي غيرهم من الشعوب الأخرى. وإذ يعتقد «الجابري» أن ثالوث القبيلة العاجزة عن التطور إلى مجتمع مدني والغنيمة التي أعطتهم الراحة والكسل والعقيدة التي جمدتهم في مواقع الإيمان دون أن تنتقل إلى حيز العقل والتفكير، هو الذي رمى بالعرب إلى الخلف. فإن العنصر الحاسم في كل ذلك التراجع التاريخي والمزمن، ربما كان هو انشقاق توأم القبيلة والعقيدة، أي توأم العرب والإسلام. فمنذ البداية، كان الإسلام هو دين العرب وديوانهم الثقافي والمعرفي، فيما كان العرب حماة الإسلام ومحضنته الدافئة. ومنذ أن توسعت القبيلة وفتحت أبوابها لقبائل أخرى وشعوب أخرى، حتى خرج الإسلام عن سلطة العرب فتخلى العرب تدريجيا عن - إسلامهم- الأمر الذي أحدث انشقاقا في نواة التوأم. إن توسع القبيلة واختراقها وربما انفتاحها على عوالم الفتوحات والتجارة والمدن البعيدة والغريبة والثقافات والأجناس المختلطة ربما هو الذي أضعف العقيدة وضاعف من الغنيمة في مرحلة أولى ثم أضعف القبيلة والعقيدة وكذلك الغنيمة في مرحلة ثانية إلى حد بات فيه العرب مهمشين كقادة وحتى كمفكرين وتجار.

*** *** ***

وسوف تتعارض دعوة السلطان عبد الحميد للإبقاء على الرابطة الإسلامية مع تلك الدعوات التي انطلقت من داخل البلاد العربية الإسلامية التي تسعى إلى تطهير الإسلام والتخلص من الدولة العثمانية ومن كلّ أشكال الوصاية الشرقية والغربية. تلك الدعوات التي كان ينظر إليها على أنها- حركة- شبيهة بحركة البروستانت التي رفعت لواء الإصلاح والانشقاق عن الكاتوليكية البابوية. وإذ تصعب المقارنة بين ما حصل في البلاد الإسلامية خلال القرن 19 وبين ما حصل في أوروبا خلال القرن 16، فإن ما كان مشتركا بين الحركتين الاحتجاجيتين! هو أن كليهما قد فتح باب الانشقاق عن الدولة الدينية المركزية. كما أنّ كليهما كان نتيجة نزعة خلاصية وطهورية تطورت عبر عذابات طويلة تلقاها الرعايا لحقب طويلة باسم هيمنة الدولة والدين (الدولة الدينية).

لكن المفارقة التي ستصاحب الحركات الدينية الاحتجاجية في العالم الإسلامي أنها ستظل تتمسك بالدولة الدينية وبقيمة إصلاح الخلافة الإسلامية. والسبب كما حاول أن يفسره أحد أنصار الأفغاني (مالكوم خان الفارسي*28) أن الأجناس الشرقية لن

تقدر على أن تتمثل الحضارة دون الدين. «فدون العون الديني؛ لا يمكن للشرق إحراز تقدم أو انجاز مشروع إن كان تجاريا أو سياسيا. ولذلك فإن جميع الحركات الإسلامية التصوفية والاحتجاجية والإصلاحية أو حتى الأصولية؛ كانت ترى في الدين المبدأ الأساسي لأي تقدم. والعماد الأساسي لأي نوع من الإصلاح». وهكذا وبينما رفعت البروتستانية مبدأ حرية الفرد؛ فإن ما يسمى بالبروتستانية الإسلامية حسب تعبير المستشرق «رينان»*[29] قد قامت بالأساس على مبدأ حرية المجتمع الإسلامي، حتى أن الأولى قد صاغت ما يمكن أن يعرف بالصياغة الأولى للمجتمع المدني؛ فيما عملت الثانية على صياغة المجتمع الديني. ففيما الأولى ركزت على فصل الدين عن الدولة؛ ركزت الثانية على إعادة ربط الدولة بالدين؛

هنا يمكن أن نلاحظ المفارقة الأخرى التي تحكمت في ولادة الحركتين الاحتجاجين. لقد ترافق البروتسانت في أوروبا مع عصر الطباعة والاكتشافات الكبرى؛ مثل اكتشاف أمريكا والتمسك بسيادة العقل. أما البروتستانية الإسلامية فقد ولدت من تخلف العقل وتقدم العقيدة عن التفكير والخوف من الغرب المتحضر؛ وانكفاء الحضارة الإسلامية. ومهما يكن من أمر الجدال الذي أثير آنذاك؛ فإن الدولة المركزية : «الاستانة» قد اتهمت الحركات الإسلامية الإصلاحية بأنها انحراف «مسيحي عن الإسلام»؛ تماما كما اتهمت البابوية فيما مضى الإصلاح البروتستاني بأنه «انحراف إسلامي» عن المسيحية*[30].

وسيرد المستشرقون البروتستانت الاعتبار للإسلام منذ القرن الـ 18. فقد رأوا فيه تأسيسا لمجتمع جديد وتشريع جديد حتى أنّ المفكر «روسو» قد اتخذ «محمد» مثالا للمشرّع والباعث لمجتمع جديد خارج عن الوثنية والتحنط الديني الذي أصاب الشرق آنذاك. أما عندما قدم «بونابرت» إلى الشرق لم يدخر جهدا في التنويه بالإسلام وحضارته.

فقد تفاعلت تلك الرؤى فأنتجت نخبا متقاربة ومصاغة في قوالب متشابهة. وهذا ما سوف يعيد إنتاج ظاهرة رد الاعتبار للآخر. أن تشبع النخبة بمفاهيم الليبرالية الغربية ورغبتهم العارمة في الإصلاح والتقليد للآخر المتقدم الحاضن للحضارة الجديدة هو الذي سيجعل- مارتن لوثر- بمثابة نبي المسيحية الجديدة الخالية من التعصب والحاضنة للتحرر. وهي النظرة التي استعارها المصلحون الإسلاميون (الأفغاني وعبده) من مفكري الغرب التنويريين؛ على أنّ الأفغاني وتلميذه محمد عبده ومن بعده آخرون في بلاد الشام وتونس سيتمسكون بسبق الفعل الديني على المجال المدني؛ أي بعبارة أخرى: «يجب إصلاح الدين لإصلاح المجتمع»*[31]. وحتى لو أنّ هناك من اتهم الأفغاني بالتقية حين قبل أن يساير تلك الرؤى حتى يكسب أنصارا لصفه

في الغرب! إلا أن الثابت هو أنّ الأفغاني كان فعلا يؤمن بإصلاح الدين كعماد لإصلاح المجتمع ذلك أنّ الدين إذا ما انحدر إلى الأسفل وأصبح مجالا للخرافات والشعوذة انحدر مستوى المجتمع!.

ولا شك أنّ الإسلام كان يواجه تحديا مزدوجا: من الدولة المتخلفة ومجتمعاتها المتخلفة! ومن النزعات التي تعتقد خطأ أنّ مراجعة الدين يمكن أن تكون هي الحل لكل هذا التخلف. ذلك أن التحدي قد جعله في نظر البعض وكأنه – تراث ميت- لكن البعض الآخر رآه تراثا محرضا على التحرر من الكفار والطغاة!

ولذلك فإن النزعات التحررية من داخل الإسلام، قد استحوذت على الكثير من النخب (ولازالت) ثم مدت نفوذها إلى المفكرين الليبراليين!. وفيما كانت الدولة العثمانية تحاول الالتحام بما تبقى من روابط إسلامية في البلاد العربية وهي تنزع إلى كسب نخب الإصلاحيين ورجال الطرق الصوفية! فإن الاستعمار الفرنسي في تونس والجزائر والاستعمار البريطاني في مصر كان يمارس نوعا من الازدواجية ضد «الرابطة الإسلامية». فهو يبدي احتراما صوريا للمؤسسات الأهلية بينما هو يقوم بعملية تكسير ناعم لتلك الروابط بين المسلمين ومؤسساتهم ثم بين المسلمين وبقية العالم الإسلامي.

إن تلك السياسة اللعينة هي التي طبقها الحاكم العام البريطاني في مصر والمقيم العام الفرنسي في تونس في القرنين الماضيين وهي نفسها السياسة التي حاول أن يطبقها «بول بريمر» في العراق بعد غزوه في العام 2003.

*** *** ***

لقد تعرض العرب لخداع الغرب مرارا وتكرارا. اتضح ذلك منذ حملة بونابرت التنويرية ثم ازداد وضوحا مع الثورة العربية الكبرى وطفح الكيل مع اتفاقية «سايكس/ بيكو» ثم وعد بلفور.. واستمر ذلك حتى جاءت «الخدعة الأفغانية».. ومعها «الخدعة العراقية»، ثم «الحداثة الديمقراطية» أو ما عرف بـ«الربيع العربي».

إن بن لادن في حقيقة أمره ليس إلا ضحية خداع قام به الغرب (الأمريكان). مثله مثل صدام حسين. الأول: أرسل لتجنيد المجاهدين لمحاربة الإلحاد الشيوعي في أفغانستان. والثاني: دفع إلى الحرب ضد إيران الإسلامية. وتحت تأثير العاصفة الدينية أو تحت الخوف من انتشار الإلحاد إلى مياه النفط الساخنة، استخدم الأمريكان أهم دولتين عربيتين هما العراق والسعودية في حربين لا ناقة لهما فيها ولا جمل. وحين انتهت حرب أفغانستان وجد بن لادن أن أرض أجداده وإسلامه المقدسة قد

أصبحت مدنسة. أما حين انتهت الحرب مع إيران، فقد وجد صدام حسين نفسه غارقا في الديون ثم في الحصار. وإذا كنّا نرى في هذه اللحظة كيف أنّ الارتداد السلبي للديالكتيك، حسب الفلاسفة قد أصبح يمشي على رجليه في بلاد الشرق، فإنّ كل من صدام وبن لادن حتى وإن لم يتحالفا أو يتعارفا أو يتعاونا، قد إلتقيا في فرن الجمر نفسه.

وحين يبلغ الخداع مداه، أي حين يتعرض المرء الكريم، الرجل الشرقي أو البدوي النبيل، للخداع الملون من الأصدقاء، يصبح أكثر عرضة أمّا للنزعة العدوانية أو النزعة العدمية!.. فالعدو هنا هو أمريكا، صديقة الأمس، أي أمريكا البراغماتية والغشاشة والمتجبرة.. لم تعد أمريكا في نظر حلفائها القدامى قوة نابضة بالحياة والحداثة، وإنما هي مرآة خادعة وعاكسة لكل الآلام والفوضى والحزن. وهكذا فإن تدمير مانهاتن، قد لا يعيد العرب والمسلمين إلى البهجة، وإنما هو يعيد الجميع (عرب وغرب) إلى الحزن الكبير، أي إلى المأتم.. !

وإذن ستردّ أمريكا المتجبرة بما هو أعظم وأكثر فتكا. فتدمير بغداد هو تدمير الرمز (تماما مثل تدمير نيويورك /الرمز). وبما أنّ بن لادن هنا هو: «عربي ومسلم»، يصبح صديقا ولو بالقوة، لصدام حسين «العربي والمسلم»، ثم يصبح العالم العربي والإسلامي مسرحا للانتقام والآلام أو كونا من العدمية. وبعد حين يصبح هذا الكون غير جدير بالحياة أو بالحضارة الإنسانية إلا إذا غير من سلوكه وثقافته ولغته ومناهجه وبرامجه. فحسب الأمريكان (المحافظون الجدد) لم ينتج العرب المسلمون خلال القرن العشرين شيئا للحضارة الحديثة ولم يشيعوا في العالم إلا ثقافة الإرهاب (حكاما ومحكومين). وهذا ليس بسبب- الاستعمار- كما يشاع أو بسبب الفقر، كما يقال مرارا وتكرارا، ولكن بسبب شعور دفين بالتفوق ناتج عن ثقافة قديمة معجونة بالسلب والاستبداد والاستحواذ. فالإسلام (حسب المحافظين الجدد دائما) لم يتعرض للإهمال أو التدنيس أو التحقير، وإنما هو الذي انتشر في العالم عبر العنف والاحتجاج. هذه النظرة ليست إلا عودة إلى أدبيات القرون الوسطى. فمنذ أزمنة طويلة اعتاد الغرب المتجبر أن ينتقي من الكون الإسلامي فترة قرطبة كأطروحة للتسامح والمعرفة. وفيما عدا ذلك فإنّ الإسلام مثله مثل اليهودية (في عين المسيحيين) كانا منشطا لقوى الظلام والاستيلاء والانغلاق. بعد قرون من تعذيب اليهود وتأديبهم وتطهيرهم من الذنوب، تم إلحاق اليهودية بالمسيحية الغفورة، فوقع تعبيدها، ليظل الإسلام لوحده عالما لا يسكنه إلا الشياطين أو البرابرة، يحتاج إلى التدجين والتطهير. فقبل قرطبة كانت اليهودية تسكن إلى جانب الإسلام في أمان.

وبعد قرطبة، أو بالأحرى بعد غرناطة وبدء عصر الحداثة، انتقلت اليهودية إلى جوار المسيحية كضد للعالم الإسلامي المتخلف. ومع أنه لا يوجد إلا عربي واحد في كل سبعة مسلمين في العالم، إلا أن الإسلام ظل مرتبطا في الذاكرة اليهو- مسيحية على أنه دين العرب وثقافتهم ومناهجهم ووعيهم الشعبي والتاريخي!.

إن الدعوات الكاذبة التي تصدر هنا وهناك من عدم الخلط حين ننظر إلى العرب والمسلمين، إنما تعني بالأساس إلى خلط جديد. ولكن خلطا جيدا (بالنسبة للغرب): إذ يجب أن يضحي بالحريات من أجل الأمن. وبالسيادات من أجل الديمقراطية!. فحين يقول الإمبراطور «بوش» أن الله معنا في حربنا ضد البرابرة، فهو لا يضع نفسه في نفس المرتبة مع عدوه - بن لادن- الذي يعتقد «أن الله معه في حربه ضد الشيطان الملحد»، فقط، بل هو يغلق الباب أمام الشعوب لكي تصلح من نفسها بنفسها بأساليب بعيدة عن العنف. وحين يقول الإمبراطور بوش أنه ذاهب إلى حرب صليبية (زلة لسان! ربما) فهو يضع نفسه في نفس المكان مع أباطرة وملوك أوروبا القديمة!. ولا شك أنّ الإمبراطور يعرف جيدا أنّ القدس هي التي كانت ولا تزال سبب تلك الحروب القديمة والجديدة، بينما هو لا يفعل شيئا من أجل ألا يعود العالم يتكلم لغة البابوات والأيمة والأمراء!..

أكثر من ذلك، فالإمبراطور بوش قال أيضا: «أن هؤلاء الذين فعلوا هذا بأمريكا، إنما هم يكرهوننا»، ولكنه لم يتساءل أبدا ما إذا كانت هذه الكراهية نتيجة رد فعل كراهية أخرى هي بالأساس صناعة غربية صليبية منذ القرون الوسطى؟.

أو ليس الغرب هو الذي صنع العنصرية ووصم كل من يقع خارج فضاء الإمبراطورية أو كل من يقاوم بطشها بالبرابرة..

*** *** ***

هاهو الإسلام العربي الذي عاش في ديار الغربة لدى بني عثمان (تركيا) يبدا في التحرر للعودة لمسكنه الأول ومدار توأمه، ولكنه ربما لم يكن يعرف أولئك الذين يقودونه، أنه سيصبح هذه المرة أسيرا في وطنه (مع الوطن نفسه لدى غرباء آخرين في اللغة والدين وهم غزاة جدد وقدماء). فكر البعض أن تمدين الشرق لا يمكن أن يتم إلا من خلال المسيحيين، لكنه اصطدام بأولئك الذين رأوا في مشروع المسحنة، عودة أخرى إلى الحروب الصليبية وبالتالي تخريبا لمشروع التنوير الأوروباني ومشروع الحداثة برمته! وأمام التعقيدات والنقاشات أهمل الفرنسيون مؤقتا «المسألة الشرقية» واتجهوا فقط إلى - المسألة اللبنانية -. وكان ذلك بمثابة المدخل الموضوعي لحقبة

جديدة في الشرق الأوسط كانت قد بدأت باحتلال الجزائر عام 1830. لقد بدأ القضم الأوروبي للبلاد العربية التي هي ولايات عثمانية من عدة جبهات. ومعه بدأ الهجوم الروسي لحماية الأرتودكس ومساعدة شعوب البلقان على التحرر. كان لمساعدة بريطانيا وفرنسا ضد القيصر الروسي ثمن كبير. وهو ما سوف يظهر في مؤتمر باريس عام 1856 واضحا. سيتنازل الباب العالي لأوروبا وروسيا من أجل أن تصبح هذه الدول حامية للأقليات غير المسلمة. وسيبرز ذلك من خلال ما عرف بـ «الخط الهمايوني»*[32]. وينص ذلك على حماية جميع الطوائف فيما عدا اليهود، من قبل دولهم.. وهذا ما يمكن تعريفه ببدء حقبة حقوق الإنسان وحقوق الأقليات في عالم الشرق. وهكذا، فإن «الخط الهمايوني» قد أعطى دفعا للأقليات إذ أصبح لهم حماة أقوياء. ولم تمض أربع سنوات عن مؤتمر باريس، حتى عاد دخان الانفجارات الطائفية يخيم على لبنان وسوريا.

ولما كان الموارنة أكثر نشاطا من غيرهم في التجارة والهجرة والأعمال الاستثمارية، فقد استطاعوا تجديد هياكلهم التربوية والثقافية وربط مصيرهم بالإرساليات التي طورت من نظرة الكنيسة التي أصبحت - بؤرة للثورة- ضد الأعيان التقليديين الذين يثقلون كاهل الفلاحين بالضرائب.

ومن ناحية الدروز، فقد رأوا في مجمل تلك التطورات خطرا على كيانهم الذي اتسم بالانغلاق من جهة وبالإفقار من جهة أخرى. وعموما، فإن سوريا كلها كانت هي المكان الأكثر تضررا مما عرف بـ «الخط الهمايوني». بل هناك من نظر إليه على أنه عدوان على الإسلام داخل دياره.

وسوف يزداد ذلك الشعور اتقادا، فتنشب في البداية تمردات وانتفاضات محدودة في نابلس وحلب ويافا، ثم يتجمع الغضب فينفجر في شكل حرب طائفية في لبنان في العام 1860. وإذ ينتشر اعتقاد بأنّ هناك مؤامرة مسيحية أوروبية، فإنّ المواجهة ستصبح دموية إلى حد رأى فيها الأمير عبد القادر الجزائري الذي انتقل مع حاشية كبيرة إلى دمشق آنذاك، عارا على الإسلام، الأمر الذي دفعه للعب دور كبير في تهدئتها حفاظا على صورة الإسلام ونصحا لصديقه «نابليون الثالث» أو لعله كان محاولة إحياء لمجده السياسي.

وسواء كان الأمير الجزائري خادما لمصالح فرنسا أو تواقا للعودة إلى المسرح السياسي، فإنّ صدقه في مسح العار عن الإسلام وعداوته للعثمانيين لا يمكن أن يشك فيها. فحين قررت فرنسا التدخل لصالح الموارنة الكاثوليك خوفا من التجاء هؤلاء إلى ايطاليا المنافسة، كان عليها أن تستعين بنصيحة الأمير الجزائري الذي

كان قد أصبح بطلا أسطوريا في بلاد الشام قبل أن يقطنها، وذلك بفضل تضحياته وقتاله ضد الفرنسيين في بلاد الجزائر. وهكذا ما إن انسحبت فرنسا من لبنان، حتى راجت فكرة «إنشاء إمبراطورية عربية»*33، غير أنّ تلك الفكرة القديمة (التي تعود إلى بونابرت الأول) ذات الأبعاد العميقة، قد خرجت في زمن التقاتل الطائفي، فكان مصيرها الدهشة والذهول، أكثر مما كان الترحيب والحبور.

وتتبع صعوبة إنشاء تلك الإمبراطورية العربية من مواقف الدول الكبرى الأخرى. فتركيا لا تزال ترفع لواء الإسلام وتعتبر ولايتها في برّ الشام لقربها الجغرافي، أهم ولايات الدولة العثمانية، ذلك إذا ما انفصلت عنها ولايات الشام، فإنها ستظهر كهلال بلا نجوم، منفصلة عن محيطها وعمقها.

وبريطانيا كانت تسابق الريح لكي لا تتمكن بواخر فرنسا من بسط حمايتها على بلاد الشام، فتدفع بها خارج البحر المتوسط. خاصة وأنّ مشروع حفر قناة السويس قد كشف عن الرغبات الفرنسية. أما روسيا فإنها باتت تنتظر ما سيؤول إليه الوضع العام بعد حروب القرم (البحر الأسود).

عاد الأمير عبد القادر زعيم الجهاد الجزائري إلى المسرح، ولكن عودته ستطرح في تلك الساحة المشوشة والمتوثبة، الأسئلة المثيرة للانزعاج. إن علاقته الممتازة بنابليون الثالث ووضعية «رعاياه» الجزائريين الذين تحصلوا على امتيازات الرعايا الفرنسيين في بلاد الشام ثم عداوته المتأصلة للعثمانيين.. كل ذلك سيجعله غير مرغوب فيه بل ومكروها من الباب العالي الذي كان يخشى من التمدد المسيحي ثم كان يخشى كذلك من التدخل الأجنبي أو اليقضة العربية، إلى ذلك فقد يخشى الفتن التي ستأكل الأخضر واليابس في بلاد الشام. ولذلك فقد إستعد جيدا لحفظ النظام بالاعتماد على رجاله إذا ما تراخت قبضة الوالي أحمد باشا العثماني. ولأنه لا يتمتع بقاعدة شعبية أو طائفية، ولأنّ صداقته مع فرنسا قد جعلته عديم الشعبية لدى أغلب المسلمين، فقد اختار الأمير عبد القادر الهروب من أية مسؤوليات أو مقترحات، ورأى أن وجوده في سوريا إنما هو وجود لاجئ سياسي، ليس من حقه العمل في المجال السياسي*34.

مات مشروع الإمبراطورية العربية قبل أن يولد. فقد عملت تركيا على دفن الفكرة تحت التراب. ولتنفيذ ذلك أرسلت الضابط فؤاد باشا لينزل عقابا شنيعا بالأعيان والزعامات. وهكذا، فإنّ أحداث عام 1860 كانت للباب العالي فرصة جيدة لاستعادة السيطرة على سوريا. وإذ تعرّض أنصار الثورة للعقاب، فإنّ خصوم الإصلاحات العثمانية لن يفلتوا هم أيضا من التعذيب. ومع خمود الاضطرابات، ستبدأ أحوال الاقتصاد في التحسن فتبدأ إعادة دمج المنطقة من جديد، ثم تبدأ الإصلاحات في

الكشف عن نفسها، وهو ما سوف يستفيد منه حتى المسيحيون الذين قد بدأوا يندمجون في الدورة الاقتصادية الجديدة.

بعد أن ماتت فكرة الإمبراطورية العربية، ولدت فكرة «سوريا الكبرى». وهو مشروع لاقى صدى كبيرا داخل الرأي العام بعد أن وجد تفاهما بين لندن وباريس. ويمكن أن تكون فرنسا قد اقترحت رئاسة هذا المشروع على الأمير عبد القادر، غير أنّ بريطانيا قد حسمت اختيارها بفؤاد باشا*[35]، بيد أن كليهما كان يناور من أجل كسب الوقت وكذلك من أجل تدعيم نفوذه.

وهذا ما سوف يتضح حين يطرح لاحقا فكرة إنشاء ولاية الجبل اللبناني، كولاية تتمتع بالحكم الذاتي. إنّ سوريا كبرى وموحدة، ليست أكثر من نواة لدولة قطرية شبيهة بدولة مصر الخديوية أو تونس الحسينية أو ليبيا القرمنلية أو حتى المغرب العلوي أو ببعض دول البلقان التابعة للباب العالي.

تبنى الأنكليز ذلك الحلّ (سوريا كبرى. مسلمة ومستقلة) فدلّلوا مرة أخرى على أنهم يتركون المبادئ جانبا حين تتقاطع مع المصالح. ولأنهم كانوا يعارضون النفوذ الفرنسي المسيحي، فقد تبنوا مشروع سوريا المسلمة الكبرى حتى وإن تعارض ذلك مع مبدأ الدفاع عن وحدة الإمبراطورية العثمانية.

ومع أنّ الأحداث ستشق طريقها مرغمة الكثير من اللاعبين على الاندماج، إلا أنّ تلك الأزمة لعام 1860-1861 قد وضعت أمام جميع اللاعبين الدوليين أو المحليين ثلاثة سيناريوهات هي «سوريا المسلمة والموحدة» و«الإمبراطورية العربية» ثم «الدولة الفيدرالية المتعددة الطوائف»..

سيعود مشروع الإمبراطورية العربية بقوة يضرب على أبواب دمشق وبأيد فرنسية. ومرة أخرى سيعود اسم الأمير عبد القادر كمرشح لرئاسة تلك الحكومة في سوريا، غير أنّ الأمير يهرب مرة ثانية من «التورط» في أي مشروع غير قابل للتحقيق. فيذهب إلى مكة للاعتكاف قليلا. وفي طريق عودته يتوقف بمصر فيتعرف على «الكونت فردينالند دي ليسبس». وهذا الرجل الطموح الذي يخدم في صلب الدولة الفرنسية، سيملؤه بالحماس من أجل تكوين إمارة عربية في المشرق ثم يقترح عليه قطعة في سيناء قرب المكان الذي يجري فيه حفر قناة السويس...وهذا ما سوف يزعج بريطانيا ومعها الباب العالي وكذلك حكام مصر، الأمر الذي سيجعل من فكرة «إمارة سيناء*[36]» مجرد نكتة سياسية أيضا!.

اتجهت تلك الفكرة نحو الموت مرة أخرى. وهذه المرة جاءها الموت من الداخل. فالفكرة في أصلها استشراقية موروثة من عهد الملكية احتاجها نابليون الأول لوقت،

لخدمة أهدافه ثم التخلي عنها. وعندما عاد إليها نابليون الثالث. فإنه لم يجد لا الطريقة ولا الوسيلة لكي يجعلها تسير على قدميها إلى الأمام.

إن مستوى التعليم بفضل الإرساليات والإصلاحات الجديدة، قد أصبح في سوريا ولبنان أفضل بكثير من مستوى التعليم في أقاليم الأناضول. وحسب الإحصائيات الأكثر صدقية التي أجريت في العام 1900، فبينما كانت نسبة التعليم في تركيا ما بين 5 و10 في المائة، كانت نسبة المتعلمين في سوريا 25 في المائة وفي لبنان 50 في المائة. ويضاف إلى ذلك التحرر من السلّم الوظيفي القديم والاندماج في الاقتصاد العالمي عن طريق مدن ساحلية نشطة مثل بيروت وصيدا وطرطوس واللاذقية، ثم العودة إلى تنشيط الذاكرة الثقافية عن طريق إصدارات الكتب والمجلات والقواميس وتطوير اللغة العربية بإخراجها عن أنماط البلاغة القديمة. كل ذلك كان يتفاعل داخل إغراءات فكرة التنوير الأوروبية، ولكن بروح عربية حتى راحت تستفز الروح الإسلامية التي أصبحت تواجه الذبول من شدة التواطؤ عليها.

وإذ تستحوذ أفكار النزعة العروبية على معظم نخب بلاد الشام، فإنّ أصحاب النزعة الإسلامية سيتحركون هم أيضا بقوة، خاصة وأنهم باتوا يعتقدون أنّ التدخلات الأوروبية إنما تهدف إلى مسحنة العالم الإسلامي. إن نزعة الوحدة تحت الراية الإسلامية الواحدة سواء في بلاد الشام أو في مصر أو حتى في بلدان المغرب العربي ربما كان خيارا، غير أنّ ما كان قد فرض نفسه كخيار على معظم هذه الولايات، قد بات تحت «الخيار الأوروبي» بلا مقاومة تذكر. وهي تواجه مصيرها الذي بدأت معالمه ترتسم في أفق خارطة التقسيم الجديد للاستعمار الأوروبي.

*** *** ***

وسيظهر رجال آخرون قادرون على طرح الأسئلة وإعطاء حلول لتلك الأزمة، أزمة الأمة الإسلامية..غير أنهم سيظلون ملتبسين في توجهاتهم وفيما شكلوه من ارهاصات لنهضة جديدة تقوم على الإصلاح الديني من جهة ومحاربة الاستبداد في شقيه العثماني والأوروبي. فمحمد عبده المصري وجمال الدين الأفغاني القادم من إيران سيحفران عميقا في تربة الإسلام، بحثا عن منهجية للإصلاح.

توجه هذان المصلحان إلى محاربة الاستبداد والجهل والطرق الصوفية وتنمية العقلانية بالعودة إلى العقلانية الكلاسيكية لعلماء الإسلام. وإذ انهمكا في طرح الأسئلة حول العلم وحول بدء انحدار المسلمين، فقد ظلا يعتقدان أنّ استعادة الإسلام الحقيقي إنما هي استعادة للقوة التي ستهزم جميع الاعتداءات الداخلية والخارجية.

ورغم تنديديهما بالاستبداد الداخلي، فإن محمد عبده والأفغاني لا يترددان في الانخراط في ألاعيب السياسة والانتماء إلى تنظيمات مشبوهة (يقال إنّ الأفغاني كان ماسونيا)*[37].. وخلال كلّ معاركهما، كان يصران على أنهما من تيار المسلمين الليبراليين المطالبين بدستور على قاعدة «الشورى» وهو المبدأ الذي استمد منه الإسلام ديمقراطيته.

يزداد ضغط المصلحين الجدد في الباب العالي تحت قيادة مدحت باشا، فينسحب السلطان عبد العزيز في العام 1876. بعد ذلك بقليل يقع خلع خليفته مراد الخامس المتردد، فيأخذ مكانه عبد الحميد الثاني عبر دسائس جرت في القصور بين الحريم والأبناء.

وصل عبد الحميد الثاني إلى العرش وسط عواصف هوجاء، فاضطر إلى تعطيل الدستور ليمسك بنفسه بدفة السفينة العثمانية التي بدت تائهة. فمنذ محمود الثاني لم تعرف الأستانة رجلا قويا بقوة عبد الحميد الثاني.. رغم ذلك فسوف يضعف أمام الإنكليز ويعيّن «مدحت باشا» أحد أنصار الإصلاح واليا على دمشق (1878). فمنذ أن احتل الإنكليز جزيرة قبرص، ازدادت مخاوف الفرنسيين والعثمانيين على السواء. وإذ انتشر مرة أخرى سيناريو «دولة عربية تمتد من حلب إلى الموصل ثم بغداد فالمدينة ومكة»*[38]، (ما أشبه اليوم بالبارحة)، فإنّ مدحت باشا، قد أفرغ ذلك السيناريو من محتواه. وهذا السيناريو الفرنسي ظلّ يتكرر كلّما تقدّم الإنكليز خطوة، بدون أية دعائم أو حجج. بل إن الفرنسيين الذين سجنوا أنفسهم داخل ذلك التصور، سوف يحملونه أيضا إلى بلاد المغرب العربي. (فعلى شاكلة الاتحاد الهندي. زعم الفرنسيون أنهم يبنون اتحادا عربيا يمتد من تونس إلى الجزائر فبلاد إفريقيا حتى السودان. وهذا الأمر سيناقش في صالونات الحسينيين في تونس مع قناصل وسفراء نابليون الثالث).. وحين تنشط التنظيمات السرية الداعية إلى إنشاء كيان عربي منفصل عن سوريا، يغضب السلطان عبد الحميد ويعزل مدحت باشا من منصبه، غير أنّ ذلك سوف لن يوقف حملة التنظيمات السرية، والبيانات المضادة للباب العالي، بل ستزداد اتساعا وشراسة، حتى بدت المنطقة قد انزلقت إلى مرحلة التنظيمات السرية التي كانت تتصارع حول مستقبل بلاد الشام وما إذا كانت ستتجه نحو العروبة أو أنها ستختار طريق الإسلام من جديد مع إعادة الخلافة إلى داخل الحجاز..

خلال أزمة الصراع على الحكم بين المحافظين والجمهوريين والانتهازيين تبنّت باريس سياسة الدفاع عمّا هو مكتسب في لبنان وسوريا.. يعود الكلام على الدفاع عن مسيحي الشرق بقوة ثم تترك جانبا سياسة «الدولة العربية». ومن ثم تبدأ في تنفيذ

ما هو حاصل في قاع المشرق العربي، فتسلم لبريطانيا بحماية المسلمين العرب، فيما هي تختار الوقوف إلى جانب المسيحيين العرب، باعتبارها البنت الكبرى للكاثوليكية، التي تأسست على يدي القديس كلوفيس.. يمتلئ المسلمون السنّة والعرب بشعور كاذب مفاده أنهم أصبحوا يشاركون في حكم ولاياتهم وأنهم باتوا يشكلون جزءا من الطبقة الإمبراطورية. لكن جزءا كبيرا من النخب الإسلامية، أيقن أنّ الانفصال عن الأستانة، إنما يعني في آخر المطاف الوقوع تحت سلطة أوروبا، كما أيقنوا أنّ فرنسا وإن كانت تتكلم منذ مدة على إمبراطورية عربية، فإنها كانت تريدها إمبراطورية عربية بلا عرب. أما حين بدأ العرب يفرضون أنفسهم كحركة مستقلة تحمل بذور وعي قومي، فقد واجهوا رفضا عامًا للتعامل معهم أو الرهان عليهم.. وهكذا فإن الخيار الذي تحدد في أفق العرب والمسلمين عموما، كان هو: خيار الاستقلال عن الباب العالي بكلفة القبول بالاستعمار الأوروبي، ولكن على قاعدة التفكك والاتجاه إلى بناء الدولة القطرية..وهذا ما أصبح واقعا في أكثر من ولاية. منها: تونس ومصر.

*** *** ***

سيخطب «جيل فيري» في البرلمان ليقدم تبريرات كثيرة لاحتلال تونس، لكن أهم مبرراته تلك التي تكلمت عن الدفاع عن المواقع المكتسبة (الجزائر) ووقف النزعة الإسلامية التي تهدد بناء رابطة ضد التمدن. وهكذا فإن استعمار تونس سيكون سواء بالنسبة لعملاء الداخل (جماعة ابن إسماعيل) أو بالنسبة لاستعماري باريس، هو «رسالة تمدينية». وهو ما نطق به مرارا وتكرارا مفكرون وسياسيون فرنسيون إبان الحملة الفرنسية على مصر من أن الدخول إلى مصر هو انتصار للحضارة على البربرية، وهو الشكل الوحيد لروح الفتح الذي يمكن للأخلاق إباحته.

إن نجاح الفرنسيين في احتلال تونس وإرغام الباي على توقيع معاهدة حماية في ضاحية باردو[*39]، سيفتح الشهية للتيار الاستعماري لكي ينتقل مرة أخرى إلى الملف المصري، غير أنّ التعارضات السياسية في المطبخ الفرنسي ستحرق الطبخة، وذلك حين يتصدى كليمنصو المعادي للاستعمار لأطروحات «غامبتا»، الملقب سكين الجراحة الامبريالية..

والحقيقة أنّ رفض البرلمان لأية اعتمادات تخصص لحملة جديدة ضد مصر، سوف تدفع بريطانيا إلى المغامرة. وإذ سيواجه كليمنصو زعيم الراديكاليين انتقادات واسعة لأنه حرم بلاده مياه النيل، فإن فرنسا ستجد نفسها مضطرة إلى رفض احتلال مصر لتفتح بعد ذلك أبوابها أمام المعارضة المصرية وكذلك أمام الوجوه الفكرية والثقافية المعارضة لاحتلال مصر.

كانت مصر في عهد الخديوي إسماعيل قد وصلت إلى حدّ الإفلاس.. اضطر هذا الباشا الطموح والمنكسر الخاطر إلى بيع جزء من أسهم الشركة العالمية لقناة السويس إلى بريطانيا، فأكد مرة أخرى ما سبق السلطان عبد الحميد أن نصح به من «أنه يخاف أن تصبح مصر كلها تابعة لقناة السويس»*[40].

والآن وقد اتضح أن قناة السوس التي حفرت لمساعدة مصر على الاستقلال، إنها أصبحت مصدر اغترابها واحتلالها. فقد انساق الخديوي إسماعيل وراء سراب القروض. اضطر مرة أخرى إلى القبول بوصاية فرنسية/بريطانية مشتركة على خزينة البلاد. وفي بلد مثل مصر، حيث أصبحت -النزعة الوطنية- قوية ولها رموزها السياسية والثقافية، يصعب أن يتحمل الشعب مثل تلك التدخلات الأجنبية.. وفي اللحظة التي يعزل فيها إسماعيل عن العرش، تلتهب الحياة السياسية، ويصبح من الصعب السيطرة على -ثورة- ستعرف بـ «ثورة عرابي»*[41]، تشترك فيها قوى جديدة من المثقفين والعسكريين والسياسيين الذين يتقدون حماسا من أجل «مصر للمصريين»..

ولأن الأمن قد اختل والميزانية قد أفرغت والخديوي بات مكتوف اليدين، فقد اتفق الجميع: الأوروبيون بمن في ذلك الألمان والعثمانيون والأسرة الحاكمة على خلعه وتعيين ابنه الأكبر توفيق.

شكلت لجنة أوروبية لتسوية الديون، لكن تلك اللجنة تحولت شيئا فشيئا إلى سلطة للرقابة على سلطة توفيق. وفيما اضطر توفيق إلى تقليص جيشه وتقليص موظفي الدولة واستحداث ضرائب جديدة، فإنه بدا وكأنه قد أعدّ -ثورة- على نفسه. كان الجيش هو أكثر المتضررين من تلك الإجراءات، ثم إنّ الضباط العرب، الجيل الثاني من ضباط جيش محمد علي المملوكي، كانوا هم الأكثر تضررا في صف المتضررين. برز آنذاك أحمد عرابي الكولونيل الأسمر ابن الفلاح المصري كزعيم لحركة التمرد داخل الجيش. وقد استطاع أن يحاصر قصر عابدين مع مجموعة من زملائه الضباط.. وبعد مفاوضات عسيرة ضمن لنفسه وزارة الدفاع وقيادة الجيش، غير أنّ الضباط ذوي الأصول التركية والشركسية سيدبرون له المكيدة تلو المكيدة للإيقاع بينه وبين الخديوي..

راح الأتراك ذوو الأصول التركية أعداء عرابي، يشعلون الفتن داخل الطوائف المسيحية من أرمن ويونانيين وانكليز وفرنسيين، الأمر الذي وضع على بريطانيا مهمة حماية تلك الجاليات.

تحركت الأساطيل الفرنسية والانكليزية على ساحل الإسكندرية، فازداد الغضب لدى أحمد عرابي الذي راح يبني التحصينات ويستعد للحرب. هدأت بريطانيا قليلا

ثم ضربت في صيف 1882 الإسكندرية. وقد تم ذلك كله من وراء ظهر عرابي، وبالاتفاق مع حاشية الخديوي توفيق. وإذ استشعر عرابي بالخيانة، فقد أعلن المقاومة والعصيان على الخديوي توفيق بتعيين نفسه نائبا للسلطان)العثماني). ولكن عرابي لم يكن يملك لا التسليح الجيد ولا الأموال، ولا حتى الإعداد الجيد للشعب!

إن نموذجي تونس ومصر، وهما البلدان الأبكر نحو الاستقلال عن الباب العالي، قد أنتجا في النهاية عدة مفارقات. فالاستقلال عن الباب العالي قد جعلهما عرضة للأطماع الدولية. ثم إنّ الولع بالإصلاحات والطموحات التحديثية قد وضعتهما تحت طائلة الديون والضغوط. أما الاعتماد على الجيش المحترف وتنمية النزعات الوطنية الضيقة والملحاحة (محمد علي باشا وحمود باشا) فقد أورثتهما الهشاشة والارتهان داخل القالب الغربي العسكري (مصر) والبوليسي (تونس).

*** *** ***

خسرت دولة الأستانة تونس ومصر في أقل من عامين. وقبل ذلك بنحو نصف قرن كانت قد خسرت الجزائر. وفيما كانت بلاد الشام أصبحت تتمتع بقوانين جديدة تجعلها أقرب إلى محميات عربية وسط سطلة مركزية غائمة ومعطوبة، فإنّ بلاد الحجاز قد تأهبت مجددا لإعلان العصيان مرة أخرى. أما السودان، فقد ألهب الاستقلال والإسلام حماسه الذي بدأ يستعيد أنفاسه على أيدي الشيخ المهدي*42 .

وفي مثل تلك الأوقات الحالكة، عادة ما تتحرك الدول لاستعادة هيبتها المفقودة عن طريق مشاريع ضخمة أو مغامرات جديدة، دون أن تكون قادرة على ضبط حساباتها المستقبلية جيدا. وكما كانت قناة السويس حفرا تحت أعمدة الدولة العثمانية لأزالتها نهائيا عن مصر، وهي التي دشنت عصرا جديدا على مصر وجيرانها وعلى العالم، فإن سكّة حديد بغداد والحجاز ستفتح الطريق البري للاستعمار لاستكمال سيطرته على الولايات العثمانية. وإذاك بدا سلاطين بنو عثمان، وكأنهم يقودون الاستعمار بأيديهم ومصابيحهم إلى بيوت حريمهم وممتلكاتهم وولاياتهم العربية !.

لقد كان السلطان عبد الحميد يريد وبأية طريقة أن يبنى تلك السكة لتربط بين الأناضول وبغداد والحجاز كمرحلة ثانية لخط بلغراد- اسطنبول. وفي رأي السلطان عبد الحميد، فإن ذلك سيفتح خطوط التجارة من جديد ويعطي للأستانة دفعا جديدا لاقتصادها، خاصة وأنّ القطارات ستنطلق من بلغراد إلى بلاد فارس. أما في رأي بريطانيا، فقد كان الأمر مختلفا. فالخط سيمنح للألمان وبذلك سيمكنهم من الوصول إلى الخليج، وهكذا سيصبح بمقدورهم أن يتمددوا من وسط أوروبا حتى بلاد فارس.

وهنا ستلتقي مصالح روسيا وبريطانيا على محاربة ذلك المشروع، وإلا فإن الألمان سيتسللون عبر الولايات العثمانية حتى يلتفوا على الروس من مؤخرتهم الجنوبية ويقطعوا الطريق على بريطانيا التي أصبحت شبه «مستوطنة» في تلك المنطقة.

بدأت فكرة إنشاء المشروع في العام 1896، لكن بدء الإنشاءات سوف لن يبدأ إلا في العام 1906 وبإشراف الألمان الذين كانوا يقيمون علاقات جديدة مع الدولة العثمانية، خاصة في الاعتناء والتدريب لجيوشها. فالألمان قد أبعدوا حتى تلك اللحظة عن أية مغامرة خارجية، ولنقل كانوا قد نهضوا متأخرين، فاهتموا بالتوسع القاري داخل أوروبا، غير أنهم كانوا يرتابون في الروس والبريطانيين. وهكذا اختار الألمان التحالف مع اسطنبول حتى وإن كانوا يدركون أنهم يتحالفون مع قوة آيلة للانحدار، لأن ذلك قد يحقق لهم عدة غايات.

وبناء على تلك الحاجة الملحة التي أثارتها إصلاحات «مدحت باشا»، أصبح إنشاء خط حديدي ضرورة ملحة للباب العالي. وما إن برزت الفكرة حتى فكر السلطان عبد الحميد في الألمان. فهم النموذج الجديد الذي سطع في أوروبا ويمكن الاقتداء به. ثم إنّ ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي ترتبط بصداقة مع الباب العالي. فقد تعلم العثمانيون درسا في منطق القوة والمركزة. فبروسيا هي التي قادت الولايات المتخاصمة إلى النصر. وبما أنّ القوة هي الشيء الذي تحتاجه الدولة العثمانية المهلهلة وهي تعيش حسرة على ماضي «المشاة» الفاتحين، فقد أيقنت ببعض ما تقى لها من ذكاء وعناد أن القطارات يمكن أن تعوض المشاة. وهنا تزايد اعتماد بنوعثمان على الألمان في ربط ما تبقى من إمبراطوريتهم. نال الألمان امتيازات كبيرة لشق خطوط حديدية في الأناضول ثم في العراق إلى حدود الخليج فالمحيط الهندي وهو ما أفزع بريطانيا، لأنه اختصر رحلات الحج والبضائع من 12 يوما على السفن إلى خمسة أيام على العربات الحديدية.

وفي تلك المناخات الملبدة بالهواجس التي تغذيها الدسائس والمؤامرات والمنافسات، ستدخل الدولة العثمانية منعرج الموت وهي تجتهد من أجل أن تؤخر قدرا محتوما. فإذا كانت قناة السويس قد حرمتها التحكم في تاجها العربي: مصر، فإن سكة حديد الحجاز ستحرمها لاحقا من المنطقة المقدسة، تاجها الإسلامي في بلاد الحجاز.. ومع ذلك، فإن السلطان عبد الحميد سيجتهد كثيرا من أجل أن يعيد رابطة الإسلام إلى ولاياته، إلاّ أنّ تلك الرابطة قد بدأت تتفتت في حلقات كثيرة ومناطق كثيرة من إمبراطوريته.

في الواقع حين أصبح العالم العربي ينسلخ شيئا فشيئا عن الكيان العثماني وهو تتجاذبه عدة نزعات وأفكار إصلاحية وتحديثية وكيانية اتفقت كلها حول البحث عن

«هوية جديدة»، أدرك الباب العالي في شخص السلطان عبد الحميد الثاني أهمية الرابطة الإسلامية التي تشد وتوحد ثلثي سكان إمبراطوريته، إلا وهي : رابطة الدين الإسلامي.

عاد عبد الحميد إلى التقاليد الإسلامية ، أي إلى تقاليد أسلافه الذين ربطوا دائما بين الجامع والحامية أو بين الصومعة والجنرال (الدين والنخب العسكرية) والحق أنّ سلالة «بني عثمان» لم تتغلب على بيزنطة المسيحية إلا عبر زعامتها للإسلام السياسي. وهنا يمكن أن نلاحظ أن النتيجة التي توصل إليها السلطان عبد الحميد هي نفسها التي باتت قناعة يقينية للمصلح «جمال الدين الأفغاني»، وهي أنّ الإسلام وحده هو الذي يمكنه مقاومة التمزق والتفكك والنهب الغربي. ويمكن أن يكون الأفغاني قد وقع في فخ السلطان حين أصبح أسيرا له في قصره (أصيب بمرض السرطان في اسطنبول) ، ولكن التقاء القناعات لدى المثقف المصلح والسلطان الحازم ليس بالأمر الجديد في عالم السياسة. فهو مثال قديم سيظل يتكرر دائما في عصور عديدة ودول كثيرة.

وسوف تتعارض دعوة السلطان عبد الحميد للإبقاء على الرابطة الإسلامية مع تلك الدعوات التي انطلقت من داخل البلاد العربية الإسلامية التي تسعى إلى تطهير الإسلام والتخلص من الدولة العثمانية ومن كل أشكال الوصاية الشرقية والغربية. تلك الدعوات التي كان ينظر إليها على أنها - حركة- شبيهة بحركة البرستتانت التي رافقت لواء الإصلاح والانشقاق عن الكاتوليكية البابوية.

لكن المفارقة التي ستصاحب الحركات الدينية والاحتجاجية في العالم الإسلامي أنها ستظل تتمسك بالدولة الدينية وبتنمية إصلاح الخلافة الإسلامية.

ولعل ذلك ما سوف يؤدي لاحقا إلى بروز نزعات وطنية إصلاحية تقوم على معطى الإسلام ثم لا تلبث أن تصبح نزعات محض وطنية. غير أن السودان سيفاجئ كلا من العثمانيين الذين يدّعون حماية الإسلام والبريطانيين الذين يدعون إصلاح الإسلام، بثورة احتجاجية استطاعت أن تنجح حيث فشل الآخرون. وإذ ثبت أن عرابي العسكري المحترف لم يستطع أن يهزم البريطانيين لأنه لم يكن يستند إلى قاعدة شعبية أو أفكار إسلامية، فإن المهدي السوداني الذي رفع لواء الإسلام الطهوري استطاع أن يهزم البريطانيين بلا مدافع ولا تحصينات قوية ولا سفن..

كان المهدي عقل تلك الثورة، قد دعا في العديد من مؤلفاته إلى مكافحة الفساد الديني، القادم من تركيا العثمانية أو الزاحف مع الإنكليز عبر مصر. ولما كان على قناعة بأنه صاحب رسالة إنقاذية، فقد عرف كيف يجند الأنصار المتمردين.

وخلال رحلة في برّ السودان، لمس بيديه الحرمان وغضب زعماء القبائل الذين أرغمتهم الحكومة المصرية على إلغاء الرق. وإذ ابتدع نظاما جديا لإعادة الاعتبار لزعماء القبائل الذين أفقروا، تمثل في توزيع الخمس من الغنائم ومصادرة أملاك الكفار والمتعاونين معهم، عليهم، فإنه استطاع أن يجمع أموالا كبيرة لخزينته ويضاعف عدد أنصاره ومريديه.

انتهت الدولة المهدية، لكن الحركة لم تنته. فهي تضرب بجذورها في تربة السودان عميقا. ثم هي استطاعت أن تمدّ أغصان شجرتها إلى جيرانها في الشمال (أريتريا حاليا) وكذلك في مناطق الأوغادين في الصومال. ففي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ظهرت حركة انتقاديه أخرى تتشيع إلى الحركة المهدية في عموم القرن الإفريقي. وهذه الحركة ستبرز تحت قيادة أحد أبناء قبائل الأوغاين المحاربين والأشداء. ويدعى «محمد بن عبد الله حسن». انضم هذا الأخير وهو في سن الـ 35 إلى طريقة صوفية تعرف «بالصالحية» ومؤسسها أحد أتباع المهدي الذي فر إلى مكة: «محمد بن صالح»..

بدأ محمد بن عبد الله نشاط دعوته داخل قبيلته. وإذ لاحظت بريطانيا قدرته على التحكم في بدو الأوغادين طلبت منه تهدئة الاضطرابات والنزاعات، غير أنّ النفوذ سيستحوذ على وجدانه فيصبح رجلا مفتونا بالثورة. وهكذا استطاع أن يقود تمرادً كبيرا ضد البريطانيين في ميناء بربرة وضد الإيطاليين في ميناء مصوغ ثم ضد الأحباش الذين يتعاونون مع الغزاة المسيحيين. وعلى مدى 20 عاما سيقاتل رجال «المهدي الصومالي» كل تلك القوى إلى حدّ فرض فيه نفوذه وسلطانه. وسوف لن يتسنى للبريطانيين والإيطاليين أن يهزموه إلا حين أصبح تحت إمرتهم أسطول جوي. وإذ حسم الطيران نصف المعركة في العام 1920، فإنّ النصف الآخر من المعركة قد حسمته المناورات حين أرغم البريطانيون أستاذه «محمد بن صالح» في مكة على خلعه من الطريقة الصالحية. ويمكن أن تؤرخ لنهاية دولة المهدي الصومالي في العام 1905، لكن سنوات تعقبه قد طالت بأعدائه إلى أن تمكنوا من إقناع أنصار الطريقة القادرية باتهامه بالزندقة حيث انتهى إلى مجرد زعيم قبيلة..

وإذ كانت الحركة المهدية قد انطفأت في غرب السودان وكذلك في شرقه، فإن منطقة دارفور، كانت ولا تزال تعيش تحت نبض المهدي. وإذ امتد الصراع على منطقة بحر الغزال، فإن هناك من سيمد كلتا يديه نحو المناطق الزنجية في «تشاد» اليوم، لكنه سيجد أمامه سلطان منطقة «وداي» وهو يناصبه العداء تحت تأثير الطريقة السنوسية التي رمت المهدية بالزندقة.

والواقع أنّ الطريقة السنوسية تعتبر أقدم من المهدية وأقلها تشددا. فهي انطلقت مع صاحبها الجزائري الأصل المولود بمستغانم «محمد بن علي السنوسي» في العام 1791. وبعد إقامته في مكة لمدة من الزمن تعرف فيها بأصحاب الطرق، عاد إلى بلاده، لكنه فضل البقاء في منطقة الجبل الأخضر بليبيا ليبدأ في نشر دعوته في العام 1834*[43].

كان محمد بن علي أقل حماسا للعنف. وقد اعتمد في نشر تعاليمه بحجة الإقناع وبناء زوايا تعليم القرآن. وإذ وجد فيه حكام المنطقة داعية مسالمة، فقد ابتعدوا عن معارضته، بل كثيرا ما مكنوه من نشر طريقته لمساعدتهم على فك الخلافات مع القبائل أو حتى مع المتمردين. ولما كان «متهما» بالتعاون مع الباشوات وكذلك مع البريطانيين، وهو يبدو متشددا في نظر سنّة المغرب العربي، فقد وجد نفسه مضطرا إلى نقل مقر طريقته إلى «الجغبوب» التي تأتي بعد واحة «سيوه» في مصر، كمنطلق للانتشار داخل المماليك الإفريقية.

تحكمت الحركة السنوسية لزمن طويل في طريق حج القوافل إلى مكة. وهي قوافل تأتي من داخل إفريقيا. مثل كانو وكاتسينا وتومبكتو وكذلك من مراكش والجزائر. وبذلك فقد أمنت لنفسها مداخيل عالية وأنصارا عديدين..ثم إنّ اعتمادها على تجارة القوافل إلى داخل المماليك الإفريقية وتشجيعها للعمل الزراعي من أجل الاكتفاء الذاتي عملا بمبدأ الحركة الوهابية التي أقامت نظام «الهجر»، *[44] كلّ ذلك مكنها من نشر مفاهيمها الطهورية للإسلام، ومحاربة الخليفة العثماني الذي دنّس الإسلام وانحرف بالمسلمين إلى معقل الشيطان.

وفي الحقيقة ليست السنوسية حركة استقلال ذاتي، وإنما هي حركة انكفاء. حركة صوفية أدارت ظهرها للبحر مهتمة بالبرّ والصحراء. وبهذا التمظهر يمكن كذلك فهم أصول الحركة المهدية في كل من السودان والصومال، ذلك أنّ الاهتمام بنقاء الصحراء كان أكبر بكثير لدى هذه الحركات من الاهتمام بالبحر وبالخارج عموما. فالخارج هو أصل الداء. وهذا الخارج هو أولا اسطنبول العثمانية ثم أوروبا المسيحية.

ولقد توحد العدو في نظر هذه النزعات الصوفية، حتى إنها حاربت في الوقت نفسه العثمانيين المسلمين والأوروبيين المسيحيين. ومثلما قاتلت المهدية بريطانيا ومصر وتركيا، قاتلت كذلك الحركة السنوسية الباب العالي وروما ومصر وفرنسا كذلك. كان مسرح عملياتها الصحراء الكبرى من تشاد إلى السلوم. ولولا التعاون البريطاني/الايطالي لضرب هذه الحركة، لتمكنت من احتلال جزء كبير من مصر كما فعلت حركة المهدي السودانية.

وتستمد تلك الحركات الصوفية جذورها العميقة من مصدرين : الأول يقينيتها بأنّ الاسلام مهان ولا بدّ من رد اعتباره. والثاني من اعتقادها بأنّ الفتح الإسلامي عملية متواصلة لا يمكن أن تتوقف.

وهذا ما طبعها بالجهادية وجعلها تتجه نحو الصحراء وكذلك نحو إفريقيا خصوصا. وقد رأينا كيف أن المهدي ظهر في جزيرة «أبا» الشمالية ثم ما لبث أن انتقل إلى الغرب والشرق السوداني ثم كيف ظهر محمد بن علي السنوسي في الجبل الأخضر (الشمال) ثم ما لبث أن اتجه نحو الجنوب في الجغبوب والكفرة. وعلى ذلك يمكن أن نفهم تلك النزعات على أنها استعادة للمرابطين والموحدين المغاربة. فهؤلاء هم الذين نشروا الإسلام السني في أقاليم الزنوج الواقعة جنوب الصحراء من السينغال حتى وادي النيل الأعلى.. فمنذ القرن الحادي عشر اعتنق كثير من الزنوج دين الإسلام القادم من المغرب الأقصى.

وإذ أصبحت تمبكتو إحدى عواصم الإسلام التجارية والعلمية في القرن الثالث عشر؛ فقد فتحت طرقا عديدة لقوافل المسلمين نحو غرب ووسط أفريقيا. ومن تمبكتو انطلقت حملات قوية استطاع أن تخضع شعب شمال نيجيريا وتدخلها إلى الإسلام مثل شعب الفولاني والهوسا. وبعد أن تأسست مملكة سوكوتو في شمال نيجيريا الحالية؛ قامت بالغرب منها مملكة عبادان ثم مملكة كانو؛ وذلك بفضل زعماء الطريقة التيجانية المجاهدة التي اعتنقها جزء كبير من أهل السينغال وغينيا. آنذاك كانت تلك المنطقة تعرف ببر السودان الكبير ثم قسمت إلى ثلاث مناطق عرفت الأولى بالسودان الغربي وهو مالي والسينغال وجزء كبير من النجير حاليا ثم السودان الأوسط الذي يضم سوكوتو وعبادان وكانو ونجامبيبيا مرورا بشمال الكاميرون حاليا. ثم السودان الشرقي وهذا يضم أهل النوبة في السودان الحالي الذي عرف الإسلام منذ القرن السابع؛ لكنه لم يوطد علاقة بتلك الديانة التي حلت محل النصرانية؛ إلا بداية من القرن السادس عشر مع الفتح المصري الذي سيدعم الإسلام بالمبشرين الفقهاء والتجار بالاعتماد على العنصر العربي.

ومثلما دعّم ملوك مصر إسلام السودان وأريتريا والصومال؛ ودعم ولاة طرابلس إسلام النيجر والتشاد؛ عمل سلاطين المغرب على تدعيم الإسلام في غرب إفريقيا؛ وذلك على منوال أسلافهم المرابطين والموحدين والسعديين.

*** *** ***

إن مؤسس الأسرة العلوية التي لا تزال تحكم حتى اليوم المغرب الأقصى؛ ابن تافيلالت القريبة من مراكش؛ هو أيضا قد بدأ حياته كداعية لطريقة صوفية؛ وذلك

منذ عودته (أو مجيئه) من بلاد الحجاز إلى المغرب. وفيما انتفضت قبائل البربر على السلطة السلطانية المركزية لتستقل كل قبيلة بنفسها وبفضائها؛ فإنّ سكان المدن ذوي الأصول الأندلسية قد جعلوا من سلا والرباط والصويرة «جمهوريات» ناشطة في عمل القرصنة. وبين تطاحن أولئك وهؤلاء ظهر رجال يدعون إلى ترشيد الإسلام وتطهيره من الشعوذة. ومن بين أولئك ظهر محمد الرشيد؛ وهو عربي من عشيرة سكنت في واحة تافيلالت. انتهى عهد السعديين بسرعة وانتهى معهم عهد الحكام الصغار. وفي بداية القرن الثامن عشر أنشأ خليفة محمد الرشيد؛ مولاي إسماعيل جيشا من الزنوج استقدمهم من الممالك الإفريقية عرف بجيش بخاري (لأنهم أقسموا على صحيح البخاري ملتزمين بالجهاد والطاعة) للسلطان أمير المؤمنين إسماعيل؛ غير أن موت السلطان إسماعيل سيعيد بلاد المغرب إلى الفوضى بعد ثورة الحرس الزنجي الذي أصبح يتلاعب بالسلاطين كما لو أنهم دمى آدمية. استعان الحفيد محمد الأول بالأوروبيين لبسط نفوذه منذ العام 1780؛ إلا أنّ رعاياه قد رفضوا مثل ذلك التعاون فدخلت البلاد مجددا في الفوضى..

في نهاية القرن التاسع عشر؛ سيحظى المغرب بسلطان مستنير وموحد للجهود والآمال هو الحسن الأول. ولأنّ إمكانياته كانت محدودة وآماله كانت عريضة؛ فقد خسر معركة الإصلاحات التي بدأت تكشف عن نفسها في تونس ومصر وبلاد الشام. تمكن في البداية من توسيع رقعة (الدولة) المخزن؛ إلا أنّه سيقتل في حملة ضد إحدى القبائل المتمردة ليترك ابنه الصغير عبد العزيز ألعوبة بين الأعمام الطامعين وشيوخ القبائل المتمردين وتطلعات الغرب الأنانية. استسلم الشاب عبد العزيز لدغدغات الأوروبيين وإغراءاتهم فوضع يده في يدهم. وإذ سار وراءهم؛ فإن القبائل قد ابتعدت عنه. عوض تلك الخسارة بالاقتراب أكثر من الأوروبيين؛ لكنه احتار في فهم مطامعهم وأهدافهم. استعان بالألمان الذين دخلوا مسرح العمليات الاستعمارية متأخرين فنجح في عقد مؤتمر لدراسة المسألة المغربية في الجزيرة الخضراء في ربيع 1906؛ لكنه فتح الطريق أمام الفرنسيين والاسبان ليضعوا المغرب كله بشعبه وقبائله وسلاطينه تحت الوصاية.

إن مثال المغرب في الانكفاء والانغلاق والابتعاد عن الدولة العثمانية لا يشبه في العالم العربي إلا مثال عمان. فالسلاطين المغاربة الممتزجون بدماء الأفارقة؛ في استقلاليتهم وتشددهم الديني ومعاداتهم للأتراك والأوروبيين؛ إنما هم يشبهون سلاطين عمان الممتزجين بدماء الزنوج والهنود.

أقام العمانيون عرشهم الكبير على الماء. فمن مضيق هرمز؛ بوابة الخليج ومعبر المحيط الهندي إلى جزيرة مدغشقر بجنوب شرق إفريقيا مرورا بجزيرة زنجبيار

ومومباسا (كينيا حاليا) وجزر القمر! كان سلاطين عمان يفتخرون بكونهم العرب الوحيدين الذين يجيدون السباحة في البحار العميقة. إن عمان التي تعدّ أقدم دولة عربية ذات سيادة كاملة مع المغرب الأقصى إذ لم يخضعا أبدا للدولة العثمانية (ربما بسبب البرتغاليين والاسبان الذين استحوذوا على ثغور هذين البلدين: هرمز ثم سبتة ومليلة! قبل ظهور الدولة العثمانية). إنّ العمانيين وما اختزنوه من طاقة وخبرة في فنون البحر! استطاعوا أن يتخلصوا من البرتغاليين ويجعلوا من «مسقط» عاصمة عربية ذات نفوذ كبير على خليج الجزيرة العربية ثم على الساحل الشرقي لإفريقيا. تحالف الإمام سلطان بن سيف اليعربي مع أهل البحرين وكذلك مع تجار الهنود! فتمكن من بناء عاصمة ذات حصون عالية ومواني كثيرة انطلق منها إلى غزوات بعيدة على البحر الهندي. وخلال القرن 18 أصبحت عمان تملك أسطولا حربيا تجاريا ضخما من الطراز الأوروبي! حتى إنها كانت تمثل ثقل الخليج وبوابة عبوره المحكمة.

إن «يعاربة» عمان الأقوياء كثيرا ما نجد فيهم ملامح «علوي» المغرب الأقصى. فالمجموعتان تنتميان إلى الأسر العربية، كما أنّ توسع الأسرتين كان في الغالب باتجاه الجنوب. العلويون باتجاه غرب إفريقيا واليعاربة باتجاه شرق إفريقيا. ولمّا كان عدوهما الكبير واحدا وهم: مسيحيو شبه الجزيرة الأيبيرية! وهما يقعان عند مداخل العالم العربي في طنجة/جبل طارق من جهة المغرب وفي هرمز من جهة الشرق! فقد مثلا مرحلة متأخرة من الفتوحات الإسلامية. ففي اللحظة التي توقف فيها الفتح بعد التراجع في الأندلس وصعود العثمانيين! اتجه المغاربة باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء، فيما اتجه العمانيون إلى إفريقيا جنوب الجزيرة العربية. على أنّ العلامة الفارقة بين هاتين الأسرتين! إنه فيما كان التوسع المغربي (الفتح) يتم عن طريق البرّ! كان الفتح العماني يتم عن طريق البحر! حتى إن عمان التي برزت في العالم الحديث عن طريق البحر كادت أن تصبح قوة بحرية لولا صعود أوروبا البحري القوي في دفعته الثانية (هولندا وبريطانيا).

وهناك سمة أخرى يشترك فيها أهل عمان وأهل المغرب! وتتمثل في انتشار المذهب الأباضي. وحتى لو لم ينتشر ذلك المذهب في المغرب كما انتشر في البداية في كل من تونس والجزائر! فإنّ بربر المغرب قد وجدوا فيه ما يرضي توقهم نحو الاستقلال قبل أن يشنّ الملوك العلويون السنّة المالكيون الحرب ضده. ويعتبر المذهب الأباضي (وليد الخوارج) أحد المذاهب المتشددة إذ لا يرضى بأقل من إقامة خلافة الله على الأرض (لا من جماعة علي ولا من جماعة معاوية). وبذلك فإن خليفة المسلمين يجب أن يكون من الأتقياء على أن يتم اختياره بالانتخاب لا بالتعيين أو المبايعة على قاعدة القبيلة

أو النسب. وهذا ما جعل العلويين الذين ينسبون أنفسهم إلى نسل الرسول يحاربون (الأباضية) بتهمة الزندقة..

بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف في العام 1781، خلفه عن طريق الشورى كثيرون لكن الإمام السيد سلطان بن أحمد هو الذي سيبرز كشخصية مرموقة. وهذا الأخير سيثري اتصالاته مع الأنكليز والفرنسيين والفرس، لكنه سيبقى على نوع من الاستقلالية رغم إغراءات فرنسا وبريطانيا. وبما أنّ معظم تجارة مسقط كانت مع الهند وإفريقيا الشرقية، فإنه سيختار بريطانيا رغم ميوله إلى فرنسا وإعجابه بها. هيأ الإمام سلطان بن أحمد الطريق ثم رحل. ومنذ العام 1804 إلى العام 1856 سيبرز إمام آخر هو سعيد بن سلطان الذي أصبح يفرض على الباب العالي دفع ضريبة لقاء تدميره للأسطول الفارسي باعتباره يمثل تهديدا للدولة العثمانية. أدخل الإمام سعيد الأول إلى البلاط العماني لقب السلطان بإضافة اللقب القديم: السيد، وهو اللقب الذي كان يعادل «السير» لدى الانكليز أو-المسيو- لدى الفرنسيين. بعد ذلك راح يوسع إمبراطوريته باتجاه شرق إفريقيا.

كان السلطان سعيد بمثابة «الأب الأول للقومية العربية» كما دعاه باشا مصر القوي «محمد عليٍ» يحظى بإعجاب الفرنسيين والأنكليز وحتى الأمريكان الذين لم يخرجوا بعد إلى الخارج. وقد وصف أحد المؤرخين بحريته بـ «أنها الأقوى من كل القوى البحرية من رأس الرجاء الصالح حتى اليابان»[45*].

بدا السلطان سعيد وكأنه أسد مخيف يريد أن يلتهم كل إمارات الخليج من رأس الخيمة حتى البحرين، غير أن التوسع المستمر وغير المحدود غالبا ما يلتهم أصحابه. فهزيمته أمام البحرينٍ، فتحت الطريق أمام فارس لاستعادة بندر عباس وساحل كرمان. وإذ هبّ ابنه «ثويني» لاسترداد مملكات أبيه في إيران، انقلبت عليه بريطانيا ومنعت أسطوله من المرور في مضيق هرمز. وآنذاك فيما كشف الانكليز عن هشاشة الأسطول العثماني ورأوا أنّ اللحظة مناسبة لإبعاده من مسرح العمليات، اكتشف سلطان مسقط أن الانكليز الذين شجعوه على قتال شيوخ العرب، قد منعوه من قتال الفرس،.

ولو أن سلاطين عمان استطاعوا أن ينفذوا إلى داخل الجزيرة العربية لحددوا مصير تلك المنطقة عبر وجهة تاريخية أخرى غير التي عرفها. وبما أنّ القوة العمانية كانت بحرية بالأساس فقد كان توسعها دائما باتجاه الساحل الإفريقي الشرقي والجنوبي. أما حين اتجه شمالا ، فقد وجد من يوقفه، لأنّ البريطانيين لم يكونوا في أي حال من الأحوال يستطيعون أن يروا إلى جانبهم «محمد علي» آخر يتوق إلى القوة ويحلم ببناء

إمبراطورية عربية. وهكذا انتهت عمان الطموحة في البداية إلى سلطنة صغيرة مغلقة ومولعة بالخرافات والدين والبخور والأفاوية..

*** *** ***

ظلّ اليمن منطقة عسيرة، على سلاطين عمان. فقد فصلت جبال ضفار بين مسقط وصنعاء. ثم إنّ برّ الجزيرة وصحاريها كانت كذلك سدّا منيعا أمام التوسع العماني. فسادة بحر العرب؛ كان إلى جانبهم سادة عرب آخرون للبرّ. فحتى محمد علي باشا؛ رجل مصر القوي وصاحب القوة البرية الرهيبة لم يستطع أن يخضع تلك المناطق البرية المعقدة. أمّا سلطة الباب العالي؛ فكانت اسمية رمزية فقط.

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر رجل طموح ينتمي إلى أحد فروع الأسرة العلوية في المغرب يعرف بـ «أحمد الإدريسي» ليفتح حقبة جديدة من الصراعات السياسية في جنوب الجزيرة العربية. إن الإدريسي الذي فضّل البقاء هناك على العودة إلى بلاده بعد أداء فريضة الحج؛ سينظر إليه أهالي المنطقة على أنه ولي صالح أو قديس عربي من نسل أدريس الأول؛ أحد أحفاد الرسول. وإذ توفي الإدريسي قبل أن يقيم مملكته؛ فقد ترك أحد أتباعه هو «السيد محمد» وهو يحاول إقامة مملكة مستقلة عن الباب العالي. تحالف هذا الرجل الذي كان قد عاش التجربة السنوسية في الكفرة، مع الإمام يحيى إمام الزيدية ثم سارا معا نحو إعلان الحرب على العثمانيين. فالسلالة الزيدية ما انفكت تحاول التفرد باليمن منذ العام 1850. وإذ طالت الحرب؛ فقد اختار العثمانيون إطلاق يد الزيديين على الأقاليم الداخلية والجبلية الصعبة. وسوف ينتفض السلطان عبد الحميد ضد تلك «الفوضى الزيدية» بتحريض من «تركيا الفتاة»؛ (ما أشبه اليوم بالبارحة) غير أن المنطقة القائمة من حضرموت إلى الكويت قد أصبحت فعلا تحت نفوذ شيوخ وأيمة اختاروا التحالف مع بريطانيا التي باتت تتحكم في عدن منذ العام 1839؛ والتي كانت حريصة على تأمين تجارتها مع الهند.

اتجه قائد حملة عدن القبطان «تسوورث هينس» مباشرة إلى هدف تطمين القبائل العربية، وذلك من أجل شل أي نوع من المقاومة. وبعد أن تمّ توقيع معاهدة صداقة مع السلطان العبدلي؛ *46*47 سارع الحاكم العام في الهند إلى التصديق عليها. ضمنت تلك المعاهدة لبريطانيا، مقابل دفع هدايا وعطايا ومرتبات لحوالي 4000 رجل من رجال القبائل البارزين؛، كل الامتيازات لتصبح بريطانيا صاحبة اليد الطولى على الملاحة والاقتصاد والتجارة. صدت عدن ثلاث محاولات للغزو بفضل التكاتف والتضامن بين السلطان والسكان؛ ثم سقطت؛ فكان أول فتح «للملكة الجديدة فكتوريا»*48.

ولأن بريطانيا كانت قد تقطعت بها السبل في جبال أفغانستان؛ فإنّ غنيمة عدن، حتى وإن كانت مهمة جدا لم تحظ بكثير من الترحيب. ولقد وجد من يوجه الاتهام لـ «هينس» بالبحث عن المجد والمتاعب؛ لكن نظرة ذلك القائد البريطاني ستحظى بالتقدير حين أكدت نفسها كنظرة بعيدة ومستقبلية. فرغم أنّ عدن كانت قرية بائسة لا يوجد بها غير 600 بيت متواضع يسكن أغلبها يهود تجار وحرفيون؛ إلا أنها كانت جسرا مهما للتجارة وميناء ناشطا يفوق كل موانئ الجزيرة العربية الأخرى. وهذا ما سوف تؤكده أحداث الحرب العالمية الأولى بداية من العام 1914.

وفيما كانت سياسة حكومة بومباي متذبذبة حيال عدن وقد راحت تتمايل بين التنازع بين العبدلي والفضلي؛ كانت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا لا تزال تحاول السيطرة على إقليم الحجرية والشهير بزراعة البنّ. وبعد أن كثرت الانشقاقات داخل القبائل وتشكيات التجار؛ بدأ البريطانيون يحزمون أمورهم لمواجهة قوات إبراهيم باشا الذي كان يمد شبكة من العلاقات الجديدة مع سلاطين الجنوب وشمال اليمن. ولم يتأخر الوقت كثيرا حتى راحت القوى المصرية تأخذ طريق العودة. اختار إبراهيم باشا أن يسلم الموانئ اليمنية للرجل الأقوى وهو الشريف حسين بن علي بن حيدر. أما إمام صنعاء الذي كان يقال إنه كاد أن يسلم أمره لإبراهيم باشا؛ فقد كان عاجزا عن التقدم باتجاه الموانئ.

*** *** ***

هكذا، بعد 9 سنوات فقط من احتلال الجزائر ينزل البريطانيون على شاطئ عدن. ومن العام 1839 سيتورط الأوروبيون في التنافس العنيف والخوف المتبادل إلى حد سيتأخر فيه احتلال ثالث بلد عربي إلى 1881 وهو تونس. وفيما نزل الفرنسيون بتونس؛ هجم البريطانيون على مصر في العام التالي 1882. وهكذا سيبدو السباق الفرنسي/البريطاني وكأنه يسير خطوة بخطوة؛ أو واحدة بواحدة؛ إذ ستتساقط الولايات العربية الواحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر؛ إلى أن يطبق الاستعمار الأوروبي على أنفاس جميع الشعوب العربية. فبعد مصر؛ جاء دور السودان ثم سقط كل من المغرب وليبيا وبلاد الشام.

سيلاحظ مؤرخون اجتماعيون في المستقبل أن البلدان العربية كانت تنقسم إلى فئتين: الأولى تلك التي أقامت نظام القطيعة الكاملة مع الدول العثمانية مثل المغرب وعمان وإلى حد ما السودان واليمن. أما الثانية فتلك التي أقامت نوعا من الممانعة أي القطيعة السياسية فقط بدافع الغيرة والمجد والصولجان مثل تونس ومصر. ولكن

كلاهما لم تصمد أمام الهجمة الاستعمارية الأوروبية الجديدة. فسواء كانت تلك الدول تحكمها عائلات من أصول أجنبية مثل الأرناؤوط والقوقازيين والقرمنلليين! مثل (الجزائر ومصر وليبيا وتونس)! أو تلك التي كانت تحكمها عائلات من أصول عربية مثل (المغرب وعمان واليمن والحجاز والسودان)! فإنّ إغراء الغرب الاستعماري كان أقوى من أية مقاومة. أما جمال حمدان فسوف يلاحظ بطريقته «أن الاستعمار الأوروبي للعالم العربي كان عودة أكثر مما هو بدء! وهو ما يعني أنه جولة أخرى في دراما الصراع الدموي والمديد الذي استمر منذ العصور الوسطى والحروب الصليبية! بل منذ الاستعمار الكلاسيكي اليوناني والروماني»*49.

والحقيقة أنّ الاستعمار الأوروبي للعالم العربي قد تحقق على مدى 90 عاما (من العام 1830 احتلال الجزائر إلى 1920 احتلال بلاد الشام). بعد ذلك بدا العالم العربي كجلد ثور مبرقع وهو منقسم بين إمبراطوريتين أوروبيتين بريطانيا وفرنسا! بالإضافة إلى ايطاليا التي كانت تستحوذ على ليبيا وساحل أريتريا ثم اسبانيا التي اقتطعت جزءا من شمال المغرب وآخر في جنوبه (الساقية الحمراء ووادي الذهب).

بدأ ذلك الاستعمار ساحليا ثم انتهى قاريا. وإذ سار مرة دائريا وأخرى خطيا! فإنه أكمل دورته على أحسن ما يرام حين بات العالم العربي كاليتيم عشية الحرب العالمية الأولى. لا سلطة! ولا سند ولا حرية..ولا حتى مقدسات. وسوف لن يتأخر الزمن كثيرا حتى تكتشف النخب العربية أن العرب قد فقدوا خلال القرن التاسع عشر أوطانهم بعد أن فقدوا إسلامهم الذي كان يعيش في ديار الغربة العثمانية! غير أنّ أكبر نكباتهم سينطق بها القرن العشرون! حين يقتطع جزء من لحمهم (فلسطين) ويرمي به إلى الغزاة الصهاينة!.

*** *** ***

لم يعد الإسلام (الإسلام العربي) فقط أسيرا. بل دخلت الأمة العربية كلها (قطرا قطرا) إلى الأسر. إن عنوان الأسر هذه المرة: أوروبا. تم فك الأسر العثماني. وعاد الإسلام إلى وطنه، ولكنه كان عليلا ومريضا ومليئا بالخرافات وهو ما سوف يدفعه فيما بعد إلى العنف، بعد أن كان سلاحا تحرريا لدى نخب كثيرة. وبعد فترة سيكتشف العرب أن بلادهم وأرضهم وثرواتهم ولغتهم كلها باتت أسيرة لدى الأوروبيين وليس فقط دينهم. لقد تم الإجهاز على العرب على دفعات ومراحل بداية من 1830 (احتلال الجزائر) إلى العام 1947 (تقسيم فلسطين).

انهارت آخر أسوار بني عثمان في المغرب العربي في طرابلس عام 1911. في ذلك الوقت، حين تتعرض أية ولاية من الولايات العثمانية للمساومة والبيع والشراء في (السوق الأوروبية)، عادة لا يفكر أي طرف في موقف الإمبراطورية المريضة. ولما

كانت ايالة طرابلس شبه معزولة ومحاصرة بالاستعمار من كل جهة (مصر - تونس - الجزائر - تشاد - السودان) فإن السؤال الوحيد الذي كان يطرح: متى سيأتي دور ليبيا؟ ومن نصيب من ستكون هذه الولاية؟

تخلت تركيا رسميا لإيطاليا عن ليبيا بموجب اتفاقية - أوشي - قرب لوزان في العام 1913 بعد أن فشل الحاكم شوكت باشا وقائد حامية طرابلس كمال أتاتورك في ردّ الإيطاليين. وفي العام 1912 ستضع فرنسا يدها على المغرب رسميا بعد تردد كبير وصراع مرير مع الألمان. وفي العام 1916 دفع البريطانيون عرب الجزيرة إلى الانتفاضة ضد العثمانيين. وإذ أعلن أمير مكة الشريف الحسين (وهو على صواب وصدق) «أن العرب لم يعودوا رعايا السلطان العثماني»، فقد أعلن من جهة أخرى أمير الدرعية عبد العزيز ابن سعود «أن الإسلام لا يتبع بني عثمان». شق الإنكليز منذ البداية صف العرب والإسلام. وأوحوا لكل طرف بأنه سيصبح سيد الإمبراطورية الجديدة (عربية لأبناء الشريف حسين. وإسلامية وهابية لأبناء آل سعود).

إذا كان الجيش العثماني خليطا من العرب وغيرهم، فإن السكاكين والسيوف والبنادق من الجانبين قد عبثت في أجساد العرب كما يحلو للبريطانيين أن يشاهدوا ذلك. لم يكن الشريف حسين يريد أن ينتقم من تركيا! فالباب العالي أحسن إليه كثيرا! ولكنه كان يريد أن يحصد «بعض الشيء» حين يصبح الباب العالي غير موجود. كان تفكيره يأخذه إلى التحالف مع بريطانيا! لكنه كان قلقا. ثم خطا الخطوة الأولى..

بدت الثورة العربية! حتى وإن انطلقت من صحراء لا مدن ولا علم ولا ثقافة ولا مدنية فيها! لبعض العرب الآخرين! كأنها الدخول الأول نحو الحداثة. رأتها بعض النخب في مصر وسوريا ولبنان وخاصة النخب المسيحية! خروجا من التخلف العثماني! فراحت النزعات العربية تتفتح على أفكار الغرب ومفاهيم الدولة العلمانية والإدارة العصرية.

كان أمل «الشريف حسين» عريضا جدا. فهو يمتد من «ولاية مستقلة» إلى إمبراطورية عربية!. وقد استخدم كل الأساليب من أجل استحضار النخوة العربية المتعبة والمضجرة. كان يجمع بين العروبة الخالصة و«الإسلام النقي». فمن أجل لعب هذا الدور! لم يكن هناك من يقدر على منافسته. فهو عربي من بني هاشم. وهو مسلم من أحفاد الرسول. وقد تراءى له ولغيره أنّ هذه الثورة هي فرصة ذهبية لعودة العرب إلى التاريخ بعدما همشوا طويلا.

وسوف لن يكون كل شيء على ما يرام! فقد ردت اسطنبول بفتوى ودعوة إلى الجهاد. فأصبح المسلمون العرب يتقاتلون ويقتلون بعضهم بعضا. الفريق الأول من أجل بريطانيا. والفريق الثاني من أجل العثمانيين.

دخلت أسرة الشريف حسين في خلاف أخلاقي! فتزعزعت أركانها. ذهب عبد الله الابن الأكبر إلى آخر الشوط مع الإنكليز للحصول على مكافأته. أما الابن الثاني «فيصل» فقد اقترح الحرب بإخلاص إلى جانب الإخوة المسلمين الأتراك. فإن انتصروا حصل على مكافأة! وإن هزموا فإن الشرف سيحفظ في سجل التاريخ والعائلة. وجاء «لورنس» ليمسك بيد فيصل فيقوده نحو هدفه بطرق ملتوية وبسيطة. كان لورنس قد تكفل بخلق الدمى الجديدة أو بترقيص الدمى القديمة. فالعرب! كما كتب لورنس! «أقل استقرارا من الأتراك! فإذا أحسنت معالجتهم ظلوا في حالة تفرق سياسي: ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد»*[50].. وهكذا فإن العرب الذين صفقوا لثورتهم الأولى في بداية هذا القرن! لم يعرفوا أنهم كانوا يصفقون لميلاد دويلات صغيرة وهي عبارة عن دمى صغيرة وفي قلبها دولة يهودية بدأت في التصاعد من خلف ظهورهم..على أرضهم المقدسة.

*** *** ***

ففي نوفمبر من العام 1917 استيقظ قادة الثورة العربية على صفعة وعد بلفور الذي سيؤسس لدولة اليهود على أرض فلسطين. وإذ اتجهت كل من فرنسا وبريطانيا إلى تأسيس قاعدة جديدة لصناعة النفط! تكون الدولة هي المالك الأكبر والموجه الأول! فإنهما اكتشفتا في الوقت نفسه! أن الاعتماد على نفط أمريكا! لن يجعلهما أبدا يتمتعان بنشوة الانتصار الذي تحقق لهما في الحرب. تركز الاهتمام على نفط الموصل (التي كانت من حصة فرنسا حسب سايكس/بيكو). وعندما تمّ تنصيب الأمير فيصل ملكا على سوريا (الموصل كانت تابعة لها)! أحست بريطانيا أنها تقدمت خطوة باتجاه ذلك الخزان الهائل للنفط! غير أن فرنسا ستغضب وتتصرف بسرعة وبقوة حين قام الجنرال- غورو - بغزو سوريا مجبرا الأمير فيصل على الهرب من دمشق. أعيد تنصيب فيصل على العراق. قامت الصفقة بين فرنسا وبريطانيا وتتلخص في: إبعاد واشنطن عن المفاوضات. حصول بريطانيا على حق انتداب فلسطين! حق فرنسا في الانتداب على سوريا ولبنان ثم توزيع أسهم الشركة التركية للبترول بينهما بالتساوي. وبعد فترة أشار البريطانيون على أميرهم «فيصل» لكي يضم الموصل فيصبح تابعا للعراق. وسوف لن يدرك الفرنسيون حجم الخديعة! إلا حين يكتشفون أنّ البريطانيين قد بدؤوا يحفرون الآبار في منطقة الموصل.

ستحاول الولايات المتحدة أن تتسلل هي الأخرى إلى حقول الموصل! لكنها ستجد من يعرقل جهودها. فقد حاولت تشجيع التيار القومي التركي لاسترجاع الموصل تحت سيادة تركيا الجديدة. ثم اتجهت إلى إقناع البريطانيين بترك باب الشرق الأوسط

مفتوحا أمام الشركات الأمريكية! لكن الانكليز كانوا مصرين على إبعادها تماما. (ما أشبه اليوم بالبارحة..)

اتضحت حدود الإمبراطورية العثمانية المنهارة في العام 1925! ومعها اتضحت خارطة الآبار في الشرق الأوسط والخليج. وفي لندن قام رجل من أصل أرميني مختص في تجارة واستخراج النفط يدعى «جولبنكيان»[*51] برسم خط أحمر يضم داخله السعودية والإمارات والخليج وقطر والبحرين لتكون من نصيب بريطانيا. ثم تركت الكويت التي كان الأمريكيون قد بدؤوا فيها عمليات التنقيب! فيما راحت فرنسا التي تمكنت آنذاك من بناء صناعة نفطية مستقلة تتجه إلى بناء شركات مساهمة في نفط العراق! وهي تبحث عن مصادر أخرى في المكسيك وفنزيلا.

تواصلت حمى المنافسات على تلك المادة المشتعلة إلى حدّ أصبح فيه الوضع يتدرج شيئا فشيئا نحو حرب عالمية ثانية. وقد كان على العالم العربي (الحديث) أن يشهد ميلاده بالقرب من آبار النفط التي راحت تنفث النار وتبشر بالنعم والطموحات مع الطمع والاستبداد والنقمات. فما إن انتهى عصر الجوامع والصوامع والقلاع والتحصينات حتى أطل عصر الآبار والبراميل والمحركات ومعها القومية العربية والصهيونية والسلفية الدينية!..

*** *** ***

وإذا كانت بريطانيا قد أرضت غرور البورجوازية المصرية الوسطى بمنحها ذلك الاستقلال الشكلي في العام 21 وتمت مصادرة ثورة 1919، فلأنها كانت أيضا مهتمة في بلاد الرافدين بإيصال ملك آخر إلى العرش هو فيصل بن الحسين شريف مكة. فما بين استقلال مصر (فبراير/21) وصعود فيصل إلى العرش (أوت 1921) سبعة أشهر فقط! في تلك المدة أيقنت بريطانيا أن كسب العرب لن يتم إلا بتأسيس ولايات ومماليك متفرقة تمنع وتحبط أي نوع من الكيانات العربية الكبرى وتحطم كل الدعوات التي تنادي بالثورة أو تحلم بعودة الخلافة الإسلامية أو بعث إمبراطورية عربية. هاهم العرب استرجعوا أوطانهم من الأتراك، ولكن الأوروبيين قد امتلكوها منهم بالقوة والاحتيال. وهاهم العرب قد استرجعوا الإسلام من العثمانيين، ولكن الأوروبيين، قد أعادوا مصادرته بتشويهه وتوجيهه إلى الانغلاق من أجل دفعه إلى الموت أو الانتحار. وهنا بدأ الاندفاع الوهابي: فقد ولدت دولة ابن سعود من كفن «الثورة العربية». غطت رايات الإسلام الوهابي الأصولي! كل فلول جيش الشريف حسين الذي لم يعد له أي مكان في الحجاز. لقد حزم البريطانيون أمرهم وأيقنوا أن ابن سعود! أسد الصحراء!

قد قلب موازين القوى بحيث كان عليهم أن يساعدوه. كان الإسلام دائما بالنسبة لبريطانيا الاستعمارية أقل تصلبا وأكثر مرونة من العروبة الملحاحة! لذلك فقد هيأت كل الأجواء لكي تخدع أبناء الشريف بمملكتين هما : نهر الأردن والعراق- وتمنح لابن سعود الفرصة لبسط نفوذه على شبه الجزيرة العربية.

ففي العام 1925 أصبحت تحت سلطة ابن سعود كل من جدة والمدينة ومكة! وحين استسلم جيش الشريف حسين الهاشمي الذي كان أيضا مدعوما من الإنكليز! أصبح ابن سعود في العام 1926 ملك نجد والحجاز كله بلا منازع. وسوف تتساءل البلاد العربية والإسلامية كلها في حيرة: كيف يهان أبناء الرسول بهذه الدرجة ويطردون من بلاد أجدادهم؟ لكن القوة ستجيب عن ذلك، إذ أصبح ابن سعود أقوى رجال المنطقة كما أن التحالفات السياسية التي كانت تتغير بسرعة الريح في الصحراء! قد هدأت في لحظة عرف فيها ابن سعود كيف يقطف ثمارها عن جدارة.

في ذلك الوقت كان «الفيصل» قد جلس على العرش في العراق! بعد أن طرد من دمشق من قبل الفرنسيين. وإذ رآه العراقيون وكأنه ملك بلا روح! فقد طالبوا بتنحيته لصالح أخيه عبد الله! غير أنّ الإنكليز كانوا يستعدون في ذلك الوقت لإيصال هذا الأخير إلى عرش آخر.

اقتطعت أرض تقع بين الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا! فخطت حدودها بعناية! بحيث تصلح بأن تكون نقطة تحكم في المنطقة في المستقبل! ثم وضع على عرشها الأمير عبد الله! ذلك الذي كان يعرف بالفصاحة والشجاعة والكرم والتعاون المفتوح مع الإنكليز!. كانت عمان قرية صغيرة جدا حين اتخذها عبد الله عاصمة لمملكته في فبراير 1928. وهكذا أصبحت شبه الجزيرة العربية مقسمة إلى نصفين! نصف يقع تحت أبناء شريف مكة وهو الأردن والعراق. والنصف الآخر يقع تحتً سلطة ابن سعود.

كان يمكن أن يرى المؤرخ آنذاك أنّ العروبة ظلت مع أبناء شريف مكة! وهي عروبة دائخة! منهزمة! مسحورة بالانكليز ومريضة بل ومهتكة! وقد خسروا سلطتهم على جميع الأماكن المقدسة. أما الإسلام فقد حمل لواءه ابن سعود وأبناؤه منذ تلك اللحظة! وهو على أية حال، مثله مثل تلك العروبة! كان منهكا! مغلقا! مسحورا بدغدغات الغرب! ومهتكا..

إن الحسين بن علي بن فاطمة الذي قتل في كربلاء باسم «الشرعية الضائعة» قد أعادت السياسة قتله مرة أخرى في مطلع القرن العشرين في هيئة الحسين بن عليٍ! شريف مكة.

كان انشقاقا فظيعا منذ فجر الإسلام! ظل يتكرر من كربلاء إلى مكة، في كل منعطف جريج.هو بالضبط ذلك الانشقاق الذي حصل بين عروبة أبناء شريف مكة وإسلام أبناء ابن سعود والذي سوف يستمر في النزف إلى «عاصفة الصحراء» عند نهايات القرن العشرين ثم في خلال «الربيع العربي» عند مفتتح القرن الحادي والعشرين.

*** *** ***

كانت سرايا الحاكم التركي مدحت باشا هي مكان الاحتفال لتنصيب ملك هاشمي على العراق تحت حماية البريطانيين هو الأمير فيصل، ثالث أبناء الحسين شريف مكة. كان الاحتفال باذخا وإن كانت تظهر عليه علامات الفولكلور الشعبي. فالبريطانيون سياسيين كانوا أو ضباطا قد جلسوا مع رجال الدين المسلمين واليهود إلى جانب أعيان القبائل والأقليات والتجار.. كان كل منهم يفكر في حصته من ذلك الاحتفال الذي سينصب فيصلا ملكا على العراق. أما فيصل فكان ربما يشعر بالبهجة والراحة بعد أن تخلص أخيرا من عذابات لورنس! لكنه كان إلى جانب ذلك يشعر بالرجفة من الأخطار التي تحدق به من كل صوب.وقد يكون عاد بذاكرته إلى أبناء السيدة فاطمة ابنة الرسول الذين دعوا لحكم العراق فإذا بهم يقتلون وسط تشفي الأعداء وعجز الأنصار.. ولكنه وهو يستمع إلى إعلان السفير البريطاني «سير بيرلي كوكس» الذي قال فيه إنّ حوالي 96% من العراقيين قد اختاروا فيصلا ملكا عليهم! شعر بالراحة! وهي راحة كاذبة على أية حال له ولأسرته كما دللت أحداث التاريخ لاحقا..

كان ذلك في شهر أوت/أغسطس 1921. أما القرار فقد اتخذه وزير المستعمرات الشهير «ونستون تشرشل» في مارس 1921، فيما تولى التنفيذ السفير كوكس وسكرتيرته المثيرة «جيرترود بل» التي كتبت لاحقا تقول في إحدى رسائلها من بغداد: «يمكنك أن تثق في شيء واحد: لن أشترك أبدا مرة أخرى في خلق الملوك. إن في ذلك إجهادا شديدا»*52.

إن نسبة 96% التي نطق بها السفير البريطاني كوكس ستظهر أنها كذبة سمجة! ذلك أن أغلب الثلاثة ملايين عراقي كانوا يميلون إلى الأمير عبد الله شقيق فيصل. فقد برز عبد الله الفطن والداهية كفصيح كبير ومكافح ومحب للعروبة حتى وإن تعكرت فيما بعد حياته بالاتهامات، غير أنّ لورنس العرب هو الذي قاد فيصل إلى سوريا ثم إلى بغداد بدافع التكفير عن الذنب. ففيصل دخل ملكا على سوريا برفقة لورنس! لكنه طرد منها لأن السوريين قد عاقبوه على تنازلاته أمام «وايزمان» الصهيوني*53، ثم لأن الفرنسيين قد وجدوه أكثر استماعا واستمتاعا بالمناورات البريطانية. وإذ هب إلى لندن كلاجئ فقد أصبح عبئا على ضمير بريطانيا. وهكذا

فإن نصائح صديقه لورنس كمستشار لدى تشرشل هي التي رفعته ملكا على العراق.. لكنه ملك ضعيف وغير محبوب..

كان أغلب أعيان العراق وضباطه الذين شاركوا في الثورة العربية يرغبون في أخيه عبد الله. وقد شكل ذلك عقبة أمام فيصل! لكن البريطانيين عالجوها عن طريق صفقة رابحة بأن أعطوا لعبد الله مملكة أخرى على حدود العراق هي شرق الأردن. ففيما استقل الفرنسيون بنصيبهم من غنائم الحرب : سوريا ولبنان إلى جانب الاحتفاظ بولايات المغرب العربي (الجزائر، تونس ثم المغرب)، وباتت صحراء العرب تحت حكم أسد الصحراء عبد العزيز بن سعود الذي لم يكن بعيدا عن وطأة النفوذ البريطاني وهو يتطلع إلى التحالف مع القوة الأمريكية الصاعدة، تمكنت بريطانيا من بسط نفوذها على مصر والعراق وفلسطين وشرق الأردن إلى جانب بسط رعايتها الأبوية على المنطقة الساحلية من مسقط في الشرق إلى ميناء عدن في الغرب.

حين طرد فيصل من سوريا، جهز أخوه الأمير عبد الله نفسه لاسترداد ملك أخيه في سوريا. وإذ سخر الفرنسيون من استعدادات عبد الله، فقد اعترض البريطانيون على ذلك لأنهم كانوا يدركون نقاط ضعفه، فلو هجم الفرنسيون عليه، فإنهم كانوا سيحتلون شرقي الأردن. وهذه المنطقة كانت مهمة جدا للانكليز لأنها الجسر الجغرافي الرابط بين فلسطين والعراق (الفاصل القاحل) ثم هي الفاصل المبهم بين بر الشام وبرّ الحجاز..قال تشرشل لعبد الله الذي أحضره لورنس إلى القدس: «لا يستطيع فيصل العودة إلى سوريا لكن يمكنه أخذ العراق. أما أنت فيمكنك أخذ الأردن إن أحسنت التصرف»*54.. ثم انتهى الاجتماع.

آنذاك فهم عبد الله أن شرقي الأردن قد أصبح له بصفة نهائية. أما فلسطين- غربي الأردن فهي مجال مفتوح للصراع والوئام بين العرب واليهود. فاختيار بريطانيا «للسير هربرت صمويل» اليهودي الأصل كمندوب سام لفلسطين، كان ينبئ بذلك الصراع الدموي الذي لا يزال مفتوحا حتى هذه اللحظة. ألمح عبد الله في اجتماعه مع «هربرت صمويل»، إلى أن العرب غير مستعدين للتفريط في فلسطين لصالح اليهود. إلا أنّ ذلك اليهودي المراوغ قد أجابه «بأن الوطن القومي لليهود لا يعني دولة يهودية»*55. كان عبد الله ماهرا في المفاوضات والصفقات، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يجني أية ثمار مع البريطانيين واليهود..لقد طمأنوه من جهة بعبارات غامضة ثم هددوه من جهة أخرى بلغة مبهمة. وإذ خاف أن يخسر كل شيء! فقد قبل الذهاب إلى حفل التمثيل.. رفض البريطانيون أن يوضحوا أهدافهم. وقد برعوا جيدا في قلب العبارات وتعبئتها بالإيحاءات الايجابية للطرفين. فوعد «بلفور» حسب تشرشل

وكذلك حسب نوابه ومستشاريه ومندوبيه السامين هو وعد من وعدين، إذا ثبت أحد الوعدين، ثبت الوعد الآخر. ثم إن هذا الوعد يقول: «إن فلسطين ستكون وطنا قوميا لليهود» ولا يقول «الوطن القومي والوحيد». وهو ما يلخص أن تأسيس وطن قومي لا يعني تأسيس دولة يهودية تسيطر على العرب وتستحوذ على أراضيهم ومقدساتهم! والحقيقة أن الصهاينة لم يكونوا أكثر تطمينا من العرب. فهم أيضا شكوا في غموض البريطانيين ومناوراتهم! ولم يصدقوا أبدا أن بريطانيا ستمكنهم من فلسطين إلا إذا كانوا أقوياء.. وإذ حاول الأتراك بعد سقوط إمبراطوريتهم أن يواجهوا حقائق العصر بعيون مفتوحة، فيما اتجه قادة اليهود إلى المستقبل شاهرين المعرفة والمال والقوة، فإن العرب سجنوا في وعود بريطانيا الكاذبة ومتاهات الماضي المعقد..

*** *** ***

يتقدم التاريخ، فيصبح كل كلام «المنتصرين» حكما وتنبؤات، بينما كلام المنهزمين هراء وحسرات. وهكذا فإن ما قاله هرتزل ووايزمان وبن غوريون ومعهم لورنس وتشرشل وبلفور نفسه، قد سجل في كتب التاريخ على أنه عبقرية ونبؤات. أما ما حذر منه العرب ونطق به رجال كثيرون فقد اخذ على أنه ترهات. مع ذلك إذا كان الغموض وكذلك الطمع قد ذهب بعقول العرب، فإنه لم يذهب بأحاسيسهم العميقة.. فقد أدرك العرب عشية الحرب العالمية الثانية أنهم باتوا من الخاسرين لإسلامهم وبلدانهم وكذلك لمقدساتهم. فإذا كانت مكة قد أصبحت تحت إسلام ظلامي، فإن القدس قد باتت وكرا للعصابات الصهيونية..

وانطلاقا من فلسفة الصهيوني الكبير «هارون ديفيد غوردون» الذي دعا اليهود إلى العمل للدخول في دورة الحياة وذلك للتخلص من حياة الوساطة والسمسرة والاستقالة من الإنتاج، لاعتقاده بأنّ اليهود عليهم أن يبذلوا جهدا كبيرا للعودة إلى حياة طبيعية سوية، وكذلك لإيمانه بأنّ الحق في الأرض يعطي الذي يقاسي في سبيلها. عمل ابن غوريون في الأرض ثم في الصحافة فجمع بين قوة العضلات وقوة الكلمات. وهو ما أهلّه لبناء نقابات اتحاد عمال اليهود المسلح- نواة الهستدروت- التي كانت نواة لقوات - الهاجناه - ومن ثم - تساهال - (جيش الدفاع الإسرائيلي).. بدأ الشروع في تنفيذ تلك الأفكار قبل وعد بلفور! بل قبل نهاية الحرب العالمية الأولى. وأثناء الحرب عمل الصهاينة الناشطون على تنظيم أنفسهم مع أنهم كانوا مختلفين ومتنافسين. وإذاك راح غوريون يؤلف مجموعات مسلحة لحماية اليهود والمزارع من هجمات العرب بعد أن كان مناصرا للدولة العثمانية!

ففي بداية العشرينات، كان عدد العرب في فلسطين حسب الموسوعة البريطانية حوالي 700 ألف. أما اليهود فكانوا أقل من 200 ألف. وإذ ارتفع عدد اليهود نتيجة للكراهية التي انتشرت في أوروبا الشرقية بعد صعود الشيوعية في روسيا في السنوات الأولى من العشرينات ! فإن عدد الذين هاجروا من فلسطين من اليهود في العام 1927 كان أكثر من الوافدين إليها. .شعر العرب لأول مرة بالارتياح! لكن نفوذ الوكالة اليهودية ما انفك يتوسع وشعار اليهود «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ما انفك ينتشر وشراء الأراضي من المعدمين الفلسطينيين ما انفك يزداد.. وهذا كله ستصاحبه بعد فترة، هجرة جديدة واسعة نتيجة تصاعد العداء لليهود في بعض أنحاء أوروبا.. وخاصة في ألمانيا وهي تستقبل الرايخ في أواسط الثلاثينات..

شكلت أزمة 1929 في وول ستريت ضربة شديدة لاقتصاديات العالم كلّه. فهي لم تترك بلدا سالما بل زرعت الفقر والغضب في كل مكان. حتى الاتحاد السوفياتي الذي بنى ستارا قويا من حوله قد أدرك أنّ الأزمات تتسرب مع الهواء إلى كل بلد. .وبذلك فقد أرسلت بأمراضها النفسية. أما أوروبا الغربية أو الرأسمالية فقد تضررت إلى حد لم يكن يتوقعه أي متشائم! الأمر الذي خلخل قواعد جمهورية فايمار الضعيفة التي ورثت إمبراطورية ألمانيا العنصرية وقواعد فرنسا في المركز والأطراف..

وطالت الأزمة كلاًّ من ألمانيا وايطاليا. .ففيما اختارت ايطاليا الارتفاع عن الكارثة ببعث إيديولوجية فاشية حالمة باستعادة الإمبراطورية الرومانية، كان على الألمان أن يقنعوا أنفسهم بأنّ استعادة الرايخ هي الطريق الوحيد للخروج من الكارثة. وباختصار فإن أوروبا كلها بدت وكأنها قد أصبحت أرضا للعنات.

وفي سياق بين المجد والانحطاط، كان على ملايين الأوروبيين أن يهلكوا أنفسهم وقد جروا ملايين أخرى من البشر إلى الهلاك. وإذ ستسقط أوروبا صريعة الانقسام والخوف والهلع، وهي تودع العصر الأولمبي، فإن العالم كله سيصبح تحت تأثير قوى الجذب الجديدة والصاعدة وهما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

*** *** ***

دخل العرب القرن العشرين كاليتامى بلا علم ولا ثقافة ولا سلاح ولا أفكار واضحة. فقد توجت خساراتهم بخسارة فلسطين عام 48. فالقرون الأربعة من حكم الأتراك قد جردتهم حتى من صفاء لغتهم. أما دينهم فقد أضحى ركاما من الخرافات والاجتهادات الأصولية المغلقة. وإذ أطل عليهم عهد الاستعمار الغربي، فقد جعلهم مواطنين من الدرجة الثانية بعد أن استولى على أراضيهم الخصبة واستحوذ على

خيالهم ثم أشبعهم بالأوهام والأفكار البائسة.. لقد خرجوا من العصر العثماني الذي كان خليطا من القرون الوسطى والإقطاع والاستبداد والانغلاق الثقافي، ليدخلوا إلى العصر الأوروبي في جانبه المستبدّ والمتوحش والعنصري.

كان التخبط واضحا والفوضى عارمة. أما الأفكار تلك التي أنبتتها الأرض العربية أو تلك التي جاءت مع السلع من الخارج! فهي لم تكن صالحة لانجاز مشروع حضاري ولا حتى لانجاز مشروع استقلالي! ! كانت أفكارا مجنحة. متعالية في أغلب الأحيان. وإذ حاولت الاقتراب من الأهالي والواقع، فقد وقعت في المحظور أو المحرّم أو فيما عرف بالإيديولوجيات المتطرفة! الإلحادية منها أو الطهورية!!.

وفيما كانت تلك الأفكار تقع بين العروبة والإسلامية والليبرالية والاستبدادية العسكرية والاشتراكية والشيوعية! كانت النماذج الأكثر حضورا وتمثلا في المنطقة العربية من مراكش إلى برّ الحجاز تمتد من لينين إلى ابن سعود ومن موسوليني إلى كمال أتاتورك..

حمل فكرة العروبة كمشروع سياسي أبناء الشريف حسين. فقد أراد كل من عبد الله وفيصل وكانا يحكمان بلدين لم يولدا فيهما ولم يكن لهما فيهما لا أقارب ولا عائلات، أن يظلا أوفياء لفكرة- الثورة العربية- التي حاربا في صفوفها إلى جانب بدو وحضر من بلاد الحجاز وبلاد الشام والعراق. كانت الفكرة في أساسها توقا للاستقلال من العهد العثماني. وهي لا تعدو أن تكون نزعة سياسية برغماتية استمدت جذورها من أفكار جيل عصر النهضة العربي المتأثر بالنزعة القومية التي عمت بأوروبا في القرنين السابقين للقرن العشرين. وربما عادت الجذور البعيدة إلى عهد حملة بونابرت إلى مصر ثم صعود نجم محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا. ولكن دوافع النزعة العروبية في بداية القرن العشرين كانت تصدر عن رغبة العرب في الاستقلال وفي نيل حقوقهم المدنية وتوفير الحرية والعدالة الاجتماعية. وهذا ما جعل بعض المفكرين يطلقون عليها - القومية السياسية-. فالاتحادات الفيدرالية والكونفدرالية التي سعى كل من عبد الله وفيصل إلى إقامتها! كانت في الحقيقة صدى لرغبات استقلالية ترفع العرب والإسلام إلى مقام السيادة!!.

لم يكن الدين منفصلا عن تلك النزعة القومية السياسية. فأبناء الحسين هم بالأساس أشراف مكة، فهم يعتقدون أن غالبية العرب هم مسلمون. وأن النهوض بالعرب يحتّم النهوض بالإسلام..ففي العهد العثماني كانت العروبة منكفئة بل مغيبة وكان الإسلام منفيا كسلطة. وعلى تلك الخلفية كان التصور العام يقع في حدود بناء دولة عربية تقوم على أنقاض الدولة العثمانية ويكون على رأسها حاكم (سلطان أو

ملك عربي مسلم) لإعادة دمج العروبة بالإسلام. ففي مذكرة بعث بها الأمير فيصل إلى مؤتمر الصلح الدولي بتاريخ 29/1/1919؛ قال :»بصفتي ممثلا لابن الحسين الذي قاد الثورة العربية ضد الأتراك بطلب من بريطانيا وفرنسا جئت أطلب اعتبار الشعوب التي تتكلم العربية من خط يمتد من الإسكندرية إلى ديار بكر وجنوبا إلى المحيط الهندي؛ شعبا مستقلا معترفا به تحت ضمانة جمعية الأمم*[56]».

تلك الرسالة ستعقبها رسائل أخرى وطلبات أخرى، غير أن لا الفرنسيين الذين أشاعوا في السابق الفكر القومي في المنطقة قد استجابوا، ولا البريطانيين الذين وعدوا الشريف حسين بدولة عربية تقوم مقام الدولة العثمانية قد أوفوا بوعودهم.. فاتفاقية سايكس/بيكو السرية ستكشف للعرب؛ حين كشف عنها لينين؛ كم كانوا مخدوعين. فبدل الاستقلال والتوحيد. أضيف كل من العراق وسوريا وفلسطين وشرق الأردن إلى قائمة الدول الموضوعة تحت الانتداب (استعمار حمائي).. غير أنّ ذلك الانتداب سيزيد من حدة المطالبة بتقرير المصير والاستقلال السياسي وإشاعة الأفكار الوحدوية وبناء الأحزاب السياسية.. وفي المحصلة فإن ما سوف يظهر من أفكار قومية بعد الحرب العالمية الأولى سيعتبر فصلا ثالثا في كتاب القومية العربية.. وهو فصل يتميز بحيوية الفكرة حين باتت سلاحا بيد المثقفين ومطلبا شعبيا وردا على اليأس والخيبة والشعور بالخديعة من جانب البلاطات الحاكمة!!.

اتجهت المقاومة صوب الغرب الغادر والمتغطرس والذي أصبح يسيطر على كل الفضاء العربي. وباستثناء ما يعرف اليوم بالسعودية؛ كانت جميع أقطار العرب تقع تحت الاستعمار في أشكاله المتعددة: الاستيطاني والحمائي والانتدابي. وهذا الوضع سيستمر على ما هو عليه إلى حين هبوب رياح الاستقلال التي حلت مترافقة مع الحرب العالمية الثانية. وآنذاك ظهرت أفكار أخرى عن القومية تقع بين الوطنية الإقليمية والعروبة الإسلامية والعروبة العلمانية. ولأن التصور المنفصل لا ينتج في النهاية إلا الاستقلال المنفصل أو الانفصال المستقل؛ فإن النزعة القومية قد ذابت داخل النزعة (الوطنية/القطرية) وبدا أن هناك عدة قوميات (وطنيات) متمايزة ومتنافسة. فمن العراقية إلى السعودية إلى اللبنانية إلى التونسية، حتى إن ما يمكن أن يعتبر اليوم «تركيبا غير عضوي» كان فعلا في ذلك الوقت «وعاء أو سقفا» استطاع أن يجمع كل تلك التمايزات الإقليمية. ونعني به جامعة الدول العربية..

لقد ظل دائما مصطلح القومية العربية ملازما للاستقلال والاتحاد والوحدة.. وفي نظر مؤيديه ودعاته كان مشروعا يهدف إلى بناء الدولة العربية المتحدة، أي استكمال بناء الإطار المؤسساتي للأمة. وما يفرق بين القومية العربية وقوميات أخرى. أنّ العرب موجودون كشعب وأمة وثقافة؛ بينما هم غائبون كدولة. وهو ما يعني أنّ وجودهم

الثقافي والقومي واقعي. بينما وجودهم المؤسساتي والسياسي كان ولا يزال افتراضيا.. وقد كان يفترض أن تخترع عدة صيغ أخرى وجديدة لبناء ذلك الفضاء السياسي للأمة العربية، غير أنّ جميع من كانوا قوميين سجنوا أنفسهم داخل مفهوم الأمة/ الدولة.. وكنتيجة لذلك بات الشعور الوطني الضيق أكثر رجاحة من النزعة القومية الجامدة أو الغامضة! الأمر الذي جعل من كل حكومات الاستقلال العربية تنزع نحو بناء كياناتها الوطنية بكثير من البراغماتية والتواطؤ مع الخارج ورأسمال الريع.

ولم تنزع القومية العربية نحو العلمنة إلا في زمنها المتأخر جدا.. وسوف يشهد تاريخ الأحزاب القومية (البعث، القوميون العرب! الناصريون) أنهم كانوا يفتقدون الوضوح والمكاشفة، إذ ظلوا مندغمين مع الدعوات العنصرية والمشاريع الضبابية والنزعات التمجيدية إلى وقت طويل. فهم لم يكونوا قادرين على إدغام التوأم (العروبة والإسلام) في صياغة جديدة! كما هم لم يفككوا العلاقة الجذابة بين الديمقراطيين وبناء مشروع دولة اتحادية ذات مجتمع مدني متنوع ومتمايز في المرجعيات والتوجهات، كما هم ظلوا عاجزين عن اجتياز عتبة الدين وحلّ إشكالياته! الأمر الذي دفعهم إلى خارج الحلبة أمام هجوم التيارات الوطنية /القطرية والنزعات الدينية الخلاصية..

أصبحنا نعرف الآن أن الاتجاهات السياسية التي سيطرت على الشرق العربي كانت تتراوح بين النزوع نحو تقليد النموذج الغربي في مسلكيته الليبرالية والبرلمانية! والنزوع نحو تقليد النموذج السوفياتي الجديد في مسلكيته الاجتماعية والحقوقية. وهذان الاتجاهان سيظلان تحت سيطرة نخب لم تتمكن أبدا من وضع قدميها على الأرض العربية القاحلة والمتعطشة للأفكار الجديدة.. وإلى المهادنة ثم الاتحاد الديني الإسلامي في جميع مقاماته الإصلاحية والتنويرية والأصولية.

*** *** ***

وإذ بدأ ابن سعود وكأنه الناجح الوحيد أو المنتصر الوحيد في حمّى الحرب العالمية الأولى إذ أصبح يسيطر على دولة مترامية الأطراف وراح يعقد الاتفاقات مع القبائل المتمكنة والدول الجديدة الصاعدة.. وهو يلهب حماس رعاياه بخطاب ديني متقشف داعيا إلى العودة إلى أصول الدين الحنيف ورافضا أية فكرة قد تفصل بين السياسة والدين أو تسعى إلى تهميش الديني وتجفيف منابعه! أصبح ابن سعود نموذجا له أتباع وأنصار في كل بلد من البلاد العربية الإسلامية..

جاءت الإستجابة واضحة ومشبعة بالروح الانتصارية في أرض الكنانة. فقاهرة المعز والأزهر لم تتخلص بعد من أحلام عودة الخلافة. وهي تعتقد حسب نخبها الصاعدة

والخارجة من ردهات الأزهر وأروقته أنها الأكثر تأهيلا لوراثة الخلافة الإسلامية.. وإذ دللت التجربة البرلمانية على بؤسها وارتهانها لدى القصر المحاط بالفاسدين والانكليز المدججين بالسلاح والكراهية! فإن هناك من كان يعتقد نفسه أنه البديل والردّ الحاسم على سعد زغلول.

كان سعد زغلول في نظر الشيخ حسن البنا حين بدأ مشواره السياسي في العشرينات من القرن العشرين عبارة عن نسخة شعبية للخديوي إسماعيل أو لكمال أتاتورك. فهو يسعى إلى بناء النموذج الغربي على أرض الشرق. لم يكن «البنا» الذي عاش بين القاهرة والإسماعيلية! أي في بيئة ذات تنوع وثراء ثقافي وعرقي ومعماري، وهابيا خالصا. بيد أنه سيجد في صعود نجم ابن سعود تشجيعا عاطفيا لكي يبدأ دعوته. ولقد مثل «البنا» ظاهرة التكرار الدوري للإسلام النقي والطهوري لا طبقا لتعاليم الغرب كما يعتقد زغلول باشا ومصطفى كامل من قبله، ولا حتى طبقا للنظرة التلفيقية التي تبناها تيار محمد عبده الإصلاحي والمعتدل والذي قام على مبدأ النقل والعقل.

ورغم أنّ قوّة الواقع ستدفع باتجاه التلفيقات الأيديولوجية للموازنة بين ما هو مطلوب وما هو متاح! إلا أنّ الإسلام سيظل المرجعية الأكثر رسوخا في جماهير العرب المسلمين. فالإسلام ليس طقوسا فقط. فقد كان ولا يزال منظومة من المعايير والمفاهيم والمقاييس في الحياة اليومية لعموم المسلمين. وهي بمثابة الضرورة. وقد تكون تلك الضرورة وهمية أو هي من اختراع قوى السلفية، غير أنّ قوتها تكمن في عفويتها لدى العرب المسلمين.. وبهذا احتفظ الإسلام بقدرته على تحريك الجماهير وحثهم على التغيير ورفض ما يمكن أن يكون خداعا أو دسّا. فمنذ القرن الثامن عشر، كان الإسلام السياسي لاعبا أساسيا في الأزمات التي كانت تعصف بتلك المجتمعات. وقد أخذ على عاتقه مهمات التغيير لخلاص الناس من الفساد والغش والاستعمار. ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهر بين مفكري الإسلام تيار يدعو إلى التوازن بين النقل والعقل.. وبين التأصيل والتحديث. وهو ما يعني تحريرا للعقل المفكر وتفسيرا عقلانيا للمنقول. وإذ بدأ ذلك التيار وكأنه حقق انتصارات واعدة في مصر مع حركة الإسلام الإصلاحي كمخرج لإسلام السلطة المتخلف والمنغلق. فقد جلب القرن العشرون محنا وامتحانات عسيرة للإسلام الرسمي.. وإذ سار التيار الإسلامي الإصلاحي على نهج ثنائية تعميق الوعي بأصول الإسلام وتعميق الوعي بضرورة التحديث! فإن توسيع قاعدة المتعلمين وانتشار التكنولوجيات قد أعطيا لأصحاب التيار الإصلاحي مصادر مهمة لتبرير ملاءمة الإسلام مع إصلاحات التحديث. ومنذ أن ألغيت الخلافة في العام 24 بقرار من أتاتورك! وجد من يدعو إلى بناء جامعة إسلامية تحلّ محلّ الخلافة..

والواقع أنّ فكرة الجامعة الإسلامية تعود إلى الربع الأخير من القرن الـ 19. وذلك لتزايد الشك في صدقية الخلافة العثمانية. لكنها عادت بقوة بعد الحرب العالمية الأولى لتصبح قوة ضاربة ضد ما كان يسمى بالانحراف الفكري في العالم الإسلامي. فقد تمكنت بريطانيا من إخضاع تلك الجامعة إلى محاربة «الإلحاد الشيوعي»! فأصبحت أداة من أدوات بريطانيا في حربها ضد الاتحاد السوفياتي!

انطفأت أضواء تلك الجامعة وأصبحت في نظر جزء كبير من النخب الحديثة مجرد بيت تسكنه الأشباح والأفكار المغلقة والمظلمة. وإذ حوربت النزعات الإسلامية المكافحة للاستعمار على نحو لا هوادة فيه. فقد زرع شك كبير في توجهات الجامعة الإسلامية. وإذ تمّ تفريغ الشحنات الإسلامية والمكافحة من محرك الجامعة الإسلامية، فإن نزعة القومية المكافحة قد خفت بريقها وباتت عبارة عن «مراجع بائسة» بدويلات جائرة ومنحطة السيرة.. وبذلك تم تفريغ العروبة من الإسلام والإسلام من العروبة إلى حدّ كان فيه المشهد العام على قاب قوسين أو أدنى من الحرب الأهلية.. ومع نهاية العشرينات من القرن الماضي! سيطرت الصياغات المبهمة لما يسمى بالإسلام التحديثي أو «الإسلام السياسي».

فقد أصبحت توجهات الأفغاني ومحمد عبده التحديثية والإصلاحية تمثل في نظر البعض اغترابا، كانت في نظر البعض الآخر، انحرافا أو زواجا مع التوجهات الشائبة وغير النقية. وإذ فاق مفكر مثل علي عبد الرازق أستاذه محمد عبده في ضرورة الجمال والعقل وتحدي المنظومة الفكرية الإسلامية. فإنّ رشيد رضا أصبح يدعو إلى التقليد. كان رشيد رضا أحد زعماء التيار الإسلامي التحديثي. وقد وصل إلى قناعة في بداية الثلاثينات إلى أن الاعتدال هو صمام أمان للمجتمعات الإسلامية وللإسلام أيضا. فتزعم ما كان يعرف «بالتيار الوسط» الذي حارب ممثلي الإسلام الرسمي وممثلي الإسلام المتطرف. وقد عاضده في ذلك أحد رموز القومية العربية مثل شكيب أرسلان. ولم يكل رشيد رضا في دعوته إلى الاعتدال والوسطية معتقدا أنّ كل الإسلام موجود في القرآن.. وإذ بدا رشيد رضا وكأنه قد استوعب جيدا التحولات الاجتماعية والتنوع السياسي والفكري في العالم الإسلامي! فإنه في نظر منتقديه وكذلك في نظر دارسي سيرته! قد تراجع عن الاتجاه التجديدي العقلاني لمحمد عبده والأفغاني وعاد إلى المعتقد الإيماني. فجر الصراع بين أتباع عبده ورشيد رضا! مسألة فكرية تعنى بقيمة الأخلاق. وبينما رأى أنصار عبده أن الأخلاق في القرآن تقوم على أساس نفعي للناس! قال رشيد رضا: «إن القرآن لا يجيز النفعية»..

والحقيقة أنّ مثل تلك المسائل كانت جدا مهمة بالنظر إلى التغيرات التي عصفت بالمجتمعات الإسلامية. بل باتت محكا لقياس الالتزام الروحي والعقائدي للقيادات

الإسلامية. وقد اجتاحت حماها جسد كل الحركات والجمعيات والأحزاب الإسلامية من ابن باديس الجزائري إلى الثعالبي التونسي ومن محمد كرد علي السوري إلى الشيخ بوشايب الدوكالي المغربي.

إن ساحة النقاش الإسلامي التي كانت شاسعة! كانت أيضا مضطربة وفوضوية وتسيطر عليها الاتهامات ومبدأ العود على بدء. فمعظم التفسيرات التي جاء بها رجال الفكر الإسلامي في العشرينات لم تخرج كليا عن نطاق ما كان سائدا من تفسيرات في نهاية القرن الـ 19. كما أنّ ما سوف يطرح للنقاش كدفاع عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية سوف لن يكون إلا نسخا أخرى من نقاشات الماضي. فما إن رفع رشيد رضا راية نهضة العقيدة وصفائها حتى اتخذتها المنظمات الإسلامية في كل من سوريا ومصر وتونس والجزائر شعارات لهم، مثل جمعية «العلماء المسلمين» والمنافسة لـ«جمعية الشبان المسيحيين».. وتتلخص وجهة نظر كل هذه المنظمات والجمعيات في مقالة نشرتها عام 1929 مجلة «الشبان المسلمين» في سوريا! قالت: «أليس هناك دواء آخر لأمراضنا سوى دواء واحد وهو العودة إلى القرآن».. غير أنّ تلك الحمى الإسلامية التي اجتاحت جسد المجتمعات الإسلامية والتي ستتطور إلى أن تتبنى بعض فروعها مبدأ العنف والقوة ستكون مصاحبة لأعراض مرضية أخرى ربما كانت أكثر فتكا، وهي أعراض الإرهاب والفاشستية التي حلت مع حلول موسوليني في ايطاليا..إن موسوليني رغم كونه قد اجتاح جزءا آخر من أرض العرب (ليبيا). فقد حاز على إعجاب كبير من بعض الشباب العربي والجمعيات الإسلامية. وحين يصعد هتلر إلى المسرح العالمي سيزداد الإعجاب في البلاد العربية بهذا النازي الجديد الذي جاء لتدمير أعداء العرب والإسلام: فرنسا وبريطانيا!..

إذا كان الدين لم يمت فإنه لم يتطور لا في مصر ولا في بقية بلدان العرب. ولا حتى في تركيا الكمالية..في تركيا أصبح مزيجا من العادات القديمة التي تدل على عظمة قد زالت والعادات المكتسبة التي تدل على ولادة مجتمع مضطرب ومتغير بقوة الدفع اللاإرادي.. أما في البلدان العربية فإنه قد أضحى عاملا مؤثرا في الحياة السياسية، لكنه ليس محددا للتوجهات. وإذ وجد أمامه تيارات أخرى، قوس قزح من الأحزاب والإيديولوجيات وهي تصارعه على الأهداف نفسها، ونخبا حاكمة مرتعبة تسعى إلى تهميشه، فقد تحالف موضوعيا مع عنف الحركات أو التيارات الأكثر تجذّرا وانغلاقا وعنصرية.. فإذا كان الوطنيون بعد فترة سيعربون عن إعجابهم بكمال أتاتورك، فإن الإسلاميين ومعهم بعض القوميين سيعجبون بموسوليني الايطالي.. ففي تلك التربة الخصبة التي تحتاج إلى الحرث والزرع، كانت الأعشاب الطفيلية تنمو بسرعة وفي

غفلة من الفلاحين الكبار المتقاعسين.. وما إن تم إسقاء تلك الأرض العطشى بالبترول حتى «احترق» كل شيء. فالدين والبترول كلاهما مادة مشتعلة..

*** *** ***

إذا كان النفط قد فتح أمام بعض العرب فرصا جديدة نحو الرفاهية والحداثة، فإنه قد فتح أمامهم كذلك عصرا آخر من الانقلابات العسكرية والصراعات السياسية في جميع ألوانها وطبعاتها. (من الوطني القطري إلى القطري القومي ومن الشيوعي/ الإشتراكي إلى القومي الفاشي، ومن الإسلامي الوهابي إلى الإسلامي المعتدل). وهذا ما طبع حياة العرب (أنظمة ودولا ونخبا) منذ عشرينات القرن 20 إلى هذه اللحظة (عشرينات القرن 21).

إن البئر التي لطالما رافقت الصومعة في تاريخ الغرب (منذ بئر زمزم إلى آخر بئر نفط) تلك الثنائية قد تحولت إلى مركب مثلث للسلطة العربية. فهي التي أتت بالجنرالات، وهي التي أتت بحكم الأيمة (أصولية عسكرية وأصولية دينية). وهذان الشكلان من السلطة لطالما تعاونا في الخفاء وتخاصما في العلن ثم راحا يختفيان من شدة الإرهاق تاركين الساحة لأجيال جديدة من العنف لازال يقودها التطرف الديني (الإرهاب الأصولي) والتطرف العسكري (في أشكال متعددة).

كان استرجاع الإسلام من العثمانيين ثمنه مرتفعا جدا. لقد تم ذلك مقابل التنازل عن البلاد العربية لصالح الأوروبيين. وكان «استرجاع الأوطان العربية» من أوروبا مقابله ثمنا مرتفعا جدا. وهو تخريب وتقسيم العرب باسم الوطنيات المعطوبة والإيديولوجيات الفتاكة ثم تدنيس الإسلام وتشويهه باسم استتهاضه وتطهيره حتى ليصبح العالم العربي كله منتجا للإرهاب! وعدوا متخيلا ومفترضا للغرب، حتى ليصبح الغرب، كل الغرب شرسا وكارها للعرب ولإسلامهم!..

*** *** ***

ولكن، مثلما تنبض عروق الغرب بالكراهية وفلسفات النفي للآخر والشراسة تجاه الكون الإسلامي باعتباره العدو المحتمل والمفترض والمتخيل، و(الواقعي)، يخرج الإسلام بجميع تنويعاته (السني والشيعي، القروسطي والحديث، المنغلق والعابر للحدود) ليشيع في الغرب الخوف والهلع. فالهلال الإسلامي الممتد من حدود الصين إلى غرب إفريقيا، هو الآن أراض خصبة لانبعاث هذه النزعات الطهورية على يدي أبناء الله المنقذين أو الإنقاذيين من أجل أن يأخذوا حصتهم من التاريخ في انتظار أن يأخذوا ما لهم وما للقياصرة من حصص في الدولة (المستبدة والكافرة)!..

قد تبدو المعركة بين «الظلاميين» و«الظالمين» في الظاهر ولكنها في العمق ليست إلا بين كونين، كون الغرب وكون الإسلام، وكل منهما قد تخطى الموجة الرابعة أو الجيل الرابع في تلك المواجهة التي بدأت منذ ما قبل الدولة الحديثة إلى عصر ما بعد الحداثة!

لندخل مباشرة إلى القرن العشرين ولنقل منذ البداية أن إسرائيل التوراتية، إسرائيل الدولة الأولى في العالم الحديث التي بعثت من رحم الدين والخرافة هي نقطة البداية والنهاية لما يسمى بـ «الإسلام الأحمر» أو «الإسلام الأخضر» أو «الإسلام المجاهد» أو «الإسلام العابر» أو «الإسلام المهان» أو «الإسلام القيامي والرؤيوي».

فهي رأس جسر غربي في أرض الشرق. وهي رمز التحالف اليهودي/المسيحي ضد الكون الإسلامي، وهي الدولة الدينية المزروعة في قلب منطقة الأديان بعد السعودية الوهابية! ثم هي «دولة الأوفشور العالمي» في جغرافية الثبات والعراقة، ودولة الآلة الحربية التي يشهرها الغرب في عقر دار الإسلام. وأخيرا فهي بؤرة كل أشكال التناقض بين الشرق الروحاني والغرب المادي..

ولن يكون أمرا جديدا لو قلنا كذلك منذ البداية أن انفجار الكون الشيوعي قد صاحبه انتصار كبير لدولة إسرائيل على محيط الإسلام والعرب. قبل ذلك كانت إسرائيل لاتزال تعيش بين قوسي الصراع بين الشيوعية والرأسمالية، وتقتات من هوامش المعسكرين (الحرب الباردة). أما اليوم فهي تضع نفسها كدولة شرعية تجاوزت شروط الاستثناء والشذوذ.. فهي صاحبة الحق الأكبر في الانتصار الذي أحرزه الغرب على الشرق الشيوعي، وهي كذلك صاحبة الامتياز الكبير في حرب الغرب ضد الإسلام العابر للقارات. وكما لم يكن بإمكان الرأسمالية أن تنتصر على الشيوعية بدون إسرائيل، فإنه ليس من المحتمل أن ينتصر الغرب على الإسلام بدون إسرائيل. ذلك ما تسوقه الدعاية الصهيونية/المسيحية المتحالفة مع الكوسموبوليتية الماسونية*[57].

ولكن هل الإسلام هو العدوّ الرئيسي للغرب؟ أم أن الغرب هو العدوّ المعلن للإسلام؟ ومن في الغرب أو في كون الإسلام له مصلحة في تغذية ذلك المناخ المشحون بمخاطر تهدد الكرة الأرضية كلها؟

لا يخلو المشهد التراجيدي من عدة مناظر كوميدية. ولطالما تساءل المرء كيف يعقل أن يحارب الغرب مع الإسلام واليهودية على أرض إسلامية دولة إسلامية أخرى؟ أو كيف يعقل أن يدعم الغرب دولة إسلامية شبه معدومة (نقصد أفغانستان) ضد إمبراطورية علمانية تحكمها نظرية ولدت من رحم الفكر اليهودي/المسيحي والمادي؟

أو كيف يستوي الأمر حين نرى الغرب يركض لإنقاذ دويلة إسلامية في قلب أوروبا (ونقصد البوسنة أو حتى الكوسوفو) بينما هو يركض في الاتجاه الآخر لحرق أو لحصار دولة إسلامية أخرى لا تريد أن تشارك في صلاة الغائب مثل العراق وليبيا؟

كان تأثير الأوهام والأحلام في أحيان كثيرة أكبر من تأثير المصالح. ولا شك حين تفتك فكرة ما بدماغ رجل أو قائد أو حتى أمة، فإنها تجعلها آلة مسحورة تتحرك بلا إرادة. وهذا بالضبط ما حدث أثناء حرب الخليج الذي صادفت انهيارات كثيرة في المعسكر الشيوعي. ففيما كان جورج بوش يستشهد بفقرات من التوراة والقرآن وهو يعلن الحرب على العراق، كان صدام حسين يعلن نفسه كقائد ملهم للأمة الإسلامية وهو يلوح بالقرآن وبجذوره الهاشمية!.. لقد ابتدع المتخاصمون دائما وعبر التاريخ اللغة الأكثر جاذبية للناس والجنود، فكانوا دائما في حاجة إلى الكتب الدينية والنصوص المقدسة من أجل أن يثبتوا أنهم عل حق وأن أعداءهم في طريق الباطل*58.. وسواء في الحروب أو في عهود السلام، كان القادة السياسيون يعودون إلى النصوص المقدسة لإقناع جماهيرهم، حتى لكأنهم مجرد رجال لا يمثلون إلا مرجعية مؤقتة للسماء.. أو لم يطلق السادات على نفسه وكذلك على خصمه وصديقه بيغن لقب «المؤمن»؟ أو لم يقرأ رابين في حديقة البيت الأبيض نصوصا من التوراة قبل أو يوقع على السلام مع الفلسطينيين؟ أو لم يكتب الرئيس كارتر صانع إتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل كتابا أسماه «دم إبراهيم» قال فيه بما معناه «إن ذلك السلام كان يحتاج إلى ثلاثة رجال مؤمنين (بيغن اليهودي وكارتر المسيحي والسادات المسلم)، لكي يحفظوا دم إبراهيم من الهدر»؟.. أو لم يستشهد الرئيس أوباما في القاهرة عام 2009 بأكثر من آية قرآنية وبأكثر من مقطع من التوراة والإنجيل؟!

***   ***   ***

منذ سقوط جدار برلين ثم سقوط عاصمة الأممية الشيوعية موسكو، ابتدع المتطرفون الغربيون وبالتحديد الأمريكيون نظريتين تنتهي كل واحدة منهما بالتأكيد على أن عدو الغرب الجديد (المحتمل والمتخيل) هو الإسلام. الأولى تلك التي جاءت في كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» للمفكر «فوكوياما» التي نظرت إلى التاريخ على أنه سلسلة متتابعة في خط ممتد من الصراعات بين الحرية والعبودية بلغت شوطها الأخير بالغلبة لصالح الديمقراطية والسوق الليبرالية ونهاية السيادات الوطنية، لكنها لازالت تتموضع لهجوم أخير وساحق على كل النزعات الدينية والعرقية من أجل بلوغ السعادة! أما الفكرة الثانية فتلك التي جاءت عبر كتاب «صدام الحضارات» للمفكر الأمريكي «صومئيل هونتغتن» الذي يقسم العالم إلى ست حضارات قائمة على الانتماء

الديني، وهي تتحكم في مسارات الصراعات المستقبلية التي توشك أن تكشف لنا عن حروب مفتوحة بين أممية الحضارة المسيحية-اليهودية من جهة وبين جبهة الحضارة الإسلامية التي قد تتحالف مع الحضارة الكونفوشيوسية..

إستشهد «هونتنغتن» الذي حاول جاهدا أن يكون حياديا بتنبؤات صدرت عن مفكرين ومحللين آخرين من أمثال «بريجنسكي» الأمريكي و«برنار لويس» الفرنسي و«جامع أكبر» الهندي و«علي مزروعي» الكيني و«المهدي المنجرة» المغربي (لكي يموضع نظرية صراع الحضارات). وهؤلاء جميعا اتفقوا دون سابق لقاء بينهم على أن عدو الغرب القادم والمحتمل هو بلا شك العالم الإسلامي وأن حروب الحضارات قد بدأت بعد انتهاء حروب الإيديولوجيات*[59] (أول من كتب عن حرب الحضارات هو المهدي المنجرة في العام 1992). وأن المعركة من أجل ما يسمى بنظام عالمي جديد لم تعد توجد في الكون الشيوعي، حتى وإن كانت الصين الشعبية على قيد الحياة، وإنما هي الآن في الديار الإسلامية المنتشرة من غرب إفريقيا إلى برّ الصين..

ولا يخفي مفكر مثل «برنار لويس» إيمانه بأن تكون المعركة رد فعل تاريخي لعدو قديم ومسلح بكل المعتقدات والرجال والقدرات، ضد الإرث اليهودي/المسيحي ونمط عيش الغرب وانتشار ثقافته عبر العالم.

حقا ليس في ذلك الكثير من التحامل. فنشطاء الحركات الإسلامية كثيرا ما تستهويهم تلك التحليلات خاصة تلك التي تجعلهم فرسان المعركة الإلهية المقبلة ضد الغرب الشيطاني. بل هم كثيرا ما يغذون تلك المخاوف عن قصد وبلا قصد. وفي غالب الأحيان لا يقصد واضعو المتفجرات قتل أكثر عدد من الأعداء المحتملين، وإنما هم يقصدون إنتشار الهلع في صفوفهم، وهو أسلوب قد يدل على ضعف القوة المهاجمة، ولكنه يجعلهم ذوي مهابة وبطش. ولأن الأساطير كثيرا ما تشارك في بناء الإمبراطوريات، فإن نشطاء الإسلام العابر للقارات، يحبون كثيرا نسج الأساطير عن قدرتهم وعجائبهم وحتى عن إلهاماتهم. ومهما كانت الإغراءات التي يزينون بها تلك الأساطير جميلة أو قبيحة، شرعية أو غير شرعية، نظيفة أو وسخة، فإنها باستمرار تستمد نفسها من الخلفية ذاتها وهي: الصراع الأبدي القائم بين الأمة الإسلامية ذات النزعة الروحية والطهورية وبين خصومها الماديين والشياطين (الغرب).

كذلك تنام الديمقراطيات الغربية. وهي كثيرا ما تنام في خدر فكرة ساحرة وفي نفس الوقت مهتكة للتعايش والسلام. وهذه الفكرة تقول أن الغرب لا يستطيع أن يعيش بلا أعداء. وهو منذ فقدانه للعدو الشيوعي وهو يشعر بالضياع وبفقدان البوصلة. ولذلك وجب بعث عدو آخر شرير وشرس لإثارة التحدي في أوصال الغرب البارد.

وهذه الفكرة التي أنتجتها نخب - الديمقراطيات الغربية - غذت مخزون الأصوليات الشرقية بحيث أعطتها الأهلية والشعور بالوجود وكذلك القدسية. ويفسر ذلك اللقاء بين الديمقراطيات والأوصوليات مفكر مثل «جان كريستوف ريفان» في كتابه «الدكتاتورية الليبرالية»*[60] «بأن الديمقراطيات الغربية من فرط ما تعرضت إليه من تمجيد، فقد أصبحت ترى في نفسها نموذجا مطلقا وفي نفس الوقت نموذجا مهددا بالأشرار والوحوش إلى حد أصبح فيه من الضرورة إنتاج عدو محتمل لتبرير الوجود المطلق».. أما الأصوليات أو الهويات الأصولية فهي من فرط ما تعرضت للإهانات، فقد رفعت إلى مصاف النزعات القدسية التي تتغذى من الألم إلى حد أخذت فيه على عاتقها إخضار يوم القيامة قبل موعده!

ولكن ماذا يعني تعبير الهويات الأصولية أو «الأصوليات الشرقية» في ذهن أي غربي؟ لا مكان هنا للتأويل أو التعداد. فالمقصود هنا هو واحد وفقط هو الإسلام. وحتى لو أن هناك من يعتبر جذر «الأصولية الشرقية» يبدأ مع دولة تأسيس إسرائيل مثل المفكر «غارودي»*[61] أو من ينظر إلى احتمال قيام حلف بين الإسلام والكونفوشيوسية مثل هونتنغتن، فإن النموذج المطلق والمشاع عن الأصوليات الشرقية هو الإسلام..

صحيح أن الإسلام هو القوة الروحية الوحيدة القادرة على هزيمة - القوة الرأسمالية - مثلما كان قادرا على هزيمة القوة الشيوعية (بريجنسكي) ولكن هذا لا يجعل منه العدو الأكبر لا للرأسمالية ولا للديمقراطية. إن كلمة «العدو الأكبر» هي التي توجد في غير مكانها. ولو أنها استبدلت بكلمة «البديل الأكبر» فإن الأمر سيصبح مجرد جدل أو صراع أفكار أو صراع أنماط عيش وإنتاج. ومن ثمة صراع ثقافات في دائرة الخلاف والإختلاف ليس إلا.. ولكن وبما أن الأصوليين الغربيين، كثيرا ما يتعاونون مع الأصوليين الشرقيين بقصد وبلا قصد ويتحاورون في الصمت والضجيج على حد سواء ويتبادلون الخدمات الدقيقة، فإنهم سوف لن يصنعوا غير الكارثة!

يملك الإسلام كل ما من شأنه أن يجعل منه قوة جبارة وعدوا محتملا للغرب وديمقراطيته. فهو يقوم على عقيدة روحية هي القرآن وعلى مرجعية ثقافية هي أنماط العيش والإنتاج والحكم. وعلى قدرة هائلة من السرد والجدل، هي التفاسير والإجتهادات. ويضم في صفوفه أعدادا غفيرة تصل إلى المليار إنسان ونصف المليار. وموجود على رقعة جغرافية غير محدودة تخترق العالم من كل الجهات، ويحتوي على أسواق كبيرة وكفاءات عالية وأسلحة فتاكة منها القنبلة النووية (الباكستان). إلى ذلك فهو يعيش في داخل الغرب نفسه وخارجه، ومع ذلك، فإن فكرة العدو هي فكرة مصطنعة وخيالية ولاتزال غير ناضجة في الضفتين. فالأممية الوحيدة

التي تخيف الغرب كما تخيف الدول الإسلامية نفسها هي «أممية الإرهاب». أما ما يسمى بالأممية الإسلامية فهي غير موجودة حتى الآن.. وإذا كان هناك من يعتبر أن «الإرهاب الإسلامي» هو القابلة «للأممية الإسلامية»، فإن ذلك الإرهاب لايزال غير منظم ولا يملك أية أهداف إستراتيجية أو جيوستراتيجية أو حتى هوية سياسية ثقافية! وهو موجه ضد الجميع، وقد لا يكون في النهاية إلا الشيطان الذي سيقتل الأممية الإسلامية في المهد.. (وهناك يصبح الشك عنصر فعال للوصول إلى اليقين: هل حقا أن هذا الإرهاب المعولم هو من صنع الإسلاميين فقط؟ أو هو من صنع المسلمين العرب فقط؟ أو هو من صنع الغرب؟)

ويحلو للغربيين، حتى أولئك العقلاء منهم أن يسكنوا في الإلتباس ويخلطوا بين العرب والمسلمين. وفي غالب الأحيان ينسون أن العرب جزء من الإسلام، وليس الإسلام فرع من العرب.. وإذ يبدو الأمر معقدا لشرح ذلك الإلتباس (لأنفسهم)، فإن الميل يبدو مرضيا نحو تعميم تهمة التعصب والتطرف على كل ما هو عربي أو مسلم..

حقا لا يجادل إثنان في أن الإسلام منتوج ثقافي عربي في البداية، كما لا يجادل إثنان في أن العرب لم يعودوا قادة أو سادة الإسلام منذ العصور الوسطى (حين حل الصليبيون والمغول) ثم بعد أن انتقلت الخلافة إلى ديار الأتراك ثم بعد أن هيمنت أوروبا على بلاد المسلمين والعرب. واليوم يبدو واضحا أن أغلبية المسلمين لا توجد في البلاد العربية وإنما هي في إيران وتركيا والباكستان وبنغلاديش وأندونيسيا وإفريقيا السوداء والهند وكذلك في الصين، وهو ما يعني أن أغلبية المسلمين لا يتكلمون ولا يفكرون بالعربية. وهذا ربما ما جعل الإسلام ملبدا بالطلاسم والشعوذات والتفاسير اللاعقلانية الأمر الذي أدى به إلى مواقع التطرف كما يؤكد أحد الحكام المسلمين الأكثر تشبعا بعقلانية الغرب، ونعني أمير المؤمنين الحسن الثاني*[62]..

فمنذ فجر القرن السادس عشر، أي منذ فجر عصر النهضة الغربية، إغترب الإسلام وأصبح يتكلم التركية، فانفصل تماما عن عروبته ومجاله الثقافي. لقد أصبحت السلطنة العثمانية هي المرحلة الرابعة من تاريخ ذلك التوأم: العروبة والإسلام. كانت الأولى مع التأسيس، تأسيس الدولة الأولى، وهي الإمبراطورية الأموية التي كانت تحت قيادة العنصر العربي، أما المرحلة الثانية فكانت مع الدولة العباسية حيث برز الإسلام المختلط الأجناس والمتعدد الثقافات فانتقلت فيه أغلب القيادات العليا تدريجيا إلى غير العرب. وإذ بدت الإمبراطورية العباسية أكثر تسامحا وانتشارا، فإن الحركات الباطنية وحركات الانفصال والحركات العنصرية قد وجدت كذلك مناخها الخصب. فأنتجت في النهاية مرحلة ثالثة انتقالية مع الدولة الفاطمية/الشيعية ثم أعقبتها

المرحلة الرابعة وهي انتقال ثقل الإسلام إلى خارج ديار النواة الأولى واستقراره في ديار الأترك.. هنا فقد العرب كل مواقعهم في القيادة، واصبحوا هم والإسلام في قبضة أيدي سلاطنة لا يتكلمون العربية. وهكذا منذ أن انفصل الإسلام عن العروبة والثقافة العربية، بدا شريدا ومعذبا ومسحورا بالشعوذة ومأخوذا إلى التطرف. أما العرب الذين رأوا دينهم يهان في كل مكان ويعذب ويعاد تصديره في شكل شعوذات وقد عاشوا مشردين ودائخين ومسحورين بأكاذيب الغرب، فقد أخذوا على عاتقهم أن يردوا الاعتبار لهويتهم ووجودهم ودينهم. وفي خضم ذلك الصراع القومي والديني الذي شحنه الغرب بالأسلحة والمؤامرات وروح الهيمنة ولدت العروبة المتطرفة في نسخة شبه فاشية أو عسكرية.. و«إسلام» متطرف نهض مذعورا من خدر الأتراك ليجد نفسه في أحيان مقاتلا إلى جانب الاستقلال الوطني ثم منتفضا ومنتقما في أحيان أخرى ثم متطرفا وإرهابيا..

لقد تم ذلك على مراحل. ولنقل على أربع موجات. وذلك منذ فجر هذا القرن ذي الإنفجارات القومية والإيديولوجية والدينية الهائلة.

*** *** ***

بدأت الموجة الأولى منذ أواخر القرن الماضي، وكانت تحمل أفكارا نهضوية مثيرة للإعجاب. وقد عرفت برموزها مثل الأفغاني ومحمد عبده وهما مفكران مسلمان أبديا إعجابهما تارة بالغرب المتقدم وطورا بمعاداته لأنانيته وإمعانه في إذلال الإسلام. أنتجت أفكار الأفغاني وعبده أجيالا وروحا جديدة إخترقت العالم العربي الإسلامي من مشارقه إلى مغاربه، وحركت الجمر الخامد تحت الرماد منذ قرون عديدة فكشفت عن طاقة دافعة إلى الأمام تغذت بها النخب العربية على أنواعها (الليبرالية والإستبدادية وكذلك القومية والدينية)..

وبداية من القرن الـ20 توزعت أفكار الأفغاني وعبده على الأحزاب السياسية بأنواعها من الجزائر إلى الحجاز ومن مصر إلى بغداد.. ومع إنتصار الحركة الوهابية في الحجاز، بدا المسلمون وكأنهم على حصان النصر الذي سيعرج على كل البلاد الإسلامية. ترافق ذلك مع ذبول في الحركة القومية بعد انكشاف خرائط سايكس/بيكو وهنا وجد الشاب حسن البنا الطريق مهيأة ليواصل المعركة على نحو آخر فذهب مباشرة لإستنهاض الإسلام كسلاح للمقاومة ضد الإغتراب، فكان ميلاد الموجة الثانية من التيار الإسلامي. وهي موجة انتهت بالإنشقاق عن الإسلام السائد والإسلام الحاكم..

كان حسن البنا الذي أنشأ جماعة الإخوان المسلمين في العام 28، قد ولد في العام 1906. وهذا يعني أنه دخل إلى الحياة السياسية مبكرا.. كان داعية ناشطة لإسلام

متقشف ومجاهد. إجتهد كثيرا لكي يخيط تخالفات متشابكة، لكنه كثيرا ما أرغم على الدخول في مخططات أعداء مصر والإسلام. كان طموحه كبيرا. ولكن تحالفاته المشبوهة في فترة ما بين الحربين جلبت له الإنتقاد وحتى الكراهية، ومع ذلك فقد استطاع أن يكون مؤسس الموجة الثانية من الحركة الإسلامية التي اجتاحت العالم الإسلامي. تلك الموجة ستتعرض للإنكسار على أكثر من شاطئ لتسلم الروح نهائيا في ستينات القرن العشرين بعد صعود الزعامة الناصرية. لقد دفع أنصار تلك الموجة الثانية ثمنا باهضا، تمثل في قتل رموزها وتشريد أتباعها ثم في اتهامها بالمشاركة في المؤامرة على «العروبة»[*63].

ظلت الحركة الإسلامية تائهة بلا قيادة ولا زعامة لفترة من الزمن. وبدت وكأنها جحافل عائدة من ميدان المعركة منكسرة وبائسة، ولكنها كانت قد زرعت بذرة التمرد والإنفصال في أرض خصبة ومهيأة لكل أنواع العصيان. وحين بدات شمس العروبة تميل نحو المغيب وهي تودع خطابها التحرري التنموي وقادتها الكبار، نبتت أعشاب الموجة الثالثة من الحركات الإسلامية على كل رصيف من الجزائر إلى مصر ومن بلاد الشام إلى بلاد السودان.. كانت الفرصة مهيأة جدا لها.. فالعروبيون قد برهنوا على فجاجة مخططاتهم. والشيوعيون سرعان ما كشفت لهم الأرض عن سرها وكرهها حين أرادوا أن يسقوها بمياه مالحة. أما ما لم يكن في متناول تلك الموجة الثالثة فهو الزعيم أو المرشد العام. فمنذ مقتل سيد قطب، أصبح المسلمون بلا إمام وباتوا يترصدون ميلاد إمام آخر في أي مكان من ديار الإسلام..

فجأة جاء ذلك الإمام المنتظر من بلاد فارس في هيئة الخميني، فأشاع الإحترام والمهابة في الشرق والغرب. وبدا وكأنه جاء من بداية القرن لقيادة المرحلة الأخيرة من القرن العشرين.. لم يكن عربيا، ولكنه كان يحمل ثقافة عربية وفارسية مزدوجة وعميقة..

مات الخميني قبل أن يصنع معجزته، لكنه ترك وراءه دولة يحكمها الملالي والفقهاء وأنصار من النشطاء في الحركة الإسلامية في كل مكان.. تعددت الحركات الإسلامية وتم فرز جديد على أساس الخلافة وولاية الفقية ثم على أساس شيعي وسني، وإذ حاولت الإتحاد والتنسيق، فقد ظلت مشتتة بلا أهداف إستراتيجية واضحة وبلا مرشد أو قائد.. غير أن صعود الشيخ حسن الترابي إلى السلطة في السودان سيشكل لها الحد الأدنى من التنسيق والتلاحم..

فهذا الذي سعى إلى الحصول على لقب «مرشد الإسلام الجديد» أو «بابا المسلمين» هو بلا شك كان أكثر الأصوليين حنكة في فن التضليل السياسي. فبفضل شهادة

الدكتوراه في القانون من جامعة السوربون، وشهادة الماجستير الحاصل عليها من أكسفورد، يستطيع من خلال مقابلات صحفية هادئة، أو من خلال مقالات ينشرها في مجلات رصينة أن يزين أفكاره الإسلامية بالجهاد الوحيد وهو: «الزراعة والتنمية»، لا العنف والإرهاب*[64]..

أو لم يصرح الترابي، حين كان في السلطة قبل أن يطيح به الجنرال عمر البشير (فك التحالف معه) في العام 1997، أنه قرر أن يجعل من السودان «نموذجا للحضارة»، وبأن بالإمكان، مع شيء من الصبر والمعاناة، التوصل بمعية الغرب، إلى إعلان التعايش؟!

لكن كيف سيتسنى لواحد من أفقر البلدان في العالم التغلب على التخلف في وقت اعتبرته وزارة الخارجية الأمريكية منذ عام 1993 دولة إرهابية بسبب دعمه للحركات الإسلامية المسلحة في العام؟ وكيف كان بإمكان الترابي أو عمر البشير أن يقيما تنمية مستدامة وبلدهم معزول عن محيطه ومقسم ومنخور القوى؟ فإما التعاون مع الغرب، فهذا إدعاء نظري لا أساس له من الصحة حتى لدى الغرب نفسه. وإما التعايش فهو غلاف جوي بعيد عن أرض السودان في هذه اللحظة. وإما التنمية فربما تنمية الخلافات والصراعات!

لم يكن الترابي ليشكل خطرا بسبب كونه أصوليا، وإنما الخطر الحقيقي هو الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ألا وهو إقناع الغرب بأنه قادر على القيام بدور الوسيط مع المتشددين الإسلاميين على الساحة العالمية، فيصبح والحال هذه، الرجل الذي لن يكون بمستطاع الغرب الإستغناء عنه. ومن هنا رأيناه يسعى جاهدا إلى كسب إحترام المثقفين في كل مكان. وهو رهان بدا صعبا بسبب إيواء السودان لما يسمى لدى بعض الدول بـ «الإرهابيين الدينيين».

ليس الترابي مجرد فقيه من فقهاء الإسلام، ولكنه برهن على أنه داعية سياسية موهوب وقائد براغماتي ساحر، وزعيم إسلامي يعرف كيف يوظف إشعاعه الشخصي والثقافي لخدمة الموجة الثالثة من الإسلام العابر للحدود والشعارات. فهو لا يدعي أن الإسلام قادر لوحده على الإنتصار، ولكنه يكثر من الإدعاء على أن الإسلام مع العروبة قادران على التعايش والمصالحة وصناعة حضارة تضاهي الحضارة الغربية وتهدد وجودها في العمق..

تذهب هذه الموجة الثالثة من الإسلام المعبأ ضد الغرب إلى آخر مداها وإلى حد تتغاضى فيه عن جانب التسامح أو الجانب الجمالي فتصنع ضد نفسها أعداء للإجهاز عليها بأي ثمن! ومن المؤكد أن الصورة السائدة لهذا الإسلام المتعصب ليست كلها من نسيج المسلمين ولا هي من نسيج الغرب فقط وإنما هي كل ما فعله حتى الآن بعض

المسلمين وبعض العرب وبعض الأفارقة (كما يقول إدوارد سعيد) أما الجزء الآخر فقد تكفل به الغرب وملحقاته..

ورغم كل ما يقال في الجانبين وما يشاع في الفضاءين، فإن هناك حقيقتين بارزتين للعيان. الأولى أن «البعث الإسلامي» عاصف ونابض ومتدفق في عقول وقلوب معتنقيه وحامليه كدين ونمط حياة ومنهجية حكم وأن هذا «البعث» لايزال بلا رؤيا واضحة ومحددة، لكنه لن يتوقف قبل أن يبلغ منتهاه الذي لا يعرف أحد التكهن به! أما الحقيقة الثانية فهي ذلك النزاع بين الإسلام والغرب. إنه نزاع حقيقي ومتخيل في نفس الوقت. فلا الإسلام العابر للحدود يستطيع أن يتخلى عن فكرة النزاع ولا الغرب المتمادي في الغطرسة بإمكانه أن يشفي من ذلك الهوس التخيلي. إن فكرة النزاع جوهرية جدا للمعسكرين. فهي التي توحد الصفوف وتستقطب الناس وتستنهض القوى والطاقات.

ولم يفعل «المسلمون النشطاء» خلال السنوات الماضية سوى تجميع صفوفهم من خلال نفير الحرب ضد الغرب. وبالمقابل لم يفعل الغرب سوى إستنهاض قواه من خلال إعلان الحرب ضد «الإرهاب الإسلامي». وها أن الإفتراض بأن المواجهة لازالت بعيدة أو مخزونة في رحم المستقبل، لا يعدو أن يكون خطأ، لأن الحقيقة الإفتراضية هي الحقيقة التي يعيش بداخلها الجميع، وتعني إشكالية الغرب والإسلام التي تحولت إلى «حروب كثيرة بعناوين دينية»!

*** *** ***

كانت رؤيا هونتنغتن، وهو أستاذ بجامعة هارفارد ومتخصص مشهور في العلاقات الدولية، قاسية وعنيفة، حين أعلن في مقالة مثيرة له عن «صدام الحضارات» المحتوم والمرعب. نشرت هذه المقالة في العام 1990 بمجلة «فورن أفيرس» لتتحول فيما بعد إلى كتاب. وقد أثارت مقالته ضجة كبرى في أمريكا أولا ثم في العالم العربي الإسلامي حيث وجد فيه غلاة المتطرفين ما يبرر حربهم المقدسة ضد الغرب. و«لأن أحد اساتذة الغرب الكبار توقع إندلاع تلك الحرب بين الحضارات، فقد أصبح من حقنا نحن الإسلاميون، أن نعلن الجهاد»[*65].

ويعيد هونتنغتن إلى الأذهان بأننا إنتقلنا عبر القرون، من الصراع بين القبائل إلى «حرب الملوك» ثم إلى حرب الأمم والشعوب لننتهي إلى المعمعة الشرسة لصراع الإيديولوجيات ومن ثمة إلى حرب الحضارات والأديان. ولكن هذا كله لا يعدو كونه مجرد مقدمات. فحتى الآن لم نشهد سوى حروب جنينية. أما في المستقبل، فإن الحروب ستكون بين الغرب وبقية العالم».

ولكن ما هي هذه الحضارات؟ يعدد «هونتنغتن» سبع أو ثمان حضارات كبرى هي الحضارة الغربية والكونوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندوسية والسلافية-الأرتودكسية واللاتينية الأمريكية وربما الإفريقية. ويتنبأ بأن يطغى تصادم هذه الحضارات مستقبلا على السياسة العالمية. فتصبح خطوط التصدع بين الحضارات هي خطوط جبهة المستقبل.

ولا يؤمن هونتنغتن إطلاقا بكونية القيم الغربية. فالمفاهيم الغربية، كما يؤكد تختلف إختلافا جوهريا عن المفاهيم السائدة في الحضارات الأخرى. فأفكار مثل الفردانية والليبرالية والنظم الدستورية وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وسيادة القانون والديمقراطية وحرية السوق وفصل الدين عن الدولة المطبقة في الغرب، نادرا ما تجد لها صدى في الثقافات الإسلامية والكونفوشيوسية وغيرها من الحضارات التي تطمح بالتأكيد إلى الحداثة ولكن دون أن تتغرب.

«إن المواجهة بين الإسلام والغرب هي الأكثر إحتمالا والأكثر وضوحا، سيما وأنها مستمرة منذ ألف وثلاثمائة سنة». هذا ما يؤكده «هونتنغتن» الذي يضيف «بأنه من غير المحتمل أن يهدأ هذا الخلاف الموغل في القدم، وإنما قد يزداد ضراوة».

ويكشف «هونتنغتن» في تحليله عن إحتمال تكوين محور إسلامي/كونفوشيوسي رهيب يجمع بين أكثر البلدان الإسلامية عدوانية (إيران، العراق، سوريا، باكستان، ليبيا إلخ..) وبين القوى الآسيوية الناشئة وفي مقدمتها الصين وماليزيا وأندونيسيا وباكستان. فهذه البلدان كما يقول قد أنشأت إتحادا عسكريا هدفه السماح لأعضائه بامتلاك الأسلحة وتكنولوجيا التسليح لمواجهة القوة العسكرية للغرب. فالصين مثلا قد زودت كلا من إيران وباكستان بالتكنولوجيا النووية. وقد بدأ سباق جديد للتسلح بين هذه البلدان والغرب.

ولكن هذه النبوءة وما احتوت عليه من بعد قيامي قد خلفت آثارا حامية، إذ دعمت موقف المتشددين الذين يتمنون حدوث هذه الصدمة بين الحضارات.

وهكذا أحيانا وبدواعي إتقاء ضرر ما، نوشك مرة أخرى أن نجعل منه أمرا محتوما. لربما كانت الرغبة هي تفسير نزاع بين الغرب والحضارات الأخرى، فكانت النتيجة أن رسمت طريقا مؤدية لذلك النزاع..

*** *** ***

أوضحت الحرب اليوغسلافية أن مسلمي البوسنة كانوا يتامى في بحر من العداء. وقبل الحرب كان مجتمع البوسنة بعيدا عن النزاعات الدينية، ولكن خلال الحرب

وهجمة الأرتودكس الصرب وصمت الغرب الكاتوليكي، تذكر ذلك البلد أن أخوة له موجودون في إيران وتركيا والعالم الإسلامي.. لقد كان مسلمو البوسنة مضطرين لقبول أية مساعدة، ولكنهم يشعرون بفخر من نوع آخر حين تصلهم أية مساعدات من العالم الإسلامي.

أرسل المسلمون إلى أخوتهم في البوسنة المال والرجال والسلاح والطعام ثم شيئا آخر لا يرسل عادة بالطائرات هو: المعنويات. وبذلك استطاع البوسنيون أن يصمدوا أكثر مما كان متوقعا.. لم يكونوا من المتعصبين ولا من المتشددين، ولكن الحرب فرضت عليهم شروطها القاسية.. استقبلوا المتطوعة من الجزائر ومصر وأفغانستان وإيران وتونس، ولكن البوسنيين لم يكونوا مستعدين للتفريط في ثقافتهم الإسلامية المتسامحة. إنهم يتجادلون في الجبهة وفي المقاهي، يشربون الجعة ثم يذهبون إلى الصلاة، يقتلون الأعداء الصرب ثم يدفنونهم على الطريقة الإسلامية.. وكما هم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طليعة المسلمين في قلب الغرب.. فهم كذلك لم يفارقهم الشعور ابدا بأنهم إذا ما انتصروا، فإن ذلك يعني أول انتصار للإسلام في بلاد الغرب منذ ما يزيد عن خمسة قرون..

إستطاع عزت بيغوفيتش أن يلعب ورقة الغموض. لم ينكر ابدا علاقته بإيران وميوله الإسلامية وثقافته التي تلقاها في الأزهر، كما لم يستسلم لدغدغة الأمريكان. وصفه البعض بالأصولي خاصة حين منع الإحتفال بعيد بابا نويل 1995 في التلفزيون البوسني، ولكنه لم يبال بتلك التهمة قائلا: «إن شعبي مسلم ولا علاقة له ببابا نويل»[66*]..

اليوم، لا أحد في الغرب بإمكانه أن يلوم توجهات البوسنة الإسلامية. فالغرب هو الذي أيقظ تلك النزعة وأعطى للبوسنيين تلك الهوية. فالدعاية المضادة للإسلام هي التي أحيت الإسلام في قلوب وعقول البوسنيين. إنها جواب على أرتودكسية الصرب وكاتوليكية الكروات ومسيحانية الغرب..

إنتهت الحرب، لكن الكوابيس لازالت تحلق في سماء الغرب.. فحين نلتهم وليمة من لحم البشر، تكون ليالي الكوابيس طويلة جدا.. وهذه الكوابيس لم تعد من صناعة الدول فقط بل هي أصبحت من صناعة بعض الرجال.

*** *** ***

إن الدول ليست هي المسؤولة دائما عن تمويل «الحرب المقدسة» بل أن أصحاب المليارات ورجال الأعمال هم الذين باتوا بفعلون ذلك.

فذلك الذي كانوا يسمونه في السودان برجل الأعمال وفي الخليج بـ «السيد» وفي

مصر بـ «الصديق الصندوق».. هو بالنسبة للحكومة الأمريكية واحد من أهم ممولي الحركات الإسلامية في العالم. إنه «أسامة بن لادن» الذي إلتحق بأفغانستان ثم عاش منذ سنة 1991 في الخرطوم ثم عاد إلى أفغانستان بداية من عام 95. كان فاحش الثراء إذ قاربت ثروته الـ600 مليون دولار، حسب تقديرات أحد المسؤولين في السودان في العام 1993، أما الرقم الصحيح فلا يعرفه إلا هو نفسه. ولقد حدث أن عثر الباحثون البريطانيون على إسمه مدونا ضمن كشوفات أرصدة «أبو فارس» (الجزائري)، منظم العمليات الإرهابية التي أدمت باريس خلال صيف 95. وفي شهر نوفمبر من العام 96، وجهت إليه المخابرات الأمريكية أنظارها على إثر إنفجار معسكر التدريب التابع لحرس الوطني السعودي في الرياض والذي أودى بحياة سبعة أشخاص من بينهم خمسة عسكريين أمريكيين. وما إن مضى شهران على تاريخ تلك الحادثة، حتى حاول الإرهابيون القضاء على الرئيس حسني مبارك في الحبشة، غير أن رجال الأمن المصريين إستطاعوا أن يكشفوا اللعبة بسرعة. ثم عاد إسمه من جديد بعد إنفجار «الخبر» بالظهران إلى مانشيتات الصحافة.

لقد صار بن لادن يسكن بيتا بأربعة حيطان، ولكن أية حيطان! إنها حيطان محصنة في بيت يشبه القلعة الصغيرة إلى حد كبير، لكنه مجهول الموقع أو بالأحرى متحول. ولقد عين لحراسته العشرات من الحراس الأوفياء من قدماء المجاهدين الأفغان. ومن حسن حظ «بن لادن» أنه قد استطاع الهروب من موت محدق لما حاولت جماعة من الرجال أن تقتله في البوسنة. إتجه إلى السودان وأقام فترة تحت حماية الشيخ الترابي. وحين تدهورت العلاقة بين الترابي والبشير ووقع تسليم المناضل اليساري كارلوس إلى فرنسا، استطاع أن ينسحب بمساعدة قطر ويتجه إلى أفغانستان مرة أخرى كأحد مرشدي وممولي حركة طالبان. وبعد أن أصبحت السعودية تطالب به، تحول «بن لادن» إلى رجل خفي أو لنقل إلى رجل غير مرئي، إذ لم يعد أحد يستطيع رؤيته ما عدا القليل من الأصدقاء الأوفياء الذين يقولون أن غايته كانت نبيلة وخيرية، وأن إعاناته المالية ليست إلا دعما ماديا للمشاريع الإسلامية ومساندة التآخي بين المسلمين وليست تحريضا على شراء الأسلحة أو قتل الأرواح!!*67 ..

وكان «بن لادن» وهو أبرز الوجوه الإرهابية كما يقول «غزافيار روفار» وهو مدير إحدى المدارس المختصة في الحركات الإسلامية في معهد علم الجريمة، يحظى «باهتمام كبير لدى الدارسين الذين باتوا يواجهون إرهابا من نوع آخر. فبعد أن كان الإرهاب الدولي الذي استفحل في الثمانينات يمول من الدول صار اليوم الإرهاب الذي يهدف إلى تدمير هذه الدول ذاتها يتمول من رجال الأعمال»**67. والنتيجة: إذ جفت عيون الدول التي كانت تسيل مالا، فقد جاء دور رجال الأعمال كي يأخذوا

المشعل. ومن بين هؤلاء نجد «بن لادن» وهو رجل قد استطاع أن يجمع ثروته برسكلة الدولارات المتأتية من صفقات البترول وكذلك من صفقات تجنيد المتطوعة العرب لأفغانستان لصالح أمريكا والسعودية. لقد عملت المملكة الوهابية على جعل المقاومة الأفغانية ضد الغزاة السوفيات مقاومة محترفة وغنية باعتبار أن الوهابيين يحسنون التنظيم والمساندة. وقد ساهمت العربية السعودية والكويت وقطر في مد يد المساعدة لبن لادن بإعطائه سلالا من الدولارات، حيث استطاع هذا الأخير بفضلها أن يكون عشرات الآلاف من المحاربين من أجل نصرة الإسلام في كل من جلال آباد وكابول وبيشاور. وعندما انسحب الجيش الأحمر، قرر هؤلاء المجاهدين العودة إلى ديارهم في الجزائر أو في مصر أو في اليمن أو ليبيا أو في العربية السعودية، لكي يواصلوا معركتهم المقدسة ونشر رسالتهم.. باختصار، فإن «بن لادن» قد وضع النفط (مال النفط) في خدمة الإسلام العابر للقارات. وحسب رأيه فكلاهما طاقة مشتعلة وجوالة وعابرة للحدود.. وإذا ما اتحدا، فإنهما سيشعلان الغرب وهو ما حدث فعلا في نيويورك سبتمبر 2001.

*** *** ***

كان بن لادن ومعه الظواهري وتنظيم القاعدة يمثل أوج الموجة الثالثة من الإسلام الجهادي. وحين تم غزو أفغانستان عام 2001 ثم العراق عام 2003 بسبب «القاعدة» التي تجرأت على ضرب نيويورك في وضح النهار، كان قد مضى على الموجة الأولى التي مثلها الأفغاني ومحمد عبده قرن ونيف. اتسمت تلك الموجة الأولى بالحوار والمساجلات وإثراء النخب السياسية بثقافة الإسلام والتمسك بـ«العروة الوثقى» بين المسلمين. ولكن ما إن أطل القرن العشرون حتى نهض المسلمون العرب على فاجعة تمثلت في الاستحواذ على أوطانهم ودينهم.. وحين سقطت الإمبراطورية العثمانية ازدادوا غيضا وشعروا بالخداع والغبن واليتم. وهنا أسلمت الموجة الأولى المعتدلة والمبرقطة الروح، ليتسلم شباب آخرون المشعل تحت قيادة حسن البنا. وقد استمرت الموجة في الصعود والنزول وخوض المعارك وتبني العنف كوسيلة للتغيير السياسي. وقد صنفت أعداءها جيدا فوضعتهم على لائحة تمتد من الصهيونية إلى الغرب المسيحاني إلى الأنظمة العربية المارقة والعلمانية إلى الشيوعيين الملاحدة إلى القوميين العنصريين!.. وفي الستينات بدأ الكاتب والناقد الأدبي سيد قطب في تكفير كل من لا يقاوم الظلم أو الكفر، ومن ناقد أدبي إلى داعية إسلامية إلى قائد لمجموعات لمنظمة مسلحة، أصبح سيد قطب ممثلا صريحا للموجة الثانية لهذا الإسلام السياسي المكافح.. تم الطلاق بين البنا وقطب على أساس تصنيف أعداء الإسلام وكذلك على

قاعدة - التكفير - فتباينت الاتجاهات، وسارت كل جماعة في طريق يحاذي الصواب أحيانا ولا يقترب من الحكمة أبدا!

وفيما اتجهت الجماعات المعتدلة نحو المناورة السياسية التي بلغت حدود التعاون مع «الأنظمة الكافرة» وتمثل ذلك في تيار الإخوان المسلمين الذي شارك في برلمانات كثيرة، تمسكت جماعات التكفير، بالجهاد ضد الغرب وضد الدول الوطنية الكافرة دون أن تعوزهم لا الحيلة ولا المال ولا الجرأة.. وبعد نحو ثلاثين سنة بداية من التسعينات، بعد سقوط كابول واسترجاعها من الشيوعيين، وجد «أبناء سيد قطب» المهاجرين (أغلبهم من تيار الهجرة والتكفير) الفرصة ليبنوا - قاعدتهم - للإنطلاق إلى رحلة الجهاد ضد الكفار الكبار والصغار. وهنا بدأت الموجة الثالثة من ذلك الإسلام السياسي الذي اصبح مدججا بالسلاح والمال وعابرا للحدود والأوطان.. فما بين الأفغاني/عبده وحسن البنا نحو ثلاثين عاما. وما بين البنا وسيد قطب نحو 30 عاما. وما بين سيد قطب وبن لادن نحو 30 عاما. والآن بالإمكان القول أن جيلا آخر قد حضر إلى الأرض العربية بعد 30 عاما أو أقل بقليل بعد قاعدة بن لادن/الظواهري. إنه جيل الموجة الرابعة التي ولدت من رحم «القاعدة» ولكن في أرض العرب لا في خارجها. إنه جيل «داعش» حيث أصبح للإسلام الجهادي والإرهابي! جنود وجيوش وأرض وحدود ومدن وأهالي وحلفاء في الداخل والخارج..

وكما قال أحد أساتذة اللاهوت (برناردو هوساي): «فإن يوم 11 سبتمبر يمكن أن يكون تلخيصا بارعا لذلك النقاش الذي عرفه القرن 19 بين الهيغليين والمحافظين والهيغليين الجدد حول الارتداد السلبي للديالكتيك». فهو قد يكون صناعة أمريكية إذ ليس كل ما تصنعه أمريكا لا يمكن أن يرتد ضدها..

*** *** ***

إن المواجهة ساخنة وستظل. فمن جهة، كان هناك الإيمان الأعمى بالتاريخ دون المقدس.. وهذا يؤدي إلى الوقوع في هشاشة القوة. ومن أخرى هناك الإيمان الأعمى بالمقدس دون التاريخ.. وهذا غالبا ما يؤدي إلى الوقوع في فخ العنف المجاني (العدمية). فكلاهما يتغذيان من ثقافة الانحطاط والكوارثية..

في البداية يمكن أن نحتفظ بالحرارة في قلوبنا، ولكن من غير المسموح أبدا أن لا نحافظ على برودة أعصابنا. فالحقيقة الدامغة : إذا ما فقد الغرب أعصابه، يكون الإرهاب قد نجح في أهدافه. أهداف الإرهاب اليساري منه واليميني، القديم منه والحديث هي: تفتيت جهود الدولة المركزية، تفتيت الأمن، ضرب الحريات، تعرية

إرهاب الدولة.. إن أية دولة لا تعرف الأمن لا تستحق الحرية، كما أن كل دولة لا تعترف بالحريات لا تستحق الأمن.. فهل يمكن أن نتساءل مثلا: ماذا ستربح الحرية الأمريكية لو أنها فقدت الديمقراطية؟ وماذا ستربح الديمقراطية الأمريكية لو أنها فقدت الأمن؟. وهذا ما كان مثار نقاش لدى النخب الأمريكية عشية 11 سبتمبر 2001.

ليس بن لادن إلا ضحية خداع مركب، خداع الذات ثم خداع الآخر..إنه يشبه صدام حسين تماما.. فهما رجلان من الشرق المخدوع باتا عرضة للنكوص والنزعة العدمية.. حين توجه أسامة الشاب إلى أفغانستان لمحاربة الإلحاد، كان يؤمن بأن جزءا من ديار الإسلام قد دنسه الإلحاد..وتحت تأثير الحمى الدينية والخوف من انتشار الإلحاد إلى المياه الدافئة حيث الأراضي المقدسة، التحق بن لادن بحركة تحرير أفغانستان تحت لواء الأمريكان..كان الأمريكان يعتقدون (بريجنسكي) بأن الشيوعية كمنظومة الحادية شمولية لا يمكن أن تهزم إلا تحت ضربات منظومة الإيمان، ولذلك فإن ما وضعه كارتر المؤمن كمبدأ قد مارسه فيما بعد بوش الإنجيلي.. تحقق الهدف وكان الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، ولكن ما إن انتهت مهمة بن لادن حتى وجد أرض أجداده ومقدساته قد احتلت بالجيوش التي حارب إلى جانبها في أفغانستان..هنا سيبدأ ارتداد الديكالتيك: لم تعد واشنطن في حاجة إلى «المجاهدين» بل أصبح «المجاهدون الإسلاميون» في صف الأعداء المحتملين لأمريكا..هذا من ناحية.ومن أخرى: لم تعد أمريكا صديقة للإسلام، بل باتت هي العدو المحتمل للإسلام..هكذا في خضم ما أشيع من أدبيات حول صدام الحضارات.. وفي لحظة اتسمت بضبابية الرؤية وبانقلاب الأدوار، أصبح بن لادن (وهنا ليس إلا رمزا لتيار جهادي عابر للحدود) لا يرى عدوه إلا في صديق الأمس. شيئا فشيئا اتسعت رؤاه وقد نضج مع المعارك والأموال. فأدرك أن أرضه المقدسة، أرض الإسلام الأولى، قد أصبحت محتلة (من الحجاز إلى القدس إلى بغداد). أو ليس بن لادن يشبه ذلك الإفريقي الذي جاءه المسيحيون البيض ليعلموه الصلاة، فأغمض عينيه واستجاب للتعاليم، لكنه ما إن فتح عينيه حتى وجد أن أرضه قد سحبت من تحت قدميه؟ أو لم يرفع جومو كينياتا زعيم «الماو والماو»، الرماح ضد الانكليز بعد أن علموه وأدخلوه إلى المسيحية؟!*68

هكذا حين يبلغ الخداع مداه. أو حين يتعرض المرء الكريم للخداع الملون من أصدقائه يصبح أكثر عرضة للعدمية..تلك العدمية التي تتخذ لنفسها شعارا «علي وعلي أعدائي يا ربّ». فالعدو هنا هو صديق الأمس، أي أمريكا..ولكن أمريكا لم تعد تمثل لجماعات بن لادن تلك القوة النابضة بالحياة والحداثة وإنما هي تلك المرآة الخادعة والعاكسة لكل الآلام والفوضى والحزن..فتدمير مانهاتن قد لا يعيد من قاموا بالفعل إلى البهجة،

وإنما هو ينقلهم مع الجميع إلى الحزن الكبير أي إلى العدم، وهذا ليس إلا انفجارا لعقدة العار الناتجة عن الخداع والإهمال والتدنيس والتحقير..

سيسجل التاريخ أن العرب لم يتمكنوا من بناء دولتهم الأمة، لأن الخلط كان شنيعا في مفهوم الأمة إلى حد تطور فيه ذلك الخلط إلى مقارعة ساخنة انتهت بحروب تدميرية بين العروبيين والإسلاميين.. استعاض العرب عن الأمة ببناء كيانات متعددة ومتضاربة المصالح والأهواء والارتباطات.. وخلال القرن العشرين حاول «القوميون العرب» أن يفتحوا طريقا لتلك الدولة/الأمة فسقطوا الواحد تلو الآخر تحت ضربات الغرب الأناني المتحالف مع الإسلام المنغلق.. كما حاول الإسلاميون أن يفتحوا طريقا ثانية نحو بناء الأمة/ الخلافة غير أنهم سقطوا في التبعية ومحاربة العروبة ثم في العنف المجاني. ولقصور في الرؤية أو الأنانية الكلبية، كان الغرب يختار دائما التحالف مع التيارات الإسلامية المنغلقة لمواجهة التيارات العروبية الحداثية.

ومنذ أن سيطرت الحركة الوهابية بالتحالف مع آل سعود على بر الحجاز ونفطه، بات واضحا أن الغرب قد نجح في الإيقاع بين الإسلام والعروبة..لقد أصبح الإسلام المغرّب والمستلب والمصاب بالنكوص هو الحليف المفضل لدى الغرب، فيما باتت العروبة هي العدو الذي يستحق السحق. ولن يصعب على أي مؤرخ أن يستنتج منذ أواخر الأربعينات، أي منذ نزع فلسطين عن الجسم العربي، أن العروبة قد ضربت في العمق بتحالف يهودي- مسيحي- إسلامي، وأن الإسلام بات مغمورا ومدفونا في أرض قاحلة لا تنتج إلا الخرافات والشعوذة.. من هنا كانت المفارقة الكبرى المزدوجة والمدوية. فالغرب الذي اختار الإسلام المنغلق قد انتهى تحت رحمة شياطينه.. والإسلام الذي اختار الانفصال عن العروبة قد انتهى تحت رحمة شياطين الغرب!! إن هذه العودة على الأعقاب ليست إلا نتيجة طبيعية لعملية خداع كبرى مارسها الجميع ضد أنفسهم وضد بعضهم بعضا .. فإذا كانت العروبة تحتاج إلى الإسلام للخروج من شرنقة القومية العنصرية، فإن الإسلام يحتاج إلى العروبة ليخرج من شرنقة الإيمان الأعمى. وهذا ما قد يعيد التوأم إلى مداره الطبيعي إذا تبادلا الحوار واللقاح وتناغما مع الديمقراطية..

*** *** ***

إن أي مشروع سياسي إصلاحي لن يتجسد على أرض العرب ما لم يستند إلى إطلاق الحريات وإلغاء الاحتكام والرقابة والتهميش وبدون شحن الديمقراطية بمحتواها الإجتماعي والتنموي وإعادة الاعتبار للثقافة الأهلية والإسلام. ففي الأساس لو كانت تلك – الحريات – مصانة، لما وقع تسييس الدين. فتسييس الدين الذي تجاريه الدولة

على وجه العمى، إنما هي تمارسه في أبشع صوره. فالدولة العاقلة هي الدولة الحرة، التي ترتفع عن الخصومات الدينية والتدخل في الفقه والشريعة، ومن ثم تحويل العلماء والأيمة إلى موظفين بيروقراطيين لإطلاق فتاوي التحريم والتحليل وتحديد أيام الأعياد ورؤية الهلال. إن أهمية أي إمام في نظر رواد أي مسجد تنبع من جسارته واختيار الناس له، وليس في تعيينه من قبل الدولة لقراءة خطبة تكتب وتطبع في مراكز الأمن ثم توزع بالفاكس على كل الأيمة. ولما كف الإمام/المختار والجسور عن دوره، انخفض مستوى الثقة والقناعة ثم تعطلت لغة الحوار بينه وبين مريديه ليجد أمامه أو خلفه أو إلى جانبه «إماما آخر» أكثر صدقية والتحاما بالشعب.

إنّ الإسلام مفتوح على الاجتهاد. فهو لا يعترف باحتكار الاكليروس. كما أن لا وجود فيه للكهنوت. وما دام الاجتهاد وجهة نظر لا تدعو إلى الاستبداد، فهي قابلة للاعتراف بها وكذلك لدحضها. وثمة ثابتة في العالم الإسلامي قد أصبحت قاعدة، هي أن الإسلام السياسي الجهادي لا يقوم ولا ينتفض إلاّ في مجتمعات تشعر أنها مضطهدة أو مقيدة في دينها. ولكن الإسلام منذ أن يصبح حاكما حتى يغدو قاهرا ومستبدا لأن ليس من حق الدولة أن تستخدمه كما تشاء.

والحقيقة أنّ جميع الدول العربية قد استخدمت الإسلام على نحو متفاوت. فحتى في مصر، حيث أنّ 10% من الشعب مسيحيون، كان الإسلام هو دين الدولة. وحين تجعل الدولة الإسلام دينها، فهي تفتح الباب لصراع على ملكية الدين.. ولعلّ السعودية تبرز في هذا المجال كخبير في استخدام الدين لسياستها وتحالفاتها، دون أن تدرك أنّ زواج الدولة من الدين، إنما يجعل العصمة في يد الدين، لأنه الأقوى والأكثر توغلا في ثقافة الشعب والأكثر ذيوعا واستمرارية. وهذا ما حدث بالفعل سواء في الجزائر أو مصر أو السعودية، فحالما انتفضت الدولة في وجه الدين، حتى وجدت نفسها عارية. إن مأزق الدولة السعودية يكمن الآن مع رجال الدين.. وعليها إما أن تتخلى عنهم تدريجيا فتصبح فاقدة للشرعية. وإمّا أن تعيد نسيج تحالفاتها لكسبهم، فتكون فاقدة للحرية.. وإمّا أن تدخل معهم في حرب مفتوحة، فتفقد وجودها..

إنّ الدين في عمومه يعمل على مستوى الثقافة والأخلاق. وهو يذاع داخل نسق التنوع والاختلاف. فهو لا يتجه إلى التطرف إلا إذا أغلقت أمامه السبل. فالدولة إذا فرضت قانونها بالقوة واستخدمت التراث الروحي لشعبها لمآرب غامضة، إنما هي تزج بنفسها في الاستبداد ثم في الحرب الأهلية بين مكونات فضائها الاجتماعي والجيوسياسي.

ومنذ أن قررت الجزائر، كما غيرها من الدول العربية الأخرى غداة الاستقلال أن تضع الدين في خدمتها بالإكراه، أدخلت البلاد والعباد في مسار لا يؤدي إلاّ إلى

الصدام. وهذا ما يمكن أن ينطبق على أي بلد آخر. فعنف الدولة لا يولّد إلا عنف الدين. واستبداد الدين ليس أقل وطأة من استبداد الدولة المركزية والمغلقة الأبواب والنوافذ. إنّ نهاية الاستبداد لا تسقط من السماء كهبة، ولكنها تمرّ بعدة مراحل تبدأ بالانشقاق وتمرّ بالتفاوض ومحاولات الإصلاح ثم تنتهي بالسقوط.. فمن يستفيد مِن مَن؟!

*** *** ***

اغتنم الإسلاميون هزيمة حرب الأيام الستة ليشنوا حملتهم ضد النماذج «العلمانية المستوردة» من الغرب، متهمين إياها بأنها كانت السبب وراء هذه الهزيمة، فقاموا بمحاكمة القوميين العرب واضعين الشرق والغرب والقومية والصهيونية والشيوعية في سلة واحدة. انقسم عالم الجدل في الوطن العربي بين ردكلة القومية وشحنها بمادة ماركسية واشتراكية وبين تجذير الايدولوجيا الإسلامية التي كفرت الجميع وشمتت في الجميع.

ولأن أصحاب الاتجاه الإسلامي الذي سيتطوّر إلى «تكفير» للحكام والمحكومين معا، كان مدعوما بمال النفط، فقد أصبحت الايدولوجيا الإسلامية تعبر عن نفسها بجرأة وإصرار وهي تعتمد على المقدس والسلفي من النصوص والماضي المجيد!.

وقد حدّد «سيّد قطب» في عدد من الكتب من بينها «معالم على الطريق» و«في ظلال القرآن» إستراتيجية الجماعة : رفض التعاون مع الأنظمة القائمة باعتبارها أنظمة كافرة، واللجوء إلى «العنف الشرعي» عند الضرورة وإقامة دولة الحق والقانون. وبفضل الدعم المالي القادم من الخليج، أنشأت الجماعة فرعا سريا مسلحا هو «النظام الخاص». وابتداء من عام 1954، بعد موجة من القمع الواسع الذي أمر به عبد الناصر للقضاء على الجماعة، أنشأت الجماعة فرعا دوليا كان يشرف عليه «سعيد رمضان» (صهر حسن البنا وزوج ابنته وفاء) انطلاقا من ميونيخ ثم جنيف ابتداء من عام 1961.

ومنذ البداية استفادت هذه المبادرة وبشكل واسع من المساعدات المالية التي كان يقدمها أعداء عبد الناصر في الخليج، إلى جانب مساعدة مختلف أجهزة الاستخبارات الأمريكية التي كانت ترى ضرورة دعم «ماكينة الحرب لمواجهة عبد الناصر والقوميين العرب»..

أدت تلك الأبوة الإيديولوجية لجماعة «الإخوان» على معظم التيارات الإسلامية إلى ظهور حركات إسلامية غير متجانسة بالمرة. وتضم الإيديولوجية الإسلامية، من حيث مفهومها العام: المنظمات الإصلاحية ضمن التيار السلفي التي تضم غلاة المحافظين

الذين يرتكزون على القانون وحسن السلوك. إلى جانب الجماعات التي تعتمد على الانزواء الطائفي أو على ابتكار أنماط مختلفة من العنف السياسي والعمليات الإرهابية. وخلال الحرب الباردة حاولت هذه التجسيدات المختلفة من الإسلاميين أن تطوّر استراتيجيات وطنية خاصة تهدف إلى تطويق الأنظمة التي تحاربها، كما حدث في سوريا ومصر أو الجزائر.

وهكذا، فإن الكمالية والناصرية والبعث هي بمثابة «مؤامرات مناهضة للمسلمين» في نظر الإخوان. وكما يؤكد ذلك عدد من النصوص الإسلامية المؤسسة. فإن فكرة القومية العربية فكرة كافرة، وهي لا تعدو كونها بدعة شيطانية من بدع «الكفرة» لتحطيم الأمة الإسلامية. وما عدا بعض الاستثناءات القليلة جدا، فإن تصور «أرض الأمة» ظل مفهوما غائما يتعلق بالأنطولوجيا (أي دراسة الأشياء في ذاتها من حيث وجودها) أكثر مما يتعلق بالخارطة الجيوسياسية (المتحولات والمتغيرات).

لكن هذا لا يعني أنّ الإسلاميين لم تشغلهم مسألة الفضاء. فهناك من يقول ويعتقد أنّ الفضاء الجغرا-سياسي هو قضية مركزية، لأن الأمة لا تمثل رسما خرائطيا ومحددا، إذ كيف ستطرح، والحال هذه مشكلة السلطة والسيادة؟ إن قضية الإقليم ليست فقط مركزية بالنسبة لهم بل حيوية. غير أنّ التصورات الإسلامية للسيادة التي لا تستطيع قبول الحدود الاعتباطية تقترن، في معظم الحالات بمحاولة مستمرة لتقسيم الأقاليم وتجزئتها، إذ تشجّع على ظهور «قواعد جهادية» من جهة، وأسواق جديدة لفائدة الحلفاء وفضاءات لإقامة أقطاب منافسة!.

وكان البريطانيون قد أدركوا الفائدة التي يمكن أن يجنوها من هذه الحيوية النابضة للإسلاميين. فعند حصول الهند على استقلالها عام 1947، ساعدوا على انفصال الباكستان وبنغلاديش ذاتي الأغلبية المسلمة. وكان هذا التقسيم الذي استهدف إضعاف الدولة الهندية القومية والفتية لصالح بلدين تسيطر عليهما التيارات الإسلامية.

إنّ السياسة القائمة على مفهوم الهوية الدينية من ثوابت الدبلوماسية البريطانية منذ أواسط القرن التاسع عشر. فقد شجعت لندن على إنشاء واحدة من أهم الدول الإسلامية في العالم هي الباكستان. وكانت هذه الأخيرة إلى جانب السعودية التي تأسست هي أيضا بمساعدة بريطانيا التي تلاعبت بأهواء الهاشميين العرب، إحدى أهم نقاط الارتكاز للتيار الإسلامي الدولي الذي يهدد اليوم التوازن الجغرا-استراتيجي العالمي.

وكخليفة للإرث الفكتوري، تبنت الولايات المتحدة الأمريكية السياسة نفسها والمنطق نفسه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، إذ اعتمدت واشنطن على الباكستان والعربية

السعودية وتركيا لإقامة إستراتيجيتها لاحتواء التوسع الشيوعي. وهي الإستراتيجية التي ساعدت الإيديولوجية الإسلامية على انتشار نفوذها وزيادته. وقد بلغت هذه السياسة أوجها مع «حرب أفغانستان المقدسة التي خاضتها السعودية والباكستان بالنيابة عن أمريكا»[*69].

وتعتمد هذه الاسترايجية لا فقط على دعم مناطق النفوذ الأمريكي والسعودي والباكستاني وإنما أيضا على ما تحققه الإيديولوجية الإسلامية من تقدم. وهي اختيار لتلك التي قال عنها «بريجنسكي» منذ الثمانينات بـ «إنها الهوية الأكثر تميزا والأكثر قدرة عل مقاتلة الإلحاد»[*70]..

ولقد كان البديل الذي لا بد منه بالنسبة لواشنطن يتحدد بين «الهوية الإسلامية الأكثر تميزا» والفوضى. والواقع أنّ الأمر يتعلق بالاختيار بين توازن إقليمي دقيق يسمح بإدماج المنطقة تدريجيا في الاقتصاد العالمي الوليد أو الدخول في فوضى تسودها صراعات عرقيات وتجزئة سياسية وربما حروب مفتوحة من أجل سياقات نظام العولمة.

وبتبنيها للإسلام السياسي كإستراتيجية لتهديم أسوار القومية العربية في فضاء يمتد من الباكستان إلى المغرب وتهديم المنظومة السوفياتية بدءا من مؤخراتها الإسلامية، سارت أمريكا على تراث جدتها بريطانيا فاستخدمت الإسلام لأكثر من هدف بخلقها ودعمها لأكثر من تيار إسلامي للقضاء على المحاولات القومية. تيار إسلامي يكون سورا ضد عودة الاشتراكية، وهي عودة ما زالت ممكنة! وتيار إسلامي متطرف لتدمير هيبة الإسلام وتشويه صورته وجعله منبوذا وملعونا. وآخر معتدل يكون قابلا للذوبان في الرأسمالية ومندمجا في العولمة.

ففي كتابه «جهاد فرسوس ماك وورد- العولمة والأصولية ضد الديمقراطية» كتب بنجامان باركر يقول: «بين الجهاد وماك وورد نقطة مشتركة: فكلاهما يخوض حربا ضد الدولة-الأمة ذات السيادة ويعملان على القضاء على مؤسساتها الديمقراطية. ويحتقران المجتمع المدني ويقللان من المواطنة الديمقراطية دون أن ينشأ مؤسسات ديمقراطية بديلة. والنقطة المشتركة بينهما هي لا مبالاتهما بالحرية المدنية...فالجهاد يخلق مجموعات دموية تقوم على الإقصاء والكراهية وتقضي على الديمقراطية لصالح أبوة استبدادية. وماك وورلد يخلق أسواقا عالمية تقوم على الاستهلاك والربح في غياب الدولة القومية بأيدي المواطنين وحكوماتهم والديمقراطية اليقظة وبحضور مكثف للأمن الذي تحركه أيد «غير مرئية» مشبوهة أو هي من صنع الخيال تماما.

*** *** ***

ولكن كيف استطاعت الولايات المتحدة ولمدة طويلة رعاية «الإسلاميين المتشددين»

الذين يريدون تدمير إسرائيل علنا، في حين يشكل أمن الدولة العبرية بالنسبة إلى أمريكا القضية السياسية الأولى؟ بعبارة أخرى كيف، تمكنت واشنطن من «دعم» أو من «حضانة» العدّوين معا وهما: النزعة الاسلاموية والنزعة الصهيونية معا؟ فهل هذا يعني أن الاتجاه الإسلامي والصهيونية عدوان يكمل أحدهما الآخر لمحاربة القومية العربية في نظر واشنطن؟ أم أنّ النزعة البراغماتية والذرائعية هي التي جعلت واشنطن تقبل باحتضان «المتناقضات» لتدجينها من أجل مصالحها؟ أم لأنّ النزعة الإسلامية مفصولة عن قوميتها العربية لا تستطيع أن تكون ندا للصهيونية بما هي اندماج بين القومية العابرة للقارات والدين اليهودي؟!.

إنّ الرعاية الأمريكية للتيار الإسلامي لا تعني أن واشنطن وراء كل منظمة أو جمعية أو تيار إسلامي. أو هي تقف وراء كل حركة مسلحة أو مجموعة إرهابية؟؟ وحسب «ريشار لابيفيار» من الأحرى ألا نقبل بمنطق «المؤامرة الأمريكية» ولكن يمكن أن نعثر على بعض التواطؤ الذي يمكن تفسيره بتقارب المصالح الاقتصادية والإستراتيجية. فهو تداخل مع الدورة الاقتصادية الحالية: «العولمة»، معقّد إلى درجة يختلط فيها الرأسمال مع العمليات الانتحارية والعملاء والعرابين بدون أن يكون هناك هدف مشترك وهو ما ينتج في النهاية نوعا من «الإجرام العابر للحدود».

إن تورّط الولايات المتحدة في بروز انتشار وتصلب الاتجاه الإسلامي يظل واضحا رغم نهاية الحرب الباردة. فمسؤولية واشنطن في بعض العمليات الإرهابية والنشاطات الإجرامية الأخرى مؤكدة وحقيقية. فنحن نعرف أن الدفاع عن الدولة العبرية هو من أولويات السياسة الخارجية الأمريكية إلى درجة أنّ العديد من الملاحظين باتوا يعتبرونه قضية داخلية تلقي بظلالها لا على الفترات الانتخابية فقط وإنما أصبحت تؤثر أيضا، وبشكل دائم على الخيارات السياسية والاقتصادية لأمريكا.

لقد اعترف المجتمع الدولي في معظمه بالصهيونية كحركة سياسية ودينية كانت وراء تأسيس دولة إسرائيل 1947.. وقد قامت هذه «القومية المزيفة» أساسا على قواعد دينية تجعل من دولة إسرائيل «إشكالية تيوقراطية» على حدّ تعبير المؤرخين الإسرائيليين «الجدد».. فالدولة الإسرائيلية «ليست كائنا جغرافيا أو تاريخيا، وإنما هي كائن ديني سياسي. ومشكلتها اليوم هي التالية : هل عليها أن تتشكّل وفقا لتصور مدني، على جزء فقط من أرض فلسطين، أو وفقا لتصور ديني على «مجمل أراضي فلسطين»؟ كما يقول ما يعرف بمؤرخي إسرائيل الجدد أو مؤرخي ما بعد الصهيونية مثل «بيني موريس» و«إيلان بابي».

وبما أنّ التيار الإسلامي يستهدف قيام «دولة تيوقراطية»، فهو غالبا ما يجد نفسه متورطا في مناقشة مسألة السلطة والسيادة والأرض. ومن هنا تشترك

الصهيونية والأصولية الإسلامية في كراهيتهما «للتيار القومي». ونعني هنا: التيار القومي العربي؟.

وتاريخيا، فقد بات من الحقائق الدامغة أن أجهزة الاستخبارات الأمريكية الفخورة بدعمها المالي واللوجستي لجماعة الإخوان المسلمين لمواجهة «عبد الناصر»، قد أعطت الأسلوب وحتى التقنيات والرؤية لنظيرتها الإسرائيلية. وتوضح كثير من الكتب أن الشين بيت» (الأمن الداخلي الإسرائيلي) قد أعد في بداية السبعينات خطة الهدف منها : التشجيع على بروز منظمات إسلامية من شأنها منافسة، إن لم نقل إضعاف وتقسيم التيار الوطني والقومي الفلسطيني! ولتطويق تنامي المقاومة الفلسطينية في مفهومها وبعدها القومي بزعامة حواتمة وحبش، وحتى عرفات، موّل «الشين بيت» الفرع الفلسطيني للإخوان المسلمين. فتحرير فلسطين بالنسبة إلى الإسلاميين ليس إلا مرحلة ثانية من «حرب مقدسة» إقليمية. ففي المرحلة الأولى يجب مكافحة مخاطر العلمانية وكل تجسيداتها الوطنية والقومية.

وهكذا وربما بدون اتفاق مسبق، يلعب «العدوّان»: الإسلاميون والصهاينة، لعبة التكامل لتحقيق الأهداف نفسها. فهل هي خدعة جديدة للعقل والمفاهيم، أم هي مصادفة تاريخية أم تزامن مزعج ولقيط؟!.

إن تفكيك العالم العربي من الداخل بعد تفكيكه إلى 20 دولة، هو المرحلة المقبلة التي تكون قد بدأت بعد سقوط بغداد. فلبنان قد يتفكك إلى خمس مقاطعات وهو ما ينبئ بالمصير نفسه الذي ينتظر مصر وسوريا والعراق وكامل شبه الجزيرة العربية وليبيا والجزائر. ففي لبنان أصبح التفكيك واقعا قائما. أما تفكيك سوريا والعراق إلى مقاطعات متجانسة عرقيا أو دينيا كما هي الحال في لبنان، فهو من الأهداف الإسرائيلية التي لها الأولوية على المدى المتوسط على جبهتها الشرقية.

إن هذا «التطهير» العرقي والديني للصهيونية والذي قد يكون بدأ مع بناء جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية الذي بعث على الرعب حقا، وهو «يلتقي» موضوعيا مع «الإخوان الإسلاميين» الذين يتعارضون والاتجاهات القومية العربية.

إن استخدام الإيديولوجية الإسلامية كعامل لتفكيك العروبة للدول الوطنية هي من مخلفات سياسة «فرق تسد» التي كانت تمارسها الإمبراطورية البريطانية. وليس سرا أنّ لندن ظلت هي-المدجنة والمحضنة- الكبرى للتيارات الإسلامية كما كانت المحضنة الأولى للتيارات الصهيونية. وبما أنّ الأفكار تتلاقح كما يتلاقح الدجاج وتتوارث كما تتوارث الأراضي أو العقارات أو حتى العار، فإن أمريكا سارت على درب النصائح الانكليزية، وخاصة فيما يتعلق بملف الشرق الأوسط؟.

فهل وجب أن نعيد النظر في المسألة القومية التي ما انفكت تتوارى تحت ضباب الأصولية؟ بعبارة أخرى: هل يمكن أن نتهم «الأصولية الإسلامية» بالقتل المتدرج والمعتمد لتيار العروبة على مدى القرن الماضي وحتى هذه اللحظة؟؟.

*** *** ***

إنّ أهم ما يمكن ملاحظته في ردود الفعل على مأساة الحادي عشر من سبتمبر- أيلول 2001، هو ذلك التحفظ العام على نعتها بـ «الحرب الدينية». فقد أكد المسؤولون بعد «زلات لسانية كثيرة» وهم يجنحون إلى الصواب بأن الأمر لا يتعلق بمعركة بين العالم الإسلامي والغرب.. وأنّ «القتلة» لا يمثلون الإسلام. ومع ذلك فإن المشكلة تظل قائمة لأن النظرة الدقيقة والمعمقة تكشف لنا عن تورط الدين في كل ما يحدث حتى الآن. فالبعد الديني ظل في الصراع كما أن خطاب بن لادن المفعم بالحجج الدينية لم يكن يضاهيه إلا خطاب الرئيس بوش في الحجج اللاهوتية..

وبالطبع فإن الإسلام كما يفهمه «الإرهابيون» ليس هو الإسلام الذي تمارسه أغلبية المسلمين، ولكنه يمثل جزءا من «الإسلام المستحيل» المتشدد والأصولي. وبهذا المعنى فإن المسألة تتعلق فعلا بحرب دينية لكنها ليست حربا بين الإسلام والمسيحية أو اليهودية. وإنما هي حرب الأصولية الإسلامية ضد جميع المعتقدات الأصولية الأخرى التي ولدت مع عصر الحداثة والتي أفرزتها تجليات العولمة.

وبالتأكيد فإن القمع الأكثر وحشية إن لم نقل الإرهاب الذي مورس باسم الدين ليس حكرا على الإسلام. فعلى امتداد تاريخها ارتكبت المسيحية جرائم أكثر فظاعة: فمنذ الحرب الصليبية إلى محاكم التفتيش مرورا بالحرب الدينية الدموية في القرنين السادس والسابع عشر أسالت أوروبا من الدماء من أجل الدفاع عن الدين أكثر مما أسال العالم الإسلامي بكثير. ونظرا للطبيعة غير العنيفة صراحة لتعاليم الإنجيل يمكن القول بأن أمراء المسيحية قد بدؤوا في هذا السياق أكثر انحرافا وضلالا من بن لادن لاستخدامه الانتقائي للإسلام. وهنا يجب القول إن الانحراف لدى الجانبين كان سمة بارزة وحاضرة كما لو أن العنف كان شيئا ملازما للديانات التوحيدية. فحين نختنق بالأزمات، نجنح إلى التشدد! وتحاول بعض المحاولات التنظيرية المائعة أن تتجاهل هذه الحقيقة فتتحدث عن العنف كما لو لم تكن جذوره دينية أو كما لو تكون تلك الجذور مقطوعة عن السياق العام للعولمة.

وهذا شكل من الجحود إن لم يكن خداعا للذات. فالقدح في ممارسات بعض المتدينين لا يعني إهمال القدح، فيمن ساعد أولئك المتشددين على الظهور. ولا شك

أننا سنفهم هذا الصراع أكثر لو بدأنا أولا بالاعتراف بأن العولمة/الإمبريالية هي المسؤول بشكل أو بآخر عن هذا الانحراف لدى حاملي الدين والديناميت.

ويتمثل الخطأ الأول في إظهار التسامح (نقصد أمريكا) إزاء الأصولية. قد يتطلب الأمر بعض التسامح، لكن الحقيقة، أن الأصولية أغوت ملايين الأشخاص منذ قرون. فهي تلهب الحماس وتعطي معنى لما بعد الموت وتوجه أولئك الذين يشعرون بالضياع في عالم مشوش.

إن الإيمان الأعمى بنصوص تعتبر بمثابة الحقيقة المطلقة، وخضوع العقل والرأي إن لم نقل الوعي للتعاليم العقائدية، من شأنه أن يهيج النفوس ويبدل العقول. وتخضع هذه المبادئ التي قادت بعض الرجال إلى القيام بأعمال خارقة للعادة في الخير والشر إلى منطق داخلي. فالذي يؤمن بأن هناك حياة أبدية بعد الموت وأن جهنم وبأس المصير في انتظار أولئك الذين لا يطيعون الله، يصبح من السهل عليه تقبّل كلّ أمر يؤمر به بما في ذلك الانتحار، بل قد يذهب إلى حدّ تشجيع الآخرين وإرغامهم إن لزم الأمر ليحذوا حذوه.

وتكمن الرابطة الأساسية بين التيارين الأصوليين الغربي والشرق الأوسطي دون شك في علاقتهما بالتطور الاجتماعي. فالذي يستمد إيمانه من كتب وضعت في حقب موغلة في القدم ويأخذ هذه الكتب على علاتها فيبدو له العالم الحديث عالما مخيفا. والذي يؤمن بإنزال المرأة إلى مرتبة العبودية وعزلها، تتحول «مانهاتن» المحترقة لديه بالتأكيد إلى «عمورية»*[71] جديدة. وإذا كان هناك من يعتقد بأنّ الشذوذ الجنسي جريمة يعاقب عليها بالإعدام كما ينص على ذلك الإسلام والتوراة على حد السواء، فإن عالما يشرّع الزواج بين شخصين من الجنس نفسه هو بالتأكيد «سدوم جديدة»*[72]. ومن هنا فإن التأكيد على تقويض وهدم أماكن الفساد كما دعا إلى ذلك «بن لادن» الإسلاموي، أو الاعتقاد بأن دمار نيويورك كان بسبب خطاياها، وجهان لعملة واحدة.

والمظهر الأساسي لهذا النوع من الاعتقاد هو الإحساس بعدم الأمان. فالأصوليون الأمريكيون يعرفون بأنهم على وشك أن يخسروا الحرب الثقافية. فهم خائفون من حالة الإحباط التي يعيشونها في العالم الكافر الذي يبدو وكأنه على أهبة ابتلاعهم أو سحقهم. وإذا كانوا يتكلمون علانية على النهضة فإنهم يمتنعون في أحاديثهم عن هلاك أمريكا الوشيك التي فقدت المفهوم الطهوري لله! لذلك فإن من يسمون بالإنجيليين الذين يقودون حاليا الولايات المتحدة من خلف الستار، هم جماعة تحاول إنقاذ أمريكا من الهلاك الرباني! !.

وبالطريقة نفسها يدرك المسلمون أن العصر المجيد للإسلام قد ولى إلى غير رجعة. فقد كانت الحضارة الإسلامية ولعدة قرون مركز العالم قبل أن يصيبها الانحطاط. ومنذ انهيار الإمبراطورية العثمانية وجدت نفسها في معسكر الخاسرين في التاريخ. وكان رد فعلها، مرة غزلا متقطعا مع الغرب. وفي مرات أخرى هجومات دموية ضده.

وبالطبع فإن الأصولية هنا هي إعادة التأكيد على الأشكال الأكثر شوفينية والأكثر تطرفا لثقافة مهددة. ومن هنا ولدت هذه الظاهرة الغريبة. التي تسمى بـ «التطرف الإسلامي» والتي انطلقت انطلاقتها الحقيقية منذ قرن. ويستدعي نقل الثقافة الأمريكية حسب بن لادن إلى الأمة الإسلامية، ردّين لا غير: الاستسلام أمام الكفرة.. أو محاربتهم بلا هوادة. ولا وجود لطريق وسط في «الفكر الأصولي» وهو الردّ نفسه الذي تبناه بوش الإنجيلي! إن الديناميكية السيكولوجية التي تقود «جنود الأصولية الإسلامية» إلى كل هذا العنف هي نفسها التي تقود المدنيين الآخرين على تناول السموم وهي ذاتها التي تقود «الأصولية الأمريكية» إلى يومنا هذا!.

لا شك أن أمريكا تقدم الميدان الأمثل للتنفيس عن هذه المكبوتات، ذلك أن مسألة الأولوية الدينية ليس غريبة عنها، فقد وجدت هذه الأخيرة نفسها، ومن أوجه عديدة، في قلب الأحداث التي أفضت إلى إنشاء الولايات المتحدة. فالمهاجرون الأوائل الذين قدموا من أوروبا كانوا لاجئي الحروب الدينية التي اجتاحت أنكلترا أيام حكم المتعصب «كروميل» (1658-1651) والذي لا يختلف حكمه كثيرا عن حكم طالبان.

وكان التفكير السياسي للمؤسسين الأوائل قد تأثر بشكل خاص بـ «جون لوك» صاحب المؤلف الشهير «رسالة حول التسامح»*[73] (1689). فقد أكد «لوك» في هذا الكتاب أنّ الخلاص الحقيقي لا يتحقق تحت الإكراه. وأن العقيدة المختارة بكل حرية يمكن وحدها أن تكون حقيقية وأن كل تأويل آخر هو مناقض لتعاليم الإنجيل. وبوحي من «لوك»، أقام الآباء المؤسسون فصلا صارما بين الكنيسة والدولة مع التأكيد أنّ أي دين مهما كان لن يكون بمقدوره استخدام الوسائل السياسية لفرض عقيدته الخاصة. وعليه فإن أفضل ضمانة ضدّ ظهور «طالبان أمريكيين»، هو احترام الدستور. ولهذا السبب فإن الحرب على الإرهاب لا تقل خطورة عن الإرهاب. إن الرهّان اليوم هو معركة جديدة ضد الإغراء الذي صمد أمامه المسيح في الصحراء، ألا وهو: اللجوء إلى القوة لفرض الذات. أي استعمال الهمجية لمحاربة همجية أخرى!.

إنّ هذا الصراع قد يجعل الغرب في مواجهة عدوّ أكثر شراسة حتى من النازية والشيوعية. وقد يكون هذان النظامان ينتميان إلى عالم «الأكاذيب الفاحشة»، إذ كانا عبارة عن أصوليتين قامتا على ادعاءات فكرية هشة. (التفوق العرقي والسعادة

الشيوعية)! ولكن «الأصولية الإسلامية» تعتمد على حضارة مجيدة ودين عظيم. وهنا بإمكانها استغلال وإغراء وإفساد مؤمنين طيبين، يساعدها في ذلك محيط ملائم ومؤذ وفاسد وقائم على الإقصاء. وهذه الأصولية تخضع لمنطق أكثر قوة من الأيديولوجية غير الدينية لستالين وهتلر. ويمكن أن تستخدم كنقطة التقاء لكل هذه المجتمعات التي تشعر بالضغينة والحقد أمام حماقات الغرب وحضارته الأنانية بدلا من أن تشمر على ساعديها لتتكيف وزمن الحداثة.

والمطلوب هنا هو البحث عن وسيلة للانتصار على هذا المنطق المشين دون اللجوء إلى إخضاع دين عظيم مثل الإسلام أو مواجهته واستخدامه في ذرائيعة مقيطة من أجل الربح والتفوق. وعلى الغرب أن لا يسيء تقدير هذه المهمة الصعبة للغاية. وبهذا المعنى، فإن رمز هذا الصراع أو هدف الحرب على الإرهاب يجب ألاّ يكون «العلم الأمريكي» لرفعه فوق الأماكن المقدسة للمسلمين!.. سواء في النجف وكربلاء أو في القدس أو في مكة المكرّمة أو في القاهرة!..

*** *** ***

لنقل عاش المسلمون العرب تاريخهم (الحديث) منفيين خارج تاريخهم.. فمنذ أن تعفنت روح ذلك التاريخ حتى هجرتهم. ظلت اسيرة وفي نفس الوقت تواقة إلى التحرر. ولأن النواة الصلبة (توأم العروبة والإسلام) قد تشققت فقد اصبحت كل محاولة للتحرر هي مغامرة نحو العنف والتهرئة. فالأسر العثماني الذي تم باسم الدين قد رماهم بعد خمسة قرون عراة وأسرى لدى الأوروبيين، حيث فقدوا دينهم وبلادهم. أما خلاصهم من الأسر الأوروبي فقد عاشوه كتراجيديا لاتزال متواصلة إلى الآن كحروب دينية وطائفية وأهلية داخل الإسلام وكذلك داخل العروبة.. إنه التاريخ المستلب تجاه أعدائه والأسير لدى أعدائه وأبنائه داخل جغرافيا سلبية ومتصدعة.

إذا كانت الحداثة الغربية لم تكشف عن إنجازاتها إلا عن طريق العنف والغزو. فمعنى ذلك أن هذه الحداثة لاتزال في بداياتها. بل لاتزال مهددة بعودة الإنسان المتوحش. إنها إلى الآن لم تصنع ذلك الإنسان الأليف الذي يتآلف مع قيمها وهو يعيش في الأطراف وفي الجوار وضعا وضيعا، بل هي لم تنقل إلى ذلك - الإنسان الوضيع - الباحث عن كرامته، إلا الإستلاب والعنف، حتى بات الغرب نفسه يعيش نفس المحنة التي يعيشها - الآخر- الذي أخذ على عاتقه «تنويره» وتطويره ثم تطويعه للقبول بقيم حضارته..

في الواقع لم ينظر الغرب إلى الشعوب التي غزاها إلا كمغانم. لقد أهمل العقل تماما. لم يكن يعرف أن الهولنديين المتعجرفين كانوا أقل حضارة ومدنية أمام أندونيسيا. فقد

كان بحارة هولندا مثل الأيتام على طاولات وأمام موائد أهل جاوه وتجارها المتورين. وهناك من اعترف بذلك في مذكراته الشخصية ولكن المؤرخين الرسميين، مؤرخي العنف والغزو قد اهملوا ذلك. والأمر نفسه ينطبق فيما بعد على الفرنسيين الذين جاؤوا إلى مصر. إن بونابرت نفسه العاشق لجوزفين قد جاء يبحث عن – جوزيف – معلم الزراعة في مصر. وعلى تراث الفراعنة وهندستهم وعبقريتهم التي جعلت منهم أمة عظيمة. وكما في كتاب الغزوات كذلك في كتاب الفلسفات!..

يتساءل هنا المفكر التونسي «حمادي بن جاب الله»[*74]: «أليس من الغريب أن يبحث – هايدغر – مثلا عند قدماء اليونان عما يتجاوز به الحداثة الديكارتية؟ أليس مما يدعو إلى التساؤل اليقظ أن يبحث – نيتشه – عن أسباب تجاوز العقلانية الغربية عند قدماء الفرس مثل زارادشت أو عند قدماء الفينيقيين الذين أعلنوا منذ قرون طويلة موت الآلهة – بانوس –؟ أليس من العجز أن تتحول الفلسفة عند هؤلاء إلى ضرب من النعي المتجدد. موت الإنسان، موت الآلهة، موت الكوجيتو، ونهاية التاريخ، وهلم جرا؟!»..

هنا وعند هذه النقطة كان يجب على الغرب أن يقلع عن استعلائه وأنانيته ليحقق – القيم – التي يتحدث عنها والقائمة بالأساس على الحرية والإختلاف والتسامح.. ولأنه كان خاضعا لثقافة القوة والغزو، فقد أراد ان يضع الشعوب كلها مع ثقافاتها وقيمها في الاسر. ما نعنيه بذلك أن تاريخ تلك الشعوب قد أصبح بلا روح. فهو موجود كقوالب ودساتير معلبة وتقنيات صماء، وحتى كرجال ومثقفين، ولكنه جسدا بلا روح. إن روح التاريخ مثل روح العلم. فبدون العقلانية والحرية وإرادة البحث عن المعرفة لا يوجد علم وإنما توجد مقتنيات أو سلع علمية! وكذلك بدون العقلانية والحرية والإرادة السياسية، لا يوجد تاريخ.. اي صيرورات الأمم. وإنما قد توجد حوليات إحداثية لتجمعات سكانية متصدعة ومتحاربة!..

إن إيران بإمكانها أن تعطي درسا في التاريخ للعرب. كانت الثورة الإيرانية نابعة من الثقافة العميقة لشعوب إيران. وهو الإسلام مع الاعتزاز بالثقافة الفارسية السائدة والقائدة. كانت تتويجا لانتفاضات كثيرة واجتراحات كثيرة استمرت منذ القرن السابع عشر والثامن عشر. فالصفويون كانوا يمثلون لحظة زواج بين الإسلام الشيعي والثقافة الفارسية. ورغم المحن والغزوات وحركات الانقلاب إلا أن الإيرانيين عرفوا كيف يخرجوا من «الإستلاب الغربي» القاهر، ويصنعوا أمة مندمجة مع دينها وثقافتها بحثا عن القوة عن طريق العلم. لقد رأينا كيف «مجّد» أولئك الذين يريدون الدخول إلى العصر النووي، ليلة القدر، ورفعوا من شأنها أكثر من غيرهم ورأوا فيها

مباركة من الله الذي حماهم وشد من عزيمتهم للخروج بانتصار كبير على الغرب الذي حاربهم طويلا ثم خرّ معترفا بهم كأمة تريد أن تتحكم في مستقبلها بعد ان استرجعت روح تاريخها*75..

تبدو الحالة الإيرانية هنا وكأنها تعبير ناصع عن فلسفة التاريخ عند هيغل. فالطابع الديني الذي رآه هيغل ممثلا في المسيحية، قد رآه رجال الدين الإيرانيين الدارسين لهايدغر والمطلعين على الفلسفة الألمانية والمتأثرين جينيا بزارادشت، ممثلا في الإسلام، «حيث يكون الله فيه هو الضامن الأنطولوجي الأعلى لوجود كل ما هو موجود، وهو المحرك الأول لنظام الكون وقابليته للتعقيل والترويض وسير الأحداث»**75. وقد يسمي ذلك نيتشه بـ «الانحطاط» أو بـ «تاريخ الهروب»، ولكن الإيرانيين الذين يريدون القوة إنما هم مؤمنون بالعلم وبحقهم في العلم وكذلك بحق «الآخرين المتخلفين» في العلم. ليست المسألة مجرد مفاوضات سياسية لأغراض سياسية مؤقتة. وإنما هي معركة تاريخية خاضها الإيرانيون بالنيابة عن جميع الشعوب التي تريد أن تسترد تاريخها المستلب والأسير..

كان تأميم الثروات الوطنية الذي شاع منذ خمسينات القرن والذي يعود إلى بدايات القرن (في العام 1906)*76 هو الدرس الأول الذي ألقاه الإيرانيون على شعوب العالم الثالث. دفعت إيران ثمنا كبيرا لذلك وعوقبت بإرساء «نظام فاقد للروح والمعنى» رغم جبروته*77، ولكن مبدأ تأميم الثروات الوطنية باعتباره ثروة للشعوب قد شاع كثقافة سياسية فأخذت به شعوب كثيرة.. وفي الثمانينات، وبعد الثورة بقليل ألقت إيران درسها الثاني الذي تمثل في بناء ديمقراطية أهلية مقاومة ومناهضة لديمقراطيات الغرب المستلبة. اختارت نظامها السياسي من عمق ثقافتها الأهلية، وقدمت «نموذجا» آخر أثبت قدرته على الحياة وصناعة الحياة.. لنترك ما يسمّى بولاية الفقية إلى الذين يناصبونها العداء من منطلق ديني وطائفي. وهذا ما فعله الإيرانيون أنفسهم. لم يقولوا لبقية الشعوب أن الطريق نحو الديمقراطية هو ولاية الفقية، وإنما قالوا لهم: أن كل شعب عليه أن يبتدع ديمقراطيته الأهلية ليعرف طريق النجاح والسيادة!.. بذلك تجاوز الإيرانيون كل الحقائق المتعالية وأطاحوا بالقوالب الجاهزة وطرحوا على أنفسهم وغيرهم أسئلة جديدة وأجوبة جديدة، ثم وضعوا «نموذجهم الخاص» لا للتقليد أو للتعميم من حيث الشكل، وإنما لخلخلة الغرب وتقويض هياكله ونماذجه..

إن ما حدث في فيينا في ليلة القدر من رمضان 2015 (-14تموز2015-) يدفع بكل الشعوب إلى أن تجترح منهجها للتحرر والديمقراطية والقوة وحقها في القوة والإختلاف. فمن داخل الغرف المعتمة والمفاوضات الماراتونية انبجس ضوء باهر لكل

شعوب العالم الثالث. لقد دارت حرب بأتم معناها بين الغرب والشرق (في قاعات كثيرة وعلى جبهات كثيرة وبأساليب كثيرة وبأسلحة كثيرة وكذلك بمعاناة وهواجس كثيرة)، وفي ليلة القدر بدا كما لو أن الشرق (خاصة الشرق الإسلامي) قد فاز لأول مرة على الغرب. وهنا يستحق الإيرانيون التمجيد لأنهم فتحوا طريق المجد لأنفسهم ولغيرهم.

ومثلما يستحق الإيرانيون التمجيد، يستحق العرب توبيخا مزدوجا. توبيخ لأنهم لم يتعلموا من دروس جار لهم وأخ لهم في الدين. وتوبيخ آخر لأن عجزهم عن طرح الأسئلة ورؤية الحقائق بعيونهم قد جعلهم أعداء لإيران ومن ثم لأنفسهم. لم يعرف العرب طريق الخلاص من الإستلاب أو من الأسر إلا بالدخول في أسر جديد. لم يمسرحوا التاريخ بل جعلوا منه حكايات متشابهة وأحداثا مؤلمة أو شنيعة بدون اي عنصر درامي يصنع الإختلاف والتحول والصراع. وإلا لماذا فيما نرى التاريخ الإيراني يتقدم ويشق طريقه وسط صراع الإرادات، نرى التاريخ العربي كما لو أنه جامد ومتمسك بجموده ورافض للدخول إلى حقول التجارب الكبرى إلى حدّ النكوص. وقد يرى البعض أن الإيرانيين كما العرب إنما هم يعيشون تحت ضغط الدين ويتحاربون بإسم الدين، ولكن ثمة فرق جوهري هو أنه بينما يعيش العرب «النكوص الديني»، يعيش الإيرانيون ما يمكن أن يسمى بـ«النهوض الديني». وهنا ينشأ ذلك الصراع غير المعقلن بين الإيرانيين والعرب والذي يبعث على الغثيان. فالدين الذي بات آداة تهديم للدولة العربية، هو في إيران آداة بناء للدولة القومية في إيران.

وبعبارة أخرى، وبدون الحفر في أرضية التاريخ والبحث عن أنساق جديدة أو تهديم الأنساق الشكلية المستوردة والمستلبة، فإن كل ما قد يقوم به العرب من أجل التقدم لن يكون إلا رحلة نحو الإنحطاط «أو تقدما نحو الجحيم» بعبارة «تيودور أدورنو» إذا لم يطرحوا على أنفسهم السؤال الكبير: «من نحن؟ وإلى أين نتقدم؟». ليس السؤال الآن أمام العرب: ما هو الحق؟ أو ما هو الخير؟ ولكن السؤال كما ينطق به الفلاسفة لاستنهاض روح التاريخ هو: من يضع قوانين الحق؟ من يصنع قوانين اللعبة؟ من يصنع الإختلاف؟ ومن يتحكم فيمن؟

لقد أجابت إيران عن مثل تلك الأسئلة غير الميتافيزيقية بطريقة غير ميتافيزيقية. ذهبت للاستدلال على حقها في العلم والمعرفة بوضع كل محركاتها ومكوناتها في المعركة. وكشفت عن مخزون ثقافاتها العريقة للتمسك بروح تاريخها الذي يتنافر مع كل ما هو جامد وغير فعال. ثم أزاحت عن المعنى الحقيقي لذلك الصراع الدامي. إنه معنى التاريخ المتجدد، التاريخ الحر والخارق للتخوم والحدود.

بإمكاننا أن نعطي أمثلة بلدان أخرى مشابهة للحالة الإيرانية. فكوريا الشمالية هي ايضا اختارت نموذج ديمقراطيتها وسارت باتجاه المعرفة والعلم لاستخراج السيادة والقوة. كذلك لا ننسى المثال المبهر للصين التي عرفت كيف تصبح مركزا للشرق، بعدما اختارت طريقها نحو الديمقراطية والتمية والعلم. ولا يجب هنا أن نستهين بالمثال الكوبي الذي بات يحظى بالاعتراف الغربي ولا حتى بالمثال اليوناني الذي ما انفك يتحرر من وصايا الغرب أو بالمثال الروسي المتأهب لغطرسة الغرب. إن العامل الحاسم هنا في جميع هذه الأمثلة هو: التمسك بالثقافة الأهلية والتمسك بحق الإختلاف ثم التمسك بالعلم والمعرفة. إن تعبير – الدولة المارقة– الذي أطلقه الغرب على مثل هذه الدول في أوقات متفاوتة لم يكن يعني إلا الدول الخارجة أو الرافضة لنظام الغرب ومنهجيته ومنظومة قيمه. ففي نظر الغرب، كل دولة لا تقع تحت طائلة القانون الدولي أو لا تستجيب لمعايير الغرب أو تحاول أن تسترد سيادتها وتختار ديمقراطيتها أو تصنع أسلحة مقاومة لهذا الطغيان الغربي، هي «دول مارقة» يجب محاصرتها ووضعها في الأسر. غير أن الشعوب في هذه الدول عرفت كيف تخرج من الأسر، بالإصرار على اختياراتها وقيمها وثقافتها. لم تحارب هذه الدول المارقة، لا الولايات المتحدة ولا أوروبا (بالانتحاريين)، وإنما لجأت إلى تحصين نفسها والإعتماد على نفسها حتى أدرك الذين حاصروها، أن سياسة الحصار، سياسة فاشلة، وأن الأفضل هو الاعتراف بها. ها هنا نرى كيف أن الإسلام والكونفوشيوسية والأرتودكسية قد فازت على عنهجية الغرب اليهو-المسيحي والأطلسي.

إن التاريخ لا يعود إلينا في كل مرة ليسألنا عن الطريق. فهو يمر من أمامنا ويتركنا على قارعة الطريق إذا لم نعرف كيف نحتفي به ونعانقه ونسير معه. وذلك ما يمكن أن يسمى بـ«الحسّ التاريخي». وقد دلل العرب في مرات عديدة أنهم يفتقدون إلى ذلك – الحسّ – وظلوا يعتقدون أن كل ما يحدث هو فوق طاقتهم ولا سيطرة لهم عليه أو أن الاشكال والأنساق الأخرى هي أنساق ثابتة يجب التعامل معها كما لو أنها اقدار. لم يفهم العرب أن وجودهم نتيجة صيرورة. وأن كل شيء ينتمي إلى المتغيرات، وأن الإنسان هو في قلب تلك الصيرورة، وكانت النتيجة أن لا يقبلوا بأسر تاريخهم فقط، بل بالإشتراك في نفيه وجعله يتجه إلى الوراء لتحديد وجهته: إنه النكوص والإنسحاب أمام المستقبل، أو الهروب من التاريخ. إنه الميتافيزيقا بلغة الفلاسفة! حتى لكأن تاريخ العرب ليس إلا تاريخ الهروب من التاريخ.

هل يستطيع أحد الآن، فيلسوفا كان او رجل دين أو سياسيا، ان يعرف اتجاهات التاريخ العربي؟ هل بإمكان اي كان أن يقول لنا: إلى أين يسير العرب؟ وماهي رهاناتهم

وأهدافهم؟ وما الذي فعلوه بثورات ربيعهم باعتباره عودة قوية وملحة للتاريخ؟ ولماذا جعلوا من تلك العودة مهرجانا دمويا؟ سنظل في حاجة إلى التشخيص، إلى طبيب المجتمعات والحضارات، ولكن ما فائدة التشخيص إذا المريض لم يلتزم بوصفة الطبيب ومواعيد الدواء والإستجابة لحالة الفوضى التي تسربت إلى دورة المناعة!..

*** *** ***

نعرف من خلال نيتشه أنه في البداية كل شيء كان فوضويا إلى ان جاء العقل وخلق النظام.. كما نعرف من خلال ماركس حتى جيل دولوز*[78] أن كل شيء يولد من الصراع، وأن ظهور طرف يقتضي إختفاء طرف ثان بسبب عدم قدرته على الصمود مع الطرف الذي يواجهه.. كذلك نعرف من خلال «هيراقلطس»*[79] أن الحرب هي أم الجميع وأب الجميع.. وأن العلاقة بين الوجود والصيرورة لعبة وأن الواحد متعددا.. ولكن ما لا نعرفه نحن العرب أن الفوضى هي الإسم الآخر للتاريخ*[80] وإن معنى التاريخ يوجد في الآلام التي يتحملها الإنسان لصناعة وجود يكون جديرا به. وتلك هي الصيرورة. أو ليست الصيرورة هي نتاج لإرادات متعارضة تتصارع وتتبارى من أجل الفوز بالقوة!

أليس القبول بقيم الآخر المهيمن هو قبول بالتقاعد والإستقالة والعجز؟ أليست قيم الآخر ما هي إلا «قوة» فرضتها إرادة قوية وأقحمتها في نظام التأويلات المشاع؟ وهل بإمكاننا أن نتحدث عن تاريخ عربي عاش لأكثر من ستة قرون منفيا وأسيرا، حتى نتساءل إلى أين يسير أو أين يتجه؟..

إن الذين يستحقون تسمية «صناع تاريخ» عن جدارة هم أولئك الذين يبحثون في تفكيك إستراتيجيات الهيمنة من أجل بناء هيمنة مضادة. وبما ان التاريخ لا يتوقف ولا ينتهي وهو حركة متتابعة ومتقابلة ومتناقضة، فهو صيرورة من التراكيب لأجزاء مبعثرة ومفككة على «ساحة الحرب» بفعل لعبة الإرادات الدموية. ها هنا بإمكاننا أن نلمس عجز العرب الأول في عدم إحساسهم بالتاريخ. إن تعويض الفلسفي بالديني والعقلي بالشرعي والدنيوي بالماورائي والزمني بالدهري السديمي، هو أصل العجز. وأصل الخلاف بينهم وبين أقرب الناس لديهم: الفرس وحتى اليهود. إن صراع القوة هو ما ينتج إرادة القوة. ولا تعني القوة هنا إلا البحث عنها في الفلسفة وفي العلوم وكذلك في الإختلاف والمقاومة لكل ما هو معمم كنظام وقيم تطلب الهيمنة والقوة، ذلك «أن القوة ليست ما تريده الإرادة ولا تستطيع أن تفعله، بل هي ذلك العنصر الإختلافي والإنشقاقي الذي تشتق منه الحضارة»*[81].

وبالعودة إلى البداية، يمكن أن نعتبر ولادة الدين الإسلامي هو ثورة العرب لفرض إرادتهم ضد إرادات أخرى متعارضة. وقد تجاسر العرب آنذاك على قلب معادلة القيم والقوانين والثقافات السائدة والمهيمنة. (نفكر في المسيحية واليهودية وكذلك في الرومان والإغريق. أما الفرس فقد التحقوا بثورة الإسلام) غير أن شبح الأعداء المنهزمين ظل يطل براسه من حين لآخر عبر الحملات الصليبية وحملات المغول والأتراك والإستعمار الأوروبي بدءا بما يعرف بحرب الإستعادة الإسبانية.. وفي حرب الإرادات المتواصلة، كان العرب يحاولون النهوض، لكنهم كانوا سرعان ما يستسلمون لقوة لا تقهر لأن إرادتهم ما فتئت تضعف. إن الإشارات القوية التي أطلقها رجال في عصور متباعدة، لرسم الطريق، كانت دائما ما تحدث صخبا كبيرا، لكنها لا تصنع قوة مهيمنة أو إنشقاقية أو معادلة! وهكذا تقدم التاريخ العربي فاقدا لمعناه لأنه في الأصل كان فاقدا لبوصلته. وفي ذلك العماء السديمي، بدا كما لو ان ثورة الإسلام العربي الأولى التي سعت إلى خلق الإنسان السوي والعادل والعامل والمتفوق على ذاته، قد أنتجت في النهاية الإنسان التائه والضعيف والكسول وحتى الإرهابي والمتوحش!

وما صنعه الإيرانيون/الفرس بتاريخهم لم يكن رحلة عبث لبحث عن بعث متخيل. وإنما هو فعلا رحلة آلام ومقاومة لكل عبث قد يوقف بعثهم كاقوياء مالكين لإرادة القوة في عالم يتشكل تراجيديا من الأقوياء. وهكذا فيما يسير التاريخ العربي نحو القهقري معبرا عن تقهقره بإنتاج الإرهابيين والسلفيين والماضويين، نرى التاريخ الإيراني يسير نحو المستقبل متسلحا بالعلوم والإختلاف وإرادة القوة!

إن «إرادة-القوة»، تعني أولا الإرادة ثم القوة. فهما مقطعان متزامنان كما يفسر نيتشه. فأن تريد لا يعني انك اصبحت قويا، وإنما قررت أن تصبح قويا (صيرورة). فهناك في المقابل من قبل ان يكون ضعيفا او يظل عبدا (الإستعباد الطوعي). وأن تكون قويا عليك أن تسعى لتكون كذلك دائما (الصراع المستمر بين الإرادات).

قد يكون الإنسان مراوغا كما عند ميكيافللي، وشفوقا-عادلا كما عند روسو، ولكنه في النهاية ليس إلا كائنا متسلطا وفظا وقاهرا. إنه يستمد متعة وجوده (المعنى) من خلال السيطرة على الآخرين وحتى على نفسه. وقد يستنتج المرء أن البراغماتية ميكيافيللية وأن مبدأ التساوي هو روح روسو، وأن الفاشية أو النازية (الشمولية) نيتشوية، كما يشير إلى ذلك «ليو ستروس»، ومع ذلك فإن نيتشه الذي قام بأكبر إنجاز في نقد العقل والإيمان الأعمى به لا يمكن نكرانه، وأن نظرته إلى المستقبل في انتظار الإنسان المتفوق على كل ترهات وجرائم العقل لا يمكن الإستغناء عنها. ونستخلص من هنا أن ابن العقل الغربي، هو الذي قال لنا: «لا تثقوا كثيرا في ذلك

العقل لأنه مراوغ ومحتال وجبار، حتى وإن بدا عادلا.. لأن كل شيء يتحرك ويصير وسط صراع إرادات القوة»*82..

إن مستوى الإنجاز في العالم العربي سيبقى ضعيفا لأنه بلا أفق. فما دمنا نضع كل شيء مشين على «الآخر». وما دمنا نمعن في اتهام الآخر لأنه سبب تخلفنا، فإننا لا ننتج ثورة وإنما مقتا. إننا نكاد نموت مقتا لأننا نزداد خنقا كلما نظرنا إلى أنفسنا في مرآة الآخر التي تضعنا في حجمنا الحقيقي!.. إن لعنة الآخر المتواصلة والمستمرة قد أصبحت لعنة لذواتنا فيما نحن منقادون إلى شيطنة الآخر بكل الطرق.

لا أحد يظن أن المادة الخام للإنسان العربي فاسدة. فكل مادة فاسدة يمكن أن تكون صالحة بمقتضى «هوبز» خاصة حين يتعلق الأمر بالإنجاز السياسي. فعندما تنهار الدول أو تتحلل أو تتفكك نتيجة خلافات وصراعات داخلية، فالخطأ لا يكمن في مادة الإنسان/المواطن، إن كانت فاسدة أو صالحة، وإنما في أصل صناعة تلك الدول ومدى متانة مؤسساتها. فليس ثمة من فيلسوف او حتى سياسي اعتقد أن الدول هي أمم من الملائكة، وإنما أكثر الأفكار شيوعا هي أن الأمم قد تكون شياطين تحتاج إلى الترويض والعقلنة. فالمؤسسات العادلة هي المؤسسات القوية لأنها تجعل من الشياطين أنصاف ملائكة. ويبدو الإنجاز هنا محصور بالتنظيم السياسي للدولة الذي هو من اختصاص الإنسان. إن صانعي المؤسسات العادلة للدولة هم في الحقيقة صانعو التاريخ الحر الذي يمتلك إرادة التغيير وإرادة القوة.

إن الدولة التي لا تعرف محركات التاريخ لديها هي دولة عمياء. وبالتالي عاجزة عن رؤية المستقبل. فالتاريخ هنا لا يعني فقط التذكر أو الذكرى أو الذاكرة، وإنما هو الماضي والحاضر والمستقبل. وهذا كله يوجد في الوعي الجمعي الثقافي والنفسي والاجتماعي وكذلك العلمي/التقني. وفي تلك اللحظة، لحظة الإلتحام الهوياتي والسياسي، يبرز لنا المستقبل كمسافة علينا تجاوزها لنكون داخل التاريخ لا على هامشه. إن ماساة – الثورات العربية – أنها لم تصنع التغيير الذي كان ينتظره التاريخ، وإنما هي اندمجت أو تماهت مع تاريخ كانت تناصبه العداء. وليس ذلك بسبب ما يمكن أن يوصف بالمادة الفاسدة للإنسان العربي، وإنما بسبب فساد النخب السياسية والمؤسسات السياسية التي راحت تبحث عن الإندماج والتماهي مع – الآخر – لا عن التمييز وإعلاء شأن الأنا لصناعة الجوهر – المعنى. إن كل الثورات التي نجحت وظلت علامات مضيئة في تاريخ الشعوب، هي التي اقامت القطيعة مع الآخر، إن كان محتلا أو فقرا أو جهلا أو استبدادا أو خرافة، ثم عادت لتلتحم مع إرادة التقدم والتغيير.

وحين يكون الأمر مصنعا عادة ما لا يكون أصيلا. وبالتالي يذهب للنسيان والتلف.

فنحن أصبحنا منذ فترة نعيش مع «المصنع» كما قال ذلك تيودور أدورنو. فصناعة المستبد، هي من منتجات اقتصاد السوق وكذلك صناعة الثقافة وصناعة الفن وصناعة الإرهاب وأخيرا صناعة الثورات. وهذا يعني أن لكل ثمنه وجودته ومدة صلاحيته وجمهوره المستهلك. ولعل لهذا السبب فإن ثورات الربيع العربي لم تحدث في سياق تغيير الأنماط السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة، وإنما في سياق السوق المعولمة التي تجعل من ماهية الإنسان مجرد منظومة وظائف اجتماعية حتى ليصبح المجتمع نفسه الذي قام بالثورة، راغبا في المحافظة على كل ما هو قديم، لأن كل ما هو جديد يخلخل توازنه ويقحمه في عمل لا يضمن له الأحسن.

إن الثورة، هادئة كانت أو صاخبة، ناعمة كانت أو عنيفة، هي البرهة الزمنية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. أي بين الواقع والحلم (المتغير). وهذا يحدث في البداية ويعم كموجة عارمة تصبح موجهة للعواطف والإرادات. ولكن شيئا فشيئا يتسرب الوهن وتهدأ العواطف وتقوض الإرادات، ويصبح المطلوب عند الموجة الثانية محاولة التوفيق أو الزواج بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون وذلك بالتقليل من شأن الحلم والتغيير وإشاعة الخوف من المستقبل وصناعة الهذيان. وهنا نصل إلى الموجة السلبية الثالثة وهي الحفاظ على ما هو كائن باستبعاد ما كان يجب أن يكون، لأن لا شيء يمكنه أن يحقق سعادة الجميع. ومن هناك تأتي شرعية الماضي المثقلة بالخوف من المستقبل لتبسط هيمنتها على التاريخ لتضعه مرة أخرى في الأسر.

إن جسارة وجرأة المجتمع المحكوم استبداديا ليست على نفس الدرجة من جسارة وجرأة المجتمع الحر. فإنسان المجتمع الحر لا ينقاد إلى الأبيض أو الأسود تحت ضرورة الإختيار، وإنما هو يبتعد عن الإختيارات المحددة مسبقا. وهو بوعيه الحاد وذكائه الطبيعي يستطيع أن يصبح سعيدا من خلال خوضه للتجربة ووضع إرادته على محك الواقع. كما يمكنه ان يكون – ذاته – المتحققة في فعل التغيير. أي ان يعتبر أن كل ما هو جاهز هو مصنع، وأن كل ما هو ناجز هو ناقص وغير مكتمل، وإن كل ما هو رومانسي هو فعلا ينتمي إلى الثورة وإلى التاريخ.. بعبارة أخرى فإن الثورة الحقيقية هي التي تضع الإنسان في مواجهة الآخر عن طريق السؤال اللامتناهي: من أنا ومن هو؟ بدون ريبة وبدون أوهام وكذلك بلا شفقة!.. فالتاريخ منذ البداية وحتى يومنا هذا، ليس إلا تاريخ صراع هويات وإرادات لصناعة القوة والهيمنة والسعادة!..

*** *** ***

في عصر الإنتشار الأوربي وانطلاق الأساطيل التجارية نحو الشرق. كان من الجوهري أن يكون البحار الهولندي أو الإسباني البرتغالي ثم الإنكليزي أو الفرنسي مسيحيا.

كانت صفة الغربي أو الرجل الغربي لم تعرف بعد. كذلك كان من الجوهري أيضا أن يقدم التاجر الجاوي/الأندونيسي أو العماني أو المغربي على أنه مسلم، له مؤهلاته الحضارية ومرتبته الإجتماعية ومنتجاته الراقية.. بدا اللقاء في البداية على قدم المساواة والندية، ولكنه تدرج حتى اصبح غير متكافئ وراح يتسم بالأنانية والتجبر حتى بات صداما بين حضارتين*83. كان المسيحي الأوروبي لايزال مثقلا بأوجاع الحروب الدينية. وقد ذهب إلى شعوب أخرى كانت أكثر انسجاما مع ثقافتها وتعددها الديني وهو لا يعرف ذلك. وهذه الشعوب لم يجدها متوحشة، بل وجد فيها العلم والتصوف والرسم والشعر والتسامح الديني وكذلك التجار الحاذقين والبضاعة الجيدة والكلمة الطيبة والثقة والالتزام وأخلاق الضيافة.. وهناك اكتشف بعضهم أن هذا الشرق ليس متخلفا ولا مجنونا ولا أبله، وإنما عقلية الغازي الغريب هي التي صنعت تلك الصورة من أجل بسط هيمنة المفهوم الثقافي المسيحي أو الغربي المنتصر والمتفوق..

هكذا بدأت النزعة الغرائبية تفرض نفسها (الشرق الغرائبي والعجائبي) وهي تفتح الطريق شيئا فشيئا نحو التصادم حين تحولت إلى نزعة تحقيرية للسكان ولتلك الأراضي الجديدة.. بعد ذلك تطور الأمر إلى نزعة تطهيرية تحت عنوان «تعمير الأراضي البكر» لتصبح في النهاية صراع موت أو حياة، انتهى بوضع تاريخ شعوب كثيرة في الأسر. تم ذلك على مراحل: الانتشار، الاستكشاف، الاستغراب، الاستفزاز، الاستحمار، ثم الاستعمار (الأرض جيدة ومفيدة، أما سكانها فمتخلفون وفاسدون)..

لم تكن «جاوه» متخلفة عن هولندا، ولا الفرس كانوا متخلفين عن البرتغاليين ولا الهند كانت متخلفة عن البحارة الإنكليز ولا مراكش أو فاس كانت متخلفة عن الفرنسيين! ولكن النصوص البطولية الخارجة من رحم الحرب والغزو، هي التي جعلتنا نمجد تلك الحقب المظلمة من المعاناة والدجل والقتل، وننسى المذابح والتصفيات العرقية ونفي تاريخ، كان يتطور ويتقدم وفق محركاته الثقافية والدينية والاقتصادية الأهلية.

كانت اللقاءات الأولى بين المسيحي الغربي القادم من بعيد والمسلم الشرقي أو حتى الهندوسي أو الإفريقي الساكن بعيدا، جدا فاشلة. فقد امتلأت مذكرات البحارة بحوادث الخجل الذي أصابهم أمام رقي تجار وأمراء وسلاطين هذه البلدان وبدقة معاملاتهم وتهذيب مجتمعاتهم وسكينة الأهل وكرم الضيافة. فقد بدت ثياب أولئك البحارة الجائعين رثة، مع ذلك فقد قدموا أنفسهم على أنهم أرستقراطيون من أوروبا. وكانوا يرتكبون الأخطاء في المعاملات وفي الأكل ويجدون صعوبة في فهم وسائل التعامل والتواصل ووحدات الصرف والقياس واحترام التعهدات وكذلك اللغة والعملة والرزنامة التاريخية.. وفي اللحظة التي بدأت فيها صورة الأوروبي/المسيحي تظهر

على حقيقتها (الغش والتحيل والمغالطة والنهم)، بدا أن العالمين لم ولن يلتقيا، لا لأنهما مختلفان، ولكن لأن «الريبة» قد بدأت تحفر في الجانبين وجعلتهما خصمين متقابلين، في صراع ممتد على عالمين غير متجانسين..

انطلقت أوروبا (الغرب) كفكرة من رحم تاريخ قديم. كانت تريد ان ترث الرومان والإغريق معا: الفكر والفلسفة والتجارة والغزو والاستيطان والزراعة.. ذلك ما سماه عبد الله العروي بمغامرة اكتساب الفكر التاريخي. وخلال تلك الرحلة استقامت الخطوط واتضحت القوى والرؤية، فانتهت في آخر المطاف كمغامرة للتاريخ البشري.. ومع الانتشار وتحقيق الهيمنة بدا أن تاريخ الشعوب الأخرى تشظى وذاب وسط الملحمة الأوروبية وبات كل تاريخ صغير أو حقير أو حتى نقي أو نظيف، اسيرا للتاريخ الكبير. وهكذا «إذا ما وجد إنسانيون أوروبيون كبار، فإنه في المقابل لا يوجد إنسانيون متأوربون كبار»**83. كان الحد الفاصل بين الأهلي والأوروبي (العالمي) عاليا جدا وشديد السيطرة. وقد باءت كل محاولات تجاوزه بالفشل أو الإرتهان. فالذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمة (سياسيون أو مثقفون أو تجار) كانوا في غالبيتهم يدورون حول محور تاريخ أوروبا. وبما ان التاريخ أصبح هو أوروبا، وأوروبا هي أرض التاريخ، فإن كل ما يصنعونه يأتي إما ملتبسا ومتأوربا ومشوها. وإما تكملة وزيادة وإضافة للتاريخ الأوروبي.

لقد أدخل الغرب كل الشعوب في الغربة. اصبحت هذه الشعوب منفية، إما في أرضها المغزوة وفي معارفها المنثورة. وإما في أرض أخرى غريبة. وهذا ما جعل المقاومة غير تاريخية. فكل مقاومة غالبا ما تنتهي إلى عدم التوازن ثم الإنهيار أمام الجريان العنيف لتاريخ أوروبا التي باتت هي عنوان ملتقى الغرب القديم والغرب الحديث وملتقى القيم والحريات والقانون وكذلك الغزو والهيمنة والتسلط. إن ما يسمى بالحداثة لم تترك أحد متمسكا بعقله وأعصابه. فهي التي فتحت على المساواة والحرية وكذلك على الفاشية والشمولية. ولم يسلم من ذلك الإجتياح إلا من كان بعيدا جدا ينعم بهدوء «حفرته الصغيرة» أو من عاد إلى الماضي السحيق ليستنطقه ويعاشره، أو من رمى الأقنعة بعيدا وقرر الخروج إلى المقاومة عن طريق اكتساب الخبرة والمعرفة لاسترجاع تاريخه من الأسر.

*** *** ***

في زمن التحولات الكبرى مثل (الثورات) عادة ما يعود «نداء البدائي» من بعيد ليستدعي بداية اخرى جديدة وكبيرة. ولكن عادة ما يخيب ظن الجميع، لأن نداء ذلك «البدائي النظيف» سرعان ما يتحول إلى نداء متوحش أو مغلق أو متزمت. إن

نداء الماضي قد يساعد على العودة إلى الجذور والأصول، ولكنه لا يحضر إلا مقنعا أو متكلفا او نابذا لكل ما هو جديد. لقد درس فلاسفة مثل هيغل وكذلك نيتشه تلك الظاهرة، ظاهرة الرجوع إلى الماضي، ولطالما وقع فيلسوف مثل نيتشه تحت سحرها وعذابها ورأى أن العودة مثلا إلى زرادشت إنما هي غوص في الماضي للانطلاق نحو المستقبل. وبذلك فقد تجاوز «نداء الرجل البدائي»، عبر تأسيس لنداء الرجل القوي والمتفوق. فالعودة أو «العود على البدء»، هو بمثابة العيد حيث يظهر الإنسان ثم يعاود المسير. «لذلك كان الذي يصل الأول في دورته عبر الكون هو من يضع القوانين ويفرض على الآخرين أن يعيشوا تحتها وبموجباتها العنيفة والمنظمة والقاسية». (عبد الله العروي)

ففي رحلات الاستكشاف الأولى التي انطلقت رسميا مع كريستوف كولومبس، وضعت أوروبا نفسها أمام الجميع. انطلقت مما انتهى إليه العرب والصينيون، ثم وضعت لنفسها نقطة بداية ونقطة نهاية كما لو أن التاريخ يشبه الأرض. وبذلك اعلنت القطيعة مع الآخر/المنافس، خاصة حين أثبتت أن الآخر لم يذهب ابعد منها. وهكذا دارت المنافسة إلى ان انتهت بانتصار أوروبا وفرض التبعية أو التقليد على الآخر. الآخر هنا كمجموع من الشعوب التي ذهب بعضها إلى التقليد خوفا من الإندثار، وبعضها الثاني اتجه إلى الإنكفاء والإنغلاق والممانعة..

كان من نتائج تلك الملحمة أن أوروبا لم تبق في أوروبا. بل أصبحت هي العالم. إنها أم الجميع تقريبا. كانت توزع البركات وتضرب بالسياط. تهدم هنا وتبني هناك. تعلم هنا وتزرع الجهل هناك. كانت أمًّا قاسية في غالب الأحيان حتى مع ابنائها المخلصين والحقيقيين.. وفي بعض الأحيان كانت تبدي تعاطفا على أبنائها المتمردين.. زرعت نفسها كتجارة وثقافة وفن ونمط عيش وقوانين في كل مكان. بنت أمريكا على شاكلتها المعمارية.. وأعادت بناء ألمانيا على هيئتها القديمة.. وزرعت مدنا وشوارع شبيهة بمدنها وشوارعها في الهند ومصر وإيران وإفريقيا.. وفي كل ذلك كانت تقول للجميع: أنا التاريخ المظفر.. أنا أوروبا المنتصرة.. ولكن في لحظة ما برز خوف آخر لديها وهو يمزق أحشائها كما لو أنه نداء إلى التوقف حتى لا تذوب أوروبا في تاريخ الآخرين، أو يصبح المتأوربون هم أوروبا والأوروبيون هم الشكل الذي لا روح له (روح التاريخ)*[84].

مع ذلك، ففي أمريكا تحللت أوروبا. واصبحت اوروبا هي امريكا في الوعي الجديد للغرب. هناك لم تعرف أوروبا كيف تتوقف أو توقف الآخرين عن تقليدها. أبناؤها الأمريكيون هم الذين ورثوها. اصبحت أوروبا هي الموروث وليست الوريث. وبات تاريخها المظفر ملحقا بتاريخ إمبراطوري جديد. وبحكم تجربتها وعقلانيتها سعت

إلى الاحتضان وكذلك إلى المريح والقوي. فهي التي صنعت الهوية الأمريكية، ولكنها لم تسع أبدا إلى نكرانها، بل اتخذتها هوية جديدة ومشتركة لمواصلة مسيرة التاريخ.. ومثلما منحت أوروبا هوية أمريكا، فها أن امريكا تمنح هويتها لأوروبا.

كان جدل الثورة بما هي تغيير عنيف وقطيعة مع المكبل والأسير والغريب، قد أشار علينا جميعا نحن العرب أن مجتمعاتنا هشة وأن دولنا بلا بناء صحيح وهي تكاد تكون عبارة عن سقف مرفوع بلا صقالة، وأن تاريخنا هو التقليد والاستيراد والتغريب (الأفكار، المصطلحات، الآلات، التنظيم، الإدارة ثم المعاش). كانت الثورة تسعى في لحظة بزوغها إلى العودة إلى التاريخ الاهلي لتلك المجتمعات (ككل ثورة). ولكنها ولعجز في النخب لم تعرف إلى أين تعود. ومن أين تبدأ الربط مع التاريخ الأهلي؟ وأي تاريخ يمكن أن تتخذه كنقطة بداية جديدة لصناعة تاريخ جديد.. وبالاكتفاء بالحالة التونسية هنا، ظن البعض ان تاريخ هذه البلاد سيعيد اللحمة مع التاريخ الأهلي متجاوزا الحقبة الأوروبية التي استمرت منذ فشل ثورة علي بن غذاهم في العام 1864 وحتى سقوط نظام بن علي 2011. وبذلك ستخرج من التاريخ الطارئ والمستورد والمستلب والمغتصب إلى التاريخ الأهلي والمستقل والمختلف.. ولكن ما إن يتوسع الجدل التاريخي حتى يصبح ضجيجا وهذيانا عند البعض وخطرا عند البعض الآخر. هذا الآخر هو أوروبا القديمة والجديدة. إن الاستعمار مثلما يقطع الرؤوس والأفكار يقطع الطريق بإقامة الحدود بين تاريخ وتاريخ آخر.

والآن حين نعود إلى ذلك الجدل فإننا نعود نسأل: نحن. من نحن؟ ثمة من يجيبك: أنا لغتي. وثمة من يرد: أنا ديني. وآخرون يقولون: نحن العصر. تتصارع هذه الإجابات فيما نحن أسرى لمحددات فوقية/خارجية او لتصورات إيديولوجية زائفة ليس لها أثر واقعي، أو لسياقات خارجية. وذلك هو الضجيج الإيديولوجي. إن الإيديولوجيا ليست هي الفكر التاريخي التي يبحث عنه عبد الله العروي وليست هي الحس التاريخي كما رآه هيغل ولا هي روح التاريخ كما لدى نيتشه. وإنما هي الوعي الزائف بالواقع والتاريخ كما رأى ذلك ماركس!..

بكلمة يبدو أن تاريخ العرب ليس إلا تاريخ الهروب من التاريخ. إنه أسير بلا سيادة وبلا سرد وبلا ظفر!.

مصادر وهوامش

الفصل الرابع

1 - المؤرخ شبنغلر: هو **أزوالد شبنغلر** (1880-1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني كتب في العلم والفن والرياضيات. يعرف بكتابه «انحدار الغرب» وترجم هذا الكتاب إلى العربية بـ«تدهور الحضارة الغربية». حلّل فيه سقوط وازدهار الحضارات. ورأى أن ذلك يتم بشكل دوري وفقا لنظرية ابن خلدون. كتابه «بروسيا والإشتراكية» تكلم فيه عن العلاقة العضوية بين الإشتراكية والسلطوية. كان مؤيدا للنازيين ومنظرا لهم ثم نبذوه حين تكلم عن مستقبل غامض لألمانيا. وتعني «لحظة فاوست» بالنسبة لشبنغلر اللحظة الرومانسية غير المكتملة دائما.

2 - جمال حمدان: جغرافي مصري (28-1993) من مواليد القليوبية وتوفي في القاهرة. أهم كتبه: مصر وعبقرية المكان. اهتم به العرب والمصريون بعد وفاته. وأصبح أحد المصادر الكبيرة في التفكير الجغرافي والاستراتيجي. عانى حمدان من عدم التقدير لجهوده الفكرية ورأى فيه البعض سابقا لأنداده في التفكير المستقبلي. تنبأ منذ العام 68 بتفكك الاتحاد السزفياتي. فضح كذلك أكاذيب اليهود. وقال «أن يهود إسرائيل هم من بقايا إمبراطورية الخزر التترية التي قامت في بحر قزوين والبحر الاسود واعتنقت اليهودية في القرن الثامن. وهو ما أكده فيما بعد الباحث «آرثر كوستلر» مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشر» الذي صدر عام 1976.

3 - أنظر كتاب «المملكة المستحيلة: فرنسا وتكوين العالم العربي» **هنري لورنس**
Le rouyaume impossible : La France et la genese du monde Arabe
Henery Laurens
.Ed : Armand Colin – Paris 1990

4 - انظر كتاب أزمة الوعي الأوروبي (1680-1715)
بول هازار- ترجمة **د. يوسف عاصي**
إصدارات: المنظمة العربية للترجمة – بيروت 2009.

5 - الماركيز دي كوندورسيه Marquise de Candorcet: فيلسوف فرنسي. لعب دورا كبيرا في الثورة الفرنسية. لاحقه اليعاقبة عام 1793 فاختفى عن الأنظار لمدة 9 اشهر. وحين اعتقلوه تجرع السم. ظهر هذا المفكر ذو الحس التاريخي في العصر الذي ظهر فيه فولتير وتوماس مان وروسو. وقد كان يمثل عصر التنوير الأوروبي وكثيرا ما ينحاز في الدفاع عن الشرق والإسلام. ويقال أن بونابرت كان ينهل من أفكاره.

- أنظر كذلك كتاب «خريف العرب: البئر والصومعة والجنرال»، لمؤلفه **الصافي سعيد** – دار عرابيا – تونس 2011 – دار بيسان – بيروت 2005.

6 - أنظر المصدر السابق.

7 - الطهطاوي: رفاعة رافع الطهطاوي (1873-1801) مات قبل أن تصبح مصر مستعمرة بريطانية (1882). يعتبر من قادة النهضة في عهد محمد علي. ولد في طهطا بسوهاج بصعيد مصر. عائلته من الشيوخ والقضاة. كان من ضمن أول بعثة طلابية إلى فرنسا (40 طالبا) أرسلها محمد علي، على باخرة حربية فرنسية La truite في العام 1826. كان عمره 24 عاما وقد أرسل كإمام لهؤلاء الطلبة الأزهريين. تعلم الفرنسية وكتب بها مقالات عدة ثم نشر كتابه الشهير: «تخليص الإبريز في تلخيص باريس». افتتح فيما بعد مدرسة للترجمة في القاهرة وهنا تجلى مشروع الطهطاوي الثقافي الذي يتمحور حول الاصالة والمعاصرة. اهتم بالترجمة وكذلك بصيانة الآثار ثم انشأ مدرسة المحاسبة لدراسة الاقتصاد. ومدرسة الإدارة للعلوم السياسية، غير أن الطهطاوي سيجد من يحاربه لدى الخديوي عباس فنفاه إلى السودان. عاد إلى مصر في عهد الخديوي سعيد فواصل مشروعه واقام مكاتب لمحو الأمية. ثم شرع في ترجمة مسرحيات وروايات كثيرة. كان غنيا وقد أهداه كل من محمد علي والخديوي سعيد والخديوي إسماعيل ما مجموعه ألف فدان من الأراضي.

8 - شارل الخامس (1558-1500) هو «شارلكان دي هابسبورغ». أحد أعظم شخصيات أوروبا. توج ملكا على إسبانيا وإيطاليا وأرشيدوقا على النمسا. حكم إمبراطورية واسعة جدا. ممتلكاته لم تكن لتغيب عنها الشمس. فهي تمتد من حدود روسيا إلى إسبانيا ثم إلى أمريكا اللاتينية. هزم فرنسا وهاجم روما وأخضعها وأسر البابا وهزم العثمانيين في عهد سليمان القانوني.

في اواخر حياته تنازل شارل الخامس عن العرش موزعا ملكه بين ابنه فيليب وأخيه فرديناند ثم انسحب ليقيم في دير كنسي. في عهده كذلك بدأت حملات التنصير للمسلمين وخاصة مسلمي إسبانيا وتونس والجزائر. وقد انظم مولاي الحسن الحفصي (أمير تونس) إلى تلك الحملة وأصبح من أتباعه إلى حين عاود العثمانيون الهجوم حين استمالوا ابنه «حميده» (أبو العباس أحمد) الذي قاد هجوما على مرتزقة النصارى والسلطان الحسن واوقع بهم أكبر مذبحة في شبخة السيجومي بتونس العاصمة.

9 - أنظر كتاب هيكل جانوس - تاريخ الشرق الأوسط الحديث، للمؤرخ البريطاني ديزموند ستيوارت - دار النهار - بيروت.

10 - نفس المصدر.

11 - فتح محمد علي باشا باب القاهرة أمام مسيحي بلاد الشام. وخاصة أمام النخبة المثقفة. وهناك في مصر ظهرت بفضل هؤلاء مدارس للترجمة ومسارح وصحف ومكتبات ومؤلفات كثيرة.

12 - كل الكتب المدرسية تذكر أن داي الجزائر، غضب من سفير فرنسا وأطرده من مجلسه وحاول أن يعتدي عليه بمروحته، حين أبدى امتعاضه أمام طلب الداي

لمستحقات بلاده: (ثمن القمح الذي كانت ترسله الجزائر إلى فرنسا في زمن حروب نابليون). وهي بلا شك حادثة صحيحة لكنها ليست هي سبب وراء احتلال فرنسا للجزائر. وإنما المخطط كان قد ذهب بعيدا وأصبحت فرنسا تفكر في القفز إلى الجزائر قبل أن يقفز البريطانيون. الداي كان إسمه حسين والقنصل/ السفير كان يدعى شارل دوفال. والديون كانت مقدرة بـ20 مليون فرنك. (تشبه الحادثة ما حصل بين العراق والكويت في العام 1990). الحادثة الجزائرية تمت في 1828. فهل كانت إهانة لا تغتفر أم هي ذريعة؟ يمكن أن نسأل كذلك عما حدث بين العراق والكويت؟ هل يمكن أن نبرر احتلال الكويت لأنها أهانت مبعوث صدام حسين حين طالبت باسترجاع ديونها؟ وهل يمكن أن ترسل فرنسا حوالي 40 ألف من الجنود إلى الجزائر، لأن حسين داي أهان القنصل شارل دوفال؟

13 - معاهدة تافنا وقعت عام 1873 بين الأمير عبد القادر الجزائري والجنرال الفرنسي توماس بيجو. تنص أن يعترف الأمير بالسيادة الفرنسية في شرق الجزائر مقابل أن تتنازل فرنسا على ثلثي الجزائر لسيادة الأمير (إمارة الجزائر) (Regence d'algérie) وهي ولايات وهران، المدينة، تلمسان والجزائر العاصمة. ولكن الملك لويس فيليب الأول سرعان ما نقضها، فعاودت الحرب وأعلن الأمير الجهاد مرة أخرى في عام 1939. ملاحظة: كانت معاهدة مشينة وأغلب نصوصها لصالح فرنسا. ومع ذلك فإن فرنسا خرقتها عندما تحسنت حالتها العسكرية.

14 - نادي الترقي أو جمعية الاتحاد والترقي: تأسست عام 1889 وقد ضمت طلبة واساتذة غاضبون من حكم السلاطين. ثم انظم إليها أعضاء من حزب تركيا الفتاة 1906 خلال فترة بدء انهيار حكم بني عثمان. حوكم معظم أعضائها في عهد السلطان محمد السادس وكذلك في عهد السلطان عبد الحميد وتم إعدام بعضهم. وكانت قد تحولت إلى منظمة سياسية على يد بهاء الدين شاكر. وفي العام 1926 تم إعدام زعمائها بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال كمال أتاتورك. نادي الترقي كان قريبا من فرنسا.

15-16 - تيودور هرتزل (1860-1904) ولد في بواديست. صحفي مجري يهودي. وهو مؤسس الصهيونية المعاصرة. درس القانون في فيينا ثم أصبح صحفيا. عاش في باريس وتأثر بحادثة الضابط دريفوس وتعرف على إميل زولا. ألف مسرحيات كثيرة وكتيبات سياسية منها الدولة اليهودية والأرض القديمة الجديدة. وقد جال الغرب والشرق بحثا عن مشروع الدولة اليهودية.

وخلال اتصاله بالبريطانيين عرضت عليه أماكن لتأسيس هذه الدولة اليهودية بعد أن اقنع (بريطانيا والنمسا وفرنسا) بأن حل مشكلة اليهود ليس في نقلهم من مكان إلى مكان آخر وإنما في منحهم قطعة أرض يقيمون عليها دولتهم. أشاروا عليه في البداية بسيناء والعريش ثم قبرص وأوغندا أو الأرجنتين. يقال إنها (الفوكلاند) وكذلك الجبل الأخضر في ليبيا (البيضاء ودرنه) ولكن هرتزل مع وايزمان أصرّا أن تكون فلسطين، لأنها أرض الأجداد القديمة والمقدسة!..

17 - أنظر كتاب دزموند ستيوارت

هيكل جانوس - تاريخ الشرق الأوسط الحديث -
دار النهار - بيروت.

18 - نفس المصدر.
أنظر كذلك كتاب: دولة إسرائيل زائلة - يعقوب شاريت
- إصدار دار الجليل - عمان

19 - أرتير بلفور: رئيس وزراء بريطانيا من 1902 إلى 1905. توفي في العام 1930 عن عمر يناهز 81 عاما. عمل كذلك وزيرا للخارجية من 1916 إلى 1919 وارتبط إسمه بوعد بلفور الذي نص على دعم بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين عام 1917. كان معجبا بشخصية العالم حاييم وايزمان. افتتح جامعة عبرية في فلسطين عام 1925.

20 - أنظر كتاب «المملكة المستحيلة» وما ذكره من أفكار للفيلسوف التنويري كوندورسيه. تأليف هنري لورنس - دار ارماند كولين - باريس.
Le royaume impossible : la France et la genèse du monde arabe
Henry Laurens
Ed : Armand Collin – paris 1990

21- 22 نفس المصدر
- أنظر كذلك خريف العرب - البئر والصومعة والجنرال
الصافي سعيد - دار بيسان - بيروت 2005 ودار عرابيا تونس 2011.

23 - انظر كتاب: نابليون: أسطورة المنقذ، لمؤلفه جون تولار
- دار فايار - باريس.
Napaléon : Mythe d'un sauveur
Jean Tulard
.Ed : Fayard – Paris 87

24 - Biographie intégrale de Napoléon – Emil Ledwig
السيرة الكاملة لنابليون مترجم عن الألمانية. Ed : Payot
وكذلك كتاب «هيكل جانوس» السابق الذكر - ستيوارت - Desmond Stuwart

25-26 27- أنظر كتاب: «الإسلام والمسيحية». تأليف الكسي جورافسكي-
سلسلة عالم المعرفة - الكويت.
أنظر كذلك كتاب «تراث الإسلام». تأليف جوزيف شاخت وكليفورد بوزوث.
منشورات دار المعرفة - الكويت.
كذلك أنظر: انتقام الله: مسيحيون ويهود ومسلمون في غزو العالم. Giles Kepel
- دار غاليمار 1995.
Vengeance de Dieu : Chrétiens, Juifs et musulmans à la reconquete

du monde
Giles Kepel
Ed : Galimard 1995.

28 - عرفت إيران في أواخر القرن الـ19 نخبة من المثقفين والمفكرين (دعاة الإصلاح والدستور). ومن بينهم رجل الدين الشيخ ميرزا حسن الشيرازي الذي أفتى بتحريم التبغ في العام 1891. وأحمد كسروي تبريزي والشيخ محمد طبطباني وآية الله بهبهاني وميرزا مالكوم خان، مؤلف كتاب (الإصلاح) الذي يعد الركيزة الأولى التي اعتمد عليها قادة الحركة الدستورية في إيران. وفي العام 1906 قامت مظاهرات عنيفة تطالب بالدستور، فاضطر مضفر شاه إلى الإستجابة في أوت 1906. وحين انقلب الشاه عن الدستور، عادت المظاهرات وأعلن رجال الدين بقيادة طهراني وكاظم الخراساني الجهاد. وهرب الملك إلى سفارة روسيا. ثم جاء الشاه الجديد أحمد شاه ليفتتح المجلس النيابي بعد إغلاق دام ثلاث سنوات.. وآنذاك أطلت الحرب العالمية الأولى وإيران لاتزال في المخاض.

29 - المستشرق **جوزيف ارنست رينان** (1892-1823). كاتب وفيلسوف وسياسي فرنسي. من كتبه: ماهي الأمة؟، حياة المسيح، اسئلة معاصرة. انتقد كل الديانات ورأى أن هناك خلطا بين التاريخ والاسطورة في الكتاب المقدس وهاجمته الكنيسة. وادعى أن «الأمة» هي قوة تقوم على صفاء الأعراق. وصاغ مفهوم الفرنسيين للأمة وأصبح رمزا لفرنسا العلمانية وكذلك للإستشراق العنصري. كما قام بترتيب الأعراق: الصينيون (عمال) الزنوج (فلاحون) الأوروبيون (سادة) وأوصى بمعاملة كل عرق على حدة وحسب قدراته الذهنية.

أما أكثر ما عرف به، فهو احتقاره للإسلام. فحسب رأيه: «الإسلام هو تعصب لم تكد تعرف مثيله إسبانيا. الإسلام هو الاستخفاف بالعلم. هو إزالة المجتمع المدني، هو بساطة العقل السامي القطيعة التي تقلص دماغ الإنسان وتغلقه دون أية فكرة لطيفة ثم دون كل بحث عقلاني».. رد عليه آنذاك جمال الدين الأفغاني ومحمد الخشت، وفندوا نظرياته العنصرية.

30 - أنظر في كتاب: تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ترجمة بين أمين فارس ومنير البعبلكي - دار العلم للملايين - الطبعة 7 - بيروت.

راجع كذلك كتاب جوزيف شاخت / كليفورد بوزوث - منشورات دار المعرفة - الكويت - ترجمة إحسان صدقي العمر - حسين مؤنس - محمد زهير السمهوري.

31 - أنظر كتاب: الفقيه والسلطان - جدلية الدين والسياسة، تأليف وجيه كوثراني - دار الطليعة - بيروت.

32 - **الخط الهمايوني**: هو وثيقة تنص على أمن وأمان أهل الذمة والأقليات والطوائف في الدولة العثمانية. كما تنص على حق حمايتهم والتدخل من أجل ذلك لصالح الدول الغربية. وبفضل تلك الاتفاقية التي وافقت عليها اسطمبول بعد هزيمتها العسكرية في القرم أمام روسيا، أصبحت الأقليات أكثر حركة وحرية

في الفضاء العثماني إلى درجة باتت فيها تمتلك حق طلب الحماية من القناصل الأجانب. العثمانيون قالوا عنه أنه وثيقة دستورية، ولكنه في الحقيقة كان نتيجة اتفاقية مع الدول الغربية. تم ذلك في عهد السلطان عبد المجيد في فبراير 1856 بعد أن ساعدته كل من فرنسا وبريطانيا في حربه مع روسيا. من بين نقاط هذا الخط: عدم إجبار أي شخص ترك دينه، إعفاء الكنائس من الضرائب، تعيين الكهنة والرهبان من داخل الكنيسة ولا يحق لأي كان تغييره أو عزله. ثم تكوين مجلس ملّي عام يقرر أوضاع ومصير الأقليات دون تدخل الدولة.

33 - أنظر كتاب المملكة المستحيلة وتركيب العالم العربي - هنري لورنس
Le royaume impossible : la France et la genèse du monde arabe
Henry Laurens – ed : Armand Collin – paris 1990

34 -35- نفس المصدر السابق. وانظر كذلك كتاب «حياة عبد القادر الجزائري»
تأليف هنري تشرشل. ترجمة أبو القاسم سعد الله – دار النشر التونسية.
أنظر كذلك كتاب هنري لورنس – الحملة على مصر –
L'expidition d'egypte 1789-1801
Ed : a. Collin – paris 1992.

36 - فؤاد باشا: قائد عثماني في حرب القرم (توفي في العام 1869). كان يجيد الفرنسية والأنكليزية. كان بارعا في المفاوضات. ويقال ايضا انه كان ماسونيا. في العام 1860 كلف بمهمة في سوريا (اثناء ثورة الفلاحين) في آخر حياته كتب للسلطان عبد العزيز حول حالة الإمبراطورية وقال له «أن الدولة العثمانية باتت أمام مصيرها. وإنها ذاهبة نحو النهاية».

37 - هناك من اتهم الأفغاني بأنه كان ينتمي إلى الماسونية (محفل الشرق الكبير) مثل سلامة موسى وغالي شكري. أنظر كذلك كتاب حياة عبد القادر الجزائري – شارل هنري تشرشل – ترجمة أبو القاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر.
- أنظر كذلك كتاب: الفقيه والسلطان – جدلية الدين والسياسة –
تأليف وجيه كوثراني – دار الطليعة – بيروت.

38 - أنظر كتاب «صحوة الرجل المريض» –
تأليف موفق بني المرجة – الكويت 1984.

39 - وقعت معاهدة الحماية في عهد الصادق باي في ضاحية باردو، حيث كان يوجد البرلمان التونسي وإلى اليوم. كان ذلك في العام 1881 وبحضور وزراء وأعيان المملكة.

40 - أنظر كتاب هيكل جانوس – تأريخ الشرق الأوسط الحديث،
تأليف ديزموند ستيوارت – دار النهار – بيروت.

41 - أحمد عرابي (1841-1911) قائد عسكري وزعيم ثوري: قاد الثورة ضد

الخديوي توفيق. كان أميرالايا وقد وصل إلى رتبة وزير دفاع. ولم يكن ذلك من السهل في جيش كان يسيطر عليه الأجانب والأقليات الشركسية. لجأ الأنكليز والخديوي توفيق إلى كل الحيل لكسر مقاومة عرابي. حتى السلطان عبد الحميد الثاني انظم إلى الخديوي. وحين تقدم الأنكليز من الإسكندرية إلى القاهرة تمت محاكمة عرابي ثم تم نفيه إلى جزيرة «سيلان» مع مجموعة من القادة والعلماء.

42 - انظر كتاب **شارل بروكلمان** – تاريخ الشعوب الإسلامية –
دار العلم للملايين – بيروت.

43 - نفس المصدر السابق.
وانظر كذلك كتاب: «حقيقة الملك ادريس» / المنشأة العامة للنشر
كذلك أنظر: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم –
ترجمة عبد الرحمن البدوي – تأليف: الفريد بيل – نشر دار المغرب الإسلامي –
بيروت 87.

44 - نظام الهجر، ما يعادل المستوطنات التطوعية. شبيهة بالهستدروست في إسرائيل. وهي معسكرات أقامها عبد العزيز بن سعود لإيواء وكذلك لتشغيل وزراعة الأرض. كانت تجربة تطوعية جماعية.
أنظر تاريخ العربية السعودية من القرن 18 إلى القرن 20 للمؤرخ الكبير فاسيليف –
شركة المطبوعات والنشر – بيروت

45 - أنظر كتاب **جمال حمدان** – إستراتيجية الإستعمار والتحرير
دار الشروق مصر.

46 - انظر كتاب **شارل بروكلمان** – تاريخ الشعوب الإسلامية
دار العلم للملايين – بيروت.

47 - **السلطان العبدلي** هو حاكم لحج، إحدى الكيانات التي وقعت على اتفاقية حماية مع بريطانيا في أوائل القرن 19 وأصبحت جزءا من محمية عدن. أصبحت فيما بعد في اتحاد إمارات الجنوب العربي الذي خلقه اتحاد الجنوب العربي عام 1963. عاصمة لحج تعرف بالحوطة.

48 - **الملكة فيكتوريا العظيمة:** صاحبة أطول فترة حكم. وسمي عهدها بالعصر الفيكتوري لإنجازاته الكبيرة. توفيت في العام 1901. وكانت قد تزوجت من خادمها جون براون!

49 - أنظر كتاب **جمال حمدان** – إستراتيجية التحرير والإستعمار
دار الشرق – مصر.

50 - أنظر كتاب – الأعمدة السبعة – لورنس العرب – دار الأهلية – عمان.

51 - **جولبنكيان**: إنه **كالوست سركيس جولبنكيان**. أرمني من أصل عراقي (1869–1955) يسمى كذلك برجل 5%. كان وسيطا كبيرا بين شركات النفط

الأجنبية والدول العربية. وقد قام بأعمال خيرية كثيرة منها مدينة الطب في بغداد. كان يحمل الجنسية الفرنسية.

أنظر كذلك كتاب:

les Hommes du pétrole

Les fondateurs de 1859-1945 - Daniel Yergin

Ed : Stock - Paris

أنظر كذلك «قصة النفط في الشرق الأوسط» - تأليف بيار ترزياني

Histoire du pétrole en moyent-orient

Pierre Terziani

.Ed : le Lafon - Paris 1990

راجع كذلك كتاب: البترول والسياسة في السعودية تأليف توفيق الشيخ

دار الصفا - لندن.

52- 53- أنظر كتاب هيكل جانوس - تاريخ الشرق الأوسط الحديث، ديزموند ستيوارت - دار النهار - بيروت.

54 - أنظر كتاب أعمدة الحكمة السبعة - لورنس العرب - دار الأهلية - عمان - ترجمة محمد نجار.

55 - صمويل هربرت: سياسي بريطاني يهودي. أول مندوب سام بريطاني في فلسطين. ولد لعائلة يهودية تعمل بتجارة الذهب (عاش حوالي 100 عاما. ولد في العام 1870 ومات في 1963).

أنظر كتاب: العتبات المدنسة في الشرق الاوسط - الصافي سعيد

دار بيسان - بيروت - 1999.

56 - انظر كتاب: العرب إلى أين - الصراعات العربية في القرن 20

تأليف دكتور زكريا حسين. منشورات المكتب المصري الحديث - القاهرة.

كتاب هيكل جانوس - تاريخ الشرق الأوسط الحديث، ديزموند ستيوارت - دار النهار - بيروت.

كتاب: مذكراتي - عبد الله بن حسين - نشر الأهلية للتوزيع - الأردن

57 - أنظر كتاب غارودي - الأساطير المؤسسة لإسرائيل

Les mythes fondateurs d'Israïl - Roger Garandy

.Ed : La vielle taupe - Paris 1996

أنظر ما كتبه شيمون بريز مؤخرا في فورين أفيرز - دور إسرائيل في مكافحة الإسلام الإرهابي - أوت 2014.

58 - أنظر كتاب العتبات المدنسة في الشرق الأوسط - جنازة واحدة وثلاث قيامات - تأليف الصافي سعيد - دار بيسان - بيروت 1999.

59 - صدام الحضارات، إعادة بناء نظام عالمي - صمويل هونتنغتن - دار النشر والتوزيع العامة - طرابلس.

60 - أنظر كتاب جون كريستوف ريفان - الدكتاتورية الليبرالية - دار غيزان - باريس 2001.

La dictature libérale

Jean Christophe Rufin

Ed : Guisan - Paris

كريستوف ريفان كاتب متعدد الاتجاهات. يكتب في السياسة والتاريخ والرواية. من رواياته: الأحمر البرازيلي Rouge Brésilien والحبشي L'abyssin. من الكتاب المعادين للإستعمار. ورغم أنه عمل دبلوماسيا إلا أنه مناهض للنزعات الإستعمارية.

61 - انظر كتاب غارودي - الاساطير المؤسسة لإسرائيل

Les mythes fondateurs d'Israïl - Roger Garandy

.Ed : La vielle taupe - Paris 1996

غارودي كان مسيحيا ثم اعتنق الإسلام. رجل معاد للصهيونية وقد شكك في الهولوكست. ونال حصارا كبيرا في فرنسا واوروبا ولكنه ظل على مبادئه.

62 - نقصد الحسن الثاني - انظر كتاب: «ذاكرة ملك» - حوارات مع الملك الحسن الثاني. ايريك لوران - 1997. (نشر بالعربية عن صفحات الشرق الأوسط)

63 - أنظر كتاب العتبات المدنسة في الشرق الأوسط - جنازة واحدة وثلاث قيامات - تأليف الصافي سعيد - دار بيسان - بيروت 1999.

64 - نفس المصدر.

65 - من حوار مع بن لادن في أفغانستان أجراه صحفي من الغارديان عام 96. وقد ورد في كتاب «فشل الإسلام السياسي». أوليفيه روي - منشورات مجموعة Esprit

أنظر كذلك كتاب: باسم اسامة بن لادن - رولان جاكار -

دار نشر: Picolle - باريس 2011.

.Au nom d'Osama - Roland Jacquard

66 - **عزت بيغوفيتش:** يقول بيغوفيتش: «يكون الحيوان خطيرا عندما يجوع. أما الإنسان فيصبح خطيرا عندما يشبع». بهذه النظرة للعالم يطل بيغوفيتش على عالم السياسة في التسعينات ليظهر زعيما مسلما من أنصار الإخوان في البوسنة والهرسك. توفي في العام 2003 عن عمر يناهز 80 عاما. أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك في العام 96. وهو كاتب ومفكر له عدة كتب منها: الإسلام بين الشرق والغرب، ويعتبر من جناح الإخوان المسلمين المعتدل.

67 - أنظر كتاب: بإسم أسامة - Au nom d'Osama

Roland Jacquard - ed : Jean Picollee - Paris

68 - ينتمي الزعيم جومو كينياتا إلى ثورة «الماو ماو» التي قامت ضد البريطانيين منذ الأربعينات. وقد تطورت في الخمسينات بعدما قامت باغتيالات للمستعمرين. في عام 55 اعتقل الزعيم كينياتا ولكن الثورة لم تنطفئ. وتقدمت بريطانيا بتعويضات لقبائل «الماو ماو» ثم دخلت في مفاوضات مع زعماء سياسيين من أجل الاستقلال. وفي العام 1963 حصلت كينتا على استقلالها وأظهر فيها الرئيس كينياتا إهمالا وتهميشا لابطال هذه الحركة. ولازال رموز هذه الحركة حتى اليوم مثل «كاراني» يتهم الحكومة في نييروبي بالإستسلام تجاه الغرب وهو يطالب بتعويضات لقبائل «الماو ماو» من الحكومة وكذلك من بريطانيا الإستعمارية التي قتلت منهم الكثير.

69 - أنظر كتاب: جهاد: توسع وانحدار الحركات الإسلامية - **جيل كيبل**

Jihad : Expansion et declin de l'islamisme -

Giles kepel -

Ed : Gallimard - Paris 2000.

70 - أنظر كتاب: بين عصرين - لمؤلفه بريجنسكي - دار الطليعة 1980 بيروت.

يرى مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد كارتر - بريجنسكي «أن القوة الإلحادية في اتحاد الشر السوفياتي لا يمكن أن تهزم إلا بقوة الإيمان» لذلك نادى بتحالف المؤمنين الإسلاميين في أفغانستان.

71- 72- أنظر كتاب: عودة الزمن الإمبراطوري - الصافي سعيد

دار الملتقى بيروت 2000 - دار عرابيا تونس 2011.

أنظر كذلك ما كتبه توم كلانسكي - هل نحن مستعدون لضرب بغداد؟ وجهة نظر - لوموند دبلوماتيك فيفري 2001 .

أنظر كذلك كتاب: جهاد مقابل ماك وورد - عولمة

وأصولية دينية ضد ديمقراطية - بنجامين باركر

Jihad versus mondialisation

et Integrisme contre démocratie

Benjamin Parker

.Ed : Desoloce de Brower - 1997

73 - جون لوك: فيلسوف بريطاني من فلاسفة التنوير للسابع عشر. يعتقد بأن التجربة هي أصل المعرفة. من كتبه: رسالة في التسامح، ميثاق الحكم، أفكار حول التربية والأخلاق. قام بنقد نظرية الافكار الفطرية. وعرف كفيلسوف تجريبي .(1632-1704)

74 - أنظر ما جاء في حوار صحفي مع المفكر حمادي بن جاب الله لصحيفة الشروق التونسية - جوان 2015. وحمادي بن جاب الله، أستاذ جامعي تونسي متخصص في تاريخ العلوم والفلفسة.

75 - أنظر إلى مقال «روح التاريخ عند نيتشه» - مراد قواسمي (29-5-2015) (موقع: أنفاس).
أنظر كذلك: نيتشه والفلسفة - جيل دولوز- ترجمة أسامة الحاج - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت 93.

76 - طالبت الحركة الدستورية الإيرانية منذ بداية القرن العشرين بتأميم الثروات. وقد منعت بيع التبغ، واسترجعت أراضي افتكت من الشعب. وربما كان ذلك تحت تأثير حركة التأميم التي اندلعت مع زاباتا في المكسيك في ذلك الوقت. وفي العام 1954 قام مصدق بتأميم النفط والمحروقات وتبعه بعد ذلك عبد الناصر في العام 56 حين أمم قنال السويس. وعوقب مصدق بالإنقلاب عليه كما عوقب عبد الناصر بشن العدوان الثلاثي (فرنسا وإسرائيل وبريطانيا) عام 1956.

77 - بعد الإنقلاب على مصدق، أعادت السي.أي.أي، الشاه إلى الحكم بعد أن عزل وغادر البلاد. ثم بدأ عهد السافاك والقمع واستمر ذلك حتى الثورة 1979. وكان زعماؤها لفيفا من رجال الدين والنخب والبازار كما كان الأمر في حركة العام 1906.

78 - أنظر كتاب - التكرار والإختلاف - جيل دولوز -
ترجمة وفاء شعبان - المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2009.

79 - **هيراقليطس:** ولد هذا الفيلسوف اليوناني في 540 ق.م. ويعرف بأنه فيلسوف التغيير أو الصيرورة والنار. عاش باحثا عن نهايات العالم وبداياته. أصبحت آراءه في العود والتكرار والصيرورة مواضيع بحث في عصر الحداثة وعناوين في فلسفة نيتشه وفوكو ودولوز. كان هيرقليطس صعب الفهم وقد عاش معزولا ولكنه وضع أسسا صلبة لفهم صيرورة التاريخ. ورأى أن الصراع قد يكون عدالة وأن الواحد هو متعدد. وأن العلاقة بين الصيرورة والوجود لعبة مع ثالث هو اللاعب. كتب عنه الكثير وناقشه فلاسفة كبار وتخرج من أفكاره فلاسفة كبار أيضا.

80 - أنظر مقال: «روح التاريخ عند نيتشه» - مراد قواسمي- موقع: أنفاس-s(29-5-2015).

81 - أنظر مقال: موجات الحداثة الثلاث - ليو ستروس
ترجمة مشروحي الذهبي - مجلة مدارات فلسفية 1997.

82 - أنظر: كتابة التاريخ واستيعاب الماضي - بول ريكور
- L'écriture de l'Histoire et la représentation du passé
مجلة حوليات Annales - جويلية 2000.
- أنظر كذلك كتاب - التكرار والإختلاف - جيل دولوز -
ترجمة وفاء شعبان - المنظمة العربية للترجمة - بيروت 2009.

83 - أنظر كتاب التاريخ على قدم المساواة - المؤرخ رومان برتران

L'Histoire à part égales

Ed : le seuil - 2010-

Romain Bertrand

84 - أنظر مقال «روح التاريخ عند نيتشه»

مراد قواسمي- موقع: أنفاس. تاريخ مايو 2015.

أنظر كذلك دراسة: «من كانط إلى هابرماس. هل يمكن الجمع بين الكوسموبولتية والديمقراطية؟» - تأليف سيلا حبيب. وهي أكاديمية تركية باحثة في جامعة يال الأمريكية - الدراسة كتبت في العام 2009.



الفصل الخامس

حرب الجيوبولتيك

المجالات، الإيقاعات والاتجاهات..



حـرب الـجيوبولتيك

المجالات، الإيقاعات والاتـجاهات..

«أيها الوزير الكبير، ليتك ولدت في عصري، كنت منحتك نصف إمبراطوريتي مقابل تعليمي كيف أحكم النصف الآخر».

القيصر الروسي **بطرس الأكبر** أمام ضريح الكاردينال الفرنسي الداهية **روشيليو** خلال زيارة له لفرنسا

« إن المراقبة الشاملة لجميع السكان في أية لحظة هي الهدف التقليدي لكل الحكومات. وقد كانت هذه المراقبة فيما مضى مجرد حلم من أحلام الطغاة. أما اليوم فقد أصبحت مجرد تقنية لدى الديمقراطيين!.. يا للعار»..

الروائي اليساري الأمريكي **- غور فيدال-**

«سنضع استثناءات تتعلق بكل الذين يجلبون معهم نساء جميلات. أنتم تعرفون أنني رجل أعزب».

- برلسكوني مازحا في العام 2010

«سنقبل بكل مهاجر يحمل معه طفلا أقل من عشر سنوات».

- ميركل وهي تبكي في العام 2015

ما من دولة صغيرة أو كبيرة تريد أن تتقدم ولا تضع لنفسها خارطة طريق في كل منعطف تاريخي. تلك الخارطة هي الرؤية المستقبلية المتكاملة، الحاملة لوعود ممكنة والمحفوفة بمخاطر محتملة والرافعة لتحديات متوسطة وبعيدة المدى والمصاحبة لمسيرات متعارضة والمتقاطعة مع رهانات متنافسة والقادرة على التأقلم والمرونة والانسياب..

وعلى نحو آخر يمكننا القول: إذا أردنا المستقبل أن يكون إلى جانبنا علينا التخطيط والاستشراف بهدف المشاركة في صنعه مع الآخرين لكي نجد أجوبة وأساليب وآليات لمواجهة التحديات العالمية والإقليمية والداخلية. إن بناء مستقبل بلد ما، ما هو إلا

بناء زاوية في مستقبل العالم. فلو اهتز بلد كبير أو صغير هنا أو هناك أو دخل في متاهة ما (مجاعات، حروب أهلية، كوارث بيئية) فإن الأرض قاطبة ستتضرر، لذا فإن المستقبل الذي تصنعه أية دولة هو جزء من مستقبل العالم كله.. ولما كانت الإرادات متعارضة وصراع القوى مستشرس في عالم متغير باستمرار، فإن أصحاب القرار يجدون أنفسهم في حاجة إلى التسلح بالتفكير الاستراتيجي لتحديد اتجاهات دولهم، الأساسية والمفصلية..

إن السياسة في جميع أشكالها هي حرب ناعمة أو نائمة. وللإعداد لهذه الحرب التي قد تستيقظ وتصبح ساخنة وعنيفة، يعمل السياسيون على الإعداد والاستعداد لجميع الاحتمالات. فالإعداد للمستقبل يتطلب، تكييف المدونات التشريعية، والسياسات الاجتماعية والاقتصادية، وتهيئة الدبلوماسية وتحفيز الرأي العام وإعداده للتأقلم مع كل تغييرات محتملة.

إن اللامتوقع هو الذي يجب توقعه في عالم السياسة. فالجزء اللامنتظر أو اللامتوقع أو الذي لم يتم التفكير فيه، قد يصبح هو الجزء المؤثر على المسيرة برمتها. بل قد يصبح «الفجوة السوداء الرهيبة» التي قد تبتلع كل جهود ما وقع التفكير فيه والإعداد له. إن وهم السيطرة المطلق على المستقبل هو ما يوقع إمبراطوريات كبرى على طريق الانحطاط. وإذا كان القرن الواحد والعشرون قد سجل نفسه بامتياز كقرن للحروب والمذابح (رغم تعاظمه العلمي والتقني) فإن القرن الواحد والعشرين قد يضع البشرية كلها على طريق تلك الفجوة السوداء والرهيبة، حين لا ينتبه إلى الكوارث البيئية أو إلى انتشار الأسلحة النووية أو حين يصل «الإرهابيون» إلى امتلاك أسلحة نووية وجرثومية قادرة على إفراغ الحياة من الحياة.

لم يكن لينين يتوقع أن يدخل القياصرة إلى الحرب، حتى يجد البلاشفة فرصة للإنقضاض. ولم يكن كمال أتاتورك يعرف أن احتلال أجزاء من الإمبراطورية العثمانية سيمنحه فرصة الصعود إلى منصة الحكم. ولم يتوقع الأمريكان لا ضربة «بيرل هاربور» لكي يدخلوا إلى الحرب الكونية الثانية ولا ضربة نيويرك في العام 2011 حتى يذهبوا إلى الحرب في أفغانستان والعراق. والأمر نفسه ينسحب حتى على الرئيس التونسي بن علي. فهو لم يتوقع ابدا أن - انتحار - رجل في إحدى المدن الداخلية قد يؤدي إلى سقوط نظامه السياسي.

إن المستقبل لم يكن ولن يكون أبدا يقينيا. ولكن من الممكن التفكير فيه بقدر ما يجعلنا نفتح كل العلب المغلقة. وطرح كل الأسئلة الممنوعة وتصور كل السيناريوهات المحتملة.. إننا نرى العالم الآن كما هو. ولكن علينا أن نراه غدا كما نريد أن يكون لا كما يريده الآخرون فقط.. هذا هو الهم الأكبر لدى كل دولة، وخاصة لدى الأمريكان الذين

أوشكوا أن يفقدوا الثقة في حضارتهم. فحربهم مع الإسلام التي لاتزال غير معترف بها قد تكون خطوة نحو حرب أخرى مع الصين. وآنذاك قد يصبح الاتفاق النووي مع إيران، بداية للإعتراف بسياسة الممكن «possibilisme» (فيدال دي لابلانش) التي ستضعهم لأول مرة أمام حقائق «الأراضي المسكونة» مقابل الآماد الخالية*[1]..

*** *** ***

منذ حوالي قرن ونصف اكتشف راتسل*[2]، الإحساس العميق لدى الأمريكان «بالمدى». وأكد أن الأمريكان قد وضعوا منذ البداية أمام غزو الآماد الخالية بينما كانت وراء ظهورهم تجربة سياسية-جغرافية للتاريخ الأوروبي. وبناء على ذلك أنجز الأمريكيون بطريقة واعية الشيئ الذي كان «العالم القديم» قد توصل إليه بحدسه وبالتدرج. ولاحظ «راتسيل» أن أمريكا قد تأخذ طريق تحقيق مقولة «الدولة العالمية»، باعتبارها دولة كبرى تريد التوسع الجغرافي في حدوده القصوى إلى أن يبلغ مستوى الكرة الأرضية.. إلى ذلك كان راتسيل سباقا في ربط البحر بنمو الدولة العالمية. وانطلاقا مما حققته دول صغيرة مثل بريطانيا وهولاندا وإسبانيا عن طريق البحر، تنبأ راتسيل لأمريكا بالقوة والعظمة لأنها اختارت أن ترتبط بالبحر ليصبح «البحر العالمي» حدود «الدولة العالمية»..

وحين تساءل ماكيندر*[3]: «ما الذي سيحدث لقوى البحر فيما لو قامت القارة العظيمة بالتوحد سياسيا ذات يوم لتصبح أساس الأرمادا التي لا تقهر؟»، لم يكن يتوقع أن القارة العظيمة (أوروبا) ستتوحد ولكن تحت قيادة الأرمادا الأمريكية.. إن نظرية ماكيندر الجيوبولتيكية لأوروبا، قد أصبحت بعد نصف قرن من موت ماكيندر نظرية الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي. وتتلخص تلك النظرية في: منع قيام تكتل أو معسكر أو أي بناء سياسي أوراسي. ثم منع بناء أي تحالف إستراتيجي بين روسيا وألمانيا، ثم منع أي تحالف إستراتيجي بين روسيا والصين والهند.. وفي مؤتمر فرساي 1919، بدت تلك النظرية الجيوبولتيكية واضحة حتى وإن طبعت بالطابع الأيديولوجي. فالعداء للاتحاد السوفياتي، القادم الجديد آنذاك، لم يكن إيديولجيا بقدر ما كان جيوبولتيكيا. فموقعه ككتلة قارية ضخمة يجعله مهابا ومهددا لكل نظريات التوسع الأوروبي. ومن أجل حصاره وعزله، كان لابد أن تنظم القارة الجديدة إلى القارة القديمة ليشكلا الحلف الأطلسي..

اتخذت اتفاقية فرساي، أوروبا كقاعدة ساحلية للقوة الأمريكية. وأنشأت دول - فضاءات أخرى للفصل بين الجرمان والسلاف وذلك لحصار الكتلة الروسية. ومن هناك بدأ ما يسمى بـ«المحور الجغرافي للتاريخ» يعمل ضمن إقامة جدار بين عالم

الديمقراطية وعالم الشمولية! وهذا ما سوف يدفع أمريكا إلى المرحلة الثالثة من الجيوبولتيك العالمي حسب ماكندير. ستعرف هذه المرحلة الثالثة بمرحلة «ما بعد كولمبس»، حيث لم تبق قارة أو أرض لم يقع غزوها. فأمريكا التي نشأت على مبدأ الغزو قد أكملت الغزو العالمي. فهي الآن تتواجد في كل مكان (اقتصاديا وسياسيا وعسكريا.. بل لا توجد حفرة في العالم ولا تعرف أمريكا عمقها أو تخومها). وهذا الإجتياح-الغزو المتواصل والديناميكي والمصاحب لاجتذاب الشعوب قد يؤدي إلى حرب أهلية - حضارية على الصعيد العالمي.. بل أن كل حرب في أي بلد تعتبر الآن هي حرب أهلية داخل فضاء الدولة العالمية «لما بعد كولمبوس».

كانت المرحلة الأولى السابقة لكولمبوس تتميز بهيمنة الأرض على البحر. وحتى لو أن الرومان أو الفرس أو حتى الفينيقيون قد انتشروا عبر البحر، إلا أن إمبراطورياتهم قد توسعت انطلاقا من الأرض وعبر خطوط التجارة الأرضية وفي مراكز وتخوم كانت مسكونة ولم تكن خالية. بعد ذلك، أي بعد قرون طويلة، انبثقت مرحلة كولمبوس من «الضيق الجغرافي لأوروبا» لتغزو آفاقا وأراض جديدة وحتى خالية من السكان، وتدريجيا بدأ البحر رحلة الهيمنة على الأرض، إلى أن أصبحت «الأراضي المغزوة» نقطة إنطلاق للأضي الغازية..

إن ألفريد ماهان الأمريكي*4 هو أكثر من تكلم وكتب عن سلطة البحر. وباعتباره إستراتيجيا وسياسيا دعا إلى تقوية الأسطول البحري الأمريكي.. وخلال القرن العشرين رأينا تطابق أفكار «ماهان» مع التمدد الأمريكي. فالقوة العسكرية لا تضمن فقط سرعة التحرك والرد وإقامة الحصارات على الأعداء، وإنما هي تضمن انسياب التجارة العالمية باعتبارها الأداة الأولى للسياسة. فالدورة الاقتصادية الأمريكية لابد أن تأخذ في الحسبان مراكز الإنتاج التي تحتاج إلى التبادل والخدمات عبر الماء. إن الملاحة وسط الماء هي جزء من الأسواق العالمية. أما إقامة المستعمرات أو القواعد الساحلية أو بناء الأساطيل فهي الأسواق التي تحقق تداول السلع والأمن العالمي لازدهار التجارة.

كان ماهان من أنصار الرئيس «مونرو» الذي فتح طرق التجارة أمام الأمريكيين. وقد رأى أن مصير أمريكا هو مصير بحري (المصير المعلن). ويتجسد ذلك في التكامل الإستراتيجي لمجموع القارة الأمريكية ثم في التكامل مع أوروبا ثم التكامل مع القوى الجزيرية لتحقيق السيطرة العالمية. وهذا ما حدث فعلا. ولكن لابد من الإشارة إلى أن ماهان حين تنبأ بذلك لم تكن أمريكا إلا - قوة برية صاعدة - وبعيدة أو شبه معزولة. وبفضل ما وضعه ماهان كشروط أمام أمريكا لكي تصبح قوة بحرية مثل: التقرب من بريطانيا الجزيرية، وعرقلة الطموح الألماني البحري ومقاومة الصعود الياباني في

المحيط الهندي والتنسيق والتعاون مع أوروبا ضد شعوب آسيا، أصبحت أمريكا قوة بحرية أولى منذ الحرب العالمية الأولى. وهكذا لم يبق أمام أمريكا ومنذ تلك الحرب من خطر أمام هيمنتها المطلقة إلا كتلة روسيا والصين، بعدما أخضعت كل من الطموح الألماني والياباني لمداراتها.

*** *** ***

إن مهندس المسيرة الأمريكية الضافرة هو عالم الجيوبولتيك نيكولاس سبيكمان الأمريكي والهولندي المولد. فهذا الرجل المشبع بأفكار الأميرال ماهان هو الذي اخترع ما يسمى بـ«المحيط المتوسطي» تشبّهًا بالبحر الأبيض المتوسط. كان أساس تصوره الجيوبولتيكي يقوم على تشابه مميز بين البحر المتوسط في تاريخ أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالنسبة للحضارات القديمة وبين المحيط الأطلسي بالنسبة للحضارة الغربية في التاريخ المعاصر. *5

يعتقد سبيكمان أن المتوسط لعب دورا كبيرا في زرع الثقافة المدنية في أعماق اليابسة وتمدين وتنوير (متوحشي البرّ) وكذلك تمدين وتحضير (متوحشي البحر). وخلال الصراعات ذهابا وإيابا بين عدة إمبراطوريات نشأ عالم متمدن إلى حد ما. وهذا ما يمكن أن يلعبه الأطلسي على نحو مضخم، والذي تبدو ضفتاه الأمريكية والأوروبية منطقة للحضارة الغربية الأكثر تطورا تقنيا واقتصاديا.. هنا يصبح «المحيط/المتوسط» عاملا موحدا ولا يعود بحرا فاصلا، بل بحرا داخليا ضخما تتحدد على ضفتيه كتلة جيوبولتيكية قد تسمى بالقارة الأطلسية، ينبسط المحيط الأطلسي بداخلها كبحيرة شبيهة بالبحيرة المتوسطية. وهذه القارة الجديدة أو هذه الأطلنطا الجديدة مرتبطة بوحدة ثقافة ذات مصدر أوروبي غربي وبإيديولوجية ليبيرالية وبديمقراطية سياسية وكذلك بوحدة مصير سياسي اتني وتقني *6. وهكذا كان «سبيكمان» سباقا إلى تركيب الحلف الأطلسي قبل أن يفكر فيه أحد. كما كان ماهان سباقا في اعتبار أن البحر لابد أن تكون له الهيمنة على الأرض.. ويمكننا القول هنا أن ماهان وسبيكمان هما اللذان وضعا أمريكا على طريق النصر والهيمنة. فأمريكا كقوة بحرية لم تعد وعدا بل أصبحت حقيقة تاريخية. وكذلك نظرية «المحيط المتوسط» التي باتت واقعا سياسيا تعرف اليوم تحت إسم (الناتو).

إن المواجهة الجيبولوتيكية بين البر والبحر عادة ما تنتج عداوات لا تمحى. فالعداء موجود في أعماق المجتمعات البرية التقليدية. وهو كثيرا ما يكتسب معنى تاريخيا وايديولوجيا وفلسفيا. وبما أن طموح البحر أن يسيطر على الأرض (كما في أسطورة الطوفان)، فإن تطور الدولة البحرية (جزيرية مثل هولندا أو بريطانيا أم قارية مثل

أمريكا) يأخذها نحو اختراق الحدود والحواف والحجم المكاني الأوسع مدى، أي نحو الشمولية (الإمبراطورية). وهذا الذي اعتبره عالم الجيوبولتيك الألماني كارل شميدت*[7] بمثابة القانون ينسحب كذلك على الاقتصاد والتقنية والسياسات الداخلية. ويمكن أن يجر ذلك إلى الاستعمار وضم الأراضي والإختراق العسكري كما حصل في إمبراطوريات أخرى قديمة وحديثة، ولكن المفهوم الأمريكي قد حدد ذلك منذ البداية أن تبنى حدود الإمبراطورية وفق إقرار مبدأ - المجال الكبير: Gross Raum - اتضح ذلك النموذج الأمريكي (من المدينة أو الإقليم الداخلي إلى الدولة ثم إلى الدولة القارية، ثم إلى الدولة البحرية العائمة) مع مبدأ مونرو حين تبنى الانفتاح على الانعزالية وأطلق أساطيل التجارة باتجاه العالم.

في حقيقة الإمبراطورية توجد صيغ للاتحاد ما فوق القومي القائم على أساس العامل الإستراتيجي أو حتى الإيديولوجي. كذلك فإنها غالبا ما تستبدل كلمة عدو بالخصم، والحرب بإعادة الانتشار والتشكيل. ولكن في مثال الإمبراطورية الأمريكة رأينا صيغة العدو الشامل والحرب الشاملة وحتى الدولة الشمولية. وواضح أن الحرب في الأرض كانت عادة تدور بين دولتين متجاورتين أو حتى بين الشعب نفسه في الأرض نفسها، ولكن الحرب انطلاقا من البحر لاتبدو حرب بين أعداء محددين وخاضعين لأعراف حقوقية، وإنما حرب شاملة ضد نظام العدو الشامل. وهذا ما جعل أمريكا تنتقل من حرب إلى حرب دون أن تعرف لا كيف توقف الحروب ولا كيف تحد من طموح وجموح الإمبراطورية..

انتقلت أمريكا بالإمبراطورية من هيمنة البرّ (Land Power) (المجال الحيوي الأول) في جيلها الأول إلى هيمنة البحر (المجال الكبير) في جيلها الثاني (Sea Power) ثم إلى هيمنة الفضاء والجو (Aero Power) في جيلها الثالث، لتصبح إمبراطورية متكاملة وشاملة برا وبحرا وجوا.. تقنية واقتصادا وإيديولوجيا. ولم يبق أمامها الآن إلا - المتمرد أو الفدائي - الأخير لكوكب الأرض الذي يسميه «كارل شميدت» بـ«الوفي الأخير» أو «الحصن الأخير» للدفاع عن الأرض، فيما تراه أمريكا ومجموع العالم المترابط معها والمتدامج معها، إرهابيا. وهذا الفدائي/الإرهابي هو الذي يرفض هيمنة القراصنة والتجار والغزاة والطيور الجارحة والذي يتمسك بأخلاق الأرض/الأم ويزداد تمسكا بالدين/المقدس، لإنه يقوم بمهمة إنقاذ الأرض من الدنس أو من الوحش (البهيموت)*[8] الذي يريد أن يصبح البشر قطعانا من البهائم.

إن الحرب اليوم تبدو كما لو أنها حرب بين منقذين (الفدائي الذي يدافع عن الأرض الأم والدين المقدس) والإمبراطوري الذي يريد أن يضع تحت هيمنته وحمايته الأرض والبحر والجو.. وكل منهما يصف الآخر بالإرهابي.

يشرح لنا - إمبرتو إيكو - الروائي والسيمولوجي الإيطالي، ذلك على الطريقة السيمنطقية، فيقودنا إلى منهجية تطور الشخصية الأمريكية خلال القرن العشرين فيقول: «أن أبطال اليوم هم أحفاد لعمالقة آخرين ولدوا في القرن الذي سبقه. ومن حينها وآلة التصنيع للإنسان الإمبراطوري المنقذ ما تزال تنتج نماذجها البطولية».. يضيف إيكو قائلا: «منذ بداية القرن الـ20 بدأت الرواية السردية وكأنها تخلت عن فكرة البحث عن الخلاص الجماعي فتحولت عوالمها إلى البراغماتية والنفعية، الغلبة فيها للقوة والفهلوة والنجاح وحتى الغش». فأرسين لوبين في نظر امبرتو إيكو، ترعرع في فترة التبجح الرأسمالي فرأيناه جنتلمانا لكنه يسرق لتراكم السلطة والمال كما يجدر بالمحترفين المحترمين. وقد مثل اندفاع الطبقة الوسطى الشغوفة بالحياة والصعود وذات الروح الانتهازية. أما «سوبرمان» فليس في نظر إيكو إلا شخصية تبحث عن النقاء والقيادة، ذلك أن مغامراته كانت واضحة من جهة خطوط الخير والشر. وقبل ذلك كان طرزان قد ذكرنا بأنه رجل ينتمي إلى حضارة أخرى، قد جاء أو حضر إلى الغابة العذراء لتأدية رسالة تبشيرية سامية فرأيناه يتعامل مع القبائل المتوحشة والمتحاربة كمنقذ وقائد لفك النزاعات والتناحرات. ورغم ذلك الدور - دور المعلم - فإنه ما كان ليجرأ على تقديم معارفه وعلومه إلى المتوحشين إلا في حالات الضرورة القصوى (من أجل المصلحة أو المنفعة) على طريقة المستعمرين.

وإذا كان طرزان يعبر عن شخصية المعلم/المنقذ والمتعالي والقادم من بعيد (المستعمر للأرض) فإن شخصية «جيمس بوند» التي كانت تتضح بالعنصرية والفاشية ونزعة التفوق، كان يمثل الرجل الذي يقفز من قارة إلى قارة ليقود المؤامرات والعمليات المعقدة عبر العواصم وكذلك عبر البحار. كان يجتر نظرية تفاوت الأجناس كما يقول إيكو، وكانت الشعوب لديه وفي لغته مندرجة على لائحة تفاضلية وعنصرية تبدأ بالأبيض الأنغلو سكسوني لتنتهي إلى السود والهمجيين مرورا بالمتوسطيين والصفر. وبعد جيمس بوند الاجتياحي (التوسع الامبريالي) جاءت شخصية رامبو الخارق، المتسلح، القوي والمتفوق والذي ولد في عهد ريغان ثم خرج في نسخة أخرى تحت اسم «رنغو» في عهد بوش. وقد صادف ذلك انهيار الاتحاد السوفياتي. كان رامبو ومن بعده رنغو يطاردان الطائرات والصحون الطائرة، ويضربان بقوة الإرهاب في كل مكان ويعلنان سيطرة الرجل المتفوق (السوبرمان) وبدء الإمبراطورية الشمولية.

هكذا من طرزان (المعلم البرّي) إلى جيمس بوند (البطل البحري) إلى رامبو أورنغو (البطل الشامل) تطورت أمريكا وبسطت هيمنتها الشاملة وقد سارت على ما رسمه علماء الجيوبولتيكا دون أن تفقد البوصلة حاملة لتعاليم الآباء المرسسين الذين كانوا يحلمون ببناء دولة لا حدود لها من الحرية والقوة. ومن هناك وحتى هذه اللحظة كانت

الحرية في نظر الأمريكيين (جمهوريون وديمقراطيون) أرفع قيمة ونبلا من المساواة، ذلك أن الحرية هي التي تصنع الإنسان الخلاق والمتفوق!

*** *** ***

وحسب نيكسون، لم تكن أمريكا مجرد بلد إضافي على الخارطة الدولية حين تأسيسها. وإنما كانت دائما بلدا في قلب التحولات الثورية فيما يتعلق بالوضع المادي للإنسان، وبالتكنولوجيا وكذلك بالريادة في مجال العلاقات الدولية والصراعات السياسية والعسكرية. أكثر من ذلك كانت تمثل المنارة الإيديولوجية الغربية الجديدة التي حافظت وعملت على تجسيد علاقات الحرية بين الأفراد والمجتمع والدولة!

في بداية القرن العشرين لم تكن أمريكا هي القوة الأعظم في العالم اقتصاديا. كانت مرتبتها الثالثة بعد بريطانيا وألمانيا. وعسكريا كانت قوة متواضعة تأتي بعد القوى الكبرى في اوروبا وآسيا. أما سياسيا فكانت جدا حريصة على ألا تتورط في أزمات العالم القديم. بعبارة كانت لاتزال مثالية وتوازن بين منافع وخسائر الانفتاح والانعزال. ولكن الحرب العالمية الأولى دفعتها إلى ميادين التجربة. وبعد الحرب تأكد مثاليو أمريكا أن بلدهم كان قادرا على الإضافة والعطاء بأكثرمما كانوا يعتقدون أو يعتقد الآخرون.

كان جيفرسون هو الذي قال منذ البداية: «أن أمريكا لا تعمل من أجل نفسها فقط.. بل تعمل من أجل البشرية كلها»*[9]. استمد ذلك مما قاله «ابراهام لنكولن»*[10] حين تكلم عن «أمريكا باعتبارها أبهى وأقوى أمل موجود على الأرض». وهذا لم يتأكد إلا حين دخلت أمريكا إلى ميادين الحرب العالمية الأولى.. ثم حاربت على جبهات الحرب العالمية الثانية.

عبر تلك المسيرة لم يتخلى الأمريكيون عن - مثالية - أجدادهم، ولكنهم طوروا تلك المثالية الرومانسية إلى عمل جبار، قوي، حاسم وغاشم. لم يكونوا يتحركوا من أجل الخير كما يزعم كثير من زعمائهم، كما أنهم لم يتحركوا بدافع الانتقام كما فعل الأوروبيون في أحيان كثيرة، لكنهم كانوا يصلون في الوقت المناسب من أجل صنع الأسطورة الأمريكية. منعوا هتلر من السيطرة على العالم لألف عام كما كان يقول. ومنعوا ستالين من ابتلاع أوروبا كلها.. ومنعوا اليابان من احتلال العالم الباسيفيكي. ثم منعوا الصين من التوسع والاتحاد السوفياتي من التمدد.. كانوا يرتكبون الأخطاء والمذابح والخطايا ولكن لم يكن يخالجهم أي شك بأنهم يخدمون الحرية في العالم، لكي يصبح العالم كله أمريكا!..

بعبارة أخرى، إن أمريكا لن تكون أمريكا بالنسبة لأبنائها ولا حتى بالنسبة للآخرين إلا إذا استمرت في دور الزعامة. فإمبراطوريتها الممتدة على نحو المدى تبدو في نظر الأمريكيين أنفسهم ولغيرهم كحاجة. فهي تحتاج إلى العالم كما العالم يحتاج إليها. وكذلك لايزال القرن الواحد والعشرين يحتاج إلى أمريكا بقدر ما احتاجها القرن العشرون.. ولكن مع الإدراك العميق بأن المسؤوليات أصبحت أثقل والرهانات باتت أكثر تعقيدا والعمل أصبح يتطلب المزيد من الدقة والتوزيع فيما العالم يتغير بسرعة ويمتلئ بكل أنواع الأسلحة والإيديولوجيات والأحاسيس الفتاكة.. ومع ذلك فإن أمريكا لن تتخلى عن العالم حتى لو تخلى عنها العالم.. وتلك هي ضريبة كل إمبراطورية وكل قوة كبرى في العالم. فالمجد لا ينطفئ لمجرد تبرم بعض الأمزجة أو تردد بعض الرؤساء أو تعكير بعض الأجواء.. فقوة الدفع غالبا ما تزداد اندفاعا عند التحديات..

إذا كان على العالم أن يتغير أو يدخل إلى مرحلة سلام طويلة أو سينحو باتجاه الديمقراطية. أو كان سيتجه نحو الصدام والحروب والبعثرة والفقر وحتى الجفاف، فإن أمريكا ستكون حاضرة بقوة.. لن تنسحب ولن تتكفئ ولن تختار العزلة أو العودة إلى الأرض الأولى لا الآن ولا في العقود الثلاثة المقبلة. إن قدرها يكاد يكون قد ارتبط على نحو عضوي بما يحدث ويجري في جميع أنحاء العالم. ولو قدر لها أن رضخت أو ساومت أو انسحبت، فإنها ستدخل إلى غرفة الاحتضار.. لذلك لن يكون من المدهش أو غير المتوقع أن نرى أمريكا في لحظة توددها قد أصبحت ناعمة أو لطيفة أو حتى متفهمة. إنها قد تناور وتراوغ ولكن من أجل أن تصبح أكثر ضراوة مع أعدائها وخصومها. وهنا ليس من المجدي أن نتساءل مثلا بطيبة أو بسذاجة متى ستنتهي المجاعة من العالم أو متى سيخرج الشرق الأوسط من الفوضى أو كيف ستنتهي النزاعات المسلحة، ولكن سيكون من المنطقي.. لو تساءلنا: ما فائدة أمريكا من إنهاء المجاعة وإنهاء الفوضى والنزاعات المسلحة؟ هل تستطيع؟ نعم. ولكن هل تريد؟ أبدا.

*** *** ***

انتخبت أمريكا من رفع شعار: «نعم، نستطيع»، ولكن أوباما الذي يريد أن يفعل الكثير لا يستطيع أن يفعل لأن هذا الرجل، وكل رجل غيره في نفس الموقع يظل يتحرك داخل منظومة ضخمة منقسمة إلى عدة منظومات معقدة ومتشابكة. هناك من يعتقد أن أوباما قد ورث سياسات لايزال يسبح بين تياراتها. وهناك من يعتقد أن أوباما لا يريد أن يغرق في الخارج، ولكن الحقيقة توجد أساسا في أن أمريكا لا تريد إلا ما تريده القوة. فزمن التغيير الداخلي لم يأت بعد. و «أمريكا أولا» الذي رفعه كلينتون ثم أوباما لم يكن يعني أكثر من أن أمريكا إذا أرادت أن تكون أولا، فعليها أن تكون الأولى،

ولكي تكون الأولى، عليها أن تكون في مقدمة العالم. إن صياغات السياسات الكبرى للإمبراطوريات الكبرى لا تعتمد على الانتقائية أو الصدف أو المزاج، وإنما تحتاج إلى إرادات قوية وظروف جديدة وكذلك إلى تحديات كبرى خارجية.

لا أحد ينكر على أوباما الذي سيخرج بعد حين كما دخل، فيبدو في نظر معلقي الصحف كما لو أنه «تعاقب انتخابي»، على أنه رئيس متحمس، منفتح الذهن، متقبل للنقاشات الحادة، محب للعبة السيناريوهات المتوازية، منكب على ملفاته باندفاع، موفق في اختيار فريق عمله الذي يجمع كل التوجهات والحساسيات، وكذلك خطيب مقنع ومثقف معجب بالأفكار الثورية، ولكن ذلك كله لا يجعله بعيدا عن التردد ونقص المبادرة وكذلك عن الرداءة والانزلاق وراء الأوهام. إن سيناريو «الربيع العربي» الذي كان عبارة عن فيلم أمريكي دموي جدا وطويل جدا ما كان ليحدث بهذه الرداءة والبربرية لو أن أوباما لم يستخف بالمنطقة وبالتالي بالشعوب. ثمة من يتفهم بعض الحجج الأمريكية التي تسوقها الدعاية، ولكن ثمة في أمريكا من يدرك جيدا أن الديمقراطية إذا أتت على عربة أمريكية فإنها تتحول إلى بربرية. ورغم أن الدرس العراقي قد نطق بذلك منذ العالم 2003، إلا أن أوباما انساق نحو استكمال ما بدأه «خصومه» الجمهوريون. من هذه النقطة بالذات إذا كان هناك ما سوف نطلق عليه في المستقبل بـ«مبدأ أوباما» أو بعهد أوباما فإنه لن يكون أفضل من عهد كلينتون مظافا إليه ما كان سيئا في عهد بوش الابن..

لقد سارت السياسة الأمريكية في عهد أوباما على خطين متوازين كما حدث في عهد كلينتون*[11]. الأول: أن أزمة العالم كله، المتعارضة والمتداخلة والمتفاوتة كانت هي أزمة أمريكا لما بعد الحرب الباردة. أما الخط الثاني فذلك الذي يتلخص حول التالي: أن لا شيء يمكن أن يتحرك كما يجب في أمريكا. فأمريكا ما بعد الحرب الباردة لاتزال ولأمد غير منظور نقطة الإرتكاز لجميع دوائر القوة والنظام والفوضى في العالم. وهو ما يعني أن العالم كله سيستمر ولفترة طويلة في الدوران حول قطب الإمبراطورية الأمريكية، باعتباره محور ارتكازه.

يشبه أوباما زميله السابق كلينتون في كل شيئ إلا في البشرة. كانت تربيتهما متشابهة في العائلة وكان نجاحهما متشابها في الجامعة، كذلك كان صعودهما إلى قيادة الحزب الديمقراطي. خطيبان ماهران ومحاميان شهيران وهما ينتميان إلى شباب الطبقة الوسطى. لا ينتميان إلى العائلات الزرقاء ولا إلى كارتلات النفط. ومع ذلك فقد وصلا مبكرا إلى رئاسة أعظم دولة في العالم!.. وخلال سنوات حكمه، كان أوباما يشبه أكثر من رئيس سابق له: إنه يذهب إلى حافة الهاوية مثل كنيدي

(سوريا وأوكرانيا وإيران) ثم يتراجع لسياسة التعايش مثلما فعل نيكسون مع (الصين والفيتنام). في أحيان أخرى يبدو متحمسا لحقوق الإنسان مثل كارتر، لكنه سرعان ما يأخذ صف ريغان أو بوش في حسم أصغر المشاكل عن طريق القوة.. في أحيان ثالثة يوجه النصائح لزعماء العالم الثالث حول الإصلاح والإقلاع عن الفساد مثل ما كان يفعل بوش الابن، لكنه لا يفعل شيئا ملموسا لا لمرضى الإيدز أو المجاعة في إفريقيا.. وفي الخط العام ظل أوباما سجينا لصورته: الأمريكي المتحدر من إفريقيا ذو القلب الطيب الذي يضرب بأيدي من حديد والمدافع الأول عن نمط الحياة الأمريكي الذي يسمح للعبيد أن يكونوا رؤساء (قال ذلك في أديس أيابا - جويلية 2015 أمام الاتحاد الإفريقي وفي القاهرة عام 2009).

وككل رئيس جديد، كان أوباما يريد «أن يكون عهده صفحة بيضاء»، غير أن ذلك التعبير الضبابي سرعان ما يزيحه إشعاع الواقع، فيكتشف كل رئيس جديد أنه ليس إلا رئيس قديم أو حلقة في سلسلة من السياسات المتماسكة. إن رجال الظل هم الذين يحكمون وهم الذين يضعون الرئيس في جيوبهم منذ الليلة الأولى إلى حد يتحول فيه هذا «الرئيس/الملك» إلى أوراق نقدية!.. فالإدارة الأمريكية غابة ضخمة، بل هي متاهة لا تنتهي.. والرئيس الذي يريد أن يدخل إلى تلك المتاهة ليس له الحق الخروج منها أو عنها متى شاء. إنه يحكم غير أن ماكينة الحكم لا تدور إلا إذا حركتها أصابع كثيرة.. على الرئيس أن يتكلم ويتحدث بلا توقف وحتى بلا ورقة أو إعداد ولكن عليه أن لا يقول الحقيقة، ثم عليه أن يتغاضى عن أكاذيب إدارته. كذلك عليه أن يعرف ما يدور في العالم، ولكن لا يعني أن يعرف ما يجب أن يعرفه رؤساء آخرون في بلاد أخرى. فثمة دائما أشياء يجب أن لا يعرفها الرئيس إلا حين يغادر الرئاسة.. وباختصار إذا كان عليه أن يحكم فليس عليه أن يبتدع أسلوبا جديدا للحكم!.. فكل رئيس أمريكي هو تقريبا رهينة لأكثر من لوبي وأكثر من مؤسسة وأكثر من حكومة داخل الإدارة الكبرى ذات الألف رأس ورأس.

إن البيروقراطية هي التي تنزع عن الرئيس ما يمنحه له الدستور. فهذه البيروقراطية هي الآن تتفرع إلى إيكوقراطية وإيدوقراطية وسكروقراطية وايروقراطية (الاقتصاد - الأفكار والمخابرات ثم الأمن والجو)، لتتحول إلى عالم متشابك ومتعارض أحيانا. وهكذا يدخل الرئيس إلى البيت الأبيض وهو يعتقد أن كل شيء سيتحرك بكبسة أو بإشارة. ولكن متى أن يبدأ في العمل حتى يكتشف نفسه أنه أصبح رهينة داخل تلك الجدران وعبر الأسلاك والآليات. يتوضح ذلك أكثر في مجال الشؤون الخارجية. فالرئيس هنا لا يستطيع أن يضمن مصداقية عمله أو حتى قراراته. إنه مرتبط بأكثر من جهاز. وكل جهاز يوجد داخل جهاز آخر. ليس ثمة من هو مستعد لتحمل

المسؤولية خوفا من الانزلاقات أو الإخفاقات. فحين يتعلق الأمر مثلا بمشكلة التسلح أو مشكلة السلاح النووي في كوريا الشمالية أو إيران، يصبح مركز القرار غير ثابت ولا يستطيع الرئيس أن يستحوذ على مركز القرار إلا إذا عرف كيف يضع رجالا موالين له في الأفكار في الخارجية والبنتاغون ومجلس الأمن القومي بالإضافة إلى المخابرات المركزية. على وزير الخارجية أن يظل مرتبطا بالرئيس من جهة وبوزارة الدفاع من جهة ثانية ومن جهة ثالثة بالعديد من الوكالات مثل السي.اي.اي ووكالة مراقبة نزع الأسلحة وفيالق السلام ووكالة التنمية العالمية إلى جانب وزارة الخزانة ووزارة التجارة ووكالة الدفاع العالمي ووكالة الأمن القومي التي تهتم بالتجسس الإلكتروني ومنظمة الاستطلاع الجوي التي تشرف على الأقمار الاصطناعية.

إن مهمة وزارة الخارجية هي الديبلوماسية: أي المفاوضات وبناء العلاقات ومد الجسور ولقاءات القمة وفتح سوق المساومات وعقد الاتفاقات والتفاهمات. ويجد البيت الأبيض نفسه في النقطة الفاصلة بين مهمات الخارجية والبنتاغون والأمن القومي ووكالات التجسس الفضائي والتجاري. فهو عليه أن يتعايش مع عدة بيروقراطيات (دبلوماسية، عسكرية، أمنية، جوية، تجارية)، لذلك فإن تقديراته تظل خاضعة لسيناريوهات متعددة. وهي بدورها خاضعة للتغيير والتعديل. إن كلمة فريق لم تعد تؤدي المعنى، ذلك أن كل بيروقراطية توشك أن تتحول إلى «قبيلة حديثة» تتمسك بشرعيتها وحدودها إلى آخر رمق.

هذه البيروقراطية المتعددة الرؤوس ليست وليدة العقود الأخيرة، وإنما هي تعود إلى عهد جيفرسون. فهي مغروسة في أساليب العمل الأمريكي السياسي وتتغذى في كل مرحلة من توزيع المهمات وتوسع الإمبراطورية وكذلك من الخوف من المسؤولية الثقيلة والمطلقة. فحسب المؤرخ «جيمس سترلينغ يونغ*[12]» «فإن واشنطن تعمل بهذه الطريقة ولا تستطيع أن تعمل بغيرها منذ زمن طويل. فكل جهاز هو قبيلة مستقلة يملك قوته الخاصة ونظام اتصالاته الخاص مع الخارج واستعلاماته الخاصة وموارده المالية الخاصة وسلطة قراره الخاص. وهذا ما يجعل من الإدارة الأمريكية مسكنا لعدة حكومات».*[13]

*** *** ***

إن وصف يونغ يظل صالحا إلى هذه اللحظة. فبعد نحو 200 عاما، لايزال الرئيس أوباما يجد نفسه في المتاهة نفسها. ولكن ليس أوباما في المتاهة وحده، بل العالم كله، لأن أمريكا ليست إلا شاحنة ضخمة عابرة للقارات يقودها رجل هو الرئيس أوباما تسير على عجلات مزدوجة مهيأة لجميع المصاعب وجميع أنواع الطرق. وكلما كانت

الحمولة ضخمة، كانت الاحتياطات أكثر خوفا من الأسوأ. وفي كل منطقة من الطريق السيارة (الأتوستراد) كانت تحرص أن يكون لها حليفا مزدوجا حتى وإن كان على درجة من التعارض أو التناقض.. فإسرائيل والسعودية ضروريان في الشرق الأوسط إلى وقت آخر.. والصين واليابان ضروريان لأمن شرق آسيا بدرجة ضرورة روسيا وألمانيا لأمن أوروبا. والمكسيك والبرازيل ضروريان لأمن أمريكا اللاتينية وكذلك الهند والباكستان لأمن جنوب غرب آسيا.. إن تلك العلاقات ثابتة ومتحولة وهي تخضع للأولويات الإمبراطورية، لذلك كثيرا ما تبدو غامضة ومتداخلة إلى حد يبعث على وصف ذلك بالنفاق أو الرياء.

لقد أوضحت لنا الفترة السابقة أن واشنطن تذهب إلى حد الضغط على حلفائها الكبار حين يتعلق الأمر بمصلحتها العليا (الجيوبولتيك القاري) وقد فعلت ذلك سواء في الاقتصاد أو في السياسة. ضغطت على حلفائها في أوروبا واليابان عند مفاوضات «الغات» وهددت اليابان بإعلان حرب تجارية. ودخلت في علاقات اقتصادية مفتوحة ومتميزة مع الصين بالرغم من غضب اليابان. وكما فعلت في الاقتصاد مع اليابان وأوروبا، فعلت في السياسة مع إسرائيل والسعودية. فقد حان الوقت لكي تختار أمريكا استراتيجيتها الجديدة.. ولم يعد هناك ما يجعلها مترددة في العودة إلى إيران رغم غضب إسرائيل والسعودية.. وقد تعاونت مع كل من إيران والباكستان في أزمة أفغانستان. وتعاونت مع إيران وتركيا في أزمات العراق ولم يكن هناك ما يمنعها من التعاون حتى مع الأعداء إذا ما كان على الشاحنة القارية أن تمر.. وخلال تلك الرحلة رأينا كيف أن العجلات المزدوجة كانت تتكون من واحدة اقتصادية وأخرى عسكرية. ويمكن التأكيد بشيء من التعميم المنهجي أن السياسة الأمريكية كانت في أغلب مراحلها تتعاطى هذا الأسلوب. فهي تحرص كثيرا على التواجد في كل منطقة عبر موقعين أو عبر نافذتين: فهي لا تهمل الأمن/الإستراتيجي لصالح الاقتصادي/التجاري كما هي لا تفرط في الاقتصادي على حساب الأمن الإستراتيجي. لم تكن تتصرف بازدواجية في المعايير كما يقال غالبا، كما لم تكن بعيدة عن ذلك المرض تماما. في الشرق الأوسط جعلت من إسرائيل ومصر أفضل حليفين لها بعد أن تحاربا طويلا. وفي الخليج ها هي تريد أن تجعل من إيران والسعوديين حليفين لها بنفس درجة الصداقة. وقد يأتي وقت لتجمع بينهما رغم كل التعارضات وكذلك مع إسرائيل. وفي غرب آسيا جمعت بين صداقة كل من الهند والباكستان رغم العداوة التي بينهما. وفي المغرب العربي لم تنسى أن تضع يدا بيد الجزائر وأخرى بيد المغرب.. وفي أمريكا اللاتينية جمعتها الصداقة مع أفظع الدكتاتوريات ومافيات الكوكايين دون أن يبدو عليها الحياء أو الإضطراب.. وفي إفريقيا تتعاون مع الدكاوتوريات العسكرية والديمقراطيات الناشئة بنفس الحماس.

وكما كان التعايش مع الأزمنة الإقليمية (الجيوبولتيك القاري) يتطلب مهارة في إدارة التناقضات وإخضاعها لمصلحة الزمن الأمريكي الإمبراطوري. كان كذلك التعايش مع الأزمنة الصغيرة الداخلية (الجيوبولتيك التطبيقي حسب ايف لاكوست)*[14] يتطلب نفس المهارة من أجل الحفاظ على موقع الصدارة. ففي لبنان مثلا كانت ولاتزال كل خيوط اللعبة واللاعبين تتجمع بيد أمريكا. وهو ما يحدث كذلك في إيطاليا أو في غيرها، حيث تمسك واشنطن بخيوط اللعبة البرلمانية مع المافيا واليمين المتطرف. وهذا ما يجري تقريبا في كل بلد حسب اهميته وموقعه من جنوب إفريقيا إلى مصر ومن أفغانستان إلى العراق. ومن الأرجنتين إلا بلاد الكاريبي ومن دجيبوتي إلى تونس.. فهاهي ليبيا تغرق كل يوم في حرب أهلية بلا أفق، ومع ذلك فإن أمريكا هي التي لازالت تمسك بجميع خيوط اللعبة. أما الديمقراطية التونسية الناشئة فلم تعرف كيف تأخذ طريقها إلا حين وضعت النخب التونسية بجميع أطيافها أياديها بأيدي أمريكا.. أليس كل ذلك يمكن أن يكون ترجمة لشعاري: أمريكا أولا. ثم: نعم نستطيع!..

مع ذلك حين يتحدث استراتيجيو أمريكا الكبار عن مستقبل الإمبراطورية أو عن أعمدة السلام العالمي يجدون صعوبة في تحديد أو تعريف ذلك المستقبل. فسلام مثلث الأقطاب (أمريكا - روسيا - الصين) قد يكون تصورا هندسيا جيدا، ولكن حجم التعارضات بين هذه القوى في الآجال المقبلة لا يجعل الأمر يبعث على الارتياح. فالمستقبل سيتحكم فيه من يملك هذا الثالوث من القوة: (القوة العسكرية - القوة الاقتصادية ثم القوة الديمغرافية). وهذا الثالوث يوجد في كل من الدول الكبرى الثلاث: روسيا والصين وأمريكا. ولذلك فإن المستقبل سيكون رهين احتمالين: إما أن يتحالف هذا الثلاثي لبناء نظام عالمي مثلث الأقطاب. وإما أن يتصارع هذا الثلاثي الذي يملك ثالوث القوة.. وثمة سيناريو آخر يبرز كاحتمال يوشك أن يظهر إلى العلن هو أن تكون أمريكا مع اليابان وأوروبا (وهما قوتان اقتصاديتان لكنهما يفتقدان لعناصر أخرى لكي يصبحا قوتان استراتيجيتان) في صف. وتكون كل من الصين وروسيا مع الهند في صف آخر. وهكذا فإن إمكانية العودة إلى القطبية الثنائية تظل قائمة ولكن بدون إيديولوجيا. إن إنشاء دول البريكس (الهند، الصين، روسيا، والبرازيل وجنوب إفريقيا) والذي من المحتمل أن تنظم إليه في وقت قريب إيران والكونغو الكبير ونيجيريا والأرجنتين وأندونيسيا)، قد يكون مقدمةالشاحنة الشرقية العابرة للقارات المنافسة للشاحنة الأمريكية الغربية.

إن إنشاء البريكس (ثلاثة مليارات وربع من السكان 20% من التجارة الدولية، لهو أفظع كابوس بالنسبة لأمريكا خلال السنوات القادمة.. إن هذا ما قد يجعلها لا تتذوق طعم النصر النهائي أبدا.. فالإمبراطورية كلما توسعت، كلما تعرضت لقضم أطرافها

أو اختراق قلبها. وهنا لابد أن تقف أمريكا قليلا، لكي تفكر جيدا في الخيارات والاتجاهات المحتملة.

*** *** ***

خلال الحرب الباردة (تلك المواجهة السياسية والعقائدية والعسكرية والاقتصادية) بين الرأسمالية والاشتراكية، كانت حاجة كل قطب إلى الأحلاف والمجالات والتفاهمات واضحة ومكشوفة. وكان معنى «الانحياز» لهذا القطب أو لذلك القطب يأخذ أبعادا سياسية وجيوبولتيكية. أما «عدم الانحياز» الذي حمل زعماء وطنيون كبار لواءه مثل نهرو وناصر وتيتو وسوكارنو، فقد ضم بلدانا كانت منحازة سياسيا وعقائديا للكتلة الإشتراكية. وبطبيعة الحال، فإن نهاية تلك الحرب قد غيّرت من المدى الجيوبولتيكي للأرض.. رغم ذلك فإن مبدأ (المجال الكبير) لم يفقد معناه لا لدى الأمريكيين ولا لدى الروس. وبما أنه يصعب على اية دولة لوحدها حتى وإن كانت «ضخمة» أن تكتفي بذاتها وتكون محمية استراتيجيا من اي هجوم أو تمدد محتمل، فقد غدا على أصحاب المجالات الكبرى أن يعملوا أكثر من أجل انتشار أكبر. بمعنى آخر يجب العمل على تحويل كافة سطح الأرض وعمقها وكذلك فضائها إلى مجال كبير موحد تكون أمريكا محركه وقلبه. وذلك ما يعرف بـ«الباكس أميركانا» أي عهد «السلام الأمريكي» حيث تتربع الإمبراكورية المعولمة على العالم كما تربعت روما في الزمن القديم.

إن هذا ما يطبق اليوم أميركيا بعناوين الحضارة الغربية أو العولمة، أو النظام العالمي الجديد. وفي هذا المجال الكبير الذي بنته أمريكا خلال قرنين (بالحرب وبالاقتصاد) لا يحبذ وجود أية صيغ استقلالية أو سيادية للحكومات أو حتى للشعوب والثروات. وعلى عكس ما كان يجري في الحرب الباردة إذ أعطت هامشا كبيرا من السيادة للدول المنحازة وغير المنحازة في نطاق نفوذ أحد القطبين، فإن مشروع «المجال الكبير» الذي يريد أن يصبح عالميا، يجبر الدول مهما كانت درجتها، على التبعية والالتزام بسياسة المجال الكوني (الأمريكي). ففي المستقبل المتوسط سيجبر المجال الكوني كل المجالات الأخرى الكبيرة، المتوسطة والصغيرة على الزوال والانقياد والتخلي على أي نوع من السيادة حتى وإن كان طفيفا.. وكل من يقاوم ذلك سيجبر بوسائل ضغط أخرى مثل التفتيت وإشاعة الحروب الأهلية والرشوة والتخويف بالإرهاب.

أمام هذا التصاعد الكوني للإمبراطورية الأمريكية، لا يجد المستقبليون في كل جانب إلا خيارا من بين خيارين: إما التكامل والترابط بين الغرب والهند والصين وروسيا كمجالات كبيرة تحت قيادة الأمريكان. أو إقامة مجال/قطب كَبير آخر تشترك فيه كل من الصين وروسيا والهند يكون قادرا على الحدّ من جبروت القطب الأطلسي

ومواجهة تضاريسه الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وبما أن مبدأ الاستقلال الجيوبولتيكي بين المجالات الكبرى ترتبط أساسا على قاعدة هذا الخيار، فإن كل من القطبين سيجدان أنفسهما من جديد في حرب باردة ثانية فيما ستجد الشعوب الأخرى نفسها وفي كلتا الحالتين أقل استقلالا وسيادة، على أن يتوقف كل شيء في نهاية المطاف على نتائج تلك الحرب الباردة الثانية (مكرّر).

كان خيار الترابط والتكامل مع روسيا والهند والصين بقيادة أمريكا شبه واضح في البداية لدى الأمريكان. فنهاية الحرب الباردة قد جعلت منهم أسيادا بلا منازع. وليس مشروع العولمة إلا مشروعا جيوبولتيكيا كبيرا تتحكم في توجهاته ومساراته واشنطن مع هامش إتنو-ثقافي لبقية الشعوب على شاكلة ما كان يجري اثناء الاستعمار المباشر. والحقيقة أن انهيار الاتحاد السوفياتي ونزع أطرافه ومحاصرة قلبه (Hearth) قد أوجد هوسا كبيرا لدى الأطلسيين للسيطرة. وقد اتخذوا أساليب متعددة من أجل إدخال روسيا في مشروع العولمة. فالبيرسترويكا كما يقول «الكسندر دوغين»*15 «كانت تعني على المستوى الجيوبولتيكي الإعتناق الكامل لنموذج المجال الكوني الموحد تحت القيادة الأمريكة». وقد استسلمت قيادات روسيا ونخبها لذلك الإغراء الذي مثله النموذج الأمريكي. ولم تستيقظ روسيا من غفوتها إلا عند مجيء بوتين القومي الذي أعاد صياغة جيوبولتيكا بلاده على ضوء ما تم تدميره (المجال السوفياتي والكتلة الشرقية) وكذلك على ضوء ما يمكن إعادة بنائه في الداخل وفي بلاد الطوق وكذلك في بلاد الخارج القريب، لمواجهة الخيار الأطلسي الكوني..

إن روسيا اليوم هي المؤهلة أكثر من غيرها لقيادة مجال جيوبولتيكي كبير بديل. فهي ذات النزعة القومية المتضامنة مع الأمم الأخرى. وهي قلب الجزيرة الأوراسية، وهي التي تملك خبرات المواجهة بالإضافة إلى الفضاء الواسع والقدرات العسكرية الضخمة والإحتياطات المائية والغابية والمنافذ البحرية والثروات الطاقوية بأنواعها. إن صحوة روسيا الجيوبولتيكية هو ما ينتظره العالم المناهض للعولمة. إن مسألة أوكرانيا التي عادت للإستيقاظ في العام 2014، يمكن أن تشكل عنوانا لعودة روسيا إلى المسرح العالمي.. فبعد أن ضمت روسيا جزيرة القرم، أغلقت الباب على إمكانية التفاهم أو التحالف مع الغرب الأطلسي.. أما أوكرانيا التي رسمت خطوط المواجهة بين «المجالين الأعظم»، فقد أغلقت كذلك الباب على أوروبا لكي تكون مستقلة عن القرار الأطلسي/الأمريكي. كانت هناك بعض الدعوات الأوروبية القومية للانتفاضة على الخيار الأطلسي/الأمريكي بما يشبه النزعة الديغولية في فرنسا أو نزعة اديناور في ألمانيا، ولكن قادة الاتحاد الأوروبي ما انفكوا يكافحون تلك النزعات باسم التصدي للتمدد الروسي الجديد تارة وبإسم مكافحة الإرهاب الإسلامي (حليف روسيا) تارة أخرى.

وتبدو هنا المسألة الأوكرانية كما لو أنها «حرب» ضد «ألمانيا» القوة الأوروبية المتوسطة بنفس درجة ضديتها لروسيا. فواشنطن تعمل جاهدة حتى لا يعمل المحور الألماني داخل الاتحاد الأوروبي لصالح روسيا. بل أن روسيا وألمانيا إذا ما تحالفتا، فإنهما قادران على إضعاف المجال الأطلسي الكبير. وبما أن ألمانيا هي المحور والهيكل لأوروبا الجديدة، فإنها ستظل تحت المراقبة الأمريكية الشديدة حتى لا تذهب باتجاه روسيا . ومن هنا تأتي أهمية الخط الأحمر الذي رسم في قلب أوكرانيا..

إن أوروبا ليست بعيدة تماما عن الدم. فأوكرانيا تقول ذلك بوضوح من خلال الانقسام بين تيار يدعو إلى المجال الروسي الكبير وآخر يدعو إلى التمسك بالخيار الأطلسي الكبير. وهذا ما سوف ينعكس مباشرة في المستقبل على خيار ألمانيا باعتبارها دولة قارية كبرى معادية للغزو الأنغلوسكسوني تقليديا، وشاركت في بناء حضارة اوروبية قارية دمجت بين شعوب كثيرة من وسط أوروبا وشرقها. وهو ما يؤهلها اليوم لكي تلعب دور التوازن في المواجهة بين المجال الأوراسي والمجال الأطلسي.. ولما أدركت روسيا أن التحالف مع أوروبا الوسطى وبالخصوص ألمانيا، قد بات صعبا في ظل هجوم العولمة الأطلسية، اتجهت إلى مجالات أخرى خارج دول الطوق القريب، لبناء مجال كبير معولم (أوراسي – صيني – هندي – أمريكي لاتيني).

*** *** ***

لنقل منذ البداية أن ليس هناك من «استقلال» أو «سيادة» للدول في عالم اليوم، إلا إذا كانت دولا فوق العادة. أي الكبرى ذات المجالات الكبيرة والموحدة.. كما من الممكن التأكيد على أن أمريكا لن تحقق السيطرة العالمية إلا في حالة عدم وجود مدى جيوبولتيكي كبير آخر في العالم بإمكانه أن يزاحمها ويحد من جموحها. ومن هنا نجد استنتاجا أن المدى الجيوبولتيكي الجديد والبديل قد اصبح ضرورة كما أن هدف أمريكا الجيوستراتيجي قد اصبح يتحدد في إثبات القوة وجودا وانتشارا، لا من خلال الاستمرار في اللعبة الدولية، ولكن كذلك من خلال تدمير أي مجال آخر جديد محتمل. فمنذ التسعينات أثار مستشار الأمن القومي الأمريكي «بول فولفيتس»[*16] إلى ذلك الاحتمال. وأوصى في تقرير للإدارة الأمريكية «بأن على أمريكا أن تحول دون ظهور أو نشوء قوة استراتيجية متينة جديدة في أوروبا أو آسيا، تكون قادرة على مواجهة السيطرة الأمريكية»[*17]. وقد ألمح ذلك التقرير إلى إمكانية إنشاء «أحزمة ونطاقات صحية» حول الدول التي من المحتمل أن تواجه أمريكا في المستقبل. فدول مثل دول البلطيق وكذلك أوكرانيا من شأنها أن تكون خط مواجهة صحي أمام احتمال عودة روسيا إلى لعبة القوى. كما أن كوريا الجنوبية ودولة مينمار وكذلك تايوان

يمكن أن تشكل أحزمة نجاة صحية إذا ما تململت الصين وارادت أن تدخل المواجهة. والواقع أن هذه اللعبة الجيوبولتيكية كانت معروفة منذ القرن الثامن عشر في أوروبا واستعملتها كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا ثم استمرت مع بلدان أخرى أكثر حداثة مثل السعودية. فحزام الدول الصغيرة الذي يحيط بالمملكة الشاسعة، هو حزام أو نطاق صحي لها. ويمكن أن نلاحظ الأمر نفسه مع إيران أو تركيا. فالاستقلال عن الدولة القريبة والتبعية للدولة البعيدة، هو معادلة جيوبولتيكية حكمت بها بلدان كثيرة. (لاحظوا حالة اليمن مع السعودية وإيران). كما أن استعمال الدول الصغيرة كبالون لامتصاص الصدمات (أو حتى الغزوات) قبل أن تصل إلى الدولة الكبيرة هو كذلك معادلة جيوبولتيكية أثبتت جداراتها للحكم. (لاحظوا حالة السعودية، حين هاجم العراق الكويت). في تلك الفسحة من الوقت تمكنت السعودية من النهوض من الصدمة وبدأت الاستعداد للرد عليه بقوة. وهو ما حدث فعلا.

إن بلدان البلطيق بعد ان كانت حزاما صحيا للقياصرة والسوفيات، هاهي تصبح بلدان/أعداء، او لنقل نطاقا صحيا لقوى أجنبية معادية للروس. بعبارة أخرى ها نحن نرى كيف يصبح القريب عدوا وصديقا للبعيد. ويمكن أن نجد ألف تفسير لذلك التحول (كيف يتحول القريب إلى عدو في السياسة)، إن بسبب صغر الحجم أم عدم الشعور بالكرامة أو لنقص في السيادة أو بسبب صحوة وطنية.. ولكن التفسير الجيوبولتيكي لا ينطق إلا بشيء واحد هو: أن لعبة القوى في الخارج هي التي دفعتها للعب ذلك الدور/الخادم. ومهما فعلت نخب هذه الدول، فإنها لن تستطسع إلا أن تجعل من بلدانها التي كانت أطرافا لدولة كبرى أو مجالا كبيرا، مستعمرات في خدمة مجال آخر كبير أجنبي.. ويمكن أن تحقق تلك البلدان بحبوحة من العيش بفضل خدماتها، ولكن أمنها سيظل دائما على خط المراقبة الأول بين الدول القارية الضخمة. (لنرى الآن أوكرانيا، إنها تكاد تتمزق من الخارج ومن الداخل. وهي ليست في نظر الروس أو الأمريكان الأوروبيين إلا خط جبهة توشك على الإشتعال).

عادة ما تكون «العبودية المزدوجة» في انتظار مثل تلك الدول. ففي اللحظة التي تكف فيها عن لعب دور «الجسر» بين عالمين أو بين دولتين قاريتين كما المكسيك أو تركيا، تصبح دولا في مهب الرياح تحت سيقان فيلة كبار. وهذا الذي نراه في شرق أوروبا وبالقرب من روسيا، يوجد كذلك في إفريقيا. (في شمال إفريقيا وفي غربها كمثال نيجيريا، وكذلك في جنوبها). فدولة جنوب إفريقيا أو دولة نيجيريا أو دولة الجزائر هي ذات تأسيس جيوبولتيكي أوروبي يعود إلى سياسات القرن التاسع عشر. كما يوجد ذلك التخطيط الجيوبولتيكي في آسيا، اي في البلدان المتطلعة إلى مجالات كبرى مثل الصين وإيران والهند.

يوحي لنا كتاب «براناب بردهان» Pranab Bardhan (يقظة العملاقين) بأن قدر كل من الصين والهند بين أيديهما. ولن يكون مرتهنا للغرب كما يدعي الكثيرون. وعليه فإن بإمكان هذين البلدين العملاقين أن يتعملقا أكثر ليصبحا جزءا من المجال العالمي البديل لمجال الأطلسي، وذلك إذا ما عرفا كيف يجدان بلدانا آسيوية أخرى ويرتبطان جيدا بروسيا. وهنا ستحاول أمريكا أن تجعل من أحد هذين العملاقين يدوس على قدم الآخر، كي تعطل مسيرتهما.

ليس في تاريخ هذين البلدين ما يعكر المزاج. فحتى تلك الحرب التي قامت بينهما في عام 62 قد أصبحت من الماضي ولم يعد طعمها مرا بعد أن تطورت التجارة لتحقق رقما قياسيا مع أواخر العام 2014 بلغ نحو 100 مليار دولار. صحيح أن الحدود المشتركة البالغة نحو 2200 كلم كثيرا ما تثير الهواجس خاصة فيما يتعلق بقضية التبت، ولكن كل النزاعات الحدودية بين بيكين ونيودلهي يمكن تجاوزها بما في ذلك النزاع حول الهمالايا وحول ولاية أزوناشال الهندية وكذلك حول جزر صغيرة في المحيط الهندي والفضاء الخارجي. إن شعور كل من الصين والهند بحاجتهما لبعضهما بعضا قد يخفض من كل التوترات. فقد عرف البلدان منذ سنوات أن التجارة هي المخفض الوحيد لاي توتر سياسي.

إن الاقتصاد الصيني يعادل أربعة اضعاف الاقتصاد الهندي. وإذ تشكل الصين الشريك التجاري الأهم للهند، فإن الهند لا تحتل إلا المرتبة العاشرة في ترتيب شركاء الصين. وهذا ما يحزّ في نفس رجال الأعمال الهنود. ومع ذلك فإن النخبة الهندية أصبحت شبه مقتنعة مثل النخبة الصينية، بأن مستقبل آسيا يجب أن يكون بين ايديهما، وذلك بالتحالف مع روسيا التي تشاركهما في الاستعداد لبناء المجال العالمي البديل.

ينظر محللون سياسيون، مثل ادوارد ستاينفلد [*18](Edward Steinfeld) مثلما جاء في كتابه (لعب لعبتنا: لماذا لا يهدد الصعود الصيني الغرب)، إلى الصين على أنها «توليد سياسي ومؤسساتي» ناتج عن مؤسسات النظام العالمي. وبالتالي فإن العولمة مثلما تجلب الانضباط التجاري والتوسع الاقتصادي، فهي تجبر كل المتدخلين على الالتزام بقواعد النظام العالمي. قد تتناسب هذه الرؤية مع تخفيف الخوف من صعود أو تمرد الصين، ولكن في حقيقة الأمر لا يوجد في مسيرة الصين ما يطمئن الغرب سوى هذا الالتزام بالقواعد التجارية. وهذا يعني أن الصين التي تلعب لعبة الغرب، قد تتحول في المستقبل إلى بديل اقتصادي وأمني للغرب. إن مسألة التصنيف من مستوى العدو إلى خصم إلى منافس ثم إلى بديل لدى الصين هي المسألة المهمة الآن. فأمريكا أو لنقل العولمة لم تعد عدوا إيديولوجيا للصين، بل أصبحت عامل مساعد لانتشار عولمة الصين المؤسسة أساسا على -العالمية- (عالمية الشعوب).. وبالتالي فإن من يعتقد

بأن الصين ستلتزم بصفة مستمرة بقواعد الغرب الاقتصادية والتجارية والسياسية لا يجانب الصواب. فهي تعترض على ما لا يتناسب مع نموها وتقف بالمرصاد لكل الذين يملون عليها سياسات حقوق الإنسان.. وتطرح بضائعها في كل الأسواق بالأسعار التي تناسب حساباتها، وتستولي على أسواق كثيرة في ظل التثاقل الغربي وهي تدخر أكبر الاحتياطات النقدية. وهذه الاحتياطات المالية الضخمة قد تهدد النظام المالي العالمي الذي يعاني من أزمات ووعكات متتالية. وليس تأسيس بنك التنمية الذي أعلنت عنه دول «البريكس»*19 أخيرا، إلا مقدمة لهجوم مالي تقوده بالأساس الاحتياطات النقدية الصينية. فالقاطرة الصينية القارية بإمكانها الآن مع تأسيس «البريكس» أن تجر أكثر من ثلث البشرية وهي تتمدد لا في آسيا فقط بل وكذلك في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا أيضا. إن شراء جزء من ديون البرتغال وإسبانيا قد يفتح الباب كذلك على شراء ديون اليونان. ويضاف إلى ذلك حجم الاستثمارات الصينية الضخمة في بلدان مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا. وهذا كله من شأنه أن يجعل الصين في موقع القرار الدولي اقتصاديا وسياسيا. إن شراء الصين للأسهم في البورصات الغربية وكذلك للموانئ وشركات النفط في أوروبا وأمريكا (شركة أنوكال)، كل ذلك يمكن أن يكون غطاء لبلوغ أهداف أمنية واستراتيجية، لذلك فإن الصعود الصيني إذا ما توافق مع تحالفات أوراسية وهندية وإفريقية يمكن ان يكون مولدا للريبة والحذر والخوف لدى القطب الأمريكي الأطلسي..

ولم يكن إفلات كوريا الشمالية من العقاب الأمريكي بسبب تخطيها للعبة النووية، إلا دليلا على حضور الصين القوي. لقد أثبتت التجارب أن تأثير أمريكا في دول جوار الصين ليس كبيرا وذلك منذ الأزمة الكورية الأولى حتى الأزمة الفيتنامية وصولا إلى أزمة كوريا الشمالية.

وهنا من المنتظر أن تنجذب دول عديدة أخرى إلى النموذج الصيني. وحتى لو ظلت الصين لسنوات أخرى تحت ما يسمى بالازدواجية الاقتصادية (ليبرالية في الخارج وتسلطية في الداخل)، فإن بلدانا مثل الهند وأندونيسيا وروسيا قد زاوجت بين الليبرالية والديمقراطية. وهذا ما قد يجذب دولا أخرى في العالم بحجم إيران والأرجنتين. هنا سيستمر التدفق والانتقال غير المسبوق للسلع من الشرق إلى الغرب. وفيما سيزداد الانجذاب نحو الشرق، يصبح الغرب أكثر ريبة وتوترا، لذلك فإن استقرار الشرق/ البديل سيبقى خاضعا لما يقدم عليه الغرب من ردود أفعال قد تصل إلى حدّ الحروب وتفجير عناصر الاستقرار في الشرق. وما يجري حاليا في الشرق الأوسط هو جزء من تلك الردود العنيفة على تعاظم جيوبولتيك الشرق البديل. في سوريا كما في إيران كما في كوريا الشمالية، حضرت كل من روسيا والصين بامتياز لتسجلان اعتراضهما

على غزو سوريا أو ضرب إيران أو عقاب كوريا.. وسواء كانت الحجة «إرهابا» أو «استبدادا» فإن موسكو وبيكين لم يعودا يصدقان مثل تلك الحجج. فالصراع في أصله وهدفه يتمحور حول سؤال: من يسيطر على القرن الحادي والعشرين وكيف يمكن أن يقام النظام العالمي الجديد (قطب أحادي أو متعدد أو مزدوج)؟

إن الشرق الذي نتحدث عنه يعرف نفسه بالتضاد مع الغرب. فهو المدى القاري الأوسط الذي يمتد من المتوسط حتى بحر الصين.. وهو يصعد باتجاه روسيا وينحني حتى إفريقيا إلى امريكا الشمالية. وفي هذه الآماد المفتوحة يتعايش على الأقل أربع حضارات هي الإسلامية والكونفشيوسية والهندوسية والأرتودكسية مع امتدادات إفريقية وخلاسية (جنوب إفريقيا والبرازيل). ورغم أن العامود الروسي الأرتودكسي لهيكل الشرق البديل يبدو حاسما وفاعلا، إلا أن العامود الصيني الكونفشيوسي يبدو أكثر تماسكا وقوة. فالصين تجاورها الهند بضخامتها وحضارتها الهندوسية وأندونيسيا بديمغرافيتها وإسلامها المعتدل وإيران بإسلامها الثوري. وهذا ما يجعلنا على يقين من أن أي مجال جيوبولتيكي بديل لن يكون إلا مجالا مضادا للمجال الغربي/ الأطلسي الديزني-لاندي*[20] (الكسندر دوغين). إن كل بلد من بلدان الشرق البديل، سواء كانت إيران أو روسيا أو الصين، تعرف نفسها على أنها منطقة وسطى تتفرد بعدة مميزات. فإيران تميز نفسها بأنها لا غرب ولا شرق والهند لا ترتاح كثيرا لتعبير الشرق، وروسيا لا تريد أن تسكن في بيت الغرب البارد. وهي ترى حقيقتها في كل من الغرب والشرق. ومع ذلك فإن كل هذه الدول تختزن ديناميكية قوية تعمل ضد الهيمنة الغربية وكذلك هيمنة العولمة بشكل واضح، لا بل تملك معظم دول الشرق هذه فرصا كبيرة لتكون نواة لمعسكر الشرق الجديد بالمعنى الجيوبولتيكي. فالموقع والمواصلات والثروات والسكان والفضاء زائد التجارة والاقتصاد والإيديولوجيا والثقافة والتنوع الديني، كلها عوامل متوفرة وفاعلة من أجل هذا الاتحاد الكسموبوليتي والجيوبولتيكي الجديد.. إن مدى كل من إيران وروسيا والهند والصين يتكامل مع بعضه بعضا. فدول الجوار القريب أو البعيد هي نفسها. فهي تبدأ بالعراق وسوريا لتلتصق بإيران ومن ثم أفغانستان والباكستان وهو ما يفتح على الهند من جهة وعلى شريط التواصل الترابي مع طاجكستان وازبكستان ثم روسيا والصين..

*** *** ***

إن «العالم العربي أو البناعربي Panarabe»، موجود في هذه الجغرافيات المتلاحمة.. إنه الجسر الرابط بين الشرق والغرب. إنه يمثل الحزام الرابط بين مجالات كبيرة: أوروبا-المتوسط، شمال إفريقيا ودول الساحل والصحراء حتى القرن

الإفريقي ثم المجال الأوراسي المفتوح على روسيا من جهة إيران. ولكن هذا الحزام كان دائما - طوقا صحيا - لهذه المجالات الكبرى دون أن يعرف كيف يبني نفسه كمجال جيبولتيكي إقليمي كبير. كانت تجربة مصر المبكرة في بداية القرن التاسع عشر محاولة جادة لبناء هذا المجال. فقد حدد محمد علي باشا ثم ابنه إبراهيم باشا حدود «المجال البناعربي». وحين اقترب من لحظة الإنجاز، بعد أن قضى على الوهابيين الإسلاميين في الجزيرة العربية وعلى دويلات الطوائف في بلاد الشام، وجد أمامه الأوروبيين (فرنسيون وانكليز) ليردوا طموحه إلى حدوده الأولى. كان الأوروبيون هم الذين يريدون وراثة «الرجل العثماني المريض» ثم إنهم كانوا يدركون أن ما كان يصنعه الباشا المصري يتعارض مع مجالهم الكبير ذي الطموح اللامحدود. حاول ناصر أن يجمع قوى العرب مرة أخرى ويهجم لبناء فضاء عربي كبير، ولكنه أيضا وجد من يرده على أعقابه. إنهم الأوروبيون الذين تحالفوا مع إسرائيل والذين يصطفون وراء الجنرال الأمريكي. ومنذ بداية السبعينات سوف لن نعود نسمع عن المدى العربي أو الفضاء العربي أو المجال العربي. فقد تراجع كل ذلك «المد البناعربي». وفيما ظلت بعض الأطراف تتكلم على العالم العربي كوحدة أو اتحاد أو فضاء (مثل ليبيا والعراق وسوريا) فإن مصر انكفأت على نفسها لصالح الدولة السعودية التي تربعت على المنطقة بفضل البقاع المقدسة لأكثر من مليار ونصف من المسلمين وباحتياطها من النفط الذي يجعلها في المرتبة الأولى عالميا وكذلك بعلاقاتها التاريخية مع الغرب وخاصة الأمريكان..

إن العربية السعودية التي اختارت «الإسلام الوهابي» كمنهج لحكمها هي النقيض الكامل لأي مجال قاري عربي. فمصالحها ودرجة رفاهيتها وثرواتها وسياستها الإسلامية كلها كانت بقدر ما تتعارض مع مصالح المجال العربي، بقدر ما كانت متوافقة مع مجال العولمة الأمريكي. ولقدرتها المالية وتحكمها في حركة الإسلام في نواحي عديدة من العالم وتعاونها مع السوق العالمية وتحالفها مع القوة العالمية الأضخم وهي أمريكا، تمكنت السعودية من إنهاء ما يمكن أن يكون مجالا عربيا كبيرا، ليصبح ذلك المجال مجموعة من الدول الصغيرة المفككة والمتصارعة والمتعاونة مع الخارج ضد الداخل.. إن فلسفة كل دولة تجد نفسها في وضعية «النطاق الصحي» (سواء كانت عربية أو غيرها) لابد لها أن تتعاون مع القوي البعيد لتنجو من غطرسة القريب القوي. وبما أن «الأقوياء» كثيرا ما يتفقان أو يتحاربان، فإنهما عادة ما يجعلان من تلك الدول الصغيرة ساحة لحروبهما ومزرعة لتفاهماتهما.

لقد كان واضحا منذ البداية أن طريق السعودية كمملكة تحتوي على مقدسات المسلمين، كانت نفس الطريق التي سلكتها تركيا حين أصبحت جمهورية.. كانت ولادة

السعودية وتركيا في وقت متقارب جدا.. وكان أتاتورك وابن سعود كما لو أنهما شقيقان من أمهات مختلفة. سار كل منهما نحو أمريكا طوع يديه ليصبح خادما لحلف الأطلسي وأمريكا فوق العادة.. إن تركيا أتاتورك هي تركيا الجمهورية التي تخلصت من أعباء الإمبراطورية وألاعيب السلاطين وتخلف المسلمين.. كما أن السعودية هي المملكة العربية الصغيرة التي اكتفت ببلاد نجد والحجاز والبقاع المقدسة وقد تخلصت من أشراف مكة وشيوخ القبائل وهذيان القومية العربية.. وبينما قامت تركيا فيما بعد بانعطافات كثيرة نحو الديمقراطية والدولة القومية والبحث عن المجال التركفوني الكبير، ظلت السعودية مؤمنة بمشروعها الوهابي ومدافعة عن مصالحها وغير مهتمة بأي مجال عربي كبير.

إن الوهابية مثلها مثل أية نزعة إيديولوجية (قومية كانت أو دينية) عادة ما تضع المعيار الإيديولوجي (القومي أو الديني) فوق المصالح الجيوبولتيكية والترابية للشعوب. إن الجيوبولتيك يبدأ في العمل حين تتفتت الإيديولوجيات بأنواعها. وبما أن العالم العربي لايزال محضنة لكل أنواع الإيديولوجيات، فإنه سيستمر في التفتت تحت أقدام الكبار الأقوياء..

إن تفتت العالم العربي إنما يعني أنه تحول إلى «فضاء مملوك للخارج». فمعظم دوله مرتهنة لحليف دولي كبير أو خائفة من عدو قوي قريب. إنه ليس بعالم ولا بمجال، وإنما هو مجموعة من الدول بعضها يشكل «نطاقا صحيا» وبعضها يشكل «مستعمرات تقنية»، وبعضها يشبه الدولة/الخادمة للسيد القوي.. وفيما يزداد التفتت السياسي والترابي، يزداد الضغط لتصبح الجغرافيا العربية عبارة عن منازل للأشباح والوحوش، خالية من الروح لأن روحها قد بعثت أو اندمجت مع روح السيد الكبير. وحين تعارض دولة كالسعودية إقامة أي مجال عربي على حساب هيمنتها الدينية باسم الإسلام الوهابي، وتتكفئ مصر على نفسها بسبب الخوف من النكوص وبسبب حاجتها إلى المال ثم بسبب ارتباطاتها الدولية مع أمريكا وإسرائيل، فإن كليهما يجدان نفسيهما في مواجهة إيران وتركيا بلا اتفاق أو أي موعد. إن السعودية تدفع بكل قوة للحد من التمدد الإيراني وفي نفس الوقت من احتمال أي تمدد عروبي. وحتى تضمن نتائج أفضل، فهي تدفع بكل من مصر وتركيا نحو التصادم. وهكذا فإذا تفرغت دول الخليج لمحاربة إيران، فإن لا مصر ولا إيران ولا تركيا بإمكانها أن تصنع مجالا مضادا للمجال السعودي.. وفي آخر النهار، فإن حساب المساء يكون كالتالي: المناوشة المصرية-التركية تمنع كل منهما من بناء مجاله السنّي على أساس تركي أو عربي. والمناوشة الخليجية-الإيرانية تمنع إيران من إقامة أي مجال شيعي. وهذا كله يتناسب ويتوافق مع مصالح إسرائيل الجيوبولتيكية.. وها إن المشروع الوهابي الذي يصفه بعض العرب بأنه وجه آخر للصهيونية العالمية

بكثير من الضجيج، يلتقي في آخر المساء مع المشروع الصهيوني. فالدولة اليهودية والدولة الوهابية قد بعثتا من نطفة دينية واحدة وترعرعتا في تربة واحدة تحت راع واحد هو: أمريكا والحلف الأطلسي الغربي.

*** *** ***

اكتشف الأمريكان ومعهم الإسرائيليون أهمية – الحرب الأهلية – الدينية – لضرب القومية العربية كمشروع جيوبلتيكي مناهض للغرب. ولذلك من المحتمل أن يبقى المجال العربي أرض هباء للخصومات الدينية لأكثر من عقد آخر تحت دعاوي كثيرة وعلى رأسها محاربة الإرهاب. شاءت التحالفات الدولية المشبوهة أن تندمج وتدخل جميع العرب في هذه الفوضى الإرهابية. فأصبح هناك ما يعرف بالدول الجاذبة للإرهاب وأخرى مصدرة للإرهاب وثالثة راعية للإرهاب. إن العرب هم الذين يقاتلون العرب على أرض العرب لتفتيت العرب. وهذه الوصفة القديمة (بن غوريون) هي ذاتها التي يجري تحديثها عبر شحنات طائفية ودينية*[21]. فحرب الطوائف والاثنيات هي البديل الجديد للأساطيل والحروب الكلاسيكية. وهي بمثابة القوة الناعمة التي تستعملها كل من أمريكا وإسرائيل اليوم لإعادة تشكيل المجال العربي وفق مصالح الغرب. لقد رأينا كيف وقفت أمريكا إلى جانب الشيعة في العراق ثم وقفت إلى جانب السنة في سوريا. بينما لم تعبر عن أسفها عن تهجير وتقتيل المسيحيين.. ويقضي مشروع الحرب الأهلية الدينية أساسا بإفراغ المجال العربي من مسيحييه حتى يفقد قوته الروحية والعاطفية.. ثم الزج بطوائفه الإسلامية من شيعة وسنة وخوارج ودروز وعلويين وزيديين في حروب طويلة المدى..

وحسب «جبران عريجي»*[22]، فإن خارطة العالم العربي كما رآها في إحدى الجامعات الأمريكية المرموقة، قد أصبحت معلّمة بألوان تفيد مواقع الأكثريات والأقليات الدينية، لا بمواقع الدول. وبات كثير من خبراء الإستراتيجيات في الغرب يتخصصون في فروع الفقه والشريعة ويقدمون أنفسهم على أنهم خبراء في الفقه الإسلامي. وهناك من يدافع عن الشيعة وبينهم من يدافع عن السنة. ولا تبدو المفارقة العجيبة في كون المسيحيين واليهود قد أصبحوا فقهاء في الإسلام، بل في أن العلمانيين (علماني الغرب) يريدون أن يصبحوا «فقهاء» لأديان الشرق (مختصون في الشيعة والسنة والأباضية والخوارج والمرجئة والمعتزلة وكذلك في السلفية والسلفية الجهادية وهلم جرّا).

هكذا، حين يسيطر الهوس الديني، لا يصبح للشعوب اية قضية جامعة. ومنذ أن بات المجال العربي أرضا للحروب الدينية بدءا بصعود التيارات الإخوانية، تراجعت

قضية العرب الأولى: فلسطين. كانت فلسطين بمثابة البوصلة لأكثر من جيلين وقد أعطت دفعا كبيرا للأمة العربية وجعلتهم متحدين في أكثر من حرب رغم الهفوات والنكسات، وأخرجت رجالا وطنيين من طراز رفيع في كل بلد، وكان أكثر الذين تبنوا هذه القضية هم العلمانيون العرب وخاصة المسيحيون منهم، حتى نسي العرب أن بلادهم مليئة بالطوائف.. ولكن في اللحظة التي نسي فيها الغرب، حرب الطوائف، تذكر الغرب أن الإسلام لا يمكن هزيمته إلا بإشعال حرب الطوائف. وقد جربوا ذلك أكثر من مرة في الحروب الصليبية وكذلك في حرب استعادة إسبانيا.. والآن، إذا كان على الغرب أن ينتصر على هؤلاء العرب، فلابد لهم أن ينتصروا للإسلام في وجهه المتخلف الديني، الأصولي المنبعث من الماضي والمفتوح على الخواء..

وهاهي إيران تأخذ أولا مكانة إسرائيل لدى سنة العرب الوهابية!.. إن شيطنة إيران تعني أولا شيطنة الشيعة لدى السنة/الأغلبية الحاكمة في بلاد العرب.. وإذا ما حل الشيعة كأعداء محل إسرائيل، فإن الخطوة الثانية لابد أن تكون باتجاه دعم التيارات الإسلامية والدفع بها إلى الحكم للقضاء على آخر العروبيين. بعد ذلك لابد من دعم الإسلام الوهابي بشحنه بالهواجس والمخاوف من الشيعة. ثم دعم التيارات السلفية - الهمجية لإشاعة الفوضى وتخويف الأنظمة الإسلامية. وفي مرحلة أخرى من المحتمل أن تصبح منظمات إسلامية مرشحة لبناء دول إسلامية كما فعلت «داعش»، كما من المحتمل أن تبعث أكثر من داعش أخرى لتقاسم المجال العربي كله تحت شعارات مقسمة ومفتتة للإسلام وكذلك للعرب*[23]. وسواء بلغت داعش سقف طموحها الذي حددته لبناء دولة الخلافة الإسلامية وهو هدم الكعبة، باعتبارها مكانا لعبادة الأصنام منذ ما قبل الإسلام أو لم تبلغ، فإن جيلا آخر من هذا الإسلام الميدياتيكي، الغوريللي، الكلاغيلي، قد يصل إلى مثل تلك الأهداف!..

إذا ما استغرب المرء من هذا الهدف، (تدمير الكعبة)، فإما أنه لم يقرا التاريخ (لقد وقع ذلك سابقا وانطلاقا من العراق!) أو أنه غير مطلع على الأدبيات الصهيونية.. فاليهود التلمديون لا يخفون «حقهم» في الكعبة، ولا «حقهم» في الأهرامات. إنهم كثيرا ما يرددون أن رجال موسى هم الذين بنوا أهرامات الجيزة. وأن إسحاق، جدهم الأول هو الذي أقام أول الصلوات في الكعبة بعد أن أتم النبيّ إبراهيم بناءها!..

ربما ليس ثمة من يصدق تلك الأساطير، ولكن الاساطير تصبح أداة من أدوات الفعل التاريخي في كل مرحلة تاريخية. فالشعوب التي ليس لها أساطير، ليس لها تاريخ أو مستقبل. كما أن الشعوب التي لا تصدق أساطيرها قد لا يصدقها احد.. وهاهم أولئك الذين خرجوا من تراجيديا التاريخ السحيق هم الذين نجحوا في بناء دولة قوية في بلاد العرب بفضل تصديقهم للأساطير والزبابير (تنشط إسرائيل في

جمع وسرقة الآثار من العراق وسوريا بحثا عن أسطورتها الضائعة. وأكثر ما يؤلمها أنها لم تعثر إلى حدّ الآن في فلسطين على ما يبرر ادعاءاتها).. إن صناعة الأسطورة يشبه كثيرا صناعة الوهم. لقد نجحت إسرائيل في إقناع معظم العرب، أن عدوهم هو إيران وليس دولة أخرى (إسرائيل). ثم أشاعت أن إيران دولة قوية ستبتلع كل العرب. وقد استطاعت أن تقنع الجميع بما في ذلك أمريكا، أن إيران تشكل خطرا على الجميع. وما لم يقدم الغرب على تأديبها والحدّ من تصاعدها، فإنها ستتولى بنفسها المهمة، وأشاعت أجواء من الخوف والقلق إلى حين بلغت ما كانت تخطط له: ابتزاز العرب بالقوة الإيرانية لكي ينسى العرب قضيتهم الأولى: فلسطين، وتقديم نفسها كحليف منقذ للسنة الذين يتخوفون من الشيعة/الفرس. ثم ابتزاز الغرب لكي يظل الحامي الابدي لوجودها.

إن الرابح الوحيد في هذه المعركة من الأوهام والاساطير المختلطة بالمصالح وسرقة الآثار والحروب الطائفية والدينية هو بلا منازع إسرائيل.. لقد ازداد وجودها ثباتا وتأكيدا ودعما مع «الاتفاق النووي». ضمنت لسنوات طويلة التحالف مع اقوى الدول العربية (مصر والسعودية) وأمنت مبالغ كبيرة من المال من أمريكا وأوروبا، ثم حددت قوانين اللعبة الإقليمية مع كل من إيران وتركيا.. وهذا يعني أن قيادة المنطقة ستظل لعقود أخرى تحت تشكيلة إقليمية يهودية-إسلامية يشارك فيها الإسرائيليون والإيرانيون والأتراك والعرب ضمن توزيع متفاوت الإيقاعات والمصالح.. إن إسرائيل تدرك جيدا أنها تقف إلى صف الرابحين في هذه الفوضى العربية. ولكنها تبدو مستعدة للمشاركة في توزيع وتقاسم القوة. وذلك ما يؤهلها للإندماج في قلب المعادلة الشرعية للمنطقة. وبذلك ستخرج عن كونها دولة طارئة وتصبح دولة قارّة وشرعية ومعترف بها من الجميع. وهذا هو أكبر الانتصارات التي قد تحرزها إسرائيل بعد تأسيسها في العام 48. إن السنوات المقبلة، إذا كانت ستنتهي بسلام قائم على توزيع وتقاسم القيادة على الدول الفاعلة والكبيرة في المنطقة، من المحتمل أن تشكل فرصة لإسرائيل لكي «تشرعن» نفسها في محيط ظل ينبذها ويتوجس منها بسبب عدوانيتها وعدم أصالتها.. إن الجدران العازلة مهما ارتفعت لن تمنح إسرائيل لا الأمن ولا السلام. فجدار الضفة الغربية لم يجلب لها الأمن. ولن يكون جدار نهر الأردن مفيدا وكذلك جدار الجولان أو جدار جنوب لبنان. وما يمكن أن يكون مفيدا لإسرائيل هو تواضعها واستعدادها للقبول بدولة فلسطينية كاملة الحقوق..

إن الجدران العازلة لن تنسي الفلسطينيين حقوقهم المشروعة. وفي كل الحالات فإن دولة إسرائيل لن تملك شرعية وجودها إلا من خلال وجود الدولة الفلسطينية. ومن الواضح أنه لايزال أمام الفلسطينيين زمن طويل لكي يثبتوا دولتهم المستقلة، ولكن ذلك

سيحتاج إلى تسوية سياسية بين أعمدة المنطقة كلها. إن وضع الفلسطينيين يشبه كثيرا وضع الأكراد. فهم موجودون تحت الاحتلال في مكان. وتحت حكم ذاتي في مكان آخر. وفي الشتات في أماكن أخرى. وبهذا لن يكون من السهل إيجاد دولة فلسطينية مستقلة إلا إذا ربطت إسرائيل أمنها بأمن تلك الدولة الفلسطينية وشرعيتها بشرعية تلك الدولة. وهذا يتطلب جهود دولية حثيثة من أجل ضمان حقبة طويلة من السلام في تلك المنطقة. وما يجب أن تدفعه إسرائيل من أجل ذلك السلام هو بحجم ما يجب أن تدفعه تركيا أو العراق أو حتى إيران من أجل أمنهم في مواجهة الاكراد. إن الأكراد الموزعين بين ثلاث دول (ومنهم من يتمتع بحكم ذاتي كأكراد العراق، ومنهم من يتمتع بهدنة استقلال بسبب انهيار الدولة في شمال سوريا ومنهم كذلك من يقع تحت الاحتلال كأكراد تركيا). وهذه الوضعيات المختلفة للأكراد تقع في قلب الاهتمامات والأولويات التركية. فتركيا هي الأكثر خوفا من تمرد الأكراد الذي قد يؤدي إلى تمزيق تركيا حين تبعث حرارة الاستقلال في عرب سوريا العلويين أو في أكراد العراق. وبينما كانت تركيا تضع في أولوياتها قلب أو إسقاط نظام دمشق، هاهي الآن تتراجع خطوة خطوة وتقبل بالمفاوضات مع دمشق من أجل أمنها القومي في الداخل. إن أوردغان قد بات رهينة للأكراد (حزب الشعب الذي حقق نسبة عالية في الانتخابات الأخيرة لعام 2015 وكذلك حزب العمال الـP.K.K الذي عاد إلى الحرب ضد تركيا). يضاف إلى ذلك أن أكراد سوريا لا يماثلونه الرؤية. أما أكراد العراق فهم غاضبون تجاه التنكيل الذي يلحق بأشقائهم.. وحتى لو أن البرزاني لايزال يعتقد بأن على الأكراد أن يندمجوا في العملية السياسية في تركيا كما فعلوا في العراق ولا يفرطوا في مستقبلهم السياسي بسبب تداعيات غامضة وحادة على الجبهة التركية، إلا ان الأكراد في عموم المنطقة باتوا مقتنعين بأن مصيرهم يوجد في «دولة مستقلة» عن الجميع، تكون في قلب المعادلة الجديدة للشرق الأوسط.. إنه من المحتمل أن لا تهدأ كل هذه الحروب المتفرعة عن المسألة الفلسطينية والمسألة الكردية. وقد مضى ما يقارب القرن على عذابات هذين الشعبين، إلا ببعث كيانين فلسطيني وكردي مستقلين يضمنان السلام في كل من هضبة آسيا الوسطى وبوابة المتوسط والبحر الأحمر.

*** *** ***

حتى الآن لازالت تركيا توجد في بؤرة النار التي فتحتها على نفسها في سوريا. فبعدما كانت تهدد هنا وهناك، باتت تركيا مهددة من أكثر من مكان. إن ديبلوماسية «صفر مشاكل» التي اخترعها أوغلو (حين كان وزيرا للخارجية)[*24] قد تحولت إلى حروب متعددة وخلافات حادة على أكثر من جبهة.. بداية من سوريا والعراق والأكراد

وصولا إلى قبرص واليونان والأرمن مرورا بإيران ومصر. إن ديبلوماسية - أوغلو - هي الأطروحة المضادة لديبلوماسية - ظريف - في إيران. ونتيجة لذلك فإن أوردغان قد فشل فيما نجح روحاني. وهنا تبارت ثقافة الفرس التي قامت على مزيج من الفلسفة والقوة مع ثقافة الأتراك/العثمانيين التي تعتمد على القوة والقوة فقط، فكان على تركيا أن تعود إلى النقطة صفر. أي اعتناق القوة الذي قد يعيد الجيش التركي إلى الواجهة. إن مجد تركيا الأوردغاني الذي قام في جزء منه على «تشويه» التجربة الإيرانية (أو لنقل على بديل شبيه)، يوشك أن ينتهي أو يتبخر مع دخان المعارك والحروب التي تخوضها دمشق وكذلك مع استحقاقات الاتفاق الإيراني/الغربي وأخيرا مع الهجوم الروسي. لقد انتقلت الحرب مباشرة إلى داخل تركيا بعد توقيع ذلك الاتفاق. وهو ما يعني أن تركيا عليها أن تدافع عن حدودها قبل أن تغزو بلدان الآخرين.. وثمة طريقة وحيدة الآن أمام أوردغان لكي لا يقع محو صورته من الهندسة الجديدة للمنطقة، هي أن ينظم إلى التحالف الذي اقترحته موسكو لمحاربة الإرهاب. وهو ما يعني أن على أوردغان أن يصبح حليفا لبشار الأسد وإيران بل من المحتمل إذا كان ذلك صعب الهضم، أن يعود إلى إحياء الحلف التركي/الإسرائيلي!.. (هذا في حالة إعادة انتخابه في الانتخابات المبكرة في خريف 2015).

إذا كانت حرب أوردغان ضد الأكراد تشبه إلى حدّ ما حرب السعودية ضد اليمن. فمعنى ذلك أن كل من تركيا والسعودية قد دخلتا إلى بؤرة النار. ويبدو واضحا هنا أن سوريا نجحت في إدخال هذين (العدوين) إلى الحرب. وبذلك تكون قد خفضت من الضغط عليها ووضعت نفسها كرقعة للحل والعقد. وإذا كانت أنقرة قد أبدت استعدادها للقبول ببقاء الأسد على مضض، فإن الرياض التي تريد أن تعوض خسارتها لدمشق باليمن، سوف تصطدم عما قريب بحقائق اليمن المفجعة والمفزعة.. فهذه الحرب إذا لم يوضع لها نهاية سياسية، فإنها قد تكون حربا مقفلة على الحرب فتتحول إلى حرب استنزاف طويلة ضد السعودية. فاليمنيون ليس لديهم ما يخسرون إذا طالت الحرب. وإنما قد ينتقلون إلى الهجوم داخل الأراضي السعودية. إن التخطيط السعودي لحرب اليمن قد بدأ بسيطا ثم صار معقدا إلى درجة أنه أقفل أبواب كل الحلول السياسية ورمى بالمفاتيح إلى البحر..

لنرى جيدا خارطة سوريا، حيث بؤرة النار الكبرى.. سنلاحظ جيدا أنها تقع شمال السعودية وجنوب تركيا وغرب العراق وبمحاذاة إسرائيل. وتمتد تأثيراتها إلى هضبة إيران ومن ثم إلى موسكو من ناحية الشمال ثم تمتد من المتوسط إلى المحيط الهندي من ناحية الشرق، وتصل من ناحية الغرب إلى مصر فشمال إفريقيا. إن سوريا التي انطلق منها البحارة الفينيقيون ثم الرهبان المسيحيون ثم الفاتحون الإسلاميون، كانت دائما

على موعد مع الشرق والغرب من حدود الصين إلى حدود الأفرنجة، حتى أن هناك من الفلاسفة من كان يقول: لكل مواطن في هذا العالم وطنان، وطنه بالولادة وكذلك سوريا!*[25].. إن سوريا هي التي علمت البشرية الكتابة. كما هي التي منحت لتركيا روحها الإسلامية وعلمتها آداب الأكل والأدب والطبخ. وهاهي الآن تثبت لتركيا مرة أخرى أنها لاتزال تتحكم في الأمن التركي حتى وإن كانت تركيا أقوى ماديا وعسكريا..

لقد أصبح وجود الرئيس بشار في سوريا ضروريا مادامت هناك حرب. فالجميع وعلى رأسهم الأتراك باتوا يعتقدون أن بشار هو رئيس كل هذه الحروب. فلا يوجد غيره لا في سوريا ولا خارجها يلعب هذا الدور. والمفارقة المذهلية التي أفرزتها هذه السنوات السوداء، أن الرئيس الذي حاربوه جميعا وأرادوا إسقاطه، قد بات يتحكم في وجودهم وأمنهم. كما أن الأموال التي قد تسترجعها إيران من خزائن الغرب، سيستفيد منها بشار الأسد. والحال هذه فإنه من المحتمل أن يكافئ في آخر المطاف بإعادة إعمار بلده بأموال الغرب والخليج والأتراك. لقد رأينا كيف قفز الأوروبيون إلى طهران عقب التوقيع على الإتفاق النووي لاستجداء المشاريع. وهو ما فعلوه مع ليبيا حين رفع الأمريكان حصار لوكربي في العام 1999. وهو ما قد يحدث مع سوريا حالما تهدأ طبول الحرب وتنصب طاولة المفاوضات. وكما كانت إسرائيل تعرف وتدرك جيدا أنها أعجز من أن تضرب إيران عسكريا، وأن كل ما قامت به لا يعدو أن يكون مسرحية لتسخين الأجواء، فإن أوردغان كذلك كان يدرك منذ البداية أنه أعجز من أن يضرب أو يتوغل في سوريا لإسقاط بشار الأسد دون أن يلحق بتركيا أضرارا كبيرة!..

ولتلخيص كل هذه التصورات والاحتمالات، من الممكن القول أنه لا يوجد حاليا إلا طريقا واحدة لإقامة السلام في منطقة الشرق الأوسط. وهو الاتفاق على تحديد الإرهاب ومحاربته جماعيا ودوليا وتحديد خطوط التلاحم والتعاون لإقامة مجال جيوبولتيكي إقليمي جديد، تكون فيه سوريا وإيران بمثابة المحور ليكون قادرا على مواجهة المشاريع الخارجية المضادة. فحتى الآن لا يوجد من يتكلم بلغة الأرض، إلا سوريا وإيران..

*** *** ***

إن سوريا وإيران هما اللتان وضعتا تركيا في الزاوية. أما موسكو فقد أوقعتها في الورطة. اقترح بوتين على أوردغان منذ بداية صيف 2015، مشروعين اثنين. واحد اقتصادي والآخر سياسي. أي فتح خط الغاز الروسي عبر تركيا - ستريم تركيا - ثم الانضمام إلى حلف القتال ضد الإرهاب، تشترك فيه سوريا وإيران والسعودية. وحين قبل أوردغان بذلك العرض، استشاط الأمريكان غضبا وهددوا بشطب تركيا

من الحلف الأطلسي. فخط الغاز ستريم سيضعف حصار أمريكا على روسيا ويحدّ من تأثير الأزمة الأوكرانية على تركيا. أما الانضمام إلى جبهة قتال مع سوريا وإيران وروسيا، فإنه سيضعف واشنطن أثناء المفاوضات حول نظام إقليمي جديد. طلب أوباما وكامرون من أنقرة شطب الاتفاق الغازي مع روسيا فورا والانضمام إلى الحلف الأطلسي لمكافحة داعش. لم يقبل أوردغان ولم يرفض لا عرض بوتين ولا تهديد أوباما، ولكنه تصرف كما يفعل دائما (الإخوان المسلمون) خطوة هنا ونصف خطوة هناك. سمح فورا بتشغيل قاعدة «انجرليك» ثم هاجم مواقع لداعش في سوريا وأوقف عبور المقاتلين إلى العراق، مقابل ذلك رفع من وتيرة الضرب ضد الأكراد حتى يمنع أي تهديد كردي قد تستخدمه ضده واشنطن. وفي الحين ردت واشنطن والاتحاد الأوروبي بوقف العدوان على الأكراد ثم دفعت البرزاني للتخلص من ضغط أوردغان. ترافق ذلك كله مع كشف الدور التركي في تنامي الإرهاب بالمنطقة. وتكلمت صحف ومواقع كثيرة*[26] عن علاقة تركيا بالقاعدة، وكيف استمرت العلاقة بين أوردغان وزعماء القاعدة لسنوات عبر وزارة العدل التركية. ثم عن علاقة جهاز المخابرات التركي بداعش. وذكرت معلومات صادرة عن أمركيا، إنه إذا كان قائد داعش أبو بكر البغدادي من قبيلة سليم العربية، فإن مساعديه هما من التركمان ويعملان كعضوين في المخابرات التركية وهما: أبو علاء العفري وفاضل الحيالي. كما كشفت معلومات أخرى أن خطوط التجارة في النفط والمواد الغذائية والأدوية مفتوحة بين داعش وتركيا. وأن بلال أوردغان (الابن) يشرف شخصيا على تجارة النفط وأن كريمة أوردغان (سمية) هي التي تشرف شخصيا على الادوية والعلاج والمساعدات.

كان أوردغان يريد أن يسقط بشار بأي ثمن. وقد استعار ربما أساليب بشار نفسه لمحاربته. فأردوغان يعتقد ان المنظمات الإرهابية التي تقاتل في سوريا معظمها من صنع بشار ليقول للعالم أنه يقاتل الإرهاب. وعلى ذلك الأساس، ذهب الذئب التركي بعد أن تعب من أساليب الثعلب الشامي، مباشرة إلى أكل كل - الدجاجات الإرهابية - ثم الإعلان عن منظمة جديدة أكثر رهبة وشموخا وتوسعا هي داعش (الدولة الإسلامية في سوريا والعراق.. بالله من يصدق مثل ذلك غير المخابرات التركية؟). قبل ذلك اخترع أوردغان قصة الغازات السامة وكادت أن تفعل مفعولها. ثم أقنع كل من إسرائيل والسعودية بأن بشار بصدد تجهيز هجوم كاسح مع إيران ضد إسرائيل وآخر باتجاه الأردن ضد السعودية. بعد ذلك أقنع الحلف الأطلسي بأن سوريا تستضيف غواصات نووية روسية وسفن إيرانية.. وأخيرا اخترع «داعش» ونسبها إلى دمشق لكي يصبح بشار الأسد عدوا للجميع ومعه إيران.

إن واشنطن لا تجهل كل ذلك بيد أنها لا تعرف كل التفاصيل. ولكن سفير أمريكا

في أنقرة السابق «روبرت ستروس هوبيه» يتقن فك الألغاز التركية. فهو الذي حذر من تلك الألاعيب. أما تلميذه الكولونيل «رالف بيتر» فرأى أن تركيا تقوم بأدوار مزدوجة وهي تريد أن تدفع الحلف الأطلسي لإسقاط بشار الأسد. ومن ثم تضغط على إيران وتصبح ضرورة لمرور خط الغاز الروسي عبر أراضيها*[27]. ولأن تركيا لم تكن واضحة ولا صادقة مع حلفائها فإنها تقريبا قد فشلت سياسيا واستراتيجيا. وباتت أمام خيارات صعبة: أن تسلم بدولة كردية كبيرة تجمع كل أكراد المنطقة. ثم تتكفئ على نفسها في انتظار أن تخرج من الحلف الأطلسي!

عند الحساب، نجد أن تركيا التي لم تربح شيئا من العراق بعد أن أصبح مجالا حيويا لإيران، قد خسرت كذلك عشرات المليارات الدولارات في ليبيا التي كانت تجنيها في زمن القذافي، وهي لاتزال ذاهبة إلى الخسارة بدفاعها أو ارتباطها مع الميليشيات ومافيا النفط. أما في سوريا فهي توشك أن تخسر ما تبقى من هيبتها.. فأوردغان الإخواني قد شوه وجه الدولة التركية في كل مكان برهانه الأعمى على الأحصنة الإخوانية في العالم العربي والتي سقطت الواحدة تلو الأخرى. ولم يبقى إلا ذلك الذي يركض بجنون نحو الماضي (بعض التيارات السلفية). ففي الفوضى العربية، باتت تركيا تعمل بأسلوب القراصنة كما بات أوردغان نفسه كما لو أنه أميرالاي القراصنة، حتى داخل بلاده أو حزبه. فالسياسة الإسلامية التي انتهجها يمكن أن تأتي على آخر ما كان يحلم به أوزال (الإسلامي/العلماني). فقد رفعت من درجة الكراهية بين الشيعة والسنة وبين الأتراك والأكراد والأتراك والأرمن، ثم رفعت من درجة التوتر داخل الجيش الذي يساق جنوده إلى حروب مجهولة فيما يرسل ضباطه إلى العدالة تحت تهم ملفقة. أما حزبه فقد أصبح منقسما إلى أربعة جماعات*[28]: جماعة أوردغان نفسه وجماعة أربكان ثم جماعة فتح الله غولان ثم جماعة تورغت أوزال.. لقد كانت الفكرة الأساسية التي أقنع بها الأسلاميون الأتراك أصدقائهم الأمريكان لبناء حزام إسلامي كبير مضاد لإيران يحمي الأطلسي المسيحي/اليهودي*[29] من احتمالات الإرهاب أو التوسع الأوراسي، غير أن النهايات بدت كما لو انها قد وصلت إلى العكس تماما. فتركيا اليوم بعد الاتفاق الإيراني لم تعد قادرة على لعب ذلك الدور. وأوردغان نفسه لم يعد يقف على أرضية صلبة ولا يملك أغلبية واسعة للحكم ولا حتى شعبية في داخل تركيا أو في خارجها. (علينا أن ننتظر نتائج الانتخابات الجديدة التي أقحم فيها حماس الجيش والقتال ضد الأكراد لتشويه حزب الشعوب). فحتى لو نجح في تركيب حكومة جديدة بعد فقدان الأغلبية الرادعة في انتخابات جويلية 2015 أو فاز في الانتخابات المبكرة، فإن تركيا قد تنفلت من عقالها مرة أخرى لتعود إلى الحروب الأهلية أو الإنقلابات العسكرية.. ومن وجهة ما. لقد باتت تركيا محاصرة بالفشل من

كل جهة: إيران تستعيد مكانتها الدولية. روسيا تستعيد زمام المبادرة وتسجل حضورها على الأرض لمحاربة داعش. دمشق تحطم الفيتو على بقاء رئيسها وداعش قد تنتقل إلى الهجوم داخل تركيا فيما حزب العمال الكردي يحطم أعصاب الجيش التركي. وفي مثل هذه الأوضاع لم يجد أوردغان إلا القبول بعرض موسكو قبل أن يتحول إلى إملاء وهو: الانضمام إلى الحرب ضد داعش والكف عن مطالبة الأسد بالرحيل.

*** *** ***

في الحقيقة، لقد دفع العرب أثمانا عالية من أوطانهم ودمائهم وثرواتهم وسياداتهم وأمنهم في حرب القوة بين تركيا وإيران التي تدار هي نفسها ضمن حرب أوسع وأشمل بين قوى كبرى لا تنتمي جغرافيا إلى المحيط الإقليمي. كان هدف الانتفاضة الإيرانية الشبابية في العام 2009 على إثر الانتخابات الرئاسية التي جددت للرئيس محمود نجاد، هو إسقاط النظام الإيراني على الطريقة الجورجية أو الأوكرانية. كان الغرب يفكر في الضرب انطلاقا من المركز. وحين فشلت تلك الانتفاضة أصبح التفكير باتجاه الضرب في الأطراف أو في دائرة الحلفاء. انطلقت الانتفاضة الأولى التي انتهت بإسقاط النظام التونسي على عجل. وتم تنفيذ نفس السيناريو في مصر. وهكذا بات الطريق مفتوحا لضرب ليبيا بقوة الأطلسي. وترافق ذلك مع إسقاط نظام صنعاء بتفاهمات خليجية-أمريكية مبهمة. أما انتفاضة البحرين التي كانت تغرّد خارج السرب فقد وقع خنقها. وهنا تفرغ الجميع للمسألة السورية. كانت معظم القوى اللاعبة في ذلك «الربيع المشؤوم»، يعتقد أن سوريا هي «الهدف» المتوسط للوصول إلى «الهدف الكبير» وهو إيران. فلطالما حاول العرب (الخليجيون وغيرهم) والأتراك والأوروبيون أن يبعدوا سوريا عن إيران، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك. وظلت السعودية تحاول إلى آخر لحظة في عهد الملك فهد ثم فجاة تحركت لتوقف كل تعاون مع سوريا.. فبعد اغتيال الحريري 2005 طلقت السعودية كل علاقة مع سوريا وباتت تنظر إليها كدولة معادية تقف إلى صف إيران.. وخلال انتفاضات الربيع العربي، التزمت السعودية مواقف الصمت علانية. ولكن حين بلغ الربيع أراضي سوريا، ارتدت السعودية بدلة القتال إلى آخر سوري على الأرض السورية!..

إن حرب إسقاط سوريا هي حرب من أجل إسقاط إيران. هكذا كان الأمر في وعي السياسة السعودية والقطرية والتركية والأمريكية والإسرائيلية أيضا. انقسم العالم من جديد إلى معسكرين: معسكر روسيا-الصين-إيران-سوريا. ومعسكر أمريكا-الخليج-تركيا، ثم سار العالم العربي نحو الدمار الشامل (حروب من كل نوع دينية واتنية ومذهبية وعرقية وثقافية). ترافقت تلك الحروب الساخنة مع حروب باردة في

قاعات المفاوضات بين الغرب وإيران. كانت الأمور تسير جنبا إلى جانب، وكان جنود الجبهة يتلقفون من حين إلى آخر أخبار المفاوضات فيما كان المفاوضون لا يدخلون إلى القاعات إلا متسلحين بأخبار الجبهات.. وحين تأكد الجميع أن سوريا هي مكان الحل والعقد، وأن لا فرصة للحسم بضربة واحدة، تم الاتفاق بين إيران والغرب.. ومهما قيل عكس ذلك، فإنه لم يكن من المنطقي أبدا أن يقبل الغرب بإيران كقوة إقليمية تمتلك المعرفة والمؤهلات والطاقة لولا استحالة إسقاط سوريا وسحبها إلى المعسكر الغربي -الإسلامي- السني المسيحي/اليهودي!.. والآن حين يقال أن إيران نجحت، فإنه من المنطقي كذلك أن يقال أنها نجحت بفضل صمود الجيش السوري، وكذلك صحوة الجيش المصري وانتفاضات الشعب اليمني.. وذلك جزء من الثمن الذي دفعه العرب في معارك الكبار (دوليين كانوا أم إقليميين).

لقد تغلب الإيرانيون أولا على الأتراك (أعداء تقليديون: صفويون شيعة، مقابل عثمانيين سنة). ففيما كانت تركيا تجني الأرباح عندما كانت تدير سياستها الخارجية وفقا لعناصر ثابتة مع الأنظمة المحيطة من سوريا إلى مصر إلى العراق إلى ليبيا، فإنها عجزت حتى عن الاحتفاظ بتلك الأرباح في ظل انفجار المنطقة.. لقد وضعت نفسها أمام تحديات مثالية سرعان ما اصطدمت بالواقع المتفجر، ولفشلها في التكيف والإدارة الجديدة وتمترسها وراء الجماعات لا مع الدول، كانت إيران أكثر استجابة للاستفادة من ذلك الواقع الجديد. ففي ظل تلك الفوضى تمكنت إيران (المحاصرة دوليا) من التكيف والإدارة عبر أدوات وأذرع وكذلك بانسجام مع حلفائها لاستدراج أعدائها أو خصومها إما للتفاوض أو للتسليم بمؤهلاتها لملئ بعض الفراغات.

في لحظة ما، بدا للإيرانيين انهم المنتصرون في جميع الحالات. ولذلك ازداد تمسكهم بسوريا. فإما أن يعقدوا اتفاقا مع الغرب يعترف بهم كقوة إقليمية، وإما ان يواصلوا مشروعهم النووي فيصبحون مالكين لقوة نووية تضعهم على الخارطة الإقلميمة كقوة رادعة. أما الأتراك فقد أعماهم غرور القوة حتى باتوا فاقدين لها. ولم يتمكنوا من قراءة الأوضاع في ديناميكيتها، حتى باتوا سجناء لتداعياتها المأساوية. لقد كانت تركيا دائما لا تريد أن تقف علانية لمواجهة إيران. كانت تكتفي بالاصطفاف مع أو وراء حلفاء آخرين. وبالتالي، فقد كانت تدرك أن أي نجاح يتحقق على الأرض لابد أن تتقاسمه مع الآخرين.. ولما انظمت إلى مجلس التعاون الخليجي في العام 2008 عبر اتفاقية استراتيجية اقتصادية وأمنية، أدركت إيران أن تركيا التي ستقوى بالخليجيين، إنما هي تسعى إلى مواجهة إيران. وتوضحت أدوار تركيا المزدوجة من خلال موقفها تجاه انتفاضة البحرين. فبينما كانت تناصر انتفاضات تونس ومصر واليمن وليبيا، ظلت تراوح لاحتواء الأزمة في البحرين لمساعدة دول الخليج على الاستقرار. ثم رفعت

من وتيرة الكلام فرفضت أي تدخل خارجي يمس دولة البحرين. وهذا كله أعطى لإيران إشارات واضحة أن تركيا ليست مزدوجة اللسان بل هي مزدوجة الانتماء وتقف على أرضية هشة. فهي في خدمة المشروع الأطلسي الكبير، وهي في خدمة الرجعية الوهابية ثم هي في قلب الفوضى الشيعية - السنية - الكردية - التركية..

وفق هذا الاصطفاف المتناقض (الديني/القومي/الدولي) وهذا الوعي المتبادل بمجالاتهما الجيوبولتيكية، تبدو سوريا أرض صراع بين إيران وتركيا ويبدو معها نظام الأسد المحطة المفصلية لهذا الصراع. فإذا نجا نظام بشار الأسد الذي يجمع بين مكونات كثيرة (علمانية ، شيعية، قومية) فإن تركيا ستكون في مأزق داخلي وخارجي إقليمي ودولي. وتكون خياراتها في تراجع لسنوات عديدة. وفي المقابل تكون إيران قد حققت التوازن الإقليمي والدولي (بقاء دمشق في قلب المعادلة الجيوبوليتكية الجديدة مع الاتفاق النووي). أما إذا تم إسقاط نظام بشار الأسد، فإن إيران قد تتراجع في نفوذها الجيوبولتيكي ولا تستطيع تعويضه إلا بالتشدد إزاء نفوذها في العراق وكذلك مع ما يمنحها الاتفاق النووي من تفوق ومكانة. ومن غير المتوقع أن تترك إيران حليفها في دمشق يسقط، وإلا فإنها سترتكب فعل الخيانة تجاه حلفائها وتجاه الشيعة وكذلك تجاه نفسها. فقد دفعت الكثير ودفع معها العرب الكثير من أجل أن تصل إلى هذه الدرجة من التفوق.. وهو ما ينطبق على روسيا أيضا. لقد منحت سوريا بصمودها فرصة لروسيا لكي تستعيد زمام المبادرة في منطقة الشرق الأوسط. فالتحالف الرو- سوري قد قلب الأوليات على الأرض ودفع باشتراطاته إلى الأمام ووضع الحلف الأطلسي وجها لوجه مع استحقاقات المجال الأوراسي الجديد.

*** *** ***

إن نظام دمشق لا يقاتل من أجل الحكم فقط، أو من أجل سوريا فقط. بل هو يقاتل بالنيابة عن الأمة العربية جميعها وجنبا إلى جنب مع البديل الأوراسي الناشئ. إن مصيره سيحدد مصير المنطقة برمتها من العراق إلى الجزائر مرورا بالخليج ومصر. وإذ تبدو تركيا وإيران في سباق محموم مع الزمن للتأثير في التحولات على رقعة الشطرنج الإقليمي وهما يستخدمان أدواتهما وإمكانياتهما ونموذجهما السياسي بما يتناسب مع رؤيتهما، فإن العالم العربي يبدو معلقا وسيظل كذلك لحقبة أخرى على نتائج الصراع التركي/الإيراني. فمن جهة هناك تركيا الأطلسية التي تتبنى الإسلام المعتدل وتقدم نفسها كحامية للديمقراطية والتعددية في العالم العربي وهي تصطف وراء أمريكا والغرب تحت دعوى أنها تمثل السياج القوي أمام تمدد القطب الأورا- سيوي. ومن أخرى هناك إيران التي تتبنى الإسلام المقاوم والديمقراطية الأهلية

وتدافع عن تحرير فلسطين وتعارض وجود إسرائيل وتعمل من أجل إنهاء أو الحد من الهيمنة الأمريكية-الغربية. وبين هذين النموذجين يجد العرب أنفسهم منجذبين إلى النموذجين بتفاوت وكذلك بتميزات وانجازات مرضية في حين ومنطقية في حين آخر. وتبدو الحالة المصرية مثالا على ذلك..

فما لا تدركه مصر جيدا ربما أن سوريا إنما تقاتل بالنيابة عنها. إن اللوحة في مصر تشبه الكلمات المتقاطعة. فالجنرال السيسي يبدو كما لو أنه عبد الناصر ولكن بلا مشروع قومي كبير وتبدو معه مصر كما لو أنها تركيا بلا طموح. فهي ممنوعة من التمدد نحو الشرق. وحفر قناة ثانية إلى جانب قناة السويس يعطي انطباعا بأن مصر ستكتفي بالانكفاء على نفسها والدفاع عن شبه جزيرة سيناء. وفيما كانت مصر مندفعة نحو «مشروع بناعربي» مضاد للرجعية الإسلامية في الخليج، تبدو الآن وكأنها مصطفة وراء المشروع الخليجي تحت قيادة السعودية. ويرتكز الخطاب المصري الآن على ثلاث آليات: الجيش الذي أخرج البلاد من الفتنة الإخوانية (انظم الجيش في ثورة 25 يناير إلى الشعب ثم انظم الشعب في ثورة 30 يوليو 2013 إلى الجيش) ثم الاعتماد على تجربتها ورصيدها من القوة الناعمة ثم التحالفات مع دول الخليج. لكن المأزق المصري يوجد بالأساس في تلك الآليات الثلاث التي لن تجعل من مصر دولة إقليمية قوية كما هو الحال بالنسبة لإيران أو تركيا. فحكم الجيش سوف يستنفذ كل مواهبه ثم يجد نفسه في الطريق المسدودة أمام الديمقراطية بحيث قد يصبح السيسي عبارة عن كنعان ايفرين تركي والقوة الناعمة التي تمتلكها مصر قد تتآكل في محيط يناصبها العداء من كل صنف، سواء في السودان وأثيوبيا (حرب النيل) أو في ليبيا (حرب النفوذ مع الأوروبيين والأتراك) أو في سيناء (إخوان حماس ومعهم إسرائيل). أما التحالفات مع الخليج، فإنها غامضة ولا يعتد بها. فبينما نجد تركيا حليفا للسعودية نرى أن علاقات مصر متدهورة. وبينما نرى دول الخليج منسجمة إلى حد ما مع مصر، نجد قطر كرأس حربة ضد الحكم في مصر. وبينما يتفق الخليجيون على ما يسمى بـ«حرب الشرعية في اليمن»، نجد مصر بصدد مراجعة مواقفها من حرب اليمن. فهي ترفض أن تحارب أو حتى تتضامن مع أعدائها في أنقرة والدوحة، في ما يسمى بالحلف العربي الذي يحارب في اليمن..

وبقدر ما تنظر مصر إلى تركيا بعيون الريبة، بقدر ما ترى في إيران «تهديدا» لدورها في المنطقة. إن كل من تركيا وإيران لا يحظيان لا بالترحيب ولا بالتفاهم المصري. وإذ تعتقد بأنها الدولة العربية الوحيدة المؤهلة لمواجهة المشروعين التركي والإيراني، إلا أنها لا تجد نفسها في موقع القيادة. فالسعودية ما انفكت تسحب منها تلك الأهلية بفضل الأموال والتحالفات الدولية. وإسرائيل ما انفكت تقف أمامها

كحاجز ترابي يمنعها من التمدد نحو الشرق. وفلسطينيو غزة لا يساعدوها على ذلك بسبب «حربها على الإخوان»، وجيرانها في الجنوب (السودان) أو في الغرب (ليبيا) لا يبادلونها نفس الرؤية، وإلى جانب ذلك كله، فإن مصر نفسها لم تساعد نفسها كي تتقدم إلى مقدمة القيادة أو تنظم إلى البديل الجيوبولتيكي الأوراسي الناشئ!..

منذ سقوط مبارك تسابق الأتراك والإيرانيون والسعوديون لكسب ودّ مصر. وفرش السجاد الأحمر أمام الرئيس مرسي في طهران وأنقرة والرياض. وبدت الفرصة سانحة لكي تصبح مصر في موقع المتكلم باسم العرب في هذه العواصم وفي غيرها. ولكن «الإخوان» فشلوا في التقاط تلك الفرصة بسبب طيشهم السياسي وعداوتهم مع المشروع العربي وعدم فهمهم لما يجري حقيقة في سوريا. وما فشل فيه الإخوان، فشل فيه الجنرال السيسي حتى هذه اللحظة. فهو متردد مرة ومنحاز للسعودية مرة أخرى وثالثا مبهم تجاه إيران وغير حاسم مع سوريا ورابعة «مغلق» تجاه تركيا.

إن مصر بالتأكيد تمشي نحو مستقبل ما. ولكن الذين يحكمون مصر حاليا لا يعرفون إلا قدرا ضئيلا إلى اين هم سائرون. «إن مصر مرهقة على رأي هيكل*30 والعالم العربي يشعر بالفراغ. ومن الصعب وجود من لديه الإرادة المستقلة كما في إيران. وإذ تبدو المنطقة الأغنى هي الخليج والمنطقة الأهم هي مصر والشام، والمنطقة المبعدة هي المغرب العربي، فإن الأمل قد يبدو حتى لغير المتشائمين صفرا».. ثمة عالم قد انهار بقوالبه ومفاهيمه وسياساته. وثمة عالم آخر لم يظهر بعد في المنطقة العربية. ولكن من المفيد أن نقول كذلك أن العالم الذي انهار لم ينهر كله وأن العالم الذي سيولد لم يظهر منه إلا القليل.. ومن المفترض أن تعرف مصر بإمكانياتها وتاريخها على الأقل شكل ذلك العالم الجديد الذي سيقام في المنطقة العربية.. إن مصر المرهقة قد تبدو كما لو أنها لا تريد أن تعرف. بل هي ترغب أن تستفيد من أجواء الاختناق ماليا واقتصاديا في انتظار ما ستؤول إليه الأمور. أما السعودية فهي تغرق شيئا فشيئا نحو عادة الحروب والتدخلات. وفي اليمن ستختبر قدراتها وستجد نفسها في النهاية غير قادرة لوحدها على تحقيق أي «نصر نهائي» سواء في اليمن أو في غيرها.. ويمكن لمصر والسعودية أن يبنيا تحالفا عربيا قويا وموسعا لمواجهة الصراع التركي والإيراني، ولكن من المحتمل أن يتخاصما في منتصف الطريق بسبب القيادة أو التوجهات أو الرؤية.. وهناك شيء وحيد يجعلهما متحدين هو، إما التهديد الخارجي الكبير (داعش) أو التسليم بالقيادة الأمريكية/الروسية. وبما أن المنطقة تحتاج إلى نظام إقليمي جديد، فإن أمريكا هي التي ستشرف على توزيع المهام بدقة على حلفائها المصريين والإسرائيليين والأتراك والسعوديين. أما روسيا فسوف تضمن حصص حلفائها. وهنا قد تحصل إيران على حصتين مقابل كل حصة لهذه البلدان.. حصتها كدولة إقليمية ذات نفوذ. وحصة سوريا

والعراق واليمن كأرض خصومات وكذلك حصة حزب الله. وآنذاك بإمكاننا أن نرى مجالين كبيرين يخيمان على منطقة الشرق الأوسط. الأول هو المجال الأمريكي/الغربي. والثاني هو المجال الأوراسي الشرقي.. إنها عودة إلى أجواء الحرب الباردة ضمن توزيع جديد وبإيقاعات جديدة.. يمكننا القول أن لعبة الشطرنج الكبرى قد بدأت. وفي هذه اللعبة الخالية تماما من الحظ، عليك أولا أن تسيطر على الوقت وعلى نفسك وعلى خصمك بعدم إشعاره أنك المنتصر لكي تتخلص من «الملك» أو تجعله يموت مخنوقا!..

*** *** ***

سوف تتخلص أمريكا والغرب كله من ضغط الطاقة في بلدان الخليج العربي (خاصة السعودية). فآبار الشيست الأمريكية قد بدات تشتغل بطاقة عالية. ويتوقع أن تصبح أمريكا مرة اخرى مصدرة للنفط مع حلول العام 2017. كما أن دخول إيران أو عودتها إلى أسواق الطاقة سيضعف من الاعتماد على نفط السعودية. وببساطة ليست هناك جائزة على الارض أكبر من قطاع الطاقة الإيراني (نفط وغاز). وهذا ما يفسر جانبا كبيرا من الاتفاق النووي. إن عيون الغرب الجائعة إلى الطاقة تكاد تخرج من وجوه أصحابها وهم يركضون إلى إيران للحصول على حصص من النفط والغاز. وقد تكون شروط إيران لا تتمتع بالجاذبية لدى هؤلاء، ولكنهم في النهاية سيتحررون من الأسعار العالية التي اجتاحت العالم قبل نحو خمس سنوات. فالمنافسة ستكون على أشدها، والدول النفطية ستكون مضطرة لمراعاة الأسواق، وقد أبدت شركات دولية كبرى مثل «شال» و«بي بي» و«توتال» و«ايني» إهتمامها ورغبتها في ضخ الأموال والاستثمار في حقول النفط والغاز الإيرانية حالما يبدأ العمل باتفاق فيينا (بعد سبتمبر 2015).

إن المشكلة ليست في تدفق الأموال والاستثمارات ولا حتى في شروط إيران التي ستتحسن وتصبح جاذبة، ولكن في الفائض (سماه مدير شركة توتال باتريك بوانيه بالفيضان) من النفط الذي سيظهر في الأسواق[*31]. فلدى إيران حاليا نحو 40 مليون برميل من النفط المخزن في ناقلات ينتظر مشترين فوريين. ثم إن هناك نية لدى إيران في رفع سقف إنتاجها لتعويض خسارتها السابقة وهذا سيتطلب منها معركة مع الأوبيك قد تصل إلى تفكيك المنظمة أو تقسيمها إلى منظمتين: واحدة تضم بلدان الخليج ونيجيريا. والثانية تضم إيران والجزائر وفنزويلا مع بلدان أخرى جديدة ومناهضة للاحتكار السعودي..

سوف تعمل إيران بكل جهودها لكي تعود إلى سابق إنتاجها. ورغم الحصار الذي أثر على تكنولوجيا النفط لديها، إلا أنها من المحتمل أن تصل إلى إنتاج حوالي أربعة ملايين برميل يوميا، أي أكثر بقليل من حصتها في الأوبيك ويضاعف ثلاث مرات

ونصف من إنتاجها ومبيعاتها الحالية. وهنا سيجد الأوروبيون أنفسهم أكثر انسجاما مع تدفق النفط الإيراني. فالمنتجون الأمريكان يتخوفون من انهيار الأسعار. وقد حذرت السيناتوره «ليزا موركوفسكي» رئيسة لجنة الطاقة في مجلس الشيوخ في (يوليو 2015) من أن النفط الإيراني الجديد سيأتي على حساب المنتجين في أمريكا. ولكن من المحتمل أن تجد أمريكا طريقة جديدة في انخفاض مخاوف المنتجين الأمريكان، وذلك حين يتعطل إنتاج النفط في كل من نيجيريا وليبيا بسبب الحرب. فبوكو حرام في نيجيريا وداعش في ليبيا إنما هما أدوات إرهابية لتعديل منسوب النفط وتعديل أسعاره! وثمة تشريع آخر لابد أن تقوم به أمريكا قبل أن ترفع الخطر على النفط الإيراني هو أن يصبح المنتجون الأمريكان قادرين على تصدير نفطهم إلى السوق العالمية مما يتطلب إلغاء قانون المنع الذي فرض عليهم مباشرة بعد الخطر النفطي الذي وضعته أوبيك في عام 73 خلال حرب أكتوبر.

وفي حين يخيم القلق على المنتجين الأمريكان والسعوديين بسبب عودة النفط الإيراني، فإن الأوروبيين يجدون في ذلك متنفسا من الاختناق الذي أحدثته أزمة أوكرانيا مع الغاز الروسي. فبعد استيلاء روسيا على شبه جزيرة القرم في العام 2014 وما تبعها من تداعيات في شرق أوكرانيا، ارتفع منسوب القلق لدى الأوروبيين. ولكن هاهم يجدون في إيران البديل لروسيا. نكاد نعثر هنا على عنصر الربط بين ازمة سوريا وأزمة أوكرانيا وحصار إيران. ويمكن أن يقال أن الاتفاق مع إيران قد عجلت في إنجازه الأزمة الأوكرانية، وأن روسيا قد تكون «خاسرا» من رفع العقوبات على إيران. ولكن من المحتمل أن يرتفع كارتل جديد يضم روسيا وإيران والجزائر وفنزويلا قد تلتحق به قطر من شأنه أن يدير توزيع الغاز عبر حصص متناغمة.. إن الأمريكان لا يرغبون أن يقفز الأوروبيون من حضن روسيا إلى حضن إيران. وبدون شك فإن إيران ستكون مصدرا جذابا للأوروبيين، ولكن إيران لن تعمل بالضد مع روسيا، لأن إنتاجها من الغاز لا يؤهلها للمزاحمة الروسية ثم للعلاقات التي تربط هذين البلدين الكبيرين واللذين هما: قاعدة المجال الأوراسي. إن الغاز الإيراني سيذهب في معظمه وإلى سنوات قادمة إلى الاستهلاك المحلي ثم إلى تركيا والباكستان والهند وسلطنة عمان، ولن تعطى لأوروبا إلا حصة صغيرة لا تؤثر على علاقتها بموسكو. يجب أن نفكر كذلك في غاز أذربيجان وتركمنستان وخط الأنابيب الذي سيكتمل مع العام 2018 والذي سيشق أرض الأناضول للعبور إلى أوروبا. وإذا أضفنا إلى ذلك غاز الجزائر القريب من أوروبا وغاز أمريكا (الأولى عالميا في الإنتاج) ثم غاز قطر في الخليج المحاذي لإيران، فإن الكميات الإيرانية من الغاز التي ستذهب إلى أوروبا ستكون قليلة بعكس كميات النفط التي قد تجعل من منافسها السعودي أقل قدرة على المناورة والصمود.

وبدون شك ستكون الجزائر هي بيضة القبان في معركة الأوبيك القادمة (سواء في النفط أو في الغاز)، لذلك فإن كثيرا من الخرائط التي ترسم والقراءات السياسية تضع الجزائر على مشرحة التقسيم. لكن «بيل ستيوارت» صاحب كتاب «حرب نيكاراغوا» لا يعتقد في ذلك البتة. فالخبير السابق في «سي.اي.اي» يرى أن هناك أربعة دول عربية سوف لن تتعرض للتقسيم أو الانفصال وهي تونس ومصر والمغرب والجزائر. أما بقية الدول فإنها تظل معرضة للتقسيم إلى وقت طويل. يعيد هذا الخبير الأمريكي عدم قابلية تقسيم الجزائر رغم مساحتها الشاسعة إلى أسباب تاريخية وجيوبولتيكية. فالماضي الثوري الذي عاشته الجزائر لايزال يلعب دور اللحمة الوطنية بامتياز. فالجزائر هي البلد العربي الوحيد الذي حصل على استقلاله نتيجة ثورة كانت من أكبر ثورات القرن العشرين. ثورة شعب مسلحة ضد حقبة استعمارية دامت نحو 130 عاما. وثمة ميزة أخرى تضاف إلى ذلك هي أن الجزائر: هي الدولة العربية الوحيدة التي خاضت حربا طويلة ضد الإرهاب بداية من العام 1988 إلى نحو 1997 والتي انتهت بهزيمة الإرهاب الديني والانفتاح على التعددية السياسية.. وهذا ما يجعلها متقدمة بنحو عقدين على ما يجري حاليا في البلاد العربية. وتبرز الميزة الثالثة وهي ربما الأهم، أن الجزائر تغلبت على الإرهاب المحلي والمعولم لوحدها وبإمكانياتها الخاصة وبدون أن تسمح للآخرين أن يتدخلوا في شؤونها. إن عقدا من الحرب الأهلية، قد أعطى للدولة الجزائرية خبرة ومعرفة في مكافحة الإرهاب وأعطى حصانة للشعب الجزائري كي لا يتورط في معارك الأحاسيس الفتاكة من أجل الأوهام الدينية. فقبل عملية «شارلي هبدو» في شتاء 2015 في باريس، مرر جهاز المخابرات الجزائري معلومات إلى زملائهم في فرنسا تفيد بارتكاب مجزرة في إحدى الصحف، ولكن الفرنسيين لم يبذلوا الجهد الكافي لمنع ذلك*[32]. وفي عمليات الإرهاب التي تحدث في تونس منذ سقوط بن علي، ما انفك الجزائريون يقدمون خبراتهم ومعلوماتهم لزملائهم في تونس. ولا يخفي بعض رجال الأمن التونسيين بأن نجاحات كثيرة قد تمت بمساعدات جزائرية. وتلعب الجزائر حاليا دورا قياديا فعالا في الحرب ضد الإرهاب بمنطقة المغرب العربي (موريتانيا وليبيا وتونس) كما أن أياديها كثيرا ما تمتد إلى داخل دول الساحل والصحراء لضرب مجموعات الإرهاب المتحالفة مع بارونات التهريب..

إن الجزائر قوية ومتمرسة وحذرة، ولكن محيطها الجيوبولتيكي يبدو هشا وضعيفا بالرغم مما يراه الخبير الأمريكي «بيل ستيوارت». فثروات الجزائر أغلبها تقع في جنوبها أي على باب الصحراء الكبرى وهي تحاذي ليبيا ومالي والنيجر وموريتانيا. وهذه البلدان جميعها ضعيفة وهشة وتحتوي على مهددات داخلية (تقسيم اثني وقبلي،

كذلك إرهاب وعصابات تهريب). وتستطيع الجزائر أن تتغلب عن أي تهديد ينال الساحل أو المدن الوسطى، لكنها ستجد صعوبة في السيطرة على حدودها إذا لم تتعاون مع الدول المحيطة. وفيما عدا تونس وإلى حدّ ما موريتانيا، فإن الجزائر لا تتمتع بثقل سياسي لا في المغرب ولا في ليبيا ولا حتى في النيجر أو مالي. وهذا ما يجعلها عرضة للتلاعب بحدودها الجنوبية. فالجغرافيا الجزائرية الواسعة جدا (2،5 مليون كلم^2) تبدو كما لو أنها عبء على دولتها الفتية والمدينية وعلى شعبها الذي لا يزيد عن 40 مليون نسمة. إن الجزائر المقبلة على فترة انتقالية سياسية قد تجد نفسها قد انجرت إلى جيوبولتيك الدم في منطقة تمتد من المتوسط حتى غابات باماكو ومن موريتانيا حتى حدود بحيرة تشاد ودارفور السوداني. فالقواعد الأمريكية والغربية لم تعد تخفي نفسها لا في جنوب تونس (في نقطة المثلث الليبي-التونسي-الجزائري) ولا في مالي. وقواعد الإرهاب الدولي توجد بالقرب من حدودها في أكثر من بلد. والأمر الأكثر خطورة هو أن ليبيا لاتزال مفتوحة على التكهنات السيئة..

بالنسبة لـ«بيل ستيوارت» وكذلك لزميله «روبين ورايت»[33*] الخبير في العالم العربي/الإسلامي، فإن ليبيا تقع في خط الصدع الجيوبولتيكي مثلها مثل العراق وسوريا واليمن والسعودية. وإذا ما تعرضت ليبيا إلى التقسيم فإن ذلك سينعكس بالأساس على الجزائر وتونس أيضا. وإذا أضفنا مالي إلى لائحة الدول المعرضة للتقسيم: (دولة زنجية عاصمتها باماكو، وأخرى طارقية (أزاواد) عاصمتها تمبكتو) فإن على الجزائر أن تكون جدا حذرة. فهناك دائما غايات ميكيافيللية في الداخل أو في الخارج. ثم أن هناك إغراء لايزال يحوم فوق رؤوس الفرنسيين الذين استماتوا لكي تبقى صحراء الجزائر تحت سيطرتهم. وبما أن عودة الاستعمار قد أصبحت -واقعا سياسيا- في بلدان عديدة، فإن فرنسا ومعها الحلف الأطلسي قد تجد نفسها منساقة مرة أخرى وراء الاستحواذ على غاز الجزائر وثرواتها الطبيعية. فالرئيس الفرنسي السابق (والذي قد يعود إلى الرئاسة بعد عامين) ساركوزي لم يخف ذلك الطمع. وقد صاغ رغبته بلغة قدرية حين قال مؤخرا: «من سوء حظ تونس أنها تقع بين الجزائر وليبيا». وهو ما يعني بلغة الجيوبولتيك رغبة فرنسا في إقامة دولة أو دويلات عازلة جنوب تونس تقوم بعزل الجزائر عن ليبيا وتمتد حتى شمال النيجير لحماية الإيرانيوم ثم تقسم الصحراء الجزائرية لانفصالها عن شمال مالي. وهو ما يترتب عليه نشوء ثلاث كيانات واحدة في شمال النيجر للطوارق وأخرى في جنوب الجزائر - تمنراست وثالثة في شمال مالي (تمبكتو). إن هذا الفضاء الممتد على أكثر من ثلاث دول هو فضاء يسكنه الطوارق وهو يحتوي على ثلاثة أرباع ثروات تلك البلدان الثلاثة. وبإمكان فرنسا أن تحي مشروع دولة الصحراء الطارقية انطلاقا من الأزمة الليبية، لذلك يجد كل مسؤول جزائري من المنطقي أن يتساءل حول معنى الجدار العازل الذي تبنيه تونس

على حدودها مع ليبيا. وما إذا كانت الفكرة قد أملتها ظروف داخلية قاهرة أو أملتها جهات أجنبية قاهرة أيضا*[34]..

إن جنرالات الجزائر متيقظون ويملكون من الخبرات والأموال الكثير. ولكنهم لازالوا متقاعسين أمام الخرائط الجديدة التي تعدّ للمنطقة. إن رقعة الشطرنج ما انفكت تقع تحت أرجلهم إلى حدّ يشعرون فيه بالمتاهة وما يسمعونه من حكام المنطقة أو من ميليشيات المنطقة أو من زوار أوروبا والأمريكان لا يعدو أن يكون ذرا للرماد في العيون. فحكام المنطقة إما أنهم لا يعرفون وإما أنهم انتهازيون. أما أوروبا وأمريكا فإن عيونها جائعة تجاه ثروات صحراء ليبيا والجزائر والنيجير ومالي (غاز، نفط، إيرانيوم، طاقة شمسية وموقع جغرافي فريد يجعل كل من المغرب العربي بين فكي الكماشة الغربية من الشمال والجنوب)..

وحتى لو أن الخبير الأمريكي «بيل ستيوارت» قد استبعد سيناريو تقسيم الجزائر إلى دولتين (في الشمال وفي الجنوب)، فإن الوقائع والإحداثيات (آخرها زيارة ساركوزي لتونس والمغرب، جويلية 2015) ثم المذبحة التي تمت في غرداية بين (السنة والأباضيين) تفيد بأن الماكينة قد بدأت تشتغل.

ورغم أن الأجهزة الفرنسية لاتزال تتعاون مع زميلتها في الجزائر في مجالات المراقبة وتبادل المعلومات ومخابر الجريمة المنظمة في بلدان الساحل والصحراء. ولكن لا توجد بينهما أية رؤية مشتركة لمستقبل ليبيا المجهول. فمفهوم الربيع العربي لدى الغرب ترفضه الجزائر تماما وتعتبره «رياحا عاتية» قد هبت على العالم العربي لاقتلاع أركانه. وهي إذ عرفت كيف توقف تلك الرياح على حدودها، فإنها لا تعرف كيف تنقذ جيرانها على الأقل من الضياع. فهذا الربيع لايزال في رأي الجزائر الرسمية أجندة غربية الهدف منها خلق بؤر توتر ناشطة ومستمرة لتهيئة الأرض والأجواء وحتى النفوس لخارطة جديدة قد لا تستثني الجزائر. إن موسكو ما انفكت تحذر أصدقاءها من هذه الخارطة الجديدة، ولكن ما تفعله موسكو في الصباح تمسح أثاره باريس وواشنطن في المساء. وهكذا فإن الجزائريين لا يعرفون من يجب تصديقه. وفي نفس الوقت لا يعرفون ما إذا كانت بلادهم ستكون من ضمن الخارطة الجديدة للشرق الأوسط الكبير، أو أن المسألة تتعلق فقط بدول المشرق العربي وليبيا فقط!..

*** *** ***

إن الحديث المتكرر والمتواتر عن تقسيم العالم العربي إلى وحدات سياسية جديدة يعود إلى ما قبل احتلال العراق 2003. وهو في الأصل مشروع أمريكي/أطلسي

يعود إلى الخمسينات ثم استيقظ وازداد حدة مع هبوب رياح الربيع العربي. والآن فإنه من الصعب أن يتخيل الأمريكان عودة اليمن إلى وحدته أو حفاظ سوريا على وحدتها الوطنية أو استعادة بناء الدولة العراقية أو استرجاع الدولة الليبية من يد الميليشيات. بل يصعب على الأمريكان القبول بالحدود السعودية الحالية أو حتى بخارطة الجزائر الحالية. وكما تم تقسيم السودان على اسس إثنية في انتظار أن يتجزأ ما تبقى من السودان إلى دويلات أخرى في دارفور وكردفان، فإن استخدام مصطلحات شيعية - سنية - مسيحية - يزيدية - أباضية في الإعلام الغربي لا تترك مجالا للشك بأن الغرب لن يتصالح مع العالم العربي/الإسلامي إلا إذا انتهى وجوده على قاعدة البعثرة الدينية والمذهبية. وهكذا يكون «المسلمون المتأسلمون» قد قضوا على العرب والإسلام!

إن النظام العربي لم يعد يعمل. لقد تم بعثرة الجامعة العربية وكذلك بعثرة نصف دزينة من أعضائها. وقد كان هناك من يدعو إلى إصلاحها منذ التسعينات لإدراكه أنها منظمة خالية من الروح والفاعلية ولكن الذين كانوا يتحكمون في آلياتها لاستخدامها كأداة لسياساتهم كانوا يعارضون أي اقتراح بتجديدها أو إصلاحها. وهاهي تنظم إلى صفّ الغزاة الأجانب منذ التسعينات حين شرعت للتدخل الأجنبي في العراق. والحصار على ليبيا ثم باركت تقسيم السودان ثم أعطت الضوء الأحمر للحلف الأطلسي لغزو ليبيا في بداية العام 2011 وأخيرا حين قطعت العلاقة مع سوريا ورمتها كقطعة لحم للكلاب، كل الكلاب الجائعة! وطبيعي فإن جامعة عربية تنطق بالأنكليزية منذ ما يزيد عن 70 عاما وتشرب من آبار النفط، قد حان الوقت لدفنها في كل الحالات. فنظام عربي جديد على خرائط جديدة يحتاج إلى إطار جديد. ولكن يجب ألا يبلغ بنا التفاؤل إلى حدود «اتحاد عربي» على شكل الاتحاد الأوروبي ولا حتى على شكل الاتحاد الإفريقي ولا حتى على شكل رابطة الدول الآسيوية. ففي أقصى الحالات سيبعث إطار «خنثوي» ومبهم لفض النزاعات ومراقبة الحدود والاعتراف بالخرائط الجديدة غير مكلف لا بالدفاع عن فلسطين ولا بالدفاع عن السيادة العربية ولا حتى بالدعوة إلى بناء سوق عربية!.. إن عدد الدول التي ستنظوي تحت هذه الجامعة الجديدة سيرتفع. وهو ما سوف يزيد من المشاكل التنظيمية واللوجستيكية. ولذلك من المحتمل أن تنشأ جامعة لاتحادات الأقاليم (الخليج - المشرق العربي - المغرب العربي). أو يصار إلى بعث جامعتين عربيتين، الأولى تضم حلفاء الحلف الاطلسي والثانية حلفاء روسيا وإيران.. ولو صدقنا ما ينشر حول التقسيمات التي ستطال الدول العربية، فإن أعضاء الجامعة أو الجامعتين سيرتفع إلى أكثر من ثلاثين دولة بدلا من 22 دولة. إن الصومال نفسه قد أصبح دولتين (الصومال وصوماليلند). كما يمكن أن يصبح تشاد دولة عضوا (وهي

مرشحة منذ مدة) وكذلك اريتريا للخروج من عزلتها. أما اليمن فلا يبدو في الوقت الحالي أنه سيتجاوز محنة التقسيم. فالسعودية لن تفرط في عدن التي «حررتها» من قبضة الحوثيين ولا في باب المندب الذي يشكل المدخل الرئيسي لموانئها على البحر الأحمر.. وإذا ما صدقنا ما جاء في «نيويورك تايمز» بقلم المحلل في الجيوبولتيك، «روبن ورايت» Robin Wright ، فإن الخارطة الجديدة للشرق الأوسط الجديد هي بصدد رسمها على إيقاعات الحرب وعلى نحو بطيء لملامسة الإشكاليات وفهمها واستيعابها. فالعربية السعودية والعراق وسوريا واليمن وليبيا، يمكن أن تنفجر إلى 14 كيانا دون أن ننسى إمكانية نشوء بضعة دول - مدن (على الطريقة الإغريقية القديمة) في مصراتة الليبية وربما في سيناء المصرية وغزة الفلسطينية.

إلى جانب انفجار الكيانات العربية، فإن احتمال دولة كردية بين سوريا والعراق أصبح واردا. وتركيا لا تخفي ذلك الهاجس منذ أن أصبح الأكراد يقاتلون داعش ويدافعون عن أرضهم. كما هي تتخوف من نشوء كيان كردي آخر يشترك فيه أكراد سوريا وتركيا. أما سنة سوريا والعراق (من تدمر حتى الفالوجة) فإنهم قد يشكلون دولة سنية على شاكلة دولة الأردن. ويمكن كذلك أن يضطر علويو سوريا إلى تكوين دولتهم على شاطئ المتوسط، وهذا ما يزيد من خوف تركيا على «علوييها» في لواء الاسكندرون. أما الدروز فقد يصبحون كيانا مستقلا تحت الرعاية الإسرائيلية. ومن أجل إكمال الرسم التخطيطي لهذه الخارطة الجديدة لن تفلت ليبيا من التقسيم إلى ثلاث كيانات (جنوب، غرب، شرق مع إمكانية مدينة/دولة في مصراتة) كما قد تتعرض الجزائر إلى تقسيم (شمال - جنوب) لخلق دولة عازلة مع ليبيا ومنفتحة على الطوارق الذين هم أيضا يصبون إلى دولتهم. وقد تمتد العدوى لتخرج الصحراء الغربية ككيان مستقل وتصبح موريتانيا دولتين واحدة للبيضان وأخرى للحراطين والزنوج.

إن الغابة العربية ستزداد توحشا طالما هناك وحوش يتقاتلون من أجل تقسيمها والاستحواذ على ثرواتها. ولكن تلك الوحوش إنما هي أدوات بأيدي وحوش أكبر منها. ففي هذه الغابة الكثيفة والفسيحة والغنية تجري مواجهة عنيفة بين الإمبراطورية الأطلسية بقيادة أمريكا وبين القطب الأوراسيوي بقيادة روسيا. إن ما يسمى بالشرق الأوسط قد يأخذ اسما آخر، الشرق الأوراسي كجزء من القطب الأوراسي الكبير. لقد أدار الغرب الأطلسي العالم لوحده لمدة عقدين (من عام 1991 إلى العام 2011) وحين انفجرت الأزمة في ليبيا ثم في سوريا، استيقظت روسيا ومعها الصين من غفوتهما. انخدعتا بلعبة مجلس الأمن مع ليبيا حين لم يعترضا على قرار 1973 لحماية المدنيين. وفي حالة سوريا رفعتا الفيتو لأربع مرات متتالية. لم تفهم واشنطن في البداية فحوى ذلك الفيتو الصيني/الروسي ونظرت إليه معظم الدول كمساومة سياسية. ولكن في

النهاية أدركت واشنطن أن موسكو وبيكين قد قررتا عدم الانصياع لما يسمّى بالمجتمع الدولي في كتاب الإمبراطورية!..

*** *** ***

كانت سوريا نقطة نهاية لعاصفة الربيع العربي. وكذلك نقطة نهاية للهيمنة الأطلسية. ولو سقط النظام في سوريا، فإن العاصفة كانت ستستمر وكذلك الهيمنة. في ذلك الوقت كان الروس يقتربون من الصين ويبنون رابطة «البريكس» ويدعمون إيران ويتهيؤون لأي احتمال سيء على حدودهم. وحين فتحت الجبهة الأوكرانية، سارع الروس وبضربة واحدة وموجعة أن يرسموا حدود قوتهم وقوة أعدائهم. لم يساوموا على سوريا بالانفراج في أوكرانيا ولكنهم ضموا شبه جزيرة القرم وتركوا أوكرانيا تحت شتاء قارس، أكثر قسوة من شتاء هتلر حين اجتاح أراضيهم في العام 1943.

إن مشكلة أمريكا في العالم العربي أنها لم تعثر على حلفاء جيدين وتقدميين في كل تاريخ تدخلاتها. ورغم كونها قوة طلائعية وحداثية إلا أنها لا تتعاون إلا مع الرجعيين وحتى السفلة مثل المافيات والمنظمات الإرهابية وهذا ما أكسبها العداء الشعبي في البلاد العربية قاطبة.. وكثيرا ما يدرك التقدميون العرب أنهم خاسرون في معاركهم مع أمريكا، إلا أنهم يصرون على الكرامة أكثر مما يحرصون على الانتصار. وحتى عندما أدركت أمريكا تلك الفجوة الحاصلة بينها وبين الشارع العربي، لم تجد مع من تتعاون لردمها إلا «الإخوان المسلمين». وهؤلاء مصنفون كرجعيين ومتخلفين في الشارع العام. وما إن أوصلوهم إلى الحكم خلال عواصف الربيع حتى تخلوا عنهم الواحد تلو الآخر.. وهذا الاستخدام الذرائعي الرخيص أصبح شبه قاعدة سياسية لدى الأمريكان. فـ«القاعدة» كانت من اختراعهم ثم تخلوا عنها. فحين تتم مهمتها ترسل الطائرات إلى تحطيمها.. والمنظمات السورية المقاتلة هي من اختراعهم، ولكنها الآن لم تعد صالحة ويجب تحطيمها واستبدالها بمقاتلين معتدلين (استعدادا للمفاوضات) وكذلك كان الشاه في إيران وماركوس في الفيلبين ونوريغا في البنما والكونترا في نيكاراغوا و«مجاهدي الشعب» في إيران..

إن الوجود الأمريكي في المنطقة العربية قد يبدو ساحقا ومهيمنا، لكنه في حقيقة الأمر هش ومعرض للتهشيم. ومن المحتمل أن تظل أمريكا رهينة هذا الوضع الرجراج لأكثر من عقد آخر إذا لم تغير من سياستها وتقبل بنصيب من الهيمنة وليس بالهيمنة الشاملة. إنه من الصعب أن تتحسن صورتها أو تجد حلفاء جدد تقدميين في العالم العربي يدافعون عن نفس المبادئ والقيم والحداثة.. إن الانحطاط الأخلاقي لدى أمريكا قد جعلها دائما تقف ضد التقدميين إلى جانب الرجعيين بإسم شعارات لا

معنى لها. فالتدخلات العسكرية الإنسانية قد جعلتها تقتل الشعب وتدمر الدولة (درجة مرتفعة من الإمبريالية). فقد كشفت لنا الوثائق والمذكرات بأن صدام حسين لم يكن يتعاون مع «القاعدة» ولم يكن يملك أي سلاح نووي أو كيمياوي ومع ذلك وقع غزو بلاده واجتثاث جيشه وقواه التقدمية. كما ذكرت لنا بعض المذكرات*35، أن القذافي كان على اتصال مع البنتاغون والاليزية استعداد للتنحي الحر وتشكيل حكومة انتقالية. ومع ذلك فقد تم تدمير بلاده وقتله شخصيا في رابعة النهار تحت دعوى حماية المدنيين. (كانت هيلاري كلينتون التي أخفت على أوباما المفاوضات التي تمت مع القذافي عبر وسطاء، تضحك حين أبلغت بقتل القذافي.. وفي رد صاعق تم قتل السفير الأمريكي بنفس الطريقة في شوارع بنغازي)*36.

ومن الممكن أن نسأل الآن بعد خمس سنوات من انفجار الربيع العربي: ماهي الثورة التي نجحت في كل بلاد الربيع.. أو ما هو البلد الذي خرج سالما أو أكثر انتفاعا مما كان عليه في السابق؟ سيذهب الجميع إلى الجواب البسيط والسهل: تونس.. ولكن لنتكلم بوضوح: هل الاقتصاد التونسي أفضل مما كان عليه؟ هل مستوى الحريات أفضل؟ حالة الطوارئ متكررة. وقانون الإرهاب القديم لعام 1978 أصبح أكثر فاعلية وغطرسة؟ هل قدر الشعب أن يقوم بثورة من أجل الديمقراطية فيخسر السيادة الوطنية؟ كم ارتفع منسوب الإرهاب بالنسبة لزمن بن علي؟ هل تقوم الشعوب بثورات الكرامة ثم تستدعي وتستضيف القواعد الأجنبية؟ وكيف يمكننا أخذ تونس كمثال ناجح، وهي التي عادت في خطابها السياسي وأساليب حكمها وتخلف إدارتها أكثر من نصف قرن إلى الوراء؟ إن صناعة الديمقراطية الأمريكية في العالم العربي ليست إلا خدعة بصرية. والمثال العراقي يؤكد ذلك. فأكبر البلدان المنتجة للنفط لاتزال بلا كهرباء منذ عشر سنوات. أما المثال التونسي فيمكن أن نجده في نصوص الدستور ولكننا لا نجده أبدا في الشارع. فلا البطالة تناقصت ولا البوليس تراجع عن أساليبه القديمة ولا الأحزاب تحظى بالاحترام لدى الشعب، ولا الشعب يستطيع أن يخرج إلى الشارع ليتظاهر. أما البرلمان فهو جوقة تغني على نفس المقام. إن هذا النوع من الديمقراطية الذي سحب الأوطان من تحت أقدام اصحابها، ليست له أي علاقة بما كان ينتظره الشعب في البلاد العربية. إنه ينتمي إلى أدوات أخرى لتدمير البلاد العربية وتهميش نخبها وسحق آمالها ومصادرة سيادتها وثرواتها. (أعطني بيتك.. وسأعطيك بدلا منها دراجة تتجول بها).

في العراق استبدل الأمريكان السنة بالشيعة والجيش بالميليشيات والقاعدة بداعش. وثمة دائما ما يبهر العيون. وفي البحرين ساندوا التمرد الشيعي وفي نفس الوقت دعموا السلطة السنية مع توجيه بعض النصائح. وفي اليمن دعموا الإخوان ضد حكم

علي صالح ثم دعموا الحوثيين ضد خليفته منصور هادي بعد ذلك دعموا التحالف السعودي ضد الحوثيين والرئيس صالح ولم نسمعهم قط يندوون بالقصف السعودي العشوائي أو يدعون لحماية المدنيين اليمنيين.. وفي مصر كانوا يدعمون مبارك ثم دعموا الإخوان وتمسكوا قليلا بالرئيس مرسي ثم انحازوا إلى الرئيس السيسي. وكذلك في تونس. كان بن علي رجلهم ثم انقلبوا عليه لصالح الإسلاميين. دعموا هؤلاء لفترة ثم عادوا ليتحالفوا مع رفاق بن علي وأبناء بورقيبة. يمكن أن نجد منطقا في ذلك هو أن البرغماتية الأمريكية لا حدود لها، ولكن الدولة، خاصة إذا كانت قوية ومهابة مثل أمريكا عليها أن تكون منسجمة مع حدود دنيا للمبادئ والأخلاق.. كان ديغول رجلا عاقلا ينتمي إلى جيل قديم من السياسيين الذين يعيرون للأخلاق قسطا كبيرا. وقد أعطى مثالا عن سياسة عربية تحظى بالاحترام المتبادل. لم يكن ديغول منسجما مع أغلب أفكار القادة العرب في تلك المرحلة، وكان يعرف أن بعضهم أعداء له، ولكنه كان ينظر إلى الشعوب ويبادلها الاحترام ويستمد منها احترام نفسه ودولته. وتلك هي إحدى مواصفات الرجل التاريخي. أما الأمريكان، والذين كثيرا ما يسخر منهم ديغول فقد دللوا في كل مرة على أنهم «تجار حريات غشاشون وانتهازيون، حتى ولو كانوا تجارا كبارا».. (وهذا بعض ما سجله نيكسون في كتابه «قادة» عن الجنرال ديغول).

في أحيان كثيرة يتساءل المراقبون والمحللون ما سبب هذا التخبط الأمريكي.. فالكاتب «ميشال رانبو»*37 مثلا لا يجد السبب إلا «في إصرار أمريكا على عدم التواضع».. فهاهي منذ أربع سنوات وهي تبث الإشارات بأن بشار الأسد لم يعد له مكانا، وأنه قد يسقط بين لحظة وأخرى.. وفي الواقع لا نرى إلا ضجيجا يصحبه في كل حين تبدل في المواقف كما لو أن الماكينة الأمريكية تعمل بالديزل المعدوم. ومن يكون حلفاء أمريكا في هذه الحرب؟ إنهم قطر الإخوانية وتركيا الإخوانية والسعودية الوهابية والجهاديون السلفيون ثم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). وهذا كله يجري تحت غطاء دعم - الثورة السورية - بلا خجل وبلا ندم. فكما لو أن الثورات في الوعي الأمريكي المزيف هي عودة إلى القرون الوسطى. ومع ذلك ألا يفترض أن للأمريكان حلفاء في أوروبا لهم تجربة عالية في الديبلوماسية؟ ذلك من المفترض، ولكن لا دولة من دول أوروبا قادرة على رفع إصبعها للاحتجاج على أمريكا أو على تصويب خطواتها.. فالأوروبيون أنفسهم عاجزون عن تصويب السياسة الأمريكية. وهم يتعاملون معها على الأرجح بانتهازية مقيتة. يقفون معها ضد إيران. وحين تتم المفاهمات، يهجم الأوروبيون إلى أسواق إيران قبل غيرهم. وكذلك فعلوا مع ليبيا في عهد القذافي بعد أن رفع حصار لوكربي. وآخر مرة قالت فرنسا «لا» معوجة ضد أمريكا كانت في عهد شيراك، وهو أخر أبناء ديغول. أما الآن، فإن - لا - الأوروبية

لا يمكن أن نسمعها لأن التهديد أو التلويح بالتهديد الروسي يظل هو العصا السحرية بيد أمريكا. إلى جانب ذلك فإن أوروبا لا تعرف كيف تكون عملية عند الأزمات. وقد كشفت المسألة اليوغسلافية العجز الأوروبي واستخدمته أمريكا جيدا لتوسيع حلف الأطلسي ووقف التمدد الروسي في وسط أوروبا. وباختصار، فإذا كانت أوروبا قارة كبيرة وقوية، فذلك بفضل أمريكا في جزء كبير منه. أما إذا كانت مولدة للأفكار الكبيرة والرجال الكبار، فإنها الآن بين أيدي أحزاب بيروقراطية تقع كلها تحت المراقبة الأمريكية الشاملة بما في ذلك هواتف رؤساء دولها..

*** *** ***

اتفق الجمهوريون والديمقراطيون على أن الإسلام سلاح فتاك ضد الشيوعية. وقد تم استخدام ذلك جيدا في أفغانستان (الجهاديون السلفيون مع الوهابيين مع كل الجمعيات الإسلامية). بعد ذلك رأوا في مذاهب الإسلام واختلافات المسلمين العامل الحاسم لتدمير الكيانات العربية ذات النزعة القومية من أجل بناء فضاء تسوده الفوضى الإسلامية. ثم استنتجوا أن إقامة حزام أخضر يتشكل من هذه الكيانات الإسلامية (الشرق الأوسط الكبير من أفغانستان إلى المغرب) هو الذي سيحمي أوروبا وأمريكا من التمدد الصيني والروسي.. ظلت إيران هي المشكلة في إقامة هذا الحزام الأخضر. ففي عهد الشاه، كانت إيران هي محور الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط وقد تم التعاون معه من أجل بناء قوة نووية. بعد الثورة انقلبت المعادلة، فأصبحت إيران هي العدو الأول للوجود الأمريكي.. وحين غزت أمريكا أفغانستان ثم العراق، ربما كانت تريد أن تضع إيران بين الكماشة، ولكن الإيرانيين هم الذين باتوا يتحكمون في مسارات النجاح الأمريكي. فهم، أي الإيرانيون لم يتكلموا عن - السلاح النووي - إلا حين أصبح الأمريكان بالقرب منهم. ومنذ العام 2003 أصبح البرنامج النووي الإيراني هو الهمّ الأكبر لكل من إسرائيل وأمريكا.. انحازت واشنطن في البداية إلى إيران لمساعدتها على الخروج من الورطة العراقية، ثم اتجهت إلى السعودية لتوقع معها معاهدة جديدة في العام 2015 لمدة نصف قرن استمرارا لمعاهدة كينسي مع الملك المؤسس في العام 1945[*38]. ومع ذلك فإن الإيرانيين لم يفرطوا في مشروعهم النووي. فقد رأوا فيه المنصة التي سترفعهم إلى مراتب القوة. وفي العام 2009 فكر الأمريكان في قلب النظام من الداخل على الطريقة الأوكرانية. ولكنهم فشلوا، فاتجهوا إلى العالم العربي من أجل إحداث الفوضى وتغيير التحالفات بالقوة وصولا إلى إضعاف إيران.. وبعد نحو خمس سنوات، أدرك الأمريكان أن أفضل طريقة لكسب إيران هي الاعتراف بها والاتفاق معها والتواضع معها..

إن باراك ابن حسين اوباما قد يكون شيعيا حتى يقبل بهكذا اتفاق مع إيران الشيعية! كما يقول بعض خصومه، ولكن أوباما حتى ولو كان كائنا لا دينيا أو هجينا دينيا(إذ نعرف جيدا ما هي ديانته: مسلم وكاثوليكي وبروتسنتي) فإنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك. فهو اتفاق حسب رأيه يمنع إيران من امتلاك القنبلة النووية كما يمنع نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط. في المقابل يضع إسرائيل داخل سياسة الأمر الواقع ويفرض على حلفاء أمريكا من الخليجيين الواقعية والتعايش مع إيران، ويحدّ من الجموح التركي المفرط. وفي النهاية يؤدي إلى الاعتراف بأن سياسة القطب الواحد قد توقفت ويجب التفكير في سياسة الاقطاب المتعددة..

كان يمكن لأوباما في خطاباته الدفاعية عن الاتفاق مع إيران، أن يعتذر لحلفائه الأتراك والخليجيين الذين ورطهم في حروب مفتوحة مع إيران طيلة هذه السنوات. ولكن الأمريكان إذا ما أرادوا الاعتذار لحلفائهم، فإنهم يخترعون لهم عدوا آخر أكثر شراسة.. إن داعش هي التي حلت محل إيران لتسويق سياسة الرعب الأمريكية. فالكل يعرف أن هذا «الكائن المخيف» قد تم تصنيعه داخل ورش حرب الاضداد. والآن فإنه لن ينتهي إلا بتحالف الأضداد. وعليه فإن الجميع: سوريا وروسيا وتركيا وإيران والسعودية وكذلك أمريكا وقطر (الأضداد)، مضطرون الآن للتحالف ضد داعش، لتبدأ أولى الخطوات نحو حل المسألة السورية العويصة..

منذ أواسط العام 2013، تأكد لواشنطن أن روسيا لن تسمح بسقوط النظام في سوريا. الإشارة جاءت من القاهرة حين تم إسقاط الرئيس مرسي. وإذ شعر أوباما بنوع من الإهانة تجاه روسيا التي سارعت إلى تأييد السيسي، ذهب مباشرة إلى أوكرانيا لاعتراض روسيا وإغراقها في مشكل ملاصق لحدودها. ولكن بوتين، القيصر الجمهوري ضرب بقوة وقام بضم شبه جزيرة القرم فازداد أوباما غيضا. لم يكن متأكدا من وجود «جيش روسي صغير» على أراضي سوريا. ولكنه كان يدفع روسيا إلى سحب قواتها وخبرائها من سوريا للدفاع عن حدوده الملتهبة. إخترع الأتراك ضربات الكيمياوي وألصقت التهم بدمشق، وكانت تلك اللحظة المناسبة لتدخل أطلسي سريع للتخلص من نظام بشار الاسد تحت دعوى حماية المدنيين، ولكن في اللحظة التي أطلقت فيها البحرية الأمريكية صاروخين تجاه سوريا، ردت الدفاعات السورية الجوية فأسقطت صاروخا في البحر وتم إعادة توجيه مسار الثاني ثم انتهت الحرب. دامت تلك الحرب دقيقتين فقط وأدرك أوباما أن الحرب ليست شعبية فقط، بل هي خاسرة لا محالة. أما بوتين فقد أنجز عملين جبارين في خلال أسبوعين ودقيقتين: ضم جزيرة القرم ووقف الحرب ضد سوريا.

منذ ذلك الوقت لم يعد أحد يتكلم عن الديمقراطية أو حقوق الإنسان في سوريا.

ولم يعد الربيع العربي مغريا حتى للذين كانوا ينتظرونه. واتضحت خطوط المعركة بالنسبة لكل الفاعلين على الأرض السورية، وخاصة المعارضة المسلحة وغير المسلحة. بدأ الحديث عن حل سياسي على نحو محتشم ثم ما لبث أن اصبح مدخلا لكل خطاب. وأدرك الأمريكان أن الهيمنة المطلقة على الشرق الأوسط وجعله كحزام أخضر ضد التمدد الروسي/الصيني من الصعب إنجازها إذا كانت الصين ترفع الفيتو وروسيا تحمي أجواء وسواحل سوريا وإيران تمدّ سوريا بكل مكونات المقاومة..

ولا شك أن الأمريكان يحتاجون الآن إلى ترويض حلفائهم وكذلك إلى معارضة سورية معتدلة ومقبولة شعبيا.. وغير ملطخة بوصمات العار، وكذلك إلى إيران وروسيا والصين من أجل اجتراح المعجزة في سوريا..

سوف تتداخل الأمور مرة اخرى حين يشرع هؤلاء في تقسيم المهام وتأمين المسار السلمي وتوزيع مناطق النفوذ. وهذا قد يتطلب جولات أخرى من التسخين وارتفاع درجة التوتر إلى حدّ التلويح بالحرب بين موسكو وواشنطن. ولكن في النهاية سيوضع نظام جديد للشرق الأوسط الجديد والكبير إنطلاقا من سوريا، وبالتوافق مع الذين يريدون الشرق الأوسط حزاما أخضرا لحماية مصالحهم والذين يريدون الشرق الأوسط منصة لصعودهم إلى العالمية (القطبية..). ولكن سنوات أخرى، ستمضي قبل أن نرى «القادة الجدد» لهذا العالم الجديد.

*** *** ***

خلال تلك السنوات، سنتعرف على ملامح البناءات الجيوبولتيكية الجديدة. وسنعرف ما إذا كان النظام العالمي الجديد (الذي نادى به بوش الأول عقب انهيار جدار برلين) سيستمر متعثرا تحت قيادة أمريكا ذات القطبية الواحدة، حيث يكون العالم عبارة عن «بركة معولمة» تعيش فيها الشعوب مثل سمك المزارع بلا وجود وبلا زمن، أو أنه سيتحول شيئا فشيئا إلى مجالات متعددة تتقاسم القيادة فيها مع مجالات جيوبولتيكية أخرى تضم الدول المعارضة للعولمة ودول املاءات الأطلسي التقليدية..

من الواضح أن العالم الجديد سيسير أحسن لو أصبح تحت قيادتين تتبادلان «التوافق» و«التسويات» كمنهجية لحلول مشاكلها. ورغم ان عالما بقطبين لم يكن موفقا دائما في السابق إذ كثيرا ما جعل شعوبا أخرى تحت الإبتزاز والهيمنة المزدوجة، إلا أنه أكثر ديناميكية وأقل غطرسة، لذلك سيكون من الأفضل أن يتدرج العالم إلى بناء نظام متعدد الواجهات والأعمدة، يعتمد على ديناميكة جيوبولتيكية إقليمية بديلة، تستطيع أن تتمتع بقدر من الحرية ضمن توزيع المهام في جميع أنحاء العالم.

إن أي جيوبولتيك، كبيرا كان أو صغيرا، إذا كان بديلا أو مقاوما للعولمة أو للقطبية الأحادية، لن تسمح له أمريكا بالوجود أو بالعمل. فمهمتها حتى سنوات أخرى هي محاربة البدائل الجيوبولتيكية. وهي لن تقبل بأي بديل يزاحمها القيادة إلا إذا كانت مضطرة. ومن المحتمل أن تكافح أمريكا إلى آخر جهد لديها حتى لا يظهر من ينافسها على قيادة العالم بأية صيغة وتحت أي دعوى. ولكن من المحتمل أيضا أن تجد روسيا الطريق المؤدية لبناء البديل الجيوبولتيكي. وهذا سيكون أمرا رائعا في البداية خاصة وأنها تخلصت من الإرث الإيديولوجي الماركسي (المضاد للراسمالية). وهو أمر تشاركه فيها الصين الجديدة. وفي هذه الحالة يصبح من المحتمل أن يفتح المجال الأوراسي مجالات أخرى جديدة لبناء «أنظمة إقليمية» تترابط وتتعاون مع قيادة العالم الجديد التي لن تبقى في اية حال من الأحوال تحت الأمريكان لوحدهم.

إذا كان جدار برلين قد سلم القيادة لأمريكا طيلة عقدين من الزمن أو أكثر، فإن سوريا قد أعادت كل من روسيا والصين إلى قيادة العالم. فالهيمنة الأمريكية راحت تخسر منذ أن وقف الروس والصينيون ضد إسقاط بشار الأسد عن طريق الأمم المتحدة.. ثم جاء الاتفاق الروسي مع إيران ليبدأ تاريخ آخر للولايات المتحدة في العالم أو في الشرق الأوسط بالذات. وفي السابق كان يقال أن الحرب الباردة انتهت في العالم، ولكنها لم تنته في الشرق الأوسط وكذلك في جنوب شرق آسيا. فكوريا الشمالية ظلت ملفا حارقا وملتهبا. وقد تمكنت من إنجاز سلاحها النووي تحت «حماية الصين». ولم تكن لتهدأ مسالة تايوان لولا قبول الصين الطوعي بوجود أمة في أكثر من دولة، مما يعني أنها لن تندفع وراء أي عمل عدواني ضد الدولة/الأمة! أما سوريا، الخط الفاصل بين المجال الروسي والمجال الأمريكي، فقد قاومت جميع المشاريع الإندماجية والأطلسية واستطاعت أن تصمد منذ سنوات حافظ الأسد/الأب، إلى أن جاء من يجعل منها مرة أحرة جداراآخر بين الشرق والغرب على منوال جدار برلين.. لقد أذاق الأسد/الأب الويل لكل زعماء أمريكا من كيسنجر إلى كلينتون الذين جاؤوا ليفاوضوه على الاندماج في المربع الأطلسي (إسرائيل، الخليج، تركيا، والعراق الأمريكي*[39]). ثم استمرت محاولات الإغراء للأسد/الإبن. وحين لم تنفع الإغراءات (إعادة الجولان والاعتراف بدور سوريا في لبنان)، تحولت تلك الإغراءات إلى تهديدات ثم إلى حرب دولية أطلسية ضد سوريا كأرض وشعب ودولة..

إذا كان لابد أن يعطى لقيصر ما لقيصر. فإن سوريا التي قاومت ودفعت أثمانا عالية، هي التي أعادت روسيا ومعها الصين إلى الواجهة. ثم إلى قيادة العالم. إن روسيا ما كانت لتظهر بهذه القوة لولا صمود سوريا. كما أن إيران ما كانت لتحقق هذا الاعتراف الدولي بها لولا صمود الحليف السوري.. لذلك فليس من المنطقي أن تصبح

سوريا حليفا طيعا حتى لأكبر حلفائها، وإنما ستكون شريكا كامل الأوصاف في اي بناء جيوبولتيكي متوسط على مستوى المنطقة أو كبيرا على مستوى العالم.

على مستوى المجال الكبير (البديل الأوراسي) ستكون سوريا هي الخط الفاصل بين الأطلسي والأوراسي. فسوريا كانت دائما نقطة لقاء أو تصادم بين الشرق والغرب. فالمغول كقوة شرقية برية هم الوجه الآخر للصليبيين الذين قدموا من الغرب. ويمعنى ما فإنها ستأخذ إسم «برلين الجديدة» كما عليه الحال في الحرب الباردة.. أما على مستوى المجال المتوسط، فإن سوريا ستبقى هي قلب «البديل الإيراني» في معناه الثوري، المقاوم للغرب، والمدافع عن الهوية الثقافية للشرق العربي/الإسلامي..

وإلى جانب ذلك المجال الإقليمي للشرق الأوسط، من المحتمل أن توجد مجالات إقليمية جيوبولتيكية أخرى في أمريكا اللاتينية تحت قيادة البرازيل وإفريقية تحت قيادة حنوب إفريقيا وفي غرب آسيا تحت قيادة الهند وفي شرق آسيا تحت قيادة أندونيسيا، لنجد في النهاية مجالات جيوبولتيكية متعددة تتقاسم المهام ضمن مجالين/ قطبين كبيرين هما: الأطلسي والأوراسي.

إن العولمة الأطلسية لن تستسلم ولن تتشارك في القيادة مع أية قوة أخرى إلا إذا كانت مضطرة. بل ستقاوم وستحاول بكل السبل لتعويض أي بديل أو شريك. لذلك من المحتمل أن تلتجئ إلى تفجير - حروب أهلية - داخل روسيا والصين وحروب أخرى جانبية بين روسيا وجيرانها والصين وجيرانها.. وتملك الولايات المتحدة عدة أوراق في هذا المجال (من خلاف جزر ساخالين إلى أوكرانيا.. ومن مسلمي كازاخستان إلى مسلمي الصين، ومن الخلاف الكوري الشمالي/الجنوبي إلى صراعات خطوط الأنابيب)، ولكنها لن تكون قادرة لا على زعزعة الدولة الصينية ولا على زعزعة الدولة الروسية. فهاتان الدولتان القاريتان/الإمبراطوريتان لهما من الثبات والقدرة ما يجعلهما قادرتين على إحباط أي مشروع يستهدف وحدتهما. إن الضغط الخارجي بالنسبة للصين أو لروسيا سيبقى دائما يحتاج إلى أدوات ولاعبين سياسيين وإيديولوجيين ما فوق قوميين لكي ينجح. وهذا ما قد يبدو، كما لو أنه أمر طوباوي غير طبيعي. ومهما تخيلنا، فإننا لا نكاد نعثر على أسباب حرب أهلية في روسيا. قد توجد صراعات بين أجنحة قومية وأخرى عولمية، «ولكن الروس حين تدق أبوابهم بخشونهة يخرجون بالفؤوس والسكاكين لتقطيع الزوار المشبوهين»*40.. وهذا أيضا ما يمكن توقعه في الصين. فلا المسألة التبيتية ولا المسألة الإسلامية (شعب الاويغور) من شأنها أن تزعزع أركان الإمبراطورية الصينية. أما ما يسمى بالتأثير الغرب/الأطلسي على نخب الصين الجديدة، فهو بصدد أن يتحول إلى ضغط مضاد على الغرب نفسه. فليس هناك ما هو أخطر من أن يملك الصينيون حذاقة الشرق ومعرفة الغرب!..

إن الصين (إمبراطورية الوسط) تبدو في عيون الأمريكان أنها عائدة لكي «تتوسط العالم»*[41] لا محالة. والمسألة توجد فقط في كم ستستغرق رحلة العودة. بل ثمة من يقول أنها عادت فعلا. فهي «إمبراطورية الوسط» في القديم. ولازالت تحتفظ بتلك التسمية إلى الآن. لكن لم يعد كل من يوجد خارج جدار الصين من البرابرة (كما تفعل أوروبا)، بل هم شعوب تريد الحياة والكرامة. إن الصين مثلها مثل أمريكا موجودة في كل مكان في العالم: من إفريقيا إلى أمريكا اللاتينية. لكنها ليست موجودة عبر القواعد العسكرية والبواخر ومراكز الجوسسة والمراقبة، ولكن عبر البنوك والبضائع والمشاريع الكبرى والمتوسطة والاستثمارات والتجارة والأسواق الشعبية..

ثمة من ينتقد الصين ويذهب إلى التحذير من انتشار النموذج الصيني (رأسمالية الدولة الإشتراكية) الذي يحمل إغراءات جديدة للشعوب الأخرى التي تريد أن تتطور. ويربطون ذلك بعدم إحترام حقوق الإنسان والرقابة السياسية وحتى التلاعب بالعملة ويرون في ذلك أن الصين هي الغول الذي سيلتهم العالم بعدما بنته أمريكا. وأن اقتصاد الصين الذي تعولم بفضل العولمة الأمريكية، قد اصبح بديلا للنموذج الغربي. وأن الإمبراطورية الأطلسية المعولمة قد يصبح مركز رحاها في الصين. فالصين الذي يعتقد كسينجر «أنه فتحها فتحا» في العام 73*[42]حين قام نيكسون بزيارة ماوتسي تونغ وذلك لإبعادها عن الاتحاد السوفياتي، هاهي عائدة لترتبط بروسيا سياسيا وتلعب لعبة أمريكا اقتصاديا (حسب ستانفلد) وتتقدم لكي تعيد أو تساهم في تشكيل خارطة العالم، ثم لتتربع في موقع الوسط منه.

إن العام 2030 يصفه الخبراء الأمريكان كنقطة تحول كبيرة للصين، سوف يصادف في الاسترولوجيا الصينية «عام الكلب»، اي التجدد والقفز. وكما سبق لنيكسون أن حدد عام 1985، بعام بدء الانهيار السوفياتي في كتابه (انتصار بلا حرب) وقد حدث ذلك، فإن توقعات الأمريكان بالنسبة للصين قد تكون من الاحتمالات الصائبة.

لكن خبراء آخرين سينظرون إلى هذه التوقعات بعيون مختلفة ويقينهم أن الإمبراطوريات لا تبنى ولا تقام بدون عنف وهي لا تصعد أبدا بالتجارة فقط. فالإمبراطوريات يبقى دائما – قلبها من ظلام – كما كتب جوزيف كونراد. إن الرعب هو الوجه الآخر للإمبراطوريات، إذ لا تستطيع أية قوة أن تمدّ أيديها إلى مجالات -امبيريوم Imperium- الآخرين إذا ما كانت هذه القوة على قدر كبير من الرعب. وقد يمتزج الرعب مع الحرية في تجربة الإمبراطورية الأمريكية، إذ كانت أمريكا حريصة على «الحرب من أجل الحرية.. أو من أجل حقوق الإنسان»، وعلى عدم ضم أراضي الآخرين لها.. ولكن مدى الرعب الذي عرفته الشعوب جراء صعود الإمبراطورية الأمريكية يفوق بكثير مدى الرعب الذي بثته روما القديمة لإنشاء

إمبراطوريتها، أو حتى مدى الرعب الذي مارسه الاتحاد السوفياتي سابقا. والآن فإن الصين التي لا تطلب مستعمرات خارج حدودها، والتي تتوسط العالم بنسبة سكان تقترب من (الـ20% من سكان العالم)، يمكنها أن تتعايش مع التجارة المفتوحة والمنهج الرأسمالي/الإشتراكي وكذلك مع الديمقراطيات الأهلية الناشئة والتجارب البرلمانية الليبيرالية دون أن تكون في حاجة إلى تعميم نموذجها الأقتصادي والسياسي بالقوة كما تفعل أمريكا.

إن على الإمبراطوريات مسؤوليات عظيمة تجاه العالم. وكثيرا ما تصطدم هذه المسؤوليات بالأخلاقيات. ولطالما تعرضت الولايات المتحدة بسبب معاييرها المزدوجة ودرجة العنف في سياستها وكذلك براغماتيتها الرخيصة وأساليب عملها وحلفائها المتخلفين. وهذا ما أعطى لخصومها الكبار (روسيا والصين) رصيدا لدى كثير من الشعوب.

*** *** ***

في كتابهما «الإمبراطوريات في التاريخ العالمي»، يقرأ «جان بوربنك J. Burbank» و«فريدريك كوبر (F. Copee)[*43] التاريخ الكامل للإمبراطوريات الشاملة بدءا بالقرن الثالث قبل الميلاد، مع سلالة «هان» الصينية والإمبراطورية الرومانية ثم يتابعان دراسة الإمبراطوريات النمساوية والبيزنطية والمغولية ليركزا بعد ذلك على الإمبراطورية العثمانية قبل العودة بالدراسة إلى الإمبراطورية النمساوية والإمبراطوريات الأوروبية العابرة للبحار وأخيرا الإمبراطورية السوفياتية والأمريكية. في هذه الدراسة نرى أن الإمبراطورية هي الشكل النهائي والأكثر تأثيرا للحكم بالنسبة لدولة تريد أن تتماسك وتتمدد عبر فضاءات أوسع.. ثم نرى مدى أهمية الوحدة داخل الإختلافات (بأنواعها) ثم نرى مدى تأثير الاقتصاد الديني أو الإيديولوجي بالنسبة لأية إمبراطورية. إن الفكرة الكبرى أو الرسالة الكبرى هي محتوى كل إمبراطورية، سواء كانت دينية أو إيديولوجية أو قومية أو ثقافية أو قانونية، أو اقتصادية. وبما أن النموذج الاقتصادي الغربي لا يلبي حاجات واحتياطات العالم الثالث المفقر والمنهك، فإن ما سوف تقدمه الصين للعالم الثالث أو ما يطرحه نادي «البريكس» من تحديات سوف يزيد من «فشل» النموذج الغربي. وفي السباق كان هناك نموذجان يتصارعان (الاشتراكي والرأسمالي). أما الآن فإن العالم سوف يقبل بالمنهج الرأسمالي ولكن ليس على الطريقة الأمريكية. حاولت أمريكا أن تعبئ فراغات نموذجها المتوحش بحقوق الإنسان والديمقراطية، ولكن ذلك لم ينسي شعوب العالم الفقر والكرامة وكذلك حقوق الأرض والبيئة. في القديم قامت الإمراطوريات على فكرة دينية توحيدية (الكونفوشيوسية – المسيحية – الإسلامية) وقد استطاعت أن تتعايش مع شعوب كثيرة وثقافات كثيرة، ولكن حين

ذبلت السلطة الإمبراطورية، توزعت تلك الإمبراطوريات إلى كيانات قومية وثقافية.. إن الحدود والأطراف لا تقرر مصير إمبراطورية لأن الحدود تبقى دائما مكان خلافات ونزاعات ساخنة. وإنما ما يحسم مصير إمبراطورية هو وجود خصم كبير يريد أن يحط من هيبتها ويقاسمها الحكم والتحكم والسيطرة ومراكز الثراء والقوة والوعود في انتظار أن يرثها..

إن ندرة الموارد وقطع الطرق على مراكز الامبراطورية يضعف من قوة الإمبراطورية، لكنه لا يسقطها نهائيا لأنها تظل تحارب من أجل ثروات وطرقات بديلة. إن ما يسقط إمبراطورية ما في قلب الظلام، هو حين يقترب أعداؤها من جدرانها السميكة. لم يسقط الاتحاد السوفياتي إلا حين اقترب الأمريكان من جدار برلين وأسقطوه، ولم تسقط الإمبراطورية الصينية الأخيرة إلا حين تم اختراق سور الصين، وهكذا أيضا تم إسقاط الإمبراطورية الرومانية. فحين تهدمت أسوار روما، وانقسمت الكنيسة (الفكرة الكبرى) إلى شرقية وغربية، أعلن نهاية روما كإمبراطورية. يقودنا ذلك إلى ذلك التآكل الذي بدأ ينتشر في أطراف الإمبراطورية الأطلسية.. فهاهي حروب الدين التي يقف وراءها غالبا الأمريكان قد تتحول إلى مناطق محرمة على الأمريكان. وها أن بعض الدول تتحرر من القبضة الأمريكية وتصبح دولا راشدة بعد أن كانت مارقة مثل كوبا وإيران وكوريا الشمالية. وها أن الديمقراطية التي بشر بها الأمريكان لم تعد محل احترام من الشعوب التي تريد الخروج من الفقر والأمراض والأوبئة أولا. ثم هاهي الدول التي اشتد عودها وأصبحت ذات شأن في الخارطة الاقتصادية العالمية، تريد أن تضع حدودا أخلاقية للإمبراطورية المنزوعة من الحرية والأخلاق وتزرع نموذجا جديدا للتنمية والتعاون مع الشعوب!..

إن الإمبراطوريات تسقط كبنى لأنها لم تعد تدهش أحد في الجغرافيا الممتدة والمترامية الأطراف ثم لأنها لم تعد متأقلمة مع الإختلافات المحلية (دينية أو قومية أو ثقافية) ثم لأنها لم تعد تملك ما تقدمه من إغراءات اقتصادية. وحتى لو امتلكت تلك الإمبراطوريات القدرة على الهروب من الإندثار باختراع رؤى مغايرة ومشاريع جديدة ذات أفكار مجنحة، إلا أنه لا مناص من الإندثار في آخر المطاف بفعل المقاومة الجدلية (القوة والقوة المضادة). إن الوسطاء أو الوكلاء المحليين غالبا ما ينتفضون ويتغلبون على المركز الإمبراطوري لاحتلال مجالاتهم الخاصة أو حتى لتأجيرها لإمبراطورية جديدة. لقد رأينا كيف انتقل الحكم في بلاد العرب إلى مماليكهم. فهؤلاء الوكلاء هم الذين انتفضوا ضد الدولة العثمانية. وهؤلاء المماليك غالبا ما كانوا مدفوعين بقوة إمبراطورية أخرى بديلة. فبعد العباسيين جاء الأخشيديون والطوليون ليسلموا الإمبراطورية إلى العثمانين. وخلال الحكم العثماني خرج الحسينيون والقرامنليون

والمماليك ليسلموا البلاد إلى الفرنسيين والإنكليز.. إن فكرة الاستقلال الوطني لم تصل إلى العالم العربي إلا عبر وسطاء محليين انتقلوا ببلدانهم من العثمانيين إلى الأوروبيين، وبعد ذلك عن طريق المترجمين أو «المتأوربين» الذين يحملون نفس الأفكار ويتكلمون أحيانا نفس اللغة. إن أفكار الحرية ثم الديمقراطية ثم اللغة الأجنبية، ثم اللبيرالية هي أفكار الإمبراطورية الأطلسية الأمريكية: فالمفكر «ريتشارد ايميرمان» يعتقد أن الأفكار الديمقراطية هي التي وقفت دوما وراء التوسع الأمريكي. وأن الحرية هي التي جعلت من أمريكا إمبراطورية. وأن الفكرة الإمبراطورية كامنة في العقل السياسي الأمريكي منذ أن دافعت عن مبدأ الحرية.. وهذا الدفاع لا يميز ايميرمان عن غيره، بل هو يشارك كل من «ولتر لافيبر Walter Lafeber» و«ويليام آبلمان Wiliam Appelman» في فكرتهما حول تأثير مبدأ الحرية على مسار الإمبراطورية الأمريكية والتي تحولت فيما بعد إلى «حرية للرأس المال»[44*] .. والتجارة.. ألم تبدأ أمريكا عهدها الإمبراطوري مع تحرير التجارة والخروج إلى العالم الآخر في عهد الرئيس مونرو؟ ألم ينتهي عصر الجمهورية الأمريكي مع بدء البحث عن مكتسبات جديدة خارج أمريكا؟ ألم تكن شعارات أمريكا الإمبراطورية تعبر عن أهداف كبيرة مثل السلم والحرية والديمقراطية للعالم.. ولكن الإمبراطوريات حتى وإن كانت طيبة ومبعوثة من العناية الإلهية، فلا بد أنها تحتاج إلى العنف.. فبدعوى حجة البربرية، يمارسون بربرية أشرس. وبإسم محاربة الإرهاب، تصبح الإمبراطورية أكثر إرهابا.. واليوم فإذا كانت أمريكا تصف كل من يبادلها العداء بالإرهابي، إن كان فردا أو جماعة أو دولة، فإن هؤلاء أيضا يصفونها بزعيمة الإرهاب!..

***   ***   ***

لايزال من المبكر جدا أن نتساءل عن نهاية الإمبراطورية الأمريكية. ثمة مؤشرات تطفح بها كتب وتقارير كثيرة. ولكن القرن الواحد والعشرين سيمهد الطريق ربما لاندثار الهيمنة الإمبراطورية. فالإمبراطوريات حتى حين تبدأ رحلة الاندثار، فإنما ذلك يستغرق وقتا طويلا.. وحالما نرى صعود أقطاب جديدة في العالم مثل «دول البريكس»، يمكن أن نستشف تحولات عميقة على البنية الإمبراطورية الأمريكية.. وهذه التحولات ستجعلها أكثر مقاومة للاندثار. وخلال العقد المقبل، لن نرى توسعا أمريكيا مبهرا لا على الأرض ولا على الاقتصاد العالمي، ولكننا سنشهد تحولا آخر في ماهية أو في هندسة هذه البنية الإمبراطورية.. من المحتمل أن تصبح مجالا لكارتيلات ذات نخب متعددة الأعراق حيث يبقي القادة المحليون على سلطتهم المحلية بالاعتماد على سلطة المركز التي لا تهزم ولا تسمح بالانقلاب أو الانفلات. وهي

ستثبت سلطتها الأفقية بتدعيم تسلسلاتها العمودية داخل مختلف مواقع نفوذها الإقليمية الجغرافية.

سوف ينتقل العالم بنوع أو بآخر إلى يمكن ان يسمى بـ«مجالات المناولة» تحت سلطة «لجان مناطق إقليمية» تتبنى الديمقراطية الليبيرالية في نسختها الرثة وتكون ممثلة لقوى إقليمية. فهذه المسألة أصبحت ملحة وتزداد إلحاحا في العقود المقبلة ليكون العالم في وضع أفضل بدون قوة عملاقة متفردة وحتى بدون قوتين أعظم كما كان في السابق. إن مثل هذه التحولات غالبا ما تكون خطيرة لأنها حاملة لأزمات جديدة، وخطيرة. إن غبار الإمبراطوريات ثقيل جدا عند الانهيار، بل هو أشد فتكا من هيمنتها في زمن عنفوانها، لذلك من الممكن أن نتساءل كيف سيكون شكل العالم بلا أمريكا.. أو ما بعد أمريكا..

إن عالما بلا أمريكا*[45] هو فكرة خيالية قد نسمع بها ونطرد بها الخوف من عيوننا حين نفكر في «داعش» أو في «تسونامي اقتصادي» أو في «تشرنوبيل بيئي». فلو أن أمريكا لم تكن موجودة، فلربما كان العالم أقل تقدما ولكنه بالتأكيد أكثر سلاما. أما «عالم ما بعد أمريكا»، الذي كتبه فريد زكريا*[46]، فإن ملخصه هو ان النظام العالمي ما بعد أمريكا سيكون نظاما تظل فيه امريكا هي الاقوى، إلا أن سيطرتها النسبية على العالم ستتقلص. فخلال القرون الخمسة الماضية وكما لاحظ رئيس تحرير «النيوزوييك»، فقد انتقل النفوذ (من سلطة ومال ومعرفة) إلى الغرب أي إلى اوروبا في عصر النهضة ثم إلى امريكا لتكون الأمة الاقوى ثم إلى الغرب الأطلسي.. والآن فإن هذا النفوذ نراه ينتقل إلى الدول الصاعدة وخاصة الصين والهند وروسيا وكذلك المنظمات غير الحكومية.

إن العالم يتحول اليوم من الإغراء إلى الغضب إلى الإهمال إلى عدم الإكتراث. أي من الإعجاب بأمريكا إلى معاداة أمريكا والأمركة، إلى التفكير فيما بعد أمريكا التي فقدت الكثير من بريقها. إن صعود قوى جديدة أصبح أمرا ملحا ومنتظرا لدى شعوب كثيرة. وهذه القوى هي الآن بصدد إرساء قواعدها لتتسج خيوط واقع جديد لما بعد الحقبة الأمريكية.. والسؤال الذي يطرح يوميا في المجلات المتخصصة والكتب السياسية هو: كيف يمكن بلوغ ذلك العالم «لما بعد أمريكا» في عالم متغير ومتعدد الفعاليات والاقطاب؟ وما الذي نراه اليوم من أشياء جيدة لكي تبقى أمريكا على ما تبقى لها من بريق؟ وهل هي قادرة على تحمل مسؤوليات الفقر والحروب والأوبئة والأزمات الاقتصادية؟ وهل الرأسمالية الامريكية (العولمة) قادرة على الاستمرار لوحدها كنظام سوقي شمولي (ربح دون مسؤولية الخسارة) أم أنها ستواجه «عولمة

اقتصادية بديلة» يكون عنوانها: سوق مفتوحة مقابل عدالة.. وأرباح مقابل مسؤوليات وانفتاح مقابل شراكة دائمة!..

إن الرأسمالية الأمريكية لها قدرة فائقة على التلون والصمود وكذلك على الخروج من الأزمات والهروب من أعبائها وخسارتها إن كانت في الداخل أو في الخارج. ولكن العالم اليوم اصبح يفكر في تلك «الأزمات العملاقة» التي لم تات بعد. فالأكيد أن أمريكا (التي تطبع من الأوراق ما تشاء) قد تجد نفسها مضطرة أو مدفوعة إلى نظام - الذهب - لتكون أكثر مسؤولية تجاه الأزمات. إن هيمنتها الاقتصادية اليوم هي أشد ضعفا وهشاشة كما يتوقع خبراء كثيرون. ومن بين هؤلاء «دوغ كاسي»[47*] الذي لا يخفي تشاؤمه من سقوط الحصان الامريكي الجامح في حفرة اعمق بكثير من حفرة 1929. أكثر من ذلك لا يتردد «كاسي» في دعوة الأمريكيين إلى التعلم من أزمة اليونان، وإذا لم يفعلوا ذلك، فإنهم سيذهبون إلى الصين لرهن سيادتهم لدى الصينيين! وحسب «كاسي»، فإن كل شيء اليوم يبدو خارج الأسعار، لأن سوق الأسهم تعيش في أحواض المضاربة، والاسواق تغرق في هذه الأحواض العميقة، والحقيقة الوحيدة هي أن الأسعار غير حقيقية، والحكومة لا تفعل غير أن تطبع الأوراق النقدية، وعليه فإن كارثة بحجم اقتصاد أمريكا المرتبط باقتصاديات العالم قد تقع في اي وقت.. وكأي مؤسسة شاخت وانتهى وقت ازدهارها، فإن النظام المالي الأمريكي قد شاخ ولكنه لازال يقاوم بالعقاقير. ولأن العقاقير قد يمضي عليها وقت، فهي نفسها قد تصبح فاسدة. فأغلب بنوك أمريكا لا توجد بها أرصدة وإنما أرقام، وهذه الأرقام بدون أرصدة، لذلك فإن الأمريكيين سيفضلون ذات يوم عدم سحب نقودهم من البنك لأنها بلا أرصدة ثم يبدأون في الاتجاه نحو التعامل بالذهب. وهنا قد تجد أمريكا نفسها مضطرة إلى العودة إلى نظام الذهب، لتجد نفسها بلا أرصدة..

إذا انهارت «بورصات أمريكا» فإن العويل سيسمع في كل مكان من العالم. سوف لن تسلم أية دولة من الإفلاس. وقد ينقلب هرم الحكم في العديد من البلدان. لذلك فإن أمريكا لا تواجه في السنوات المقبلة «الإرهاب» أو «مافيات التهريب» أو «الحدّ من السلاح النووي»، فقط، وإنما هي ستواجه أعقد أزمة في حياتها الإمبراطورية.. فهي قد تجبر على تغيير نظامها المالي برمته. فدول البريكس (حوالي 50% من احتياط الدولار) ستطالب أمريكا آجلا أو عاجلا بإصلاح نظامها المالي بالعودة إلى المعاملة بالذهب، حتى لا يذهب الجميع إلى المناحة والإفلاس. أما الاتحاد الأوروبي الذي يتعامل بالأورو المغطى بالذهب أو اليابان، حيث الين مغطى بالذهب، فهما أيضا سينضمان آجلا أو عاجلا إلى تلك المعركة..إن انهيار الدولار داخل أمريكا هو انهيار حوالي 80% من أسواق العالم. وإذا كانت أمريكا قادرة على الطبع، فإن الآخرين

سيجدون أنفسهم مفلسين دون اية أرصدة حقيقية.. وهنا لا يغيب عن ذهن البعض من أن تلتجأ أمريكا إلى إفلاس نفسها اصطناعيا لإفلاس منافسيها حقيقيا، وهو وجه آخر من الحروب الاقتصادية البشعة.. فلكي تهرب من الإفلاس يمكنك أن تحرق دكانك وتذهب إلى شركات التأمين. ولكي تدمر خصمك بإمكانك أن تعلن الإفلاس في مكانه (أي حرق الأوراق التي يمتلكها بين يديه مقابل أسهم أو مدخرات..)

يحذر المستشار السابق للرئيس ميتران، «جاك اتالي» من «كارثة اقتصادية ما انفكت تقترب، لكن لا احد يريد أن يتكلم عنها».. ويبدو أن السماسرة الماليين ورجال الحقائب السوداء وفئران البورصات قد اتفقوا على الصمت حتى لا يثيروا الفزع في قلوبهم وجيوبهم. فمنذ أن تذوق سماسرة البورصات «الربح السريع» من خلال بيع وشراء الصكوك المالية بقيمة لا تعادل قيمتها الحقيقية في السوق، أصبح رجال السياسة ومتعهدو ثروات الشعوب يتبعونهم ويستمعون إلى نصائحهم. هذا النهم المرضي الذي أصاب حتى السياسيين قد دفع ببلدان عديدة إلى عتبة الإفلاس (آخر مثال هو اليونان). فالتنمية قد تحولت بفضل بنوك مختصة في تزوير الأوراق المالية إلى مفهوم افتراضي يدور حول - النقد - مما ينبئ بنهايات كارثية بالنسبة للأغنياء والفقراء على حدّ سواء.

كل الاقتصاديين يعرفون جيدا أن الاقتصاد يقوم على قاعدة نشاط إنسانية وليس على قاعدة - نقدية - صرفة، ذلك أن النقد لوحده لا يستطيع أن يصنع قيمة مجتمع ما أو يصنع حياة مجتمع ما، ولكن القيمة الحقيقية توجد في العلاقات وفي العمل الجماعي واقتراح الحلول المستدامة كالزراعة والصناعة والمعرفة..

إن مثال اليونان ساطع للعيان. فقد وقع في حفرة - النقد - التي صنعها مضاربون مثل بنك «غولدمان ساكس». وهو بنك أمريكي عريق تأسس عام 1869 على يد المهاجر اليهودي الألماني الذي أخذ اسمه. ويملك الآن عشرات الفروع في العالم.. هذا البنك الاستثماري الذي تحول إلى شركة مصرفية قابضة بموافقة البنك الفيدرالي في العام 2007 قد أصبح عنوان «النهم النقدي». فالثلاثين ألف موظف الموزعين عبر أنحاء العالم هم - أشباح - يوجدون في جميع البورصات يتاجرون بالديون والصكوك النقدية ويعقدون الصفقات مع كل الحكومات التي تحتاج إلى السيولة أو القروض، حتى إذا حلت أزمة أو كارثة ببلد ما، سحب البنك «اعتماده الافتراضي» وترك البلد في المنحدر الخطير، أمام خيار واحد: إما الإفلاس أو الإفلاس (غالبا ما تضطر هذه الدول إلى بيع حصصها وأسهمها وبناها التحتية كالموانئ والمطارات والطرقات من أجل توفير سيولة سرعان ما تجف.. وهذا ما يحصل في اليونان وما حصل في البرتغال وإسبانيا..)

وبالرغم من أن اليونان دولة تنتمي إلى فضاء الحلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي، إلا أنها لم تحصل حتى الآن على الوصفة التي تخرجها من الحفرة. فالإغنياء لا يوزعون الصدقات وحتى إن فعلوا مرة أو مرتين، فإنهم لا يفعلون ذلك دائما وبلا مقابل. والنتيجة هي أن اليونان التي اختارت «لعبة الأشباح» مع البنوك المتوحشة، هي مضطرة الآن للتخلي عن نصف - ثروتها - من أجل الحفاظ على النصف الآخر. ولكن متى يمكن لليونان أن يسترجع نصف ثروته المفقود حتى يعود إلى المستوى السابق الذي كان عليه؟ هذا غير مؤكد بالمرة في عالم التقلبات المالية العاصفة. فالذين قد يساعدوها اليوم يتخوفون هم أيضا من عدوى تلك التقلبات التي قد تبدأ في مكان قريب أو بعيد ثم تأخذ بتلابيبهم.

إن الصين (مخزن النقد الأول في العالم حاليا بالدولار) نفسها ليست في مأمن من الانحدار. فالإعلان عن انخفاض عملتها مؤخرا قد أرعب الجميع. ولم يجد له لا المراقبون ولا الاختصاصيون تفسيرا معقولا. ولكن الجميع متفق على أنه قرار سيادي لكنه قرار قد يطال العالم كله حين يؤدي به إلى التقلص النسبي الذي سرعان ما سوف يتحول إلى انكماش اقتصادي. إن نسبة النمو الصينية 10% التي استمرت نحو عقدين سوف لن تستمر إلى ما لا نهاية. وهذا الأمر يدركه الصينيون وغيرهم. فبكين محاطة بدول نامية ومتقدمة مثل اليابان وكوريا أو نامية مثل اندونيسيا والهند. ثم إنها لم تؤسس لماركات عالمية جديرة بالبقاء مثل ما فعلت أمريكا إبان صعودها أو اليابان. وحالما تبدأ دول آسيا خاصة الهند واندونيسيا في المنافسة الجادة للصين (نفس البضاعة بنفس الثمن فوق نفس الأسواق)، فإن النتائج على الاقتصاد الصيني ستكون شبه كارثية. آنذاك ستنخفض نسبة النمو السنوية كما ستنخفض تاليا قيمة البورصة لأسهم الشركات والعقارات وسيتضرر حوالي 200 مليون شخص صيني من خسارات فادحة في ادخاراتهم وأسهمهم. ومن ثمة، سيزداد الغضب لدى فئات الشعب الدنيا ليختلط بغضب الطبقة الوسطى، كما ستنشط حركة العودة إلى الريف ليفقد قطاع العقار ثلث قيمته وهو ما سوف يدمر الجزء الأكبر من الادخار للطبقة الوسطى. وفي النهاية ليس ثمة أخطر لبلد ما أو لنظام ما من تدمير أو توتير الطبقة الوسطى.

وفي خطوة استباقية تبدو الصين بتخفيضها لعملتها كما لو أنها قفزت عن حفرة كانت أمامها، ولكن نظرا لاتساع الاقتصاد الصيني واتساع أسواقها قد تكون قفزت من حفرة أضيق إلى حفرة أوسع. فقد ذهبت هي الأخرى إلى الأسواق المالية العالمية الموبوءة للتلاعب بالفوائد اعتمادا على نسبة فوائد منافسة. وإذا ثبت أن ذلك هو خيار الصين (تخفيض العملة لكسب أسواق وشراء ديون)، فإن ذلك الخيار سيحمل في تياراته الجارفة البرازيل ومن ثم أمريكا وصولا إلى أوروبا. إن قمة الثمانية المقبلة التي

ستعقد في إسطمبول ستدرس ذلك الخيار بعناية ولكن ليس من المؤكد أن تجد حلولا للتخلص من كارثة مرتقبة والسبب هو أن الأمريكان والأوروبيين لم يعودوا يملكون فوائض مالية كما كان الأمر بالنسبة لأزمة 2008. وإذن ما الذي يجب عمله؟

هل سيختارون العمل الأسهل والأكثر جنونا (أي طبع المزيد من العملات) والذي هو يدفع به «غولدمان ساكس» الذي يهيمن على جميع بيروقراطيي وسياسيي أوروبا القدماء كمستشارين (معظم رؤساء الحكومات السابقين يصبحون مستشارين ومدراء في بنوك وشركات غولدمان ساكس). إن طبع المزيد من العملات الذي قد تلتجئ إليه أمريكا وأوروبا واليابان وبريطانيا ليس من شأنه إلا أن يؤدي إلى تدمير قيمة المدخرات وبالتالي التخلي عن مزيد من مكتسبات الشعوب دون توفير البدائل المستدامة. ورغم أن هذا السيناريو مرشح للعمل به، وهو لن يؤدي إلا إلى تجميد النمو، فإن الاقتصاد العالمي بإمكانه أن يخرج عن ذلك الخيار المدمر ولكن بشرط أن توضع ميكانزمات جديدة للتنسيق والتوجيه والمراقبة على صعيد عالمي. وهذا يعني التفكير جديا في مستقبل مجتمعات وشعوب كثيرة تتحكم في استقرار وسلام العالم. وهو أمر يتطلب الجرأة والشفافية والثقة والتجديد. وهذه أمور مع الأسف لا يريد السياسيون أن يتعاملوا معها مهما كانت أصنافهم وبلدانهم. إن نموذج «غولدمان ساكس» هو الأكثر إغراء لكل سياسيي الكرة الأرضية. ولهذا السبب يجدر القول أن العالم لايزال تحت حكم السماسرة - الجرذان حسب نظرية العالم البنغالي «ساركار».

*** *** ***

إن السياسة الأمريكية العالمية هي نتاج كفاح للرأسمال الأمريكي العنيد والمغامر. فالرأسمالية الأمريكية هي التي بنت الإمبراطورية الأمريكية.. والآن فإن السياسة هي المدعوة لإنقاذ الرأسمالية. وما لم يقع رتق الثقوب السوداء والإقلاع عن إرهاب العالم وأسلوب المعايير المزدوجة والاندماج في معالجة الفقر والحد من المجاعات والحروب، فإن النظام الرأسمالي كله قد ينهار في غمضة عين كما يتوقع بعض الخبراء. فالإعصار حين يهبّ، يهبّ فجأة ولا يطلب إذن الحضور من أحد. إن العالم ما انفك يدرك حتى في إغماءاته العابرة ان أمريكا ليست هي العالم، حتى وإن أرادت ذلك. كما أنها ليست قدرا ابديا، وأنه لن يكون يتيما أو ضائعا بعدها أو بعد طوفانها. فهناك دائما بدائل. ولا شك أن اهم بديل يؤرق أمريكا هو المعادلة الصينية التي سيزداد تبلورها في السنوات المقبلة ضمن مشروع دول البريكس. ويبدو واضحا الآن أن عصر الإيديولوجيا قد انتهى لكنه لم ينته بالمرة، فهو مدعو إلى العودة، لأن عصر السوق جشع جدا ومعقد جدا ولئيم جدا. ففي المشهد الذي نتهيأ لحضوره من «الملحمة الأمريكية»، قد نكتشف أن هناك على الركح الكبير قوى بصدد التفكك

وتتحل، وأخرى تتمدد لتسطع بؤرة ضوء كبيرة عيون الحاضرين..

إن الاستبداد السياسي مولد كبير للاضطهاد الاقتصادي.. وتلك هي معادلة «شكيزوفرانيا السوق» التي يعيشها العالم اليوم الذي اصبح يدرك أن أمريكا لم تعد تصلح لقيادة العالم لوحدها لأنها كفت عن إنتاج فلسفات البناء والخلاص، وباتت منتجة لفلسفات التنازع والانشقاق.. إن نووية أمريكا هي التي ستقضي على النواة الأمريكية الأولى والصلبة (نواة الحرية) في آخر المطاف!..

فإذا ظل الغرب يعتقد بأن ثقافته وبالتالي حضارته هي كونية وشاملة ولا نهائية، فإنه يرتكب حماقة الاستبداد الكوني.. وسوف يغذي دون أن يعي بذلك أحيانا، ثقافة المقاومة والممانعة.. إن صياغة المجتمعات غير الغربية على الطريقة الغربية هو إعلان واضح لعنصرية جديدة قائمة على استبداد ثقافي وسياسي. لن نتحدث هنا عن الأخطاء أو الأخلاق وإنما عن خطورة تلك المفاهيم التي لم تتطور منذ بدء الحقبة الأولى في كتاب الاستعمار. وطالما لم يقبل الغرب بتعدد الثقافات وبالتالي بتعدد السياسات، فإنه لم يؤمن بعد بفكرة الحرية، النواة الأولى التي قام عليها الغرب..

إن القصة الحقيقية للبشرية المعذبة لابد أن تنتهي بحقيقة هي: الاعتراف بدور الجميع وأهمية الجميع من أجل صالح الجميع. إن إرادة القوة التي تنزع إلى العنف من أجل الغلبة، ستصبح في الآجال القريبة متساوية بين أكثر من قوة. وهو ما يفرض على جميع هذه القوى أن تتقاسم الفرص والمسؤوليات والمخاطر وتتبادل الاعتراف والمعرفة والمنافع.. لقد أهمل الغرب البعد الروحي في البداية في معناه القومي حين فرض سيطرته المباشرة بالقوة على الكرة الأرضية.. ثم في بعده الديني والثقافي حين لم يقدر حتى تقدير ديانات أخرى مختلفة عنه.. إن الإسلام السياسي حتى وإن أضحى «آلية من آليات الغرب للسيطرة والتوجيه» فهو في البداية لم يكن إلا ملاذا أو حصنا لتهميش وأداة من ادوات التغيير والاستغلال من الهيمنة الغربية.. إن الحضارة الغربية التي تعتقد أنها انتصرت لا يتجاوز نصرها «حدود السوق». أما في البيت الآخر.. وفي الحي الآخر وفي المدينة الأخرى فقد فشلت لأنها لم تزرع المساواة والعدالة بل زرعت التهميش والاستبداد كأرضية خصبة لإضطهاد السوق.. إنها تبدو الآن أعجز من أن تدافع عن نفسها أمام بدائل جديدة أو ثقافات مختلفة. فأبناء الحضارات المختلفة مثل أبناء الإمبراطوريات مستعدون للتخلي عن الاستقرار الذي يقيمه الاستبداد مقابل أن يخرجوا من اضطهاد «رفاهية السوق».

*** *** ***

يعتقد البعض أن نظام الاستبداد الأحادي لا يضمن السلم الطويلة المدى. والأمر

ينطبق هنا على الاستبداد المحلي أو العالمي (الشمولي). أما نظام القطبية الثنائية، فهو قد يأتي بالسلم وكذلك بالحرب. فحقبة القوتين الأعظم (أمريكا والاتحاد السوفياتي) شهدت استقرارا وحروبا معا. وكانت شبيهة بحقبة اثينا وسبارطة وحقبة روما وقرطاج وكذلك حقبة العثمانيين والأوروبيين.وحسب المؤرخ جوفري بلايني G.Blainy، «فإن نظام التراتبية هي النظام الأكثر استقرارا لأن اخطاء القوة الأحادية شبيهة بأخطاء التساوي في القوة».. ومن هنا إذا كان الاستقرار مطلبا منشودا بالنسبة للغرب أو الشرق، فليكن التقاسم في المهمات هو الأساس لهذه التراتبية الجديدة. وحتى لا تأتي التوقعات جافة بطعم الرماد، فإن على أمريكا أن تتنازل في بعض المناطق لمن هم يشعرون بالقوة والنضج ويتحلون بالمسؤولية..

من أجل ذلك يبدو أن الوقت حان أمام أمريكا لكي تضع لنفسها وللعالم قارب نجاة. فالرؤية الليبرالية أصبحت ثقافة لدى جميع سكان العالم والثقافة الديمقراطية باتت معممة لدى الجميع. والاعتقاد بأن لا وجود لإله واحد وحيد على الأرض بات إيمانا راسخا لدى جميع الشعوب. وهذه كلها عناصر تماسك عميقة من أجل التواضع والاحجام عن سياسة العضلات. إن مكمن ضعف الولايات المتحدة هو نظامها السياسي الليبرالي في الداخل والاستبدادي في الخارج. العلماني بل العلموي الكوني (جماعة دافوس واللجنة الثلاثية ونادي بيلدبيرغ*[48]) والشعبوي لدى الطبقات الشعبية، بل الديني والمحافظ والمتحالف مع أكثر الأنظمة تخلفا في الخارج. ومكمن الضعف هذا يبدو كما لو أنه سرير مريح للسياسيين الأمريكان لكنه أحيانا يصبح مليئا بالكوابيس.. وهنا وجب على هؤلاء أن يواجهوا الخيارات الصعبة قبل ان يجدوا أنفسهم فاقدين للأهلية والقيادة.. إن أكثر الكوابيس حضورا في فراش السياسيين الامريكان هو أن تزل بهم القدم في حرب مع الصين أو مع روسيا دون النظر العميق في تداعيات تلك الحرب. ومع أنه لم توجد إمبراطورية قد تنازلت عن هيمنتها وفخرها ومجدها دون حرب مكسرة للأجنحة والعظام، فإنه لازال هناك أمل بأن تتواضع أمريكا وتعترف بقوة الآخرين دون أن تضطر إلى خيارات الحرب. ولعل تسوية خلافاتها مع كل من كوريا الشمالية وإيران هي مؤشرات لهذا التواضع، حيث تعجز القوة عن إنجاز الإضافة!..

إن التواضع يبدا بالاعتراف بأن السرير الامريكي مليء بالكوابيس لأن العالم مليء بالكوابيس. فالعالم لا يبدو أنه يسير نحو الأمل، بل نحو ظلام حالك يتجاوز السياسة والسياسيين. لقد كشف «مارتن ريس» M. Ress في كتابه «ساعتنا الأخيرة» و«فراد ايكلي» F. Ikley في كتابه «الانعدام من الداخل» عن طرق لا تحصى تؤدي فيها الكوارث الطبيعية والتقدم العلمي في الهندسة الإحيائية والذكاء الاصطناعي وأسلحة

الدمار الشامل والحروب الجرثومية إلى نتائج كارثية على أمريكا والعالم كله. ومع ذلك فإن السياسيين يتزاحمون على اختراع الشعارات بدل من أن يدفعوا باتجاه البدائل.. إن فجوة الغذاء والنقص الحاد في المياه وكذلك الفجوة المعرفية هو ما يزيد من القلق والانزعاج حيث لم تعد «المؤتمرات الدولية» ولا «الدراسات المعمقة» ولا الخبراء يعرفون ما يمكن أن يفاجأ الجميع. ويعني ذلك أن الرؤى المستقبلية لا تصمد طويلا، أمام ما لم يكن توقعه من قبل الخبراء وما لا يمكن مقاومته من قبل السياسيين.. فالتوقعات ضرورية لتوضيح التفكير حول القوى التي ستقود العلاقات الدولية، لكنها تظل توقعات عابرة وبسيطة أمام التعقيدات على الأرض وكذلك في الحياة السياسية. إن الأفكار الكبرى يمكن أن تقدم تصورات كبرى ولكن دقة تقديراتها ليست كبيرة ولا شفافة ولا تتوقف على مدى صحتها أو وجاهتها.

*** *** ***

لقد أطلق المفكر «إسحاق برلين» إسم القنافد على أولئك الخبراء الولعين بالتوقعات. فحسب رأيه كانوا دائما أقل توفيقا في توقعاتهم من أولئك الذين قدموا تحليلات عرضية لكنها دسمة وتتميز بالحساسية والقدرة على التحسس فدعاهم بـ«الثعالب». وهؤلاء هم من صنف السياسيين المثقفين على راي الفيلسوف البنغالي «ساركار».

إن تجاهل التوقعات بالنسبة لبعض السياسيين أو حتى للناس العاديين هو دليل على أن التوقعات في أغلبها بائسة وفاقدة للأمل. وهذا ما كتبه «نسيم نيكولا» في مؤلفه «الإوزة السوداء»*[49]. فحسب رايه أن لا أحد توقع على وجه الصواب أهم تطورات العالم غير المتوقعة خارج معادلات المحللين. إن الاعتباطية والصدفة والعفوية والانسيابية المتدفقة هو ما يصنع أغلب الأشياء في الاقتصاد والسياسة. وبذلك فإن «نيكولا» لا يرى في التوقعات الكبرى سوى أوهاما كبرى أو رسائل تذكير بمحدودية تأثير النظريات على الأشخاص العمليين.

ولكن، هل إذا ما كانت الأسباب والنتائج اعتباطية وصدفية، فإن معنى ذلك لا أمل أصلا في السياسة العالمية أو أن السياسة العالمية يقودها رجال عميان؟ لا أبدا. فالسياسيون ليس بإمكانهم الرماية في الظلام ولا يسعهم إلا أن يتصرفوا وفق معطيات وأفكار حول كيف يسير ويعمل العالم. ومع أن العمليين البراغماتيين عادة ما يدهشون السياسيين بأساليبهم، إلا أن هؤلاء لا يريدون أن يضعوا أنفسهم تحت سلطة البراغماتيين الدوارة والتلفيقية. إن صانعي السياسة يحتاجون في كل حين إلى مرتكزات ذهنية إذا ما أرادوا أن يتخذوا قرارات من شأنها أن تحرك العالم في الاتجاه الصحيح والواعي..

إن العالم اليوم لا يسير فقط، إنه يحلق عابرا للحدود بقوة المعلومات الفائقة التطاير. المسافات ليست كيلومترات من التراب أو من البحر أو حتى من الجو، بل هي سريعة سرعة النبض وغير متناهية ومتدفقة باستمرار وغير نافذة كما السلع التقليدية المادية وكما الديمغرافيا طوابير (اللاجئون والمهاجرون). بل هي تتزايد وتتسع بارتفاع معدلات استهلاكها.

***　***　***

منذ الخمسينات كتب بريمو ليفي Primo Levi في كتابه «الغرقى والناجون» ما يلي: العار لأننا لم نستطع منعهم من الموت. العار أننا بقينا أحياء. إننا كنا موضع إذلال ونقص. ليست دولنا وحدها، بل كل واحد منا. كل ديمقراطي يجد نفسه لا مسؤولا عن النازية فحسب بل ملطخا بها.. لقد وقعت الكارثة»..

كان بريمو ليفي، الناجي من المحرقة والذي عاش في إيطاليا حتى العام 1987 قد ظل غاضبا وناقما على كل أولئك الذين لم يفعلوا شيئا من أجل منع الكارثة.. وقد تساءل في كتاب آخر عن معنى الإنسان؟ فرآه كما رأته حنة آرندت وهي تشاهد محاكمة ايخمان في العام 1961: «إنه لا يبدو وحشا كما يمكن أن نعتقد.. كما لن يبدو غريبا لو صادفناه في مقهى أو شارع»..

الأرجح أن الذين يحكمون ولا يقدرون على منع المذابح والكوارث وإلحاق الأذى بالبشر هم في حقيقة الأمر ضحايا فشل في تحكيم العقل. كما تقول آرندت وقد يكونوا كذلك ضحايا عقلانية العقل المفرطة أيضا كما يعتقد الفيلسوف (ميشال أونفري) أو هم خسيسون يتلاعبون بالكرامة في أسواق الجريمة كما يفعل برنار هنري ليفي! ولكن لنعتقد للحظة من جانبنا بأن ما يقع إنما هو يراد له أن يقع حتى وإن كان فضيعا حتى يبدو مع الأيام عاديا وطبيعيا وحتى مبتذلا. إن السياسيين الذين يجعلون من الشر عادة يومية يوجدون على الضفتين وهم دائما على استعداد لوصف الآخرين بـ«الوحوش» دون أن يفعلوا شيئا لهذه الوحوش!

هل بدأت المأساة السورية مع غرق الطفل ايلان؟ ألا يعرف الأوروبيون أن ثلث الشعب السوري أصبح مرغما على الهجرة بسبب الحروب التي تخاض على أرضه؟ ألا يعرف الأوروبيون بعدد الغرقى في البحر الذي ما انفك يتضاعف منذ خمسة سنوات؟ ولماذا يريد الأوروبيون اليوم إقناع العالم بأنهم أصبحوا أكثر رأفة بالشعب السوري؟ للإجابة عن مثل هذه الأسئلة لا نجد إلا النذالة، أن تعلق الأمر بصحوة الضمير المتأخرة أو بالقبول بالمهاجرين القادمين إليهم عبر البر والبحر.. لقد أصبح الشرّ مبتذلا.. أمرا عاديا فيما بات معه الإنسان رقما لا معنى له ولماضيه وهويته وبلده /

الأم. وهنا تعاقدت النذالة مع الشر حول صفقة ماركنتلية غاية في الإسفاف. سيشكر هؤلاء المعذبين، الناجين من القتل والغرق، أوروبا ويحيون جيدا السيدة ميركل التي جعلتها «غريزتها الأمومية» أكثر تفهما، ولكنهم بعد حين سيكتشفون أنهم كانوا مرة أخرى ضحايا لتلاعب السياسيين الخسيسين. سيكتشفون أيضا أن «قبولهم» كلاجئين إنما هو إدانة للسياسة الخسيسة التي دمرت بلدهم سوريا!.

إن فتح طريق أخرى بمحاذاة البلقان للصعود إلى أوروبا الوسطى لم يقم به هؤلاء الهاربين المساكين، وإنما قام به عسكريون يملكون خرائط المنطقة. وقد سبق لهم ولآبائهم أن حاربوا فوقها، ولكن إخفاء الحقائق هو نوع من الهروب من المسؤولية. أليس هذه الطريق التي انفتحت فجأة أمام هؤلاء الهاربين بلا هوية وبلا مصير هي الطريق نفسها التي حملت الغجر إلى أوروبا الوسطى في رحلتهم الطويلة من بلاد الهند؟ أليست هي الطريق نفسها التي سلكها اليهود عقب الحرب العالمية الثانية نحو فلسطين؟ لنتذكر فقط أن هرتزل هو ابن بودابيست التي أصبحت محطة الوصول الكبرى لهؤلاء التائهين الجدد المنقادين بخرائط الغوغل الأمريكية!.. أليست هي أيضا الطريق التي سلكها الصليبيون في القرون الوسطى لاجتياح بلاد الشام؟ وهكذا وكما كان في السابق يتم إخفاء بؤس الرأسمالية عن طريق تضخيم الكولاغ وفضائح ستالين، فإن سياسيي الغرب اليوم يقومون اليوم بإخفاء نذالاتهم ومسؤولياتهم عن طريق تضخيم دكتاتورية الحكم في دمشق، وفتح شلالات من العواطف تجاه هؤلاء الضحايا!.. إن ما يجب التنديد به حتى لا يصبح الشر مبتذلا وعاديا، ليس الدكتاتورية في بلاد العرب، فهي نتاج حداثوي منحرف عرفته شعوب كثيرة ومنها أوروبا ولم تتخلص من أثاره ودمائه إلا في أواسط التسعينات، وإنما هو النازية الغربية الجديدة وكذلك العجز والتواطؤ مع العار الذي لم يعد بإمكان الطواقم السياسية الغربية أن تتحمله..

تكلمت ميركل فتكلم وراءها كل الأوروبيين. جميعهم لم يعد قادرا على تحمل العار. لقد وصل إلى ديارهم وشوارعهم ففضح عجزهم وتواطؤهم. إنهم الآن يظهرون كما لو أنهم بريئون من المذابح وبعيدون عن الدناءة.. ولكن الجميع يدرك جيدا أن لولا صمت أوروبا على الظلم وشحن أوروبا بؤر الحرب بالسلاح والعتاد، لما حصل هذا الذي يحصل أمام عيون الجميع.

وطبيعي جدا أن يتساءل الأوروبيون اليوم عن مستقبل بلدانهم وهم يستقبلون هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين.. وهاهو مكر التاريخ يكاد ينطق بقوة.. فالغرب الذي شيطن الإسلام إلى حد أصبح «غولا قروسطيا»، هاهو يستقبل المسلمين مكرها. ليس المسلمون متعصبين بالفطرة أو كارهين للآخر بالسليقة أو بالثقافة، ولكن الغرب

الجبار يتلذذ في جعلهم هكذا. فالديمقراطية المسيحية تبدو وكأنها للمسيحيين فقط، والاتحاد الأوروبي يريد أن يظل إمبراطورية للمسيحيين فقط. وما دامت أوروبا لم تستوعب الاختلاف الثقافي الإسلامي فلأنها لم تتعلم أي شيء من تاريخ القسوة والعنف.. وليس «الجهاد» هو الذي يخيف الأوربيين، وإنما هجرة المسلمين هي التي تقض مضاجعهم. إن التزايد الديمغرافي في الكون الإسلامي كثيرا ما يضع الأمهات الأوربيات المتهمات بالكسل والأنانية في حرج. إن المسلمين الذين يسكنون أوروبا (أكثر من 12 مليون) وهؤلاء مرشحون للزيادة بنسب مفزعة. ومن هنا حتى نهاية القرن الحالي، فإن التوقعات تشير إلى ارتفاع نسبتهم إلى حوالي 20% من السكان!..

هذا التحول الديمغرافي الكبير سينتج عنه تحول جيوستراتيجي ثقافي كبير. وهو التحدي الكبير الذي لا يعرف «حكماء ووحوش الغرب» أن يواجهوه. إنه سباق محموم داخل وخارج الحدود قد يجعل الغرب أمام خيارات صعبة وحتى مجرمة. هل ستعود أوروبا إلى المسحنة القديمة؟ هل ستفرض قوانين الإخصاء والحدّ من الولادات؟. إن الحلول الأصولية هي حلول فاشية. فالهروب من «التكفير» قد يتساوى في آخر المطاف مع «المسحنة». فكلاهما تعبير عن فشل العقل أمام التعصب الديني!

لقد أطلقت فرنسا بكل تبجح على باخرتيها العاملتين في تجارة العبيد في القرن الثامن عشر اسمي: «جان جاك روسو» و«العقد الإجتماعي». ولو علم روسو بذلك لشنق نفسه في ساحة الكونكورد قرب المسلة الفرعونية المسروقة من مصر! واليوم قد يطلق الأوروبيون على طريق البلقان الذي سلكه تائهو سوريا «طريق النعيم» بدلا من طريق الجحيم ثم يطلقون على قطارات المنفى المنطلقة من بودابست إلى برلين بقطارات الأمل. ولو أن أغاثا كريستي لازالت على قيد الحياة لكتبت رواية أخرى تحت عنوان «قطار الغرب اللعين» كجزء ثان لـ«قطار الشرق السريع». إن من يملك عيونا لن تجعله حقوق الإنسان، بخدعاتها التصويرية أو بتسوياتها غير المخجلة بين العار والمستقبل يبارك جرائم الرأسمالية الغربية. إن الإنسان الحر لن ينساق سواء تحت الإغراء أو الإكراه للتسليم بأن مخترعي الفاشيات هم أيضا مبدعو حريات. فما الذي تخفيه الأقنعة؟

سوف نتابع فصولا أخرى من هذه المأساة بشغف. وبالرغم من أنهم أصبحوا يتكلمون عن «حلّ سياسي» للمعضلة السورية، فإن حكام بيت الله الحرام والبيت الأبيض يضعون العصي في عجلة هذا الحلّ السياسي. إنهم يضعون «فيتو» على بقاء الأسد لما بعد الحلّ. ولكن إذا أتيح هذا الحل أن يصبح واقعيا، فلا معنى لأي «فيتو» أما إذا وضعت الشروط قبل أن يشرع اللاعبون السياسيون (المحليون والإقليميون

والدوليون) في بلورة هذا الحل، فمعنى ذلك أن المعضلة السورية لازالت مرشحة للتفسخ. فهل ثمة رابط بين هذا الطوفان من الهاربين واللاجئين وبين احتمال تصاعد وتيرة الحرب في سوريا؟ فبينما تتجه وسائل الإعلام لتضع «زوماتها» على طوابير اللاجئين وصور الأطفال الغرقى والضائعين، ثمة من يشير إلى أن «الحرب الحقيقية» في سوريا لم تقع بعد، وأن الجميع يشحذ سكاكينه في انتظار «الساعة صفر». إن الهجرة من سوريا لم تتوقف أبدا منذ أن انفجرت الأزمة في أواخر 2011. اتجهت في البداية نحو الجيران (الأردن، لبنان، تركيا) ثم شيئا فشيئا اكتشفت تركيا طريقة للخلاص من هؤلاء المهاجرين ففتحت لهم طريق أوروبا عبر البحر والبر. لم يكونوا مرحبا بهم لدى الجيران ولا لدى الأوروبيين. وقد تقاعست الأمم المتحدة وكذلك الولايات المتحدة ومعها دول الخليج الغنية عن القيام بدورها مع هؤلاء اللاجئين. كان الجميع يشكر ويتذمر: الحكومات واللاجئون معا. ومع تعاظم هذه المشكلة بدأت أوروبا تضع «شروطا» لاستقبال عدد من هؤلاء: أن يكونوا شبابا لا كهولا، وأن يكون الكهول مصحوبين بطفل أو اثنين أقل من العاشرة، وأن يكونوا من الأقليات المسيحية (وهذا أفضل بالنسبة لبعض الدول) وأن يكونوا حاملين لشهادات عليا ومهارات وأن يكونوا خاضعين وقابلين للتوزيع والإقامة التي ستطرح عليهم.. فما الذي يجب أن يفهم من ذلك ببساطة؟ هل يريدون إفراغ سوريا من الكفاءات والمهارات بعد أن تم تخريب اقتصادها بأداة الحرب؟ هل يريدون إفراغ سوريا من مسيحييها وأقلياتها وتعددها الاثني والثقافي وتراثها الروحي؟ هل هم يستعدون لحرب شاملة قد تصل إلى استعمال الأسلحة الفتاكة؟ هل هم يقومون بسحب الشباب السوري من أجل إنهاك الخزين العسكري وإنهاك المدد الروحي والمعنوي؟ وهو ما يعني في جميع الحالات استمرار الحرب بطرق أخرى ضد سوريا من اجل تفكيكها وإنهاكها.

إن ما يحدث قد يكون مضخما ومهولا، ولكن القصد من ذلك ليس غسل ذنوب الغرب من المذبحة السورية وإنما قد يكون توغلا آخر في الدماء السورية، ولكن الذين يخططون لمثل هذه النذالات والسفالات لا يصنعون إلا الانحطاط لبلدانهم على المدى البعيد. إن الجميع يعرف أن الهجرة السرية أصبحت من مهددات الأمن القومي الأوروبي. وأن هذه الهجرة مرتبطة بوتيرة الصراع الدولي والتنافس الإقليمي ونقص الموارد الطبيعية ومشكلة الطاقة وإنتشار الإرهاب والعنف في المناطق المجاورة واستفحال الفقر والحاجة، ولم يعد خافيا أن أوروبا أصبحت على حدود تماس مع كل تلك المشكلات. فهي تمتد حتى قبرص بالقرب من سوريا وحتى أوكرانيا ثم حتى تركيا. وليس الشرق الأوسط أو شرق المتوسط إلا جارا لأوروبا. ومن الطبيعي جدا أن ينتقل العنف والقتل عبر الهجرة السرية والاضطرارية. وهو ما سوف ينعكس سلبا

على اتفاقات أوروبا سواء في المجال المدني أو في المجالات العسكرية الدفاعية. وقد كانت أوروبا تعاني من هجرة إفريقية تأتي بها البواخر من تونس وليبيا والجزائر والمغرب، فإذا بها الآن تفتح حدودها على مهاجرين آخرين باندفاع شديد من الشرق الكبير (من أفغانستان والعراق وسوريا). وهذا ما سيضع على كاهلها واجبات أخرى ويطرح أمامها إشكالات جديدة مثل الاندماج والهوية. وإذا ما تواصل هذا السيل من المهاجرين، فإن أوروبا ومهما كانت قوية ستجد نفسها مضطرة إلى غلق حدودها على نحو تام أو أنها ستنهار أو تتفكك. فحين يرى اليونانيون أو المجريون أو حتى البرتغاليون أنفسهم يعانون من الكساد والإفلاس ولا تسعفهم بنوك الاتحاد، فإنهم قد يختاروا الانسحاب من اتحاد يقبل المهاجرين الأرخص ثمنا في سوق العمل، ولا يساعد الذين يرتبطون معه بمعاهدات ومواثيق.

لقد أشارت منظمة الهجرة الدولية في تقريرها عام 2010 بأن هناك حوالي 200 مليون مهاجر من مجموع سكان العالم يعملون ويعيشون خارج أوطانهم. ويذكر هذا التقرير أن ما بين 30 و35 مليون من هذا المجموع هم مهاجرون غير شرعيين. وقد احتلت أوروبا المرتبة الأولى حيث يقدر المهاجرون غير الشرعيين بنحو 35%، ما يعني أن هناك نحو 10 مليون مهاجر غير شرعي في أوروبا. وتطرح هذه الأرقام عدة إشكاليات على السكان في أوروبا. فالسكان الأصليون قد يصبحوا في المرتبة الثانية بعد اقل من قرن. فالسبعون مليون مهاجر في أوروبا اليوم قد يتضاعف ثلاث مرات في حوالي 80 أو 90 عاما. وآنذاك قد يصل العدد إلى نحو 200 أو 250 مليون (من أصول غير أوروبية). وبما أن معدل زيادة السكان الأصليين مجمد منذ عدة عقود، فإن الـ250 مليون هم نصف سكان أوروبا قاطبة الـ500 مليون نسمة. إن ذلك ما سوف قد يخنق الهوية الأوروبية على المدى البعيد أو يضعها في صدام ثقافي وحضاري مع هويات أخرى ناشئة ومزاحمة. وآنذاك قد ندرك مدى «الإسلاموفوبيا» التي تأخذ بتلابيب الأوروبي المتوسط. لقد دافعت أوروبا عن نفسها من أجل ألا «تتمركس» أو تتسفيت». وإذ هي تحالفت مع الإسلام ضد الماركسية والشيوعية والسوفياتية، فهاهي تتأفرق وتتأسين وتتعرب وتصبح مهددة من الاجتياح الإسلامي الذي أصبح بداخلها وهو يحيط بها من الجهات الثلاث. إن ارتفاع معدل البطالة في البلدان المضيفة أو انخفاض مستوى المعيشة أو حتى تزايد نسب الفقر، ستكون هي النتائج الأولى، ولكن الذي سيطفو على جميع المشاكل ويطل برأسه من جديد على أوروبا خلال العقدين المقبلين هو وحش الفاشية الجديد في «عود على بدء». فإذا كان عالم الاجتماع الفرنسي الفريد سوفي Alfred Sauvy قد وضع الأغنياء أمام مسؤولياتهم منذ الستينات، حين قال «إما أن تهاجر الثروات حيث يوجد الفقراء. وإما أن يرحل الفقراء

حيث توجد الثروات».. فقد آن الأوان لأوروبا لكي تنزع الأقنعة (أقنعة حقوق الإنسان) قبل أن تصبح مرة أخرى أرضا خصبة لكل أنواع الفاشيات!..

***   ***   ***

هل نقول أننا أمام مجتمع جديد، مجتمع رقمي افتراضي كما يقول جون كيتز؟ هل نحن أمام عصر تكنولوجيا جديد يرسم لنا ما بعد أوطاننا وما بعد السياسة؟ هل نحن ذاهبون إلى نظام قوامه «رأسمالية مالية» ومصرفية افتراضية، حيث تتحطم كل العراقيل الزمنية والمكانية لتفرض هيمنة من نوع آخر تبدأ بأبجدية جديدة تسعى إلى تذويب وصهر الكائن الثقافي في عالم الرقمنة؟ أم نحن ذاهبون نحو إنتاج فاشية ونازية جديدتين ذات تقنية عالية لمحو التمايز والهوية والمقاومة؟. هربرت ماركيز*[50]، الفيلسوف الألماني تنبأ بذلك منذ السبعينات في القرن الماضي حين تكلم عن الإنسان ذو البعد الواحد. وهو ما أصبح يسميه فلاسفة آخرون مثل «مانويل كاستلتس»*[51] بمجتمع الرقمنة أو الأمم الرقمية حسب تعبير «جون كيتز»، الذي يقضي على جميع الاختلافات والتمايزات ويصهر أفراده في نظام ذي معايير واحدة ونمط واحد.

إن ذلك ما سوف ينتج في النهاية «علة» التقدم. هاهنا سنفقد البوصلة النقدية وإبداع التعددية لنصنع ثقافة نمطية غبية لا تلبث أن تنتج «حروبا ثقافية» لاسترجاع الثقافة. فالفيلسوف الكندي «شارل تايلور»، يرى ان مشروع الرقمنة يجر معه سلبيات وخيبات كثيرة. وهو لن يلبث حتى يتحطم أمام طغيان الغباء المعمم. فالمجتمعات ليست زرائب لتربية الدجاج. والإنسان لن يتحمل في النهاية أن يدخل إلى الانعزالية بسبب الفردانية أو الحرية أو التواصل مع الآخر. إن فقدان البوصلة هو ما يعني فقدان المعنى. ولنترك جانبا ما يقال عن «الفجوة الرقمية» بين الشمال والجنوب أو بين نيويورك ومدغشقر. فتصنيع الإنسان الغبي هو آخر ما يمكن أن يكون من مبتكرات تكنولوجيا الرقمنة. فهو لن يكون أفضل من «الروبو»، لأن هذا الأخير سوف لن يشعر بالفرح ولا بالألم. وقد يكون شقيقا ثقافيا للحيوان! فهذا الكائن الجديد قد يكون حرا ولكنه سيكون منعزلا. سوف يحمل إسما معرفا لكنه لن يعرّف إلا برقمه. سيشعر بالأمن لكنه سيفقد الشعور به منذ أن يصبح تحت المراقبة الشاملة. وهو سيطلع على المعلومات أكثر، لكنه لن يمتلك أية معرفة.. سيشارك في صناعة الثقافة، لكنه لن يكون مثقفا. وهو سيقترب من الجميع، لكنه سيبتعد عنهم أكثر.. إن إمبراطورية التجسس الشامل قد أوشكت على الإعلان عن نفسها تحت إسم مجتمع الرقمنة.. وبما أن هذه الإمبراطورية عابرة للحدود ومالكة للأرض والسماء، فإن غوغل يمكن أن يعلن نفسه كإله جديد!.. أما مريدوه أو أنصاره أو مواطنوه فهم ليسوا دائما من الأقوياء المنعمين،

بل أغلبهم من الأغبياء الأليفين!.. من كائنات «الإنسان الأخير» حسب نيتشه!

لنتذكر فقط: لمواجهة ذلك الإله الجديد، ثمة دائما «إرهابي جديد». لنسمّه بالبدائي الجديد حسب بول هازار.. أو بالفدائي الجديد أو بالوفي الأخير حسب كارل شميدت.. أو الإنسان الحر واللاعب بعبارة ماركس. إنه العود على بدء!..

ولنسجل منذ الآن بأن حرب المجالات الجيوبولتيكية توشك أن تتحول إلى حرب عالمية ثالثة!..

تونس في 5 سبتمبر/أيلول 2015

مصادر وهوامش

الفصل الخامس

1 - فيدال دي لابلانش (1845-1918 Fidel de la blanche) جغرافي فرنسي كان له تطوير في علم الجيوبولتيك. صاحب كتاب مبادئ الجغرافيا البشرية. أول من استعمل ما سماه بالممكن possibilisme في عالم ردع القوى.

- أنظر كتاب - الكسندر دوغين - اسس الجيوبولتيكا ومستقبل روسيا الجيوبولتيكي ترجمة د. عماد حاتم - دار الكتاب الجديد - بيروت.

2 - راتسل: هو فريديريك راتسيل (1904-1844) صاحب نظرية الدول ككائنات حية في المدى المكاني. من المدرسة العضوية الألمانية. من أشهر كتبه: الجغرافيا السياسية. المدى عند راتسيل ينتقل من الصفة المادية الكمية إلى صفة الوسط الحيوي (نوع من الوسط الجغرافي البيولوجي). كرس دراسات عديدة لأمريكا في كتابيه. خرائط مدن الشمال الامريكي، والولايات المتحدة الأمريكية. وقال «أن الإحساس بالمدى متطور لدى الأمريكان لأنهم وضعوا أمام غزو الآماد الخالية». ومن هناك تنشأ مقولة الدولة العالمية - الإمبراطورية. كان قوميا متشددا.

3 - هيلفورد ماكيندر (1947-1861) هو البريطاني الأكثر تألقا في الجيوبولتيكا. صاحب نظرية المحور الجغرافي للتاريخ. وقد حارب طويلا لكي يقنع الساسة البريطانيين بنظرياته. ويؤكد أن الوضع الافضل لكل دولة هو الوضع المتوسط المركزي. والمركزية مفهوم نسبي يتبدل مع كل سياق جغرافي. ويعتقد أن القارة الأوراسية تقع في مركز العالم ويقع مركزها في قلب العالم (Heart land). وهذا هو رأس الجسر الجغرافي الأكثر ملائمة للسيادة على العالم. وبهذا الراي تحتل روسيا في هذا العالم موقعا إستراتيجيا هو الموقع الذي يُنسب عادة لألمانيا والذي أشاعه الجيوبولتيك الألماني. فروسيا بإمكانها أن تسدد الضربات وأن تستوعبها في الوقت نفسه من كل الاتجاهات. وهذه النظرية يؤخذ بها اليوم الجيوبولتيك في روسيا.

شارك ماكيندر في الإعداد لمؤتمر «فرساي» الذي عقد في العام 1919.. وهناك قرر موقف بريطانيا والولايات المتحدة حتى أن نظرياته قد اصبحت من ترسانة الجيوبولتيك الأمريكي.

4 - **ألفريد ماهان** (1840-1914) عالم وعسكري أمريكي. لم يعش لمؤتمر فرساي، ولكن تأثيره على أمريكا وأوروبا والعالم كان كبيرا. كرس جميع كتبه وجهوده لموضوعة القوة البحرية حتى أن هناك من وصفه بـ«أب المارينز واب الناتو». قال: «أن المصير المعلن لأمريكا هو مصير البحر». وقد أخذت أمريكا بآرائه. وكان قد توصل منذ أكثر من قرن ونصف إلى أن الخطر الأكبر على أمريكا هو الخطر الأوراسي (الصين وروسيا).

للإشارة فإن ماهان وسبيكمان هما اللذان وضعا أمريكا على طريق الهيمنة العالمية.

5 - 6- **نيكولاس سبيكمان** (1893-1943) تلميذ ماك ماهان. وقد تابع خط سيره. دراساته اعتنت بتحقيق السيطرة العالمية لأمريكا. صاحب نظرية «المحيط المتوسطي».

- راجع كتاب: **الكسندر دوغين**: أسس الجيبولتيك - مستقبل روسيا الجيوبولتيكي - ترجمة د. عماد حاتم - دار الكتاب الجديد - بيروت.

- راجع كذلك كتاب: الجغرافيا والمشكلات الدولية - د. محمد عبد الغني سعودي - دار النهضة العربية.

7 - اشتهر **كارل شميدت** الألماني (1888-1985) بكونه سياسيا وفيلسوفا ومؤرخا. لكنه كان من علماء الجيوبولتيك الكبار. استنبط شميدت تصور «النوموس» بمعنى مدى الأرض. وهو قريب من مفهوم التضاريس لدى راتسيل. ومن هنا اهتم بحضارات البر وخصائصها وحضارات البحر ومكوناتها. كتابه: «الأرض والبحر»، والذي يعرف أحيانا بالتوتر الكوني بين الشرق والغرب يعتبر الوثيقة الأهم في علم الجيوبولتيك. استخدم شميدث مصطلح «البهيموت» لقوى الأرض ولوياثان لقوى البحرتذكيرا بما ورد في العهد القديم.

8 - **البهيموت**: مصطلح استخدمه كارل شميدت في وصف قوى البر. ويعني به الإنسان والحيوان كما ورد في العهد القديم. وهو ما قد يفهم منه كذلك بالجماهير الخاضعة والأليفة والتي تعرف كذلك بالناسوت.

9 - أنظر كتاب: الداء الأمريكي - Le mal Americain

المؤلف ميشال كروزيه Michel Crosier

Edition Albin michel - paris 1995

- انظر كذلك كتاب: قادة - لنيكسون - Leaders -Richard Nixon

Ed : le plon - Paris 1990

10 - نفس المصدر.

- أنظر كذلك: لعبة الحكم لمؤلفه هيدريك سميث

Le jeu du pouvoir - Hedrick Smith

.Ed : belfon - Paris 1992

11 - أنظر ما جاء على لسان كسينجر في حوار مع - مجلة - Revue - الفرنسية - جانفي 2015، تحت عنوان: العالم كما يراه كسينجر.

قال كسينجر وزير خاريجة نيكسون «أن أمريكا تتقدم ولكنها معطلة وهي تواجه أعداء يكبرون. ويجب عدم إفلات هؤلاء من العقاب».

12- 13- جيمس سترلينغ يونغ، مؤرخ أمريكي كتب الكثير عن البيروقراطية الأمريكية. ويعتقد بأن قوة النظام الأمريكي في بيروقراطيته. وهو ما شرحه هيدريك سميث في كتابه «لعبة الحكم»

Le jeu du pouvoir – Hedrick Smith

.Ed : belfon – paris 1992

- أنظر كذلك كتاب: سنوات المتاهة - الحرب المموهة والسلام الجريح على مذبح القرن الـ21 - الصافي سعيد - منشورات عرابيا - طبعة 3 - تونس 2011.

14 - ايف لاكوست Yves lacoste: جغرافي فرنسي يكتب في الجيوبولتيك. من مواليد فاس في المغرب 1929. آخر كتبه «جيوبولتيك المتوسط». كما كتب عن جيوبولتيك الماء ودمقرطة الجغرافيا. أسس عام 76 مجلة هيرودوت herodote وبحث فيما يسمى بالجيوبولتيك التطبيقي. اي العلاقات السياسية الجغرافية في الفضاءات الصغيرة.

15 - أنظر كتاب: أسس الجيوبولتيكا - مستقبل روسيا الجيوبولتيكي - الكسندر دوغين- دار الكتاب الجديد - بيروت.

16- 17- بول فولفيتش: كان مستشارا للرئيس بوش /الابن. وقد شكل مع كونداليزا رايس وزيرة الخارجية ثم مستشارة الأمن القومي رأس حربة لغزو العراق. كان مرتبطا بالأوساط الصهيونية ومؤمنا بالقوة الإمبراطورية التي لا تقهر.

أشار في كتاباته بـ«الفورين أفيرز» إلى حصار النطاقات الصحية لإيران مثل أفغانستان والعراق. وكان يعتقد ان ذلك يمكن أن يجعل إيران ضعيفة ومستسلمة..

18 - أنظر ملخص الكتاب في مقالة لـ«سيمون تاي»، باحث وكاتب من سنغفورة، صاحب كتاب: آسيا لوحدها: الفجوة الخطيرة - المقالة نشرت بمجلة «جيوعرابيا» جانفي/فيفري 2011.

19 - دول البريكس: هي رابطة تظم البرازيل، روسيا، الصين، الهند وجنوب إفريقيا. وقد تتوسع لتظم أندونيسيا، إيران ونيجيريا. يمكن أن تعتبر البديل للاجتياح الأمريكي. وأساس بناء البديل الجيوبولتيكي (أوراسيا).

20 - أنظر كتاب: أسس الجيوبولتيكا - الكسندر دوغين- ترجمة د. عماد حاتم - دار الكتاب الجديد - لبنان.

- أنظر كذلك في مقدمة كتاب de la geopolitique

– Géo – et Stratégie

Ed : Fayard - Paris

حول الجيوبولتيكا - جيوبولتيكا وإستراتيجيا

كارل هاوزفر Karl Howshofer

21 - جربت إسرائيل الحرب الطائفية في لبنان فخربت مشروع التحرير الفلسطيني ثم قضت على المقاومة. كذلك أصبح الوجود الفلسطيني هشا في البلاد العربية. وآخر الحلقات سوريا. وقد رأينا ما الذي حدث للفلسطينيين في العراق. والآن يكاد لا توجد دولة عربية تدافع عن القضية الفلسطينية. لقد أصبحت آلام العرب تفوق آلام الفلسطينيين. فهم لاجئون ومعذبون ومهجرون وبلا أوطان. وهذا الوضع المتفجر والفوضوي أنسى العرب قضيتهم الأولى. وباتت إيران لدى بعضهم هي العدو الاساسي.

22 - **جبران عريجي:** مولود في زغرتا في لبنان 1951. رئيس سابق للحزب السوري القومي الإجتماعي. عاش طويلا في المهجر (فرنسا وأمريكا). وجاء ذلك في حديث له مع تلفزيون «الميادين» في برنامج لعبة الأمم - جويلية 2015 الذي يقدمه الصحفي سامي كليب.

23 - في مطلع يوليو 2015 أعلنت أمريكا أنها قتلت في غارة جوية زعيم تنظيم خراسان الموالية للقاعدة في سوريا. زعيم خاراسان من اصل كويتي وهو محسن الفضلي.

وهو قائد مجموعة تنتقل من بلد إلى آخر. انطلقت من آسيا الوسطى حتى وصلت إلى العراق وسوريا.

وحسب مدير الاستخبارات القومية «جيمس كلابير»، فإن جماعة خراسان يمكن ان تشكل تحالفا مع تنظيم داعش حسب ما كتبه فاضل الربيعي في شهر يوليو 2015.

قال فاضل الربيعي، «قريبًا سيظهر تنظيم إرهابي جديد متوحّش باسم «خراسان»»، وسيكون أسوأ من تنظيم «داعش»»، وربما نترحّم على «طيبة» تنظيم «داعش»»، بحسب تعبيره. وكتب الربيعي عبر صفحته الرسمية على «فيسبوك»»، تدوينة تحت عنوان «حفلة جنون في الشرق الأوسط، ولادة الوحش القوقازي»». وأوضح أنه بدأت ملامح ولادة «خراسان»»، كتنظيم متوّحش تتشكل داخل الحوض القوقازي، ثم امتداداً حتى الحدود الأفغانية- الباكستانية، مع تدفق الإرهابيين القوقاز والشيشان والأفغان والباكستانيين نحو سوريا والعراق، وأضاف: «تواترت الأنباء عن صراعات حقيقية تخوضها جماعات متوّحشة هناك، حول الموقف من (دولة الخلافة) في الشام والعراق»». ويبدو أن الأمراء القوقاز باتوا يلعبون دوراً مركزياً في هذه الصراعات، وذلك بعد مبايعات علنية لـ»الخليفة البغدادي»». وشرح قائلا «إن الوقائع الراهنة تؤكد انتقال هذه الصراعات إلى أرياف حلب وإدلب والرقة ودير الزور والموصل، وذلك مع تفجرّ التناقضات الداخلية بين المجموعات الشيشانية- الأفغانية- الطاجيكية»». وواصل الربيعي «لعل إعلان (دولة الخلافة) مؤخراً عن إعدام مجموعة من (المجاهدين القوقاز) بحجة ارتباطهم بجهاز المخابرات الروسي KGB، والحديث عن اختراق أمني، يؤكد بشكل قاطع أن الصراعات على الحدود الأفغانية-الباكستانية إنتقلت إلى بلاد الشام والعراق، وأصبحت صراعات محلية»». وتابع المفكر العربي قائلا: «ثمّة مغزى عميق في فكرة إطلاق اسم خراسان على هذا الإقليم، فقد أطلق المجاهدون الأفغان والباكستانيون والطاجيك والشيشان اسم ولاية خراسان، على المنطقة الفاصلة بين

الحدود الأفغانية- الباكستانية بعد مبايعة أبوبكر البغدادي خليفة للمسلمين». وفي أبريل 2013 انتقلت مبايعة البغدادي من الحدود الأفغانية- الباكستانية إلى أرياف سوريا، حين أعلن أحد قادة طالبان ويدعى أبو عمر الخراساني مع خمسة من الزعماء مبايعة البغدادي، وهو ما أثار حفيظة الجماعة القوقازية التي استنفرت صفوفها وأعلنت باسم زعيمها أمير القوقاز أبومحمد الداغستاني عن رفض البيعة. كل هذه المؤشرات، تؤكد أن ولادة تنظيم خراسان، باتت وشيكة، بحسب قول الربيعي».

(موقع: وكالة وطن للأنباء 15/07/2015)

24 - أحمد داوود أوغلو: وزير خارجية سابق ورئيس وزراء حاليا حتى صدور هذا الكتاب (مرشح للإستقالة) يعتبر منظرا للسياسة الخارجية لحزب العدالة الحاكم. صاغ نظرية «صفر مشاكل» مع العالم قبل نحو عشر سنوات. وكان يطمح أن تصبح تركيا قاعدة لعمل عضوي تضامني في الشرق الاوسط وشرق أوروبا وكذلك في آسيا الوسطى، ولكن بعد عشر سنوات بدا أن الحصاد الدبلوماسي هزيلا واصبح لتركيا صفر جيران.. ثم أصبحت سياستها الخارجية صفر فعالية..

25 - حين تزوجت الفتاة الحمصية من الإمبراطور «سبتيموس سيفروس» أصبحت ملكة على روما. كان إسمها جوليا دوما. هي من سوريا والإمبراطور الزوج من ليبيا. وقد حكما روما بعد رحيل الأباطرة الأنطونيين. وهما من رعايا الإمبراطورية لكنهما ولدا وعاشا في بلدان عربية. وعلى هذا الاساس اختارا بعضهما للزواج، وذلك اثناء زيارة قام بها سبتيموس لإخماد الفوضى في سوريا. اشتهر عصر السيفريين بالإبداع والقوة وباتت سوريا إحدى مراكز العلم والفن. وآنذاك أطلق الفيلسوف السفسطائي ابوليانوس قولته الشهيرة «لكل مواطن في هذا العالم وطنان: واحد في سوريا وآخر في بلده» وكتب الشاعر جوفنال اللاتيني أن نهر العاصي اصبح يصب في التيبر. مات سيفروس في العام 112 قبل الميلاد وترك ولدان كركلا وجيتا. واندلعت معركة بينهما فقتل كركلا أخاه ليسيطر على الحكم.

26 - أنظر موقع فولتير – تيري ميسان – تركيا في خطر

- أنظر كذلك المشاريع السرية لإسرائيل والسعودية – موقع شبكة فولتير – تيري ميسان جوان 2015. Thierry Meyssen – Réseau voltaire

27 - رالف بيتر، هو جنرال أمريكي متقاعد أصدر أخيرا كتابه «حدود الدم»، تكلم فيه عن الحدود الدولية التي لا تقام على العدالة وإنما على القوة. كان تطويرا لمقالات ظهرت في مجلة القوة العسكرية. وهي مقالات قامت بإعادة توجيه الإستراتيجية الأمريكية في الشرق الاوسط نحو التقسيم. إنه اقتراح قديم جديد لإعادة تقسيم المنطقة.

28 - رجال أردوغان: هناك في «القصر الأبيض التركي» أو قصر «رئاسة الجمهورية» عندما تغلق الأبواب، يجلس رجب طيب أردوغان رئيس الجمهورية التركية، أو «الرجل الطويل»، ببدلته الزرقاء المُقلمة ليراجع الملفات، وأمامه عدد من المستشارين.

ففي الجهة اليمنى من الطاولة نجد ،بن علي يلدرم، صديق أردوغان منذ تسعينيات القرن الماضي يطلق كلماته الرزينة مقدماً رؤيته الهادئة المتوازنة في الأمور الداخلية والخدماتية للبلاد.

وفي الكرسي المقابل ستجد نظرات مخيفة من «إيفكان ألاء» الشخصية الأمنية التي قادت حملة ضد جماعة الداعية الإسلامي فتح الله غولان.

من ناحية أخرى ما زلت تسمع صوتاً إعلامياً كثير الكلام متمرداً على مهندسي الاقتصاد في الحكومة إنه «يغييت بولط».

هذا المشهد الخيالي لن يخلو من صانع المانشيتات ومنتقي المصطلحات الإعلامية في خطابات أردوغان وهو القلم السري «أيدن أونال» الذي توجه نحو البرلمان في يوليو/ حزيران 2015 لكن بصماته مازالت موجودة.

لكن «بن علي يلدرم» صديق أردوغان، هو أقوى هؤلاء الرجال.

فهو التكنوقراطي الناجح الذي يدير 13 مستشاراً يحكمون سياسة تركيا.

شغل «بن علي يلدرم» منذ عام 2002 وحتى 2013 منصب وزير النقل والمواصلات، فهو الصديق القديم واليد اليمنى لرئيس الجمهورية رجب طيب أردوغان، فالصداقة بين الرجلين تعود إلى عام 1994 عندما كان أردوغان يترأس بلدية إسطنبول الكبرى، ويلدرم في تلك الفترة كان يُدير شؤون المواصلات البحرية داخل إسطنبول.

ويعود الفضل إلى يلدرم في تأسيس شبكة ميترو عالية الجودة في إسطنبول، وخط سكك حديدية سريعة تربط بين بعض المدن، وكان الإنجاز الأكبر له هو المخاطرة ودخول تحدٍّ في استكمال مشروع العصر ميترو مرمرة الذي يصل القارتين الآسيوية والأوروبية تحت الماء.

تلك المشروعات التي مكنت وثبتت لمسات حزب العدالة والتنمية في الجانب الخدماتي، تضعه في مكانة الجندي المجهول.

أما أيدن أونال فهو قلم أردوغان المجهول.

إنه شخصية هادئة وقليلة الكلام والانفعال .. ومانشيتاته ترسم الخطوط الرئيسية لسياسة حزب العدالة والتنمية

يعدّ أيدن أونال الجندي المجهول في صناعة التأثير على الرأي العام التركي حول عديد القضايا، وانتقاء المصطلحات وضخها في وسائل الإعلام التركي، وتحوّلها إلى مانشيتات عريضة ترسم الخطوط الرئيسية لسياسة الحزب الحاكم.

كتب أونال خلال ثماني سنوات حوالي ستة آلاف صفحة من قطع A4 شكلت خطابات أردوغان في الفترة ما بين 2007 ولغاية 2015، حيث عُرف عن أسلوبه القرب والملاءمة لطريقة أردوغان الخطابية بالإضافة إلى اختيار أسلوب النقد اللاذع للمعارضة، والعمل على اختيار المصطلحات التي تسيطر على عناوين الصحف ووسائل الإعلام التركية والعالمية.

أما إيفكان ألاء فهو يد أردوغان الأمنية الضاربة.

قاد حملة منظمة للقضاء على نفوذ جماعة فتح الله غولان.

لم يجد الرئيس التركي رجب طيب أرودغان أفضل من يده وعقله الأمني المدبر إيفكان ألاء ليشغل منصب وزير الداخلية في التغيير الوزاري الاضطراري يوم 25 كانون الأول عام 2013

وعلى الرغم من أنه ليس عضواً في البرلمان. قاد ألاء حملة منظمة للقضاء على نفوذ جماعة فتح الله غولان أو كما يسميها موالو الرئيس التركي التنظيم الموازي، واستطاع المستشار السابق لرئيس الوزراء ألاء أن يحد بشكل ملحوظ من نفوذ مناصري الداعية الديني فتح الله غولان.

وبسبب الدستور التركي القاضي باستقالة وزراء الداخلية والمواصلات والعدل من مناصبهم قبل ثلاثة أشهر من الانتخابات البرلمانية استقال آلاء لكنه توجه من مبنى وزارة الداخلية إلى القصر الأبيض أو قصر رئاسة الجمهورية حيث أدار عملية اختيار

مرشحي حزب العدالة والتنمية بجانب وزير المواصلات السابق بن علي يلدرم لخوض الانتخابات البرلمانية التي جرت في شهر حزيران الماضي.

ويعتبر آلاء من أقوى الشخصيات الأمنية التي وصلت إلى البرلمان التركي في الانتخابات التركية.

وثمة يغيت بولط ورقة أردوغان الاقتصادية.

وربما لا يكون يغييت بولط جندياً مجهولاً في الشارع التركي، لكنه ليس بالاسم المتداول دولياً، فهو الشخصية المشاكسة في القصر الجمهوري، التي بدأت تضرب بتصريحاتها رجال الاقتصاد في حزب العدالة والتنمية الحاكم.

وبولط تسبب في الأزمة الحكومية التي عصفت بحكومة العدالة والتنمية قبيل الانتخابات الماضية عندما تداولت وسائل الإعلام خبر نية نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية «علي باباجان» الاستقالة من الحكومة، فمستشار أردوغان الاقتصادي أسرف في تدخلاته الاقتصادية لحد أغضب مهندس اقتصاد تركيا الجديدة باباجان.
يذكر أن «بولط» عمل مستشاراً في رئاسة الحكومة منذ عام 2013، ومن ثم انتقل في عام 2014 مع الرئيس أردوغان ليكون أحد أعضاء كتيبة مستشاريه.

وهناك أسماء مجهولة أخرى ربما لا يذكر اسمها أبداً ولا تظهر على أي وسائل إعلامية. (موقع: هافينغتون بوست عربي 31/07/2015)

29 - غراهام فوللر صاحب كتاب «عالم بلا إسلام» كتاب افتراضي يطرح نظرية: ماذا لو لم يكن هناك إسلام؟ هل سيكون العالم أفضل أم اسوأ؟ كتب كذلك عن دكتاتورية أوردغان المقنعة. هو رئيس سابق لقسم البحوث والتخطيط في وكالة الإستخبارات الأمريكية. يقول «أن الأحمق فقط هو من يدعي أنه بإمكانه أن يتوقع ما سوف يحدث في الشرق الأوسط».

إنه الرئيس السابق لقسم البحوث والتخطيط في وكالة الاستخبارات الأميركية CIA، "جراهام فولر Graham Fuller " والذي شغل منصبه لسنوات مما جعل كبريات الصحف و مراكز الفكر الأميركية تتعامل مع تحليلاته وتوقعاته باهتمام كبير ...

30 - أنظر حوار مع حسنين هيكل لجريدة السفير اللبنانية – أغسطس 2015.
أجرى الحوار في الإسكندرية رئيس التحرير طلال سلمان.

31 - بعد توقيع الاتفاق مع إيران في رمضان / حزيران 2015 مباشرة، هجم معظم مدراء الشركات النفطية الكبرى مثل توتال وشال وايني على طهران. وهناك تكلموا عن استثمارات كبيرة. ولكن الإيرانيين كانوا يردون «انهم لم يضعوا بعد إستراتيجية للتعامل الجديد».

32 - الجزائر في عين الإعصار. هذا لم يعد خافيا من خلال زيارة المسؤولين الروس والفرنسيين والأمريكان وكذلك من خلال التقارير الصحفية والإستخبارية. ويزداد الشعور لدى الجزائريين أن بلدهم مستهدف منذ انفجار الربيع العربي. وأن ثرواتهم مهددة بفعل خارطة الإرهاب المتحولة وهو إرهاب تشترك فيه منظمات وجماعات مع دول داعمة. ويرى مراقبون كثيرون أن موت بوتفليقة قد يفتح الجزائر على صراعات قوية على رأس السلطة بين الأجهزة، وآنذاك قد ينشط الإرهاب المدعوم دوليا من أجل إستراتيجية الفوضى والتفتيت. وجاءت أحداث غرداية الأخيرة في صيف 2015 لتدق ناقوس الخطر حول التقسيم الطائفي بين السنة والإباضية كمدخل لتلك الفوضى.

ويعتقد بعض الخبراء أن ملف الجزائر مرتبط بملف ليبيا. وهما مرشحان للتسخين في فترة لاحقة. كما يعتقد هؤلاء أن القاعدة الأمريكية في جنوب تونس تاتي في إطار هذا الإعداد لإطلاق الفوضى في بلدان المغرب العربي!..

- أنظر كذلك: هل الجزائر جزء من مخطط التقسيم؟ ما كشفه خبير في السي.اي.اي (بيل ستوارت) بتاريخ 2015-07-22.

33 - قال خبير الطيران الأمريكي «**بيل ستيوارت**» عن عاصفة الحزم أنها من حيث الأداء هي بحق استعراض تلفزيوني جيد برزت فيه كل مواهب الطيار السعودي. وقال كذلك أن السعودية تمتلك الآن أحسن الطيارين في العالم. وقد عملت السعودية على بناء قوة جوية محترمة ومخيفة. ولكن من الناحية السياسية، فإن الطيران لا يحسم الحروب ولا يضمن الانتصار النهائي ولذلك، فإن السعوديين عليهم الآن أن يبتدعوا نظرية جديدة للسلام في المنطقة لهم ولجيرانهم..

- **روبين رايت** Robin Wright محلل إستراتيجي في النيويورك تايمز. كتب أخيرا في صيف 2015: «كيف يمكن تقطيع الشرق الأوسط. وكيف يمكن أن تصبح 4 دول إلى 14 دولة؟». اعتبر سوريا بمثابة القادح أو الفتيل.

- أنظر كذلك المقالة التي نشرتها النيويورك تايمز بتاريخ 2015-07-22 عن مخطط التقسيم للعالم العربي.

34 - الجدار العازل بين تونس وليبيا الذي اعلن عنه رئيس الحكومة الحبيب الصيد في حزيران الماضي 2015 اثار كثيرا من التعليقات والسخرية. وصفه البعض بجدار الأسد الهرم (عرين) وسماه البعض بجدار العار. ودافع عنه البعض بأنه مجرد متاريس ترابية ووصفه الآخر بأنه عبارة عن حوض من الماء. وسخر آخرون فقالوا أن السيسي حفر قناة تربط بين بحرين. أما السبسي فقد حفر حفيرا يفصل بين تونس وليبيا. وعموما فقد كانت فكرة مستهجنة يقال أن الحكومة قد أخذتها على عجل ثم سلمتها للتنفيذ على عجل إلى مقاولين. الجيش لم يعلم بذلك إلا في آخر لحظة. أما فائدة هذا العازل أو الساتر أو الجدار، فهي تبدو منعدمة تماما لأن «لا الإرهابيين ولا المهربين سيمرون عليه» وبإمكانهم العبور إلى تونس أو الجزائر بنفس التكتيكات. بل على العكس قد تكون له ارتدادات وانعكاسات سيئة في المستقبل على علاقة البلدين.

35 - أنظر في مذكرات هيلاري كلينتون «خيارات صعبة» 2014.

تتحدث كلينتون عن مصر فتقول:

«دخلنا الحرب العراقية والسورية والليبية وكل شيء كان على ما يرام وجيد جدا. تغير كل شيء في خلال 72 ساعة. كنا على اتفاق مع إخوان مصر على إعلان الدولة الإسلامية في سيناء وإعطائها لحماس وجزء لإسرائيل لحمايتها وانضمام حلايب وشلاتين إلى السودان وفتح الحدود مع ليبيا من ناحية السلوم. وقد تم الاتفاق على إعلان الدولة الإسلامية يوم 2013/7/5. وكنا ننتظر الإعلان لكى نعترف نحن وأوروبا بها فوراً».

تقول هيلاري أيضا: «كنت قد زرت 112 دوله في العالم من أجل شرح الوضع الأمريكي مع مصر وتم الاتفاق مع بعض الأصدقاء بالاعتراف بالدولة الإسلامية حال إعلانها فورا. وفجأة تحطم كل شيء .. كل شيء كسر أمام أعيننا بدون سابق إنذار حيث أنه شيء مهول قد حدث. فكرنا في استخدام القوه ولكن مصر ليست سوريا أو ليبيا فجيش

مصر قوى للغاية وشعب مصر لن يترك جيشه وحده أبدا».

تضيف هيلاري تقول: «عندما تحركنا بعدد من قطع الأسطول الأمريكي ناحية الإسكندرية تم رصدنا من قبل سرب غواصات حديثة جدا يطلق عليها ذئاب البحر 21 وهى مجهزة بأحدث الأسلحة والرصد والتتبع وعندما حاولنا الاقتراب من قبالة البحر الأحمر فوجئنا بسرب طائرات ميج 21 الروسية القديمة ولكن الأغرب أن رادارتنا لم تكتشفها من أين أتت وأين ذهبت بعد ذلك لا نعرف ففضلنا الرجوع مرة أخرى .

ومن هنا ازداد التفاف الشعب المصري مع جيشه وتحركت الصين وروسيا رافضين هذا الوضع وتم رجوع قطع الأسطول وإلى الآن لا نعرف كيف نتعامل مع مصر وجيشها «.

تلخص هيلاري: «إذا استخدمنا القوه ضد مصر خسرنا. وإذا تركنا مصر خسرنا شيء في غاية الصعوبة. فمصر هي قلب العالم العربي والإسلامي ومن خلال سيطرتنا عليها من خلال الإخوان عن طريق ما يسمى الدولة الإسلامية وتقسيمها كان بعد ذلك التوجه لدول الخليج وكانت أول دولة مهيأة الكويت عن طريق أعواننا هناك من الإخوان. فالسعودية ثم الإمارات والبحرين وعمان وبعد ذلك يعاد تقسيم المنطقة العربية بالكامل بما تشمله بقية الدول العربية ودول المغرب العربي وتصبح السيطرة لنا بالكامل خاصة على منابع النفط والمنافذ البحرية وإذا كان هناك بعض الاختلاف بينهم فالوضع يتغير». (موقع الصحافة اللبنانية)

– بالعودة إلى فصول الكتاب «حول الشرق الأوسط»، وجدنا أن الترجمة غير دقيقة. وقد تلاعبت بعدة كلمات وجنحت نحو التضخيم.. ولكن ما ثبت أن هيلاري كلينتون قد تفاجأت بانقلاب السيسي. وأن السيسي أخفى عنها كل المعلومات.. وقد بدا عنيدا مع الإدارة الأمريكية.. وأن مرسي كان متفهما معهم ومستعدا لمنحهم (أمريكا وإسرائيل) وضعا مريحا سمته هيلاري كلينتون بسلام جديد في المنطقة.. **(المؤلف)**

35* - لقد أصبح من الواضح أن هناك من قام بتعطيل التسوية السياسية. فقطر وتركيا وكذلك ساركوزي كانوا ضد توقف الحرب على ليبيا قبل مقتل القذافي شخصيا. وقد استبعدت كل محاولات التسوية. وكان القذافي مستعدا أن يتنحى طواعية ويذهب إلى جنوب ليبيا أو إلى بلده سيرت ويعطي فرصة لحكومة انتقالية تؤسس لانتخابات ودستور جديد ولكن معظم اللاعبين في المسرح الليبي كانوا ضد ذلك. وهكذا فيما يبدو عملت هيلاري على إخفاء استعدادات القذافي للتنحي عن أوباما واعتبرتها مناورة. كانت المفاوضات عبر وسطاء وتم جزء منها في جرية التونسية. وتكلم عن جزء منها عبد الله السنوسي في رسالته التي كتبها في السجن مؤخرا (اطلع عليها المؤلف).

36 - السفير الأمريكي في ليبيا والذي تم اغتياله في بنغازي في خريف 2012 هو كريس ستيفنز. وقد نشط كثيرا في إحباط أي حل سلمي مع ليبيا أثناء هجوم الأطلسي. ثم عمل كثيرا في نقل السلاح من ليبيا إلى سوريا.

37 - ميشال رانبو Michel Rimbeaud: سفير فرنسا السابق في موريتانيا وزمبابوي والسودان. وهو كاتب ومفكر. آخر كتبه: عاصفة على الشرق الأوسط الكبير – صدر في فرنسا 2015. Tempête sur le grand moyent-orient

راجع الحوار الذي أجراه ماجد نعمة وحسن زناتي في مجلة «أفريكازي» الفرنسية بمناسبة صدور كتابه حيث أكد أن واشنطن ليس لها إلا منطق الفوضى.

38 - أنظر كتاب: تاريخ العربية السعودية – المستشرق فاسيليف-
الفصل السادس عشر – منشورات دار الفارابي 2011.

تعود العلاقات مع أمريكا إلى عام 1931. وقد التقى الملك المؤسس مع الرئيس روزفلت عام 1945 ووضعا معاهدة عرفت تحت إسم «معاهدة كينسي» لأنها وقعت على الباخرة كوينسي في البحيرات المرة بالبحر الأحمر.

- أنظر كذلك كتاب: العلاقات السعودية الأمريكية – في البدء كان النفط – تأليف لنسون غريسون – ترجمة سعد هجرس – دار الجيل – لبنان.

39 - لا ينسى **كسينجر** ذكرياته المرّة مع الرئيس الاسد/الأب. ولقد اعترف في مذكراته، بأنه لم يتعلم تاريخ الشرق الأوسط إلا من خلال محاضرات الأسد التي كان يلقيها عليه في كل لقاء. وقد سمى كسينجر تلك الجلسات بـ«دبلوماسية المثانة» التي كان يستعملها الأسد مع مبعوثي أمريكا. كريستوفر وزير خارجية كلينتون اعترف هو ايضا بأنه يصبح تلميذا مستمعا إلى الاسد حالما يدخل عليه. أسلوب الاسد في المفاوضات كان يعتمد على إمتصاص الغضب وامتصاص دفاعات الخصم عن طريق استلاب قدراته الذهنية. في آخر لقاء مع كلينتون في جنيف عام 1999، قال الأسد للرئيس الأمريكي: «أنا ساموت قريبا.. ولكن سأتركيم تتقلبون على نيران الشرق، نحن لم نأت من المريخ.. نحن أبناء الشرق».
في مقابلة حديثة مع صحيفة «نيوروركر» الأميركية قال هنري كسنجر: «لقد اعتقدنا أن حافظ الأسد قد قضى على جميع الأغبياء في بلاده، ولكن لحسن حظنا مايزال هناك 3 مليون منهم ... هل تعتقدون أننا أقمنا الثورات في تونس وليبيا ومصر لعيون العرب؟ يضحك ساخرا بعدها، ويقول كل ذلك لأجل إيران وسوريا. لقد حاولت مع حافظ الأسد، وأنا أعترف أنه الشخص الوحيد الذي هزمني وقهرني في حياتي كلّها. يتابع ويقول، ثورة سوريا هي ومنذ آب 2011 حرب عالمية ثالثه، هي باردة حاليا، ولكنها ستسخن بعد عدّة شهور ...

40 - أنظر كتاب «مجد الأمم»
La gloire des nations ou la fin de l'empire
Helène Carrere d'encausse
Ed : belfond – paris 1884.

أنظر كذلك كتاب: سنوات المتاهة – الحرب المموهة والسلام الجريح على مذبح القرن الـ21 – الصافي سعيد – دار نقوش عربية 1995 – ودار عرابيا – تونس 2011.

41 - نفس المصدر السابق. وكذلك كتاب: «ولادة وسقوط القوى الكبرى» - بول كنيدي
Naissance et declin des grandes puissances –
Paul Kenedy
ed : plon – paris 1989.

42 - انظر كتاب: سنوات العاصفة – هنري كسينجر
ترجمة الصافي سعيد – بيروت 1881.
- انظر كذلك كتاب «قادة» – نيكسون – Leaders – Nixon
.Ed : le plon – Paris 1987

أنظر كذلك دراسة: نظرية الترابط الصين/الهند/والغرب - سيمون تاي باحث من سنغفورة Simon Tay -
مجلة جيوعرابيا - عدد جانفي/فيفري 2011.

43 - أنظر مقالات عن كتاب -عالم ما بعد أمريكا - لفريد زكريا - رئيس تحرير نيوزويك - والصدام والتعاون - لريتشارد بيتس مدير معهد الحرب والسلام، وصاحب كتاب -الابتزاز النووي- وهو سجال بين فوكوياما وهنتنغتن وميرشايمر
مجلة جيوعرابيا - عدد جانفي/فيفري 2011

- انظر كذلك مقال ترشارلز مايير عن «الإمبراطورية التي لا تنتهي». وهو مقال جدالي حول كتب صدرت في أمريكا عام 2010 عن الإمبراطوريات وتاريخها وطرق حكمها وتوسعها وانحطاطها.

44 - أنظر كذلك ما كتب حول كتاب «إمبراطورية من أجل الحرية» لريتشارد ايمرمان في مجلة جيوعرابيا - مارس 2011.

أنظر كذلك دراسة تشارلز مايير، المؤرخ الالماني المتخصص في تاريخ الإمبراطوريات - نشرت في مجلة «العلاقات الدولية» الفرنسية 2010. من كتب مايير: التفكك، الحقيقة في مواجهة العدالة.

45 - عالم بلا أمريكا - سؤال افتراضي طرحه المؤلف، كردّ على «عالم بلا إسلام» لغراهام فوللر.

46 - عالم ما بعد أمريكا - كتاب البروفسور فريد زكريا - رئيس تحرير نيوزويك - صدر في العام 2010.

47 - **«دوغ كاسي»** هو مستشار في صناديق الإستثمار. وخبير في الأوراق المالية. منظر اقتصادي أمريكي يتوقع أزمة اكثر خطرا من ازمة 1929.
ظهر اخيرا على قناة Raison TV متشائما (أوت 2015).

أنظر كذلك مقال جاك أتالي Jacques Attali - العالم يقترب من كارثة اقتصادية ولا أحد يتكلم - مجلة الاكسبرس الفرنسية - فيفري 2015.

47* - تأتي الولايات المتحدة (في المرتبة الأولى بنسبة 23,32 %) على رأس الشريحة الأولى ثم الصين بنسبة 13,9 % ثم اليابان بنحو 6,18 % وتليها ألمانيا بنحو 5,17 % ثم بريطانيا بـ3,94% ثم فرنسا بنسبة 3,81% ثم البرازيل في المرتبة السابعة بنحو 3,15% ثم إيطاليا بـ2,88 % ثم الهند بنسبة 2,75% ثم روسيا بنسبة 2,50% ثم كندا بنحو 2,40 % والمجموع 65,2 %.

وتأتي كوريا الجنوبية على رأس الشريحة الثانية بنحو 1,90 % ثم إسبانيا بـ1,88 % ثم المكسيك بنحو 1,72 % ثم اندونيسيا بنحو 1,19 % ثم هولاندا بنحو 1,16% ثم تركيا بنحو 1,08 % ثم السعودية بنحو 1,01 % ثم سويسرا بنحو 1 % والمجموع بنحو 10,94%.

أما الشريحة الثالثة فتضم بقية دول العالم وهي لا تملك إلا ما مجموعه 23,86% . وهو ما يعني أن 19 دولة فقط من العالم تستحوذ على أكثر من ثلاثة أرباع اقتصاد العالم. والربع الرابع هو كل ما تملكه نحو 180 دولة.

باختصار إن ثروة أمريكا لوحدها تعادل ثروة 180 دولة في العالم من بينها قارة إفريقيا كلها ونصف آسيا وثلثي أمريكا اللاتينية وثلث دول أوروبا وجميع البلدان العربية دون السعودية. (موقع: les echos)

- قال رئيس منظمة ويكيليكس جوليان أسانج إن القذافي هو من أفسد مشروع انضمام إسرائيل للمنظومة الأوروبية ، وهو من قام بارسال سفينة مساعدات أنقرة وجعل إسرائيل تتورط وتخسر علم الاستقرار من الأتحاد الاوروبي .

وجاء في تصريحات صحفية له بتاريخ 10 سبتمبر 2015 إن سبب حرب ليبيا هي مطالبة القذافي للإتحاد الأوروبي ذهب مقابل النفط وليس عملة (بترودولار).. وأشار إلى أن قضية أطفال الأيذز المعروفة والتي اتهمت فيها خمس ممرضات بلغاريات وطبيب فلسطيني في نهاية عام 1999 دبرت من أجل إخراج القذافي من إفريقيا وإفساد الإتحاد الإفريقي وإفساد مشروع الدينار الذهبي الإفريقي.

وقال أن بريطانيا تملك نحو 90 مليار جني إسترليني من أموال ليبيا ، وأن بريطانيا منعت الجيش المصري من مساعدة القذافي .

وكشف رئيس وكيليكس عن مجموعة من التفاصيل الخاصة بمواقف الدول العربية والخليجية ، وقال أن تركيا ساومت الحلف الأطلسي الذي قام بعمليات عسكرية ضد الجيش الليبي وقت الثورة الليبية على الاشتراك في السوق الأوروبية المشتركة مقابل الاشتراك في حرب ليبيا .

وأوضح أن قطر دفعت 50 مليون دولار لأحد القيادات مقابل سرقة منظومة الجيش الليبي، وأن دولة الإمارات تدين لليبيا بـ47 مليار دولار استثمارات ليبية. (موقع: الديار / 10 سبتمبر 2015)

48 - نادي بيلدبيرغ – أنظر الكادر السابق في هوامش الفصل الثالث.

49 - نسيم نيكولا: كاتب ومؤلف وباحث حقق أفضل المبيعات من كتابه «الإوزة أو البجعة السوداء». لبناني أمريكي إسمه الكامل نسيم نيكولا نجيب طالب. متخصص في مجال الرياضيات المالية. باحث في استيمولوجيا الأحداث الصدفوية. مختص في التوقعات للأحداث النادرة.

50 - هربرت ماركيز (1979-1898): فيلسوف ومفكر ألماني امريكي يساري راديكالي. من مدرسة فرانكفورت مع أدورنو وهابرماس. كتابه الأشهر: «الإنسان ذو البعد الواحد» وقد تكلم عن إختفاء الدور الفعال للطبقة البورجوازية والطبقة البروليتارية على حد سواء. كان من زعماء وأباء ثورة الشباب في العام 1968.

51 - مانويل كاستلتس: باحث اجتماعي أمريكي. صاحب كتاب «العصر المعلوماتي: الاقتصاد والمجتمع والثقافة». تكلم عن المجتمع الشبكي وعن قوة الهوية وكذلك عن نهاية الألفية.

أنظر الدراسة التي كتبها **د. حسن مصدق** (في نقد إيديولوجيا مجتمع الشبكات 18/07/2009) (موقع: ذوات).

حـوارات مع الكـاتب عن:

كتاب «جيوبوليتيك الدم»

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

الصافي سعيد

في حوار عن كتابه: «جيوبوليتيك الدم»

برنامج «تونس 24/7 » (قناة الحوار التونسي)

حوار: مريم بالقاضي

18 ديسمبر 2015

أرحب بضيفي الكاتب والصحفي والمحلل السياسي الصافي سعيد.. وقبل كل شيء أهنئك بالكتاب الجديد: «جيوبوليتيك الدم» .. وكما نلاحظ، فإنه عنوان مستفز.. أما العنوان الفرعي فهو: «التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة».. هل أردت أن تستفز القارئ العربي من خلال العنوان؟

بالعكس عنوان الكتاب يبدو لي أقل من الواقع.. يا ليت يسعفنا الخيال كي ننحت لغة أخرى للتعبير عن فضاعة الواقع.. نحن فعلا منذ أربع أو خمس سنوات نوجد في حفلة شواء مفتوحة (باربكيو أمريكي)..

وهذا ما تقوله في الكتاب.. وهو كتاب يتكون من 464 صفحة .. فبعد المقدمة التي تضعنا أمام الإشكالية المطروحة للكتاب، يأتي الفصل الأول: العربي المريض: الوهم والتاريخ والوعد.. ثم الفصل الثاني: الإرهاب المعَوْلم: الفوضى والفراغ والسرطنة.. ثم الفصل الثالث: الجغرافيا المتصدعة: خطوط الهوية والنفط والدم.. ثم الفصل الرابع: التاريخ الأسير: بلا سيادة ولا سرد ولا ظفر.. ثم الفصل الخامس: حرب الجيوبوليتيك: المجالات، الإيقاعات والاتجاهات..نعود معك إلى الفصل الأول أستاذ الصافي سعيد: العربي المريض، وخاصة بالألف واللام.. لماذا العربي مريض اليوم ؟

هو أكثر من مريض. الواقع العربي اليوم هابط ورديء (kitch). والعربي مهترئ ومريض ومطعون ومهان.. عاشت هذه المنطقة قرنا كاملا وهي تكافح من أجل استرداد كرامتها ولم تستطع إلى هذه اللحظة أن تضع معادلة الكرامة.. في الواقع نحن قمنا بثورات إسمها «ثورات الكرامة».. ولكن لا كرامة عندما تخترق السيادات، وعندما نصبح ساحات للدم.

العربي مريض اليوم لأنه لا يعرف لا اتجاهه ولا بوصلته، ولا هو مستعد حتى للتضحية كما يجب من أجل السيادة ومن أجل استرجاع ثرواته أو استعادة الروح لتاريخه المستلب والأسير. تاريخنا أسير منذ خمسة قرون. وجغرافيتنا اليوم أصبحت متصدعة بخطوط الغاز وخطوط الدم ولا نمتلك منها أي شيء إلا العناوين.. لا نمتلك أي شيء.. كل هذه الحروب التي تطحننا يوميا هي حروب أنابيب الغاز وكيف تحولت إلى أنابيب دم.. اليوم الصراع في سوريا هو صراع الغاز وكذلك الماء.. فعندما تقام دولة إسمها «دولة داعش» فإنما هي دولة لاستقطاع أراضي من العراق وأراضي من سوريا للتحكم في مرور خطوط الغاز إلى أوروبا وكذلك للتحكم في مجرى ماء النهرين دجلة والفرات.. هناك خطوط يجب أن تمر وهناك خطوط يجب أن لا تمر.. هناك مياه يجب أن تقطع عن هذه الدولة لتعطى لدولة أخرى.. إذا الغاز هو عنوان صراع القرن الـ21. وكذلك الماء.. القرن الـ20 كان قرن النفط .. قال كليمنصو سابقا: «أن هذا القرن الـ20 هو بحيرة من النفط، كل العالم سيعبر على هذه البحيرة». اليوم، القرن الـ21 هو قرن الغاز والماء. ومن يمتلك الغاز المسيل والماء المتدفق يتحكم في القرن الجديد والذي يليه. وكل ما يقال عن شيعة وسنة ودروز وعلويين وحوثيين أكاذيب ولبوسات إيديولوجية. كلها خيالات، وفانطازمات.. فأنا السني ليس عدوي الشيعي أو عدوي الدرزي. ولم أنهض من فراشي لأجد فجأة الشيعي أو الدرزي بجانبي. فالشيعي يعيش معي منذ 14 قرنا وكذلك المسيحي.. هذه كلها تفجيرات ألغام نائمة من أجل إلباس هذه المنطقة لبوسات متخلفة دينية، عرقية، طائفية لكي يستحوذوا على الثروات العربية من نفط وغاز وماء لمدة قرن آخر..

وهذا ما تفسره أستاذ الصافي سعيد في الكتاب. فكأنك تقدم مرآة لهذا العربي ثم تقول له: انظر لنفسك جيدا.. ثم صوب عيونك جيدا تجاه الحقيقة لترى المستقبل.. وقد تساءلت : «ماهي «عرابيا»، بلاد العرب اليوم؟. فهل هي فوضى حدود عارمة فقط؟»..

نعم إنها فوضى حدود وفوضى صراعات على الثروات وفوضى مجالات.. اليوم يجب أن لا يخطر ببالنا لدقيقة أن روسيا عندما تتحرك بهذه القوة هي قادمة من أجل إنقاذ رجل بعينه.. الدول والإمبراطوريات لا تتحرك من أجل رجل بعينه.. هي تتحرك من أجل مصالح استراتيجية ومن أجل زمن طويل ومهمات كبرى لصناعة زمن امبراطوري كبير.. المعركة اليوم هي بين الحلف الأطلسي وبين الحلف الأوراسي الجديد الذي يعاد تركيبه الآن.. هنا في منطقة الشرق الأوسط التي تمتد من باكستان إلى المغرب وهي منطقة حدود وتداخلات وثروات وطرقات وصراعات جيوستراتيجية.. فالذي يسيطر على هذه المنطقة سيسيطر على القرن الـ21 .. هذا هو منطق الصراع الكبير.. نحن عشب متكسّر تحت أرجل الفيلة الكبار لا أكثر من ذلك ولا أقل.. وكل أحلافنا وتصوراتنا لمكافحة الإرهاب هي أحلاف تنطق بمصالح الكبار.. نعم سنكافح الإرهاب ولكن الإرهاب هو الذي يشتغل الآن بجميع محركاته النفاثة. الإرهاب الكبير هو الدول الكبرى. الإرهاب هو صناعة الدول الكبرى. الإرهاب هو سياسة دولية وهو سلاح لتوجيه السياسات للاستحواذ على الثروات.. أقول أن «الإرهاب المعولم» هو تمظهر آخر للعولمة المتوحشة..

وهذا هو عنوان الفصل الثاني.. لو تسمح أستاذ أن أقرأ ما كتبته في هذا الفصل الثاني: الإرهاب المعولم.. الفوضى والفراغات والسرطنة.. حيث قلت: «لكي نفهم الإرهاب اليوم علينا أولا أن نخترع لغة سياسية جديدة لإدراك لحظة العبور من الحداثة إلى ما بعد الحداثة.. علينا أن نتساءل بلغة أخرى عمن هو الإرهابي اليوم؟ هل هو عدو محلي أهلي، أم هو عدو عابر للحدود؟ وهل هو فعلا عدو تقليدي أم عدو آخر من نوع جديد؟ وإذا كان عدوا، فلمن وضد من؟»

هو هذا .. إنهم يصنعون لنا هذا الوحش لتأبيد الخوف ثم الهيمنة. ونحن أيضا نصنع معهم هذا الوحش الجديد. الإرهاب هو محلي أيضا ومناطقي وإقليمي ودولي. وهو يتصاعد على طبقات. وفي منطقه الداخلي هو منظم ويعرف كيف يتكلم وأين يتكلم. هنا يتكلم لغة وهناك يتكلم لغة أخرى.. ولكن هذا الإرهاب الغامض مازلنا نفهمه بلغة الستينات أو بلغة السبعينات، على أنه مجموعة متعصبة أو فردا كارها لحياته أو فردا فقيرا أو مهمشا يذهب ليفجر نفسه.. ليس هذا.. هذا الشخص لا يفجر نفسه إلا إذا كان وراءه خطوط امدادات أخرى كثيرة وحزمة أهداف بعيدة ومتوسطة. باختصار توجد وراءه دول.. اليوم أقاموا لمحاربة «داعش» ثلاث أحلاف دولية، ولكن «داعش» هي صناعة الدول.. داعش لا يمكن أن تعيش من دون الدول المجاورة لها.. لقد كونتها الدول. وأنا ذكرت ذلك في كتابي الذي عمره ثلاثة أشهر من الصدور. وما يرويه اليوم «بوتين» لا يضيف لي شيئا. لأن الدول تعرف ذلك وأنا لم آت بمعلومات من القمر.. المعلومات كلها موجودة ومنشورة.. الدول تعرف لكن الدول لا تتكلم إلا عندما تتصادم.. نحن الذين ليس لنا مصالح مع هؤلاء الإرهابيين، نتكلم.. في الكتاب ذكرت بالأسماء من الذي يمول داعش بالسلاح ومن الذي يشتري من داعش النفط وكيف يعبر النفط وإلى من يذهب وكيف بعد ذلك يعبر إلى ميناء كذا وميناء كذا.. اليوم كل ذلك وقع فضحه من قبل الروس وكذلك الأمم المتحدة.. لماذا فضحوه اليوم؟ لماذا تكلموا اليوم؟ لأن المصالح قد تصادمت، لأن الدول تصادمت، لأن حادث الطائرة الروسية التي أسقطتها تركيا فجر كل شيء.. كل واحد فتح ملفه.. لكن هذا معروف للذين تابعوا مسلسل داعش.. السعودية تعرف أنها تركيا وتركيا تعرف أنها السعودية وقطر تعرف والخبراء يعرفون والمحللون يعرفون والصحافة الدولية تعرف.. أنا ذكرت أن «سمية أوردغان» مسؤولة على الأدوية والاستهلاك الكلي لداعش.. وبلال أوردغان مسؤول عن النفط وكل صفقات النفط والسلاح.. وهذا ما كشفه الروس وما هو موجود في كتابي بالتفاصيل.. لم تعطني إياه المخابرات. كله موجود في التقارير عند الأمريكان وعند الروس وعند الأتراك أنفسهم.. فهناك أناس ضد أوردغان بحثوا في هذه المسائل.. ولذلك أنا اليوم على قناعة بأن الدول التي تحارب داعش ستتفاوض معها في وقت آخر.. الغرب سيتفاوض مع داعش. إنها دولة خلقها الغرب. وقد أسميتها أحيانا بـ«داغش» أي «دولة الغرب الشيطاني».. قد يستقطع منها بعض الأراضي. وقد يحجمون من سطوتها.. لكن في نهاية التسوية، قد تستمر كدولة إسلامية في المنطقة لعزل سوريا عن العراق وعزل العراق عن سوريا وللاستحواذ على النهرين (دجلة والفرات) وللاستحواذ على زراعات سوريا والعراق

لإنشاء منطقة عازلة وسطى تفتح من حدود تركيا شمالا إلى حدود الأردن فالسعودية جنوبيا. وهذه هي طريق التجارة التركية نحو الخليج.. هي دولة تابعة لتركيا، خلقتها تركيا لمصالح تركيا ومعها السعودية لإضعاف العراق وسوريا وعزل بغداد عن دمشق.. تركيا لا تخفي هذا منذ القرن السابق، منذ سايكس بيكو، إذ ما انفكت تقول «بأن الموصل لي» وتقول «أن دجلة والفرات مياهي تتبع من جبال الأوروس والأناضول».. تقول هذا منذ قرن. والآن أتتها الفرصة لكي تقيم هذه الدولة لترعب بها جهات أخرى وتستحوذ بها على العقل السعودي. بدأت داعش بفكرة إنشاء فضاء سني لعزل الشيعة ثم تحولت إلى نبتة شيطانية.. هؤلاء يعرفون وأمريكا تعرف وإسرائيل تعرف وكل طرف من هؤلاء أصبح يرى أن مصالحه قد تحققت بوجود داعش. داعش هي الدولة الوسطى/الدولة العازلة.. إسرائيل تجد مصلحتها في داعش لأنها تحطم قوة الهلال الخصيب. السعودية تجد مصلحتها في عزل بغداد عن دمشق. تركيا تجد مصلحتها في العبور الحر إلى الخليج والاستحواذ على المياه والغاز.. واليوم ترى أن أوردوغان قد انفضح فضيحة كبرى حيث أعاد جميع علاقاته مع إسرائيل. تنكر اليوم حتى لحماس فأطرد بعض زعمائها من أنقرة ومن اسطنبول. فاوض باسم القضية الفلسطينية لأنه كان يستثمرها كورقة ليدخل بها إلى إسرائيل. لقد أعادوا كل شيء وكونوا ما يشبه الحلف الجديد.. وهذا الحلف سيصبح رأس الحرب للحلف المسمّى بـ«الحلف الإسلامي السعودي» الذي تكلمت عنه السعودية منذ 48 ساعة والذي قالت أنه سيضم 35 دولة. لكن هو في الحقيقة حلف سعودي/تركي/إسرائيلي. هذا كله من أجل ماذا؟

اليوم في العالم العربي توجد أربعة أحلاف، لدينا الحلف الستيني. هناك الحلف الأطلسي الغربي الذي يقول بأنه أنشئ لقتال داعش في العراق.. ولدينا الحلف الروسي (الأوراسي) الصين/إيران/سوريا/العراق/روسيا. وهذا أيضا أنشئ لقتال الإرهاب.. ثم لدينا الحلف العربي/السعودي الذي أنشئ لقتال الحوثيين في اليمن.. وأخيرا، لدينا الحلف الإسلامي السعودي الذي يبدو أنه أنشئ لقتال روسيا وإيران. وهذا الحلف شبيه بحلف «السنتو» الذي تأسس في الخمسينات وانحل في الستينات وظل شكلا إلى أن أتت الثورة الإيرانية لينحل كليا في السبعينات.. حلف السنتو هذا كونه الأتراك والباكستانيون بدعم من السعوديين والأمريكان والانجليز. هذا الحلف أنشئ لمحاربة الاتحاد السوفياتي كما هو الحلف الإسلامي اليوم ضد روسيا. حلف السنتو كان من أجل الاستحواذ على سوريا. كان الصراع على أشده من أجل احتلال سوريا، حيث كانت الأردن تريد أن تضم سوريا إليها، وكان العراق يريد نصفها، وتركيا تريد شمالها، وكانت السعودية تريد أن تسيطر عليها. كانت السعودية والعراق وتركيا يحركون السياسة السورية لمدة عشرين عاما.. ولكن من الذي أنقذ سوريا في ذلك الوقت؟ هي الوحدة مع مصر. وحدة 1958. جاء عبد الناصر ليخطف سوريا من الجميع ويحررها من كل هذه الصراعات والأطماع. اليوم عاد الصراع على سوريا. كلهم يريدون تقسيمها واحتلالها.. لماذا سوريا؟. سوريا هي الشام، هي هوية المنطقة، هي المجال الأوسط لمنطقة تمتد من الخليج إلى المغرب. هي نقطة الارتكاز، هي المائدة الدوارة على رأي المؤرخ سيتوارت. كل مفاوضات الشرق والغرب تحدث هناك. كل

ديانات الشرق والغرب تنتقل ثم تعبر من هناك وتنتشر.. الأب أغيستينو الكاهن الكبير التونسي/الجزائري (بمنطق اليوم) والذي عاش أواخر الإمبراطورية الرومانية كان يقول: «كل مسيحي له وطنان، لا بل كل إنسان في هذا العالم له وطنان، وطنه وسوريا». وتلك هي سوريا.. اليوم لماذا الصراع كله في سوريا؟ لأن كل أبواب المستقبل تفتح وتغلق من هناك.. الصين شرقا، روسيا شمالا، أوروبا وأمريكا غربا.. نحن أين؟ هذا هو السؤال.. نحن أين؟ ذلك هو السؤال الذي سيستمر. وحين أتكلم عن تونس الآن، أقول نحن غائبون تماما..

▌الرئيس الباجي قايد السبسي يقول: «لا يمكن أن نشارك مع الجيوش لأن لا جيوش لنا»، ما رأيك في هذه الإجابة فيما يخص بالتحالف الإسلامي الذي دعت له السعودية؟!

أنا بصراحة أؤيده في هذا الكلام، ولكن لا ثقة لي في هذا الكلام. وسواء انضمت تونس أو لم تنضم، فإن هذا التحالف هو هش وشكلاني.. ولست مقتنعا بأن الهدف هو محاربة الإرهاب.. السعودية، مع تقديرنا لها كدولة عربية كبيرة، قد تحولت إلى ما كان يسمى سابقا بـ sous impérialisme : امبريالية فرعية أو إقليمية. كانت في عهد كان فيه نايف وزيرا للداخلية، مسيطرة على وزارات الداخلية العرب. ولمدة عشرين سنة كانت رافعة لشعار مكافحة الإرهاب.. واليوم جاء ابنه محمد بن نايف كولي للعهد ليصبح زعيم هذا التحالف الجديد، التحالف ضد الإرهاب، لكن بمنطق عسكري وليس بمنطق وزراء الداخلية أو المخابرات.. لكن أين وصل الأب؟ لاشيء.. كبر الإرهاب وتفرع وأصبح دوليا. أصبح لديه أموال ودول وجيوش.. اليوم، أنا لا أعتقد أن هذا الخيار الذي اختارته السعودية ستنجح فيه. فالسعودية تفعل ذلك لأنها تعرف أنه سيأتي وقت المساومات في الشرق الأوسط، ويجب أن تحتل مقعدا على طاولة المساومات. المقعد العربي للسعودية ثم هناك مقعد إسرائيلي ومقعد تركي ومقعد إيراني.. هذه هي المقاعد الأربعة للقوى الأربعة للمنطقة. وهناك الراعيان الكبيران وهما روسيا وأمريكا.. روسيا بحلفائها وأمريكا بحلفائها.. كل المقاعد جاهزة.. الأتراك عندهم على ماذا يفاوضون ولديهم أوراق ولديهم قوة اقتصادية ولديهم جيش ولديهم إسناد وسند غربي.. الإيرانيون لديهم تكنولوجيات وأموال وجيوش وثروة وبلد كبير وسند دولي.. الإسرائيليون أيضا.. لكن العرب ليس لديهم شيء.. الحروب كلها تدور على أرضهم، ثرواتهم تتبدد، جغرافيتهم تتصدع، ثم هناك خصومات كثيرة حول هذا المقعد.. من يحتله؟ مصر، أو السعودية، أم الاثنان معا؟ السعودية تريد حصة العرب كلها لتتفاوض بها على قوتها وبقائها، وقد استحوذت على حصة مصر بالذات.. لذلك في أول سطر أو ثاني سطر بعد إعلان هذا الحلف الأسلامي جاء إرسال ثمانية مليار دولار لمصر.. هذا ثمن لشراء مصر من أجل احتلال مقعد العرب على طاولة الشرق الأوسط، باسم السعودية.. لتصبح بذلك السعودية هي القوة العربية الإسلامية.. لكن أي حلف إسلامي؟ حلف إسلامي لم يجتمعوا من أجله قط. حلف إسلامي بالاتصالات الهاتفية، حلف إسلامي نطق به بيروقراطيون يتصلون بالرئيس فيقولون له: «انضم إلينا»، كيف سنجمع الـ35 دولة؟ من هم الـ35 دولة؟

ماذا فعلنا بالحلف السعودي العربي؟ ماذا فعلنا باليمن؟ لاشيء.. دمار بلد وإرجاعه إلى نقطة الصفر.. ثم البحث عن مخرج لكي يذهبوا إلى المفاوضات.. لماذا لا يذهبون إلى المفاوضات منذ البداية؟ أرأيت كيف نحارب أنفسنا بأنفسنا؟ السعودية لم تعد تثق في الغرب أن يأتي ليدافع عنها. جاء الغرب ليدافع عنها في العام 91/90 لإرجاع صدام إلى حدوده. وجاء الغرب في أكثر من مرة للدفاع عنها ضد عبد الناصر، لكن اليوم، السعودية أصبحت تدرك أن أمريكا لم تعد مستعدة لإرسال جنودها للدفاع عنها.. أمريكا عندها حلفاء آخرون جدد في المنطقة مثل إيران.. أمريكا لم تعد تحتاج إلى النفط السعودي.. أمريكا قد تحتاج إلى الغاز، والغاز لا تملكه السعودية.. أمريكا تحتاج إلى تسوية تستمر إلى مدة خمسين أو مئة عاما كما استمر سايكس بيكو. هذا ما تحتاجه أمريكا.. هي لم تعد تحتاج إلى السعودية فقط.. لا بل أصبحت السعودية تدرك أنها مستهدفة، وكل هذه الأحلاف التي تريد أن تقيمها هي لحماية نفسها ولبناء دروع لتحصين نفسها بداية من درع الجزيرة إلى التحالف العربي إلى التحالف الإسلامي. وثمة تحالفات أخرى ثنائية وثلاثية سيتم الكشف عنها لاحقا مع تركيا أو مع إسرائيل لشراء السلاح أو لصناعة السلاح.. السعودية هي في خطر وهي تدرك ذلك. والجيل الثالث، جيل الأحفاد، هم الذين يقودون بلادهم اليوم إلى الخطر وهم لا يدركون.. إنها في مفترق الطريق..

إذن السعودية تبحث عن الحماية وعن التموقع. وكذلك لاستعراض عضلاتها لأن التحالف الإسلامي الذي أقيم في 48 ساعة وكما قلت بالهاتف وباستبعاد الجزائر، لن يكون ذا جدوى؟؟ ..

طبعا الجزائر ستقول لا.. هي لا تدخل في حلف مشبوه.. وما الذي يجمع باكستان مع تركيا مع الجزائر؟ والعكس بالعكس.. إذن هو حلف ماركنتلي، حلف أموال واستعراضات. ثمة دول طامعة. ثمة دول لا تصدق ذلك. ثمة دول يجب أن تقف مع السعودية لأنها لا تستطيع أن تقول لا. ثمة دول تقول نعم ولا تفعل شيئا. ثمة دول معارضة. وثمة دول ستعارض.. وهذا كله كما قلت لك هو حلف ضد التدخل الروسي.. يريدون أن يغرقوا روسيا في ما يسمى بـ«الوحل السوري»، كما أغرقوا الاتحاد السوفياتي في وحل أفغانستان. هذا هو عنوان ضرب الطائرة الروسية. هو محاولة لاستكشاف الطاقة الروسية وإلى أي حدّ يمكن أن تذهب؟. وقد كان أوردغان غبيا جدا، وإلى الآن لم يفهموا بوتين كيف يتحرك. بوتين لا يتحرك بسرعة 20 كلم بل بسرعة 200 كلم. حين تستفزه لا يقف أمامك، بل يصبح وراءك. بوتين جرّبوه في أوكرانيا فنزع بلادا كاملة (القرم) وضمها ثم غيّر لها عملتها وغيّر لها علمها ولا أحد تكلم.. ضربوا له طائرة فأتى بمنظومة الـ400 والتي هي أرقى منظومة في العالم ونصّبها في سوريا. هذه المنظومة منصوبة في موسكو وفي سوريا فقط. يعني أنه أغلق المجال الجوي السوري وأغلق اللعبة تماما على أي أحد.. هذه المنظومة خطيرة. سرعة الصاروخ في الثانية 5 كم. في الدقيقة 300 كم. في الساعة تبلغ 18 ألف كم. 18 ألف كم يعني من موسكو إلى جنوب إفريقيا لا يستغرق الصاروخ أكثر من نصف ساعة. ومن موسكو إلى أمريكا ساعة إلا ربع.. هذه المنظومة تعترض مجموعة صواريخ في نفس

الوقت على بعد 600 كم. وهذا يعني أن جزءا من الفضاء الإسرائيلي وجزءا من الفضاء التركي قد بات مغلقا.. هذا هو الغباء العربي حين يتحالف مع العناد التركي.. فلينفقوا ثروات العرب ودم العرب، إننا ننفق الغاز والدم،.. لكن الأجيال ستحاسبهم. والعرب لن يموتوا في النهاية حتى وإن كانوا مرضى. كل الشعوب مرت بفترات مرض إذ كان الروسي يسمونه بـ«المريض» وكانت تركيا يسمونها «الرجل المريض».. واليوم نحن «الرجل المريض»، لكن هذا العربي المريض سيصحّ.. وأنا متأكد من أنه سيصحّ..

▌الرجل المريض هو عنوان الفصل الأول.. أما الفصل الثالث فجاء تحت عنوان «الجغرافيا المتصدعة» وهنا تكتب ما يلي: «إما أن ينفجر الماء أو يتفجر الدم.. هذا في السرد الإبراهيمي الأول. في السرد الإبراهيمي الثاني: فإما أن ينفجر النفط أو ينفجر الدم. والآن. لقد انفجر النفط وتفجر معه الدم». ما معنى هذه الكثافة؟

في اعتقادي هناك سردان: السرد الإبراهيمي الأول. وهو سرد الديانات والتأسيس الأول وبئر الماء الأولى.. وقد عرفنا كيف نزل الكبش بينما كان إبراهيم يهمّ بذبح أحد أبنائه (اليهود يقولون إسحاق والمسلمون يقولون إسماعيل)، فليكن! لقد هم إبراهيم بذبح أحد أبنائه حين نزل الكبش. وهنا تفجر الماء بدل الدم!.. أما السرد الإبراهيمي الثاني فهو سرد الطاقة (بئر البترول)، اليوم نحن نرى أنهم استحوذوا على الماء والدم والنفط، وهو ما قلته منذ حين عن دجلة والفرات.. إنه صراع الغاز والماء. لقد تفجر النفط وتدفق معه الماء وسال الدم. بماذا يتم ذلك؟ بالمال العربي وبالدم العربي الرخيص.. إن التونسيين الذين يذهبون إلى هناك هم مجرد يد عاملة في آلة الإرهاب لا يعرفون أي شيء عن الخفايا والخلفيات.. في السبعينات عرفت منهم في لبنان. كانوا يأتون وكانوا لا يعرفون شيئا عن القضية اللبنانية أو الفلسطينية. ويكفي توعيتهم قليلا حتى يغيروا البوصلة تماما.. لم يقرأوا لابن تيمية أو للمودودي حتى يصبحوا تكفيريين أو جهاديين!.. حتى أنا الذي أؤلف كتبا لم أقرأ لابن تيمية وقد اطلعت عليه من خلال وسطاء.. هم لم يقرأوا لابن تيمية ولا مذكرات بن لادن ولا يعرفون حسن البنا ولا أصوله إن كانت مغربية أو إسماعيلية أو يهودية كما يشيع البعض.. هم لا يعرفون شيئا.. هم أناس يد عاملة يصطادونهم في أوكار الفقر وغيتوهات الهجرة.. ثم يجلبونهم إلى الميدان. لقد أتوا من أوكرانيا أو من القوقاز أو من المغرب العربي ومن أوروبا وحتى من كندا أو من اي بلد.. إذن الأموال هي القوامة على هذا الإرهاب المعولم.. إنها سوق عالمية.. وعلينا نحن هنا في تونس أن نغير من نظرتنا للإرهاب!..

▌وهذا هو السؤال اليوم سي الصافي، لأنك أنت في الكثير من المرات وفي الكثير من المحطات أبرزت موقفك من الإرهاب واستفزيت الكثير من الأشخاص في تحليلك للإرهاب.. ما هو موقفنا اليوم كتونسيون من الإرهاب؟

جميعنا ضد الإرهاب.. لا أحد مع الإرهاب .. إلا الذين يستغلونه. وكما ذكرت سابقا، الإرهاب هو أسلحة، وسائل، توجهات، هيمنة، آليات وسياسات! يعني أنا وأنت وكل الناس

ضد الإرهاب، لكن من الذي يصنع لنا هذا الإرهاب؟ باختصار هم الذين يريدوننا أن نخاف لكي يحكموننا. أي كيف يعيدوننا إلى الوداعة المفقودة بالنسبة لهم. هم يريدون أن يصنعوا الإنسان الوديع والوضيع في نفس الوقت، حتى نقبل بأي شيء ونقبل بكل أكاذيبهم. ولكي نقبل، لا بد أن يروعوا هذا الإنسان الوديع.. فمنذ أن يصبح وديعا يصبح وضيعا.. هم المسيطرون على الأسلحة والمسيطرون على الأموال والمسيطرون على كل هذه المجموعات المقاتلة التي يحركونها. إنهم ينقلونهم من بلد إلى بلد.. نتساءل أين كانوا هؤلاء؟ لقد كانوا في يوغسلافيا، على الأقل الجيل الذي قبله. والجيل الذي قبله كان في أفغانستان ثم جاءوا بهم إلى العراق. واليوم هم في سوريا. وغدا في ليبيا أو هم بدأوا يحجون إلى ليبيا. ومنهم من هو ينتظر في صحراء الجزائر وصحراء نيجيريا. إنهم مجموعات من المقاتلين المتنقلين المحمولين. نموذج المقاتل المرتحل، الجوال. هذا المقاتل المأجور أو المرتزق تأتي به الدول والشركات. ثمة شركات تعمل لدى دول تأتي بمقاتلين من كولومبيا ومن الهندوراس ومن أي مكان ليقاتلوا في اليمن.. إنها حرب المواقع المتحركة، حرب الافتراض، هكذا أصبحت الجيوش اليوم، هي مجموعات وعصابات تموّلها الدول، تحركها الدول وتنقلها الدول من بلد إلى بلد لتحقق بها أغراض وأهداف.. هذه هي اليوم الحرب الجديدة في القرن الـ21.. لماذا؟ لأن الأرحام الأوروبية والغربية لم تعد ساخنة ولم تعد تلد كما كانت تلد في الماضي. لم يعد لديهم شبابا ليحاربوا.. يريدون أن يأتوا بشباب تونس وشباب كولومبيا وشباب نيجيريا ليحاربوا بالنيابة عنهم في حرب كل من يموت فيها هو ربح لتلك الدول. هكذا يحققون الأغراض والأهداف.. وهذا هو الإرهاب اليوم.. وإذن يا أيتها الدولة العربية: احمي شبابك.. اصنعي مستقبلا لشبابك، وجّهي شبابك، استحوذي أنت على شبابك بخيال وبأعمال وبأفكار وبمشاريع وبطموحات وبعلم وبمعرفة.. ففي حمايتك لشبابك حماية للمستقبل.. لا تتركي شبابك مهمشا، لقمة للآخرين، ضائعا، يؤجر أو يبيع نفسه لأول شخص أو لأول وسيط.. وكما هناك بيع وشراء للمقاتلين، هناك بيع وشراء للأعضاء البشرية وللكوكايين وللسلاح.. العالم هو سوق مفتوحة إلى آخر مدى.. إنها بدايات العولمة المتفجرة..

من أهم الأشياء التي يجب أن يتعلمها العرب والتي أنت ذكرتها في الفصل الرابع «إن غياب الحس التاريخي هو الخلل الموروث والمشترك عند جميع العرب»، هل معرفتنا بالتاريخ تمكننا من التحضّر للحاضر والإعداد للمستقبل؟

أنا تحدثت عن السنتو.. كل شخص قرأ فصلا عن حلف السنتو، يفهم مباشرة ما معنى حلف الرياض الحالي (الحلف الإسلامي). وماهي ملابسات الظروف التي أنتجته. أحيانا تمر أمامك فصول كثيرة من التاريخ لا تحتاج منك الكثير لكي تدرك معناها وسياقاتها لأنها تعيد نفسها ويعاد تركيبها بأشكال أخرى جديدة وبلغات أخرى وبمسميات أخرى.. حلف «السنتو» أو «السيسو» الحلف السعودي الإسلامي أو IST الحلف الإسلامي السعودي (الإيست) هي كلها تسميات.. لكن الظروف التي يبنى فيها ذلك الحلف والظروف التي بني فيها حلف السنتو هي ظروف متشابهة. إن العالم على وشك حرب باردة جديدة. فكما بني حلف السنتو في بداية الحرب الباردة ضد السوفيات، ها هو حلف الإيست يقام اليوم ضد الحلف الأوراسي..

هذه من أهم الأشياء التي أنت فسرتها في كتاب «جيوبوليتيك الدم».. وهناك كذلك أمر مهم يجب أن أشكرك عليه أستاذ على خلاف اللغة الجميلة والمتدفقة وهو أمر المصادر والمراجع الأدبية والسياسية والفكرية والتي هي في حد ذاتها كتاب. وهو ما يساعدنا على تفسير التاريخ حتى نفهم ماهو واقعنا اليوم، ولكن كما قلت أنت هذا كله من أجل لحظة وعي.. فما يهمنا هو بلدنا اليوم أستاذ الصافي سعيد..

بالضبط.. ما يهمنا هو بلدنا.. يجب أن نعرف: نحن أين؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ أعطيك مثالا، أنا اليوم لست ضد وزير الخارجية (فلان أو فلان).. أنا اليوم أرى الخارجية، غائبة تماما عن مسرح العمليات الديبلوماسي. ليس لديها أي ردود أو إجابات ولا أية تحليلات ولا أية توضيحات أو استعدادات. لا نعرف مواقف تونس من عدة مسائل. نعقد تعاقدات مع دول ولا نفهمها. وتعقد عندنا مؤتمرات ولا نفهمها. ولا نقوم بتوضيحها للشعب ولا تمر على برلمان الشعب. لدينا خلل في وزارتنا للخارجية. لقد كان لدينا خلل قديم ورثناه من عهد بورقيبة. كان بورقيبة يقول:«العرب لا يجلبون إلا الأمراض» وكان يقول «الأفارقة متخلفون» وكان يقول «الصين بعيدة». وكان يقول «الاتحاد السوفياتي قوة شيوعية هدامة» وكان ينظر لفرنسا وأمريكا كحماة لنظامه حتى أنه لم يدخل لعدم الانحياز ولم يدافع عنه.... هذه ثقافة وزارة الخارجية التونسية. لديها (كوادر) بدأوا صغارا وكبروا على هذه الفلسفة.. وإلى الآن هم على طريق النأي بالنفس. يعني يعتبرون ليبيا مسألة خارجية ولا ينظرون إلى العالم إلا بعين التوسل والتسول. أنا مثلا لا أعتبر ليبيا مسألة خارجية. أعتبرها مسألة داخلية. فبورقيبة كان كل عشر سنوات يواجه الشارع بمذبحة. وكان الجيش يخرج ليذبح الشعب لمدة 30 عاما، وهو ما لم يقع في عهد بن علي إلا مرة واحدة. وهي المرة الأولى والأخيرة.. والسبب هو أن بورقيبة لم يفهم علاقته مع ليبيا ومع الجزائر ولم يفهم علاقته مع اتحاد الشغل. اتحاد الشغل وليبيا والجزائر هم ثلاثي الأمن والاستقرار السياسي في تونس. بن علي فهم: أن الجزائر مسألة داخلية وليبيا مسألة داخلية، هذا فيما يتعلق بالأمن القومي التونسي، وفهم أمرا آخر هو أن الحزب الدستوري أو التجمع الحاكم هو شقيق لاتحاد الشغل.. يمكن أن يتصارعا ويختلفا لكن في الأخير يجب أن يتفقا، ولذلك لم نشهد أي إضراب أو أي خصومة مع ليبيا والجزائر في عهد بن علي.. اتحاد الشغل كان نقابة قوية ومحترمة وتاريخية وفي نفس الوقت كان ربيبا للحزب الحاكم. وبن علي هو الذي أدرك هذه التركيبة الأمنية في الداخل وتلك التركيبة الخارجية لصناعة معادلة الأمن الكبير.

أنت ترى أنها إيجابية؟

هي معادلة حكم بها بن علي لمدة 23 سنة. لم تعد صالحة اليوم لأنها انهارت. لم يعد هناك نقابة واحدة ولم يعد هناك حزب حاكم فقط. أصبحت هناك عدة أحزاب وعدة نقابات، ثم تدخلت أطراف كثيرة لصناعة السياسة في تونس. أضف إلى ذلك أن الجزائر هي ليست الجزائر التي كنا نعرفها والتي كانت تتعامل بنوع من الصفاء مع الدولة التونسية التي عايشتها وعاشرتها في عهود كفاح التحرر. ثم أن ليبيا لم تعد موجودة كدولة. ليبيا

اليوم دولة مفككة وفاشلة ونحن غائبون عنها. الكل يشتغل على الملف الليبي إلا تونس مع أن تونس أقرب بلد لليبيا..

هل ترى أن الاتفاق الذي وقع في الصخيرات المغرب كان يجب أو يوقع في تونس مثلا؟

ما أريد قوله هو أن ليبيا مسألة داخلية في تونس، وتونس مسألة داخلية في ليبيا. السياسيون يفهمون ما أقوله ويفهمون ما معنى مسألة داخلية.. فليبيا ليست روسيا وليست الصين وليست تركيا. ليبيا هي تونس وتونس هي ليبيا في الأمن وفي المعاش وفي التاريخ وفي المستقبل.. ليبيا اشتغل فيها أكثر من مليون تونسي على مستوى العقود السابقة. لليبيين حق التملك في تونس. 70% من الشعب الليبي على حدودنا وليس على حدود دولة أخرى. ثمة معاهدات كثيرة مشتركة وقبائل مشتركة وأسواق مشتركة ..
تونس اليوم تعمل بسياسة المقاعد الخالية والمقاعد الشاغرة ومبدأ النأي بالنفس وسياسة وضع الرؤوس في الرمال. وهذه كلها سياسات فاشلة. علينا أن نخترع معادلات أخرى جديدة للتحكم في أمننا القومي ولإيجاد أنفسنا في ليبيا وإيجاد ليبيا جديدة في تونس، لأنه لا مهرب لنا جميعا. لن ننقل تونس بعيدا عن ليبيا ولا ليبيا بعيدا عن تونس.. هذا مستقبل مشترك..

صرح كمال الجندوبي الوزير المكلف بالعلاقات مع الهيئات الدستورية والمجتمع المدني قال: «الدولة ضعيفة والإرهاب استغل هذا الضعف».. ماهو ردّك على هذا الكلام؟

طبعا الدولة ضعيفة. لكن لنبحث عمّن أضعف الدولة؟ ليس الإرهاب فقط من أضعف الدولة. الإرهاب هو نتيجة ضعف ونتيجة تلاعب بمصالح وطنية ونتيجة تلاعبات مع مصالح أخرى وأطراف أخرى غربية وخليجية. فهي التي أدخلت الإرهاب إلى تونس. إنه نتيجة خلل كبير في معادلة أمن الدولة التونسية. ثم إن الدولة التونسية أو الإدارة التونسية لم تفهم إلى الآن أن زمنها القديم قد انتهى وعليها أن تصنع زمنها الخاص بها. إذن نحن مازلنا تحت إدارة قديمة، وأفكار قديمة، مع أناس قدماء. اليوم لا أفهم ولا أجد تفسيرا كيف تعطى وزارة الخارجية أو المخابرات أو الأمن للأحزاب. الخارجية هي أمن قومي ولديها علاقات مع الدول. ما علاقتها بالأحزاب؟ الخارجية يجب أن لا تمنح للأحزاب. هل يعقل أن تمنح وزارة الخارجية لحزبين يتخاصمان عليها؟

الصافي سعيد
في حوار عن كتابه: «جيوبوليتيك الدم»

برنامج «مقهى الثقافية» (إذاعة تونس الثقافية)
حوار: سفيان العرفاوي والدكتور أيمن البوغانمي
08 جانفي 2016

سفيان العرفاوي: أهلا وسهلا بكم على موجات إذاعة «تونس الثقافية» في برنامج «مقهى الثقافية».. سنحاول أن نتصفح معكم كتابا صدر حديثا للأستاذ الصافي سعيد، «جيوبوليتيك الدم: التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة».
إنه كتاب جدير بالاهتمام. وكعادة الأستاذ الصافي سعيد يحاول دائما أن ينفذ إلى عمق الأشياء بأسلوبه الخاص.. متكوّن من 464 صفحة توزعت على خمسة محاور هي: العربي المريض، الإرهاب المعولم، الجغرافيا المتصدعة، التاريخ الأسير وحرب الجيوبوليتيك.. معنا في هذا الحوار الدكتور أيمن البوغانمي المختص في العلاقات الدولية وذلك لمحاولة الاستئناس برأيه في قراءة هذا الكتاب.. إذن نحاول طيلة ساعتين أن نجالس الفكر والأسئلة من خلال هذا الكتاب الصادر حديثا.. لا ندعي أننا سنلم بكامل الكتاب ولكن هدفنا أن تكون هناك بعض الإجابات حول بعض الأسئلة وحول بعض أفكار الكتاب..
الأستاذ الصافي سعيد هنا يحاول أن يغوص بشكل منهجي وعميق في التاريخ لأجل رؤية الواقع واستشراف المستقبل.. وهو كتاب تمتزج فيه المعرفة والتحليل بالأسلوبية الخاصة بالصافي سعيد. فهو ليس بكتاب جاف، فالصافي سعيد لا يهرب عن الصافي سعيد الروائي حتى ولو كان يحلل مسائل سياسية وفكرية وحضارية.. أستاذ الصافي سعيد مرحبا بك على موجات إذاعة تونس الثقافية، وشكرا على قبولك دعوتنا..

الصافي سعيد: مرحبا وأهلا وسهلا بكم..

سفيان العرفاوي: معنا أيضا الدكتور أيمن البوغانمي لمحاولة النفاذ إلى هذا الكتاب..

أيمن البوغانمي: مرحبا بك، وشكرا على الاستضافة، وكل الشكر للأستاذ الصافي الذي أتاح لي هذا اللقاء..

سفيان العرفاوي: ننطلق بك أستاذ أيمن البوغانمي. طبعا أنت قرأت الكتاب واستثمرت وقتا ومجهودا. وأعتقد أنك فزت بمتعة القراءة باعتبار أن الأسلوب هو أسلوب متميز، ولكن إضافة إلى ذلك الأسلوب الذي تمتزج فيه الحكمة الإغريقية كما يقال والرواية والشعر، هناك أيضا الأفكار التي تحاول أن تستقرئ الواقع وأن تستنطقه بالاستناد إلى التاريخ وبالاستناد إلى علوم متفرعة في الجيوبوليتيك بشكل عام.. أولا انطباعك الأول على هذا الكتاب؟ المداخل الأولى التي شدتك؟ ثم بعد ذلك سندخل في تفاصيل هذا الكتاب..

أيمن البوغانمي: شكرا جزيلا على السؤال.. طبعا قلم الصافي سعيد متعة ومؤانسة. ليس من حيث الأسلوب فقط ولكن أيضا من حيث التركيب الفكري والتنسيق الأسلوبي. ترتيب الأفكار كان مركبا ومعقدا وكان كتابا ممتعا ولكنه في نفس الوقت منهك. والمتعة في قراءة هذا النمط من الأدب السياسي ليست في الإمتاع فقط ولكن أيضا في الإنهاك وفي التفكير الذي يدفعنا إليه مثل هذا الأدب. فالفكرة الأولى من الكتاب هو التراكمية المكثفة في هذا الكتاب. شساعة مساحة التأويل الذي يتركها الأسلوب الغزير للصافي سعيد. ثم من ناحية أخرى تعدد منابع الفكر (سنتحدث عن التفاصيل بعد حين) ولكني لاحظت وجود منابع فكرية كبيرة مختلفة: المدرسة الجيوبوليتيكة الكلاسيكية مع راتسل، النمط الكانطي، النمط الهوبزي... هناك مسائل كثيرة سنطرحها تباعا. ولكن ردة الفعل الأولى هي المزج بين متعة الأسلوب وإنهاك الفكر..

سفيان العرفاوي: أستاذ الصافي سعيد، بعد هذه المقدمة الوجيزة للدكتور أيمن البوغانمي نحاول أن ننفذ إلى هذا الكتاب «جيوبوليتيك الدم: التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة». أكيد أنه عندما تكتب كتابا هناك داوعي للفكر. فالكتاب هو لحظة تفكير ولكن له دواعي وله أهداف أخرى. ما الدواعي التي حركت الصافي سعيد لكتابة هذا الكتاب الضخم والذي يحاول أن يستند وأن يستفيد من الفكر والفلسفة والعلوم الإنسانية؟ في الفصل الأول: العربي المريض رأيتك تتساءل: «من هم العرب اليوم؟». وقد يبدو هذا سؤال بسيط ولكنه ملغّز ومعقد. وقد حاولت أن تجيب عليه بالاستناد إلى التاريخ.. ومن يقرأ هذا الكتاب يمكن أن تكون له رؤية شاملة حول التاريخ العثماني، حول تاريخ الخلافة الإسلامية، حول آل سعود وكيف تكونت الدولة السعودية، حول تركيا وعلاقتها بإيران. هناك أيضا تمازج كبير بين الحاضر والماضي في أسلوب فريد من نوعه. لنطرح سؤالا بدءا: ما هي دواعي كتابة هذا الكتاب؟

الصافي سعيد: إن دواعي كتابة هذا الكتاب هي فعلا، «العربي المريض». نحن اليوم، لنقلها بصراحة كما كان يقول الروس في القرن التاسع عشر والألمان عن أنفسهم بأنهم «كانوا مرضى». ونعني هنا النخب.. اليوم العربي هو مريض، مهتك، وغير قائم لا بواجباته نحو الأرض ولا بواجباته نحو السماء. إنه عربي معلق بين الأرض والسماء.. العربي اليوم لا يبحث عن شيء ولم يعد شغوفا بشيء. قلة منهم من يسخر من نفسه.. وقلة أقل شغوفة بالمعرفة.. أمر جيد عندما نسخر من أنفسنا، عندما نبحث عن أمراضنا.. هذا طريق نحو

الصواب.. لكن الدواعي بالأساس هي اللحظة التاريخية التي نعيشها. اللحظة التاريخية التي نعيشها هي لحظة مركبة ومعقدة وفارقة. كلنا منهمكون في المديح، المديح الرخيص. لكن نحن لا نعرف لا خلفيات هذه اللحظة ولا تداعياتها، وهل نحن نستطيع التحكم فيها أم لا؟ من نحن في هذه اللحظة؟ كيف سنتقدم؟ هل نحن نتقدم أو نتخلف اليوم؟ التخلف مركب، قد يبدو لنا تقدما.. كما يحصل اليوم في تونس وفي غيرها من البلدان العربية.. نحن نتصور أننا نتقدم لكن نحن عائدون إلى لحظة أخرى.. التونسيون لم يطرحوا أبدا سؤال ما بعد البورقيبية.. جيمعهم عائدون إلى البورقيبية.. هذا هو التخلف باسم التقدم.. ولذلك في هذه اللحظة التاريخية المركبة، تساءلت: هل العرب لديهم تاريخ أم لا؟ تاريخهم مصادر أم لا؟ هل يمتلكون جغرافيتهم وسيادتهم أم لا؟ المعركة على من وضد من؟ المعركة نحو المستقبل هي معركة قوة وإرادات. فهل العرب يمتلكون هذه القوة وموجودون أم لا في هذه المعركة؟.. هذه هي التداعيات. وهنا كان لا بد أن نشرح تلك التحالفات المشبوهة التي تقام هنا وهناك، والحروب الرخيصة الدم، التي تخاض باسم الخرافات. إن العالم كله يتصارع من أجل ثروات العرب فيما العرب نائمون. وهم يعتقدون أنهم يعيشون وأنهم يعيشون التاريخ أو يحركون التاريخ. التاريخ ليس التاريخ الجامد. التاريخ ليس هو الأمس.. التاريخ هو الغد، لأن اليوم قد أصبح تاريخا، والغد سيصبح تاريخا بعد غد.. التاريخ هو المستقبل.. إن فهم النخب العربية للتاريخ على أنه الكتل الجامدة والماضية يجعلهم يرون أن التاريخ قد مضى، بينما هو لا يمضي. إنه يتجدد.. التاريخ يعيش معنا.. نحن الذين نمضي وليس التاريخ.. وعندما نقول التاريخ نعني به روح التاريخ كما يسميه هيغل. هو تلك الإرادة وقوة التقدم والاختراق نحو المستقبل. ذلك هو التاريخ.. صراعات الجيوبوليتيك الكبيرة الحاصلة في العالم اليوم تقول لنا أن العالم مقسم، وهو بصدد ولادة عالم جديد.. صحيح أن العالم القديم الذي نعرفه بصدد الانهيار ونحن نعيش انهياراته ونودع شيوخه.. ولكن ثمة عالم آخر يريد أن يولد. وأنا اليوم أقولها بصراحة وبدون تردد: عندما يحكمنا اليوم السيد الباجي قايد السبسي من حقنا أن نتساءل: في أي لحظة نعيش؟ لحظة ما قبل بورقيبة؟ ما بعد بورقيبة؟ لحظة بورقيبة؟ نحن لا نعرف ما هي هذه اللحظة.. كل الأحزاب في تونس حتى الجديدة منها أو التي ستتأسس غدا أو بعد غد مرجعيتها بورقيبة! هذا خطأ.. خطأ بالنسبة لأمة.. حتى في الأديان ثمة ما بعد الحياة.. وإذن ثمة ما بعد الحداثة.. إلا نحن العرب لا نتساءل عن «الما بعد».. أقول: الما بعد هو المستقبل..

سفيان العفاوي: أستاذ الصافي في نفس هذا السياق سنعود إلى المسألة الخاصة بتونس. هذه عتبات أولى وبوابات أولى.. أيمن المجال مفتوح.. فقط سؤال آخر وأترك المجال للدكتور أيمن.. فالتدخل مفتوح..

أستاذ الصافي سعيد هناك محاولة للاستفادة من التاريخ. وهي استفادة تراكمية في محاولة لتفكيك شيفرة العرب تاريخيا. هناك عودة إلى تشكل الدول العربية والجامعة العربية وكيف كانت بريطانيا في بداية القرن. هناك محاولة للاستفادة وللتفكيك. إلى أي

مدى هذا التفكيك التاريخي المهم وهذه القراءة المتأنية للتاريخ التي تبحث لا عن الحدث ولكن على عمق الحدث وأسبابه، وهي تحاول أن تستفيد من ذلك لتتقدم نحو المستقبل. يعني لا نستطيع أن نفهم تونس الآن إذا لم نقرأ في هذا الكتاب عن «بربروس» وماذا فعل؟ وإسبانيا كيف كانت؟.. والأتراك كيف دخلوا؟.. حتى كلمة «يكفي لقد تركّتني» لها جذورها الثقافية نظرا لما فعله الأتراك في هذه الأرض. هل نحن في حاجة أكيدة وماسة إلى الرجوع إلى الوراء فكريا وثقافيا لاستنطاق هذا التاريخ في محاولة للخروج بخارطة فكرية وسياسية معينة!؟ أنت في هذا الكتاب مثلا تعود إلى أوروبا وكيف توحدت وكيف كانت مسألة التوحيد مسألة عميقة ومعقدة!..

الصافي سعيد: هذه مسألة عميقة جدا. توحيد أوروبا اليوم هو أساسا عودة إلى مسار تاريخي قديم. إنه عودة إلى إمبراطورية شارل ماني. وعودة إلى الإمبراطورية الرومانية أيضا. التاريخ دائما عبارة عن نهر عميق يشق طريقه. لا يمكنك إعادته إلى الوراء.. نهاية كل الأنهار الكبرى هي البحر.. نحن يجب أن نفهم المسارات الأولى والحفريات الأولى للتاريخ العربي منذ بدايته وكيف شق طريقه.. يشق النهر طريقه فتأتي قوى أخرى كبيرة بما فيها الكوارث الطبيعية لتقوم بإعادة توجيه المسار، ثم تأتي حقائق أخرى تاريخية تقلب المسار وتعيده إلى مساره لأن الطبيعة أقوى من كل التوجهات والغطرسات.. بمعنى اليوم هناك الكثير من الدول تحاول أن توجه نهرا وهي تعتقد بأنها قامت بإنجاز. بعد عشرة سنوات تسخر منها قوة الطبيعة، تأتي فيضانات وتصبح هناك كوارث طبيعية تستدعي تحركات اجتماعية عنيفة لتصنع التاريخ.. هذا هو التاريخ. تاريخ العرب الأول على أي أساس تشكل؟ ونحو أي مدى تشكل؟ بماذا تشكل؟ ماهي القوى التي شكلته؟ ما هو مخزونه؟ وما هي القوى التي تحركه؟

العرب في زمن الانتقال إلى الحداثة اعترضتهم قوتان: قوة انطلاقا من إسبانيا عرفت بحركة الاستعادة، وهو انبثاق لحظة الحداثة الغربية. (نحن لو بقينا عشر سنوات أخرى في إسبانيا لكان فتح أمريكا على يد العرب. أنا لا أعتقد أن كريستوف كولومبس الذي وصل إلى أمريكا سنة 1494 بدأ رحلته البارحة. لقد بدأها قبل عشر سنوات على الأقل وكان الحكم العربي لا يزال موجودا في غرناطة.. وكريستوف كولومبوس أصلا يقال أنه يهودي عربي وأنه استفاد من تاريخ الملاحة العربية والجغرافيين العرب). في اعتقادي أن لحظة الحداثة الغربية انبثقت حين بدأنا نفقد السيطرة على المجال الجغرافي وصناعة التاريخ.. في ذلك الوقت أيضا أتى الأتراك ليخطفوا تاريخنا باسم الإسلام.. أتوا وقالوا «سنحميكم من المسيحية». وهذا ليس صحيحا. نحن ذهبنا إلى دول مسيحية فلا نحن مسحنّاهم ولا هم أسلمونا.. جاء الأتراك فخطفوا التاريخ العربي كله ووجهوه ووضعوه وحكموا باسم الإسلام ثم بدءوا يعلمون العرب إسلاما آخر.. إسلام دراويش، إسلام تصوف لم ينتج أي فكر. ويعلم أغلب العرب أنه منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرون لم ينتج الإسلام ولا العرب أي فكر.. لم ينتجوا حتى بعض القصائد.. لحظة انبثاق الحداثة سميت وعرفت لدى العرب بعصر الانحطاط الثاني.. لا توجد قصيدة عربية مهمة في القرن السابع

عشر أو الثامن عشر.. بدأ الشعر في العودة في أواخر القرن التاسع عشر مع جماعة المهجر.. بدأت روح عربية أخرى تزهر في أماكن أخرى بعيدة ثم عادت إلى أوطانها.. اليوم عندما نتساءل: لماذا تاريخنا مركب؟ نسأل مباشرة: ماذا نشاهد اليوم على شاشات بيوتنا؟ اليوم أيضا الأتراك يحاولون إقناعنا بأنهم هم مدافعون عن الديمقراطية ومدافعون عن الإسلام. وباسم كل هذا الهراء يريدون أن يتوسعوا ويسترجعوا ما فقدوه سابقا.. لا ننسى من سلمنا إلى أوروبا قطرا قطرا، من تونس إلى الجزائر إلى عدن إلى مصر إلى ليبيا؟ نحن كنا تحت علم الدولة العثمانية.. والدولة العثمانية هي التي سلمتنا إلى الأوروبيين بموجب اتفاقيات وتنازلات ومساومات.. تخلت عنا ولم تعوّضنا عن ذلك.. وهذا هو التاريخ المسكوت عنه.. لماذا لا نفككه؟ لماذا لا نفهمه؟ لماذا لا نحفر فيه عميقا؟ صحيح أن الغرب كان يشتغل من أجل أن تستقل تونس ومصر وتنفصل عن اسطنبول. ولكن في النهاية الدولة التركية أو الدولة العثمانية هي التي سلمتنا للغرب.. إذن نحن كنا مصادرين من الأتراك فأصبحنا مصادرين من الغرب.. وإلى الآن مازلنا مصادرين من الغرب.. اليوم نتساءل: المعركة بين من ومن؟ العرب غائبون على هذه المعركة.. المعركة الإقليمية هي بين الأتراك وبين الإيرانيين وبين الإسرائيليين وعنوانها: من يستحوذ على ثروات العرب أو كيف يتم تقاسمها؟.. أما المعركة الكبرى فهي بين المجال الأوراسي والمجال الغربي (الأطلسي). وهنا نفهم التركيبة الطبقية للهيمنة الدولية.. ثمة تاريخ صغير هو تاريخ هذه الشعوب الأهلية (وهي شعوب العرب / شعوب الشرق). وثمة تاريخ الأقوياء المحليين أو الإقليميين الذين هم: الدولة الفارسية والدولة الإسرائيلية والدولة التركية. وثمة التاريخ الآخر العالمي الذي هو الهيمنة العالمية التي هي هيمنة غربية أطلسية في مواجهة هيمنة أخرى أو قوة أخرى باحثة عن القوة هي الهيمنة الأوراسية (وهي روسيا والصين وجانب من الشرق).. هذه هي خطوط المعركة.. لكن نحن اليوم لا نستطيع أن نخطئ ونقول أن الأتراك داخلون بحسن نية ويريدون أن يساعدوا الديمقراطية في تونس أو في مصر.. فكيف سيساعدون الديمقراطية؟ وهل هم ديمقراطيون فعلا؟ ثم كم عمر تجربتهم الديمقراطية الآن؟ إنها لازالت ناشئة ومهددة. فهم قد عرفوا انقلابات أكثر من العالم العربي بثلاث مرات.. بل هم من علّمنا الانقلابات..

سفيان العرفاوي: أستاذ الصافي سنتطرق معك إلى هذه المسألة.. ويبدو أن المفتاح يوجد في كلمة مهمة جدا جاءت على لسانك الآن: «أنه باسم الإسلام». وهذا يعني أن الظاهر هو الإسلام لكن العمق هو الغاز والبترول والنفط وغيره من ثروات. وأنت ذكرت ذلك في الكتاب. يبدو أن المسألة في ظاهرها إسلام ومقدسات، ولكن في الحقيقة هناك صراع مصالح وثروات خلف الإسلام الوهابي الرجعي الذي تمثله السعودية، والإسلام الشيعي الثوري الذي تمثله إيران، والإسلام التركي الليبرالي.. لا أريد أن أحتكر الكلمة بل اترك المجال للدكتور أيمن البوغانمي للتفاعل معنا، طبعا لا نستطيع أن نلخص هذا الكتاب. ومع كل ذلك نحاول أن نقدم له إشهارا حقيقيا باعتباره يمثل متعة حقيقية على مستوى الفكر. أقول من يحاول أن يفك بعض الشيفرات في الشرق الأوسط يمكن أن يستنجد

بهذا الكتاب. أكيد أن المتعة مضمونة وأيضا فك الطلاسم والألغاز التي نعيشها الآن بدءا بداعش وحتى أحداث ليبيا واليمن والعراق، موجودة في هذا الكتاب «جيوبوليتيك الدم». لك الكلمة دكتور ايمن..

أيمن البوغانمي: شكرا.. بعض الملاحظات فقط ثم بعض الأسئلة.. الملاحظات: موضوع تركيا وموضوع الهرمية التي قدمتم للصراع الكبير بين المد الأوراسي والمجال الأطلسي، ثم الصراع الإقليمي بين تركيا إيران وإسرائيل، ثم الصراعات المحلية العربية.. اعتقادي أنه هناك دقة في هذه الهرمية ولكن مع التدقيق أنه في الصفحة 426 من الكتاب تقول «قلب الإمبراطورية من ظلام»، وهذا ينسحب ربما على تركيا ولكن ينسحب أيضا على الولايات المتحدة!..

الصافي سعيد: وأنا خصصت به أمريكا بالذات..

أيمن البوغانمي: نعم أنت قلته وقصدت أمريكا طبعا. ولكن هذا أيضا ينسحب على روسيا.. يعني لا يجب أن نقع في الغرور وفي تلك الأوهام التي وقعت فيها القومية العربية سابقا أن الاتحاد السوفياتي أو روسيا وريثته، ستكون إلى جانبنا وستكون قلبا وقالبا معنا.. فهذا غير صحيح..

الصافي سعيد: أنا لم أقل هذا.. بل أنا متأكد ما من إمبراطورية لا تبحث عن مجدها.. كما ما من إمبراطورية تعمل من أجل الآخرين بقلب طيب..

أيمن البوغانمي: أنا لم أقل أنك قلت ذلك.. أنا فقط أريد أن أضيف بعض التدقيق لأن حب الأذن العربية لانتقاد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما قد يدفعنا إلى نوع من التقسيم الثنائي: الخير والشر. أعرف أنك ركزت على منطق القوة في الكتاب. ورأيت أن منطق القوة هو المنطق الجيوبوليتيكي الأساسي.. وأنا لاحظت في الكتاب وجود منابع ثقافية من أبرزها راتسل الذي اعتبر أنه ثمة علاقة بيولوجية بين الجغرافيا والتاريخ، وأنت ركزت كثيرا على هذه النقطة. واعتبر أن الدولة باعتبارها وكما يقول هيغل الممثل النهائي للقيم الجامعة، هي التي تقوم بصناعة التاريخ. وأنت طرحت سؤال: هل أن الأمة تصنع الدولة أم أن الدولة تصنع الأمة؟ وذكرت أن الدولة هي الأقرب إلى صناعة القومية؟ السؤال الآن: ألا يجب أن نسأل عن موروث العرب ما بعد الاستقلال؟ يعني مضت الآن ستون أو سبعون عاما من الاستقلال ولم نستطع حتى أن نبني دولا وطنية قطرية. أتناول المثال السوري الذي ركزت عليه كثيرا خاصة في الفصل الأخير.. يعني أن النظام السوري كان نظاما مستقرا لمدة عقود، ادعى أنه يملك مشروعا قوميا.. فانكشف الآن أنه لم يستطع حتى بناء مشروع وطني قطري شبيه بما صنعته البورقيبية في تونس مثلا. ألا يجب أولا أن نسعى فكريا وسياسيا وجيوبوليتيكيا إلى بناء القوة الذاتية حتى نستطيع أن نرتقي من المستوى المحلي إلى المستوى المتوسط.. ولكن على الأقل ألم تكن تكفينا ستون سنة لكي نبني من القوة الذاتية ما يجعلنا نلعب في ساحة المتوسطين كإيران وتركيا وإسرائيل؟

الصافي سعيد: هذا سؤال متعدد أي مركب. بالنسبة للأمة إن كانت تصنع الدولة أو الدولة هي التي تصنع الأمة أقول: في حالات، هكذا يحدث. وفي حالات أخرى العكس يحدث. تاريخ الدول وتاريخ الشعوب ليس بواحد. بالنسبة لما تسميه باعتمادي على نظرية الجيوبوليتيك أقول أنها مفقودة وغير معرف بها وغير معروفة في العالم العربي. ثم لأني أعتقد أن نظرية الجيوبوليتيك هي نظرية الدول الحديثة ما بعد القومية، وهي نظرية الحكم والمجالات الحيوية. اخترعها الألمان لكنها تطورت لدى الروس ولدى الأمريكان. مكماهان هو الذي وضع حدود أمريكا الحالية. وهو الذي اخترع نظرية الأطلسي، والأطلسي هو عبارة عن متوسط ضخم وجديد حتى أنه كان يسميه «الأطلسي المتوسطي». إذا هؤلاء هم المنظرون للإمبراطوريات وللتوسع وللقوميات الكبرى وللتاريخ الكبير. عندما نقول إمبراطورية نقول صناعة تاريخ.. وأنت عندما تصنع تاريخا لا تصنع تاريخك أنت فقط بل تاريخك وتاريخ غيرك. فهنا يأتي مبدأ التفوق ومبدأ القوة حالما تبدأ في صناعة تاريخ غيرك أو تشارك في صناعته.. عندما نتكلم عن ستين عاما وماذا أعطت هنا وستين عاما ماذا أعطت هناك؟ أجد هذه المقارنات بسيطة وتشبه مقارنات الأرقام. فالأرقام إذا لم ترتبط بدول لن تعني أي شيء. فعندما تقول ستون ألف دينار في تونس فإنها تعني شيئا في أمريكا. وتعني شيئا آخر في تونس بالرغم من أنه نفس الرقم. نحن لا يخيل لنا أن السلفادور أو الهندوراس لم يحدث لها شيئا في الستين عاما وظلت متماسكة أو متحدة أو متصاعدة أو أنها متقدمة على سوريا أو على العراق أو على ليبيا.. نخلص هنا إلى أن التجربة البورقيبية هي تجربة يمكن تناولها في منطقها السياسي وفي منطقها الجغرافي والجيوسياسي. وهنا سنجد محصلتها. لكن التجربة التونسية كما أعطتك بعض السلام، فقد أعطتك الركود أيضا. إنني لا أصحر ولا أجفف و لا أتحدث عن العدمية.. ولكني أتحدث عن «السلفية» المتعددة التي تعيشها النخب التونسية..

لماذا قلت لك في البداية أنه يبدو أننا نتقدم لكن في الحقيقة نحن نسير إلى الخلف.. فعلا نحن نسير إلى الخلف وبسرعة أيضا.. السؤال الأساسي: لماذا نحن العرب الذين بدأنا بمشروع قومي في الثورة العربية الكبرى في بداية القرن، انتهينا بعد قرن إلى التفتت والحرب الأهلية. من 1916 إلى 2016 انتقل العرب من الحلم إلى الكابوس..

سفيان العرفاوي: ونحن هذا العام نحتفل بالذكرى القرن لهذه الثورة!..

الصافي سعيد: نعم.. وهنا يجب أن نفهم تلك اللحظات المكثفة للتاريخ والتي لم نفهمها إلا بعد قرن.. ماذا ولد مع الثورة العربية الكبرى؟ ولدت الدولة السعودية، (تيار إسلامي مغلق آخر ضد القومية العربية). ثم ولدت أيضا إسرائيل (قوة مضادة للعرب). كذلك ولدت خريطة دولية جديدة للشرق الأوسط من إنتاجات الحرب العالمية الأولى (خرائط سايكس بيكو). أيضا لا ننسى انهيارات الدولة العثمانية وولادة تركيا الجديدة في ذلك الوقت. اليوم نجد أن الذين ولدوا في بداية القرن العشرين هم الفاعلون. الحركة الصهيونية هي الفاعلة. والحركة القومية التركية التي ولدت بعد انهيار الدولة العثمانية. كذلك الحركة الإسلامية التي تتمثل في الدولة السعودية. هؤلاء هم اللاعبون اليوم.. فالمعركة الآن بين

القوميين والإسلاميين. في البلدان العربية بدأ ذلك واضحا في المنهجية الإسلامية لما سمي «بالربيع العربي». وهي منهجية من إنتاج أمريكي/تركي/سعودي ضمن صراعات تمتد من أفغانستان، أي من أواخر الـ70. امتدت تلك المنهجية وتطورت وصنعت أجيالا فأجيالا في التطرف وأخرى في ما يسمى «بالتراكم الديمقراطي» الذي مثلته تركيا. الدليل على أن «الربيع العربي»، هو منهجية غربية إسلامية هو أن تركيا تتبنى الإسلام الديمقراطي ومعها قطر والسعودية اللذين ليس لديهما شيء من الديمقراطية. لقد رأينا هنا تحالف الأضداد وهو تحالف كاذب بينما يبدو لنا في الإعلام كأنه منسجم. ما الذي يجمع الإسلام التركي (لو اعتبرنا أن تركيا لها ديمقراطية) بالإسلام الوهابي السعودي؟ في السياسة أو في الأحلاف العسكرية متحالفان. ضد ماذا وضد من؟ ببساطة: ضد المشروع العربي الكبير تحت عنوان: الحرب ضد روسيا. أنا لا أقول أن المشروع الروسي هو الأحسن ولا أقول أن روسيا ستحمي العرب. فروسيا لن تحمي العرب. والإمبراطوريات «قلبها من ظلام»، لا تتحرك من أجل إنقاذ الأفراد ولا إنقاذ الزعماء بل من أجل إنقاذ مصالحها وتاريخها. قلبها من ظلام لا تعرف شيئا من الرحمة. أقصد أن قلبها من حديد، بمعنى أنها لا تعرف إلا القوة والتقدم من أجل الهيمنة ومن أجل الاستحواذ على المستقبل. هل روسيا جائعة اليوم أو ينقصها شيء أو هل أمريكا ينقصها شيء؟ لا. ولكن المعركة هي على القرن الـ21. الأمم تتصادم وتتحارب على قرن بينما الأحزاب تتخاصم أحيانا على عشرة أو خمس سنوات. معركة الشرق الأوسط هي معركة القرن. قرن الغاز والماء، لأن قرن النفط أوشك على النهاية. هنا توجد المسألة.

روسيا ليست قادمة لحماية العرب. ولكن علينا في لحظات معينة أن نتحالف مع قوى كبرى. وبقراءتنا للتاريخ، لم نر أمريكا قد تحالفت مع أي قوة تقدمية في العالم العربي. كانت دائما تتحالف مع الإسلاميين والظلاميين ومع الدول الإسلامية ومع المنظمات المشبوهة ومع المافيا ومع الأحزاب اليمينية ومع الدول الرجعية والقمعية. هي لم تتحالف مع أي نظرية اشتراكية أو مع نظام عدالة اجتماعية أو مع نظام تقدمي. ما هو النظام التقدمي الذي تحالفت معه أمريكا وأعطته فرصا للتطور أو مايزته أو تعاونت معه؟ روسيا هي من فعلت العكس. وهذا يجب أن نعترف به. هذه حيثيات التاريخ وكراسات التاريخ وما تقوله لنا. ففي كل مرحلة هناك دائما قوة رجعية وهناك قوة تقدمية. الأمريكان كانوا دائما يتحالفون مع القوى الرجعية في العالم العربي. وهذا هو امتحانهم العسير وامتحانهم الفاشل دائما حتى هذه اللحظة. حتى عندما أتوا إلى العراق كمحررين (طبعا هو مشروع كاذب)، أتوا «باسم تحرير الشيعة» ولم يأتوا باسم الديمقراطية. لقد أتوا لقلب الميزان الطائفي وبدأوا ذلك بضرب الدولة العراقية.. الآن نحن نتهم إيران بتحويل العالم السني إلى شيعي. هل علينا أن نصدق ذلك؟ نعرف أن إيران لديها 6 أو 7 مليون سني. فلماذا لم تحولهم إلى شيعة؟ وهي موجودة سياسيا في العراق منذ كم عام؟ فلماذا لم تحول سنة العراق إلى شيعة؟ كل دولة تتحرك بمحركاتها النفاثة القوية ومحركاتها الناعمة.. هل نحن تذكرنا اليوم أنه لدينا شيعة وسنة؟ هل الأمريكان هم من سيشرحون لنا من هم السنة ومن هم الشيعة؟ هل هم سيفسرون لنا أقوال الأيمة وماذا قال الرازي وماذا قال ابن تميمة وغيره؟.

أنا أجد هذا مسخرة على نخب سياسية لا تقرأ ولا تتعمق في قراءة تاريخها وتتناوله على أنه محاصصات ومناكبات ومقاولات. ها إننا نرى ما يحدث هنا وفي كل مكان من بلاد العرب. خذ مثلا ليبيا. فهي دولة كبيرة، دولة غنية، وبالنسبة لجغرافيتها هي دولة بلا سكان في الحساب الجيوبوليتيكي. دولة افتكها الغرب منا في رمشة عين بكذبة الديمقراطية. هي ليبيا لمن اليوم؟ ليبيا لم تكن لليبيين فقط، بل كانت لليبيين والمصريين والتونسيين والسودانيين. هؤلاء جيرانها. وهذا هو محيطها العربي. وهذا هو محيطها الأمني. هذا ما يسمى بالأمن القومي. وهذه هي الشعوب التي عليها أن تستفيد من ثروات ليبيا، وعلى ليبيا أن تستفيد من إمكانيات هذه الشعوب. جاء الغرب فأخذ ليبيا تحت أنظار التونسيين والمصريين. عندما دخل الأمريكان إلى العراق سموهم «لص بغداد»، فقاموا بأكبر عملية لصوصية في التاريخ. استحوذوا على أغنى بلد احتياطي نفطي باسم تعليم الديمقراطية. كيف تعلمني الديمقراطية؟ أنت تخرجني من بيتي من أجل الاستحواذ عليه وتعطيني لعبة ألعب بها في الشارع. ماهي هذه الديمقراطية؟ أنا في اعتقادي أن الديمقراطية عرفها الغرب عبر مسارين. المسار الأول، نأخذ مثلا أمريكا وأستراليا وكندا، هذه الدول الحديثة، أقيمت منذ البداية على المعادلة الديمقراطية. منذ البداية اختارت أمريكا الديمقراطية. أمريكا أنتجت عملية الوحدة مع الثورة الديمقراطية فكانت ثورة الشعب وثورة الدولة. فمستوى الديمقراطية والمساواة كان مستوى مهما وموجها ومعياري في السياسة الأمريكية منذ اليوم الأول. وهكذا أستراليا وهكذا إسرائيل وهكذا كندا. هذه الشعوب الحديثة ولدت في مناخ ديمقراطي، لم يكن لديهم غرابة مع الديمقراطية. يدافعون عنها ويرون أنها هي الحياة الطبيعية، وكل حياة أخرى هي غريبة عنهم. وهناك شعوب أخرى اخترعت الديمقراطية اختراعا واجترحتها اجتراحا من خلال المعاناة والمآسي والتجارب التاريخية مثل أوروبا. وهنا نرى المسار الثاني. أوروبا تذابحت خمسة قرون وخرجت إلى العالم لكي تذبح شعوب العالم الآخر ثم عادت لتتعلم دروس البشرية وتبني ديمقراطية لشعوبها ولكن ليس لشعوب أخرى أيضا. إذا هناك مساران للديمقراطية. نحن العالم العربي لم نعرف لا هذا المسار ولا هذا المسار. لقد أغرقونا في مغطس اصطناعي وقالوا لنا هذه هي الديمقراطية، بينما هذه ليست ديمقراطية.. الديمقراطية تخترع من الداخل وفي الداخل، ولا تأتي من الخارج وإلا فإنها ستصبح بضاعة سرعان ما سوف نستهلكها. الديمقراطية هي صناعة الثروة السياسية والروحية الأخرى لأي شعب!..

سفيان العرفاوي: أنت لخصت هذه الفوضى في الفصل الأول «العربي المريض» بقولك: «كانوا منذ حين يملكون أوطانا بلا ديمقراطية. وها هم الآن يقبلون بديمقراطية بلا أوطان».. هذه الحروب كما تبدو لي هي من أجل السيطرة على الثروات. يبدو أن هناك اللافتة الكبرى وهي: الإسلام ومحاولة الدفاع عن الإسلام، ومحاولة استثمار هذا النهم من طرف الشباب، ولكن في الظاهر هناك معركة كبيرة جدا حول الغاز الطبيعي الذي سيكون هو المعركة الحقيقية في العقود المقبلة.. لو تحاول أن تفصّل هذه اليافطة الكبرى، الإسلام والخلافة وغيرها، ثم إسأل عن شيء أعمق من ذلك هو: لو تحاول أن تضع

الخارطة أمامنا لنرى أن كل أماكن التوتر هي أماكن في علاقة مباشرة بالبترول. سواء في سوريا أو كما هو الحال في ليبيا أو في العراق أو حتى في شمال نيجيريا!

الصافي سعيد: الزعيم الكيني جومو كينياتا قال ذات مرة: «جاءنا المسيحيون وقالوا لنا سنعلمكم الصلاة، أخرجونا من بيوتنا وأوقفونا في الساحات العامة قبل أن تبنى الكنائس ثم قالوا لنا أغمضوا أعينكم لكي تروا الله. قال أغمضنا عيوننا لحين. ثم صاحوا فينا: حصة الصلاة قد انتهت. فتحنا عيوننا فلم نجد الأرض التي كنا نقف عليها. لقد علمونا الصلاة وأخذوا الأرض».. اليوم يقولون لنا: سنعلمكم الديمقراطية، وسنعطيكم الديمقراطية. الديمقراطية لا تعطى ولا تمنح. الديمقراطية تصنع من الداخل. الديمقراطية معركة أهلية، ثقافة أهلية.. الديمقراطية لا تمنح ولا تستورد. ولو كانوا صادقين في كلامهم لرأينا النتائج أفضل من الآن. لم يكونوا صادقين. لا توجد ديمقراطية جائعة تعيش. إذن الإسلام والديمقراطية هي عناوين للاستحواذ بها على ثروات العرب.. كيف دخل الاستعمار؟ دخل الاستعمار باسم التنوير والتحرير. الكتائب الاستعمارية الأولى التي دخلت من فرنسا ومن بريطانيا ذهبوا إلى شعوب أخرى وقالوا لهم سنحرركم وسننوركم. وآخر طبعة للاستعمار هي الطبعة الأمريكية للعراق. قالوا للعراقيين: سنحرر العراق وسنحرر ليبيا. ممن تحرر ليبيا أو العراق؟ يعني أن ليبيا إذا كان حاكمها مستبدا فلا بد أن تأتي قوة أخرى لتحررها منه. شعبها ماذا يفعل؟.. الديمقراطية هي صناعة وطنية وليست صناعة خارجية. ليس أنت أيها السيد القادم من وراء البحار من يصنع لي حاكما في كل مرة. اليوم المعركة بين العالمين الأوراسي والأمريكي الأطلسي في سوريا عنوانها: هل بشار الأسد ينحيه الغرب والخارج أو ينحيه شعبه؟. وفي النهاية فاز خيار الشعب. لقد اعترفوا أخيرا بأن شعبه هو الذي سينحيه. وهذه هي المعركة. إيران خاضت معركة القنبلة النووية ليس من أجل القنبلة النووية لأن قنبلة نووية إضافية لا تصنع شيئا في العالم. العالم يحتاج إلى قنبلة واحدة فقط لكي ينتهي. إيران تحدت العالم الغربي لكي تصنع المعرفة التي هي محتكرة من الغرب. اليوم المعركة في سوريا هي معكرة وطنية. من يصنع الرئيس؟ حتى ولو كان مستبدا. الأسد اليوم يحارب ضد تنظيمات إرهابية قام الغرب بتمويلها. وإذن هو يستحق البقاء لكي يبقى البلد ثم يذهب بطريقة أخرى يصنعها الشعب السوري. وهنا المعاني والرموز.

لماذا نحن دائما حين نعود إلى التاريخ نجد أنفسنا أمام حالة واقعية نعيشها يوميا؟ ولماذا حين نعيشها نجدها قد وجدت في التاريخ قبل قرن. أنا أتساءل ، هل النخب لا تقرأ أم لا تستوعب ما تقرأ؟..

هذا السؤال يتعلق بخليج سيرت حيث النفط والأنابيب والموانئ والإرهاب. طبعا كل منطقة غنية هي منطقة مستهدفة. واللصوص لا يأتون إلى المناطق الفقيرة.. اللصوص يأتون إلى أماكن فيها ثروات أو فيها أموال.. اليوم معركة سيرت عمرها قرنان وعشرون عاما. وقد بدأت منذ أول يوم خرج فيه الأمريكان إلى البحر الأبيض المتوسط في معركة افتتاح عصر التجارة الأمريكية. المعركة التي كنا نتحدث عنها هي التي فتحها ماهان

عبر اختراعه للمارينز. المارينز هي في الأساس السفن الحامية للسفن التجارية. وأينما توجد سفن المارينز توجد التجارة الأمريكية. فالعالم في النهاية هو تجارة. من الذي يستحوذ على التجارة؟ وفي كل موسم أو في كل زمن هناك تجارة. اليوم هناك تجارة النفط والغاز والطاقة والسلاح... عندما نحصي كم باع الأمريكان والروس والفرنسيون من أسلحة في هذا «الربيع العربي» نصاب بالدوار وفي نفس الوقت نفهم لماذا الغرب يحب هذا الربيع!..

سفيان العرفاوي: وأكبر المواسم التي عرفت ركودا في أسعار النفط؟

الصافي سعيد: لقد أفرغوا بنوكنا وصناديقنا من أجل شراء أسلحتهم. ثم استولوا على نفوط كثيرة بلا أموال. وهنا أصبحت البراميل رخيصة والصناديق فارغة. اليوم المعركة هي على الغاز أكثر من النفط.. أعود إلى سيرت.. قبل 220 عاما، جاء الأمريكان وقالوا: هذا ليس بحرا داخليا كما كانت تقول عائلة القراماللي الحاكمة في طرابلس. وهي عائلة وطنية مثل العائلة الحسينية في تونس وعائلة محمد علي باشا في مصر. ولأن سيرت منخفضة كثيرا في الجغرافيا الليبية، رسمت عائلة القراماللي خطا. هذا الخط لم يعترف به الأمريكان وقالوا أن هذا بحر دولي يجب أن نصطاد فيه ويجب أن نعبر منه ويجب أن نتحكم فيه جميعا. حدثت معركة وانتصر فيها آل قراماللي والحسينيون ودايات الجزائر. ومن هناك تأتي أسطورة (أننا نحن أول من كونوا علاقة تجارية أو وقعنا اتفاقيات أو اعترفنا بالاستقلال الأمريكي). في البداية كانت معركة مع الأمريكان (وبعد ذلك كل شمال إفريقيا اعترف بالاستقلال الأمريكي). المعركة كانت عسكرية، الجزائريون احتجزوا السفن والليبيون احتجزوا السفن ومنها سفينة فيلادلفيا وفيها حوالي 1000 أسيرا ودفع الأمريكان أموالا لكي يحرروا أسراهم. بعد ذلك رسمت الحدود واعتبرت «سرت» تابعة للدولة الليبية. وظلت «سرت» تابعة للدولة الليبية إلى سنة 1980. وحين جاء ريغن جدد المعركة مع ليبيا في عهد القذافي. وهنا فاز فيها أيضا القذافي بمساعدة روسية. وقد رسم الخط النهائي على أن «سيرت» هي أرض ليبية. والمياه الإقليمية تبدأ من ما بعد الخليج. إن خليج سرت هو أغنى خليج بالنفط في البحر الأبيض المتوسط، وهو أقرب خليج لداخل إفريقيا، وهو الخليج الوحيد الذي يلد فيه ويتوالد فيه سمك التونة في العالم كله ثم يتوزع على بقية البحار. ولذلك نجد أكبر حصة هي الحصة الليبية. وسمك التونة هو غذاء أساسي بالنسبة لليابانيين وللأمريكان وغيرهم.. وهذه هي أهمية خليج سرت.. اليوم كم من ميناء فقط لتعبئة البترول على خليج سرت؟ هذا القوس الذهبي والذي لا يبعد عنا كثيرا وفي بلد جار وشقيق لنا.

اليوم سرت سيطروا عليها ومنها يشترون نفط ليبيا بـ5 دولار. ثم تأتي بعدها لتسألني لماذا انخفض سعر النفط؟ النفط تراجع سعره لأسباب عديدة. أولا نفط العراق وليبيا وسوريا يباع في السوق السوداء بـ5دولار وبـ10 دولار. وبطبيعة الحال النفط الآخر ستنخفض أسعاره. ثم أن الأمريكان أصبحوا منتجين كبار لنفط الشيست. كذلك نفط

اليمن أيضا انخفض سعره وأصبح معروضا في السوق السوداء لتمويل الحرب!.. إذن كان لا بد أن يشعلوا حربا في كل دولة نفطية كي يستحوذون على سوق النفط..

سفيان العرفاوي: في هذا السياق أنت أيضا قلت كلمة مهمة وهي: «أن نظام دمشق لا يدافع من أجل الحكم فقط أو من أجل سوريا فقط، بل هو يقاتل بالنيابة عن الأمة العربية كلها». وهي من الكلمات المفاتيح في هذا الكتاب «جيوبوليتيك الدم».. كما ذكرت مسألة أهمية تأثير المناطق المشبعة بحقول النفط. وكما قلت في بداية هذا الكتاب «إما أن ينفجر الماء أو يتفجر الدم.. كما في السرد الإبراهيمي الأول. وفي السرد الإبراهيمي الثاني: فإما أن ينفجر النفط أو ينفجر الدم. الآن، لقد انفجر النفط وتفجر معه الدم».. وفي قراءة سريعة للمواقع التي يوجد فيها العديد من الأزمات والعديد من الحروب يبدو أنها مواقع غنية بالنفط. وهناك العديد من القوى الخارجية والمطامع التي تحاول أن تفتك هذه الأماكن. فهناك التدخل التركي كما فسرت ذلك في الكتاب والتدخل الفارسي والتدخل الإسرائيلي ثم هناك أيضا الولايات المتحدة الأمريكية. من ناحية أخرى هناك السعودية التي تشعر أنها مختنقة بجنوب اليمن الذي هو في حروب أهلية. وبالعراق وبثقله الشيعي. ثم إيران التي دخلت أو عادت هيكلة تطبيعها مع المجتمع الدولي. كيف نفهم هذه المجالات المتداخلة؟

الصافي سعيد: مناطق الدم هذه، هي مناطق الصراع على الثروات. وهي مناطق الغاز والنفوط والمياه. إنها مناطق المحروقات، وكذلك مناطق الشمس، لأن الشمس طاقة مستقبلية وطاقة الغد. عندما نتحدث عن صحراء الجزائر أو نتحدث عن شمال نيجيريا حيث بوكو حرام أو نتحدث عن معركة جنوب ليبيا والتشاد أو نتحدث عن ليبيا بشكل عام أو نتحدث عن سوريا والعراق حيث الأنبار الممتدة حتى الرقة وحيث بادية الشام المحاذية لصحراء العراق. هذه كلها مناطق نفط وغاز وشمس وأنهار. لأنها مناطق الثروات فهي مناطق صراع القرن الـ21. ببساطة، الغرب يقرأ ويبحث. الغرب يعلم كم لديك من احتياطي نفطي وأشياء أخرى كثيرة نحن نجهلها. الأتراك والفرس أيضا يقرأون ولديهم مفكرون. أنا قرأت دراسة عن النخبة الإيرانية التي تحكم منذ ثلاثين عاما. فوجدت معظمهم من خريجي ألمانيا. ومن اختصاص فلسفة. وأغلبهم لهم أطروحات فلسفية عن مدرسة فرانكفورت: عن هايدغر وعن هابرماس وغيرهم، وهم في نفس الوقت إسلاميون!. الإسلام هنا هوية أولى. أن تكون إسلاميا في إيران هو أن تكون بروتستانتيا مثلا في أمريكا. الأحزاب المسيحية حكمت أوروبا وبنت الديمقراطية في أوروبا، كالديمقراطي المسيحي الألماني أو الديمقراطي المسيحي الإيطالي. واليمين الذي بنا الديمقراطية في أوروبا هو يمين ديني من إسبانيا إلى آخر بلد في أوروبا. إذا الصراع هو صراع قومي وصراع أمم وهو صراع على السيطرة وعلى القوة. واليوم هم يعرفون أن شمال إفريقيا مخزن كبير للثروات. تتذكر حملة «وينو البترول» التي قام بها التونسيون قبل فترة. جاء من يقول لهم: لماذا تفتحوا علينا العيون؟. إذن إذا قلنا» لدينا بترول فهم سيأتون إلينا».. وفعلا هم سيأتون ولكنهم لن يأتوا من أجل البترول فقط لأنهم في الأصل هم مستحوذون

عليه. لأن «أين البترول في تونس؟» هو سؤال شرعي ومخيف لسلطة ضعيفة وغير وطنية. وسؤال يجب على كل سلطة وطنية اليوم أو بعد قرن أن تجيب عنه، لأن البترول موجود ونحن نتكلم أولا عن البترول الموجود والمباع. وزير طاقة يصرح «بأنه لا توجد عدادات» في آبارنا. هل هذا وزير في دولة تعد وطنية؟ عندما تركب سيارة أجرة ولا تجد بها عداد يصبح السائق مخالفا للقانون. أما بئر بترول ليس له عدادات، فهذا أمر عادي في دولة تقول عن نفسها ديمقراطية. أجيب: نحن الدولة الوحيدة التي بترولها غير مؤمم. كيف تبني دولة وطنية دون تأميم الثروات الوطنية؟ معركة التأميمات خاضها المكسيكيون وخاضها البرازيليون وخاضها الإيرانيون منذ سنة 1906. ثم خاضها الأفارقة والعرب بعد الخمسينات حتى السبعينات ودفعوا فيها أثمانا ودفعوا فيها ثورات وانتفاضات وانقلابات وقتل زعماء. يعني نحن نريد أن نأخذ بدون أن نعطي شيئا. وفي الواقع نحن لا نأخذ أي شيء. نحن دولة علمتها نخبتها الحاكمة روح التسول. في تونس لدينا روح تسول عظيمة جدا!. كل واحد يريد أن يقبض الثمن قبل أن يقدم أي شيء. ولذلك نحن منتجون كبار للإرهابيين. لدينا إرهابيون تونسيون وبائعو مخدرات في أوروبا كثيرون أيضا. وفي الإحصائيات هم الأغلبية سواء من بين المساجين أو في الشارع كبائعين بينما نحن شعب صغير. لماذا كل هذا ونحن شعب لا تنقصه الثروة ولا تنقصه الإمكانيات؟ رغم كل أزماتنا وكل معصياتنا وكل سرقاتنا، تونس بلد جميل وفيه مداخيل وفيه خيرات وفيه أموال. هناك من كان يقول «أحتار كيف لا تفلس تونس!». لأن تونس تعاقبت عليها حكومات كثيرة مختصة في السرقات وفي النهب وبدون محاسبة. ثلاث ثورات في تاريخ تونس الحديث ولا أحد حاسب الآخر. هل حاسب بورقيبة البايات عندما عزلهم؟ بل أخذ ثرواتهم ووزعها على عائلات أخرى جديدة. وهل حاسب بن علي، رجال بورقيبة عندما عزله؟ والآن عندما عزلوا بن علي هل حاسبوه؟ لم يحاسبوه. إذن إذا أنت لا تحاسب وكل الناس «فالتين من العقاب»، فإنك ستقول: حتى أنا سأرتكب نفس المعاصي ولن يحاسبني أو يعاقبني أحد! الإفلات من العقاب هو قانون في الأمم المتحدة، نحن نتبنى كل قوانين العالم بينما القانون الأساسي والحقيقي والواقعي والإنساني والطبيعي لا نتبناه.

ها هنا ندرك ما معنى أن العرب بلا قيادة. الفرس والأتراك والإسرائيليون كلهم لهم نخب علمية ونخب معرفية ونخب فلسفية ونخب قومية تعرف ما معنى القومية وتعرف ما معنى الأمة وما معنى المصلحة الوطنية. وما معنى الدولة. أما العرب فهم بلا رؤية وبلا قيادات.

سفيان العرفاوي: دكتور أيمن هل تتفاعل في ما كان يقوله الأستاذ الصافي؟!

أيمن البوغانمي: المسألة معقدة قليلا. لنتحدث عن مسألة علاقة النقمة بالنعمة. هذه العلاقة هي علاقة ارتباط بنيوي. بمعنى أن النقمة والنعمة هما نفس الشيء. أنت لديك النعمة وإن لم تكن لديك القدرات على أن تحميها وأن تطورها ستتحول إلى نقمة. والنفط العربي هو نعمة في الأصل. ولكن لأننا لم نستطع أن نبني دولة ولا نستطيع أن نبني دولا قوية، فقد أصبحنا أغنياء ولكن متسولين. الأستاذ الصافي تحدث عن منطق التسول. وأنا

أريد أن أتحدث على المنطق الريعي الذي يسيطر على اقتصادنا. نحن العرب لا نريد أن نشتغل ولا نريد أن نتطور ونريد أن نستغني. وذلك ما نصفه بالتسول. السياحة مثلا شكل من أشكال الريع، كذلك بيع النفط والغاز. أتساءل: إلى أي مدى سيصمد هذا الاقتصاد الريعي؟ ما دمنا لم ننتقل إلى اقتصاد يستخدم الإنسان والعقل البشري لتحقيق القيمة المضافة، فإن كل نعمنا ستتحول إلى نقم. هل هناك من يتجرأ على ثروات الدول الكبرى مثل كندا أو أمريكا؟ إنها ثروة محمية بدول قوية. وما دمنا نحن لم نحقق هذه القوة فلا نلومن غيرنا، لأن غيرنا ما انفك يتطور. يعني لو كنا نحن إمبراطورية لكان قلبها من ظلام. بمعنى لو كنا دولة قادرة على أن تغزو وأن تنتشر وأن تنشر إشعاعها نحو المحيط القريب والبعيد، لما ترددنا في ذلك، لأنه لو ترددنا لعاقبنا التاريخ، كما يقول الأستاذ الصافي. ثم لقد أعجبتني فكرة التمييز بين الذاكرة والتاريخ. فالذاكرة هي الماضي والتاريخ هو المستقبل. أنت حين تتعسف على الجغرافيا، حين تكون إمبراطورية كالولايات المتحدة الأمريكية ولا تتصرف بالمنطق الإمبراطوري سيعاقبك التاريخ. فأنا كعربي لا ألوم تركيا ولا ألوم إيران لأنهما استطاعتا أن تتحولا إلى قوة وسطى ترسل إشعاعها. فتركيا أصبحت تتحرك إقليميا، وكذلك إيران أصبحت تتحرك إقليميا. أنا لا أميل إلى الجلد الذاتي، سؤالي الذي أطرحه على الأستاذ الصافي سعيد هو: متى سنستطيع أن نبني القوة الذاتية التي تحمي نعمنا؟ وهل سيكون ذلك على مستوى قطري أو أنه يجب أن نجد صياغة أخرى خاصة أن الدولة القطرية أصبحت غير كافية؟ إلى ذلك أعجبتني المقارنة بين الاتحاد الأوروبي وإمبراطورية شارلماني. يعني كيف تحول الاتحاد الأوروبي إلى إمبراطورية جديدة. وهذا يعني أن الدولة «الوسيتفالية» قد أعيد صياغتها. وتكاد تكون تجاوزها الزمان. فالتاريخ الآن هو تاريخ ما يمكن التعبير عنه بتاريخ الإمبراطوريات الجديدة أو الدولة القروسطية الجديدة.

سفيان العرفاوي: فكرة جميلة جدا وسؤال مهم جدا يطرحه الدكتور أيمن. وهنا نأتي إلى مسألة اليمن الذي يعود إلى الانشطار ومسألة العراق وسوريا حيث تدار كل أنواع الحروب ومسألة السعودية التي تعيش مرحلة انتقال ضبابية ومسألة مصر التي ليس لها مشروع قومي كما كان في عهد جمال عبد الناصر ومسألة تونس التي مازلت بلا مشروع كبير ومسألة الجزائر التي تعيش تحت الضغط. هل هي أزمة قطرية أو مسألة موضوعية؟

الصافي سعيد: إن مشكلة العرب هي أنهم بلا مشروع وبلا قيادة. وعندما نقول أنهم بدون مشروع وبدون قيادة،، فيجب أن نسأل: من هي الدولة التي تستطيع أن تكون دولة قاعدية أو دولة محورية لكي يصبح حولها إجماع واعتراف؟ من هي الدولة العربية اليوم التي تستطيع أن تتكلم بقوة وبتوازن؟

طبعا هي الدولة التي تملك موقعا جغرافيا. وهي التي تملك ثروات. وهي التي تملك قدرات بشرية. وهي التي تملك إشعاعات أخرى دينية وثقافية وغيرها. هذا الشيء لا ينطبق على الجزائر عربيا (قد ينطبق عليها إقليميا، مناطقيا، مغاربيا بشكل نسبي).

ولا ينطبق على تونس، ولا ينطبق على ليبيا. وكان ينطبق على مصر ولكن لم يعد كذلك. والذي تصدى لهذا الدور القيادي لمصر لا تنطبق عليه كلمة قيادة لأنه بدون مشروع وبدون إجماع. اليوم قيادة العرب في يد من؟ هي في يد السعودية، أما دور مصر فقد تم الاستحواذ عليه. مصر هي التي يجب أن تكون في القيادة. الجغرافيا تعطيها هذه الميزة والديمغرافيا تمنحها هذه القدرة. كذلك الاختلاط والإشعاعات الدينية والثقافية. مصر مجتمع متعدد على الأقل دينيا. مصر فيها الشيعة والعرب والأمازيغ والمسيحيون والمسلمون. فيها الإسلام المتنور والإسلام الحديث. مصر لها علاقة بالحداثة الغربية منذ قرنين. مصر لها مشروع تنويري للإسلام. مصر في القرن التاسع عشر حاربت الدولة السعودية وقد ضربت الدولة السعودية الأولى المتطرفة، وهي التي حطمتها وأرجعتها إلى الصحراء. ثم عادت فاستيقظت هذه الدولة السعودية وأسست دولة سعودية أخرى في العشرينات من القرن الماضي. اليوم أين هو دور مصر الحداثي؟ لقد استبعد ووقع شراءه. نحن اليوم نشتري المواقف لكي نصنع قيادات شكلية ولكي نجلس على الطاولة ونتقاسم ثروات الأمة العربية ومستقبل الأمة العربية مع قوى أخرى أجنبية. لنصنع حربا مع إيران ثم نتحالف مع تركيا ومع الأمريكان وحتى مع إسرائيل ضد روسيا ثم نجلس معهم ونتقاسم مستقبل الأمة العربية بمشروع سعودي وهابي. وهذا هو الخطأ الذي نحن ذاهبون إليه مرة أخرى لمدة قرن آخر. ليس بمشروع عربي ولا بمشروع تثويري تحريري تنويري! إن الشارع العربي قام ضد حكم العائلات وحكم التوريث وحكم الرشاوي وحكم السرقات والاستبداد الديني، ولكن اليوم الشعوب العربية كلها تحت قيادة التطرف الديني لخوض معركة مستقبلية! إنها مفارقة مذهلة. هنا أيضا وقعت خيانة أخرى للتاريخ. عندما نقرأ التاريخ، نجد الذي تصدى إلى المشاريع الكبرى الخارجية هو الشام ومصر. وهذا ما وقع في الحروب الصليبية وفي حروب المغول. وقد حدث هذا حتى في ما يتعلق باستقبالنا لموجات الحداثة الأولى. كيف يمكن أن نقرأ الدولة فيزيائيا وجيوبوليتكيا؟ نتناول مثلا الجزائر أو ليبيا وسوف ترى ثرواتها أين وشعبها أين وبحارها أين وعلاقاتها مع من؟ هكذا نشرّح جثة الدولة. الدولة هي جسد. هي كائن حي قد يكبر وقد يشيخ وقد يموت. اليوم نجد أن كل الشعب الجزائري أو الليبي يوجد على سواحل البحر، بينما الثروات كلها في قلب الصحراء. بين البحر والصحراء أو بين الشعب والثروات 2000 كم وأكثر. يعني أنهم يستطيعون الاستحواذ على ثرواتك ويصلون إليها قبل أن تصل أنت. وهنا تكمن المشكلة. كل الأحزاب التي تحكم اليوم لا تعرف ما معنى جغرافيا-سياسية. لذلك أنا أقول لك أن الجغرافيا السياسية هي التي تصنع المستقبل، وهي التي تصنع الحكم الصحيح والحكم الرشيد أيضا. فإذا العرب هم بلا قيادة فلأن قيادتهم مضطربة ومفككة ومتطرفة. المشروع الذي يحاربه العرب هو مشروع متطرف. والذين يقودون العرب هم المتطرفون (دولا أو جماعات). وهذه هي المفارقة العجيبة الأخرى. اليوم التونسيون يجلبون 300 مليون من السعودية. مقابل ماذا؟ ولا أي تونسي سأل مقابل ماذا؟ وهذا لم يمرر إلى البرلمان. ما هي هذه الديمقراطية التي لا تناقش التحالفات الأجنبية؟ كيف

لدولة أن توقع تحالفا عسكريا مع دولة أخرى ولا يناقشها البرلمان؟ الديمقراطية تساوي صفرا في هذه الحالة. وهؤلاء النواب لا يستحقون أن ينوبوا الشعب التونسي. تحالفنا مع الحلف الستيني ومع الحلف الأطلسي ثم التحالف مع الحلف الإسلامي السعودي. هذه ثلاث تحالفات عسكرية أجنبية لم تناقش في البرلمان. ثم يقولون لدينا ديمقراطية؟ كيف هي هذه الديمقراطية؟ كيف دخل لنا الاستعمار في الماضي؟

سفيان العرفاوي: ربما لديك قراءة إستراتيجية في هذه المسألة! وهناك كلمة مهمة جدا وردت في الكتاب: «أن حكام دمشق لا يقاتلون من أجل الحكم فقط أومن أجل سوريا فقط، ولكن بالنيابة عن الأمة العربية جميعا وجنبا إلى جنب مع البديل الأوراسي الناشئ».

الصافي سعيد: إن مصير دمشق سيحدد مصير المنطقة برمتها من العراق إلى الجزائر مرورا بالخليج ومصر. وتبدو تركيا وإيران في سباق محموم مع الزمن للتأثير في التحولات على رقعة الشطرنج الإقليمي، وهما يستخدمان أدواتهما، بينما العالم العربي يبدو معلقا. ويبدو أن الشام وما تعيشه الآن هي التي ستحدد الخارطة المستقبلية للمنطقة.
إن الأعداء الذين يقاتلون في الشام، في ليبيا أو في العراق أو في لبنان هم أعداء متطرفون. وهم ما يسمّون «بداعش» أو «التنظيمات الإرهابية» أو ما يسمى أحيانا «بالإرهاب الإسلامي». عندما ينتقل الصراع إلى داخل سوريا بهذه الشراسة يصبح الصراع أيضا على الأمة العربية وعلى حكم الأمة العربية. صراع السعودية الوهابية مع الشام القومية صراع قديم ومتجدد. وهو يقع بين الإعجاب والنفور. إن الإسلام الذي جاء من الجزيرة لولا قدرات وتأثير الشام ما كان قد انطلق تلك الانطلاقة نحو جميع أرجاء العالم. إذن، الشام مهمة جدا في وعي الخليجيين وفي وعي العقل السياسي الجزيري (شبه الجزيرة العربية) لأنها هي بوابته نحو العالم الآخر (الغرب الأطلسي وكذلك الشرق). وهي من أعطت الدفق والدفع. (الشام والعراق). نحن نعرف الخلافتين العظيمتين الأموية والعباسية. ثم الخلافة الثالثة، الخلافة الفاطمية والتي انطلقت من تونس واستقرت في مصر وبلاد الشام. عندما انتقل الإسلام إلى الدولة العثمانية وأصبح يتكلم تركيا لا عربيا أصبح الإسلام أبكم وأصم، وأصبح الإسلام متلعثما وبدون ثقافة. إسلام لا يتكلم العربية هو إسلام متلعثم لا ينتج ثقافة أو علوما. اليوم في العالم العربي ثمة ثلاثة إسلامات. ثمة إسلام فارسي ولا أقول شيعي فهو مخضرم بثقافات فارسية فيها أفكار أخرى تمتد من الزرادتشية إلى المدرسة الشيعية بكل مثقلاتها ومتراكماتها القومية. وثمة إسلام عثماني وهو إسلام سياسي بامتياز وماركنتلي بامتياز. العثمانيون استعملوا الإسلام كي يستعمروا به فيينا وبلغاريا وغيرها من بلدان البلقان واستخدموا الإسلام في الاستبداد والبطش بالقوميات بما فيها العرب ولم يستخدموه في العلم. عندما كانت أوروبا تبحث عن الكواكب وتخترع المراصد والفيزياء، كانت الدولة العثمانية باسم الإسلام تحارب الشعوب وتستعمر العرب. لماذا تركيا لم تذهب إلى العلم في ذلك الوقت الذي ذهبت فيه أوروبا؟ وثمة إسلام آخر وهو ما يسمى الآن «بالإسلام العربي الرسمي» الذي تحتكره السعودية، وفي داخله الإسلام الوهابي المتطرف. وثمة إسلام

آخر في الهامش هو الإسلام الذي ندعي جميعنا أننا نحاربه، هو إسلام «داعش» وغيرها مع الملاحظة أن هناك تداخلا بين الإسلام الرسمي المحنط وإسلام الهامش المتطرف. السعودية ليست صادقة في حربها ضد داعش. مشروع داعش هو مشروع تركي بتحالف سعودي. فضاء داعش يفتح (كوريدور) من تركيا نحو السعودية على أراضي العراق وسوريا، وهو يستحوذ على مياه سوريا والعراق ويستحوذ على نفط سوريا والعراق وعلى شمس سوريا والعراق.. لكن السؤال الآن هو: متى السعودية ستستجيب للتغيير ؟ بالتأكيد حين تشعر بالخطر. واليوم ها هي تشعر بالخطر. لقد أدركت أنها محاصرة من الشمال ومن الجنوب. محاصرة من اليمن، محاصرة من سوريا والعراق، محاصرة من سيناء من الغرب. فسيناء المفخخة بالإرهاب هي أرض مهمة بالنسبة للحجاز وهي على بعد خطوتين من البحر الأحمر. لذلك عندما شعرت بهذا الخطر بدأت في هذه التحالفات العسكرية من أجل أن تدخل في مفاوضات. ولكن من هم حلفاؤها؟ حلفاؤها هم الأتراك والإسرائليون بامتياز وبدون أي منازع. وأنا قلت سابقا وذكرتها في الكتاب، أن إسرائيل هي التي ستساعد السعودية مستقبلا على بناء قوتها النووية!

سفيان العرفاوي: إذن العدو المشترك هو إيران!

الصافي سعيد: في نهاية الحساب العدو المشترك هو الأمة العربية! لأن قيادة العرب بين يدي تحالفات مشبوهة. هذا ما تفعله السعودية. ولكن السعودية نفسها عليها أن تجدد نفسها قبل أن تدخل إلى التفكك.. سوف نقبل بالقيادة السعودية إذا طورت خطابها ووجهت ثرواتها لخدمة التنمية العربية وذهبت نحو الديمقراطية، وعاملت شعوبها، شعوب الجزيرة العربية، بأمان وبطمأنينة وأدخلتها إلى البحبوحة. حينها سنكون معها.. إن الإسلام إسلام الجميع وليس إسلام بنو فلان أو بنو علان..

سفيان العرفاوي: تبدو السياسة الخارجية السعودية الآن مرتبكة وعنيفة نوعا ما. أستاذ الصافي لو نتقدم معك في هذه المسألة التي أعتقد أنها مفصلية. هل يمكن أن يكون صمود نظام دمشق بالتحالف الإيراني وبالدعم الروسي بارقة الأمل في المحافظة على ما تبقى من الدول العربية ولرسم خارطة إستراتيجية قد يكون فيها حدّ أدنى من القوة لهذه الأمة العربية؟

الصافي سعيد: أنا أقول أن «عصر الأخونة» في نهاياته، لأن كل العرب فهموا أن الصراع هو صراع قومي. يعني أنت لن تقنعني بأن إيران آتية لتشيّعني أنا كتونسي مثلا. فأنا من صدّرت لها الدولة الشيعية في نسختها الأولى، ليس لديها ما يقنعني بأن أصبح شيعيا. وأنا لن أراجع اليوم دفتر إسلامي وكم يزن إسلامي وكم يزن إيماني. ليست هذه هي مشكلتنا. هذه مشكلة مصطنعة تحكم وتوجه بها التلفزيونات والدول الرأي العام إلى جانب مهارات أخرى. الصراع الحقيقي هو صراع قومي. وعندما نقول صراع قومي نعني صراع أمم وصراع إرادات. من هو الأقوى؟ من الذي يهيمن؟ هل أنت حر أو غير حر؟ هل أنت تتمتع بثرواتك أو لا؟ هل أنت تمتلك السيادة لصناعة مصيرك أم لا؟ هذا هو

جوهر الصراع. السوريون والعراقيون يدركون ذلك بالسليقة والتجربة.. نحن عرب شمال إفريقيا لماذا لا نحس أنه هناك صراع قومي؟ لأن لا جيران لدينا من قوميات أخرى. الجزائريون والليبيون جيران للتونسيين وهكذا الليبيون مع المصريين. إخوتنا في المشرق والخليج يحسون بثقل الصراع القومي ويفهمونه أكثر منا وهناك من «يقومن» هذا الصراع كما هناك من «يؤسلم» هذا الصراع. إن حدودهم فارس وتركيا وإسرائيل. حدودهم ثلاثة إمبراطوريات أخرى أو ثلاثة قوميات أخرى حادة.. وعلى حدود مصر الجنوبية هناك أثيوبيا. وهؤلاء هم القوميات الأربع المتصارعة في المربع الكبير مع القومية العربية.. الأمريكان يفهمون جوهر الصراع وكذلك الروس.. الأمريكان لا يتحالفون إلا مع الدول الرجعية بينما الروس يتحالفون مع الحركات الشعبية أو مع دول كانت تسمي نفسها تقدمية أو مع الصف الوطني التقدمي. لقد تحالفوا مع صدام ومع بومدين وتحالفوا مع القذافي وتحالفوا مع بشار الأسد ومازالوا متحالفين معه إلى الآن.. كانوا متحالفين مع اليمن عندما كان هناك اليمن ديمقراطي... الروس كانوا دائما واضحين.. وقد كانوا شركاءنا في تحطيم الدولة العثمانية. فالدولة العثمانية كانت استعمارا ثقيلا على الأمة العربية. ومن الذي حطم الدولة العثمانية؟ العرب بثورتهم وكذلك الروس وشعوب البلقان. تركيا اليوم تحارب أيضا في هذا الفضاء. تريد أن تخلق أعداء لروسيا وتريد أن تكون قوية في البلقان وفي الشرق الأوسط. تركيا لا ترتفع إلا على جثث هذه الشعوب، جثث آسيا الصغرى والشرق الأوسط وبلدان البلقان (أوروبا الوسطى)..

سفيان العرفاوي: قراءتك للوضع في تونس أستاذ الصافي: هل النخبة السياسية الحاكمة والمعارضة لها الوعي الكافي بكل هذه المقتضيات وكل هذه المتغيرات؟ هل لها الأدوات للتحليل أو التشريح أم هي منشغلة بالمناكفات السياسية؟ أيضا رأيك في التحوير الحكومي والآفاق؟؟

الصافي سعيد: في ما يبدو لي عندما نتكلم عن الحكومة الحالية التي شكلت منذ 24 ساعة، أراها كحكومة puzle. كل قطعة بلون. وكل واحد من عالم. لكن ثمة تداخل بينهم. ولكن ما أهمية هذا puzle؟. أهميته هو أنه لعبة رياضية ذهنية نشاهدها ونستمتع بها فقط. من هم هؤلاء الوزراء؟ ومن أين أتوا؟ وما هو المشروع الذي يجمعهم؟ وما هي الفلسفة التي تجمعهم؟ وهل حكومتنا لها فلسفة أم لا؟ ما هي فلسفتها الإجتماعية وفلسفتها السياسية والمحلية والخارجية؟. أعتقد أنهم يركضون نحو أزمة خانقة. هؤلاء لا يصنعون إلا الغضب.. كانوا يتكلمون عن وزارة خارجية نائمة على الوسادة، فإذا بهم قد عينوا وزير خارجية لا ينكر أحدا أنه ينتمي إلى المدرسة الإسرائيلية.. (كان مدير مكتب العلاقات الخاصة في إسرائيل).. وفي ثورة 2011 عزلوه من وزارة الخارجية.. وأصبح متقاعدا بصفة إجبارية.. وقد أخبرني وزير من وزراء الترويكا كان يتوسط لديه ليقابل الرئيس المنصف المرزوقي من أجل أن يعتذر له لأنه كان مدير مصالح في إسرائيل.. واليوم ها هو يعود ليقود السياسة الخارجية. ما معنى هذا؟ لماذا أنا قلت أن إسرائيل والسعودية ستتحالفان؟ نحن الآن في حلف عسكري مع السعودية. ومن هنا قد نفهم

مسألة تعيين هذا الرجل.. هذه هي السياسة في تونس.. أنا لا أرى أن هناك فلسفة ولا مشروع لهذه الدولة التونسية. وكما قلت منذ البداية مازالوا يتكلمون عن بورقيبة.. بورقيبة في أي لحظة؟ لا نعرف.. يا ليتهم يتكلمون عن ما بعد بورقيبة..

سفيان العرفاوي: هل هي مسألة اعتباطية أو مسألة مخطط لها من طرف قوى داخلية أو خارجية؟

الصافي سعيد: هي مسألة مركبة.. مسألة مركانتلية على الطريقة التونسية.. ومسألة استسهالية.. مسألة نقص في الثقافة وفي التكوين.. المفكرون في تونس مغلقة عليهم الأبواب.. وأنا أقول للتونسيين: سهل جدا أن تصبح وزيرا في هذه البلاد، وهو ما يعرفه الكثير من التونسيين. يكفي أن تنتمي إلى حزب ويكون لك القليل من المال وبعض الصداقات النسائية وتدق الأبواب صباحا مساء إلى أن يفتح لك. فإذا أنت لا تمل من دق الأبواب ستصبح وزيرا.. من هو الوزير الناجح ومن هو الوزير الفاشل؟ إنها تقييمات اعتباطية.. إذا كان الوزير يزور 5 مدارس في اليوم. فهو وزير ناجح. ماذا فعلت للتعليم أيها الوزير؟ هل المطلوب منك زيارة المدارس التي ليس بها أبواب أو مراحيض أو معلمين أم المطلوب هو تثوير وإصلاح التعليم؟ وما معنى هذه الزيارات الفجئية؟ ألازلنا نعيش في ذلك العصر الستاليني القديم؟ أنا قلت ذات مرة أن الواحد عندما يكون عائدا للمنزل يتصل بزوجته مسبقا على الأقل ثلاث مرات.. الم يحن الوقت للكف عن هذه الخزعبلات! على التونسيين أن يسألوا وزير تعليمهم مثلا: ماذا فعلت للمدرسين؟ ماذا فعلت للتعليم؟ ماذا أدخلت من برامج جديدة؟ ماذا صنعت باللغات؟ كيف استفدت من برامج أخرى؟ هل أتيت بتعليم جديد وببرامج من الخارج؟ لماذا نستورد الكوكا كولا والسيارات والأدوية ولا نستورد الكليات؟ وإذا نجحنا في معركة التعليم فإننا سننجح في المعركة التي خاضتها إيران مع الغرب. هذه هي معركة إيران ومعركة الأمم الصاعدة القوية. أنا لست عدوّ الإيرانيين والروس على الطريقة العربية العنصرية! الإيرانيون لديهم مشروعهم. وقد ينجحون وقد يضربون في منتصف الطريق. وقد يخسرون. ليست كل المجالات مفتوحة أمامهم. بوتين نفسه قد يخسر رغم قوته وجبروته وعنفوانه.. إنهم يكونون ضده تحالفات من أجل أن يذلوه. ويريدون أن نكون معهم في هذه الحرب القذرة ولا نشاركهم في الثروة!..

فهرس الكتاب

العناويـــن	الصفحات

مقدمة 07

1 - العربي المريض

الوهم والتاريخ.. والوعد 17

2 - الإرهاب المعولم

الفوضى والفراغ .. والسرطنة 83

3 - الجغرافيا المتصدعة

خطوط النفط والدم! 163

4 - التاريخ الأسير

بلا سيادة، ولا سرد، ولا ظفر 249

5 - حرب الجيوبولتيك

المجالات، الإيقاعات.. والاتجاهات 375

حوارات مع الكاتب عن : كتاب «جيوبوليتيك الدم»

- حوار مع قناة الحوار التونسي 461

- حوار مع إذاعة تونس الثقافية 471

جيوبوليتيك الدّم
التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

الطبعة الثانية: تونس - جانفي 2016
الطبعة الأولى: تونس - بداية أكتوبر 2015

الناشر:
شركة سوتيميديا SOTUMEDIAS

SOTUMEDIAS

المقر الرئيسي:
85 شارع بالفي– تونس
صندوق بريد: 570 تونس حشاد
تونس 1049
الهاتف: 31400756 (00216) الجوال: 97126757 (00216)
الفاكس: 32400756 (00216)
البريد الإلكتروني:
contact@sotumedias.tn

ر.د.م.ك:
978-9938-918-00-7

منشورات سوتيميديا

الطباعة:
المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب - تونس
لحساب شركة سوتيميديا

المؤلف: الصافي سعيد

• **الصافي سعيد** (61 عاما) كان مرشحا للانتخابات الرئاسية 2014،
وذلك كتتويج لمسيرة مهنية، سياسية وفكرية بداية من صفوف اليسار العربي والدولي إلى الصحافة وصولا إلى الكتابة في مجال المستقبليات التي طبّقها على تونس في رؤيته الإستراتيجية «المعادلة التونسية: كيف نصنع المستقبل؟».

• بدأ ظهور الصافي سعيد الإعلامي بعد الثورة. كان خطابه متفردا حيث تتداخل فيه فضاءات السياسة والثقافة والعلاقات الدولية والرؤى الإستراتيجية.

• لقيت آراؤه الكثير من التقبل الجماهيري حيث تميز بلغته النابضة وتوضيح مسارات المرحلة الانتقالية للتونسيين، فإنتقد مغالطات السياسيين وكواليسهم محافظا على استقلاليته وخطه السياسي النقدي، الممنهج والبناء.

• يعتبر الصافي سعيد من صناع الرأي في تونس والوطن العربي. وكثيرا ما ظهر في وسائل الإعلام التونسية أو العربية لإبداء رأيه في الشؤون الدولية، نظرا لتمكنه من أدوات التحليل السياسي إذ يقف على أرضية صلبة باعتبار مسيرته السياسية والصحفية الطويلة واقترابه من مواقع القرار.

• كان أول من أطلق تعبير «الربيع العربي» منذ جانفي 2011 الذي كان قد تعرض له في أحد كتبه: «خريف العرب» (2005)، وهو الكتاب الضخم والموسوعي الذي عرض فيه موهبته في التحليل والقراءة لتاريخ العرب السياسي المعاصر خلال القرن العشرين.

• عرف والتقى الصافي سعيد خلال مسيرته الصحفية والسياسية بزعماء وقادة عرب وأجانب، مثل القذافي، عرفات، بن بلة، اليوسفي، أورتيغا، أوتيلو دي كالفالهو، شافيز، سنغور، سيكوتوري، أجاويد، وغيرهم..

• للصافي سعيد أكثر من 17 مؤلفا تبحث في التاريخ والعلاقات الدولية والمذكرات والمستقبليات منها:

- مثلث الشياطين الاستوائي،
- بن بلة يتكلم (مذكرات)،
- العتبات المدنسة في الشرق الأوسط،
- سنوات المتاهة في القرن الحادي والعشرين،
- عودة الزمن الإمبراطوري،
- الحمى 42: لا أنبياء ولا شياطين،
- بورقيبة سيرة شبه محرمة،
- المضاد الحيوي: مخاضات بين زمنين،
- خريف العرب: البئر والصومعة والجنرال،
- المعادلة التونسية: كيف نصنع المستقبل؟،
- جدل ما بعد الثورة..

من رواياته:

- كازينو+
- حدائق الله
- سنوات البروستاتا
- الإغواء الملكي

• أصدر الصافي سعيد عددا من المجلات في بيروت وباريس ثم تونس. مثل: «وعي الضرورة»، «الرواق4»، «أفريكانا»، «جيوعرابيا»، «جون أفريك بالعربية» و«عرابيا» التي ظهرت بعد الثورة في شكل صحيفة أسبوعية.

• أخر كتاب له: «المعادلة التونسية» الذي وضع فيه تصوراته حول تونس المستقبل في رؤية إستراتيجية تمتد من 25 إلى 30 عاما، وينطلق من تشخيص لواقعها وتاريخها ووضعها الجيوسياسي لصناعة مستقبل أكثر إشراقا.

الصافي سعيد

جيوبوليتيك الدّم

التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

منشورات
سوتيميديا

هذا الكتاب

ببساطة، لو أن أمريكا لم تتحد، لاستمرت الحرب الأهلية في عموم ولاياتها إلى هذه اللحظة. انتقل كل العنف إلى الخارج وأصبح طاقة لبناء الإمبراطورية. وها هي تحارب في الخارج منذ نحو قرنين، وليس أمامها من خيار إلا أن تحارب. ففي اللحظة التي ستتوقف فيها حروب الإمبراطورية في الخارج، ستعود نذر الحرب تخيم على أمريكا في الداخل.. آنذاك ستتصدع الإمبراطورية ويسخر التاريخ من الذين جعلوا منه مذابح وذبائح لتطهير الذنوب والدنس. ليست هذه رؤيا، إنها قانون التاريخ العنيد والماكر.

وكانت أوروبا قد تقاتلت طويلا.. ولم يوجد أوروبي واحد لم يذبح أوروبيا آخر. دعاهم فلاسفتهم إلى الخروج من أوروبا الممزقة والضيقة، فانتقل معهم العنف والطغيان إلى بلاد العالم. بعد قرنين أو أكثر، عاد الأوروبيون إلى أوروبا منهكين ولكن مثقلين بالتجارب والدروس ليختاروا «السلام» ثم الاتحاد.. ومع ذلك فهم لازالوا تحت إغواء العنف والحرب.

وإذن ما سبب كل هذا الدم في البلاد العربية؟!

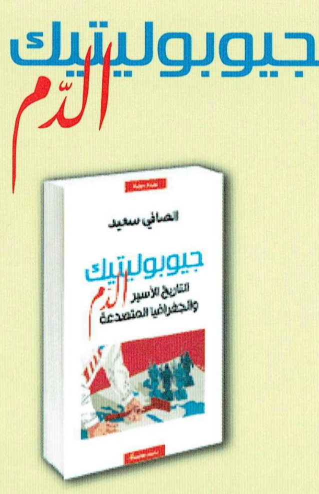
لا سبب وجيه، سوى أننا غير متحدين. فشلنا في بناء الدولة/الأمة، فأصبحنا عدة دول تتقاتل داخل أمة واحدة بلا هدف وبلا سبب. سوف يطول زمن القتال والتقاتل، وسيعمّ عبر مجالات كثيرة وإيقاعات وموجات متعددة.. ولن يكون أي «سلام» إلا طارئا، مؤقتا ومغشوشا. فالسلام الكبير للعرب يوجد في اتحادهم، وفي صناعة مجالهم الجيوبولتيكي الحرّ والحيوي.

ينتهي القتال الأهلي حين يلوح للعرب هدف كبير: تحرير «تاريخهم» من الأسر وتحصين جغرافيتهم من التصدّع. نعم بتلك البساطة دون إنشاء أو لف أو دوران أو مصطلحات مبهمة وخطب مغشوشة وشوفينيات معكرة للمناخ والمزاج!.. فحتى هذه اللحظة لم يكن تاريخ العرب إلا تاريخ هروب من مواجهة التاريخ. إنه لايزال أسيرًا، بلا سيادة ولا سرد ولا ظفر!..

باختصار، ثمة عالم قد انهار بقوالبه ومفاهيمه وسياساته. وثمة عالم آخر لم يظهر بعد في المنطقة العربية. ولكن من المفيد أن نقول كذلك أن العالم الذي انهار لم ينهار كله وأن العالم الذي سيولد لم يظهر منه إلا القليل..

ولنسجل منذ الآن أن حرب المجالات الجيوبولتيكية توشك أن تتحول إلى حرب عالمية ثالثة!..

الصافي سعيد



التاريخ الأسير والجغرافيا المتصدعة

السعر: 30 دينار تونسي


9 789938 918007

